

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مقترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

مركز الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١١٥ شارع محمد علي

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ

بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر

فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

مركز الطباعة والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١١٥ شارع مصطفى

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
« وقل رب زدنی علما »

الكتاب التالي :

دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا
وموقفها من أهل الذمة .

شعارنا :

التفائلة تمنحني في مسيرتها ، شوطاً بعد شوط ،
ونترك وراءنا العجزة الحقةدة يتكتلون ويتآمرون .
« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .
صدق الله العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفياؤه .

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب ، في دراسة علمية موضوعية محايدة ، تاريخ الدولة العثمانية من بعض جوانبها . وكنت قد تناولت في مؤلف سابق بعض المعالم البارزة في تاريخها السياسي منذ قيامها حتى فتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩ (١) . وعلى مبلغ علمي لم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها . وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عانيتان ، هما : الاستعمار الأوروبي والصهيونية . واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) ، والتصريحات الرسمية ومن مجموعات الوثائق التي نشرت بها بعض الحكومات الأوروبية مجالاً رحيباً لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملاً عليها . وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معاً في مؤلفاتهم . واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقترن ذكرها في أفئدتهم بمظالم وعن تكديست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تعسفية وجزافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم ومحاصيلهم وماشيتهم ، ومن تخلف ، ومن إجراء مذابح عامة ، ومن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمرض . وغفل أولئك المتحاملون عن الخدمات التي أسدتها الدولة لولاياتها العربية بوجه خاص ، وهي خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها . وتناسوا أيضاً أن الدولة العثمانية واجهت أخطاراً دولية جسيمة كانت تهدد

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . الناشر دار

العالم العربي بأفدح الأخطار . وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية وتسلمهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلائهم على مواقع عسكرية هامة ومحاولاتهم المكرورة دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبي للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ثم موالة الزحف على المدينة المنورة لنبيش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالي لشرقي الجزيرة العربية هو أول غزو أوروبي عسكري صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية . وكان شعاره « الصليب أو المدفع » .

لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الإسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، وهي أقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، وداقظت في أيديها دول أوروبية عديدة . وامتأأت قلوب الحكومات والشعوب الأوروبية فزعا وهلعاً من هذه الدولة الإسلامية الطارئة عليها في عقر دارها . وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوروبا لتكتلات صليبية دولية تنادت إليها البابوية في روما وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . وفي بعض الأحيان تبادلت الدولة مع أعدائها الهزائم والانتصارات . ولم تترك الدول الأوروبية للدولة فرصة لالتقاط أنفاسها . وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قواتها البرية والبحرية وتستأنف مسيرتها المظفرة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد عايشت الزمان أكثر من ستة قرون فإن إمبراطورية نابليون الأول لم تعمر أكثر من أحد عشر عاماً منذ تنويجه إمبراطوراً (١٨٠٤ - ١٨١٥) ثم انهارت هذه الإمبراطورية إلى مغيب عقب هزيمته في معركة وترلو Waterloo في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٥ أمام القائد الإنجليزي ولنجتون والقائد الرومسي بلوخر Blucher ، وكذلك الإمبراطورية الثانية La Seconde Empire ، فقد انهارت هي الأخرى ، وأصبحت هباء

منبتاً بعد ثمانية عشر عاماً (١٨٥٢ - ١٨٧٠) عقب هزيمته في معركة سيدان Sedan في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ . وتسلسل نابليون الثالث مع قلة من خالصائه لوأذاً إلى البحر قاصدين إنجلترا المنفى التقليدي لحكام فرنسا . ومع ذلك حرص المؤرخون الأوروبيون على إحاطة تاريخ هذين العاهلين بهالات من المفاخر والمجد في الوقت الذي نعتوا السلطان العثماني بأنه « السلطان المسلم الجاهل المتبربر المستغرق في ملذاته مع حواريه الفاتنات » . والحق أن وصف الدولة العثمانية بأنها « دولة إسلامية مفترى عليها » هو أصدق قبلاً من أى وصف آخر .

وإذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله الافتراءات والأباطيل ، فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب . فلكل دولة مزايا تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها . وليس من الدراسة الموضوعية ولا من الأخلاق إغفال المزايا لأى دولة والاقتصار على تسجيل عيوبها ، بل يجب عرض الجانبيين معاً . ولم تغفل هذه الدراسة عن ذكرهما تمشياً مع مناهج البحث التاريخي .

وقد شملت هذه الدراسة جوانب مكثفة وعديدة من التاريخ الحديث والمعاصر في الشرق والغرب والتاريخ الإسلامى في العصور الوسطى والنظريات والنظم والعلوم السياسية والقانون الدولى العام والعلاقات الدولية ، فضلاً عن قواعد الشريعة الإسلامية من حيث عمليات الخصاء بنوعها ، وتعدد الزوجات ، واقتناء الجوارى وإنسال سلاطين الدولة العثمانية منهن وتغير الوضع القانونى لهؤلاء الجوارى بعد الإنجاب منهن وأنواع الفرش التى حددتها الشريعة الغراء من فراش قوى وفراش متوسط وفراش ضعيف وما إلى ذلك من دراسات تطلبها معالجة هذه الموضوعات وغيرها .

ومن حقى أن أذكر أنى كتبت معظم فصول هذا الكتاب وأنا اجتاز ظروفاً صحية بالغة الخطورة : وكان قيامى بهذا العمل نوعاً من المغامرة بحياتى ، إذ كنت ممنوعاً من بذل أى مجهود عقلى . وكان مطلوباً منى أن أعيش فى حالة استرخاء ذهنى كامل . وكان مما قض مضجعى أن يدركنى الموت قبل

أن أفرغ من وضع هذا الكتاب . وشاء الله سبحانه وتعالى أن تسعني رحمته ، فأعاني على اجتياز هذه الفترة الصحية العصبية ، وعلى أن أمضي قدماً في استكمال الكتاب . ولهذا استغرق وضع الكتاب وطبعه سنين عددا .

وكانت الخطة التي وضعتها أول الأمر لهذه الدراسة تشمل ، فيما تشمل عليه ، سبعة فصول عن الدور الذي قامت به الدولة العثمانية في نشر الإسلام في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، ثم موقف الدولة من أهل الدمة، ولكني رأيت أن أكتفي بهذا القدر من الكتاب، وأن أفرد لهذين الموضوعين دراسة إضافية ومستقلة ستظهر في قابل الأيام وفي وقت قريب بإذن الله، لأن مادتها العلمية مخزنة في ذهني . وشرعت فعلا في كتابة بعض فصول الكتاب الجديد .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ . د

عبد العزيز محمد الشناوي

غرة رجب عام ١٣٩٨
السابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٧٨
مصر الجديدة في

الفصل الأول

الدولة العثمانية

بعيدا عن حملات التشهير بها

الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا :

تشغل الدولة العثمانية حيزاً كبيراً للغاية في التاريخ - سواء تاريخ العالم الإسلامي أو تاريخ العالم الأوروبي المسيحي : امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هي : آسيا وأوروبا وإفريقية . وغدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية . وكانت جيوشها أكثر الجيوش الأوروبية تعداداً وأحسنها تدريباً وأعظمها تسليحاً وأكملها تنظيمياً . عبرت جيوشها البحر من الأناضول إلى أوروبا عام ١٣٥٦ على عهد السلطان أورخان ثاني السلاطين العثمانيين ومضت في زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية واستولت على بلاد اليونان بما فيها شبه جزيرة المورة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والصرب ، والمجر ، وترنسلفانيا ، والبوسنة والهرسك وألمانيا ، والجبل الأسود . ومضت جيوشها في زحفها حتى بلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا في أواسط أوروبا . فكانت الدولة العثمانية هي أول دولة إسلامية في التاريخ الأوروبي تصل بقواتها الجرارة إلى هذه الأراضي الأوروبية . وكان الوجود الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - في هذه الأقاليم الأوروبية حقيقة واقعة لا مراء فيها . وقامت الدولة بدور هام في نشر الإسلام في أصقاع شتى من هذه الأقاليم الأوروبية . ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام طوعاً منذ وقت مبكر يرجع إلى حكم عثمان مؤسس الدولة العثمانية . وغدا الإسلام عقيدة دينية رسمية لهم (١) .

(١) أنظر في هذه الدراسة ص ٣٦-٣٨ .

وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامي أولاً ، ثم إلى السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثاً (١) وكانت روح الجهاد الديني غالبية في إسلام العثمانيين . وازدادت قوة وصلابة عندما استقروا في الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك في هذا الإقليم . واحتفظوا بهذه الروح في مسيرتهم الحربية في أوروبا . فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين ، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح . وازدادت الروح الدينية الحربية تأججاً في نفوس العثمانيين عند ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت عديد الدول الأوروبية . وكانت البابوية في روما تتنادى إلى هذه التكتلات . وكان الحركة الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت ميادينها إلى أوروبا . ولكن شتان بين الحركتين : فالصليبيون في أوروبا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت في وجه الصليبية الأوروبية صفاً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً . ولم تجد الحركة الصليبية في أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتيت وحدة الصف الإسلامي العثماني . فكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية في معظم المعارك الضارية التي نشبت بين الفريقين . وكانت الدولة العثمانية تروم تحويل « دار الحرب » إلى « دار الإسلام » . وسار في أثر القوات الإسلامية العثمانية القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة (٢) ، وذهب في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر . وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام في أوروبا . وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواء في الأناضول أو في أوروبا بنشر الإسلام . وقد انتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً في بعض الأقاليم ، وانتشر انتشاراً وثيداً في أقاليم أوروبية

(١) Lewis Bernard; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition. London, 1968, p. 2. ١

(٢) انظر : هذه الدراسة ص ص ٢٩٦ - ٤٥٣

أخرى . وغدت العواصم التي اتخذتها الدولة العثمانية تبعاً وهي : قونية ، بروسه ، وأدرنة ، وإستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية : وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة وأثرياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتدريس علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ، وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم . كما أقاموا العديد من التكايا والأسبلة والخانقوات (١) والحمامات العامة . وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للاتفاق من ريعها على تلك المؤسسات الدينية والخيرية .

أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :

وقد عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة أسماء . ففي عصورها الأولى أطلق العثمانيون عليها « دولت عليه » أي الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها « سلطنت سنیه » أي السلطنة السنیه ، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وإفريقية « إمبراطور لق عثمانلی » أي الإمبراطورية العثمانية . وعرفت أيضاً باسم « دولت عثمانلی » أي الدولة العثمانية . وارتاح العثمانيون للاسمين الأخيرين لاحتواء كل منهما على لقب عثمانلی (٢) ، إذ كانوا يعتزون بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة ، وهو الذي سميت باسمه الدولة والأمة ، ويرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم الغازي (٣) والمتكشف في حياته الخاصة : ويذكرون عنه أنه لم يترك عندما جاز إلى ربه سوى ثوبين وفرنس (٤) . ويتضح من هذا العرض أن استخدام كلمات تركيا وأترك وتركي وهي امصطلحات وردت من أوروبا بمعنى الدولة العثمانية والعثمانيين والعثماني بعيد عن الدقة في الصياغة اللفظية حتى أوائل القرن العشرين . أما كلمتا

(١) خانقوات أو خوانات . مفردهما خانقاه . ومعناها الدار التي يظفر فيها الصوفية للعبادة والذكر وتلاوة الأوراد . والخوانات غير الخوانات التي تعني المرض المسى الذبحة .

(٢) الصفة من اسم عثمان في اللغة التركية « عثمانلی » ، وفي اللغة العربية « عثمانی » .

(٣) الغازي كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية بمعنى المجاهد .

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني . أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها .

تركي وأتراك فقد كان العثمانيون يطلقون هاتين اللفظتين على الأجناس التركية المختلفة في نظرهم والتي كانت تقطن في آسيا ، مثل السلاجقة والتركمان والأوزبك (١) Euzbegs فكان العثمانيون يتمسكون بكلمتي « عثماني » و « عثمانيين » لقباً مميزاً لم تعبيراً عن اعتزازهم بانتمائهم إلى عثمان الأول من ناحية ، واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المتبربرة في نظرهم (٢) Les Barbares asiatiques de race turque من ناحية أخرى .

وبعض العصور والأجيال والأحقاب استخدم العثمانيون حتى أوائل القرن العشرين كلمتي تركي وأتراك في معنى ينبثق عن الاستعلاء الذي كان سمة بارزة في أخلاقهم . فكانوا يطلقون لفظة تركي على الفلاح العثماني الجاهل أو أحد سكان قرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف (٣) تهكماً عليه ، أو تحقيراً له ، أو مخزية به . وقد ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك ، إذ كان إطلاق كلمة تركي على أحد العثمانيين المقيمين في العاصمة أو في إحدى المدن العثمانية يعتبر إهانة له (٤) ، على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها في جميع العصور التاريخية اللغة التركية (٥) .

Lavisse Ernest et Rambaud Alfred; Histoire Générale du (١)
Quatrième Siècle à Nos Jours. 12 Tomes. Paris. t. v, 3 ème édition,
1922, p. 886.

Loc. cit. (٢)

(٣) الجلف بكسر الجيم وسكون اللام . جمعها أجلاف ، على وزن حمل وأمال . وهي مأخوذة من أجلاف الشاة ، وهي السلوغة بلا رأس ولا قوائم ولا بطن . وكان العرب يطلقون كلمة جلف على الشخص الفظ الثرس غليظ القلب الذي لم يكتسب أخلاق أهل الحضرة في رقتهم ولين طباعهم ودمائة أخلاقهم . فإذا تخلق مثل هذا الشخص بسلوكهم الاجتماعي الممتاز فكأنه نزع جلده وليس غيره .

Lewis Bernard; op. cit., pp. 1—2, f.n. No 1, p. 2. (٤)

(٥) يخرج بعض المؤرخين على هذا التعميم ، فيذكرون حين يتكلمون عن اللغة التركية عبارة « اللغة التركية العثمانية » .

ويحدد أحد المؤرخين الحرب العثمانية اليونانية التي اشتعلت في عام ١٨٩٧^(١) تاريخاً تغير فيه تغيراً تاماً مادلول كلمات تركيا وأترك وتركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي^(٢) ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك بمناسبة هذه الحرب جاء فيها .
« بن بر تورگم حنم اولو در »^(٣) .

ومعناها « أنا تركي ، ديني وجنسي من أعظم الأديان والأجناس » . ولا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمني ، لأن الحالة التي تكلم عنها مينورسكي Minorsky تعد من الحالات النادرة والشخصية . أما التحديد الرسمي والقانوني والدولي لاستخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث فهو عام ١٩٢٣ حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا . وكان الباعث لمصطفى كمال أتاتورك وزعيم الحركة الكيالية وأول رئيس للجمهورية التركية على استخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث هو الابتعاد بشعبه عن الخط الإسلامي للدولة ونبذ تقاليدها وتغيير حياتها الثقافية والاجتماعية وتشريعها الإسلامية ونظمها السياسية ، وازدياد الاقتراب من أوروبا في حركة عبور لشعب تركي يجتاز حدود بلاده لاستبدال حضارة أوروبية جديدة بحضارة إسلامية كانت تطبع حياة الدولة وشعبها بطابع إسلامي مسيطر وبارز .

(١) تسمى هذه الحرب حرب الثلاثين يوماً ، لأنها امتدت قرابة شهر ، إذ أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الحرب في السابع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٩٧ ، تم أعلنت الهدنة في التاسع عشر من شهر مايو - آيار - عقب تدخل الدول الكبرى . وأبرمت معاهدة الآستانة في اليوم الرابع من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٨٩٧ ، ونصت على أن تجلو القوات العثمانية عن إقليم ثيساليا Thessaly ماعدا قرية واحدة وبعض مواقع إستراتيجية . واستولت اليونان على هذا الإقليم للمرة الثانية .

انظر أسباب الحرب وملابساتها ونصوص معاهدة الآستانة في :

* Miller W.; The Ottoman Empire and its Successors 1801—1927.

London, 1927, pp. 435—438.

Minorsky V.; Encycl. of Islam Art. Turan. (٢)

Loc. Cit. (٣)

Lewis B.; qq: 333—343. وأنظر تفصيلات أوفى عن هذا الموضوع كتبها الأستاذ

نظرة الأوروبيين إلى الدولة العثمانية :

ونظر الأوروبيون إلى الفتوح العثمانية في أوروبا على أنها فتوح إسلامية . ووقر في أذهانهم أن أى نصر عسكري تحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية . فباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثانى عام ١٤٥٣ القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته . واستبدل اسماً جديداً هو إستانبول^(١) ، ومعناها دار الإسلام ، باسمها القديم وهو القسطنطينية . وأطلق على هذا السلطان « محمد أبو الفتوح » أحياناً ، و « محمد الفاتح » أحياناً أخرى . وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً هو الاستيلاء على روما مقر البابوية . ونزلت القوات الإسلامية العثمانية في أوترانت Otrante في مملكة نابولى عام ١٤٨٠ ، وأسرت أحد عشر ألفاً من سكانها ، واعتزم محمد أبو الفتوح أن يتخذ من أوترانت قاعدة يزحف منها شمالاً في شبه جزيرة إيطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدم الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما . ولكن عاجلته المنية في اليوم الثانى من شهر مايو - آيار - عام ١٤٨١ ، وتنفست أوروبا الصعداء حين علمت بوفاته ، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر *Te Deum* ثلاثة أيام . وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان المشرع على بلغراد ثم جزيرة رودس ، وكانت معقلاً لطائفة فرسان القديس يوحنا ، ثم دخل بودابست عاصمة المجر . وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالي إفريقيا في الصراع الصليبي الذى احتدم بينهم وبين الإسبانين والبرتغاليين الذين أرادوا احتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية .

(١) يرد اسمها في صيغ مختلفة هي :

إستانبول (بصرف النون) ، إستامبول (بجرف الميم) ، إسلامبول (بجرف الألف واللام) . وكان يطلق عليها في بعض الأوقات دار الخلافة ، ودار السعادة . وفي القرن التاسع عشر ، يرد ذكرها في كثير من فرمانات السلطانية على هذا النحو : الأستانة ، وهي كلمة فارسية معناها العتبة . ولا يطلق عليها بعد إعلان النظام الجمهورى في تركيا الحديثة سوى إستانبول . انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

وبذلك حفظت الدولة العثمانية لشمال إفريقيا إسلامه وعرويته . وأوغلت الجيوش العثمانية في زحفها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف فيينا . وكانت الأساطيل العثمانية تحقق أمجاداً حربية رائعة ومتلاحقة على التكتلات الصليبية وبخاصة في الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط (١) . وتساعد العداة نتيجة هذا الصراع بين أوروبا المسيحية والدولة الإسلامية العثمانية .

ولذلك لم يكن أمراً عجباً أن الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين والتي حاصرت الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل قد ربطت في عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية . وتداعت إلى أفئدتهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام . واعتقدوا أن هذه الدولة هي الرمز الحى المحسد للإسلام . وبمضى السنوات والأحقاب والأدهار ازداد هذا الربط عمقاً ورسوخاً في أذهانهم . فكان إذا دخل أحد مسيحي أوروبا في الإسلام لم يقل عنه الأوروبيون إنه أصبح مساماً ، بل قالوا عنه إنه غداً عثمانياً . حتى لو كان هذا التحول قد حدث في فاس أو أصفهان (٢) . وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامى بعروة وثقى لا انفصام لها ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحمق والعداء بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوروبية للدولة العثمانية بصفقتها دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية .

ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولز Richard Knolles مؤرخ عصر الملكة إليزابث Elizabeth في إنجلترا (١٥٥٨-١٦٠٣) وصف الشعور الأوروبي العام تجاه الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا فكتب هذه الجملة المعبرة « إن الإمبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم » (٣) . ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزجوا بأنفسهم في الصراع المذهبي

(١) عن نشاط الأسطول العثماني أنظر ص ص ٨٦٦ - ٨٩٨ في الفصل الثامن والعشرين

في هذه الدراسة .

Lewis Bernard ; op. cit., p. 13.

(٢)

Lewis Bernd ; Politics and War. Princeton. Near East Paper. (٣)

Number. Program in Near Eastern Studies. Princeton University. 1975. p. 199.

الدموى الذبح نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذاً تستهوى أفئدة المضطهدين والمعتدين في الأرض الأوروبية يلتمسون في رحابها الأمن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر في كتيب نشره في عام ١٥٤١ أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون ، وأصحاب الأراضي يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك ولا يعيشون في كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة في حكم الفقراء» (١) .

أفاقحت الحكومات والشعوب الأوروبية التي خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامي العثماني من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوروبية لم يمتد إليها الحكم العثماني . ولكن جمعت بينها وحدة الهدف في الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية أسلاباً بينها . وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية فإن المحالفات الدولية التي واجهتها الدولة العثمانية عبر تاريخها الخافل—وما كان أكثر هذه المحالفات— كانت في لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام ، أملتها روح صليبية ووجهتها روح صليبية . وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية تخرض رعايا الدولة العثمانية المسيحيين على الثورة ، وتمدهم بالأسلحة والدخائر والأموال لإجراء مذابح عامة بين رعايا الدولة المسلمين أصلاً ورعاياها الذين اعتنقوا الإسلام لنشر الرهبة والذعر بين هؤلاء الأتخبرين كي يرتدوا إلى المسيحية . وكانت هذه الحكومات تبذل لهم وعوداً سخية وبراقة بتعويضهم مالياً وعمرانياً إذا فشلت أمثال هذه الثورات أو لم تسفر المذابح العامة عن تحقيق أهدافها المرجاة . وأطلقت الحكومات الأوروبية على السلطان العثماني شتى الأوصاف : فهو « رجل أوروبا المريض » حيناً ، و « المريض الذي لا يرجى شفاؤه » حيناً ثانياً ، و « المريض الذي يجب الإجهاز عليه شفقة به ورحمة عليه حتى يستريح ويريح » حيناً ثالثاً .

الدولة العثمانية دولة متوسطة :

تعد للدولة العثمانية دولة متوسطة Un Etat Mediterranéen أي .

من دول البحر المتوسط . وكان يطلق عليه العثمانيون « آق دكيز » (١) . إذ كانت الدولة تطل على معظم سواحل هذا البحر : الساحل الشرقى بأكمله ، والساحل الجنوبي بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش ، المملكة المغربية حالياً (٢) ، والساحل الشمالى فى ثلثه الشرقى تقريباً حتى البحر الأدرياتي (٣) الذى تطل على مدخله ألبانيا ، ويطلق عليها العثمانيون « أرناؤوط لى » ، كما يطلق عليه إقليم الجبل الأسود Montenegro ، ويطلق عليه العثمانيون « قره داغ » . وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر الهامة القائمة فى حوضه الشرقى مثل رودس (١٥٢٢) ، وقبرص (١٥٧١) وكريت أو كريد (١٦٦٩) (٤) . وإن كانت قد أخفقت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع بعد أن تكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والسفن والعتاد : وكان فرسان القديس يوحنا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبي ضد السفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط . وظلوا بها حتى شهر يونيو - حزيران - ١٧٩٨ عقب استيلاء بونابرت عليها وهو فى طريقه إلى مصر على رأس الحماية الفرنسية . ونجحت أيضاً الدولة العثمانية فى الاستيلاء على عدد من جزر البحر الأيونى وبحر

(١) أطلق العرب عدة أسماء محلية مختلفة على البحر المتوسط . وكان من بينها .

بحر الروم أو البحر الرومى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

بحر الفرنج ، أو بحر الفرنجة ، أو بحر الإفرنجية على حوضه العربى .

بحر مصر ، أو بحر الإسكندرية فى جزئه الواقع أمام الساحل المصرى .

بحر الشام ، أو البحر الشامى فى جزئه الذى تطل عليه بلاد الشام .

(٢) لم تدخل مراكش فى نطاق الأقاليم التى امتد إليها النفوذ العثمانى فى شمال إفريقيا ، لأن هذا النفوذ لم يطل أكثر من بضعة شهور فى عام ١٥٥٤ على عهد السلطان سليمان المشرع . وستعرض لهذا الموضوع فى موطن قادم فى هذه الدراسة (ص ص ٩٣٤ - ٩٣٦) فى ثنايا الفصل التاسع والعشرين فى الجزء الثانى .

(٣) يطلق عليه أيضاً البحر الإديراتى .

(٤) كان العرب يطلقون على جزيرة كريت اسم إقريطش .

إيجيه (١) . وكانت هذه الجزر أو معظمها جيوباً صليبية بعد انحسار موجة المد الصليبي الأوروبي عن الشرق الإسلامي بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام في اليوم الثامن عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٢٩١ على عهد السلطان خليل ابن السلطان قلاوون من سلاطين دولة المماليك البحرية : فاتخذت الحركة الصليبية من هذه الجزر قواعد عسكرية بحرية تتعرض للسفن الإسلامية ، العثمانية والعربية ، في أعلى البحار وتستولى على شحنتها ، وتأسر كبار ركابها وسيداتها ، وتغذف بالباقيين في أعماق البحر . كما كانت السفن الصليبية من وقت لآخر تقوم بغارات تخريبية مباغتة على موانئ مصر والشام والأناضول . وصحت عزيمة الدولة العثمانية على تصفية هذه الجيوب أو القواعد الصليبية تأميناً لأرواح المسلمين وأموالهم في البحر والبر من شرور الصليبيين . وهكذا سيطرت الدولة العثمانية على ما يمكن أن نسميه جزر وقواعد الخوض الشرقي للبحر المتوسط . كما سيطرت سيطرة كاملة في معظم الأوقات على البحر الأسود . وكان العثمانيون يطلقون عليه « قره دكيز » . وجاء حين من الدهر نجح العثمانيون في جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة ، ومنعوا خروج السفن الروسية من هذا البحر إلى المياه الدافئة - أي مياه البحر المتوسط - ثم سمحوا ، تحت الضغط الروسي حيناً ، ونحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى حيناً آخر ، بمرور السفن عبر مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور إلى البحر الأسود والخروج منه تحت قيود معينة . وسنعرض لهذا الموضوع في شيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة (٢) .

الدولة تخوض صراعاً حروبياً ضد الدولة الصفوية في فارس :

خاضت الدولة العثمانية صراعاً حروبياً ضارياً ضد الدولة الصفوية في فارس . وكان يحكم الأخيرة الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١-١٥٢٤) ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية . واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً

(١) كان يطلق على جزائر بحر إيجيه « جزائر بحر سفيد » .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ص ١٩٠ - ٢٢٠ .

للدولة (١) . وعمل على نشره في العراق . ونجح في ذلك إلى حد بعيد . ثم حاول نشر هذا المذهب في الأناضول ، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية . ولقي المذهب الشيعي استجابة واسعة من رعايا الدولة وبخاصة في شرقي الأناضول . واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش (٢) أى أصحاب الرؤوس الحمراء . فهب السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه ، وانتصر على الشاه اسماعيل في موقعة تشالديران في أغسطس - آب - عام ١٥١٤ ودخل في العام التالي تبريز العاصمة ، وهرب الشاه إلى جوف بلاده . واستولى سليم على كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين وتبليس وديار بكر وجميع الأراضي الجنوبية حتى الرقة والموصل وهبط بالدولة الصفوية إلى دولة من الدرجة الثانية . ثم عاد سليم إلى إستانبول ليعيد العدة لصراع حربي ضد أقاليم الشرق العربي الإسلامي .

الدولة تتجه نحو الشرق العربي الإسلامي :

فتح الشام ومصر :

وفي هذا الصراع ضد الأقاليم العربية الإسلامية في الشرق ظهرت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها كدولة من دول البحر الأحمر . ولى سليم وجهه شطر بلاد الشام (٣) وكانت جزءاً من دولة المماليك الشركسية وانتصر في معركة مرج دابق في أغسطس - آب - ١٥١٦ على السلطان الغوري .

(١) أمر الشاه اسماعيل الصفوي بعد اعتلاله العرش الخطباء في أذربيجان أن تكون الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر . وأمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان صيغة الشيعة وهي « أشهد أن علياً ولي الله » . وأمر الجنود بقتل كل من يعارض ذلك .

(٢) قزل باش كلمتان تركيتان . « قزل » معناها أحمر اللون . و « باش » معناها رأس .

(٣) أطلق فريق من المؤرخين والباحثين المسلمين عبارة « بر الشام » على بلاد الشام ، بينما أطلق فريق آخر منهم عليها « الشام » . وأطلق عليها أقرانهم الأوروبيون كلمة « سوريا » ونكتب أيضاً « سورية » و La Syrie بالفرنسية و Syria بالإنجليزية . بينما تمسك سكانها بأسماء محلية كان بعضها ذا طابع جغرافي ، وكان البعض الآخر ذا طابع طائفي . ولما فتح العثمانيون بلاد الشام قسموها إلى عدة أقسام إدارية أطلقوا على كل قسم اسماً خاصاً كما سنرى في موطن قادم في هذه الدراسة .

وتساقطت في يديه تباعاً المدن الرئيسية : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق .
وانساب جنوباً واستولى على فاسطين ودخل مصر حيث انتصر على السلطان
طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة في معركة الريدانية في يناير -
كانون ثان - عام ١٥١٧ ودخل سليم القاهرة في اليوم السادس والعشرين
من ذات الشهر . وتم له بعد حين القبض على غريمه طومان باى واقتيد إلى
المشنة . وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح
التاريخ إلى كتبه .

دخول الحجاز وبعض مناطق في اليمن تحت السيادة العثمانية :

وفي أثناء إقامة السلطان سليم في مصر استقبل وفداً من أعيان الحجاز بعث
به الشريف بركات أمير مكة المكرمة . وكان على رأس هذا الوفد ابنه
« أبو نجي » وحمل معه رسالة من والده أعان فيها الشريف بركات قبوله دخول
الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض
مخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : وبذلك دخل الحجاز دخولاً
تلقائياً وسلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين
كانوا يحتلون وقتئذك بعض مناطق في اليمن . على هذا النحو دخلت في خلال
سنة واحدة (١٥١٦-١٥١٧) أربعة أقاليم إسلامية عربية هامة هي : الشام ،
ثم مصر ، ثم الحجاز ، ثم أجزاء من اليمن ، تحت الحكم العثماني ، وزاد عدد
رعاياها المسلمين العرب زيادة كبيرة للغاية . وأصبح البحر الأحمر بحيرة
عثمانية تقريباً . فصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرق
والغربي ، وتدعم الطابع الإسلامي العثماني للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان
المشروع (١٥٢٠-١٥٦٦) الذي خلف والده سليم الأول كلا من مصوع
وسواكن عام ١٥٥٧ منتهزاً فرصة اندلاع حرب أهلية في الحبشة . وقد
نجحت الدولة في تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب والإمارات
العربية الساحلية . كما أوقفت الاعتداء البرتغالي إلى حد جعله يعجز عن أن
يتمد موافقه إلى داخل البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية ، وحطمت
المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية منهم ومن الأحباش ضد

القوى العربية الإسلامية في البحر الأحمر وشرق إفريقيا . ولكن إحقاقاً للحق لم يكن الحجم الضئيل نسبياً من التجارة العالمية الذي استطاع العرب أن يجلبوه إلى الطريقين التجاريين القديمين - وهما طريق العراق والشام، وطريق البحر الأحمر ومصر - على الرغم من الحصار البرتغالي لم يكن كافياً لأن يعيد الازدهار الاقتصادي الذي عاش العرب في ظلالة الوارفة من التجارة العالمية قبل وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية . ولكن حسب الدولة العثمانية أنها أضفت الأمن والأمان على البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر شمالي ثغر الحما في اليمن . فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في هذا الميناء ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمخر عباب البحر الأحمر وتتردد على ثغوره حتى السويس شمالاً . وكانت حجة الدولة أو ذريعتها في هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . وتطل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية . وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر الميلادي :

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين بعامة والمؤرخين العرب بخاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز (١) قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة

(١) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال :

أبو شامة . الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٧ .
ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بني أيوب . تحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشيال . ج ٢ ص ١٣٠ .

ابن إلياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى . ج ٤

السيادة على معظم الأقاليم التي تطل على ساحليه . وكان مرد هذه التسمية إلى أن البحر الأحمر هو الطريق البحري المؤدى إلى بلاد الحجاز حيث يأتي إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة ، أو الاعتمار فقط .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها العربية ، منذ حكم السلطان سليم الأول ، الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف مثوى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة المنورة ، فضلاً عن المسجد الأقصى في فلسطين وهو أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) ، مما أضفى على الدولة زعامة دينية في العالم الإسلامي وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية لقب « حامي حرمي الحرمين الشريفين » تأكيداً لزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي السني . وأوقمت الدولة أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز . وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف باسم « حرمين دولابي » (٢) . وجرت العادة في معظم الأوقات على تعيين كبير الأغوات الخصيان السود ناظرأ على أوقاف الحرمين . كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبي والشرقي .

= الرياض . العدد الأول عام ١٣٩٧ هـ تحت عنوان « بحر الحجاز في العصور الوسطى » . صص ٣٩٩-٤١٦ .

وما يذكر أيضاً أن البحر الأحمر كان يطلق عليه « بحر القلزم » نسبة لمدينة « القلزم » الواقعة في أقصى الشمال في هذا البحر بالقرب من مدينة السويس . أما اسم « بحر السويس » فكان لا يطلق إلا على خليج السويس . ويرى البعض أن باب المنذب وخليج عدن وخليج بربرة هو نهاية البحر الأحمر من ناحية الجنوب .

(١) يقع المسجد الأقصى في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة بيت المقدس القديمة ، وهو يعد المسجد الجامع في بيت المقدس .

(٢) انظر في هذه الدراسة صص ٤٤٥ - ٤٤٦

وكان مما أضيف على الدولة الطابع الديني الإسلامي الراسخ والمتميز أنها كانت حريصة الحرص كله على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً في تصرفاتها وإقامة الشعائر الإسلامية واحترام التقاليد الدينية ، وأنها أنشأت ، منذ زمن مبكر ، الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وجعلت لها اختصاصات واسعة ورصدت لها موارد مالية ضخمة ، وكان شيخ الإسلام هو الذى يرأس هذه الهيئة ، وكانت تعاونه مجموعات من كبار علماء الدين يشكلون أجهزة فنية متعددة الأسماء والاختصاصات وألحقت بمكتبه . وقد أحاطت الدولة شيخ الإسلام بكل مظاهر الإجلال والتكريم وتبوأ مكاناً عظيماً . وكان مركزه ينادد مركز الصدر الأعظم .

أمانات مقدسة :

اهتم سلاطين الدولة بمخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامة الأخير في مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت في خزانة قصر طوب قابي وأطلق عليها « أمانات مقدسة » وهي جملة عربية وضعت في صياغة تركية . وكانت هذه الآثار تضم برده وعرفت في اللغة التركية « خرقه شريف » . وسجادة صلاة ، والبيرق النبوي - أى العلم النبوي - وقوساً وسهماً ، وحدوة فرس ، وسناً من أسنانه ، وشعيرات من لحيته ، وحجرأ يحمل أثر قدمه ، ومفاتيح الكعبة ، ونسختين من القرآن الكريم يقال إنهما كانتا للخليفتين عثمان ، وعلى . وضمت إلى هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياب يقال إنها كانت للأتبياء السابقين والخلفاء والصحابه . وخصصت الدولة قوة عسكرية تتكون من أربعين فرداً لحراسة المخلفات النبوية . وكانت هذه القوة هي هيئة الفرقة الخاصة وتسمى « خاص أوطه ليه » وكانت بمثابة حرس شرف لبردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من المخلفات النبوية . وكان يقام في منتصف شهر رمضان من كل عام حفل ديني يطلق عليه « خرقه سعادت » يرتل فيه القرآن الكريم ترتيلاً إلى ما بعد منتصف الليل ، ويحضر

هذا الحفل السلطان وشيخ الاسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وقادة أسلحة الجيش والأسطول وغيرهم. واستهدفت الدولة من إقامة هذا الحفل الديني تعميق الفكرة الدينية الإسلامية في نفوس رعاياها وحملهم على مزيد من الالتصاق بالدين ونشر الجود الديني العابق في شهر رمضان المعظم .

وفتح السلطان سليمان المشرع لإقليم العراق عام ١٥٣٤ وامتد النفوذ العثماني إلى الأحساء المطل على الخليج العربي ثم إلى بعض إمارات ومشيخات هذا الخليج ، كما استولى على عدن . ومن ناحية أخرى أنشئت ثلاث نيديات عثمانية في شمال إفريقيا ، هي : الجزائر ثم طرابلس ثم تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط . وعلى هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثماني في العالم العربي من الجزائر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً . وزاد عدد الرعايا العرب في الدولة زيادة كبيرة للغاية بعد أن انجهدت في فتوحاتها نحو العالم العربي وأصبحت ذات صبغة عربية قوية بعد أن كانت ذات طابع أناضولي وأوروبي ، كما أنها غدت تضم — فضلاً عن قلب الإسلام : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس — العواصم والأمصار الإسلامية العربية الكبرى مثل دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وبغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت مركز إشعاع حضارى للعالم ، والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك حيث قام بها الأزهر الشريف القبلة العلمية الأولى للمسلمين ، والقبروان في تونس ، والكوفة والبصرة ، وكان يطلق عليهما « المصران » (١) .

الدولة محقق نجاحاً دينياً مذهبياً في الأناضول والعالم العربي :

وقد حققت الدولة العثمانية في حربها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في العالم العربي نجاحاً كبيراً من الناحية الدينية المذهبية . فقد استأصلت الشيعة من الأناضول . ومنعت زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي وعلى مصر . أما العراق فكانت له أوضاع خاصة . كان موطن العتبات

(١) بكسر حرف الميم ، وسكون حرف الصاد .

أو المزارات المقدسة ويضم آثار الشيعة. وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح كما ذكرنا في نشر المذهب الشيعى فى ربوع العراق وأصبح الشيعة يشككون قطعاً رئيسياً من قطاعات السكان، ولهم تقاليدهم وعاداتهم ولا يرضون عنها بديلاً، إذ أصبحت جزءاً من عقيدتهم الدينية. ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق ودخل بغداد فى ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٣٤ حيث أقام أربعة أشهر عمل خلالها على إرضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة معاً. ورصد أوقافاً ينفق لإرادها على أهل المذهبين. وخرج من بغداد فى رحلة تعرف فيها على قبر أبى حنيفة وأعاد بناء ضريحه. وكان الشيعة من أهل فارس قد دنسوا رفاته وهدموا القبة والضريح. وعلى الرغم من أن السلطان سليمان كان سنياً حنفياً، زار العتبات المقدسة. وكانت المنطقة التى تحيط بكربلاء تغمرها مياه الفيضان وتصل إلى العتبات المقدسة. فأمر ببناء سور يسمى السلمانية حول المدينة لوقايتها من مياه الفيضان، ثم وسع ترعة الحسينية كى تناسب فيها المياه على مدار السنة فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح. وزار قبر الإمام على فى النجف. وهكذا انتهج السلطان سليمان المشرع تجاه أهل السنة والشيعة سياسة تم عن الحكمة والحصافة ورحابة الأفق العقلى. أما أهل اليمن فقد احتفظوا بمذهبهم الشيعى وهو مذهب الإمامية الزيدية. كما كانت هناك طائفة قليلة العدد نسبياً من الشيعة فى لبنان يطلق عليهم «العلويون». وفيما عدا ذلك كان سكان الولايات العربية من أهل السنة.

لم يكن الاحتلال العثمانى للعالم العربى استعماراً تحت ستار الدين :

ومنذ مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأشباههم ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثمانى للعالم العربى بأنه كان شراً مستطيراً. ولعل أحدث هذه الأصوات ما كتبه بعض مستشارى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الميثاق الذى صدر فى الحادى والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٩٦٢، إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنعاً باسم الدين، والدين منه براء. وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق هامة، منها أن المجتمعات

في العالم العربي وقتذاك كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات، وأن الوشيجة الدينية ربطت المسلمين من رعايا الدولة بالسلطان العثماني بعروة وثقى على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية في العالم، وأنه بحكم منصبه كان المهيمن على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والتي كان يرأسها شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - وذلك قبل أن يضمن السلطان على نفسه لقب خليفة في أواخر القرن الثامن عشر لأسباب سياسية استهدف منها إرهاب الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكات الدولة، كما أن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصلاً وعمقاً في نفوس رعايا الدولة من العاطفة الوطنية - وعلى أحسن الفروض كانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين متشابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما. وكان يتصاعد ذلك الارتباط الوثيق بين الرعايا المسلمين والدولة كلما تعرضت لهزيمة عسكرية من الجيوش الأوروبية فكان هؤلاء الرعايا يزدادون التصاقاً بالدولة العثمانية ويزداد ولاؤهم عمقاً للسلطان العثماني.

ويرجع التصاق الولايات العربية وولاؤها للدولة العثمانية إلى أنها كانت تنظر إلى هذه الدولة على أنها الدرع الواقى الذي يحميها من شرور أطماع الاستعمار الأوروبي، ويتيح لها في ظل الدولة العثمانية المسلمة قدراً كبيراً من الحرية في الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة وفي مزاولتها شعائرها الدينية، وفي أن تحيا حياة أفضل - في نظرها على الأقل - فيما لو احتلتها دولة أوروبية مسيحية. وأطلق السكان العرب على القوات العثمانية المرابطة في بلادهم اسم «الحامية العثمانية» بدلا من «جيش الاحتلال العثماني». وعلى هذا النحو نشأت مصالح مشتركة بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية. وكانت هذه المصالح هي الروابط الدينية والمصالح السياسية والحفاظ على التقاليد الإسلامية (١).

وإذا كانت قد قامت في بعض الولايات العربية حوادث تمرد أو عصيان،

(١) دكتور محمد رفعت رمضان . على بك الكبير . الناشر دار الفكر العربي . القاهرة .

فإن الخطأ وصفها بأنها حركات استقلالية أو انفصالية عن الدولة العثمانية ، لأنها كانت حركات تزعمها أصحاب عصبية أو قواد عسكريون (١) أو زعماء دينيون من أتباع مذاهب دينية إسلامية استهدفوا منها الانفراد بشئون الحكم والإدارة والمال على أن تكون الولاية في الأعم الأغلب في نطاق الدولة العثمانية . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد على بعض هذه الحركات بشي قياداتها : حركة على بك الكبير في مصر (٢) ، والنزاع بين قبائل الأكراد والباشوات العثمانيين في العراق ، وكذلك النزاع بين الزيدية والدولة العثمانية في اليمن وأسفر في إحدى مراحلها عن عقد اتفاق دعان (٣) .



(١) يستثنى من هؤلاء القواد العسكريين قائدان أحدهما جان بردى الغزالي نائب الشام فقد أعلن نفسه سنة ١٥٢٠ على عهد السلطان سليمان المشرع سلطاناً على الشام وأمر بأن يذكر اسمه دون سواء في خطبة الجمعة وأن تضرب السكة باسمه على العملات الذهبية والفضية ، وأطلق على نفسه «الملك الأشرف أبو الفتوحات» وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع أمام المحلات . وقبل له الأمراء الأرض . وقد فشلت قواته في دخول حلب وانتهت حركته بالقتل . ولحق مصرعه وأرسلت رأسه إلى إستانبول .

انظر :

ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٣٦٧-٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣-٣٧٧ ، ٣٨٣-٣٨٤ .

أما القائد الآخر فهو أحمد باشا ثالث الولاية العثمانية على مصر . تولى منصبه في أغسطس - آب - ١٥٢٤ وسولت له نفسه العصيان على الدولة وأمر بأن يخطب باسمه في المساجد وأن تضرب العملة باسمه واستفحلت حركته . وقد تصدى له الإنكشارية وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى إستانبول . وكانت مدة ولايته ستة أشهر .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني . بحوث الندوة الدولية لألفية القاهرة (٢٧ مارس - آذار - ٥ أبريل - نيسان ١٩٦٩) . مطبعة دار الكتب بالقاهرة . ج ٢ ، ١٩٧١ ، ص ٦٦٧ - ٧٢٥

(٣) انظر خطاب الإمام يحيى إلى وفد علماء مكة المكرمة بتاريخ ١٨ من شهر شعبان عام ١٣٢٥ الموافق ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٧ وقد أعلن فيه ولاءه وخضوعه للسلطان العثماني . ولكنه طالب في ذات الوقت بالاعتراف بوضعه الخاص في اليمن . وانظر أيضاً نصوص اتفاق دعان الذي عقد بين الإمام يحيى واللواء أحمد عزت باشا في غزة شهر ذي القعدة =

ب وفاة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٦٦ ينهى العصر الأول من تاريخ الدولة وهو عصرها الذهبي ، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد . ويبدأ العصر الثانى وقد تولى فيه الحكم عدد من السلاطين أطلق على عدد كبير منهم « السلاطين التناقلة » (١) Les Sultans Fainèants انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم وانغمسوا فى حياة المجون مع الجوارى الفاتنات فى الحرىم السلطانى . وأصبحت الكلمة العليا فى الدولة لمراكز القوى ، وهى : الفيالق الإنكشارية ، والحرىم السلطانى ، والأغوات الخصيان . وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث . وكانت معاهدة كارلوفتز Karlovitz (٢٦ من يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩) أول معاهدة تفرض عليها كدولة منهزمة بعد حرب خاضتها وتنازلت فيها عن أقاليم واسعة كانت تحت الحكم العثمانى وتعد جزءاً من دار الإسلام وانتقلت إلى دار الحرب . فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيئاً للقرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة . وتعاقب فرض معاهدات جائرة عليها . واستطال اضمحلالها فترة ناهزت المائة والخمسين عاماً لأنها كانت دولة ذات جذور عميقة ودعائم راسخة بحيث لم يكن من السهل أن تختفى هذه الدولة العملاقة فى سنوات ذات عدد . ويعد مؤتمر برلين الأوروبى (١٨٧٨) هو بداية النهاية بالنسبة لها . إذ تكتلت عليها فى هذا المؤتمر وفى خلال السنوات القليلة التى لحقتها الدول الكبرى مثل روسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والكيانات السياسية البلقانية التى كانت خاضعة للدولة ونجحت هذه وتلك فى تمزيق أوصال الدولة . واستطاع السلطان عبد الحميد الثانى فى ظروف متناهية فى ظلامها وقسوتها أن يحافظ على تماسك ما تبقى من الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يتمسك بتقاليدها وطابعها الإسلامى

= عام ١٣٢٩ الموافق ٢٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١١ فى : دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث . اليمن والإمام يحيى . (١٩٠٤-١٩٤٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، صص ٤٨٩ - ٤٩٧ .
(١) أنظر صص ٦٠٣-٦٠٤ فى هذه الدراسة .

حتى إذا عزله رجال الطغيان العسكرى وبعض الصهيونيين عام ١٩٠٩ (١) انفردوا بالحكم وزجوا بالدولة في مغامرات خارجية لتغطية فشلهم في الحكم . وكانت النتيجة أن سقطت الدولة في أعقاب الحرب العالمية الأولى بعقد هدنة Mudros (٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨) ومعااهدة سيفر Sèvres (١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠) .

مدى نجاح الدولة في نشر الإسلام في أوروبا :

ولم تنجح الدولة العثمانية نجاحاً كلياً في نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين في ولاياتها الأوروبية لأسباب خارجة عن إرادتها . وسنبسط هذا الموضوع في شيء من التفصيل في كتابنا القادم بمشيئة الله وهو « دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل الذمة » . ولكن النجاح « المحدود » الذي حققته الدولة في مجال الدعوة الإسلامية كان من حيث نتائجه وآثاره أكثر بكثير من نجاح الدولة في فتوحاتها العسكرية الإسلامية وفي عثمانة L'Ottomanisation الشعوب المسيحية الأوروبية التي دانت لحكمها(٢) فإن الفتوحات الإسلامية العثمانية قد انحسرت في القرون التالية للقرن السادس عشر حيث بلغت الدولة أقصى اتساعها الإقليمي في هذا القرن : وأصبحت الفتوحات الإسلامية العثمانية تاريخياً يروى للأجيال المتعاقبة عن مجد عسكرى ذوى : أما العثمنة فكادت تكون معدومة . ولكن تركت الدولة بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا . فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تعيش إلى اليوم على ثرى الأرض الأوروبية التي كانت جزءاً من الممتلكات العثمانية وتشكل على نحو من الأنحاء أقاليم هامة من « دار الإسلام » . ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلاً . وقاومت شتى أنواع الضغوط التي بذلت لتحويلها إلى المسيحية بعد أن

(١) يُنظر العصلين الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين بعنوان (آراء محايدة فى حكم السلطان عبد الحميد الثانى) فى الجزء الثانى فى هذه الدراسة .

(٢) انظر فى هذه الدراسة صص ٣٢١ - ٣٢٧ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ .

غاب النفوذ الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - عن هذه الأقاليم ، وجاءت على أنقاضها دول مسيحية ذات حكومات مسرفة في تعصبها تروم القضاء على كل أثر إسلامي تركه العثمانيون ورائهم . ولكن ظل الأثر الحى الجسد الباقى من الحكم العثماني في أوروبا : جماعات إسلامية تعيش إلى الوقت الحاضر في بلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا(١) ، واليونان ، ويوغوسلافيا بما كانت تضمه الدولة الأخيرة قبل إنشائها من أقاليم كانت تسمى الصرب والجبل الأسود والبوسنة والمهرسك فضلا عن بعض الجزر القائمة في الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبحر إيجه وبحر الأرخبيل :

ونسوق هنا مثالا يوضح هذه الحقيقة: فقد شهد الأسبوع الأول من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٧٧ أكبر حدث إسلامي ديني وثقافي في أوروبا ، إذ افتتحت لأول مرة كلية للدراسات الإسلامية في يوغوسلافيا حيث يعيش فيها اليوم أربعة ملايين مسلم . وستكون هذه الكلية نواة لجامعة إسلامية تدفع بالعمل الإسلامي في أوروبا خطوات واسعة . واشترك في افتتاح الكلية ، وقد أقيمت في مدينة سراجيفو Sarajevo عدد كبير من وفود الدول الإسلامية والجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا واشترك مندوب عن الأزهر الشريف تحدث باسم مصر . وتقوم الكلية حالياً بإعداد العلماء والأئمة والوعاظ والمدرسين ومن إليهم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية في أوروبا ربطاً للجيل الجديد من مسلمي أوروبا بالإسلام وغرس مبادئه في قلوبهم . وهكذا

(١) أغلقت المساجد وكذلك الكنائس والمعابد اليهودية في ألبانيا منذ أن ساد الحكم الشيوعي هذه البلاد في الستينيات من القرن العشرين . وكان عددها ٢١٦٩ مسجداً وكنيسة وبيعة . وقد تم إغلاقها « بإرادة الشعب الألباني » كما جاء في البيانات الرسمية . وقد نص الدستور الألباني الشيوعي على تجريم النشاط الديني أيّاً كان نوعه . وقامت السلطات الشيوعية في ألبانيا بهدم عدد من دور العبادة ، واحتفظت بقلة منها كعالم ثقافية أثرية ، بينما أعادت فتح بقيتها كنور للسارح والسيما أو كساكن أو كستودعات .

نجد أن المسلمين في يوغوسلافيا - وهم حفدة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إبان الحكم العثماني - عملوا على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره ، وإيجاد أجيال صاعدة من المسلمين يجمعون إلى الكفاية العلمية والمهنية التي اكتسبوها في المجتمعات الأوروبية الإيمان بالله والتفقه في العقيدة والشريعة ويقفون سداً منيعاً في وجه الدعوة التي تقوم بها القاديانية والبهائية في أوروبا ، ويصبحون مؤهلين للقيادة والريادة في كل المجالات الروحية والعلمية والمهنية (١).

والخلاصة أن الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا بصفة خاصة قد أوجد موجات من الذعر بين الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة التي كانت العسكرية الخصبية الأولى البارزة في بنائها والغالبة على تصرفاتها . وصحب هذا الذعر حقد دفين عليها ، ومن ثم نشأت في أوروبا حملات إعلامية للتشهير بها . وبمضى الزمن انتقلت الحملات التشهيرية إلى بلاد الشام بوجه خاص ، إذ كانت بيئة صالحة لنمو هذه الحملات بسبب كثرة التنوع البشري واللغوي والديني بها ، وكثافة عدد البعثات التنصيرية بها واعتمادها على تدخل الحكومات الأوروبية وعلى نظام الامتيازات الأجنبية . وكانت الدولة قد أسهمت بطريق غير مباشر في تعميق حملات التشهير بها ، إذ أبقّت بصفة عامة على التقسيمات الإدارية التي كانت قائمة أيام دولة المماليك الشراكسة ، كما أبقّت على العصبية الإقطاعية . وكانت ذات بأس شديد . ولم يكن أفرادها يكتفون ولاء أو تقديراً للدولة العثمانية . وردد المؤرخون والباحثون ورجال السياسة العرب حملات التشهير وأضافوا إليها جديداً .

(١) محمود مهدي ، رسالة يمّث بها من يوغوسلافيا بعنوان « أربعة ملايين مسلم في يوغوسلافيا » ، ونشرت في جريدة الأهرام ، العدد ٣٢١٩٤ ، الصادر في ١٦ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧ الموافق ٢٨ من أكتوبر - تشرين أول - ١٩٧٧ ، ص ١١ ، مجموعة السنة ١٠٢ .

ونرجىء الحديث عن هذه الحملات إلى أربل الجزء الثاني حيث أفردنا لها أربعة فصول (١) بعد أن نبحت أولاً نشأة الدولة وخصائصها العامة وسياستها العليا وهيئاتها الحاكمة ومراكز القوى فيها . فهذه الموضوعات تشكل عناصر أساسية في تاريخ الدولة بما انطوت عليه من مزايا وعيوب ، وما أتاحت من رغبة في التشهير ، أو اتجاه نحو النقد الموضوعي المحايد .



الفصل الثاني

نشأة الدولة العثمانية

أصل الأتراك العثمانيين :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت ، على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ، تنزح من مناطق الإسكس في وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتدسس في التاريخ المبكر للعثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق . وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة ، فلهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية : منهم من يلق عليها ظلالة كثيفة من التشكك فيها . ومنهم من يعتبرها حقائق لانشوبها شائبة من ارتياب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها .

ونقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسدت سنة ١٢٣٢ ، في أثناء ترحالها في وهاد الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩-١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة - ويطلق عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة - فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس ندأ للجيش الآخر ، فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليه سبباً في انتصاره . وبعد المعركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها تدخلت لنصرة بني جلدتها ، وهم الأتراك (٣ م - الدولة العثمانية)

السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغولية من جيش الخان أو كطاي ابن جنكيز خان ، وكان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى .
وتدبيراً لتدخل القبيلة التركية في المعركة أقطمها علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلاجقة بقعة مترامية من دولته^(١) التي كانت تجتاز دورالاضمحلال .
وتدل هذه القصة على الطابع الحربى العنيف الذى اتسم به أفراد القبيلة التركية ، فقد خاضوا المعركة لغير مصلحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان يعتبرون هذه القصة من قبيل الأساطير التاريخية ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مرأ فيها ، ويضيفون تعليماً عليها بقولهم إن الدافع الحقيقى الذى دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب في قرارة نفسه بهذه القبيلة . فقد أثبتت أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية ، ومن ثم فلم يطمئن إليها ، ولذلك لم يرغب في إدماج هذه القبيلة في قواته وانتهى تفكيكه إلى منحها تلك الأراضى .
وبهذا الإجراء يتخلص من هذه القبيلة من ناحية ، وبشغلها بالحرب - ضد الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - المجاورة لها في نيقية من ناحية أخرى .

وفي ذات الوقت ظهر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أرطغرل بلقب « أوج بى » أى محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب اسماً يتماشى مع أحد التقاليد التى درجت عليها الحكومة المركزية في دولة الأتراك السلاجقة ، وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أسماً ، ويالحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلاجقة تحرص أيضاً حرصاً بالغاً على أن تعين من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء ، يلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة هو « أوج أمبرى » أى أمير الحدود .

غير أن أرطغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ،

(١) كانت هذه البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانجى Toumanidji وارسى Ermeni يقضى فيها أفراد القبيلة فصل الصيف ، وسهول سوكوند Soegud يقضون لى ربوفها فترة الشتاء .

فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقنع باللقب الذي ظفر به ، ولم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود ، بل شرع يهاجم ، باسم السلطان علاء الدين ، بمتلكات الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - في الأناضول ، ونجح في سياسة التوسع الإقليمي ، فضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة إسكي شهر^(١) . وقد مات أرطغرل عن ثلاثة وتسعين عاما . وكان قد اتخذ سو كود مقراً له ودفن فيها . وحلفه في حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عثمان الذي سميت باسمه الأمة والدولة . وسرعان ما تمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدتها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً^(٢) .

(١) برد اسم هذه المدينة في بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوباً كلمة واحدة : إسكيشهر . وإسكي معناها في اللغة التركية «قديم» وتدخل هذه اللفظة في أسماء الأماكن ، فيقال إسكي شهر بمعنى المدينة القديمة ، وإسكي حصار بمعنى الحصن القديم . وإسكي شهر تقع في الجزء الغربي من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر يورسوق ، وهو فرع من نهر سقاريا . وتمتد بشهرة واسعة وعريضة عبر عصور التاريخ . وفي الوقت الحاضر تشتهر بأنها مانقو هام للخطين الحديدين من إستانبول إلى أنقرة ، ومن إستانبول إلى قونية . كما تشتهر بينايمها الحارة وبالصلصال الذي يوجد بجوارها .

(٢) ظهرت في سنة ١٩٣٥ دراسة جديدة باللغة الفرنسية عن نشأة الدولة العثمانية قام بها الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي أحد كبار المؤرخين الأتراك حمل فيها حملة شديدة أهل آراء المؤرخ الإنجليزي جيبونز Gibbons الذي بسطها في كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية *The Foundation of the Ottoman Empire* والذي نشره في سنة ١٩١٦ وخلاصة الدراسة التي انتهى إليها الأستاذ كوبرلي أن الأتراك العثمانيين ينتمون إلى قبيلة وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين . وفي أواخر القرن الثالث عشر كان أرطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لهيئة صغيرة من عشائر الحدود تنتمي إلى قبيلة قايي ، وكان موطنها إسكي شهر على الحدود التركية البيزنطية . وفي نفس الوقت كان يربط على حدود الأناضول الغربية عدد من أمراء الحدود يقفون على حدود بيزنطة كلما وانتهم الفرس ، وما كان أكبرها ، ويعلمون فيها السلب . وكان من بين أمراء الحدود من استولى على بعض الاستحكامات والمدن ، وسكن استطاع عثمان في مثل هذه المنطقة وبين هذه القوى المتنافسة أن يؤسس كياناً سياسياً مستقلاً تمثل في الدولة العثمانية . وتعرض هذا المؤرخ التركي إلى عدة مسائل هامة ، منها ما هو خامس باعتناق العثمانيين الدين الإسلامي ، وحاول إرجاعه إلى عصور سابقة على قدمومهم إلى آسيا الصغرى . وتبدو في كتابته روح الصلف التركي والرغبة في إبعاد

العثمانيون يعتقدون الإسلام :

وعلى عهد الأمير عثمان وفي وقت مبكر تحدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للأتراك العثمانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي وتبعه الأتراك العثمانيون . وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً ، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستمدة من الحوليات العثمانية القديمة تشير إلى الملابس التي أدت إلى اعتناق عثمان الديانة الإسلامية . تقول هذه الرواية إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين المتمهين في الدراسات الدينية ، واسمه الشيخ أده بالي ، وتطلق عليه المراجع العربية « أدب عالي » ، وكان يقيم هذا العالم في قرية محاورة لمدينة إسكي شهر . وفي خلال زيارته كان يلح ابنة الفقيه واسمها « مال خاتون » فراه سماحاً وطلب يدها من والدها ، ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فارق بينه وبين عثمان من الناحية الاجتماعية ، ولكن عثمان داوم على زيارة

تتكل ما يرى فيه . ساساً ، المشايخ في هذا الدور المبكر من تاريخهم . ومن ثم كان تعامله الشديد على آراء جيبونز بل وتهمجه . وقد طبع الأصل التركي لهذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٦٢م مقدمة للمؤلف لم تظهر في الكتاب الفرنسي ، كما أضاف إليه زيادات جديدة . وقد تولى الأستاذ الدكتور أحمد السيد ساهان أستاذ الدراسات التركية بكلية الآداب بجامعة القاهرة تحرير الكتاب التركي سنة ١٩٦٥م باسم « قيام الدولة العثمانية » ونشر بالقاهرة سنة ١٩٦٤م . ومن الصعب أن تقبل كل الآراء التي تنصل بإنشاء الدولة العثمانية والتي وردت في دراسته لسببين : روح انحصار الشدبد ، واعترافه بأن النتائج التي وصل إليها ليست أحاسنة ، وقد سجل عليه قلته هذه العبارة المعروفة « وهما يكن من أمر فلا بد أن نعترف بأن النتائج التي حصلنا عليها ليست كافية لا كيمياً ولا كلاً ، وبأننا لا نزال ببغدين عن أن نكون قد حللنا لغز تأسيس الإمبراطورية العثمانية أو حتى أن نكون قد وضعناه بعض الشيء » ص ٧ من النص العربي .

وعما يذكر في هذا الصدد أن عهد فؤاد كوبرلي كان من أعوان مصطفى كمال ، استعان به في دعم فكرة القومية التركية الحديثة عن طريق كتابة التاريخ على النحو الذي أراد مصطفى كمال من تخليده عن المفاهيم الإسلامية كتأييد الإجراءات العلمانية . وقد تعينه مصطفى كمال وزيراً للخارجية في الثلاثينات من القرن العشرين . وبسبب مجموعته الضخمة في التاريخ التركي أصبح محمد فؤاد كوبرلي يلقب بأستاذ الجبل و تركيا الحديثة .

الشيخ لما لمسه فيه من العلم والفضل ، أولاً لأنه كان يهد عزاء وسلاوى في التردد على الدار التي تضم الفتاة التي بلغ حبه لها شغاف قلبه . وكان الشيخ لا يرفض أن يستضيف عثمان كلما نزل في رحابه ، وفي إحدى المرات غنا عثمان في منزل الفقيه ورأى في المنام القمر ينبثق هلالاً من صدر هذا الفقيه ، ثم نما وكبر في الحجم حتى اكتمل بدرأ ، وعندئذ نوارى في ظهره . ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال امتدت أعصانها ذات اليمين وذات اليسار وغطت اللياقى والفقار عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه في أنهار الدجلة والفرات والديل والدانوب . ثم هبت فجأة ريح قوية حولت أوراق الشجر إلى فصل سيف باز ، وكان على مقبضه خام مرصع بالياقوت والزمرد ، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما استيقظ من هذا الإغماء ، ولما قص على مضيفه هذه الرؤيا - وكان طالما يتأويل الأحلام - بشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم ، ووافق على أن يزوجه ابنته . وقام تلميذ للشيخ بعقد قران عثمان . وعند ما أصبح عثمان أمير قبيلته شيد تسمية لهذا التلميذ أوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

ونوجد رواية أخرى سابقة عليها ولكنها قريبة منها ومستقاة أيضاً من الحوليات العثمانية القديمة تقول إن أرطغرل - والد عثمان - قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين . وقبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضع على روف ، فسأله عثمان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واستفسر منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أنزله للباس على لسان محمد صلوات الله عليه . وحمل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه واقفاً حتى الصباح ، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكاً يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلاً بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن .

ورى جيرة Giese - وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين في الدراسات التركية - أو ما يطلق عليها التركيات - أن هاتين الروايتين محاولتان لدعم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل إلهي . وقد

حل المؤرخ التركي المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي حملة عنيفة على هاتين الروايتين (١).

ومهما يسكن من أمر ، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان ، وسار عثمان في حكمه على هدى إيمان عميق وبساطة في الدين ، وكان متحمساً لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين . وكانت العدالة أبرز ما يميز تصرفاته في عصر كان ينضج بالجور والظلم . وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عند ما بعث محمد صلوات الله عليه ، فقد هيأ الإسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعباًهم بشعور ديني دافق جعلهم جد متحمسين للإسلام . واجتهدت إلى هذه العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية وسهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون والأدهار.

العثمانيون يطورون أساليب حياتهم :

ومن ناحية ثانية أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة ، كانتا قد وصاتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي

(١) محمد فؤاد كوبرلي : قيام الدولة العثمانية . ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان .

خاضته كل منهما ضد الأخرى ، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني ، ونتيجة تعرض دولة الأتراك السلاجقة للغزو المغولي . فكان في شبه جزيرة الأناضول فراغ سياسي ، وكانت الأوضاع السياسية مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين ، ومن ناحية رابطة فإن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي - وهو ما يسمى دار الحرب - وعلى حافة العالم الإسلامي - وهو ما يسمى دار الإسلام^(١) - قد فرضت عليها سياسة حربية معينة ، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود . والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل ، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتنمو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها إمارات الحدود^(٢) . واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين ، وقد أبدى علاء الدين كيقباد الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان فمنحه لقب « عثمان غازي حضر تلمري مرزبان عاليجاه عثمان شاه »^(٣) ، أي « حضره عثمان الغازي ، حارس الحدود ، العالي الجاه ، عثمان شاه » .

عثمان يعلن استقلاله :

وكان من حظ عثمان أن أغار المغول سنة ١٣٠٠ على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، وحدث ما كان متوقفاً إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوق

(١) يطلق على مثل هذه المواقع في التاريخ الإسلامي لفظ « الثغور » .
(٢) من الأمثلة التي توضح هذه الظاهرة السياسية أن إمارة كرميان على الرغم من أنها كانت تشكلاً سياسياً قوياً - عجزت عن التقدم والنمو حين تحولت إلى إمارة داخلية نتيجة لما أحاط بها من قوى سياسية جديدة أقامها قادة من الكرمانيين أنفسهم ونتيجة أيضاً لتضييق القرمانيين .
(٣) كلمة مرزبان فارسية تتكون من (مرز) ومعناها حديم (بان) ومعناها حارس ، وهكذا يكون معنى الكلمة كلها حارس أو محافظ الحدود . أما (عاليجاه) فكلمة تركية معناها عالي الجاه أو صاحب المقام الرفيع . وأما (شاه) فهي لفظة فارسية ومعناها عامل .

السلطان علاء الدين كيقباد الثالث سنة ١٣٠٧ ، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً
بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً^(١) أسس كل منهم حكومة
مستقلة على أقطار دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وأبدى عثمان اهتماماً
عميقاً بدعم الجيش وتنظيم الحكومة ، وتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من
الأمراء واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية . وقد نسبت الدولة والأمة
إليه^(٢) فسميتا باسمه كما سبق أن ذكرنا ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما
يرى البعض أن ابنه أورخان كان أول من تلقب بهذا اللقب .

الزواج من الأجنبيةات :

أيقن عثمان أن عشيرته التركية بعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس
الدولة التي يتطلع إلى تكوينها ممتدة الأطراف مهيبية الجانب . فرسم سياسته على
على أساس مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة ، واستقدام
الرفيق بمختلف الوسائل من شتى البلدان ، واستخدام الغامرين الذين تسهويهم
الشهرة والمقام الكثيرة في ميادين القتال ، فاختر عثمان لنفسه زوجة مسيحية
من قيليقيا ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائجة الجمال زوجة لابنه أورخان كما
سنرى في موطن قادم . وهكذا زرى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رافق نشوء
الإمارة ثم السلطنة .

وقد حمل بعض الباحثين على زواج سلاطين الدولة العثمانية من الأجنبيةات ،
واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية وضعفها . والواقع أن
الزوجة الأجنبيةة لم تنس قط وطنها الأصلي أياً كان : روسيا أو جمهورية البندقية
أو غيرها ، ولم تنس قوميتها السابقة ، فاستغلت وضعها في القصر السلطاني بصفتها
باش قادين ، أو كازكي Kaséki ، أو كازكي قادين Kaséeki Kadine^(٣) .

- (١) تذكر بعض المراجع أن عدد هؤلاء الأمراء كان أحد عشر أميراً .
- (٢) الصفة من عثمان واللقبة التركية « عثمانلي » بينما هي في اللغة العربية « عثمانى » .
- (٣) باش قادين ، لقب يطلق على السلطانة الأولى وهي والدته أكبر أولاد السلطان .
أما كازكي فللقب يطلق على أمهات أبناء السلطان ، بينما تُلقب أمهات بناته كازكي قادين . وكان
السلطان يلتزم بحكم الشرعية فلا يعمد على عدد زوجاته الأربع ويطلق عليهم « باش قادينلر » .

واهتمت اهتماماً عميقاً بخدمة مصلحة وطنها الأصلي على حساب مصلحة الدولة العثمانية . وسنرى في مواطن كثيرة قادمة في هذه الدراسة أمثلة عديدة لازدواجية الولاء أو بمباراة أكثر دقة تضارب الولاء وتضارب المصالح والمهم أن أولئك الباحثين الذين حملوا على تلك الزيجات ذهبوا إلى أن مساوئها لم تظهر سريعاً ، لأن الدولة كانت في عطفوان قوتها . ولما أخذت الدولة في الضعف بدت للعيان أخطار هذه الزيجات . وفي هذا الصدد يقول أحد أولئك الباحثين « لا ريب في أن الملل الفتاكة التي تسرى إلى الأجسام في مقتبل العمر ، وإبان اشتداد الصحة ، قد لا تظهر علاماتها في عهد الشباب والصحة ، بل يتأخر ظهورها إلى أن تضعف المناعة منذ سن الكهولة . ومن هذا القبيل ما أصاب الإمبراطورية العثمانية من جراء تهافت السلاطين على الزواج من الأجنبية والتسرى بهن »^(١) ، ثم يعود هذا الباحث إلى التفرقة بين نوعين من الزيجات فيقول « إن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان ، اختاروا الزواج من الأحنبيات لغاية سياسية ، غير أن الذين أتوا من بعدهم اقتصررت غايتهم في هذا الزواج ، على انتقاء الحسناوات من الجوارى والسرارى » ويختم تعليقه قائلاً إن السلاطين العثمانيين قد منوا بحكم المحظيات^(٢) .

عثمان يوسع رقعة بلاده

اتخذ عثمان من ميخائيل ذى اللحية المرفجة Michael Fork Beard — وهو بزنطى مرتد عن المسيحية — نائباً له في ميادين الحرب . ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوراً على مقاطعة بيثنيا Bithynia إذ أغرته أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى على شن الإغارات الخاطفة على أراضي الدولة البيزنطية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بصفته أميراً في خدمة السلطان السلجوقى المسلم علاء الدين كيقيباذ الثالث ، ثم

(١) عماد جليل بهم : فلسفة التاريخ العثمانى . أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها . بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ — ١٤ .

بصفته - بعد سنة ١٣٠٧ م - أميراً مستقلاً بهذه الإمارة تمام الاستقلال ثم سلطاناً عليها .

وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وفي سنة ١٣٠٨ وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث استولى عثمان على قلعة عك حصار ، وباستيلائه عليها أطل العثمانيون على البوسفور، لأن هذه القلعة كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين في شبه الجزيرة الضيقة التي تمتد بين نيقوميديا والبحر الأسود والتي تكون الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة الأناضول .

وفي نفس السنة سيطر العثمانيون على الطريق المائي الموصل بين القسطنطينية وبروسه بعد أن استولوا على جزيرة كالوليني Katolimni التي تقع في بحر مرمره على مقربة من خليج مودانيا Mudania .

وسقطت في أيدي العثمانيين أيضاً قلعة تريكوكا Tricocca ويطلق عليها العثمانيون هودج حصار ، وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا ونيقوميديا .

وسمع عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦ بفتح مدينة بروسه (١)

(١) يطلق العثمانيون عليها أيضاً بروسه ، وأصبح لها شأن كبير في العالم الإسلامي منذ أن أنخذها أورخان بن عثمان مقرأ له وضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهي الألقه سنة ١٣٢٧ (٧٢٧ هـ) . ولما فتحت القسطنطينية وأنخذها السلطان محمد الثاني عاصمة للدولة صدرت الأوامر إلى سكان بروسه بالنزوح إلى العاصمة الجديدة . على أن بروسه استفادت من اتساع رقعة الإمبراطورية إذ غدت مركزاً لقيادة الحملات العسكرية في الشرق . والأهمية الاقتصادية لمدينة بروسه تفوق أهميتها السياسية في التاريخ العثماني ، فهي من أقرب المراكز الإسلامية إلى العالم المسيحي . وازداد وصوله ووافل الحرير الفارسي إلى سوق بروسه ، وتحت هذه القوافل إلى حد ما عن أسواقها القديمة مثل طرابزون وحلب . وغدت في سنة ١٤٠٠ مركزاً من أهم المراكز الدولية لتجارة الحرير وصناعاته . وتعتمد صناعة الحرير وتجارته في بروسه من أسباب الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به المدينة . وكانت كثرة الخانات — المراكز والمستودعات التجارية — في المدينة إبان القرن الخامس عشر الميلادي والتاسع الهجري دليلاً مادياً على حجم النشاط التجاري فيها . وروسه عاصمة ولاية خداندكار .

Brousse وكان ابنه أورخان علي رأس القوات التي زحفت عليها ، وأوصى عثمان بأن تنقل رفاته إلى بروسة في كنيسة القصر التي حولت فوراً إلى مسجد ، وأصبحت بروسة عاصمة جديدة الأتراك العثمانيين في سلسلة العواصم التي انتقلوا إليها عبر تاريخهم . وشيد السلاطين العثمانيون الأوائل في هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة ، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مساجد ، هي : يشيل جامع ، أولو جامع ، ييلدرم .

نخلص من هذا كله إلى أن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت نتاج عدة عوامل ، هي : الروح الدينية الجياشة ، والطبيعة العسكرية الصارمة ، والموقع الجغرافي لإمارتهم ، والأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها، وانفسحوا في بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا غزاة فاتحين .

نظرة أوروبا إلى الأتراك العثمانيين :

ومنذ أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١ م واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي لم تتعرض المسيحية لمثل هذا الخطر الداهم إلا عندما روعت أوروبا ابتداءً من القرن الخامس عشر بزحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم اتجاهم إلى قلب أوروبا . وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون - في تقدير أوروبا - هم الرمز الحي المحسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي ، وخلطوا بين العرب والأتراك . وكان هذا الخلط في أذهانهم نتيجة طبيعية . فقد كانت فتوح العثمانيين في البلقان ووسط أوروبا فتوحاً إسلامية ، وباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكرية صليبية ، أو ما يسمى بالتمبير العسكري الحديث جيوباً صليبية . وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني

التسطنطينية ، وباسم الإسلام قاد السلطان سليمان المشرع^(١) ست عشرة حملة عسكرية في جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار فيينا ، وباسم الإسلام والاتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب في شمالي أفريقيا في كفاحهم ضد الإسبان ، ودكوا القواعد العسكرية الأوروبية أو الجيوب الصليبية التي أقامها الإسبان على امتداد الساحل الشمالي لأفريقيا لتكون محطات عسكرية صليبية تأوى إليها السفن الإسبانية وغيرها في صراعها ضد القوى الإسلامية . فأسدى العثمانيون خدمات جليلة لعرب شمالي أفريقيا ، إذ حفظ الأتراك العثمانيون لهم عربيتهم وإسلامهم . وكان إذا اعتنق أحد المسيحيين الدين الإسلامي قال عنده رفاقه الأوروبيون المسيحيون وعشيرته إنه غدا تركيا ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً حتى إذا كان اعتناقه الإسلام قد حدث في فاس أو أصفهان .

“It is curious that while in Turkey the word Turk almost went out of use, in the West it came to be a synonym for Muslim, and a Western convert to Islam was said to have ‘turned Turk’, even when the conversion took place in Fez or Isfahan”. (2)

وعلى الرغم من أن كلمة تركي كان قد بطل استخدمها في الدولة إلا أن هذه

(١) يطلق جمهوره الباحثين على هذا السلطان صفة القانوني ويقولون سليمان القانوني . ولكن كلمة [المشرع] أكثر دقة من حيث الصياغة اللغوية ، لأن هذا السلطان قد أتاه الله موهبة عظيمة في وضع التشريعات والتعرض لأدق التفاصيل عند وضع أي تشريع . فلم تكن تشريعاته تعاد صغيرة ولا كبيرة إلا أمرت بها ، فجاءت جامدة مانعة . كما أن هناك فرقا بين هذين المصطلحين : المشرع والقانوني . يتضح من تقسيم السلطات في الدولة إلى ثلاث سلطات : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . وبلوح أن أحد الباحثين القدامى قد أطلق عن جهالة ودون فهم لوتر صفة القانوني على سليمان ، وجاء الباحثون بعد ذلك وطبقاً لتقليد الأعمى فأطلقوا عليه سليمان القانوني ، والتصفت به هذه التسمية كما التصفت في أدهان الأجيال المتعاقبة . وجدير بالذكر أن المراجع الفرنسية والإنجليزية تطلق عليه الصفة الصحيحة وهي المشرع على هذا النحو Soliman Le Législateur .

Suleiman . The Legislator .

(2) Bernard Lewis; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition, London, 1968, p. 13.

الكلمة كانت مرادفة لكلمة مسلم في أذهان الأوروبيين الغربيين^(١). وهكذا زالت فكرة العروبة من أذهان الأوروبيين أو كادت، وحلت محلها فكرة الإسلام في عمومها تمثلها قوة الأتراك العثمانيين بعد أن انتقل مشعل الإسلام إلى سواعدهم القوية. ولم تعد العروبة تثير في أوروبا سوى ذكريات بعيدة ترجع إلى ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والحضارة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية، وهي ذكريات تصلح لكي تكون موضوعات علمية لدراسات تاريخية مستفيضة بعد أن ازوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد العالمي وظهر عجزهم عن إقامة كيان دولي خاص بهم قائم بذاته يجمع شتاتهم وسط التيارات والمفاسد والمساومات الدولية في مطلع العصور الحديثة^(٢).

وفي ضوء هذا الرأي الذي استقر في أذهان الأوروبيين عن الأتراك العثمانيين اعتبروا أي نصر عسكري تحققه القوات العثمانية سواء في البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية. وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الأتراك العثمانيين فإن المحالفات الدولية التي تكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل كانت في لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام أمثلتها روح صليبية

(١) استخدمت لأول مرة وبصفة رسمية كلمتا تركيا وتركي للتعبير عن الدولة والمواطن مند إعلان النظام الجمهوري في تركيا سنة ١٩٢٣.

انظر المرجع السابق ص ٣.

(٢) الدكتور محمد بدیع شریف وزكي المحاسي وأحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ١٩٢ . وقد أعاد الدكتور عزت نشر الفصلين اللذين كتبهما في هذا الكتاب وهما الثالث والسادس في كتاب جديد بعنوان « دراسات في تاريخ العرب الحديث » وقد ضم هذا الكتاب ، فضلا عن هذين الفصلين ، دراستين سبق نشرهما : الأول عن « التقسيم الإداري السوري في العهد العثماني » ، والثانية عن « دمشق في منتصف القرن الثامن عشر » ، وأضاف إلى هذا الكتاب دراستين جديدتين الأولى حادت لإصطفية بنسوان « المسألة الجزائرية في السياسة الدولية من تأسيس النيابة إلى « سنة ١٨٣٠ » والثانية بعنوان « العالم الرئيسية في تاريخ القضية الفلسطينية » .

وقد تولت دارالنهضة العربية لطباعة والنشر في بيروت نشر هذا الكتاب سنة ١٩٧٠ .

ووجهتها روح صليبية . وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي لم تلتها إسقوط عسكا آخر معقل للصليبيين في يد المسلمين على عهد السلطان خليل بن قلاوون في الثامن عشر من مايو ١٢٩١ ، بل استمرت متجددة متيقظة في نفوس الأوروبيين في العصور الحديثة وإن اختلفت مبادئها وشخصياتها والدول التي شاركت فيها والأسلحة التي استخدمت فيها . وستعرض لهذه النقطة عند الكلام في مواطن قادمة على خصائص الحروب الصليبية في العصور الحديثة . ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التي أحرزها الأتراك العثمانيون على الأوروبيين قد أضفت عليهم هالة من المجد في أرجاء العالم الإسلامي ، ونظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلمها الظليل ، ونظروا إلى السلطان العثماني وهو يحوض الحروب تباعاً ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرجح في إعادة المجد النابر للإسلام . فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متملقة بالدولة العثمانية وعاهلها بصفتها خليفة وسلطاناً ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد في نفوس الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت المبكر من العصور الحديثة . وكانت الوشيجة الديلية هي التي ربطت بهرولة وثقى بين الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية سواء التي دانت لحكمها أو ظلت بمعأى عن سيطرتها .

تحميل بعض المؤرخين الأوروبيين :

ويبدو بعض المؤرخين الأوروبيين الأسف العميق لأنه حين استفحل خطر الأتراك العثمانيين على وسط أوروبا في القرن السادس عشر في أثناء حكم السلطان سليمان المشرع كانت أوروبا في شغل شاغل عن هذا الخطر الإسلامي الذي أهدق بها ، وانشغلت على بكرة أبيها - أباطرة وملوكاً وأمراء وشعوباً - بالصراع الديني المذهبي بين أنصار الكاثوليكية وأنصار الحركة اللوثرية وما تفرع عن الحركة الأخيرة من مذاهب ، فأصبح الأوروبيون في ذلك الوقت العصب طرائق قديماً ، واشتملت بينهم حروب خضبت أرض أوروبا بالدماء . وكان الواجب في نظر هذا الفريق من المؤرخين أن يسفر تساقط خطوط الدفاع الأوروبية في

أبدى العثمانيين عن وقف الصراع الديني المذهبي لتقف الدول الأوروبية كتلة واحدة وفي صف واحد كالبنيان المرصوص لدرء خطر هذا العملاق التركي الذي داهمها . وقد تناسى هذا الفريق من المؤرخين والمتاعين المحزونين أن المشروعات الصليبية كانت في القرن السادس عشر بالذات هي « المودة » La Mode الشائعة في السياسة الدولية . وقد تكررت ظاهرة إعلامية في أثناء الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا وإسبانيا واستطالت خمساً وستين سنة (١٤٩٤ - ١٥٥٩)^(١) . كان فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة يتنافسان حيناً ويتاجران حيناً آخر بمشروعات صليبية تستهدف إجلاء العثمانيين عن ممتلكاتهم في أوروبا وغزو إستانبول وطرد الأتراك العثمانيين منها . وقد شهد القرن السادس عشر محالفاً صليبية ضد الدولة العثمانية ، وحسبنا أن نشير إلى واحدة منها على سبيل المثال ، وهي المحالفة التي عقدت في سنة ١٥٣٨ بين البابوية وإسبانيا وجمهورية البندقية حين نزلت القوات العثمانية في أوترانت Otrante في إيطاليا^(٢) . وقد استطاع الأسطول العثماني تحطيم الأساطيل المتحالفة ضده في موقعة بريفيزا Prevéze جنوبي جزيرة كورفو .

نخلص من هذه الإشارة السريعة لتتحامل بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن الأتراك العثمانيين واجهوا تسكتلات دولية صليبية في القرن السادس عشر ، كما واجهوا أمثال هذه التسكتلات من قبل ومن بعد هذا القرن . ولعل الرأي الذي يبديه معظم المؤرخين الأوروبيين يخفى وراءه محاولة للتقليل من شأن الانتصارات

(١) أنظر عرضاً لهذه الحروب الإيطالية في مختلف مراحلها :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطالع المصور الحديثة . الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ص ١٣٦ - ٢٩٦ .

(٢) هي مدينة بحرية جنوبي إيطاليا ، تقع في إقليم يعرف بهذا الاسم وعلى مقربة من مضيق أوترانت الذي يصل بين البحر الأدرياتيكي والبحر الأيوني ، كما أن إقليم أوترانت يشكل كعب الحذاء الإيطالي . le talon de la botte italienne .

التي حققها الأتراك العثمانيون براً وبحراً ، أو لتبرير الهزائم التي نزلت بالشعوب الأوروبية ، وهو على أي الحالتين يكشف عن نزعة صليبية لاتزال كاملة مستعرة في نفوس فريق من المؤرخين الأوروبيين في القرن العشرين . وبقدر أسفهم على ما حدث في القرن السادس عشر كان ابتهاجهم للموقف السلبي الذي اتخذته الأتراك العثمانيون في القرن السابع عشر حين اندلعت في أوروبا حرب دينية طاحنة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هي حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، إذ لم يفتخر الأتراك العثمانيون هذه الفرصة للانقضاض مرة أخرى على وسط أوروبا ثم التوغل في غربيها ، وكانت الدولة العثمانية تمر في أثناء هذه الحرب بنوبة ضعف أصابتها بالشلل العسكري .

الفصل الثالث

الخصائص العامة

للدولة العثمانية (1)

أولاً: دولة عسكرية

تجمعت في الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ، نذكر منها ما يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذه الدراسة . كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، وتبوقراطية un état théocratique أى دينية ، وعلمية ، وذات حكم مطلق ، وطبقية ، وإقطاعية من نوع خاص .

والحق أن العسكرية الصارمة كانت الخصيصة الأولى للدولة . وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكري العنيف . ولم تكن النزعة الحربية لدى العثمانيين نزعة طارئة ، بل كانت نزعة أصيلة استمدوها من بيتهم الأولى في أواسط آسيا قبل أن يتجهوا إلى آسيا الصغرى . وقد عزز هذه النزعة الحربية الموقع الجغرافي لإماراتهم في شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كان بعضها مسيحياً والبعض الآخر إسلامياً . وكانت العلاقات بين العثمانيين وهذه الكيانات السياسية علاقات عدائية في معظم الفترات ، إذ قامت الإمارة العثمانية — كما سبق أن ذكرنا — على سياسة التوسع الإقليمي في شتى الاتجاهات ، ومن ثم اضطفت حياة العثمانيين بالصبغة العسكرية ، وعلى ذلك فإن الحياة العسكرية بكل ما تنطوي عليه من معاني النظام والصرامة والشجاعة واسترخاض الموت والطاعة العمياء كانت مصاحبة لنشأة إمارتهم . واستمر العثمانيون هذه الحياة ، فالتصقت بهم والتصقوا بها عبر العصور والأدهار .

كان الشعب العثماني مدرباً للحرب، مطواعاً للسلطين، نظر إلى الحرب على أنها واجبها الأول. واستأثر الجيش بالمسكانة الأولى من عناية السلطين، ولذلك كان الجيش العثماني يتميز بالتنظيم العسكري الصارم والتدريب الدقيق الطويل، والعداد الوفير وتنوع الأسلحة من مشاة وفرسان ومدفعية. وكان سلاح المدفعية فقا كما رهيباً كفل للعثمانيين انتصارات ساحقة وخاطفة على أعدائهم، وبخاصة عند ما كان هؤلاء الأعداء يعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح الفرسان.

كان المبدأ الأساسي للدولة العثمانية هو أنها بدأت إمارة غزاة محاربين، فانسعت رقعتها وتطورت إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، ولكنها تلتزم أولاً وقبل كل شيء بنفس المبدأ لا تحيد عنه، وهو أن الدولة قاعدة لجيش يجب أن تسخر البلاد في خدمته، وفي تزويده بالقوى البشرية والمادية، ونشر التعبئة الروحية بين أفرادها، وهذا المبدأ هو الذي دان به الأتراك العثمانيون، وكانوا لا يبيغون عنه حولا.

وظيفة الجيش:

وفضلا عن ذلك جعلت الدولة العثمانية للجيش وظيفتين: الحرب والحكم. فهي تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عدتها زمن الحرب. وقيل في هذا الصدد إن الجيش العثماني كان بمثابة عملة نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب، ونقشت على الوجه الآخر كلمة الحكم. وفي ضوء هذا الاختصاص الثنائي للجيش العثماني كان العسكريون في الدولة لا يشغلون المناصب العسكرية فحسب، بل كانوا يشغلون أيضاً التاليفية العظمى من المناصب المدنية القيادية وما دونها ما عدا مناصب القضاء والوظائف الدينية.

وفي ظل هذه النظرة مدت الدولة الاختصاص الثنائي للجيش إلى الولايات العثمانية. وهاتان المهمتان — الحرب والحكم — اللتان جعلتا من اختصاص الجيش العثماني قد ارتبطتا ببعضهما البعض أشد الارتباط. ومن هنا كانت سيطرة الجيش

على أجهزة الحكم وعلى الغالبية العظمى من شتى القطاعات ظاهرة واضحة في تاريخ الدولة العثمانية .

يقول المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي Arnold Toyenbee إن العثمانيين يستمدون طريقتهم في حكم الشعوب التي دانت لهم من واقع البيئة الأولى التي نشأ فيها هؤلاء العثمانيون، وهي بيئة البراري في أواسط آسيا والتي تسمى أيضاً أراضى الإستبس Steppe Land ، فالسلطان العثماني كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان العثماني يمارس رعى الماشية في أراضى الإستبس أو البراري . ويقول هذا المؤرخ إن ممارسة الرعى كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الراعي والماشية وكلب الحراسة . فالسلطان - في رأى هذا المؤرخ - هو الراعي ، أما الماشية فهي الشعوب التي خضعت للدولة ، أما كلب الحراسة فهو الجيش العثماني (١) .

وفي الحروب العديدة المتلاحقة التي خاضها العثمانيون في أوروبا وبخاصة في القرن السادس عشر كان المراقبون العسكريون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرفيع الذى بلغه الجيش العثماني تسليحاً وتدريباً وتنظيماً . وقد سجدوا آراءهم عن عظمة الجيش في تقارير بعثوا بها إلى حكوماتهم . ونذكر منها على سبيل المثال ما كتبه بوسبيك Busbecq السفير النمساوى في إستانبول عام ١٥٥٤م، وقد هالته الفروق الصارخة بين الجيش العثماني والقوات المسلحة للدولة الرومانية المقدسة . وقال إن دهشة بالغة تمتريه حين يمدد المقارنات بينهما، ثم ينسكر في النتائج التي يسفر عنها الزحف العسكرى العثماني على أوروبا فتروعه هذه النتائج . وكان مما قاله إن هاتين الدولتين كانتا تقفان في مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما . وفي جانب توجد الدولة العثمانية وهي إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء، تحشد جيوشاً جراءة تسودها روح عسكرية عالية . وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتميز . وفي جانب آخر

(1) Toyenbee Arnold J.; A Study of History. London, 1945, Vol- 111. pp. 22-28.

توجد الدولة الرومانية المقدسة، ويتصف جنودها بالإغراق في الترف والميل إلى المناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخلاعة والدعارة والدجور والإسراف في الأكل . ويخلص هذا البعوث المساوي من مقارناته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للنزو وتحقيق الانتصارات ، أما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم^(١) . وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح : لأنها صادرة عن رجل معاصر ، ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين ، ولأنه رجل عرف بدراساته العميقة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، وهي دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجال الدولة العثمانية^(٢) .

وهناك أستاذ أمريكي - يسمى ليبيير Lybyer - توفر على دراسة النظم العثمانية يقول إن الجيش العثماني كان يجمع بين أفراده جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحلة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على بكرة أبيه حول السلطان . وفي مسيرة الجيش وفي مرابطة في المعسكرات وفي خوضه المعارك كان كل فرد في فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسي الذي ينظم جميع عمليات التشكيل التي تتم في المعركة ، والكل يدين له بالولاء التام جسماً وعقلاً وروحاً .

(1) When I compare the difference between their soldiers and ours I stand amazed to think what will be the event. For on their side there is a mighty strong and wealthy Empire, great armies, experience in war, a veteran soldiery, a long series of victories, patience in toil, concord, discipline, frugality and vigilance. On our side there is public want, private luxury, soldiers refractory, commanders covetous, a contempt of discipline, licentiousness, rashness, drunkenness, gluttony; and what is worst of all, they are used to conquer, we to be conquered. see Hubbard G. E.; The Day of the Crescent. p. 85.

(٢) من مؤلفات هذا السفير المساوي نذكر :

a) Legationis turcicae epistolae. leyde, 1633.

b) Opera omnia quae exstant. Bale, 1٥40.

The Sultan was commander-in-chief of the entire army, standing, feudal, and irregular. When the army was summoned for a great campaign, it gathered about him; on the march and in campaign, every body of troops had its place with reference to him; in formation of battle, he was the central point about which the whole vast display was organized. When the army was assembled, and then only, the Sultan stood forth visibly and palpably as the head and center of the ruling Institution and of the Ottoman Nation upon which it rested. His kullar ⁽¹⁾ were gathered about him in devotion of body and soul, they were going forth under his leadership against the infidel or the heretic, . . . They marched, encamped and fought under his eye and command, they formed an honored and privileged nucleus in the midst of a vast, loyal, and ambitious national army. (2)

الأسطول:

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يكونوا رجال بحر وكانوا يهتمون أول الأمر ركوب البحار إلا أنهم سرعان ما أدركوا أهمية السفن الحربية في المحافظة على ممتلكاتهم الجديدة وضم مزيد من الممتلكات، ومن ثم أنشأوا الأسطول البحري لمغازلة الدول التي كانت تعتمد على السلاح البحري مثل الدولة الرومانية الشرقية وجمهورية البندقية وجمهورية جنوة وغيرها. وسنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلا للقوات المسلحة العثمانية بتسميتها بالجيش والأسطول.

(١) لفظة Kullar التي وردت في المصنف الإنجليزي كلمة تركية هي فولار، ومعناها عبيد وهي جمع قول Kul أو Koul أي عبد .

(2) Albert Howe Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. Harvard University Press. 1913. pp. 109—110.

ثانياً : دولة دينية

والدولة العثمانية دولة دينية • ويقصد بهذه العبارة الطابع الديني الإسلامي الذي اتسمت به تشريعاتها ومعظم تصرفاتها •

كان للهيئة الإسلامية في الدولة وضع معترف به ومركز مرموق • وكان يطلق على رئيسها المفتي أو مفتي إستانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع أو النشاط الديني تخضع لفهذه • وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما حزبهم أمر أو أهدموا على مشروع خطير • كان المفتي يصدر فتوى تميز الحروب التي تخوضها الدولة دفاعاً أو هجوماً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام التي واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل ، وكانت الدولة تهتم اهتماماً بالغاً بنشر التعمية الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى « تسخين » الجنود روحياً قبل خوض المعارك •

المسجد الكبير :

وكان من مظاهر الطابع الديني الذي اتسمت به الدولة العثمانية العناية الفائقة التي أبدتها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التي غدت رمزاً مجسداً للفن المعماري العثماني وما بلته من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطي فيه . ونشير هنا إلى أن السلطان محمد الفاتح لم يقنع بتحويل كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد عقب فتح مدينة القسطنطينية ، بل اهتم ببناء مسجد جديد في قلب العاصمة بعد أن أطلق عليها اسم إستانبول . وأقام المسجد الجديد على أنقاض الكنيسة الرسولية التي كانت تستخدم في وقت سابق مدفناً للأباطرة . وأطلق على هذا المسجد الجديد الجامع الحمدي أو جامع السلطان محمد الفاتح . ولما تولى السلطان سليمان المشرع العرش شرع في سنة ١٥٥٠ — وكانت الدولة قد بانقت أوج قوتها — في إنشاء

مسجد عظيم في إستانبول قدر له أن يحجب عظمة المبنى المهارى الضخم الذى عرف بكاتدرائية القديسة آيا صوفيا. وغدا جامع سليمان من أجمل وأروع المساجد فى الدولة^(١). وازدانت استانبول بمسجد رائع آخر شيده السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) وتنازرت المساجد الكبرى فى المدن العثمانية مثل بروسة وأدرنة وغيرها. ويقول أحد الباحثين إن رصد الإعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الدينى المتسلط على الرعايا العثمانيين. ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة. ولم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين^(٢).

ولم يكن إهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التى كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم، بل امتد هذا الإهتمام إلى الولايات الإسلامية. فى مصر - على سبيل المثال - كان الباشوات العثمانيون يشيدون - بناء على أوامر تصدر لهم فى غالب الأحيان من إستانبول - مساجد جديدة لا تزال إلى اليوم تحمل مظاهر العمران فى مصر إبان الحكم العثمانى. ونذكر من هذه المساجد : مسجد سليمان باشا فى القلعة (١٥٢٨) ، والمحمودية (١٥٦٧) ، وسفان باشا (١٥٧١) ، والمللكة صفية (١٦١٠)^(٣). وكان السلاطين يمهدون إلى الولاة فى مصر بإصلاح

(١) بروكلمان كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ، والأستاذ منير البعلبكي . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) محمد جميل يهيم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، الطبعة الوطنية ، بيروت . ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ .

(٣) أنظر بخصوص المساجد التى شيبت فى مصر إبان الحكم العثمانى كلام من : حسن عبد الوهاب باشا . تاريخ المساجد الأثرية . الناشر وزارة الأوقاف بالقاهرة ، مطبعة دار الكتب جزهان ، ١٩٤٦ ح ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٨ ، ص ٣٠٢ - ٣١١ . دكتور عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى . مشروح الألف كتاب . مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٤ ، و ص ٧٩ . دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣١٥ ، و ص ٣١٩ .

وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر^(١).

التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية :

ووضع الطابع الديني وعمقه في الدولة من حرصها على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى. فن الناحية الأولى كانت الدولة تؤكد في شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً دقيقاً بمبادئ الشرع. ونذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامه الذي وضعه السلطان سليمان المشرع توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت في صدره « قانوننامى سلطانى كى شريعى شريفى موافقانى محرر اولوب » أى « القانون نامه السلطانى الذى يتفق مع الشريعة الشريفة »^(٢).

أما من الناحية الثانية وهى المحافظة على التقاليد الإسلامية، فنذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان، ولذلك لم يكن يجزأ أحد، مهما كان مركزه، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم، على أن يأكل أو يشرب في مكان عام في أثناء النهار طوال شهر الصيام. كان ضرب هذا الشخص أو تجريسه من الإجراءات الفورية الرادعة التى تتخذ ضده. وكان التجريس عقوبة مقررة ومعترفاً بها. فكانوا يحلقون نصف لحية المذنب ونصف شاربه، ثم يضعونه على ظهر حمار، ووجهه متجه إلى ذيل الحمار، ويقبض بيده على ذنب الحمار، ويمعمون هذا الشخص بمصارين ذبيحة أى

(١) عبد الجواد صابر إسماعيل : دور الأزهر في مصر إبان الحكم العثماني رسالة أعدت تحت إشراف اللؤلاف وأجيزت لدرجة الماجستير بتقدير جيد جداً في التاريخ الحديث من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٠، ص ص ٣٣٧ - ٣٤٤ (لم تطبع الرسالة بعد) .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East. Volume 1, part 1 and Part II. Oxford University Press. 1962. Vo!. I Part 1, p. 23, fn., 2.

بأمعائها ، ويضعون على كتفيه كرشها أو جلدها ، ويطوفون على هذه الصورة
المنكرة الشوارع والطرق ، ورجال أشداء يصنعونه ويضربونه بالغلل ،
وكانوا يجمعون حوله الصبية يصرخون ليجتمع حوله مزيد من الناس .
وكان التجريس يستخدم إذا كان المفطر مسلماً شاباً قوياً صحيح الجسم .
وكان يطلق أيضاً على هذه العقوبة التشهير . وكان لا بد أن يعقب إحدى
هاتين العقوبتين توقيع عقوبة أخرى هي الزج به في الترسيم أى الاعتقال^(١) .
وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على المسلم وغير المسلم على حد سواء .

أربع قوافل رسمية لأداء الحج :

تولت الدولة تنظيم الحج إلى الحجاز وأشرفت عليه إشرافاً فعلياً ، واعتبرت
هذا العمل واجباً يقع على عاتقها على الرغم من أن الدولة كانت تمارس الحكم
في نطاق ضيق جداً لم يكن يتجاوز بضعة قطاعات ، مثل الإدارة المالية
وتشمل جمع الضرائب من الممولين معتمدة على للمتزمين في الأرياف وشيوخ
الطوائف في المدن ، ثم المحافظة على الأمن العام ، وتنظيم مرفق القضاء .
فكانت قلة التدخل الحكومي من أهم ما يتصف به الحكم العثماني^(٢) . وقد
نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي ،
وأن واجب ولي الأمر تيسير الحج أمام الراغبين في أداء هذه الفريضة .

(١) كانت تستخدم في بعض المراجع كلمة « العرقانة » بنفس معنى الترسيم . والعرقانة
سجن يوضع فيه المعتقلون والذين صدرت عليهم أحكام قضائية .

(٢) دكتور عبد العزيز عماد الشناوى : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر
لإبان الحكم العثماني . بحث في إحدى وستين صفحة من القطع الكبير نوقش في الندوة الدولية
لتاريخ القاهرة (٢٧ مارس - ٥ أبريل ١٩٦٩) وطبع في المجلد الثاني من بحوث
الندوة ، ص ٦٦٧ - ٧٢٥ .

فأنشأت الآبار على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز وأقامت في البادية حصوناً لحراسة الآبار وشجعت على تشييد الخانات^(١)، وأقامت المخافر، وكانت تتمحرك كل سنة أربع قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة ووفق نظام رتيب وفي رفقة قوة عسكرية يقودها أحد كبار المسكرين يسمى سردار الحج^(٢) . وكانت كل قافلة ترأسها شخصية كبيرة تسمى أمير الحج . وكانت هذه القوافل من حيث الأهمية الهدية : قافلة الحج الشامي وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكرديستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وحجاج إستانبول نفسها ، وكانت أوفر مدن البحر المتوسط سكاناً بعد البندقية . وكان عدد أفراد قافلة الحج الشامي يتراوح في كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً . ثم قافلة الحج المصري

(١) خانات جم خان وهو فندق أو وكالة ممددة لاستقبال التجار الأغرأب والحجاج وغيرهم من المسافرين . والخان عبارة عن بناء في وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تسمى الحوش ، ويحيط بهذا الحوش رواق على الحوائط الأربعة ، والرواق مرتفع على أعمدة . وينزل المسافرون في الدور العلوى ويسمى الطابق (ومزدها طابق) ، والطابق مقسمة إلى عدد من الغرف تطل على الحوش الذى يتوسط الخان . وفي الدور الأرضى كان يخصص محل لإيواء الجمال والخيول وغيرها من الحيوانات التى يركبها المسافرون كما كانت توجد في الدور الأرضى علات أو مخازن تودع فيها بضائع التجار النازلين في الخان . وفي القرن السابع عشر أدخل تعديل على تصميم الخان ، فأصبحت الساحة الداخلية — الحوش — أقل مساحة . وكان الحوش يسقف بالقباب ، فيتحول إلى مستودع إضافى لتككون البضائع بأمن من التقلبات الجوية . وكان يوجد بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد . وكان الخان عنصراً حياً نهالاً في حياة المدن في تلك العصور .

انظر كلامن :

جان سوفاجيه : دمشق الشام . لحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، تهريب فؤاد أنرام البستاني . الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٤٢ — ٤٦ .
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١١ .

(٢) سردار منهاها قائد .

وتضم حجيج مصر وشمال أفريقيا ، ثم قافلة الحج العراقي وتضم حججاج العراق وفارس ، ثم قافلة الحج اليمني وتجمع حجيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا وغيرها .

تشجيع التصوف :

وكان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة الدولة تشجيع التصوف بين العثمانيين . وقد تركزت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأتباع . وانتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً أول الأمر في آسيا الصغرى ، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة . وقيل في هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين^(١) . وقد مدت الدولة يد العون المالي إلى بعض الطرق الصوفية ، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القويمة المذهب وفضلتها على غيرها^(٢) . وكان من أهم الطرق الصوفية : القشبنديية ، والمولوية ، والبكتاشية ، والرفاعية أو الأحمديية ، والخلوتية ، والكاكازونية نسبة إلى المتصوف الإيراني أبي الإسحاق الكاكازوني ، ولذا تسمى أيضاً الطريقة الإسخاقية أو المرشدية^(٣) . وقد نجم عن تمدد هذه الطرق الصوفية من ناحية وانتشارها من ناحية أخرى أن بدأ الطابع الديني ملحوظاً بل قوياً في نفوس العثمانيين وامتازت حياتهم الدينية بالحيوية .

(١) بروكلمان كارل: الاتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .
(2) Hourani Albert; The Ottoman Background of the Modern Middle East. Essex, England, 1970. p. 8.

(٣) كان أتباع هذه الطريقة يمتنقون مبدأ الدعوة الدينية ومهادنة السكفار . وقد دخلوا شبه جزيرة الأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بمد الغزو المغولي مباشرة ، وزاولوا نشاطهم في منطقة الإمارات التي كانت قائمة في غرب الأناضول ، وظفروا بمركز ممتاز في دوائر الحكومة العثمانية ، وأضنى السلاطين العثمانيون حمايتهم على أتباع هذه الطريقة للاستفادة بهم في إذكاء الروح الدينية الإسلامية في تلك المنطقة المهامسة التي كانت مسرحاً لهمليات حربية متعاقبة خاضها العثمانيون ضد السكيكيات المسيحية .

انظر : محمد فؤاد كوبر إلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨

نظام الفتوة :

وإلى جانب الطرق الصوفية وجد في الدولة نظام الفتوة الذي كان الطابع الإسلامي للفروسية العربية. وكان هذا النظام موجوداً في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، ولكنه أخذ مظهراً جديداً على يد الأتراك العثمانيين. وعرف أفراد هذا النظام بعدة أسماء منها آخيان روم ، والأخية الفتيان ، والآخيات . وكان الاعتقاد السائد بين جمهرة الباحثين إلى عهد قريب أن كلمة آخيان مأخوذة من اللفظة العربية إخوان ، وأن مفرد آخيان هو آخي . ولكن فرد المستشرق الفرنسي Dony J. أن كلمة آخي جاءت من اللفظة التركية آخي بمعنى الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرم ، وأنها ليست مأخوذة من الكلمة العربية آخي^(١) . وهذا التفسير أدنى إلى الحقيقة ، لأن هاتين الصفتين . وهما الشهامة والكرم - كانتا من أبرز صفات أفراد هذه الجماعة . وقد التقى بهم الرحالة المسلم ابن بطوطة^(٢) في جولاته في الأناضول في أثناء رحلته الأولى التي كانت أطول وأهم رحلاته الثلاث ، وقد قضى في رحلته الأولى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً^(٣) . وعاصر اثنين من سلاطين الدولة العثمانية هما عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) وابنه أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٠) . وقد زار ابن بطوطة بلاد الأناضول في أثناء حكم هذا

(١) محمد نؤاد كوبرلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين وشهرته ابن بطوطة . وقد ولد في طنجة في اليوم السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٠٤ م وجاز إلى ربه في مدينة فاس سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ - ١٣٦٩) م . وكان قد توفى على السابعة والستين من العمر . وفي رواية أخرى أنه توفي سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧) م وله من العمر قرابة أربعة وسبعين عاماً . وكان لدى وفاته يتولى القضاء في فاس .

(٣) بدأ ابن بطوطة رحلته الأولى من طنجة مسقط رأسه « في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب المراد عام خمسة وعشرين وسبعمائة متمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام » (١٤ يونيو ١٣٢٥ م) ، وأتمها في مدينته فاس التي وصل إليها « يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة » (نوفمبر ١٣٤٩) . وقد انتهى من رحلاته الثلاث في سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٤ م) .

الابن السلطان أورشان . وقابله وقال عنه إنه أكبر ملوك التركان وأكثرهم
مالاً وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته
يتفقدوها ، ويقوم بكل حصن أياماً لإصلاح شئونه . وقد أعطى ابن بطوطة صورة واضحة
للدولة العثمانية في دور نشأتها ، إذ وصف الإمارات والدويلات التركية المتعددة قبل
أن يجمعها كلها الأتراك العثمانيون في دولة واحدة^(١) . وبمفنا في هذه الدراسة أن
ابن بطوطة خالط الإخوان الأتراك ووقف على نظمهم وزواياهم وأسلوبهم في
الحياة ، ثم تحدث عنهم في كتابه^(٢) حديثاً شائفاً ضافياً تحت اسم الأخية الفتيان^(٣) .
وقال إنهم كانوا مثلاً فريداً في الشجاعة والكرم وقضاء الحوائج والوقوف في وجه
الظلم والافتصاص من الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر . وكانوا يحملون معهم
الأسلحة في حلهم وترحالهم . وذكر أنهم كانوا يتنافسون على استضافة الغريب

(١) دكتور محمد محمود الصياد: رحلة ابن بطوطة . بحث منشور في «تراث الانسانية»
القاهرة ، المجلد الثالث لسنة ١٩٦٥ ، العدد الثاني ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ١٠١ — ١١٦ .
(٢) من التجاوز أن نطلق كلمة « كتابه » ، لأنه لم يضع هذا الكتاب ، فإنه لما
انتهى من رحلاته الثلاث ، وكان قد أمضى فيها زهاء ثلاثين سنة سائحاً في الأرض ، حط رحاله
في فاس باستدعاء من السلطان أبي عمان من ملوك بني مرين ليجلس إلى الناس في تلك المدينة
يحدثهم عن مشاهداته في البلاد التي زارها . وطلب السلطان من أحد موظفيه وهو محمد بن جزى
الكلبي أن يدون أحاديث ابن بطوطة . وقضى في هذا العمل ثلاثة أشهر يستمع إلى الرحلة
ويدون ما يقوله . وفرغ من هذا العمل في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين
وسبعمائة (ديسمبر ١٣٥٥ م) ويلوح أن هذا التدوين كان مجرد مسودة للرحلة ، وأعاد
صياغتها ، « فكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة » (فبراير
١٣٥٦ م) أي أنه انتهى قرابة ثلاثة شهور في تبيس المسودة ووضعها في صورتها النهائية .
وأطلق على الكتاب اسم « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

(٣) البيهقي (محمد بن فتح الله بن محمد البيهقي) : المنتقى من رحلة ابن بطوطة الطنجي
الأندلسي . وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة الأزهر برقم ٤٠٦٣ ، وتقع في ٧١ ورقة أي ١٤٢
صفحة . وقد رجعا إلى هذه المخطوطة التي تناولت أخبار الأخية الفتيان ص ١٨ — ٢٨ .

وقد طهرت عدة طبعات ومختصرات نقلت عن هذه المخطوطة ورجعنا إلى كتابين آخرين
أحدما : « رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
روجمت وصححت على عدة نسخ خطية بمعرفة لجنة من الأدباء سنة ١٩٦٤ م — ١٣٨٢ هـ »
وهي في جزئين يقعان في مجلد واحد . وقد نشرتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ص ١٨١
و ٢٠٩ والكتاب الآخر يسمى « رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس
وأفريقيا » للأستاذ محمود الشرفاوي . وتقع هذه الطبعة أيضاً في جزئين في مجلد واحد
ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٦٦ .

الوافد إلى بلدتهم . وكان نظام هذه الجماعة أن ينتخب أهل كل صناعة أو مهنة أو حرفة رئيساً لهم بلقب أخى ، ويشترط أن يكون الرئيس وجماعته من الشبان العزاب المتجردين ، ويقدمون رئيسهم عليهم . ويبقى الرئيس زاوية وداراً للضيافة ويشترك الجميع في نفقاتها وخدماتها ونفقات ضيوفها . ووصف ابن بطوطة زواياهم وقال إنها منتشرة في طول البلاد وعرضها ، وأنها توجد في كل مدينة وبلدة وقريّة ، كما توجد في مناطق الحدود . وكانوا يذهبون سويًا إلى المسجد في صلاة الجمعة والعيدين وفي المناسبات الدينية الأخرى ، ويحيطون بحاكم الإقليم أو المدينة ، وكل منهم يحمل سلاحه .

وينسب الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي - إسناداً إلى النقوش وشواهد القبور والوقفيات والمصادر التاريخية - أنهم كانوا جميعاً عزاباً ، ويقرر أن أعداداً كثيفة العدد منهم كانوا متزوجين ، وأنهم كانوا من أرباب الثروات الضخمة والنموذ العريض ، وأن من بينهم من تقلد المناصب الإدارية العليا . وكان لهم أدوار خطيرة في تأسيس الدولة العثمانية وفي إنشاء فرق الإنكشارية في الجيش . وكان السلاطين العثمانيون وكبار القادة ينزلونهم منازل التكريم^(١) .

وقد اختلط أفراد هذه الطائفة بطوائف الصانع في المدن ، واتصلوا بأصحاب الأراضي في الريف اتصالاً وثيقاً ، ثم انضم إليهم عدد من رجال الدولة في الأناضول ، ومن القضاة والتجار والمشايخ الذين يفتنون إلى طرق صوفية شتى . والتحق هؤلاء وأولئك بزوايا الآخيان . واختلط الأمر على كثير من الباحثين ، فذهب بعضهم إلى أن الآخيان كانوا يشكلون منظمة لأرباب الحرف ، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا إحدى الطرق الصوفية . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أفراد طائفة الآخيان قد اصطفتوا بالطابع الصوفي ، ولكنهم لم يشكلوا طريقة صوفية خاصة بهم . وجدير بالذكر أنهم كانوا يعتقدون المذهب السني . ولم

(١) محمد فؤاد كوبرلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

يكن في استطاعتهم اعتناق المذهب الشيعي لأنهم كانوا يخضعون لرقابة الدولة .
وكانت السلطات العثمانية متعصبة جد التعصب للمذهب السني وقد زاد تعصبها لهذا
المذهب حدة طول صراعها مع الدولة الصفوية في فارس .

اختيار اسم إسلامي بدلاً من القسطنطينية :

ومما تجدر الإشارة إليه - ونحن نتكلم عن الطابع الديني للدولة العثمانية -
التسمية الإسلامية التي أطلقها السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية عقب استيلائه
عليها في ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ، فقد استبدل بهذا الاسم اسماً جديداً هو إستانبول^(١) ،
وهي كلمة تركية معناها دار الإسلام . ولا يخفى المغزى الديني لهذا الاسم الإسلامي
الذي أطلقه السلطان على عاصمة دينية وسياسية ظلت قروناً وأعصرراً وأدهاراً
مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية - اليونانية - تهفو إليها قلوب الملايين
من أتباع هذه الكنيسة ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ
أن أنشئت سنة ٣٣٠ م على يد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧)^(٢)
وظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت في وجه السهين الأوائل وحالت دون
امتداد الفتح الإسلامية إلى شرقي أوروبا حتى جاء الزحف العسكري العثماني
بطرق بشدة ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية منذ مطلع القرن الرابع عشر .
واستولى العثمانيون على هذه العاصمة التي كانت يونانية الحضارة واللغة والتراث ،
أرثوذكسية المذهب الديني . ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه أو اسم
أحد من أسلافه على هذه المدينة على الرغم من أنه كان يملك القدرة على مثل هذا

(١) تكتب في بعض المراجع إستانبول تارة وإسلامبول تارة أخرى .
(٢) دكتور سهيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا المصور الوسطى ، جزءان ، الجزء
الأول : التاريخ السياسي ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، ص ٢٠
٢١ - ٢٠ .

التغيير، واسكنه اكتبني بتغيير اسمها وجعله اسماً إسلامياً ، وفتح بنقل عاصمة دولته إليها. وهذان التغييران كانا أبلغ من أى تغيير آخر .

تقليد ديني عند إرتقاء السلاطين العرش :

استقن سلاطين الدولة تقليداً دينياً عقب فتح القسطنطينية وإطلاق الاسم الإسلامي «إستانبول» عليها . كان السلطان محمد الفاتح في قمة ابتهاجه بهذا النصر العظيم الذي حققه بإستيلائه على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وتقديراً منه للدور الذي قام به الصحابي أبي أيوب الأنصاري أحد قادة الجيش الأموي الذي زحف على القسطنطينية سنة ٦٧٠م على عهد يزيد بن معاوية لفتحها واستشهد في عماليات الحصار وكان كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح هذه العاصمة البيزنطية بأيام قد أدى إلى تفجير الشعور الديني الإسلامي لدى الجيش العثماني المهاجم — رأى هذا السلطان أن يشيد مسجداً بالقرب من ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصاري ، وازدان هذا المسجد بالرخام الأبيض . وإلى جانب هذا المسجد ، وفي مقام الشهيد أبي أيوب الذي لا يمدو أن يكون بناء مربعاً بسيطاً تعلوه قبة ، كان يقام حفل ديني رسمي عقب إعتلاء كل سلطان جديد العرش . فكان السلطان يذهب في موكب رسمي حافل إلى هذا المسجد ، ثم يدلف إلى ضريح أبي أيوب الأنصاري . وفي جو ديني عابق كان السلطان الجديد يتسلم من يد شيخ الطريقة المولوية - بيوك چلبى - سيف السلطان عثمان الأول الجلد الكبير للسلاطين العثمانيين (٢) .

اهتمام عميق بالحجاز :

ويبرز الطابع الديني للدولة في اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن غدا ولاية عثمانية . فكانت تبعية الحجاز للدولة قد أضفت عليها مركزاً دينياً مرموقاً في جميع

(١) انظر فصلا في هذه الدراسة بعنوان فتح القسطنطينية .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

أرجاء العالم الإسلامي على أساس أن هذه الولاية تضم أمم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض. وتجلي هذا الاهتمام في عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول وهو لا يزال في القاهرة لولاية الحجاز دون سائر الولايات العثمانية . وسار على هذا النهج السلاطين العثمانيون الذين تربعوا على عرش الدولة من بعده ، وعملوا على دعم هذه الامتيازات بحيث أصبح في حكم الاستحالة المساس بها . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبي ، فكان الحجاز لا يقدم جزية سنوية للدولة على الرغم من أن السلطان كان يحرص على فرض هذا الالتزام على معظم الولايات العثمانية ، أما ولاية الحجاز فكانت تتلقى كل عام اعتمادات مالية ضخمة ترصد في ميزانية الحكومة المصرية ^(١) . وقد أمر السلطان سليم الأول بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للحجاز ، كما أمر بأن تتحمل الحكومة المصرية هذه الالتزامات القديمة والمستحدثة . وكان يطلق عليها المصطلح التاريخي « الصرة » وترسل مع قافلة الحج المصري . وكان إرسال « الصرة » إلى الحجاز يعد من أهم واجبات الباشا العثماني في مصر ، ويحاسب حساباً عسيراً إذا قصر في إرسالها . وإلى جانب إعفاء الحجاز - كولاية عثمانية - من دفع الجزية للدولة تتمتع أهل الحجاز - من قبيل الرعاية لهم - بالإعفاء الضريبي من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوى ضرائب على أصحاب الأغنام والجمال ^(٢) . وتمتع سكان الحجاز أيضاً بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية ، كما أبتت الدولة على الحكم الذاتي

(١) كانت هذه الاعتمادات تتكون أساساً من حصيلة الأراضي الزراعية وغيرها من المقارات الثابتة التي أوقفها أهل البغل من المسلمين ومصر زلي إلى الله لتصرف على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى الأشراف وغيرهم من سكان مدن الحجاز . وبجانب الأموال السائلة كانت تشحن إلى الحجاز كميات من القمح والذرة والأرز .
(٢) انظر كلا من :

حسين بن محمد نصيف : ماضي الحجاز وحاضره . جدة ١٩٤٩م (١٩٣٠-١٩٣١) ص ٩٤
حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين - الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٣٨٧ م
(١٩٦٧) م ، ص ١٥٢ .

الذى كان يتمثل فى نظام الشرافة وأقامت بجانبه نظاماً مدنياً . (١)

لقبان دينيان :

اهتم سلاطين الدولة العثمانية اهتماماً عظيماً للغاية بإبراز لقبين دينيين من بين القابيم العديدة ، إذ كان هذان اللقبان يضيفيان على سلاطين آل عثمان صبغة دينية لها بريقها ووزنها فى أرجاء العالم الإسلامى . كان أولهما لقب « حامى حى الحرمين الشريفين » أو « خادم الحرمين الشريفين » وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان سليم ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز . وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى . وكان مرد اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد زمامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامى ، بعد أن انتصر العثمانيون على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة تشالديران (٢٢ من أغسطس ١٥١٤) ودخلوا تبريز عاصمة فارس التى هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبعد أن قضى العثمانيون بعد ذلك على دولة المماليك البرجية واستولوا على الشام ثم مصر ، وبعد أن دخل إقليم الحجاز تحت السيادة العثمانية سنة ١٥١٧ وأصبح ولاية عثمانية تضم أهم الأماكن الإسلامىة المقدسة يجتمع فوق تراها كل عام حشود إسلامية كثيفة العدد يأتى أفرادها من كل فج عميق يؤدون فريضة الحج ويشهدون منافع لهم فى بلاد تابعة للدولة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت برز فى الدولة الطابع الدينى الإسلامى بروزاً قوياً للغاية ، واشتد هذا الطابع الدينى كلما مضت السنوات فى القرون التالية .

(١) أنظر كلام من :

امين سعيد : الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربيع القرن . ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، انتشار بين العرب والترك . القاهرة ، مطابع عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر ١٩٣٤ ص ١٠٤ . دكتور سيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠١ .

أما اللقب الديني الآخر الذي اهتم به سلاطين الدولة فهو لقب خليفة ، وقد بدأ اهتمامهم به في القرن الثامن عشر واشتد هذا الاهتمام في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والسكينة وسيلة لمقاومة ضغط الدول الأوروبية الاستعمارية عليها ، وبخاصة الدول التي كان لها رعايا مسلمون مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا . وكان السلاطين يهددون بتحريك هؤلاء الرعايا المسلمين ضد حكومات دولهم الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الديني ، وهو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر . وسنعرض لهذه المسألة في موطن قادم عند الكلام عن موضوع « الخلافة العثمانية وعلاقتها بتاريخ أوروبا الحديث » . وحسبنا أن نذكر هنا أنه بإلصاق لقب خليفة بالسلاطين العثمانيين - وهو إلصاق متعمد هادف - نستطيع أن نقول إنه أصبح لرئيس الدولة العثمانية لقبان : لقب مدني هو السلطان ، ولقب ديني هو الخليفة .

رأى الجبرتي في الدولة العثمانية :

والمؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتي - كأحد كبار رجال الفكر الإسلامي - يستهويه الطابع الديني البارز في سياسة الدولة العثمانية ، فيتكلم بإعجاب ، وفي عبارات مسجعة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دواتهم ، وطالت مدتهم ، وها بنهم الملوك ، واقفاد لهم المالك والمملوك » (١) .

نظام الملل :

والدولة العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا ينفخون لنظام

(١) الجبرتي الشيخ عبد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة

الملل ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا . وكان يطلق على كل مذهب ديني « ملة » . وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية ؛ ويقوم - مستعيناً ببعض مساعدين من رجال الدين المسيحي - بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأنبياع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التي تركت لرئيس كل ملة ممارسة هذا الاختصاص . وقد منح نظام الملل الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً . وكان الروم الأرثوذكس - أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية - أمم ملة غير إسلامية في الدولة العثمانية . ويندرج تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغاريون وسكان البوسنة والمهرسك والجبل الأسود وبعض الألبانيين وغيرهم . وكان مقر رئيس هذه الهيئة في إستانبول ، ويسمى البطريرك ، ويطلق عليه أيضاً بطريرك الفنار نسبة إلى حي الفنار ، وهو أحد أحياء العاصمة ، وكان يقوم فيه مبنى البطريركية . وكانت تسكن هذا الحي عائلات يونانية عريقة تتمثل فيها أرستقراطية الملل والثقافة والمجد الأصيل ، وبسمون « الفناريون » Les phanariotes وكانوا يختلفون عن اليونانيين الموجودين في شبه جزيرة البلقان . ولما كان البطريرك يونانياً ، فقد احتسركر اليونانيون عامة السيادة الروحية على الشعوب التي تدين بمذهبهم مثل الصرب والبلغاريين وغيرهم . وكانت الملة الثانية هي ملة الروم الكاثوليك ، وكانوا أقل شأنًا من الروم الأرثوذكس ، ثم الملة الثالثة وهي ملة الأرمن ، وأخيراً ملة اليهود .

ويتعارض نظام الملل مع فكرة الدولة الحديثة التي تنظر إلى رعاياها على أساس المساواة في الحقوق والواجبات بنض النظر عن دياناتهم . ولكن كانت الفجوة الدينية موجودة في تلك القرون في كافة أنحاء العالم . ومع ذلك فقد كانت الدولة العثمانية متقدمة عن الدول الأوروبية المعاصرة لها ، لأنها كانت تسمح بوجود ديانتين هما المسيحية واليهودية ومذاهب دينية مختلفة وعديدة في بلادها

بجانب الدين الإسلامى . وسلمتناول هذا الموضوع بشيء من التمهيل عند
السلام على الطابع العالمى للدولة .

فقرتان من وثيقتين :

ونقتبس هنا فقرتين جاءتا فى وثيقتين من الوثائق الرسمية التى صدرت عن
الدولة العثمانية . جاءت الفقرة الأولى فى الوثيقة المعروفة باسم خطى شريف . جليخانه
وقد صدرت هذه الوثيقة فى سنة ١٨٣٩ وجاء فيها « إن الدولة كانت تراعى
الأحكام الشرعية فبلنت قمة المجد . ومنذ مائة وحسين سنة أهملت الإدارة
الشرعية بسبب النوائل وما عرض من حوادث ٤٠٠ »^(١)

أما الفقرة الثانية فجاءت فى الوثيقة المعروفة باسم خطى همايونى . وقد صدرت
هذه الوثيقة فى سنة ١٨٥٦ وكان مما ورد فيها « لا يخفى أنه منذ ابتداء ظهور
دولتنا العلمية كانت الأحكام القرآنية الجلية والقوانين الشرعية المنيفة فى غاية
المرعاة الكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها معراحة جميع الرعايا
ورفاهيتهم وعمار البلاد فى غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين
سنة لم يمد انقياد ولا امثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ
عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى
التعب ، والعمار إلى الدثار . وأية مملكة لا تقوم بمحظ القوانين الشرعية تؤول
إلى الاضمحلال . . . »^(٢)

تدل هاتان الفقرتان على الطابع الدينى الإسلامى الأصيل فى الدولة العثمانية .
فإن السلطان الذى أصدرهما — وهو عبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٦١) —
كان يتفق رأياً مع كبار رجال حكومته على أن المجد الذى حققته الدولة

(١) دكتور عبد الكريم غرابية : سوريا فى القرن التاسع عشر (١٨٤٠ — ١٨٧٦)
من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٦١ ،
ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ — ٣١ .

في عصورها الذهبية إنما مرده إلى التزامها بمبادئ الشريعة الإسلامية، وأنها إذا كان قد أصابها وهن أو « اضمحلال » خلال القرن التاسع عشر فلا تُها أهملت لسبب أو لآخر تطبيق مبادئ الشريعة . وقد جاءت الفقرة الثمانية أكثر إيضاحاً وتفصيلاً : فهي تقرر أن الدولة التزمت التزاماً دقيقاً بأحكام الشريعة ، وأن حرصها على اتباع أحكام القرآن الكريم قد صاحب نشأة الدولة ، وأن هذا الحرص قد أدى إلى النتائج التالية : قوة الدولة العثمانية ، استقرارها ، راحة الرعايا ورفاهيتهم ، عمران البلاد . ولما باعدت الدولة بينها وبين تطبيق المبادئ الإسلامية تحولت قوة الدولة إلى ضعف ، وراحة السكان إلى متاعب ، كما توقفت مشروعات الإصلاح والتعمير ، وأندثر بعضها . ثم تخلص الفقرة إلى حكم عام شامل تقول فيه إن الدولة التي تتعد عن الأخذ بمبادئ الشريعة ولا تطبق قوانينها يكون مآلها اضمحلال . وسنعرض للوثيقين اللتين اشتملتا على هاتين الفقرتين في الفصل التالي عند الكلام على الخصيصة الثالثة للدولة العثمانية وهي أنها دولة طالية .

الجامعة الإسلامية :

والدولة العثمانية هي التي احتضنت حركة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، وهي حركة كان قد تنادى إليها السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) ، وكانت تدعو إلى وحدة الصف الإسلامي في محتواه الكبير : شعوباً وحكومات . في مشارق الأرض وفي مغاربها ، والوقوف كالبليان المرصوص يشد بعضه بعضاً حول الدولة العثمانية بصفقتها أكبر دولة إسلامية في العالم في ذلك الوقت . ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسى أو السيطرة على العالم أو سيادة الجنس أو اللغة ، ولكن كان غرضها تخليص العالم الإسلامى مما يئن منه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبى ، وأزمات سياسية ، واختناقات مالية ، ونهب ثرواته ، واستقلال شعوبه . ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخريين في العالم المسيحى هما : حركة الجامعة الصقلبية وحركة الجامعة الجرمانية في

أوروبا^(١)، ويلاحظ أيضاً أن حركة الجامعة الإسلامية أعم وأشمل من حركة القومية العربية التي تنادى إليها فريق من القوميين المسيحيين في بلاد الشام رداً على حركة الجامعة الإسلامية. ومهما قيل في بواعث وأهداف حركة الجامعة الإسلامية، فإن الدولة العثمانية باحتضانها هذه الحركة كانت رمزاً حياً مجسداً للتضامن الإسلامي للوقوف في وجه الزحف الأوروبي الاستعماري على العالم الإسلامي.

وقد أفصح أحد الباحثين الأمريكيين - وهو لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard - عن الضرورة الملحة التي كانت تتطلب من المسلمين الاستجابة لحركة الجامعة الإسلامية. فقال إن العالم المسيحي على اختلاف شعوبه تسوده روح صليبية وتعصب ديني عميق. ويريد تحطيم الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية، ويريد أيضاً سحق الإسلام. ومضى يقول إن الدول المسيحية في عدائها وحقدتها على الدول الإسلامية تلجأ إلى العدوان المسلح ابتغاء إذلال الدول الإسلامية، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاولها المسلمون في بلادهم. وكان مما جاء في كتابه وهو يبسط آراءه في موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق بعامة والدول الإسلامية بخاصة «العالم النصراني» على اختلاف أممه وشعوبه، عرفاً وجنسية، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم، وللإسلام على الخصوص، لجميع الدول النصرانية متحدة معاً على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً». ويعضد في كتابه

(١) كانت حركة الجامعة الصقلية تسمى لضم جميع صقلية أوروبا على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم لتتخلص من السيطرة العثمانية والنهوض الألماني، ثم تكوين كتلة حضارية سياسية وشرقية أوروبا ووسطها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسمى لتحقيق آمال روسيا في التفوق. أما حركة الجامعة الجرمانية فعملت على تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تعمل أولاً للسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها، ووقف سداً متيناً أمام فرنسا من جانب، وأمام الصقلية من جانب آخر، وتفرض رغباتها على الاثنين.

انظر:

دكتور محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه. القاهرة، ١٩٥٢، دار الفكر العربي، مس ١٧ - ١٨.

يقول « والروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتاجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك^(١) من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متخلتلاً في أحشائها ، ومتمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العدا ، والحقد ، والتعصب الديني المقوت ... وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عدا الإسلام ، وروح هذا العدا متمثلة بمجد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً » . ويختتم عرض آرائه بقوله « جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقايته نفسه من العدا المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته »^(٢) .

(١) كان بطرس الناسك أحد الدعاة لمشروع الحروب الصليبية أخذ يطوف في أوروبا بعد المجلس العام الذي عقده البابا لاربان الثاني Urban II في كليرمنت Clermont بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ وناقش ضرورة إنقاذ بيت المقدس من المسلمين . وكان بطرس في طوافه يحث المسيحيين على عاربية المسلمين . وكان رجلاً طاعناً في السن ، على حظ موهور من القدرة على الخطابة وكانت فصاحته وهيبته القريبة : يشابه المهلمة ، وبقدسية العاريتين ، وجماله الأعرج ، جعلنا منه شخصية ذات تأثير على جماهير العامة والدعاة في غرب أوروبا ونجح في جمع حشود آدمية كثيفة العدد من الرعايا وخريجي السجون والأشقياء والراغبين . واصطحب كثير منهم نساءهم وأطفالهم . واقتفوا في طريقهم إلى الشرق جرائم منكورة جعلت سكان المغرب ورعايا الدولة البيزنطية يتورون عليهم ووصلوا إلى القسطنطينية . وسارع امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بمساعدتهم على العبور إلى آسيا الصغرى رغبة في التخلص منهم . وكان عددهم ثلاثمائة ألف رجل . مقابلهم الأتراك السلاجقة في ليقيا وأوقعوا بهم هزيمة منكورة . ويعتبر بطرس الناسك هو المسئول عن هذه الحملة الخيالية .

الظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية . جزءان ، ١٩٦٣ ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) لوثراب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهي . ونطرق الأمير شكيب أرسلان . جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

الاتحاديون يتمسحون بالشعار الديني :

وقد ظل الطابع الديني الإسلامي ملحوظاً في الدولة على الرغم من أن قادة انقلاب سنة ١٩٠٩ - وهم أعضاء جماعة الاتحاد والترقي ومعظمهم من ضباط الجيش - كانوا قد اهتمدوا عن الخط الإسلامي الواضح ، وتخبطوا بين حركة الجامعة العثمانية^(١) وحركة التتريك^(٢) والحركة الطورانية^(٣)، وأمعنوا في الأخذ بنظام الحكم المركزي الذي وجدوه قائماً حين جاءوا إلى الحكم ، ثم حاولتهم تحطيم نظام الشرافة في الحجاز ، حتى إذا دامهم العدوان الاستعماري الإيطالي على طرابلس الغرب في سنة ١٩١١ عادوا يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتغاء

(١) الجامعة العثمانية تهدف إلى صبح القوميات المختلفة في داخل الدولة بالصيغة العثمانية أو ما يسمى عثمانية القوميات : فالشكل عثمانيون لا فرق بين عرب وأتراك وأكراد وألبان وأرمن . وتطبيق حركة الجامعة العثمانية يؤدي إلى كبت القوميات الخاضعة للدولة العثمانية وحملها على التخلي عن أمانتها القومية . ويشبه أحد المؤرخين حركة الجامعة العثمانية بدينان يقام على الرمال .

انظر :

Kadourie, Elie; England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire. 1914—1921. London. 1956. p. 59.

(٢) التتريك هو صبح جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية بالصيغة التركية وفرس اللغة التركية لتقرسية والمدارس والمحاكم وترجيح مصالح الأتراك بفض النظر عن الإضرار بأرغايا غير الأتراك وتطبيق سياسة التتريك يؤدي إلى حكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للنصر التركي، وتكون الدولة العثمانية دولة تركية لا عثمانية. وقد تطرف فريق من الأتراك فدعوا إلى إزالة أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ووصع أسماء السلاطين العثمانيين الأوائل عليها مثل سليم وسليمان وغيرهما . وقد ظهرت هذه الحركة عقب الحرب البلقانية الأولى .

(٣) الحركة الطورانية تقوم على أن الشعب التركي ينسب إلى أصول طورانية ، وأن السبيل لبعت المجلس التركي يكمن في اتحاده من جديد مع الشعوب التي نمت إليه بصلته القرين من السلالة الطورانية. وكانت الحركة الطورانية تدعو إلى إحياء أمجاد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المعاصرين بتاريخهم الحضاري القديم والدعوة إلى تخليص التراث الفسكركي التركي من المؤثرات العارسية والبرية التي دخلت عليه . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تأسيس الأكاديمية التركية سنة ١٩١٣ وإلى ترجمة القرآن إلى اللغة التركية . وظهرت الدعوة إلى إنشاء لغة جديدة وأدب جديد. وأسمى « اتحاد » بى لسان « أى اللغة الجديدة » ، وتبعه اتحاد « بى حياة » أى الحياة الجديدة . ولم يلبث أن اندمج هذان الاتحادان في اتحاد واحد. وقد لقيت

الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية في العالم واستئثاره العاطفة الدينية الإسلامية في نفوس هذه الشعوب وحكوماتها وهيئاتها وجمعياتها كي تسارع إلى دعم القوات العثمانية — أو المجاهدين كما كان يطلق عليهم — بالمال والأنفس والسلاح والمواد التموينية والمساعدات الطبية الجرحى هؤلاء المجاهدين .

الطابع الديني في الحرب العالمية الأولى :

وفي أقل من ثلاث سنوات برز الطابع الديني الإسلامي للدولة مرة أخرى واضحا قويا عقب دخول الدولة الحرب العالمية الأولى في اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط — ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية — ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا^(١) . ولم تكدمر ساعات معدودات على دخول

كلمة «طوران» انتشاراً واسعاً في الأوساط الرسمية والشعبية حتى أصبحت علامت الخلافة والمطاعم والفنادق تحمل اسم طوران . وتنفى الصحفيون والمفكرون والكتاب ومن لديهم بطورائيتهم . وقد ظهرت الحركة الطورانية عقب الحرب البلقانية الثانية (١٩١٢-١٩١٣) . ومما هو جدير بالذكر أن الحركة القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة استمدتا الكثير من مبادئ الحركة الطورانية .
انظر كلامن :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٥١-٥٨ .
توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨ — ١٩١٤) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٨٢-٦١٠ .

دكتور محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي . دار الفكر العربي . القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٢-١٢٩ .

(١) اشتملت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ من يوليو (تموز) ١٩١٤ حين زحف الجيش النمساوي على بلغراد، وسارعت ألمانيا في ٢ من أغسطس (آب) إلى إعلان الحرب على فرنسا وروسيا ، ودخلت بريطانيا الحرب في منتصف ليلة ٤/٥ أغسطس وتتابع دخول الدول في هذه الحرب . وتظاهرت تركيا وقتذاك بالمليدة ، ولكن كانت كل الدلائل تشير إلى أنها ستدخل الحرب وشيكاً إلى جانب ألمانيا . وكان أنور باشا وزير الحربية التركي قد اقترح في الثاني والعشرين =

تركيا الحرب حتى صدرت فتوى من شيخ الإسلام في إستانبول ، ثم لحقت بها فتوى أصدرها السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) بصفتة خليفة ، ثم أعقبها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى^(١) والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عدة حقائق تؤكّد رغبة الاتحاديين في إبراز الطابع الديني للدولة ، منها :

أولاً : إن هذه الفتاوى الثلاث موجّهة إلى جميع المسلمين في بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول « عدوة الإسلام » ، وهى روسيا وبريطانيا وفرنسا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم.

ثانياً : إن الحرب التى تخوضها الدولة هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين ، والدفاع عن الدولة ، وأنه قد وضح - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الفصارى من أعداء الإسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام ، لأن الدولة العثمانية هى درلة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام .

ثالثاً : دعوة جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الاتحاد والاشتراك

من شهر يوليو (تموز) ١٩١٤ على البارون دون وانجنهايم Baron von Wangenheim السفير الألماني في إستانبول عقد معاهدة تحالف مع ألمانيا . وقد وقعت في اليوم الثاني من أغسطس (آب) ١٩١٤ واتفقت الدولتان على أن تظل المعاهدة سرية . وفي ذات اليوم أعلنت الحكومة التركية التمشية العامة . وتم الاتفاق بين تركيا وألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية على أن تقترم تركيا الحيدة حتى نهاية شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٤ . وفي نفس الوقت كانت البعثة العسكرية الألمانية تباشر عملها في تركيا واعتبرت مسؤولة عن قيادة الجيش التركي . وكانت هذه البعثة تحت رئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز General Liman von Sanders وكان قد شغل منصب المفتش العام للجيش التركي منذ يناير (كانون الثاني) ١٩١٤ .

Hurewitz J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East. 2 vols. vol I (1535—1914) vol. II (1914—1956) New York, 1956. vol II, pp. 1—2.

(١) جورج أطلونيوس : بقضلة العرب . تاريخ حركة العرب القومية ، تقديم دكتور نبيه أمين فارس ، و تريب دكتور ناصر الدين الأسد ودكتور إحسان عباس . بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، العاشر . دار العلم للملايين ، ص ٢٢٢ .

في الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة
والقدس الشريف .

رابعاً : إن الجهاد الديني فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر . وعلى المسلمين
أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها تلك الفتاوى الشريفة .

خامساً : إن الدولة استهدفت إغارة الشهور الدينية في جميع أنحاء العالم الإسلامي
على بريطانيا وحليفاتها .

حرب المنشورات الدينية :

وعكفت الحكومة التركية بالتعاون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك
الفتاوى الثلاث مع تعليقات ديدية عليها في كتيبات ومنشورات للتأثير في الجماهير
التي تعتنق الإسلام . وكتبت بجميع اللغات التي كان يتكلم بها المسلمون في أنحاء
العالم الإسلامي . وهربت إلى مصر والسودان والهند وفارس وأفغانستان وماوراءها
فصلا عن نيبات شمالي أفريقيا . واختلف أسلوب هذه الكتيبات والمنشورات:
كان بعضها يحرض الجنود على الحرب من جيوش بريطانيا وحليفاتها ، وبعضها
يدعو إلى القتل والاعتقال وغيرهما من الاعتداءات المردية ، وبعضها كان يطلب
من المسلمين الامتناع عن تقديم أية مساعدة للدول عدوة الإسلام حتى حينما
يكونون معرضين لعقوبة الإعدام . ولكن كانت جميع هذه المنشورات تتفق في
إبراز فكرة واحدة ، هي : أن الإسلام معرض للأخطار بسبب أطباع بريطانيا
وحليفاتها ، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام إنما هو فرض عين على كل
مسلم بالغ قادر .

إيفاد بعوث دينية إلى العالم الإسلامي :

وعمدت الحكومة التركية إلى إيفاد بعوث دينية تؤيد بالقول واللسان ماتضمنته
الكتيبات والمنشورات والبلاغات الرسمية كي يكون لها مزيد من التأثير في نفوس

المسلمين . وكان الرسل من شتى الفئات : كان من بينهم وعاظ متجولون ، وعلماء ذوو ثقافة دينية ، ومحرضون محترفون ، انتشروا في جميع البلاد التي كان في استطاعتهم التسلسل إليها، فدخلوا الأقاليم الأفريقية التي كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ، كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الأتراك رغبة في استمالتها إلى نلبية دعوة الجهاد الديني . فدوا نشاطهم الدعائي إلى الحدود والأفغان والإيرانيين ، وفي مقدمة هؤلاء العرب تطلب منهم المسارعة إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة .

تلهم الدولة على استصدار إعلان ديني من الشريف الحسين :

وحرصاً على إضفاء مزيد من الطابع الديني على هذه الحرب طلبت الدولة من الشريف الحسين بن علي أمير مكة وشريفها أن يصدر إعلاناً عاماً يوجهه إلى العالم الإسلامي قاطبة يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التي صدرت عن إستانبول . ولكن الشريف أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب . وضغطت عليه الحكومة في إستانبول ضغطاً لا هوادة فيه . وانتهت عليه البرقيات والرسائل من العاصمة : من سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، وأنور باشا وزير الحربية ، وطلعت باشا وزير الداخلية وغيرهم من أعضاء الوزارة ، كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع في دمشق^(١) يبحث

(١) توجد شخصيتان عسكريتان تحمل كل منهما اسم جمال باشا . أولهما أحمد جمال باشا الذي ورد ذكره في المتن . وقد كان وزيراً للبحرية في الوزارة العثمانية وعضواً بارزاً في حملة الاتحاد والترقي . ووقع عليه الاختيار ليقود الحملة العسكرية على مصر لإجلاء الإنجليز عنها . وقد منح من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح بقتضاها رئيساً للحكومة في بلاد الشام وفائداً عاماً للجيش الرابع . وقد وصل دمشق في الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٤ ودخل دمشق في موكب رسمي . واتخذها مقراً لقيادته . وكان لا يشارف زملاءه في الأخذ باتجاهات الحركة الطورانية ، بل كان يؤمن بالتضامن الإسلامي . واعتزم في أول الأمر كسب الرعايا العرب إلى جانب الدولة واستمالة المسلمين إلى المشاركة الفعالة في الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها .

الشريف الحسين على أن يصدر إعلاناً بالجهاد الديني ، وأن يبعث إلى دمشق راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز . وهكذا أظهرت الدوائر العليا في الدولة تلميحاً على استصدار إعلان الجهاد الديني من الشريف الحسين وكان مرد هذا التلميح إلى المكانة الدينية الفريدة التي كان يتبوّأها الحسين . ويقول أحد الباحثين إن مكانته « لانعادلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي ، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه أيضاً . وبينما كانت سلطة جيرانه ^(١) محصورة في نطاق أراضيهم ، فإن سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويمتد صوته إلى الجموع الفقيرة من سكان العالم الإسلامي ، فهو حميد النبي والقيم على الأماكن المقدسة . وهذان الأمران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاء في منزلة يفرد بها ولا يطاوله فيها أحد ، بلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع أن يذاع سلطان الخليفة نفسه في الشئون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين ، فقد كان أمير مكة ، حاضرة الإسلام ومثابته ، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصرم أذنيه عن ندائه ، وخاصة إذا كان مسلماً عربياً . وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يمان للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فإن مؤازرته — في أمر كالدعوة للجهاد — كانت عاملاً مهماً بل عاملاً حاسماً ، ولذلك كان الأتراك يسعون بلمهمة إلى الحصول على هذه المؤازرة ^(٢) . ونضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو أن رجالات الدولة في إستانبول كانوا

== أما الشخصية العسكرية الأخرى التي تحمل اسم جمال باشا فهي شخصية محمد جمال باشا . وكان معاصراً لسميه ، وكان قائداً للجيش الثامن في خلال هذه الحرب . وكان مركزه مهم . وإذا ذكر اسم جمال باشا فيكون المقصود هو أحمد جمال باشا -

(١) نذكر من بين هؤلاء الجيران : ابن سعود في نجد ، الإمام يحيى في اليمن ، وعبد الإدرسي في سمر ، ومبارك آل الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في سمر .

(٢) جورج أنطونيو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

يدركون جيداً أن الدعوة الوهابية^(١) في شبه الجزيرة العربية، والثورة المهديّة في السودان، والمقاومة الإسلامية العنيفة التي لقيها الاستعمار الأوروبي في الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس قد أظهرت أن استخدام الدافع الديني في الدعوة إلى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القديمة ومقدرته على إثارة النفوس ضد الاستعمار المسيحي. ولكن الشريف الحسين كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، إذ كان في مفترق الطرق. فهو يفسكر في القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثماني. وكان قد

(١) لا تدل كلمة « الوهابيين » دلالة صحيحة على الحركة الإصلاحية التي تنادي إليها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١) في إقليم نجد بشبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي أولى الحركات الإصلاحية التي ظهرت في الدولة العثمانية، وبمباراة أكثر دقة، بين الشعوب العربية الخاضعة للدولة العثمانية، وقد أطلق خصوم هذه الدعوة الإصلاحية عليها اسم « الوهابية » إضماراً لهاً وإشعاراً بأنها لا تعدو أن تكون مذهباً جديداً من المذاهب الدينية. وقد نسب هؤلاء الخصوم مجموعة الآراء التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده، على غرار التسميات التي لحقت بالطرق الصوفية، فهي تشتق اسمها من اسم مؤسسها. أما أنصار الدعوة فيرفضون تسميتها بالوهابية. ويؤثرون أن يسوا أنفسهم التوحدين أو المسلمين تأسيساً على أن حركتهم الإصلاحية تنلخص في الرجوع إلى القرآن والسنة، إلى الإسلام في حالته الأولى، إلى التوحيد، وتمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التي هي في رأيهم مبادئ الإسلام الأولى والصحيحة. وقد حدثت هذه المجدلة في الفترة الأولى من تاريخهم التي تميزت بالشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين، وقد تأكدت هذه التسمية بصفة رسمية وصريحة في القانون الذي صدر عن محكمة الحجاز في ٣١ من أغسطس سنة ١٩٢٦ فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب السلفي.

انظر كلام:

Documentation Française, Notes et études documentaires, no. 1529, 10 septembre; 1951.

Godchot J. E.; Les Constitutions du Proche et du Moyen-Orient. Paris, 1957, pp. 28-42.

دكتور جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الغافة في الشرق الإسلامي الحديث. الجزء الأول: الهند والجزيرة العربية. من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية. القاهرة، ١٩٥٧، ص ٥٥ - ٦٦.

دكتور السيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب مرجع سبق ذكره،

ص ١٠٩ حاشية رقم ١.

تلقى في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٤ عرضاً مؤرخاً في ٣١ من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٤ من لورد كيتشنر Kitchener وزير الحربية البريطانى. وكان هذا العرض يتضمن وعداً قاطعاً للحسين بأنه إذا وقف هو وأبنائه إلى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا ، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تجميه من كل اعتداء خارجي . واختتم لورد كيتشنر هذا العرض بتلميح يشير إلى أن الشريف الحسين في حالة مبايعته بالخلافة يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف بريطانيا به . وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض المغرية أحد الأسباب في امتناع الشريف عن إصدار دعوة إلى الجهاد الديني ، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن مكفون قلبه ، فرد على الطلبات المكرورة التي بثت بها إليه رجالات الحكومة في إستانبول بأنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد ويباركها في صمت ، أما تأييده لها في العلن فأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة ، لأنه يخشى أن يعتمد الأسطول البريطانى الموجود في البحر الأحمر إلى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء ينبع وسواحل الحجاز الممتدة ، وينقطع وصول المؤن بحراً ، فيواجه السكان أزمات خانقة في المواد التموينية ، ولا تلبث أن تنقلب إلى مجاعة ، وهو أمر يؤدي إلى اشتعال الثورة بين القبائل (١) .

الحرب النفسية :

كظم رجال الدولة في إستانبول عيظهم ، فهم يريدون أن يؤكدوا صراراً وتكراراً أن الحرب التي تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليفاتها هي حرب ديدية ، ويريدون أن يعتقد المسلمون في مشارق الأرض ومنازلها أن العثمانيين هم حماة الإسلام وحماة الأماكن المقدسة ، وأن أمير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة إلى الجهاد . فصدرت التعليمات إلى أئمة المساجد في ولايات الشام بأن تتضمن خطب أيام الجمعة ما يفيد أن الشريف الحسين قد بارك الدعوة إلى الجهاد الديني . وصدرت التعليمات أيضاً إلى الصحف العربية بأن تقوم بدورها في المجال الإعلامي ، وتشر أن

(١) جورج انطوايوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

وتضيق الحقيقة التاريخية بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض، ولكل رأى أسانيد و حججته. ومع ذلك فدشير إلى حقيقةتين تفرضان نفسيهما فرضاً في هذا المجال . وتمثل الحقيقة الأولى في أن تعطيل الدستور لم ينجم عن هرد فعل لدى الأتراك العثمانيين . ويقول أحد الباحثين تعليقاً على هذه السلبية « إن عمل السلطان هذا لم يولد أى رد فعل في البلاد ، لأن الحياة الدستورية لم تكن عندئذ مدعومة برأى عام واع » ولا بعلبة قوية من المستنيرين . بل كان من عمل مدحت باشا مع جماعة محدودة من المفكرين » .^(١) أما الحقيقة الثانية فإن تعطيل الدستور استمر إحدى وثلاثين سنة لم تفتح خلالها أبواب « ضوله باعجه » التي كان يجتمع فيها النواب . وكانت المحافظة على سلامة المبنى تتطلب فتح فاعاته وأبوابه ونوافذه على فترات استمر مقاربة أو متباعدة لتركيب ألواح جديدة من زجاج الأبواب والنوافذ بدلا من تلك التي تحطمت بفعل الرياح والمواصف . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط . ويدل التحليل الموضوعى لهاتين الحقيقتين على تأصل روح الحكم المطلق في السلطان عبد الحميد ، فضى يحكم الدولة في غيبة دستور أوقف تنفيذ أحكامه بمحض رغبة ، وأن الأتراك العثمانيين - كقاعدة جماهيرية عريضة - لم يجدوا غضاضة في الخضوع لما آله أبؤهم وأجدادهم من حكم مطلق كان يمارسه سلاطين الدولة طوال قرون وعصور وأدهار^(٢) .

(٢) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(١) لم يمنع هذا الصمت الذي ران على قلوب الأتراك العثمانيين بعد تعطيل الدستور سنة ١٨٧٨ من وجود قطاعات من ضباط الجيش والثقة بين الأتراك كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بضرورة قيام حكم دستوري يحل محل الحكم المطلق الذي يمارسه السلطان عبد الحميد . وكان لهم نشاط واسع اتخذ طابع النضرية مارسوه في الداخل وفي الخارج مثل جنيف سنة ١٨٩١ وباريس سنة ١٩٠٧ وتكونت جهيات سياسية سرية في الداخل وعلمية في الخارج . وكان من بين المناضلين أحمد رضا - هو الذي انتخب فيما بعد رئيساً لأول مجلس نيابي اجتمع في المهروطية الثانية بعد كفاح واغتراب استمر نحو عشرين سنة . وقد أصدر من باريس جريدة « مشورت » ومعناها المشورة .

أما الرأي الموضوعي الذي تطرحه في هذه الدراسة فيتلخص في أن تعطيل الدستور بمقولة تفرغ الحكومة لمواجهة المشكلات الخارجية لم يمنع وقوع كوارث ألمية حانت بالدولة وأظهرتها بمظهر الدولة التي لاقدرة لها على إدارة شئونها. فكان من بين هذه الكوارث : احتلال بريطانيا جزيرة قبرص (١٨٧٨) واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) وضم الروملى الشرقى إلى بلغاريا (١٨٨٥) وفرض الرقابة المالية الدولية على الدولة (١٨٨١) وفرض المراقبة الإدارية على مقدونيا (١٩٠٣)^(١) ، وعلى ذلك فإن العودة السريعة إلى الحكم المطلق لم تكن إلا انعكاساً لنزعة أصيلة في السلطان عبد الحميد لهذا النوع من أنواع الحكم .

وعلى هذا النحو جاءت التجربة الدستورية في حياة الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بالإخفاق .

وتتكرر التجربة الدستورية في العقد الأول من القرن العشرين حين اشتد نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكانت تضم خليطاً من أجناس وأديان شتى ، ولكن كانت السكينة الغالبة فيها من الأتراك ، ويليهم اليهود . وكان الضباط الأتراك هم أصحاب النفوذ في مجالس الحزب .

وانتهزت هذه الجمعية فرصة فرض نظام الرقابة الدولية على الشؤون المالية وأجهزة الأمن في ثلاث ولايات هي موناستير Monastir ، وقوصوه ، وسلانيك ، وهي الولايات التي يطلق عليها اسم جماعى هو مقدونيا Macedonia . وكان قوام هذه الرقابة خمس دول هي بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا . ووجدت الجمعية في هذه الولايات الثلاث مفاخاً صحياً لمباشرة نشاطها من أجل « إصلاح

(١) انظر عرضاً شاملاً لهذا الموضوع في الفصلين السابع عشر والثامن عشر

في كتاب :

-- Miller, W.; op. cit., Chapter XVII. pp. 399-426.
and Chapter XVIII. pp. 427-473.

الأحوال العامة في الدولة العثمانية وإنهاء الحكم المطلق وإعادة الدستور». وقد نجحت الجمعية في حمل السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور. وقد تم إعلان هذا الدستور، ويسمى المشروطية الثانية^(١)، في اليوم العاشر من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨. وعلى غرار ما حدث عند إعلان المشروطية الأولى أطلقت المدافع ابتهاجاً بصعود المشروطية الثانية. وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع في عهد المشروطية الثانية. وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحينها^(٢). وكانت الدوائر الانتخابية قد حددت تمهيداً يحقق مصلحة العنصر التركي على حساب الأجناس الأخرى. وكان العرب يمثلون أغلبية عددية على الأتراك بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين^(٣). وجاء تكوين مجلس المبعوثان متعارضاً مع هذه الأغلبية العددية للعرب^(٤).

(١) لم تكن المشروطية الثانية سوى المشروع الذي كان قدمه مدحت باشا سنة ١٨٧٦ بكل ما كان يحويه من عيوب أصححت في سنة ١٩٠٨ أهدسوه آ. وأعيدت إليه الحياة بحرة قلم. انظر عرضاً لأهم مواده في:

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠ - ١٠٤.

(٢) انظر سياسة جمعية الاتحاد والترقي في توجيه الانتخابات وجهة تخدم عنصراً، في

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤ - ١١٧.

(٣) كان تعداد رعايا الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٨ باستثناء مصر قد بلغ اثنين وعشرين

مليوناً، من بينهم سبعة ملايين ونصف مليون من المجلس التركي، وثمان مائة وستة ملايين ونصف مليون من العرب، والأربعة ملايين الباقي من اليونانيين والألبانيين والأرمن والأكراد وعناصر أخرى أقل عدداً وأصغر وزناً.

انظر:

جورج انطونوس، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩ حاشية رقم ١.

(٤) كان عدد النواب الأتراك في مجلس المبعوثان ١٤٢، وعدد النواب العرب ٦٠،

وعدد الألبانيين ٣٥، واليونانيين ٢٤، والأرمن ١٢، واليهود خمسة، والعرب ٣، والأفلاخ واحداً.

انظر:

ساطع المصري، مرجع سبق ذكره، ص ١١٠.

باشا سون شريعة محمدية

فاتحش الشريعة المحمدية :

ولم تسكد تمر تسعة أشهر على عهد المشروطية الثانية حتى اندلعت ثورة عارمة في عاصمة الدولة في اليوم الأخير من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٠٩ تطالب بإلغاء المشروطية وإعلان « الشريعة المحمدية » وإسقاط الحكومة القائمة وفض المجلس الفياني . وضمت هذه الثورة عنصرين هاميين : عنصر ديني تمثل في الدراويش وأئمة المساجد ومن إليهم من رجال الدين ، وعنصر عسكري تمثل في جنود الحامية العسكرية المرابطة في إستانبول . وقد وقع هؤلاء الجنود تحت تأثير الدراويش الذين نجحوا في إثارتهم على زعم أن المشروطية تخالف الشريعة الإسلامية ، وأن عبد الحميد خليفة المسلمين لا يوافق على المشروطية في قرارة نفسه ، ولكنه أصدرها تحت الضغط والإكراه . وفي هذه الثورة أريقت دماء غريرة وبريثة عند ما غادر الجنود ثكناتهم وحاصروا ضواحه بأعجابه ، وهي مقر مجلس المبعوثان ، كما حاصروا الباب العالي ، وقتل الجنود وزير العدلية وأحد الأعضاء العرب في مجلس المبعوثان ، وقتلوا طائفة من كبار الضباط وصغارهم في ثكناتهم وفي خارجها ، وأرسلوا وفداً إلى السلطان يطالب بتنفيذ رغباتهم .

وأرتاح السلطان عبد الحميد لهذه الحركة أو الثورة المضادة . ولقيت مطالب الثوار استجابة فورية منه ، وتألقت وزارة جديدة لتنفيذ هذه المطالب . وقال الثوار : « عند إعلان المشروطية أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة ، فيجب أن يتم الاحتمال بإعلان الشريعة المحمدية بإطلاق مائة طلقة وطلقة » . وأخذ جنود الجيش يطوفون الشوارع في إستانبول ، ويطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، ويصيحون بأعلى أصواتهم « باشا سون شريعة محمدية » أي فاتحيا الشريعة المحمدية (١) .

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .

وكانت سكتائب الجيش تسير على هذا النحو مع دوى طلاقات الرصاص
ووسبحات التحية من الجماهير . وفي مقدمة كل مجموعة من الجيش - جماعة من
اليدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويشيرون الحراس الدافق في الجنود ،
ويرددون الهتاف الذي اتخذوه شعاراً لهم وهو : باشا سون شريعة محمدية .

وفي هذه الثورة أوجه الجنود اتجاهات خطيرة : تمقّبوا في غير هداية الضباط
« المكتبلية » أي الضباط المتخرجين في المعاهد العسكرية الحديثة . وكان الجنود
يبعثون عنهم في كل مكان لقلوبهم بحجة تطهير الجيش منهم ، وحتى لا يبقى في
الجيش سوى الضباط « الآلايلية » ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين
صفوف الجند ، بناء على خدماتهم وخبراتهم العملية دون أن يتلقوا تعليماً في المعاهد
أو المدارس العسكرية (١) .

وقد واجهت جمعية الاتحاد والترقي هذه الحركة بمعمل عسكري سريع
وحاسم . فقررت تحريك الجيش الرابط في الولايات الثلاث التي كانت مهد
الشروطية الثانية إلى الآستانة . واستطاع هذا الجيش الذي عرف باسم جيش الحركة
أن يحتل الآستانة . واجتمع أعضاء مجلس البعثان مع أعضاء مجلس الأعيان في
أيا استفانوس - الذي أصبح مقراً لجيش الحركة - وعقدوا جلسة رسمية قرروا
فيها خلع السلطان عبد الحميد وتعيين أخيه الأمير محمد رشاد سلطاناً باسم السلطان
محمد الخامس . وكان رجلاً طاعناً في السن بلغ الرابعة والستين من العمر ، ارتضى
لنفسه أن يكون دمية يجرها رجال جمعية الاتحاد والترقي أنى شاءوا .

وانفرد رجال الاتحاد والترقي بحكم الدولة خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ أو
سنة ١٩٠٩ على أحسن تقدير حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا في
فترة زمنية صغيرة . وباشروا حكماً مطلقاً على الرغم من وجود دستور ووجود
سلطان يحمل لقب خليفة ووجود مجلسين نيابيين - البعثان والأعيان -

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ - ١١٢ .

وأسرفوا بإسرافاً بعيداً في الأخذ بنظام الحكم الاستبدادي. وكان الأتراك العثمانيون المعاصرون. - الذين عاصروا حكم السلطان عبد الحميد وعاشوا الفترة التي حكم فيها رجال الاتحاد والترقي - يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد ويذكرون هذا السلطان بالخير الكثير^(١).

والنتيجة التي تنتهي إليها من هذا العرض السريع هي أن الحكم المطلق كان سمة بارزة في الدولة العثمانية ، وأن هذا النوع من أنواع الحكم قد صاحب الدولة في جميع مراحل حياتها : في نشأتها ، وفي مسيرتها ، وفي اتساعها ، وفي عنفوان قوتها ، وفي اضمحلالها وضعفها .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

الفصل الخامس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٣)

خامساً - دولة طبقية

والدولة العثمانية دولة طبقية ، بمعنى أنها كانت تضم أفراداً من العبيد أو الأرقاء ، وأفراداً من الأحرار . وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية بأكملها من أصغر فرد فيها إلى الصدر الأعظم - أى رئيس الوزراء - ما عدا أفراد الأسرة السلطانية - عبيداً للسلطان ، ويطلق عليها جميعاً المصطلح التركي قولار Kullar أى العبيد . ويطلق على كل فرد في الهيئة الحاكمة لفظ قول Koul أو Kul أى العبد ، ويقصد به عبد السلطان . وكان هؤلاء الأفراد يوصفون في أوراق الدولة الرسمية بصفة العبيد^(١) وكانوا لا يشمرون بغضاضة في إلصاق هذه الصفة بهم ، بل كانوا جد فخورين بها .

وكانت الدولة تحصل على هؤلاء العبيد من أربعة منابع : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة النلمان . أما الذبيح الأول وهو الأسر فقد حصلت الدولة على عدد كبير من الأسرى في الحروب التي خاضتها في أوروبا بوجه خاص . ويصبح هؤلاء الأسرى عبيداً بحكم وقوعهم في الأسر . وسنعود إلى موضوع أسرى

1) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea; Tableau Général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824, t. VII, p. 203.

وقد ولد هذا المؤلف في تركيا ، وأقام فيها ردهاً طويلاً من الزمن ، وعكف على وضع هذا الكتاب من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨١٨ . وبعد هذا الكتاب بمثابة موسوعة . وقد طبع طبعين : طبعة فاخرة ، وطبعة عادية . وما يذكر أنه تولى قبل أن يتم طبع جميع أجزاء الكتاب ، فقام ابنه بالإشراف على طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة التي كانت متبقية .

الحرب غير المسلمين في موطن قادم في هذه الدراسة . أما المذبح الثاني ، وهو الشراء ، فكان يتم في سوق الرقيق في عاصمة الدولة وفي غيرها من المدن حيث كانت تعرض نماذج بشرية مختلفة ، كان يجيء بها تجار الرقيق عقب جولاتهم في شتى أنحاء أوروبا . أما الهدايا وتمثل المذبح الثالث من منابع العبيد ، فمن المعروف لدى المعاصرين والمراقبين السياسيين والعسكريين وقتذاك إن أحب الهدايا إلى قلوب سلاطين الدولة كانت تتمثل في الشبان الأصحاء الأقوياء . وأخيراً فإن ضريبة الغلمان كانت أخصب المذبح الأربعة حصيلة . وكانت إحدى الدعائم الرئيسية التي استندت إليها الدولة ، سواء في القوات المسلحة أو في أجهزة الحكم . وبمضى الزمن انحصرت المذبح الأربعة في منبئين هما : الأسر ، وضريبة الغلمان .

ضريبة الغلمان :

هي ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتقدون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول . وكانت تجمع أولادهم ، وهم سن غضة ، وتحوطهم إلى الدين الإسلامي ، وتنظم لهم دراسات علمية - مدنية وعسكرية - لتجمل منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي : ديوشيرمة Deuchurmé أي ضريبة الغلمان (١) .

كانت الدولة تبعث مندوبين إلى المناطق التي تغطيها العائلات المسيحية . ويجتمع المندوب بقسيس القرية ويطلب كشفاً باسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم . ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الأولاد . وكانت الحكومة تحدد لكل مندوب عدد الأولاد الذين يتعين إحضارهم للسلطان . ويشكل المجموع الكلي للأولاد الرقم النهائي للغلمان الذين تحتاج إليهم الدولة في

(١) يعرفها المؤرخون والباحثون في أوروبا وأمريكا
The Tribute Boys أو The Tribute Children

فترة معينة لإعدادهم سواء للخدمة في القوات المسلحة أو في فاسب الحكومة
وما إلى ذلك .

كانت الحكومة تمارس جمع الأولاد من الريف في العادة ، وكانت تأخذ أولاد
اللزاعين ، وتستجيب لدواعي الرحمة ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، وكانت
لا تأخذ الأطفال الذين في سن الرضاعة ، لأن أمثال هؤلاء الأطفال يشكلون عبئاً
ثقيلاً على الموظفين المختصين بتثيثة الغلمان ، وكانت الحكومة لا تأخذ الأولاد الذين
تجاوزوا الحلم ، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم
وعن بيئتهم الأولى . ولذلك كان مندوبو الحكومة يأخذون في معظم الأحوال
الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة^(١) . ومنذ أن يتحرك
مندوب الحكومة بهؤلاء الغلمان من القرية إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً
بينهم وبين ذويهم . وكان المندوب الحكومي يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية .
وتتمثل الحصيلة المالية في الرشا التي يحصل عليها من بعض الآباء الدوسرين في سبيل
التعاضد عن جمع أولادهم ، وكانت هذه الحصيلة المالية تختلف قلة وكثرة تبعاً
لدرجة ثراء الآباء من ناحية ، ومدى جشع المندوبين من ناحية أخرى . أما الحصيلة
البشرية فتتمثل في أولاد يحصل عليهم لحسابه بطريقة غير قانونية ، وفي بساط
أفانتات لبيمين لمن يهوى جمال القوام وفتنة الوجه وميعة الصبا ، وكان المندوب

(١) يقرر بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت تأخذ الأولاد الذين تتراوح أعمارهم
بين اثنا عشر والعميرين . انظر Lybyer, op. cit. p. 53 ومن الصعب أن تأخذ
بهذا الرأي ، لأن الأولاد في مثل تلك المرحلة المتأخرة نسبياً في السن يكون في حكم الاستحالة
عليهم أن ينسوا آباءهم وأمهاتهم وذوي قربانهم وديانهم والوسط الذي ترعرعوا فيه .
وكانت الدولة تحرس حرصاً بالغاً على أن ينسى هؤلاء الأولاد ماضيهم . ولذلك كانت تسرع
بمجرد وصولهم إلى العاصمة في تحويلهم إلى الإسلام وفي تدريبهم تدريباً مدياً وعسكرياً ابتغاء
إلئسدال سشار كثيف وسريع من المشيان لدى الأطفال ، فلا يتذكرون شيئاً عن ماضيهم .
وهو أمر لا يتوفر إلا إذا انتزعوا من أهلهم في سن مبكرة .
وسيبطل موضوع تحديد السن التي كان يؤخذ فيها الغلمان . وضع خلاف بين المؤرخين .
ولسكل فريق أسانيده .

لا يتورع عن عرض هذه الحصيللة البشرية التي جمعها لنفسه ليهيها في سوق الرقيق بالمعاصرة أو يطوف بها على كبار الموظفين أو على من يأنس فيهم شغفاً بالجلس ومقدرة على اقتناء الآنسات الفاتنات .

وفي عاصمة الدولة كان يتحول الأولاد إلى الإسلام ، وتجرى لهم جراحة الختان *La circoncision* ، ويتلقون أول الأعر تربية دينية ، فيتعلمون مبادئ الدين الإسلامي ، ويحضرون دراسات في اللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني ، والآنظم العثمانية وما إلى ذلك وفق مناهج وضعت بمنسابة ، واستهدفت محو كل أثر من آثار أسوهم وعواظهم المسيحية الأولى . فينشأون على التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بالدولة العثمانية . وكانوا إلى جانب هذه الدراسات المدنية يتلقون تربية عسكرية صارمة يتزاد عنفاً كلما اشتد ساعدهم .

وكان هؤلاء الأولاد يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراتهم العقلية ، فيوضعون في المسكان التي يبدو مناسبا لكل منهم ،

المجموعة الأولى : ويعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان في القصور السلطانية وكانوا في العادة أجمل الأولاد شكلاً . وهؤلاء يتلقون نوعاً من التدريب في القصور السلطانية في بروسة ، أو أدرنة ، أو غلطة ، أو غاليبولي ، كما كانوا يلتحقون بمدارس سلطانية خاصة في قصور إستانبول . وكان يطلق عليهم إيج أو غلانات أي غلمان البلاط (١) ويمدون للخدمة في القصور السلطانية .

المجموعة الثانية : ويعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة . وهؤلاء أيضاً يتلقون تلمياً عسكرياً ومدنياً خاصاً . وكان بعضهم يصل إلى منصب الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة . وكان يطلق على أفراد المجموعتين الأولى والثانية المصطلح التاريخي أو التركي « أوج أو غلان » ومؤدى هذا النظام أن الدولة العثمانية سمحت طواعية بجمع أطنال مسيحيين من أبناء رعاياها ، ثم حولت

(١) مفردتها إيج أو غلان .

هؤلاء الأخطال إلى الإسلام ودربتهم تدريباً مدنياً وعسكرياً على أرفع المستويات، ولكن جعلتهم عبداً أرقاءً وسمحت لهم بالزواج من أميرات ومن في مستواهن، وانخفضت من هؤلاء العبيد المسلمين المدربين - وفي وضعهم الجديد الاجتماعي والديني والرسمي - حكماً ما يشتركون في حكم دولة إسلامية ويمشون في مستوى رفيع ويجمعون بين الثراء والجاه والنفوذ.

المجموعة الثالثة : كان يمد أفرادها ليسكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني ، ويطلق على أفراد هذه المجموعة : الإنكشارية . وكان تعدادهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين . وسنرجى الحديث عن أفراد المجموعة الثالثة ، وهم الإنكشارية ، إلى موطن قادم في هذه الدراسة عند شرح تشكيلات الجيش العثماني

امتيازات القولار :

تمتع القولار - وهم العبيد أفراد الهيئة الحاكمة في الدولة - بمدة امتيازات كان من بينها :

أولاً : كان شغل المناصب في الدولة مقصوراً على طبة القولار ، وكانوا يدرجون في هذه المناصب إلى أعلاها ، فتمتعوا بمرکز اجتماعي ومادى وأدبي مرموق . ولم يكونوا يشعرون - كما سبق أن ذكرنا - بفضاضة أو امتهان من صفة العبد التي تلحق بكل منهم ، بل إنهم كانوا جميعاً يشعرون بفخر وشرف لأنهم عبيد السلطان ، وطريق العبودية هو الذي سما بهم إلى الدرجات العلى في حياتهم الوظيفية

ثانياً : تمتع القولار بالإعفاء الضريبي . وقد دافع الأستاذ الأمريكى ايدير Lybyer عن هذا الإعفاء ، قائلاً إنه من المتناقضات أن يقوم السلطان بالإتفاق على هؤلاء الأفراد العبيد إتفاقاً كلياً يشمل المسكن والمأكل والملبس وغير ذلك من وجوه الإتفاق ، ويفدق عليهم في ذات الوقت المرتبات والامتيازات ، ثم يفرض

1) Lybyer, A.H., op. cit., p 114.

عليهم ضرائب ، ثم يقول إن السلطان لم يوفر لهم كل ضرورات الحياة فحسب ، بل هياً لهم - أو لعدد كبير منهم - حياة مترفة حافلة بالكفايات بفضل الدخول البعالية التي كانت الدولة تقدمها لهم تحت مختلف الأسماء . ويخلص من تعليقه إلى القول بأن السلطان كان يريد من العبيد أفراد الهيئة الحاكمة أن يتفرغوا تفرغاً تاماً لخدمة السلطان والدولة ، كل في الموقع الذي يعمل فيه ، وكان لا يريد أن يشغلوا أذهانهم بأي تفكير في مسألة طارئة أو خارجة عن صميم عملهم .

وهذا القول هو دفاع واه ، لا يأخذ به أي باحث محايد ، فلا يعتبر دفع الضرائب لخزينة الدولة أمراً يدعو الفرد إلى الانصراف عن مهام منصبه أو عائفاً يشغله عن التفرغ لعمله . والحكومات لا تعفى أصحاب الدخول الكبيرة أو المتوسطة من دفع الضرائب ، بل إنها على العكس تتصاعد بنسب الضرائب كلما ازداد حجم الإيراد العام للممولين . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول إن الإعفاء الضريبي الذي قررته الدولة لطائفة القولا هو تعميق للنظام الطبقى الذي أخذت به الدولة ، وأحدث جذوة متقدة من الحقد في نفوس الجماهير السكادحة ، وبخاصة بعد أن مدت الدولة الإعفاء الضريبي إلى الهيئة الحاكمة الأخرى وهي الهيئة الإسلامية .

ثالثاً : الإعفاء من الخضوع للقضاء العادى الذى كان يخضع له رعايا الدولة الذين هم خارج نطاق العبيد أفراد الهيئة الحاكمة . وكان القضاء العادى يتمثل فى المحاكم الإسلامية حيث كان القضاء المسلمون يفصلون فى القضايا التى ترفع إلى هذه المحاكم . وشعر العبيد أفراد الهيئة الحاكمة بغضاضة بل وكراهية لخضوعهم قضائياً للمحاكم الإسلامية العادىة ، لأن قضاء هذه المحاكم كانوا يقعون الهيئة الإسلامية ، وهم بذلك ينتمون إلى تشكيل طبقى آخر . وكان العبيد يرون أيضاً أن الدراسة التى تلقاها القضاء كانت مقصورة على القانون ، بينما كان تعليم العبيد يشمل الدراسة المدنية والعسكرية . وخرجوا من هذه المقارنة إلى أن تعليمهم كان أرقى وأعمق وأكثر تعدداً من دراسة رجال القضاء .

رأى السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) - وكان يعيل إلى السلم - أن يرضى غرور هؤلاء القولا ، فقرر إعناهم من الخضوع للقضاء العادي ، وإنشاء محاكم خاصة بهم تتكون من ضباط منهم ، تنظر في القضايا الخاصة بهؤلاء العبيد ، سواء كانوا من القوات المسلحة ، أو من أعضاء البلاط السلطاني ، أو من رجال الإدارة . وكان إعنا هؤلاء من الخضوع للمحاكم العادية تغييراً جذرياً في النظام القضائي للدولة وإكثاراً من امتيازات العبيد وتعميقاً للفروق بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية . وسرعان ما ظهرت آثار هذا النظام القضائي ، مما أدى إلى فصل القولا عن بقية سكان الإمبراطورية ، كما أصبح هؤلاء العبيد يكونون قومية قائمة بذاتها ، أو كما يقول المؤرخ الأمريكي ليبير « قومية منفصلة »^(١) . a separate nationality .

وعلى الرغم من هذه الامتيازات فقد كان وضع القولا شائكاً دقيقاً ، كانوا محرومين من الحقوق المدنية ، إذ كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان . وفي استطاعته أن يأمر بإعدام من يشاء منهم دون الالتجاء إلى إجراءات قضائية ، وفي وسعه أيضاً أن يصادق ما يشاء من ثرواتهم عقب وفاتهم ، بل قبل أن يحتويهم القبر^(٢) . وقد تناسى نفر من الباحثين هذه الصورة القائمة من حياة القولا ، واستقرت في أذهانهم الصورة الأخرى الوضيفة ، وهي امتيازاتهم . والدراسة الموضوعية تتطلب أن نذكر كلا الجانبين - القائم والوضيء - ونخلص إلى أن هذا النظام ، على الرغم من المآخذ التي سجلناها عليه ، قد أخرج للدولة رجالاً على جانب كبير من الكفاية ، ولكنها أوجدت بعض الزمن حقداً طبقياً ، وعمل على تفتيت وحدة الصف بين العاملين في خدمة الدولة .

حقد الرعايا المسلمين الأحرار على العبيد :

ذكرنا أن القولا - وهم طبقة العبيد - قد اندمجوا قضائياً ومالياً وشرعياً

1) Lybyer A.H., op. cit., p 116

2) D'Ohsson ; op. cit., t., VII, p. 148 .

واجتماعياً عن رعايا الدولة . وأصبح العبيد يشككون طبقة قائمة بذاتها تتمتع بمقوق وامتيازات لم يتمتع بها سائر رعايا الدولة . وكان هذا الفصل بين العبيد ورعايا الدولة الأحرار في الحقوق والامتيازات من أهم الأسباب التي أدت إلى نفور الرعايا الأحرار من العبيد وتزايد الحقد الطبقى ، مما أدى إلى فصح ما يمكن أن نسميه الوحدة أو الالتحام بين القاعدة الجماهيرية في الدولة وبين الهيئة الحاكمة فيها . وقد أدى هذا الانفصال من ناحية ، والامتيازات التي أعدت على القولا ر من ناحية أخرى ، إلى انهيار هذا النظام ، فلم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان النظام القائم على وجود هيئة حاكمة من العبيد قد تهاوى . إذ انزع المسلمون الأحرار تقريباً كل الوظائف التي كان يحتكرها أفراد طبقة القولا ر^(١) . وكانت هذه النهاية أمراً طبيعياً وموقوعاً ، لأن احتكار العسكريين المبيد لمناصب الدولة العسكرية والمدنية معاً ، وحجب هذه الوظائف عن رعايا الدولة الأحرار ، والحيولة بينهم وبين ما يشتهون من الاشتراك في شؤون الحكم والإدارة وإيجاد فئتين : فئة ممتازة ومتميزة هي فئة العسكريين أو أهل الثقة ، وفئة مبعدة هي فئة أصحاب التخصصات العملية الرفيعة ، وأهل الخبرة ، كل أولئك أدى إلى عدة نتائج ، كان من بينها دمج الحكم العثماني بالطابع العسكري المتعصب ، والحقد الطبقى ، وحرمان البلاد من كفايات كثيرة ، بحيث لم يعد لدى الدولة رصيد من العناصر غير العسكرية تستطيع أن تدفع بها بحجة الإصلاح إلى الأمام . ولم يدرك المصلحون كل هذه العيوب إلا في وقت متأخر^(٢) .

وكان رعايا الدولة المسلمون الذين ولدوا مسلمين من آباء وأمهات مسلمين Moslem born subjects يشعرون بفداحة الظلم الواقع عليهم ، لأنه كان محرماً عليهم الانتهاء إلى الهيئة الحاكمة التي احتكرت مناصب الدولة في البلاط السلطاني والحكومة والجيش . وزاد من مرارة هؤلاء المسلمين أن أجدادهم وآبائهم أراقوا

1) Gibb, Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I. Part I. p 44

(٢) دكتور عبد الكريم غرابيه ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .

دماءهم غزيرة على ترى الأراضى التى فتحوها انتصاراً للعقيدة الديلية ، ثم لقى حقدتهم العنت ، فلا تسمح لهم الدولة بتقلد الوظائف ، بينما تنفق الامتيازات إغداقاً على أولئك العبيد الحديثى عهد بالإسلام ، لأنهم ولدوا جميعاً مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات . وانتهى الأمر بأن وضعت شئون الدولة فى أيدى أناس جاءوا إلى الحياة الدنيا مسيحيين ثم أخذتهم الدولة وحملتهم على اعتناق الإسلام ودربتهم على شئون الحكم والإدارة والحرب وفتحت لهم أبواب الرزق الوفير على مصاريحها .

The Moslem born population came to feel that somewhere there was a great injustice. They whose ancestors had shed their blood for the faith were, in the lands which their fathers had conquered, denied admittance to the class which not only filled most of the offices of army and state but enjoyed high privileges. Some of the conquered inhabitants, infidel-born, might alone become nobles paid by the state rather than contributing to its expenses, not subject to the judges trained from boyhood in the Sacred Law; which their own Mos'em sons were riding excluded from the honored class, were obliged to bear a part in the burdens of the state with small hope of sharing its glory, and were expected to take their chances before the same courts to which Christians and Jews were brought for civil and criminal cases. The very extent of the Kullar made toward the break-down of the system.⁽¹⁾

1) Lyppe, A. H., op. cit., r. 117.

وقد أسفر نظام القولا ر — العبيد — عن وجود طبقتين مسلمتين كليهما من العبيد أو الأرقاء : طبقة عسكرية تتمثل في فيالق المشاة ، وهم الإنكشارية ، وطبقة حاكمة تتولى المناصب القيادية في البلاط السلطاني وفي الإدارة وفي حكم الولايات . وقد دربت كل من هاتين الطبقتين للغرض الذي خصصت له . فالجرب والحكم في الدولة العثمانية كلاهما علم يحصل عليه بالدراسة والتدريب الأفراد العبيد وهم الهيئة الحاكمة . وبذلك كانت الكفاية هي المعيار الأول في الالتحاق بالجيش أو في تقلد المناصب الإدارية الكبرى . ومن هذه الناحية كانت الدولة العثمانية تختلف عن الدول الأوروبية المعاصرة لها . فقد كان تقلد المناصب الكبرى يهامة مصوراً على عراقية الأصل وكرم المحدث ، فلا تشمل في معظم الأحوال إلا طبقة لنظام الوراثة يتقلدها النبلاء والبارونات والأدواق ومن إليهم من أصحاب الرتب والألقاب الموروثة .

طبقة الأحرار :

وإلى جانب طبقة القولا ر — الأرقاء أو العبيد — وكان أفرادها يشغلون مناصب قيادية وغير قيادية في العديد من القطاعات الحكومية العسكرية والمدنية ويتمتعون بإعفاءات وامتيازات شتى ، كانت توجد طبقة أخرى من الأحرار يتولى أفرادها وظائف قيادية وغير قيادية في قطاعات حكومية أخرى معينة ذات طابع ديني إسلامي . وينتمي أفراد هذه الطبقة إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *The Religious Islamic Ruling Institution* وهو مصطلح جرت به أقلام الباحثين الأمريكيين والأوروبيين . وكان أفراد هذه الهيئة أحراراً ، بمعنى أنهم لم يكونوا قط عبيداً ، ولم يسلكوا الطريق الذي سار فيه القولا ر . وكان آباؤهم مسلمين ، وولدوا مسلمين أحراراً ، ونشأوا وترعرعوا أحراراً ، وتعلموا أحراراً . وكانت هذه الهيئة تضم جميع المسلمين في الدولة العثمانية خارج الهيئة الحاكمة التي

كان أفرادها في مستوى أعلى من مستوى المسلم العادي^(١) . وكانوا يقولون مناصب القضاء والإفتاء وإدارة الأوقاف ، وينظرون في جميع المسائل التي تتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويباشرون مهنة التعليم ويشرفون على المساجد وسائر المنشآت الدينية والمؤسسات الخيرية ، وكان لهم نظام تعليمي خاص يختلف عن النظام التعليمي الذي خضع له القولا ر .

ولذلك كان أهم اختلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة - القولا ر - أن أعضاء الهيئة الإسلامية جاءوا إلى الحياة من عائلات مسلمة ، وظلوا على الإسلام في شتى مراحل حياتهم ، بينما جاء أعضاء الهيئة الحاكمة من عائلات مسيحية ، ثم جمعهم الدولة طبقاً لنظام ضريبة الغلمان ، ثم حولتهم إلى الإسلام ، ودرّبهم تدريباً خاصاً توطئة لشغل وظائف معينة في البلاط السلطاني أو في مناصب إدارية أو مراكز عسكرية .

وكان السلطان على رأس الهيئة الإسلامية، وهو الذي يمين من أعضائها كبار المسلمين في المناصب العليا في الهيئة الإسلامية ، وله الإشراف على دخلها المالي ، ويعين مشرفين يقولون المراقبة على شئونها المالية . وعلى ذلك فالهيئتان الرئيسيتان في الدولة العثمانية ، وهم القولا ر والهيئة الإسلامية الحاكمة ، كانتا تلتقيان في شخص السلطان ، كما كانتا تلتقيان في المستويات الأقل في العلاقات المالية الحكومية وغيرها . ونظراً لأهمية هذا الموضوع على أساس أن الدولة العثمانية كانت ذات طابع ديني إسلامي عميق ، سنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلاً مستقلاً عن الهيئة الإسلامية كهيئة حاكمة .

(١) محمد الأستاذ الأمريكي لاير تسكون الهيئة الإسلامية ومحتواها في الدولة العثمانية

على النحو التالي :

It (The Religious Islamic Ruling Institution of the Ottoman Empire) included all those Mohammedans in the Ottoman Empire, outside of the Ruling Institution, who were in any way lifted above the level of the ordinary believer .

Lybyer A. H., op. cit , p. 199.

(م ٦ - الدولة العثمانية)

الفضل السادس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٤)

سادسا : دولة إقطاعية من نوع خاص

والدولة العثمانية دولة إقطاعية من نوع خاص . وتمثل طابعها الإقطاعي في نظامين . نظام الإقطاع الحربي من ناحية ، ونظام الالتزام من ناحية أخرى . وسنعرض أولا عرضاً سريعاً للملامح العامة لنظام الإقطاع الحربي ، ثم نستكمل عرض بعض ملامح أخرى لهذا النظام في موطن قادم في هذه الدراسة عند تناول تشكيبات الجيش العثماني وتكوينها واختصاصاتها .

نظام الإقطاع الحربي :

طبقاً للنظام الإقطاعي الحربي كان السلطان يمنح أرضاً زراعية لأفراد من سلاح الفرسان - أو الخيالة بمصطلح ذلك العصر - ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعات^(١) ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربي اسم السباعية الإقطاعية^(٢)

(١) كان يطلق على هذه الإقطاعات اسم « ديرليكات » أي رزق . ومفردتها « ديرليك » . وقد استخدم هذا المصطلح للدلالة على أي مورد رزق يقدمه السلطان لمن يخدمونه ، سواء كان هذا المورد في صورة أموال سائلة أو على شكل أرض .
(٢) السباعية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسي ومعناها الفرسان . وتكتب في صيغة المفرد سباهي . وتجمع في اللغة التركية سباهيان . وتظهر في المراجع الفرنسية والإنجليزية في عدة صياغات افظوية مختلفة مثل :

Sipah	—	Sipahi	—	Spahi
Spacoillain	—	Spei	—	Spachi

Feudal Spahis . وكان هذا النوع من الفرسان الإقطاعيين^(١) لا يتناولون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل الزراعية التي تنلها لهم الإقطاعات الممنوحة ، ولذلك كانوا يعدون الفلاحين عادة بالماشية والبذور . وفي هذه الحالة كان السباهية الإقطاعيون يستولون على نصف المحصول^(٢) ، كما كانوا يعتمدون على حصيلة العشور وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين - الأرض أو المحاصيل - ويقومون بجبايتها منهم لحسابهم . وكانت الإيرادات التي يستولون عليها يطلق عليها المصطلح التركي « مال مقاتلة » بمعنى مال المقاتلة . وهاتان الكلمتان عربيتا الأصل .

وفي مقابل هذه الامتيازات كان على هؤلاء الفرسان الإقطاعيين أن يفيضوا للجيش - حالاً تشتبك الدولة في حرب - ومعهم عدد من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربي ومع الإيراد الذي تنغله هذه الأرض الإقطاعية .

أنواع الأراضي الإقطاعية :

وكانت الأراضي الإقطاعية على ثلاثة أنواع رئيسية ، هي :

أولاً : إقطاع مساحته صغيرة نسبياً ، ويسمى « تيمار^(٣) » Timar وكان

(١) تقتضى الدقة في الصياغة اللغوية أن تفرق كلمة « إقطاعيين » بانفلة فرسان أو سباهية تمييزاً لهم عن ست فرق من فرق الحباله و الجيش الثابت Standing Army وكان يطلق على هذه الفرق الست : الحباله الثابتة standing Cavalry كانت من بينها فرقتان تسميان « علوفه جي » أى الرجال الذين يتناولون مرتبات ، وفرقتان تسميان « غرباء » وفرقتان تسميان الساعدرات ، بمعنى حملة السلاح أو السيوف . وسنمرس لهذه الفرق الست بالمرح عند الكلام على الجيش العثماني .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, (٢)
Part 1, p. 247.

(٣) تيمار كلمة فارسية اقتبسها العثمانيون من اللغة الفارسية ، وهى ترجمة لكلمة pronona اليونانية ، وهى تقابل في اللغة اللاتينية انفلة cura ، واهتقت منها curator الإنجليزية، curateur الفرنسية . ومعناها . انظر وقف ، أو وصى ، أو وكيل تركه ، أو ولي ، أو قيم .

يطلق على التابع الإقطاعي « تيارحي »^(١) . ويغل هذا التيار على صاحبه إيراداً يبلغ ثلاثة آلاف آقجة، وهي عملة عثمانية من الفضة^(٢) . وكان على التابع الإقطاعي أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم وأسلحتهم^(٣) .

ثانياً : إقطاع أكبر مساحة من الإقطاع السابق ، ويسمى « زعامت »^(٤) يمنحه السلطان للفراس إذا أظهر كفاية قتالية . وكان يطلق على صاحب « الزعامت » اسماً جديداً هو « زعيم » . ويغل هذا الإقطاع على صاحبه دخلاً يصل إلى مائة ألف آقجة . وفي مقابل هذا الدخل الكبير نسبياً كان على الزعيم أن يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف آقجة

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحربي - تيار وزعامت - يخضمان لنظام التفتيش يقوم به موظفو الحكومة المختصون ، ويسمون « الدفترداريون »^(٥)

(١) كان يطلق أيضاً على صاحب التيار: تيار صاحبي، أو أهل تيار، أو تيار اري .
(٢) الآقجة عملة فضية صغيرة الحجم، واسمها بالكامل آقجة عثمانلي. والمقطع الأول من الكلمة « آق » مأخوذ من اللغة التركية ومعناه أبيض، والمقطع الثاني من الكلمة « جه » مأخوذ من اللغة الفارسية وهو تصغير لكلمة أبيض . وكان يطلق على الكلمة في معظم الأحيان عثمانلي . وقد صرحت هذه العملة على عهد السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ - ١٣٦٠) وكانت تستخدم في كافة أنحاء الدولة كعملة رسمية لم يتغير وزنها أو طرازها حتى نهاية القرن السابع عشر . وكان المؤرخون الأوروبيون عندما يترجمون للعملة العثمانية يذكرون كلمة أسپر Aspre أو Asper وهي كلمة يونانية بمعنى أبيض . ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن كلمة آقجة قد استخدمها الأتراك السلاجقة قبل الأتراك العثمانيين وكان وزنها لا يزيد على ربع مثقال من الفضة الخالصة بنسبة ٩٠ ٪ ولم تكن قيمتها مستقرة .
انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen. op. cit., Vol 1, Part II, p. 49, f. n. 2

(٣) كان السلاح أول الأمر القوس والنبش ، ثم تدرج إلى الرمح الضيف والسيف القصير ، ثم الخصر المدببة ، والخن الصغير المستدير ، وأخيراً الدرع والخوذة الشائكة .
(٤) زعامت اشتقت من الكلمة العربية « زعامت » .
(٥) الدفترداريون مفرداً الدفتردار . والدفترداريون هم فئة من كبار رؤساء الموظفين المتخصصين في الشؤون المالية سواء في الحكومة المركزية أو حكومات الولايات العثمانية .

وكانت تربية الخيول والعناية بها وتدريبها تدريباً متواصلًا أموراً تعد في مقدمة واجبات صاحب الإقطاع الحربي . فإذا استبان لموظفي الحكومة في أثناء دوراتهم التفتيشية على الإقطاعات الحربية إهمال أو تراخ من صاحب الإقطاع في تربية الخيول كان هذا الإهمال أو التراخي سبباً كافياً لانزع الإقطاع منه .

وكانت الإقطاعات التي من نوع « تيارات » و « زعامات » توجد في ولايات الدولة المحكومة من إستانبول رأساً سواء في أوروبا أو في آسيا . ومع ذلك فلم تطبق الدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات ، كما أن هذه الإقطاعات لم تكن تخضع تماماً لنظام واحد في جميع المناطق . ومن الأقاليم التي طبق فيها نظام الإقطاع الحربي : الروملي - بودا - البوسنة - طمسفار^(١) - Temesvar - ديار بكر - أرضروم - دمشق - حلب - بغداد - شهرزور - إيالات الأناضول - جزر الأرخبيل - قرمان - مراعش - سيواس .

وكان أصغر السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أتباع ، راكبين خيولهم ، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم .

القليج والترقي :

وكانت الأرض المنوحة سواء كانت « تيارات » أو « زعامات » تتكون في العادة من جزئين هما . الأرض الأصلية ، وتسمى « قليج »^(٢) ، وإضافات تسمى « ترقى »^(٣) وكانت هذه الإضافات تمنح بقصد توفير عشر الدخول التي يدرها « القليج » . وكانت أجزاء الإقطاع المتكونة من هذه الإضافات تسمى:

(١) طمسفار أحد أقاليم البحر . وقد قسم في سنة ١٩١٩ بين يوغوسلافيا ورومانيا .
(٢) قليج لفظاً تركية بمعنى سيف . وكانت الأرض الأصلية من الإقطاع تسمى بهذا الاسم ، لأن الإيرادات التي تجلبها هذه الأرض الأصلية تكثر كافية لتغطية نفقات السباهي وإحلالها .
ومن هنا كانت تمتد السلطان بسيف في أثناء الحرب .
(٣) اقتبس هذه اللفظة من الكلمة العربية : ترقى .

أيضاً « حصّة »^(١). وكانت الحكومة تلجأ إلى اقتراع هذه الحصص من حوزة إقطاعي وإضافتها إلى إقطاعي آخر. وقد استغنت الحكومة هذه القاعدة لتشجيع كل سباهي على الوفاء بالتزاماته على أكمل وجه ، لأنه يرى رأى العين أن الإقطاعي الذي يظهر تراخياً في عمله تعاقبه الحكومة بتجريدته من الحصص وإضافتها إلى إقطاعي آخر . ويعتبر هذا الإجراء بمثابة إنذار للإقطاعي المترخي في عمله . فإذا استمر متكاسلاً لجأت الحكومة إلى إحراء أكثر حزمًا وأشد قسوة ، وهو تجريدته من الأرض الأصلية - فليج - بصفه مؤلفة أو دائمة . ولكن ما حدث كان العكس تماماً ، فإن التيجارية - وهم أدنى درجات السباهية الماديين من اصحاب التيارات - كانوا يطمحون في فجر تاريخ الدولة العثمانية إلى الترقى إلى مرتبة « زعيم » أى صاحب « زعامت »^(٢) .

ثالثاً : إقطاع أكبر مساحة من النوعين الأولين ويسمى « خاص » . وفضلا عن مساحته الكبيرة ، وهذه كانت في حد ذاتها مميزة ، كانت له ميزة أخرى تتمثل في عدم خضوعه لتفتيش الدفتردار أو غيره من موظفي الحكومة . وكان هذا الإقطاع « الخاص » يمنح للولاة الذين في الخدمة الحكومية . فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر ، نزع منهم الإقطاع « الخاص » . وجدير بالذكر أن بعض « التيارات » و « الزعامات » كانت تمنح لبعض شاغلي المناصب الكبرى في الدولة ، فكانت تشبه الإقطاع « الخاص » الذي كان يرتبط بالمناصب .

وقد طبقت الدولة النظام الإقطاعي الحربي منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى بداية حكم الأتراك العثمانيين حين كانوا يشكلون إمارة صغيرة في الشمال الغربي

(١) جاءت هذه الكلمة من لفظة عربية هي « حصّة » بمعنى نصيب الفرد من تقسيم

لإيراد معاملات عائلية مثلا .

2) Gibb Hamilton and Harold Bowden : op. cit., vol I, Part I, p 49

لأسيا الصغرى ، ثم توسعت الدولة في تطابق هذا النظام الإقطاعى الحربى . وكان يشترط فى الأتباع الإقطاعيين أن تسكون أصولهم عثمانية بجمته ، فإذا تطرق الشك إلى أن أصولهم غير عثمانية سرحوا فوراً وانزع منهم الإقطاع الحربى وما يستتبعه من امتيازات .

خواص هايون - يورتلقات :

وبجانب هذه الإقطاعات الحربية كانت بعض الإقطاعات التى من نوع « الخالص » ملكاً خاصاً للسلطان ويطلق عليها « خواص هايون » (١) وكانت أكبر وأهم الإقطاعات جميعاً من حيث المساحة وجودة الأرض ، وكان السلطان يملك أجزاء منها لبعض أعضاء الأمرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه . كما كانت هناك أراض أخرى لها الطابع الاقتصادى المسكرى تأسيساً على أن الإيراد الذى تنقله هذه الأراضى يخصص لإنفاقه على الأغراض العسكرية مثل أفراد حرس الحصون والحاميات المحلية وعلى السلاح البحرى فى إستانبول . وكانت هذه الأراضى تعرف باسم اليورتلقات (٢) و « الأوجاقلقات » (٣) .

توزيع الإقطاعات الحربية :

كان نصف الأراضى الإقطاعية فى أيدي السباهية ، وتوزع على شتى قبائل

(١) سبق أن شرحنا معنى هذه اللفظة و هذه الدراسة ، ص ٩٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) يورتلقات ومفردها يورتلى ، معناها الخيمة ، أو البيت ، أو مسقط الرأس ، أو الوطن . والإصامة ونهاية الكلمة وهى « لى » و صيغة المفرد ، والذات و صيغة الجمع معناها « ملك له » وبذلك يكون المعنى الكلى : ملك لقبيل أو الخيمة أو مسقط الرأس أو للوطن .

(٣) أوجاقلقات كلمة تركية مشتقة من أوجاق بمعنى مؤنث ، أو دفعة عسكرية . ويستخدمها المحدث على هذا النحو : وجاقل أى رجل منقسم إلى فرقة عسكرية . وكان هذا المؤرخ يجمعها وجاقلية .

والإضافة الواردة ونهاية هذه الكلمة : أوجاقلقات وهى إناث هى صيغة الجمع ، بينما لى هى صيغة المفرد ، ومعناها ملك لـ وبذلك يكون معنى الكلمة المذكورة فى المتن هو أرض إقطاعية تتبع أوجاق أو أرض ملك للفرقة العسكرية .

المسكربين الإقطاعيين . فسكانت الأرض الإقطاعية ذات الدخل في صنجق^(١)
عادي توزع على النحو الآتي :

(١) صنجق لفظه تركية لها عدة معان : (١) علم أو بندق *une bannière*
(٢) لواء أو فرقة، أى تشكيل من تشكيلات الجيش *une brigade* (٣) قسم إدارى كبير
وولاية يحكمه أحد البكوات *une circonscription territoriale administré*
par un bey (٤) الحاكم على هذا القسم الإدارى الكبير ، كما كان يطلق على الإقليم الذى
يحكمه صنجقية .

وفى تاريخ مصر لبان الحكم العثماني كانت ترد كلمة صنجق فى أحد معنيين : أولهما مجرد
رتبة أو وظيفة *titre ou fonction* فإذا كان يحمل الرتبة ولا يشغل منصباً ، أطلق عليه
« صنجق بطال » وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة بطالة أى عدم وجود عمل . وكان الباشا
العثماني في القاهرة يمنح رتبة الصنجقية . وكان يصحب منح هذه الرتبة ترقية صاحبها إلى رتبة
بك . وكان يقام حفل كبير في القلعة يطلق عليه المصطبة والفقطان . أما المعنى الثانى لاستخدام
كلمة صنجق فهو أحد أعضاء « هيئة صناجق مصر » أو « جماعت أمراء محافظين
مصر المحروسة » وكان عددهم في معظم الأحيان أربعة وعشرين صنجقياً . ويسمى كل منهم
« صنجق طباغانة » وتكتب أحياناً « صنجق طبل خانة » أى تدق له الطبول عند مطلع
الشمس وفى غروبها، وعند تحركه وذلك تقديراً لملو مركزه وسمو مقامه . وقد احتفظت
حكومة إستانبول لنفسها بحق تعيين أربعة منهم هم صناجق الثغور المهمة الثلاثة وهي
الاسكندرية ، ودمياط والسويس، وكذلك وكيل الباشا العثماني في القاهرة ويسمى الكتخدان .
ويلاحظ أن عدد البكوات الصناجقة في مصر لم يكن دائماً أربعة وعشرين، فثارة كان يقل
عن هذا الرقم ، وثارة أخرى يتجاوزها . وعلى العموم كان البكوات الصناجقة المالكين
يحكمون الأقاليم الإدارية الكبرى الخمسة وهي الغربية ، الموفية ، الشرقية ، البحرية ،
جرجا ، كما كانوا يعطون مناصب كبرى مثل القنطرة ، أمير الحج ، أمير الخربة الإرسالية
أى قائد القوة العسكرية المرافقة لحزينة مصر المرسلة إلى إستانبول ، قيادة الحملات العسكرية
التي ترسل من مصر للاضمام إلى الجيش العثماني في وقت الحرب . ويلاحظ أيضاً أن مصطلح
« صنجق طباغانة » كان متداولاً في مصر في العصر المملوكي قبل العثماني ، إذ أن بعض
الأمراء في دولة المماليك كانوا أمراء طبل خانة أى يكسبهم مركزهم أن تدق لهم الطبول وغيرها
من الآلات الموسيقية التي تتسكون منها طباغانة السلطان المملوكي .

Gaudefroy—Demombynes:

La Syrie à l'Epoque des Momeloukes d'après les Auteurs
Arabes, Paris, 1928, p 38

وتكتب كلمة صنجق بحرف الصاد ثارة ، وبحرف السين ثارة أنزى ، كما تكتب
في صيغ مختلفة ، منها :

- ٢. مساحة الإقطاع من نوع التيارات
- ١. مساحة الإقطاع من نوع الزمامات .
- ١. مساحة الإقطاع من نوع الخواص .
- ١. مساحة الإقطاع من نوع أوقاف .
- ١. أوقاف .

وكان العسكريون الإقطاعيون يتمتعون بحقوق وراثية، ولذلك ارتبطت مصالحهم ومصالح عائلاتهم بهذا النظام، ونجم عن تقرير حق الوراثة في الإقطاعات

== سنجق - سنجان - سايناق

سنجق - سنجان - سايناق

وتجهم على النحو التالي .

صاجق - صانجق

سانجق - سانجق

أ نظر

Barbier de Meynard; Dictionnaire turco-français, 2 vols., Paris, 1881-1886, vol. II, p. 63, 100, et 218.

Boctor; Dictionnaire français-arabe, revu et augmenté par A. Caussin de Perceval. 2 vols., Paris, 1829, vol. I, p. 94.

Bozy; Supplément aux dictionnaires arabes, 2^{ème} édition : cyde-Paris, 1927, t. I, p. 691, 846.

الجبوتي ، مصدر سبق ذكره ج ١ ، ص ٦٨ .

حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ ، ص ١٤ ، ص ١٦ ، ص ١٧ .

أن انتفى احتمال قيام حركات تمرد أو مناسفة من جانب أفراد هذه الطبقة للسلطين^(١). وستناول نظام الوراثة في الإقطاعات الحربية بشيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة عند الكلام على القوات المسلحة العثمانية .

مزايا الإقطاع الحربي :

من مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقي والرأسي في زراعة مساحات شاسعة من الأراضي داخل الأقاليم العثمانية في أوروبا وفي آسيا . واطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للدهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين . كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبالغ في بعض الأوقات مائتي ألف رجل^(٢) دون تكاليف تذكر ، لأن التابع كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه . وفضلاً عن ذلك فقد وفر هذا النظام على الدولة مرتبات المسكرين سواء في زمن الحرب أو في أوقات السلم . وقد طبق هذا النظام على سلاح الخيالة - سلاح الفرسان - ولم يطبق على سلاح البيادة - سلاح المشاة . وفوق كل هذه المزايا وأهمها نذكر المستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون . وقد قرر أحد كبار المؤرخين الأتراك وهو أحمد جودت « أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب التيارات والزعامات »^(٣) وتضاف إلى مزايا الإقطاع الحربي مزايا أخرى . فقد ربط المسكرين بالأرض ، وحال دون اتخاذ الفتوح العثمانية طابع الاحتلال العسكري .

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I, Part 1, p 52

2) Loc. cit.

3) op. cit, p. 53, f.n. 1

علا عن أحمد جودت : تاريخي جودت ، ١٢ جزءاً ، استانبول ١٣٠٩ هـ ، « دولت عليه ن أن جسيم قوت عسكرياً أرباب تيار وزعامت أبيدي » ، ج ١ ، ص ٩٠ .

وأخيراً فقد خفف نظام الإقطاع الحربى عن الإدارة المالية فى الدولة عبء جمع الضرائب من الملاحين فى الأراضى التى طبق عليها هذا النظام .

عيوب الإقطاع الحربى :

لم يغفل نظام الإقطاع الحربى من عيوب . فإن ارتباط أصحاب التيارات والزعامات بالأرض قد جعل بعضهم يتقاعس عن مبارحة أراضيمهم عند دعوة الحكومة لهم بالالتحاق بالجيش عند نشوب الحرب . فإذا استجابوا للنفير العام وأخذوا أماكنهم فى ساحة القتال ، تهرقوا شوقاً إلى العودة إلى أراضيمهم . ولذلك كانت تهمرس الحكومة على أن يكون نفوذها عليهم قوياً خشية أن تصبح هذه القوة عديمة الفائدة إذا تراخت قبضة الحكومة عليهم .

كما كان بعض أصحاب الإقطاع الحربى يهتمون المران الشاق الطويل سواء لهم شخصياً أو لأتباعهم الأمر الذى كان يؤثر على كفايتهم القتالية . كما كان البعض الآخر لا يلقى العناية القائمة بتربية الحيول وهى عماد سلاح الخيالة . وفى أمثال هذه الحالات كانت الحكومة تتدخل وتزع منهم أراضى الإقطاع وتجردهم من امتيازاتهم .

ويؤخذ على نظام الإقطاع الحربى أيضاً أنه جعل الملاحين أداة مسخرة فى يد المسكرين فى أوقات السلم . كان الأولون ينصرفون إلى فلاحية الأرض واستثمارها تحت إشراف المسكرين الذين كانوا يفوزون بالنعم الأكبر مادياً وأدبياً ، وأصبحوا فى وضع يشبه وضع السادة . وبقي الملاحون فى وضع أقل بكثير من وضع المسكرين ، بل إنهم كانوا فى حكم الأرقاء . وفى ضوء هذه المقارنة بين الإقطاعيين المسكرين والملاحين يتهاوى الرأى الذى يقرره بعض الباحثين بأن الملاحين والفرسان الإقطاعيين احتبروا أنفسهم على الزمن شجراً واحداً مهما

كانت أصولهم الجنسية ، وذلك باستثناء الحالات التي كانت الاختلافات الدينية تحول دون ذلك^(١) .

لم ينتشر العثمانيون الإقطاع الحربى :

وكان أخذ الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعى الحربى أمراً طبيعياً ، لأنها كانت دولة عسكرية بكل ماتحمله هذه العبارة من ممان . وكان الجيش يظفر - كما سبق أن ذكرنا - بأعظم قسط من اهتمام الدولة وعنايتها ، وفرت له جميع الإمكانيات البشرية والمادية ليفدو أكبر قوة عسكرية ضاربة .

ولم تنتشر الدولة العثمانية نظام الإقطاع الحربى ، فقد كان هذا النظام سمة بارزة فى الدولة السلجوقية التي كانت ذات صبغة حربية ، كما أن مصر قد عرفت نظام الإقطاع الحربى وبخاصة عند ما أدخله السلطان صلاح الدين الأيوبي فيها أيام الدولة الأيوبية . وكان صلاح الدين قد شاهد ومارس الإقطاع الحربى فى الدولة الزنكية على عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الذى أسس دولته ذات العاصمتين : حلب والموصل ، وأوغل فى حروبه ولجأ إلى تعميم نظام الإقطاع ، ودرج على ذلك ابنه نور الدين . وتوطد نظام الإقطاع الحربى فى مصر والشام زمن السلاطين الأيوبيين الذين أوثقوا هذا النظام لدولتى المماليك البحريةية والشراكسة . وهكذا نجد أن النظام الاقتصادى العسكرى ساد مصر إبان حكم الدول ذات الطابع الحربى والتي قامت فيها .

كان فى مصر زمن صلاح الدين وخلفائه سلاطين الدولة الأيوبية نوطان من الإقطاع : الإقطاع الحربى ، ولم يكن يختلف فى أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاع السلجوقى ، إذ افترن بما يؤديه صاحب الإقطاع من خدمات حربية ومن خضوعه لسيطرة الحكومة المركزية .

(1) Gibb Hamilton and Harold Bowen, .op. cit., vol 1, Part I pp. 46-47.

ومن أم هذه الخدمات تقديم عدد معين من الفرسان بخيولهم وسلاحهم إلى الجيش عندما تشارك الدولة في حرب ما . وأصبحت مصر مقسمة إلى إقطاعات لأبناء البيت السلطاني الأيوبي وإقطاعات لأمرء الأجناد وإقطاعات للعربان . أما النوع الثاني فهو الإقطاع الإداري واختص به الأمراء من الأسرة الأيوبية الحاكمة وكبار الموظفين . وكان السلطان يوصى أرباب الإقطاع الحربي بأن يكونوا دائماً « في التأهب للخدمة كالسهم الموضوع في وتره » وأن يكثروا من الفرسان بزيادة العطاء لهم^(١) . وكان من وجوه النقص الإقطاعي في التنظيم الأيوبي أن المقطوعين كانوا يذهبون إلى إقطاعاتهم للإشراف على جمع المحصول وتخزينه . والتزم السلاطين الأيوبيون بذلك ، فكان إذا خرج أرباب الإقطاع إلى ساحات القتال ثم حلت مواعيد الحصاد ، فإنهم يعودون سراعاً إلى إقطاعاتهم ، بينما تكون العمليات الحربية دائرة في منتهى الضراوة .

ومع ذلك فإن الدولة الأيوبية قد نجحت إلى حد بعيد في حماية الملاحين الخاضعين للإقطاع الحربي من ساداتهم الإقطاعيين العسكريين ، فكانت تحدد الإيجارات والحبايات التي يدفعها الفلاح لسيد الإقطاعي ، وتراقب تنفيذ هذه الالتزامات مراقبة دقيقة منعاً لاستغلال العسكريين للملاحين . ومن هنا انطلقت العبارة المشهورة وهي أن السادة الإقطاعيين العسكريين في العصر الأيوبي كانوا في نعمة محدودة^(٢) .

(١) انظر :

دكتور السيد الباز العريني : الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي . حوايات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

دكتور حسين محمد ربيع : الظلم المالي في مصر زمن الأيوبيين . مطبوعات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ م ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وجرت دولة المماليك الشراكسة^(١) على توزيع الأراضي - وموارد أخرى في بعض فترات الحكم - إقطاعات بين السلاطين والأمراء والأجناد . وكانت الأراضي المقطعة ثلاث درجات من حيث الرى والمصوبة ووفرة الإنتاج . وأطلق على ديوان الجيش ديوان الإقطاع دلالة على إينال الدولة في تطبيق نظام الإقطاع الحربى . وكان هذا الديوان يتولى إصدار الوثائق الإقطاعية الأولى ، ثم يقوم ديوان الإنشاء بإعداد الصياغة اللغوية النهائية للمقطع ، ويعرف هذا المستند باسم المنشور ، وبمسلمه المقطع ، وبذلك يأخذ الإقطاع الصبغة القانونية . وكان يعرف إقطاع السلطان باسم « الخاص السلطانى » أو « بلاد الخاص » أو « الخاص الشريف » تمييزاً له عن « الأملاك السلطانية » الممنونة بالشريفة ، فالخاص هو الإقطاع الذى يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً ، وهو إقطاع استغلال كغيره من الإقطاعات ، فهو يحوزه لكنه لا يملك رقبته ، ولذلك ينقل إلى غيره بزوال السلطنة عنه ، أما الأملاك الشريفة السلطانية فهى التى يشترها السلطان بماله من إيراداته المتنوعة . وكان أولاد السلاطين يحوزون إقطاعات حربية كبيرة وهم لا يزالون صغار السن في بعض الأحيان ، ويحوزون أيضاً الرتب العالية في الجيش المملوكى وكانت أهم فرقة في هذا الجيش من حيث حيازة الإقطاع الحربى هى فرقة أجناد الحلقة . وكانت هذه الفرقة هى الأصل في حيازة الإقطاع الحربى ، وكانت تليها فرقة المماليك السلطانية ثم فرقة أجناد الأمراء^(٢) . وكانت الدولة تمنح إقطاعات للعربان والتركان والأكراد . وكانت

(١) آثرنا أن نتكلم عن إحدى دولتى المماليك كمثل الإقطاع الحربى المملوكى من قبيل الاختصار ، وبذلك نكون قد تكلمنا عن الدولة الأيوبية ودولة المماليك الشراكسة من ناحية الملامح العامة للإقطاع الحربى فيما ونمىل من بيد الاطلاع على هذا النظام ودولة المماليك المعروفة إلى دكتور سعيد عبد الواحد عاشور : العصر المماليكى الخ . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٨ - ٣٥٢ ، كتابه الآخر : مصر في عصر دولة المماليك البحرية المعاصرة ، ١٩٥٩ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٧ .

(٢) دكتور ابراهيم على طرخان : الإقطاع الإسلامى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد السادس ، سنة ١٩٥٧) .
وإطار أيضاً لهذه المؤلفات : مصر في عصر دولة المماليك المعاصرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢١٥ - ٢٣٩ .

هذه العناصر الثلاثة الأخيرة تخدم الدولة عن طريق حماية الحدود ورد غارات القبائل التركمانية الأخرى المعادية . وكان لهؤلاء العربان والتركمان والأكراد سجل خاص في ديوان الجيش تدون فيه جميع البيانات عن إقطاعاتهم الحربية . على هذا النحو كان سلاطين الدولة الأيوبية ودولتي المماليك يقطعون الأمراء أراض زراعية وغيرها لاستغلالها تسمى إقطاعات . وكان كل إقطاع يختلف عن الآخر من حيث حجمه ، أى مساحته ، وموقعه ، وخصوبة تربته مما يؤثر في النهاية على ما يناله من إيراد . وكان صاحب الإقطاع لا يتقاضى عن خدماته في الجيش مرتبات نقدية أو عينية من الدولة ، بل كان يؤدي للدولة ، نظير الإقطاع المودوح له ، خدمات حربية ومالية ومدنية . وكان أهمها الخدمات الحربية . فعندما تنشب الحرب كان يتعين على كل مقطع - أى صاحب إقطاع - أن يقدم إلى الجيش عدداً من الفرسان يخيولهم وأسلحتهم وملابسهم وذخيرتهم . وكان هذا العدد يتناسب مع مساحة الإقطاع ومميزاته^(١) .

وكان السلاطين يعمدون إلى حرمان المقطع من إقطاعه إذا بدا منه تعصير في تربية الخيول أو إعداد الفرسان . وكانت الدولة تلجأ - كإجراء وقائي - إلى تفتيت الإقطاع بحيث لا يكون كتلة إقليمية واحدة خشية أن يستقل بها صاحب الإقطاع أو يزداد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وكان يجوز نقل الإقطاع من شخص إلى آخر .

(١) تمثلت الخدمات انبالية التي كان يؤديها صاحب الإقطاع وأن يؤدي من حصيلته الأموال التي قام بمجابتها التزامات الدولة ، مثل أداء حزية الجوالي - وهي حزية الرأس المفررة على أهل الذمة من اليهود والنصارى والمسلمين دون النساء والصبية والرهبان والأرقاء والمجانين فضلا عن الشيوخ والفقراء - وكذلك نصيب الدولة في الأرباح - أى الدين - والقراريح - أى الدجاج . وكان رسم الأربان يقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم لديوان الجيش وتسم المقطع ، وقسم للمزارع وكان رسم للفروج أو القراريح يقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام: دجاج للدولة ، ودجاج المقطع ، وفائض بمقدار الثلث يسمى أثمانا التربية أى أجره الغربية ويخصص للأفلاح أما الخدمات المدنية التي كانت مفروضة على صاحب الإقطاع فتخصص في صيانة المسور وإمداد الفلاحين بالتقوى والاهتمام بالزراعة بوجه عام .

نظر .

دكتور حسنين - ربيع التطعيم المالية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ - ٣٩

تلك ملامح سريعة جداً للنظام الحربى الذى طبقتة الدول ذات الطابع الحربى والتي تأسست فى مصر قبلفتح العثمانى لها ، وهى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحريةية ودولة المماليك الشراكسة . ومن هذه الملامح يتضح أن كلا النظامين الإقطاعيين : العثمانى من ناحية ، والأيوبى والمملوكى من ناحية أخرى يتشابهان فى بعض الجوانب ويختلفان فى جوانب أخرى . ولكن الفكرة الأساسية وراء منح الإقطاعات الحربية كانت واحدة فى ذهن ولى الأمر ، وهو الساطان فى هذه الدول الأربع ، وهذه الفكرة هى ضمان حصول الدولة على قوات قتالية بمجرد إعلان التعبئة العامة . أما وجوه الاختلاف فكانت تنصب على مسائل شكلية فى أثناء التطبيق العملى لهذا النظام فى كل دولة من هذه الدول الأربع .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى أول ما طبقتة فى الولايتين الأصليتين اللتين ترفان باسم الأناضولى^(١) والروملى^(٢) . وتغطى الولاية الأولى الأناضول أو شبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى ، وتشمل الثانية بلاد البلقان فى أوروبا . ولما فتحت الدولة معظم الأقاليم العربية فى آسيا وإفريقية فى القرن السادس عشر شرعت فى تطبيق الإقطاع الحربى أو نظام الالتزام أو كليهما معاً فى الولايات العربية . ولم يكن هذا التطبيق تطبيقاً حرفياً لما كان عليه العمل فى الولايتين ، لأن القوانين والإجراءات التى صدرت لهما فى القرن الخامس عشر كانت تمكس الأحوال السائدة فى الأناضول وبلاد البلقان وقتذاك . ولذلك يمكن القول إن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى على نحو من الأنحاء فى الولايات العربية .

وستتكم هنا - كئثال - عن ثلاثة من الأقاليم العربية التى وقعت تحت السيادة العثمانية وهى مصر وبلاد الشام والعراق

(١) يطلق عليها فى بعض المراجع ليل أناضولى

(٢) يطلق عليها فى بعض المراجع ليل روملى .

نظام الإلتزام :

أما النظام الآخر الذى كان يحمل الكثير من سمات النظام الإقطاعى فهو نظام الإلتزام . وقد طبقته الدولة العثمانية فى الأقاليم أو المناطق التى لم تخضع لنظام الإقطاع العسكرى . وجدير بالذكر أولاً أن الدولة العثمانية لم تبسّر نظام الإلتزام . فقد وجدته معمولاً به فى بعض الأقاليم التى خضعت لها سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى شمال العراق . ولما فشل نظام المقاطعات أو الأمانات فى مصر وأسفر تطبيقه عن عيوب كثيرة^(١) ، رأت الدولة أن تستبدل به—هذا

(١) عن نظام المقاطعات أو الأمانات انظر كلام من :

Shaw Stanford J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt. (1517-1798)* Princeton University Press, Princeton. N.J., 1962. p. 27 & pp. 352—362.

Shaw Stanford J.; *The Ottoman Archives as a source for Egyptian History.*

in

Journal of the American Oriental Society vol. 83. (1963), p. 448.

Shaw Stanford J., *Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt* pp. 94—95, 99.

وهو أحد بحثين تقدم بهما ستانفورد شو الأستاذ بجامعة برنستون Princeton بالولايات المتحدة إلى مؤتمر دولى عقد فى شهر إبريل ١٩٦٥ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل إن بعض البحوث قد امتدت الحقبة التاريخية التى تناولتها إلى سنة ١٩٦٢ وشملت نمو الإنتاج الزراعى فى مصر من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٩٦٢ . وكان موضوع البحث الآخر الذى قدمه ستانفورد شو : المصادر التركية عن التاريخ المصرى . وقد سمعت البحوث التى ألقىتها فى المؤتمر ، وتولى الأستاذ هولت ب . م . أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن نشر هذه البحوث فى كتاب جعل عنوانه :

Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic; edited by P.M. Holt. London, 1968.

Holt P.M.

(م ١٠ — الدولة العثمانية)

النظام نظاماً آخر هو نظام الإلتزام . وسنقدم إلاماً سريعاً بالملامح العامة لهذا النظام .

وبمقتضى نظام الإلتزام كانت الدولة تعهد - بعد إجراءات معينة - إلى شخص من دوى النفوذ والثراء في العادة بمجباية الضرائب المربوطة على الأراضي الزراعية والمقررة على الفلاحين في قرية أو أكثر من قرية لمدة زمنية محددة أول الأمر . وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخي « الملتزم » . وكان عليه ، قبل أن يباشر عمله كملتزم ، أن يدفع مبالغاً من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التي يمارس فيها اختصاصاته ، وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الإلتزام » .

إجراءات الحصول على حق الإلتزام

كانت الحكومة تعطي هذا الحق بطريقة المزاد بين راغبي الحصول على حق الإلتزام أو بطريقة الاتفاق . وكان إجراء المزاد هو أكثر الطريقتين تطبيقاً^(١) . وكان تطلق على المزاد لفظة « مزايمة »^(٢) .

وكانت جلسات المزاد تعقد في أوائل شهر توت من كل سنة ، أى أوائل شهر سبتمبر ، لأن المصريين اعتادوا أن يربطوا كأسلافهم مواسم الزراعة ومواعيد الفيضان ووقت الوفاء بشهور التقويم القبطي لانساق مواعيده ، ولكن

= in

Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
University of London. vol. 26, 1, 1963, pp. 185 - 186

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1, Part 2,
p. 21 n.

1) Arminjon Pierre; La Situation Economique et Financière
de L'Egypte Le Soudan Egyptien. Paris, 1911; p. 678

2) Shaw Stanford J ; Landholding etc, op. cit., p. 95.

كانت الحكومة تفص في وثائق الإلتزام على التاريخ الهجرى الموافق للتاريخ القبطى ، لأن سداد المال الميرى كان يتم حسب أشهر التقويم الهجرى^(١) .

وطبقاً لنظام الإلتزام كانت الأرض الزراعية في القرية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً . وهذا التقسيم لاعلاقة له بقراريط الفدان المعروفة . فقد يصل القيراط في نظام الإلتزام إلى عشرات الأقدنة^(٢) . ومن المعروف أن المزداد يرسو على من يعرض أكبر مبلغ بين المتزايدين . وعقب سداد المبلغ في ديوان الروزنامة^(٣) ، يحمل هذا الشخص بصفة رسمية لقب ملتزم ، ويتلقى ثلاثة مستندات رسمية ، أولها « تقسيط الإلتزام » ويحدد فيه تحديداً دقيقاً المال الميرى الواجب سداده ، وأهم القرية أو القرى الملتزمة ، وعدد قيراطها ، ومساحة هذه القيراط .

(١) إبراهيم المويجى : الأرض والملاح و العصر العثمانى . بحث منشور في « الأرض والفلاح في مصر على مر العصور » الناشر : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل السابع ، ص ٢٢٥ — ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تتكون كلمة روزنامة من جرءين : رور ، وهى كلمة فارسية معناها النهار ونامة بمعنى دفتر الحوادث أى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ، ثم أصبح معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات و الدفاتر الرسمية . وكان رئيس هذا الديوان يسمى روزنامجى . وكان في أول الأمر عثمانياً يحضر من إستانبول لشغل منصبه . وظل منصب الروزنامجى على هذا الوصف إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر حين شغله الأمراء المماليك ذوو العمود .

عن القسم الأول الخاص بشرح مصطلح الروزنامة ، انظر :

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) في كتاب : المهدى في التاريخ المصرى تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سابقاً (جامعة القاهرة) . القاهرة ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م ، ص ٢٣١ — ٢٨٤ انظر ص ٢٦١ ، حاشية رقم ١

وعن القسم الثانى الخاص بشخصية الروزنامجى ، انظر : يوسف اللواتى (ابن الوكيل) تحفة الأحياب بمن ملك مصر من الملوك والنواب . مخطوطة مكتبة رفاة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ، ص ١٠٣ .

أما المستند الثاني الذى يصدر إلى الملتزم فكان يسمى « التمكن » (١) وكان بمثابة عقد . ولهذا يطلق عليه بعض الباحثين « عقد الإلتزام » وكان يحمل ختم لباشا العثمانى والدفتردار (٢) . وتوضح فيه منطقة إلتزامه ومقدار الأموال الأميرية المقررة عليها ، كما يرد فى هذا المستند نص صريح موجه إلى الملتزم بضرورة معاملة الفلاحين وسائر الأهالى بالرحمة والعدل (٣) ، « وأن يكون متسامحاً مع الفلاحين ، وألا

(١) التمكن ومعناها التمكنيات بقول عنها الأستاذ محمد شفيق غربال إنها من أمم مصطلحات العصر العثمانى فى مصر ، فلا بد من تمكين قديم أو جديد ، والمعنى أو وهمى ، لا كالمصطلح حق أو الانتفاع بحق . ومن أمم التمكنيات إذ ذاك التقاسيم التى يصدرها الباشا للملتزمين ويمكنون بواسطتها من حصص الإلتزامهم .
انظر :

حسين أفندى : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندى أحد أممىة الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية . نهر وتعليق الأستاذ محمد شفيق غربال تحت عنوان « مصر عند مفترق الطرق » (١٧٩٨ - ١٨٠١) المقالة الأولى . مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، ص ١٠١ - ٧٠ ، ص ١١ ، حاشية رقم ١

واستشهد فى مصر فى أثناء الحكم العثمانى مصطلح آخر يسمى كذلك بفتح الكاف الأولى وهمى كلمة تركية وتجمع كدكات ، ومعناها التمكن من مزاوله صناعة ما

انظر المرجع السابق ، ص ٢٦ حاشية رقم (١)

(٢) الدفتردار هو رئيس الديوان الدفترى . وكان هذا الديوان بمثابة وزارة المالية بالمصطلح الحديث ، كما كان عصب النظام المالى القائم على نظام الإلتزام ، كان يتبعه ديوان الروزنامة . وكان الدفتردار عمالياً فى أوائل العصر العثمانى فى مصر ، ويختار من بين كبار رجال الخزانة السلطانية المركزية فى إسطنبول ، ويرد ذكره فى الأوراق الرسمية بالمقب « دفتردار أفندى » أو « دفتردار خزينة عامرة » . ولما تركزت السلطة فى يد الأمراء المماليك احتكروا هذا المنصب لأنفسهم منذ أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر .

انظر :

دكتورورة لى عبد اللطيف أحمد : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى . رسالة دكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٥ - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - ص ٢٨٤ .

(٣) انظر كلامن :

يعقوب أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية . تعريب سعيد عدون ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، ص ٤٥

محمد البجيرى وعبد الله غنام : شرح القوانين واللوائح الزراعية ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨٥ .

يظلم أحداً منهم»^(١). وكان الملتزم يتسلم في ذات الوقت مستنداً يطلق عليه تسمية أو فاميك . ويرد هذا المصطلح في المراجع الفرنسية Vahmik^(٢) . ويكتب هذا المستند على وريفة لا يعدو حجمها راحة اليد . وهذا المستند بمثابة أمر موجه من الحكومة إلى فلاحى منطقة الإلتزام تبليغهم بأنهم أصبحوا منذ ذلك الوقت فصاعداً في حوزة الملتزم ، فعليهم أن يلتزموا بطاعته^(٣) .

وفي ذات الوقت كانت تصدر عن ديوان الروزنامة « تذاكر ديوانية » إلى سكان كل قرية يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الميرى الربوط على أراضي القرية وغير ذلك من التزامات مالية ، وذلك من قبيل الرعاية لصالح الفلاحين فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم .

فئات الملتزمين :

إذا أخذنا مصر كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام نجد أن الملتزمين كانوا أخلاطاً شتى من المجتمعات التى وجدت في مصر إبان الحكم العثمانى . كان من بينهم عسكريون ومدنيون وسيدات . فن العسكريين رجال الأوجاقات أى فرق الحامية العثمانية ، والضباط العثمانيون المتقاعدون ، وهؤلاء كانوا يعضون شهور السنة في التفتل بين القاهرة وإستانبول^(٤) . وكان من بين الملتزمين العسكريين أيضاً أصحاب العصبيات كأمرأه المالك ومن يفتمون إليهم مثل الجلابية ، وهم المالك الذين لم يولدوا في مصر ، بل جلبوا من خارجها، ويسمون أيضاً الأجلاب . أما الملتزمون المدنيون فكان من بينهم الأشراف وكبار علماء الأزهر ، وفيهم شيخ الأزهر ، وأرباب السجاجيد وهم طائفة تتمتع أفرادها بالإحترام العميق من

(١) إبراهيم المولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧

(٢) Arminjon Pierre; op. cit., p. 679.

(٣) دكتور أمين مصطفى عفيفى عبدالله : تاريخ مصر الاقتصادية والمالى فى العصر الحديث .

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ؛ ص ٣٨١ .

(٤) Shaw Stanford J.; Landholding etc.; op. cit., p. 96

المصريين نكريماً لأجدادهم الأولين من كبار الصحابة^(١). وكان من بين الملتزمين المدنيين أيضاً التجار ومشايخ العرب مثل الهوارة وغيرهم ، ثم دخلت النساء ميدان الإلتزام في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وطرات على الريف المصرى هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة ، وهى وجود سيدات ملتزمات إلى جانب الملتزمين ، وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وروزاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر^(٢). وكان يطلق على السيدات الملتزمات مصطلح تركى عربى هو

(١) كان أرباب السجاجيد ينتمون إلى عدة أسر ، هى أسرة الشيخ السكرى وتصدر من أسلافه أنى بكر الصديق ، وأسرة الشيخ السادات وتنتمى إلى أسرة طلى بن أبى طالب ، وأسرة الشيخ العناني وتشمل أفرادها من عمر بن الخطاب ، وأسرة الشيخ الحضيرى ، وترجم أصولها الأولى إلى الزبير بن العوام .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر اهتم بأمر أرباب السجاجيد اهتماماً كبيراً جداً ، ورتب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلاداً ومكنهم فيها . وكانوا أعضاء في ديوان القاهرة . وكان الباشا العثماني في مصر وكبار موظفي الحكومة يرجعون إلى أرباب السجاجيد — وكان معظمهم يجمع إلى شرف المهتمد غرارة العلم — فيرجعون إليهم عندما تستفلق عليهم دقائق السائل المهتم ، ويسترضدون بأرائهم . وكانوا يتلقون « القدام » أى الهدايا من الباشا العثماني عند تعيينه في منصبه وقدموه إلى مقر منصبه . وكانوا يصعدون إليه في القلعة في أول كل شهر عربى لتهنئته بحلول الشهر . وكان يقدم لهم في شتى المناسبات على مدار السنة قرأوى سهور ، وهو الرداء الرسمي لشاغلي المناصب السكرى وللشخصيات الكبيرة .

(٢) يقرر الأستاذ محمد شفيق غربال في تعليقه على لجابة حسين أفندي — وهو أحد أفندية ديوان الروزنامة التى قال إن الإلتزام أصبح « لاجريعات » — أنه يجزم أن هذا الأفندي لم يقصد إطلاقاً أن يقول إن الملتزمين في عهده كانوا جميعاً من النساء . . . ولكن الأستاذ غربال يقول في ذات التعليق إنه من الصعوبة تفسير « ماذا يريد أن يقول » حسين أفندي .

وقد يكون أحد الأبواب الذى دخلت منه السيدات ميدان الإلتزام هو حق التوريث الذى تقرر الملتزمين في القرن الثامن عشر أو أواخر القرن السابع عشر على حصر إلتزاماتهم قد أتاح عهده الفرس أمام الزوجات ، فورثن عن أزواجهن تصبيراً الشرعى في حصة الإلتزام بعد أن آتمن الإجراءات التى كان يتطلبا القانون من حيث تقديم الطلب ودفع الحلوان ، وهو الرسم المقرر ، كما سنرى بعد قليل .

انظر : حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

خواتين، والخواتين جمع تكسير عربي لسكلمة خاتون التركية ومعناها سيده^(١). وكانت السيدة المتلزمة تطبق عليها ذات الإجراءات التي يخضع لها الرجال المتزومون فسكانت السيدة تدخل مزاد الإلتزام، فإذا رسا عليها المزاد كان اسمها يدرج في دفاتر الروزنامة. وتمين المعاوين لها في منطقة الإلتزام، وتزور المنطقة من حين لآخر لتطمئن على سير الأمور وكانت تهدد هذا، وتنهز ذلك، وتشهد ضرب الفلاحين الماطلين. وكان المشد^(٢) يسحبهم من شوارعهم. وتسلم الأموال فتأخذ نصيبها وتسدد لديوان الروزنامة الضرائب المقررة وتستلم المحالصات واستمر العصر النسائي في نظام الإلتزام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين ألغى محمد علي نظام الإلتزام كلية في سنة ١٨١٤ بعد أن قرر تقديم تمويزات هزيلة مالية أوعيلية للمتزمين والمتلزمت^(٣). ويشير المؤرخ الجبرتي إلى نشاط السيدات المتلزمت في مقاومة محمد علي حين قرر إلغاء نظام الإلتزام وقيامهن بمظاهرة إلى الجامع الأزهر حيث طلبن من علمائه تعطيل الدراسة في الأزهر والوقوف بجانبهن في وجه هذا الوالى^(٤).

(١) ابراهيم اللويحي، مرجع ذكره، ص ٢٠٢.
(٢) المشد هو الشخص المسكف يسهط واحضار املاح الماطل وصربه، ويستعرض له بعد قليل عند الكلام على معاوين المتزوم، أراضى الإلتزام.
(٣) لم يبلغ محمد علي نظام الإلتزام في جباية الأموال الأميرية دومة واحدة، بل من الإلغاء بعدة مراحل بدأت في سنة ١٨٠٩ وانتهت في سنة ١٨١٤. وفي تلك السنة ترك لهرق من المتزومين أراضى الوسية بضمه ملك منفعة يستغلونها على مدى حياتهم دون أن يدفعوا عنها ضرائب، ثم ترد إلى بيت المال عقب وفاتهم. وقرر لهرق آخر من المتزومين ماضات سنوية نقدية تعادل دخلهم من نظام الإلتزام بناء على تقديرهم. وكانت هذه التقديرات أقل بكثير من «النقص»، وهو دخلهم الذى كانوا يحصلون عليه، لأنهم لم يسكبوا يملكون وقت تقديمها الفرص الذى طلبت من أصله هذه التقديرات.
انظر:

دكتور محمد فهمى لهيطة: تاريخ مصر الاقتصادية في العصور الحديثة. القاهرة، ١٩٤٤، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ص ١١٣ - ١١٥.
(٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٤ ص ٢٠٤ حوادث اليوم الخامس من شهر ربيع أول سنة ١٢٢٩ الموافق اليوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٤.

أرباح الملتزم :

كان الملتزم يحقق في ظل نظام الإلتزام أرباحاً مادية وعينية تدوعت أشكالها وطبيعتها . فهو أولاً يحصل على « الفائض » وهو الفرق بين ما يدفعه أو يتعهد بدفعه للحكومة^(١) وبين حصيلة ما يجنيه فعلاً من فلاحى القرية أو القرى الواقعة في دائرة الإلتزام . وفضلاً عن هذا « الفائض » كان الملتزم يحتفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض « الوسية »^(٢) وكانت هذه الأرض تعادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضى التى فى أيدي الملاحين والواقعة فى منطقة الإلتزام^(٣) . وكانت أرض الوسية أيضاً معفاة من الضرائب . وهذا الإعفاء الضريبى المقرر لأرض الوسية كان إمتيازاً فى ذاته ، وأضيف إليه إمتياز آخر ، هو تكليف الفلاحين بزراعة هذه الأرض بالمجان وفقاً لنظام السخرة . وعلى الرغم من هذين الإمتيازين كان بعض الملتزمين يفضلون تأجير أرض الوسية للفلاحين . وقد وجد هذا الفريق من الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسباً مالياً يفوق الكسب الذى يعود عليهم من زراعتها لحسابهم الخاص^(٤) .

(١) كان الملتزم يتعهد بدفع المال المبرى السنوى على ثلاثة أقساط تسمى :

أ - مال شتوى يطلق عليه ثلث أول

ب - مال شتوى موقوف إلى زمن صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثان .

ج - مال صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثالث .

انظر : ابراهيم الموبلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .

(٢) ترد هذه اللفظة فى بعض المصادر والراجح مكتوبة « الأوسية » وقد آثرنا

استخدام اللفظة الأولى لسهولتها وشيوع استخدامها .

(٣) Gibb Hamilton and Harold Rowen; op cit, vol, I, Part 1, p. 261.

Il leur (moultezims) était d'autre part alloué des terres (٤) comprises dans les limites de leur *iltizam*, partie pour leur usage personnel, partie en vue de subvenir aux charges de leurs concessions, telles que les frais d'hôtellerie, l'entretien des mosquées et celui des écoles. Ces terres étaient dites *oussteh*. Les fellahs devaient les cultiver par voie de corvées au profit du moultezim qui trouvait parfois plus reumérateur de les leur affermer.

voir

Arminjon Pierre; op. cit, p. 679

معاونو الملتزم في أرض الإلتزام :

كان الملتزم يفضل الإقامة في القاهرة، ولذلك كان لا يذهب إلى منطقة إلتزامه إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدار السنة ولا يقيم في كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يستهدف من الزيارة تحقيق مصلحته الشخصية، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوسيمة . ولذلك كان الملتزم في حاجة إلى أعوان يقيمون ويعملون بصفة مستديمة في دائرة الإلتزام . وكان من بين أعوان الملتزم :

شيخ البلد :

كان بمثابة وسيط - أو ضابط اتصال بالتعبير الحديث - بين الملتزم وأهل القرية ، يبلغهم أوامر الملتزم ويعرض عليه طلباتهم . وكان يقوم بالإشراف على الأراضي ويراقب تصرفات الأهالي وأبجاءاتهم وتحركاتهم إذا فكروا في ترك الأرض التي يعملون في فلاحها أو فكروا في الهجرة كلية من القرية . وكانت الحكومة حريصة الحرص كاسه على منع هروبهم أو هجرتهم حتى لا تترك الأراضي الزراعية دون استغلال . وقد نضمن قانون نامه سليمان النص الآتي : « حين يبقى الحقل دون زراعة نتيجة لخطأ الزراع ، فعليهم (أى على السكشاف والمفتشين ومن إليهم) ألا يندخروا جهداً في ضبط وإحضار هؤلاء الزراع . وبعد أن تتم إعادة كل فلاح إلى قريته ، وبعد توقيع العقوبة عليه ، يقوم السكشاف أو المفتش بإجباره على بذر البذور في حقله »^(١) . وكان على شيخ البلد في ضوء هذا النص وغيره من النصوص^(٢) إبلاغ الملتزم أسماء الفلاحين العصاة أو المشاغبين .

(١) Gibb Hamilton and Harlod Bowen; op. cit., vol. 1, Part 1, p. 260.

(٢) « يجهز الفلاحون الذين غادروا قرانم بعد تاريخ الترخ (العثماني) على العودة إليها معها انتحلوا من أعذار » .

المرجع السابق ، نفس الصفحة ، حاشية رقم ٦

وكان شيخ البلد يعين من أهل البلدة، ويختار من بين العائلات العريقة الثرية . وكان يعتبر رئيس الموظفين المحليين في القرية ، ويحل محل الملتزم في أثناء غيابه ، ولذلك كان يطلق عليه لقب « قائمقام »^(١) . وكان يوفر الأمن للملاحين الذين يزدعون الأرض في منطقة الإلتزام . ويرتب قوة يطلق على أفرادها الخمر ينفعون السرقات ، ويقومون بتدبيره الأهالي عند اقتراب غارات العربان من القرية .

ولم يكن شيخ البلد يمارس سلطته على المزارعين فحسب ، بل على جميع سكان القرية . وكان يتميز بالغلظة والحشونة والفظاظة . ولكن كان الفضل يعود إليه في حفظ تماسك القرية ، ولذلك كان يوصف بأنه حجر الزاوية في مجتمع القرية ، وأصبحت كل قرية وحدة مكتفية بذاتها self contained unit تحكمها التقاليد والمعادن والعرف ولا تتأثر بالأحداث الخارجية . وكاعت علاقتها بالحكومة تكاد تكون مقصورة على شيخ البلد والملتزم . وتؤدي الضرائب نقداً وبيعاً وعملاً . وكانت كل قرية تضم بجانب المزارعين وأعوان الملتزم إمام المسجد، والفجار ، والحداد، والحلاق، وكانوا يتناولون مرتبات عينية موسمية ، ويلتزمون بأداء الخدمات لسكان القرية .

وكان شيخ البلد يتمتع بعدة إمتيازات مادية : كانت له قطعة أرض ممفأة من الضرائب تسمى « طين مسموح بالمال الحر من غير مصروف »^(٢) ، وكان يطلق على هذه الأرض أيضاً « مسموح المشايخ » ، كما كان له خصصات مالية كان يدون مقدارها في كشوف المصروفات في نظير الخدمات التي يؤديها ، وفي مقابل استضافة أو استقبال الضيوف الذين يدون إلى القرية — وهم في العادة رجال

(١) قائمقام لقب اصطلح به سلفي و. لعادة على كل من يقوم مقام أحد في أثناء غيابه مثل قائمقام الصدر الأعظم أي الوزير الذي يحل محل الصدر الأعظم في أثناء غياب الأخير في الحرب ، وقائمقام الباشا أي الشخص الذي يمارس اختصاصات الباشا العثماني في مصر عندما يكون منصب الباشا شاغراً أو في أثناء العرة التي تنقضى بين سفر الباشا المقول من مصر وحصور الباشا الجديد ، وقائمقام الملتزم أي وكيل الملتزم .

(٢) حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

الحكومة — وأخيراً يتمين على الملتزم أن يقدم إلى شيخ البلد ملابس تسمى الكساوى. وفي مقابل هذه الملابس كان على شيخ البلد أن يقدم للملتزم التتقدم^(١) على فترات مقباعدة كل سنتين أو ثلاث سنوات . وكان من حق الملتزم أن يمين أكثر من شيخ بلد إذا كانت مساحة الأرض التابعة له كبيرة . وكان كل شيخ يختص بقرية أو عدة قرى من أرض الإلتزام . وكان أكبر المشايخ سناً يسمى « شيخ المشايخ »^(٢) . وبمضى الزمن استنحل نفوذ مشايخ البلد ، فندوا في القرن الثامن عشر هم الحكام الحقيقيين والفاعلين في الريف المصرى بدلا من الموظفين العثمانيين^(٣) .

المباشر :

كان بمثابة وكيل القائمقام ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائمقام إلى القاهرة لمقابلة الملتزم . وكان من اختصاصه قيد كل ما يدفعه فلاحو الإلتزام بالتفصيل في سجل خاص به

المشد :

ينفذ أوامر شيخ البلد أو شيخ المشايخ فيقوم بضبط وإحضار الفلاحين المتأخرين في سداد الضرائب المستحقة عليهم . وينفذ العقوبات التي يأمر الملتزم بتوقيعها على

(١) مقدمة جمعها تقدم . والتقدم مصطلح قانونى ومصطلح تاريخى . والمصطلح القانونى نوعان: التقدم المسقط والتقدم المكتسب، وهو خارج عن موضوع هذه الدراسة . أما المصطلح التاريخى فمعناه الهدايا التي تقدم في المناسبات السارة ، وهي عادة درج عليها المهتم في مصر في أثناء الحكم العثمانى بوجه خاص . ويكثر الحرثى من ترديدها عند قدوم الباشا العثمانى إلى مصر ليقبل مهام منصبه ، أو عودة أحد كبار العجاج من الحجارة ، أو زواج ابنة شخصبة كبيرة ، أو إجراء عملية ختان لإبن أحد كبار رجال المهتم في مصر ، أو عند زواجه .

(٢) دكتور محمد فهمى لهيطة . مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٣) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 22-25.

الفلاحين إذا توقفوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التي يطلب
الملتزم أو شيخ البلد منهم أداءها في أرض الوسمية بالمجان ، أو إذا أظهروا تراخياً
في أدائها . وكان الجلد هو العقوبة الشائعة التي يتعرض لها الفلاحون . وكان المشد
يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع فلاحي منطقة الإلتزام . وكان يتقاضى أجره
من الملتزم .

الشاهد :

يحتفظ بسجلات الأراضي ويدون فيها كافة البيانات التفصيلية عن مساحتها
من حيث عدد الأندنة ، والأحواض ، وأسماء الفلاحين المستثمرين لها ، ومقدار
الضرائب المقررة عليها . وكان الشاهد يختار من بين أهل البلدة ، ويعتمد في دخله
على مصدرين : مخصصات يطلق عليها « عوائد من داخل المخرجات »^(١) ،
وعوائد يلتزم الفلاحون بأدائها إليه . وكان يطلق عليه في بعض الأحيان لقب
« العادل »^(٢) ، لإشاعة الطمأنينة في قلوب الفلاحين نظراً لأن اختصاصاته تمس

(١) المخرجات هي الأموال التي يجتمعها الملتزمون ، ولسكنها لا تدخل في حساب
أموال السلطان .

الطر :

حسين أفندي ، ترجم سبق ذكره ، ص ٣٩ .

Festèbe le Comte; Mémoire sur les finances de l'Égypte, (٢)
depuis sa Conquête par le Sultan Selym 1er, jusqu' à celle du
Général en chef Bonaparte.

dans:

Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et
des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition
de l'armée française. Seconde édition, celle de Panchouche,
Paris, de 1821 à 1829, 26 vols. de texte in 8 o et le même
nombre de planches t. XII, pp. 41—248.

Voir particulièrement les deux sujets suivants :

a) de l'administration des villages. pp. ٥٦—68.

b) des perceptions. pp. 68—88.

أوضاع الفلاحين ، إذ كان في مقدوره — إذ لم يكن على مستوى خالق رفيع -
تغليب مصالح فريق من الفلاحين على حساب مصالح فريق آخر منهم .

الصراف :

مهمته جباية الضرائب من الفلاحين طبقاً — من الناحية النظرية —
للتوزيع المدون في سجلات الشاهد. وهو شرط لم يكن يحترم في حالات كثيرة .
وكان من مهام الصراف تسليم ما يجمعه من ضرائب — نقداً أو عيناً — للملتزم .
ومن المعروف أن الضرائب في أى بلد تؤدي نقداً أو عيناً أو عملاً . والمستوى
الاجتماعى والاقتصادى في البلد هو الذى يحدد نوعية الوسيلة التى تؤدي بها
الضرائب . وكان لسلك صراف ضامن كقيل في القاهرة يضمه لدى الملتزم . فإذا
وقع منه أى تصرف مخل بالشرف والأمانة فإن الضامن يكون ملزماً بأداء المبالغ
التي استولى عليها بغير حق أو سند من القانون . والصراف يشبه الشاهد من
حيث اعتماده في دخله على ذات المصدرين الماليين .

وكان الملتزم يختار الصراف عادة من الأقباط . وقد تأصل هذا التقليد أو العرف
في الريف المصرى حتى أصبحت الغالبية الساحقة من الصيارفة أقباطاً^(١) ، وذلك
لأمانتهم . وحدثهم المسائل الحسابية والمالية وعدم تحيزهم^(٢) . ويؤيد هذا الرأى
أيضاً إستيف Estève مدير خزانة الحملة الفرنسية على مصر ثم مدير الشؤون
المالية في أواخر عهد الحملة^(٣) . ويمارضه في هذا الرأى جيرار Girard وهو من

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1,
Part 1, p. 262.

2) Loc. cit., p. 265.

3) Estève Le Comte.,
dans:

Description de l'Egypte; t. XII, Des perceptions. pp. 68-88.

علماء الحملة ومتخصص في شئون الري ودرس ترع مصر^(١) . وهذا كرحالة فرنسي يسمى فولني Volney يؤيد رأي جيرار ، ويقول إن الصياغة الأقباط قد استغلوا الأمية التي كانت فاشية بين الملاحين أسوأ استغلال ، إذ كانوا يتسلسون تقديم إيصالات للملاحين عن الضرائب التي دفعوها ، وكان يطلق على هذه الإيصالات « ورقة الغلاق » أي المستند الدال على السداد ، فيضطر الملاحون إلى أداء الضرائب مرتين^(٢) . ويعطى أحد المصريين الذين عاشوا في العصر العثماني في القرن الحادي عشر الهجري أي القرن السابع عشر الميلادي صوراً قاعة عن خراب ذمة الصياغة الأقباط وإسرافهم في ظلم الملاحين الذين كانت ترتعد فرائصهم عند ما يتراعى إلى أسماهم نبأ وصول الصراف إلى القرية . وكان الملاحون يطلقون على وصوله « نزلة الصراف » ويتسابقون إلى إكرامه وتقديم الأطعمة الفاخرة له ويقنأفسون في التقرب إليه حتى يكف أذاه عنهم^(٣) . ومهما يكن من أمر ، فلم يكن هذا الحكم تاماً ، ولم يشمل جميع الصياغة الأقباط ، بل

1) Girard P.S.; Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Égypte.

dans

Description de l'Égypte; op. cit., t. XVII, pp. 1—436.

Voir spécialement les trois sections suivantes:

Section IV. De l'état des cultivateurs en Égypte. Quelques notions sur l'administration des villages. pp. 37—48

Section VII De l'aménagement des terres dans les différentes provinces de l'Égypte. pp. 133—148.

Section IX. Du droit de propriété et de la perception de l'impôt. pp. 189 - 197.

(٢) فولني ، مرجع سبق ذكره . ص ١٤٥ .

(٣) يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن حضر المصري : مر الفجوف في شرح قصيد أبي شادوف . القاهرة ، مطبعة بولاق . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠) وهو كتاب بصور بالفكاهة الساخرة والكتابة اللاذعة ما كان عليه الشعب وريف مصر إبان الحكم العثماني من فقر وجهل وتصنع . وتوجد عدة نسخ من هذا الكتاب مودعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وقد رجعنا إلى النسخة المحفوظة بها تحت رقم ٢٧٦٣ (أدب) ، ج ١ ، ص ١٨ ، ج ٢ ، ص ١١٦ — ١١٧ .

كان كثير منهم مثلاً طيباً للإخلاس والنزاهة والتمأنى في الخدمة . وتبوأ هذا الفريق من الأقباط مراكز اجتماعية مرموقة ، وجمعوا ثروات ضخمة بعيداً عن وسائل الكسب غير المشروع ، وتمتعوا بنفوذ كبير وبخاصة الذين عملوا مع كبار الملتزمين من الأمراء البكوات المماليك .

المساح :

كان يقوم بمسح أرض الالتزام ، وتقدير المساحات البور فيها والمساحات الزراعية^(١) .

معاونو الملتزم في أرض الوسية :

لما كان من بين امتيازات الملتزم الانتفاع بأرض الوسية والتي تشكل - كما سبق أن ذكرنا - عشر مساحة دائرة الالتزام ، كان يعين لها معاونين للإشراف على زراعتها . وكانوا جميعاً يأخذون أجورهم منه . ومن هؤلاء :

الوكيل : يقوم بحفظ الغلال وغيرها من المحاصيل التي تفتجها أرض الوسية ، ويحتفظ بأدوات الزراعة مثل الفوارج والمحارث والنؤوس وغيرها من الأدوات التي تتعلق بأرض الوسية .

الخلوى : يختص بقياس الأرض الزراعية بعد ربيها وقبل الشروع في زراعتها ، ويفصل في المنازعات التي قد تثار في هذا الشأن ، ويجمع الفلاحين الذين يستخرون في زراعة أرض الوسية .

الكلاف : يعنى بالماشية على اختلاف أنواعها والخاصة بالوسية ويقوم بتطعيمها أى بعلاجها في ضوء مفاهيم الطب البيطرى في تلك الأزمنة الفائرة إذا أجزى لنا

(١) ابراهيم اللويلحى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

استخدام هذا المصطلح . كما يقوم بتطبيب ماشية الفلاحين العابدين لدائرة الالتزام خوفاً من انتقال المرض إليها وأخذها بشكل وباء .

السقا : ملاء أزيار الوسية بماء الشرب (١) .

وضع الملتمزم :

وقد أصبح الملتمزم بفضل هذا العدد من الموظفين، والإختصاصات الواسعة التي حولها له القانون والعرف، يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة القرى التي تقع في دائرة الالتزام . وحلَّ الملتمزم محل السلطات العثمانية في مباشرة اختصاصات الحكومة . وأصبح من حيث الواقع الفعلي هو الشخصية الأولى في

(١) لم تكن المصطلحات التي ذكرناها خاصة بمعاوني الملتمزم سواء في أراضي الالتزام أو في أرض الوسية هي المصطلحات الوحيدة المتصلة بنظام التزام الأراضي . فقد كانت هناك مصطلحات أخرى نذكر منها على سبيل المثال « التذكرة جي » وهو الذي يحرر تقاسيم الالتزام، و« التاريخجي » وهو الذي يضع تاريخ كل مستند رسمي ، و« أمين الصناديق » وهو أمين محفوظات الروزنامة ، و« كاغد أمين » وهو أمين الأوراق الرسمية ، و« المهر دار » وهو حامل أختام الروزنامة .

وقد يظن البعض أن المصريين في العصر العثماني قد امتلأت أذهانهم بمثل هذه المصطلحات الفنية والإدارية تنطلق بها ألسنتهم ، وأن هذه الظاهرة قد تسلمت إلى أعماق الريف المصري بوجه خاص مع نظام الالتزام . والحق أن ظاهرة المصطلحات الجديدة لم تكن الأولى من نوعها في مصر إبان الحكم العثماني . فقد شهد - على سبيل المثال - حكم الدولة الأيوبية ودواني الماليك الهربية والشمراكية - وهي الدول ذات الإقطاع العسكري - أمثال هذه المصطلحات التركية وغيرها فقد مع سلاطين هذه الدول وعلى سبيل المثال عرف المجتمع في مصر سواء في الريف أو الحضر في العصر الأيوبي مجموعة من المصطلحات كان بعضها غير مألوف تطلق على الجهاز الإقطاعي في الريف المصري وعلى شاغل المناصب في الدواوين الحكومية التي تهرس على الإيرادات والمصرفيات ، مثل الناظر ، شاد الدواوين ، المتوفى ، المعين ، الناسخ ، العامل ، الكاتب ، الجهبذ ، الأمين ، الماسح ، العليل ، الحليز ، الخازن ، الحاشر ، المشارف ، الناب إلى غير ذلك من مصطلحات .

التقريبية والشخصية الثانية في الكاشفية^(١). وظهر المتتزم في غضون القرن الثامن عشر كأنه المالك الحقيقي للأرض التي يمارس فيها حق الإلتزام. وغدا بأجهزته الإدارية والمالية والفنية عبارة عن حكومة داخل الحكومة *impertum in impertio*

(١) الكاشفية وجمعها كاشفيات هي وحدة إدارية صغيرة هي مصر في أثناء الحكم العثماني وتقابل في الوقت الحاضر (١٩٧٦) «مركز» وجمعها «مراكز» في التقسيم الإداري للمحافظات. وقد اشتق منها لفظ كاشف وهو الذي يحكم الكاشفية، أي كان بمثابة مأمور مركز. كما كان الكاشف يتوب عن الصنوج الذي كان يحكم الصنوجية، وهي إحدى الأقاليم الإدارية الكبرى في مصر وتقابل إحدى محافظات مصر بالتعبير الحديث. فكان الكاشف يعمل على الصنوج في أثناء تعيين الأخير عن مقر منصبه وتفضيله قضاء معظم شهور السنة في القاهرة. وكان هناك نوع ثان من الموظفين يعمل كل منهم لقب كاشف. وكان هؤلاء الكاشف هم وكلاء الباشا العثماني الذين يشرفون على قرى الكاشفيات التي كان دخلها مخصصاً للباشا في أقاليم معينة في مصر.

وبما هو جدير بالذكر أن كثرة من المراجع العربية والفرنسية تذكر كلمة «كشوفية» *kouchoufyeh* بدلا من كاشفية وتجمعها كشوفيات بدلا من كاشفيات. ولقد رأينا - أخذاً بالأحوط - أن نستخدم لفظ كاشفية وجمعها كاشفيات طالما أن مصطلح الكاشفية مأخوذ منه ومنسوب إلى كلمة كاشف.

وكان الكاشف من المسكرين من ذوى الرتب الكبيرة، ويتقدمون إلى إحدى فرق الحامية العثمانية السابع. وكان من عاداتهم هي أثناء جولاتهم في مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم حواده، وحوله جنوده يقرعون الطبول لشمس الرهبة والرعب في قلوب الملاحين، ويسارعون إلى تقديم الهدايا إليه على الرغم من أن الأوامر كانت تصدر مشددة إلى الكاشف بضرورة رعاية الملاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم. وبمضي الزمن تأصلت عادة في الرتب المصري، وهي أنه أصبح من حق الكاشف أن يأخذ من كل قرية كبيرة يمر بها الهدايا الآتية أو التتادم بلغة ذلك العصر:

عدد	
٣	رعوس من العنم
٣	أرادب من الشعير
١	كيلة من السمك
١	كيلة من البرغل
٥	أرطال من السم
٥	دجاجات

وضع الفلاح في ظل نظام الإلتزام :

ويعتضى نظام الإلتزام كان الملتزم يوزع الأرض على الفلاحين ، كل على حسب قدرته على الزراعة . وكانت تقسم الأرض من حيث الجودة إلى ثلاثة أنواع : عال ، وسط ، دون . وكان على الفلاحين أن يؤدوا للملتزم القيمة الإيجارية التى يتفق عليها معهم . وقد أترنا استخدام عبارة « القيمة الإيجارية » لأنها كانت تصور الأمر الواقع بين الملتزم والفلاحين . وكانت القيمة الإيجارية أعلى بكثير من المال الميرى المقرر على الأرض . والفلاح في ظل نظام الإلتزام كان لا يملك الأرض التى يزرعها بل يحوزها . وتفريماً من هذه القاعدة كان الفلاح لا يملك حق بيع الأرض أو رهنها أو غير ذلك من أشكال التصرفات . فجميع أراضي مصر كانت تعتبر ملكاً للسلطان بحق الفتح طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكانت تنص على أنه إذا فتحت بلد عنوة فإنها تكون ملكاً للفتح . أما إذا فتحت صلحاً فتكون فيئاً للمسلمين ، أى يتفق الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة على مقدار الجزية

== ومن كل قرية صغيرة كان الكاشف يأخذ فى صورة تقادم :

٢	رأس من القنم
٢	أردب من الشعير
٣	أرطال من السمون
١/٢	كيلة كمشك
١/٢	كيلة برغل

وكانت تكاليف هذه الهدايا أو التقادم توزع على سكان القرية .

ابراهيم اللوباجى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤

وكان يستخدم فى العصر العثماني مصطلحان آخران يلتبس فيهما الأمر على بعض الباحثين ، وهما مال الكاشفية ، وميرى مال الكاشفية . أما مال الكاشفية عبارة عن نفقات الإدارة المحلية فى الأقاليم مثل مراتب الكاشف وترميم الجسور وتطهير الترع ومراتب العسكر المحليين . وكان أهالى القرى يدفعون هذه الرسوم للكاشف أما ميرى مال الكاشفية فهو ما يدفعه كل كاشف للحكومة .

والخراج الذى يدفع للفاتحين دون أن يمسوا الأرض أو يأخذوها منهم عنوة وقهراً^(١).

أرض الأثر:

وكان لبعض فلاحى الإلزام مساحات زراعية صغيرة يطلق عليها المصطلح التاريخى «أرض الأثر» يقومون بخدومتها وزراعتها والحصول على محصولها، وفى بعض الحالات يحصلون على جزء من هذا المحصول. ولكنهم لا يستطيعون التصرف فيها بالبيع أو الهبة أو التنازل أو الأيجار، ولا تورث لدراريهم من حيث هى أرض، وإنما تورثون حق زراعتها والتصريف فى المحاصيل التى تغلها. وكان الفلاح يستمر فى التمتع بحق الانتفاع بهذه الأرض طالما كان مواظباً على أداء التزاماته المالية نحو الملتزم، وطالما كان مستمراً فى زراعتها. وكان الملتزم لا يستطيع طرده من أرضه، إلا إذا توقف عن دفع اللطوبات المقررة عليه أو ثبت عجزه عن فلاحه الأرض^(٢).

والأسفل فى أرض الأثر أنها كانت ملكاً لعائلات عاشت عليها وانصرفت إلى زراعتها أحقاباً وأجيالاً، ولكن لما تمت عملية مسح الأراضي الزراعية فى مصر فى أول الحكم العثمانى لم تستطع هذه العائلات إثبات ملكيتها للأرض بأى مستند قانونى لطول العهد، ولكنها أثبتت ملكيتها بشهادة الشهود. ورأت السلطات العثمانية ترك هذه العائلات تلتصق بملك الأرض باعتبارها أثراً للملكية عبر ثابتة بحجة شرعية. ويعلق أحد الباحثين المتخصصين فى تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى بأن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية كان تصرفاً إنسانياً « ويمكن إضافته أيضاً إلى حسنات النظام العثمانى فى مصر قبل تشويهه، إذ كان فى مقدور الحاكم العثمانى نزع ملكية مثل هذه الأراضي. ومن حسناته أيضاً أنه منع الملتزم من طرد الفلاحين من أرضهم إن عجزوا عن دفع المال الميرى المربوط عليهم. ولكن الملتزم تجاهل هذا اللص أيضاً وراح يعاقب الفلاح المماطل بطرده من أثره

(١) دكتوروزة سنبنة اسهبل كاشف: مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية. القاهرة، الطعة الثانية، ١٩٧٠، الناشر دار النهضة العربية، ص ٣٩.
(٢) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 20-21.

عقاباً له « (١) وقد تدخلت السلطات العثمانية في مصر لوقف هذا التصرف الجائر الذي كان يصدر عن الملتزم. وأصدر الوالي العثماني مسيح باشا فرماناً في سنة ١٩٨٥ هـ (٧٧ / ١٥٧٨ م) بجمع الملتزم من طرد الفلاح من أرض الأثر إذا عجز عن الوفاء بالتزاماته المالية بسبب عدم استطاعته زراعة أثره، كما نص هذا فرمان على إرغام كل من الملتزم والكاشف على مساعدة الفلاح بمده بالبدور اللازمة، على أن يقيد ثمن هذه البدور في سجلات الشاهد لتحصيلها من الفلاح بعد بيع محصوله (٢).

واكتسب الفلاح في القرن الثامن عشر حقاً جديداً - بعد الحق الذي كان قد تقرر له في القرن السابق بتوريث الفلاح حق الانتفاع بأرض الأثر بالشروط المعلومة - وبمقتضى الحق الجديد أصبح للفلاح الحق في أن يؤجر لمدة سنة أو أكثر من سنة أرض الأثر لأي شخص آخر يتفق معه لقاء ثمن معين في مقابل هذا الإيجار أو يرهن جزءاً من أرض الأثر رهناً كان يطلق عليه « الفاروقة » (٣).

أما إذا مات الفلاح دون عقب أو كان ورثته ضعفاء لا يستطيع أحد منهم فلاحه الأرض أو الوفاء بالإلتزامات المفروضة عليها، فإن الأرض ترجع إلى الملتزم الذي يعطيها إلى مزارع آخر طبقاً لقانون «بيت المال» الذي يجعل زراعتها أمراً ضرورياً حتى لا يعمر من مالها الذي ينفق منه على عمارة البلاد (٤).

وقد أطلقت على الأرض التي يعطى للفلاح حق حيازتها والانتفاع بها في الوجه البحري عدة أسماء، مثل: أرض الأثر، أثر الفلاح، الأرض المؤثرة في

(١) إبراهيم المولى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الفاروقة: عقد ينقسم بمقتضاه الدائن أرض الفلاح المدين ويستغلها الدائن ويتنعم بمحصولها نظير فائدة دينه حتى يسدد المدين هذا الدين.

(٤) دكتور أمين مصطفى عفيفي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.

الفلاحين ، الأطنيان الأثرية . وقد استهدمت هذه التسميات التمييز بين أرض الفلاحين وهي الأثر ، وأرض الملتزمين وهي الوسية (١) .

أرض المساحة :

وقد لقي الفلاح في الصعيد الكثير من العنت والتعنت معاً بسبب الحالة المتضيرة لفحصان النيل كل سنة . إذ كان مقرراً من الناحية النظرية أن الأرض التي تصلها مياه الفيضان هي وحدها التي يدفع الفلاح عنها الضرائب . فإذا جاء الفيضان في إحدى السنوات شحيحاً وتعرضت الأرض الزراعية للشرق ، أو جاء الفيضان عالياً هادراً وتعرضت الأرض للفرق ، كانت هذه الأراضي وتلك تحدد مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصص نسبتها من المجموع الكلي للضرائب المربوطة على القرية ما عدا ضريبة الميرى التي تبقى دون أى تخفيض . ولذلك كان يطلق على الأرض التي يزرعها الفلاح في الوجه القبلي مصطلح آخر هو « أرض المساحة » . أما من الناحية العملية فإن هذه الرحمة بالفلاحين كانت رحمة ظاهرية ، لأنه إذا جاءت السنة التالية رعيده بالدمية للفيضان ، فإن التخفيض الضريبي عن السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب السنة الجديدة (٢) .

(١) حسين أندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥١ - ٥٢ ، حاشية رقم ١ ، وانظر لإحباب حسين أندى عن التطورات القانونية التي مرت بها أرض الأثر . الباب الحادى عشر ، الأسئلة والأجوبة من رقم ٢ حتى رقم ٥

واضح أيضاً :

دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ حاشية رقم ٣ .

(٢) Laucet Michel-Ange, Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de l'Égypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks.

dans

Description de l'Égypte, op. cit., tome XI, pp. 461-571.

Voir spécialement les trois sujets suivants : =

تطور المركز القانوني للملتزم :

وكان الإلتزام يعطى في البداية لمدة سنة واحدة ثم لعدد من السنين ، ثم أصبح يعطى مابقى الملتزم على قيد الحياة ، وتطور الوضع القانوني للملتزم بعد ذلك ، فنتقرر أن يكون حق الإلتزام وراثياً في عقبه إذا كان للملتزم التوفى ورثة قادرين على الوفاء بمسئوليات الإلتزام^(١) . وكان يطلق على حصص الإلتزام التي يموت ملتزموها « بلاد الأموات » . وكان في استطاعة الورثة نقل هذه الحصص إليهم بشرطين، أولهما أن يتقدم أحدهم بطلب إلى ديوان الروزنامة يطلب صدور « تمكين » له أى تجديد تسيط الإلتزام أو عقد الإلتزام . أما ثانياً الشرطين فكان يتمثل في دفع مبلغ من المال يسمى « الحلوان » أو « حلوان بلاد الأموات » وهو بمثابة رسم تسجيل . ويحدد مقدار هذا الحلوان بثلاثة أمثال فائض الملتزم أى ثلاثة أضعاف الدخل السنوي للملتزم المتوفى من عملية الإلتزام . أما إذا لم يكن للملتزم التوفى ورثة قادرين على زراعة الأرض ، فإن هذه الأرض ، وهى بلاد الأموات بمصطلح ذلك العصر^(٢) ، تطرح في الزاد وتمطى للملتزم جديد . ونخلص من هذا العرض إلى أن حصص الإلتزام لم تكن تعود للحكومة ولا يسقط حق الملتزم فيها إلا في حالات قليلة ، منها : انقراض ذرية الملتزم أو عدم رغبة أحد من ورثته في الاتفاح بالحصصة أو مصادرة

a) Des différentes manières dont les terres sont possédées; des titres de propriété et des impositions principales. pp. 466—476.

b) De l'administration des terres. pp. 476—487.

c) De quelques usages particuliers à la Haute-Egypte. pp. 487—492.

(١) كان يمنح هذا الحق أيضاً لأماليك الملتزم البيض .

(٢) كان يطلق على مثل هذه الحصص مصطلح آخر هو الحلول ، أو الحصص المحلولة .

انظر كلامي :

دكتور أحمد أحمد الخنة . تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير ، القاهرة ،

الناشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ٣٠ — ٣١

Shaw Stanford J. : Laudholding etc, op. cit., p. 96. .

الحصنة نتيجة وقوع اضطرابات سياسية عنيفة وتغير ميزان القوى في البلاد،
فيلجأ الأمراء المنتصرون إلى الانتقام من خصومهم بمصادرة حصص إلتزامهم .

مزايا نظام الإلتزام :

وارتاحت الحكومة العثمانية إلى نظام الإلتزام فيما يختص بجمع الأموال
الأميرية ، لأنه يوفر عليها متاعب الاتصال بالفلاحين وغيرهم لجباية الضرائب
والرسوم ، وألقت هذا العبء على كاهل الملتزمين . كما أن نظام الإلتزام كان يتمشى
مع طبيعة الحكم العثماني للولايات التي خضعت لسيادة الدولة ، إذ كان من أهم
خصائص الحكم العثماني قلة تدخل السلطات العثمانية في حياة الجماهير ، بحيث
كان هذا التدخل في أضيق نطاق ممكن .

وذهب أحد الباحثين الأمريكيين إلى القول بأن نظام الإلتزام كان مثالياً
بالنسبة لمصر إبان الحكم العثماني في ظل الملاسات التي كانت سائدة قبل القرن
الثامن عشر ، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذا النظام أتاح لخزانة الحكومة تدفقاً
مستمراً من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الإدارية ،
وأعطى للملتزمين مصلحة دأمة ومستمرة في العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض
حتى لا يسرفوا في استغلالها أو إنهاك التربة الزراعية والحرق على عدم إخراج
المزارعين منها ، كما أن نظام الإلتزام أخضع المزارعين لنظام ضريبي منتظم وحال
بينهم وبين التعرض لإجراءات تعسفية (١) .

والحق أن هذه المزايا كانت تتمحق للسلطان (٢) والملتزم والفلاح طالما كان

1) Shaw Stanford J ; Landholding etc , op. cit., p. 102

(٢) كان « بدل الإلتزام » - وهو المبلغ الذي يدفعه كل ملزم لخزانة الحكومة
في مقابل شراء حق الإلتزام - يذهب معظمه إلى السلطان كجزء من المال الميري ، وكان
توجيهه حصيلة بدل الإلتزام إلى خزينة السلطان أمراً ذا مغزى سياسي وقانوني: فهو يؤكد
السيادة المستمرة للسلطان على مصر ، ويؤكد ملكية السلطان التامة على الأرض .

انظر :

الباشا العثماني في مصر ومعاونوه قادرين على تحقيق تفوق نفوذ الدولة السيامي والحربي في البلاد . ف نظام الإلتزام كان نظاماً ملاءماً للفلاح الصغير بوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تتلاقى مصلحة الفلاح مع مصلحة الملتزم في عدم إرهاب الفلاح في العمل في أرض الوسية طبقاً لنظام السخرة ، وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ، وفرض ضرائب جزافية عليه ، وسراطة حالة فيضان النيل كل سنة .

تدهور نظام الإلتزام :

تدهور نظام الإلتزام من الناحية التطبيقية في مصر في أثناء القرن الثامن عشر وذلك بحكم اللابسات التي أحاطت بتطبيقه . فقد غدا الأمراء المالكين مراكز القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في مصر وبخاصة في الفترة من ١٧١١ حتى قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨^(١) . وتركزت حصص الإلتزام ، في أيديهم وأيدي عماليتهم وزوجاتهم وأولادهم^(٢) . وكانوا ينتهزون كل فرصة لدعم مركزهم الإلتزامي ، فإذا خلت حصة من حصص الإلتزام ، لسبب أو لآخر ، كانوا يمينون الملتزمين الجدد من بين أتباعهم . وكان ديوان الروزنامة والديوان الدفتري يرضخان لرغبة الأمير المملوكي ويتفانلان عن إجراء مزاد بين الراغبين في الإلتزام . وفي بعض الأحيان كان الأمراء المالكين - أصحاب السلطة الفعلية في مصر ، ومنهم الدفتردار

Holt P.M.; The Pattern of Egyptian Political History (١)
from 1517 to 1798, pp. 86-90.

وهو أحد بحثين تقدم بهما هولت أستاذ تاريخ العالم العربي في جامعة لندن إلى المؤتمر الدولي الذي عقد في شهر أبريل ١٩٦٥ عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ والذي سبقته الإشارة إليه . وكان موضوع بحثه الآخر « مصر العثمانية ١٥١٧ - ١٧٩٨ المصادر التاريخية العربية » . وقد نشر هذان البحثان في الكتاب الذي صم بحوث المؤتمر وسبقت الإشارة إليه . ويعد الاستاذ هولت أحد كبار العلماء المتخصصين في تاريخ مصر إبان الحكم العثماني . وقد وضع عدة بحوث تناولت هذا العصر بالدراسة التحليلية الموضوعية .

Shaw Stanford J.; The Financial etc., op. cit., p. 33. (٢)

والروزنامجي - يحاولون إضفاء نوع من الشرعية على هذا التعيين التمسقي ، فأطلقوا على هذا الأسلوب في تعيين الملتزمين « المصالحة » ويدفعون مبلغاً من المال يسمى « بدل المصالحة » وهو يقابل « الحلوان »^(١) . وفي أحيان أخرى كانت تحدث مزادات صورية ، أى على الورق ، تسفر عن تعيين الأتباع والمقربين إلى مراکز القوى ، وفي ذات الوقت كانوا يمنحون الإعفاء من دفع « الحلوان » ، وفي أحيان ثالثة كان الإلزام يتحول من شخص إلى آخر قسراً على الرغم من أن القانون يمنع هذه القسر منعاً باتساً .

انعكست هذه الأوضاع على حالة الفلاح المصري ، وعانى الكثير من الاستبداد والجور ، سواء من الملتزم وأعوانه ، أو من الأمراء المماليك وأتباعهم ، إذ كانوا يقومون على فترات متقاربة بجولات في الريف ينهبون فيها المحاصيل الزراعية والماشية ، كما كانوا يقتحمون بيوت الفلاحين بحثاً عن مدخراتهم ، والويل لكل الويل لمن تلحق به مظنة الثراء ، وكان الفلاح يدفع للملتزم أكثر مما هو مقرر عليه رسمياً ، وانتشرت المجاعات والأوبئة مثل الطواعين . وكان أشدها فتكاً طاعون إساعيل بك ، وتأخرت الرعاية وتناقص تعداد الفلاحين وعمدوا إلى ترك الأراضي ، بل والهجرة كلية من القرية والكاشمية . ويدكر فولني Volney أنه شاهد المصريين في سوريا سنة ١٧٨٥ أفواجاً وجماعات . وقال إن أزة صيدا وحيفا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين ، وقد توغل فريق منهم في اتجاه الشمال حتى حلب وديار بكر^(٢) . وقد أفاض الجبرتي في وصف حالة الشقاء التي عاش فيها الفلاحون وغيرهم من الطوائف المنتجة .

(١) Shaw Stanford J., Landholding etc., op. cit., p. 100.

(٢) فوائ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

الجارك ونظام الإلتزام .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام على الجارك التي كانت قاعة في جميع
موانئ الدولة^(١). وكان يطلق على هذه الموانئ كلمة أساكل^(٢) des échelles

1) Combe Etienne; l'Egypte Ottomane de la conquête par Sélim
(1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). p. 88

dans

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. Tome troisième. Imprimé par l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1938,

(٢) أساكل ومعهما أسكلة ، اقتبست من الكلمة الإيطالية سكاللا Scala

بمعنى ميناء أو مقر . وهي تكتب في المصادر والمراجع العربية التاريخية في أشكال شتى :

في صيغة المزد : أسقالة - سقالة - سقالة - أسكلة .

في صيغة الجمع : أسقالات - سقالات - سقالات - أساكل - أساكيل .

وترد أحياناً في بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهي مقتبسة من اللغة
الإسبانية ، ومعناها ميناء للعبورين أو المارين .

انظر كلامي :

Recueil des textes du quatorzème congrès des Orientalistes.
p. 441

Colin, Notes de dialectologie.

pans

Bulletin de l'Institut français, XX, pp. 51, 68, 73, et 202.

Brunot; Notes lexicologiques, sur le vocabulaire maritime
de Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 61.

Barbier de Meynard, op. cit., vol- 1, p. 55.

Boettler, op cit , vol. 1, pp. 288 - 289.

Dozy; op. cit., t. 1, p 23, 660 et 839.

المحدثي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

كما كان يطلق على إيرادات الجمارك « محصول أسكلة » . وكانت تباع رسوم كل جمرک^(١) إلى الشخص الذى يرسو عليه المزداد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة، ويصبح لقبه الملتزم، ثم يشرف هذا الملتزم على جباية الرسوم الجمركية . وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتي في المرتبة الثانية بعد ضرائب الأراضي الزراعية بالنسبة لإيرادات الحكومة . وكان الملتزم لا يدير الجمرک، بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم ، موظف يسمى « كرك أميني » أى أمين جمرک . وكان يطلق عليه أحياناً جمرکی . وكان هذا الجمرکی في المادة رجلاً يهودياً ، وبخاصة في الجمارك التي تقوم في الموانئ الكهري ذات النشاط التجارى المكثيف . وكان اسم الجمرکی في الولايات العربية يذكر مسبوفاً بكلمة « العلم » .

وإذا أخذنا مصر مرة أخرى كمثل لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام على جماركها في سائر الموانئ سواء كانت الموانئ البحرية أو النيلية نجد أنه كان في مصر إبان الحكم العثماني عدة جمارك ، وكان أهمها جمرک الإسكندرية ، وكان يتبعه جمرکان فرعيان في أبي قير ورشيد ، ثم جمرک دمياط ، ثم جمرک البرانس . وكان نشاط هذه الجمارك منصباً على التجارة الخارجية - استيراداً وتصديراً - مع الدول المتوسطة ، أى الدول التي تقع في حوض البحر المتوسط ، والدول التي تقع فيما وراء هذا البحر . وعلى الرغم من أن حركة التجارة الخارجية كانت في نطاق ضيق في مصر على عهد الحكم العثماني ، فقد كانت لها أهميتها في الحياة الاقتصادية في مصر في ذلك العصر . وكان هناك أيضاً جمرک البهار ، وهو يقع على الطريق المحراوى بين القاهرة والسويس ، وكانت تحصل فيه الرسوم الجمركية

(١) يذكر بعض المؤرخين أن كلمة جمرک أصلها تركية ، وهى كلمة يونانية Koumerké ، ثم انتقلت إلى اللغة اللاتينية كوميركيوم Commercium ، وحرفت في اللغة العربية إلى جمرک ، وى اللغة التركية إلى كرك .

انظر :

على السلع الواردة من بلاد الحجاز والتي تشحن من ميناء جدة أو ميناء ينبع، ثم البضائع الواردة من ميناء مخا في اليمن . وكان البن أهم السلع الواردة من اليمن ، ثم تجارة الهند التي كان جزء منها يرد إلى مصر في طريقه إلى أوروبا على الرغم من كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وأخيراً كان هناك جرك و ميناء بولاق النهري يقوم بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع التي تفلها السفن القيلية من بلاد الوجه البحري . وكان لهذا الجرك جرك آخر يتبعه ويقع في مصر القديمة - عند ساحل أثر النبي - لاستقبال السفن النيلية القادمة من أقاليم الوجه القبلي وتدفع فيه الرسوم الجمركية (١) .

وكانت حصيللة الرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها من كل جرك تخصص لجهة مثل مرتب الباشا العثماني ، ضباط الحامية ، أى جيش الاحتلال ، الصرة وهى الأموال التي ترسل إلى الحجاز في كل سنة مع قافلة الحج المصري ، وجزية السلطان . وكان جرك البهار التزاماً للباشا العثماني (٢) . وكان أوجاق الإنفكشارية (٣) في مصر يلتزم ببعض الجمارك مثل إسكندرية ودمياط وجرك بولاق وجرك مصر القديمة ، فيدفع مال الميرى المقرر على الجرك ويستولى الأوجاق على الأموال الباقية .

ونظراً للظروف السياسية التي مرت بمصر في العصر العثماني المملوكي لم يطبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقاً سليماً . فقد أسرف الملتزمون وأعاونهم في ابتزاز الأموال من المشتغلين في تجارة الاستيراد والتصدير . وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الإنجليز .

Combe Etienne op cit., p. 88.

(١)

(٢) دكتور حسن عثمان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٠ .

(٣) كان أوجاق الإنفكشارية أهم الأوجاقات السبعة التي كانت تتألف منها الحامية العثمانية في مصر . وكان لقائد هذا الأوجاق وهو أغا الإنفكشارية - الرئاسة العليا وحفظ النظام في مدينة القاهرة وينتسب لهذا الأوجاق عدد من أكر أصحاب المناصب في مصر ، منهم وكيل الباشا - الكنتنغا - وسردار الحج أى قائد القوة العسكرية التي ترافق قافلة الحج المصري ، وسردار الخزينة وهو قائد القوة المرافقة للخزينة المرسله إلى السلطان . وكانت تنقل برأ من القاهرة إلى إستانبول . وكان يطلق على أوجاق الإنفكشارية أوجاق السلطان أحياناً ، وأحياناً أخرى أوجاق مستحفظان أى رجال الحفظ .

ولما انفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨ - ١٧٧٣) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق نظام الإلتزام على الجمارك^(١). فأبعد الملتزمين اليهود وأحل محلهم سوريين مسيحيين كانوا قد نزحوا من دمشق إلى القاهرة والإسكندرية في مطلع القرن الثامن عشر. وكانوا في أول الأمر قلة عديدة لم يتجاوزوا أفراد ثلاث عائلات. ولكن الأرباح التي حققوها من إلتزام الجمارك بعد إبعاد اليهود ومن نشاطهم التجاري جذبت عائلات سورية مسيحية بلغ عددها خمسمائة أسرة حقق أفرادها أرباحاً وفيرة^(٢). وبعد وفاة على بك الكبير عادت تطل برأسها عيوب تطبيق نظام إلتزام الجمارك.

ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين وهو فولني - وقد زار مصر والشام وقضى فيهما سنتين ثلاث ١٧٨٣ - ١٧٨٥ - أنه في عهد الحكومة الثنائية التي كان يقولها في مصر إبراهيم بك ومراد بك، كانت هناك ظاهرة تسكرت، وهي أنه كلما احتاج هذان الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها في كل مرة إلى خمسمائة ألف ليرة، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ، فلا يتردد الملتزم في أداء ما يطلبان. وارتاح الملتزم إلى أمثال هذه المطالبات، لأن الأميرين إبراهيم بك ومراد بك كانا يطلقان يد الملتزم في رفع الرسوم الجركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التي دفعها. وهكذا كان الملتزم لا يتقيد بالتعريفات الجركية. كان يفرض ما شاء له جسده من رسوم إضافية لا تغطي المبالغ التي

(١) وما يذكر أن على بك أبقى نظام الإلتزام على الأراضي والسابق له مصره دون أي تغيير، واكتفى بأن أهدى عناصر الحامية عن ميدان الإلتزام الأراضي إلى حد بعيد ولم يسمح بذلك إلا لمن تأكد من إلتزامهم له. أنظر: دكتور محمد رامت روضات، مرجع سبق ذكره، ص ٨١.

(٢) تجمعت في أيدي هؤلاء السوريين المسيحيين ثروات ضخمة وراودتهم الآمال في جمع مزيد من الثروات، وأصبحت لهم مطاعم يخشى منها أن يصيروا إلى ما صار إليه اليهود - وقد اعتقد الناس أن ساعاتهم قد دنت وأذات، حين حرب رئيسهم أطولون فرعون إلى ليفرنو Livourne في إيطاليا سنة ١٧٨٤ حوفاً من أن يفتضح أمره، وفضل أن يقص ببقية حياته =

يدفعها للأسماء المالكين لحسب ، بل لتتحقق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقى أو التحدت مصالح ملتزمي الجمارك مع مصالح الأمراء المالكين ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجركية كورد مالى لا ينضب معينه . وقد ارتفعت أصوات التجار بالشكوى من تصرفات ملتزمي الجمارك . ووقف قناصل الدول في مصر إلى جانب مواطنيهم التجار . وتظاهر مراد بك برغبته في القضاء على عيوب تطبيق نظام إلزام الجمارك وقرر أن ينفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك (١) . وازداد الموقف تدهوراً ، إذ لم يكن هدفه الإصلاح ، وإنما الإستيلاء على حصيلة الرسوم الجركية دون أن يشاركه فيها زميله في الحكم الأمير المملوكي الكبير إبراهيم بك . ومن المعروف أن هذه الحكومة الثنائية ظلت رابضة على قلوب المصريين حتى قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فمضت بها .

الإقطاع الحربي والإلزام في بلاد الشام :

وإذا انتقلنا من مصر إلى إقليم عثماني آخر هو بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية المتعددة نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيها نظام الإقطاع الحربي ونظام الإلزام . وكانت هناك الأراضي العامة ، ويطلق عليها ديموز ، وتعتبر ملكاً للحكومة ، وبعض إقطاعات عسكرية وفقاً لأنواع الثلاثة المعروفة : تيمار ، زطامت ، خاص ، لحكام الولايات والألوية والجنود الإقطاعيين ، على أن يقوم الإقطاعيون عند نشوب الحرب بإعداد وتجهيز عدد من الفرسان المحاربين يتناسب مع إيراد الإقطاع الحربي .

== في جو آمن يستمتع بثروته الضخمة .

انظر :

فولبي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

Combe Etienne : op. cit., p. 89.

(١)

وتميزت بلاد الشام بوجود عصبية إقطاعية محلية اختلفت قوة وعدداً وثوراً
وتهوداً . وكانت هذه العصبية على نوعين : عصبية مذهبية كالإسماعيلية ،
والنصيرية والدروز والموارنة ، وعصبية عنصرية كالأكراد والتركمان والعرب ،
وبذلك وجد في بلاد الشام نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحكومى والإقطاع
الطائفي . وكان الإقطاع الطائفي أرسخ جذوراً من الإقطاع الحكومى ، ولا سيما في
لبنان حيث كانت توجد عائلات أرستقراطية من الدروز والموارنة وغيرهم من بيوت
العصبية الإقطاعية . ويعرف زعماء هذه البيوتات بالمشايخ ، ويدير الشيخ شتون
مقاطعة ويتربع (أمير الجبل) فوق هذا البناء الإقطاعي والذي له الرياسة العليا
على الأمراء والمشايخ والعامّة .

وكان نظام الإلتزام في بلاد الشام أشد قسوة على الفلاحين من مثيله في مصر .
كان الملتزمون يتممون إلى كبار الإقطاعيين العسكريين أو العشائريين أو رؤساء
الطوائف الدينية . كان الملتزمون يجمعون الخراج والأموال السطانية من الفلاحين
ويسددون مقداراً معلوماً للبasha العثماني في دمشق أو البasha في صيدا بواسطة
حاكم الجبل .

وقد أدخلت الدولة على نظام الإلتزام في بلاد الشام في أواخر القرن السابع
عشر نظام المالكانة . وبمقتضى هذا النظام كانت الدولة تمنح الملتزمين حق
الإلتزام مدى الحياة حتى يستطيعوا تحقيق أرباح معقولة لهم على مدى الأيام .
ولكن جاء هذا النظام بنتائج عكسية بالنسبة للفلاحين والدولة . فقد كان
الملتزم - وقد استقر وضعه ورسخت أقدامه في دائرة الإلتزام - يعتبر نفسه
مالكاً حقيقياً للأرض ومن عليها يستبد بالفلاحين ويسومهم سوء العذاب ضرباً
أو سجناً أو مصادرة لأمرالمهم وحاصلاتهم . أما الدولة فقد أصبحت من الصعب
عليها مواجهة الزيادة في النفقات بموارد مالية ثابتة وقديمة غير قابلة للزيادة .
ولذلك لم يكن في مقدورها زيادة الدخل الحكومى من مصادر الإيراد إلا عند

وفاة أحد الملتزمين فتطرح إلتزامه في مزاد من جديد وفقاً للأسعار السائدة^(١) .
ومن الخصائص التي تميز بها نظام الإلتزام في بلاد الشام أن السلطات العثمانية
كانت تطلب من الملتزمين أن يعينوا مصرفيين في العاصمة كي يتم دفع الأموال
المطلوبة في المواعيد المحددة والنصوص عليها في عقد الإلتزام . وكان المصرفيون
من المسيحيين واليهود ويشكلون طبقة وراثية ممتازة . وكان لابد لكل مصرفي
أن يحصل على راية موقعة من السلطان بعد أن يدفع مبلغاً باهظاً للسلطان وبعد
أن تتأكد الدولة أنه على حظ موفور من الثراء بحيث يستطيع أن يسدد للخرافة
الأموال المطلوبة من الملتزم حالما يحل موعد سدادها^(٢) . وكان الدافع للدولة
العثمانية على إدخال نظام المصرفيين هو أنها تبينت أن الملتزمين كانوا يسوفون في
أداء إلتزاماتهم المالية أو يقهرون من الوفاء بها . ورضخ الفلاحون لسف الملتزمين ،
وكان لا يحق للفلاح أن يجأ بالشكوى أو يغازر قريته وعاش الفلاح حياة الضنك
والكفاف . وقرر بعض المعاصرين أنه لم يكن يأكل اللحم طوال السنة إلا في
المناسبات كالأعياد وحفلات العرائس^(٣)

وأسرف أصحاب الإقطاع الحربي والملتزمون في طغيانهم والاستهانة بالسلطات
العثمانية . فكانوا يتفوقون مع بعض الولاة على القيام بحركات تمرد ، ولا يؤدون
الخدمات المقررة عليهم للدولة . وواجهت الحكومة العثمانية هذه الانحرافات باتخاذ
بعض التدابير للتخفيف من مساويء كلاً النظامين . كان السلطان سليم الثالث
(١٧٨٩ - ١٨٠٧) يلمتاز فرصة وفاة صاحب الإقطاع الحربي أو الملتزم ويستولى
على أراضيهم ، وكان يطلق على مثل هذه الأراضي التي يتوفى عنها أصحابها اسم

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ -
١٩١٤) ، دار المعارف - القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٢
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

الأراضي المحولة — ويضمها إلى أراضي الأوقاف العامة لينفق إيرادها على إنشاء الجيش الجديد الذي شرع في تكوينه بعد إلغاء نظام الانكشارية . وسار على هذه السياسة السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩)

وحدث تحول هام في نظام الإقطاع ونظام الإلتزام في بلاد الشام في أثناء المقدم الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ — ١٨٣٩) خلال الحكم المصري لهذه البلاد . فقد كان من الطبيعي — بعد أن نجح محمد علي في إلغاء نظام الإلتزام في مصر ونجح في فرص التجنيد العسكري الإجباري — أن ينهج هذا النهج بشقيه في بلاد الشام . فعمد إلى إلغاء الإقطاع الحربي وإلى حل القوات العسكرية الإقطاعية وإلى تجريد السكان من السلاح بالقوة دون تفرقة بين الأشراف والأعيان وبين عامة الشعب . وعمد محمد علي أيضاً إلى إدخال نظام التجنيد العسكري الإجباري وإلى إلغاء نظام الإقطاع ونظام الإلتزام وإلى منح الفلاحين حق رفع الشكوى على الملتزمين ، وأعلن المساواة بين جميع الطوائف والمذاهب . ولكن لما انتهت فترة الحكم المصري في بلاد الشام عادت الأمور إلى أوضاعها السابقة على الرغم من أن الدولة أعلنت في وثيقتين هامتين صدرتا في سنتي ١٨٣٩ ، ١٨٥٦ سبق أن أشرنا إليهما ^(١) وسعود إليهما بعد حين ، إلغاء نظام الإلتزام وتقرير التجنيد لجميع رعايا الدولة بدون تمييز بسبب الدين أو الجنس أو المذهب .

الإقطاع الحربي والإلتزام في العراق :

إذا انتقلنا من بلاد الشام إلى إقليم عثماني آخر هو العراق نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيه كلا النظامين: الإقطاع العسكري والإلتزام . ولم ينجح النجاح المرتجى بسبب ضعف الحكم العثماني في الولايات الأربع التي كان يتألف منها العراق بعد أن استكملت الدولة العثمانية فتحها للبلاد العراقية . وكانت هذه

(١) انظر ص ٩٦ — ٩٨ في هذه الدراسة .

الولايات هي الموصل^(١)، وشهر روبر (کردستان)^(٢)، وبغداد^(٣)، والبصرة^(٤). وكان ظهور المصيبات المحلية في العراق من الأسباب التي أدت إلى عدم نجاح كلا النظامين ، وكذلك الصدام الذي كان يحدث بين القوات الإقطاعية وقوات الإنكشارية. وكانت الدولة تحشد قوات كثيفة المدد من الإنكشارية في المدن الكبرى في العراق ، وظهور المليك كمصيبة حاكمة في بغداد . وكان من نتائج هذه العوامل مجتمة أن أصبح فرسان الإقطاع العسكرية — تبار وزعامت — يتهبون من الخدمة العسكرية . وكان من بين الذرائع التي سبقت لتبرير مسلكهم الملمحي كثيرة الحروب المتعاقبة التي كانت تخوضها الدولة تباعاً سواء ضد فارس في جبهتين أو ضد دول أخرى في أوروبا ، فكانت هذه الحروب تجبرهم على الاعتماد فترات طويلة عن إقطاعاتهم ، وكانوا يخشون انخفاض دخلهم من هذه

(١) كانت ولاية الموصل تمتاز عن بقية الإبلات المراقية بتطبيق نظام الإقطاع العسكري فيها بكثرة لم تعدها الإبلات الأخرى في العراق .
انظر .

دكتور عبد العزيز سليمان نواز : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا . القاهرة ، ١٢٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ، ص ٧

(٢) كانت لماله شهر زور مليئة بالإمارات والعشائر الكردية السنية . وقد شددت أزر الدولة الألمانية في أثناء الحروب المارسية الألمانية . وكان من بين هذه الإمارات : الإمارة الصورية ، والبهدينية ، والباينية . وقد اعترفت الدولة الألمانية بحكم المصيبات المحلية ، واتهم الأمر باستناد هذه المصيبات بالسلطان ولم يعد للوالي العثماني سلطات فعلية يمارسها هناك .

(٣) كانت ولاية بغداد أهم الولايات المراقية حتى أن ولاية البصرة هبطت إلى مجرد متسلمة تابعة لبغداد في أوائل القرن الثامن عشر ، كما أصبحت ولاية شهر زور تحت إشراف والي بغداد .

(٤) لم تطبق الدولة نظام الإقطاع العسكري في ولاية البصرة ، ولاحق بها الأحساء . ومصرعاً ما أصبحت الأحساء تحت حكم المباشر . أما البصرة فقد تبادل حكمها الولاة العثمانيون وشيوخ القبائل .

الإقطاعات التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم . ويضاف إلى هذه الأسباب سبب آخر هو أن عدداً كبيراً من أصحاب الإقطاعات العسكرية كانوا من غير أهل العراق، إذ كانوا بصفة خاصة من العسكريين الأراك، فكانوا يولون وجوههم شطر إستانبول، وكانت مشاعرهم مرتبطة بها أكثر من ارتباطها بولايات العراق، وادلك كان دورهم في تاريخ العراق ضعيف الأثر أو دوراً هامشياً .

ونسئل نظام الإلتزام في العراق - كما نسئل في مصر - إلى مختلف نواحي الدخل الحكومي مثل الأراضي الزراعية أو الجمارك . وكانت المدن والقرى تمدح بالإلتزام، كما كان شيخ المشربة يلتزم بجميع الأموال الأميرية من أفراد عشيرته (١) . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعرض الاقتصاد العثماني لهزات عنيفة وتدهورت قيمة العملة العثمانية وارتفعت الأسعار . ولجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب ، لجأ الملتزمون بدورهم إلى نفس الوسيلة ، وأرهبوا الفلاحين من أمرهم عسراً ، وفرضوا مزيداً من الضرائب والرسوم الجزافية التمسفية . وتسكدست الأموال في أيدي الملتزمين . وظهرت في المجتمع العراقي طبقة جديدة من كبار الملتزمين جمعوا بين الأراء العريض والنفوذ الكبير وأطلق عليهم « أعيان مملكت » (٢) ، ومارس أفراد هذه الطبقة شبه سيادة إدارية ومالية وقضائية على المناطق التي تولوا أمرها في الوقت الذي كانت في حاجة ماسة إلى مزيد من الأموال للإتفاق العسكري .

محاولات إلغاء نظام الإلتزام:

ذكرنا أن نظام الإلتزام قد اختفى من مصر كليا على يد محمد علي في سنة

(١) دكتور عبد العزيز سليمان نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧

(٢) أي أعيان البلاد كما يترجمها الأستاذ برنارد لويس .

انظر :

Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 38.

١٨١٤ . ولكن ظل هذا النظام قائماً في سائر أو معظم ولايات الدولة ، ثم صدر في ٣ من نوفمبر (تشرين ثان) ١٨٣٩ « خطى جلخانة » ، وقد تقرر فيه إلغاء نظام الإلتزام . وقد حمل هذا الدرمان السلطاني حملة عنيفة على نظام الإلتزام وأبرز بعض عيوبه ونمته بأنه أداة من أدوات الخراب لأنه عبارة عن تسليم المصالح السياسية والأمور المالية في منطقة ما لإدارة أحد الناس . وقد يسىء هذا الشخص استخدام سلطاته إذا كان رجلاً ثمريراً ولا ينظر إلا لتحقيق مصالحه . وخلص المرسوم إلى أنه من الضروري أن يحمل عمل نظام الإلتزام نظام جديد يتقرر بمقتضاه فرض ضريبة على كل مواطن في المجتمع العثماني ، وأن يتحدد مقدار هذه الضريبة في ضوء إراء المواطنين وإمكانياته ، وبذلك يكون في حكم الاستحالة تحصيل مبالغ من المواطنين أكثر مما هو مقرر عليهم (١) .

وفي شهر ديسمبر (كانون أول) ١٨٣٩ صدر قانون تقرر فيه أن يجمع أحكام الولايات اعتباراً من أول مارس (آذار) ١٨٤٠ الضرائب القانونية فقط

(١) هذا هو النص المرعى لجزء الخاص بنظام الإلتزام وضرورة إلغائه كما ورد من المرسوم السلطاني خطى شريف جلخانة .

“A fatal custom still exists, although it can only have disastrous consequences; it is that of venal concessions, known under the name of *iltizam*.

“Under that name the civil and financial administration of a locality is delivered over to the passions of a single man; that is to say, sometimes to the iron grasp of the most violent and avaricious passions, for if that contractor is not a good man, he will only look to his own advantage.

“It is therefore necessary that henceforth each member of Ottoman Society should be taxed for a quota of a fixed tax according to his fortune and means, and that it should be impossible that anything more could be exacted from him... ”.

وأن يتولى جميعها جباة مدنيون، وأن كل موظف سوف يتقاضى مرتباً معيناً ثابتاً، وأن الترقية في الوظائف الحكومية تقوم على أساس الجدارة والكفاءة^(١). وقد لقيت الإصلاحات التي يصممها خطى جليخاناه ومجموعة القوانين التي أعقبت صدوره معارضة عنيفة من مختلف طوائف الشعب - مسلمين ومسيحيين - وكان أن صدر في مستهل سنة ١٨٤٩ قرار بمنزل مصطفى رشيد باشا رائد الإصلاح العثماني. وتوقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الإلتزام وإلى الحكماء العسكريين وسحبت جباة الضرائب المدنيين، واستعاد هؤلاء العسكريون مهمة جمع الضرائب في فبراير (شباط) ١٨٤٢. ولما عاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦ استعادت حركة الإصلاح نشاطها السابق^(٢).

وصدر في ١٨ من فبراير (شباط) ١٨٥٦ مرسوم سلطاني يعرف باسم خطى هايوني. وقد أكد المرسوم الجديد المبادئ التي وردت من قبل في خطى جليخاناه ومنع منعا باتاً تدخل الموظفين وأعضاء المجالس في أن يشركوا في أي إلتزام كخطوة نحو القضاء على هذا النظام نهائياً.

وعلى الرغم من تلك المحاولات المتكررة فقد ظل نظاماً الإقطاع الحربي والإلتزام قائمين في عدد من الولايات العثمانية. ففي بلاد الشام باشرت الدولة بعد صدور خطى جليخاناه بحصيل الضرائب من الفلاحين واعتمدت على موظفين في خدمتها حاولوا محل أصحاب الإقطاع الحربي والملتزمين. وكان هؤلاء الموظفون يتبعون دفترارية الولاية وهي الإدارة المالية فيها. ولكن لم يقدر لهذا النظام أن يؤتي ثماره المرجوة لقلة عدد الموظفين ذوي الأمانة، فعاد نظام الإلتزام مرة أخرى بعد الحد من مساوئه. وأصدرت الدولة في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضي

(١) Lewis Bernard, The Emergence etc., op. cit., p. 385

(٢) عدل رشيد باشا من منصب الصدارة العظمى في سنة ١٨٥٢. وقد توفي سنة

١٨٥٨. انظر لمحة سريعة عنه في المرجع السابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

العثماني وبعقضاء قسمت الأراضي في الولايات العثمانية خمسة أقسام هي الأراضي المملوكة ، والأراضي الأميرية . وكانت تعتبر ملكاً لأصحاب الإقطاع الحربي (التيجار - الزعامت) وقد ألغيت وأصبح التصرف فيها للدولة فتبيع منها ما تريد لمن تريد ، والأراضي الموقوفة ، والأراضي المتروكة ، والأراضي الموات . وليست هذه الدراسة محالا لشرحها ، ولكن حسبنا أن نذكر أن إصدار هذا القانون الذي جاءت صياغته في ١٣٢ مادة وخاتمة كان محاولة جادة لسيطرة الدولة على أراضيها^(١) . وفي سنة ١٨٦١ صدر قانون تسجيل الأراضي المعروف باسم الطابو .

أما في العراق فكانت الأراضي في مطلع القرن التاسع عشر تنقسم إلى عدة أنواع منها :

- ١ - أراض عشائرية .
- ٢ - أراضي التيجار والزعامت وهي إقطاعات عسكرية .
- ٣ - أراض أميرية ملك الدولة وكانت تشكل معظم مساحة العراق الزروعة .
- ٤ - أراض ملك للأفراد .

وقد عشن نظام الإقطاع العسكري على نحو من الأنحاء في أراضي التيجار والزعامت ، بينما بقي نظام الإلزام مطبقاً في الأراضي العشائرية والأميرية ، إذ كان الشيخ يسند إليه إلزام ديرة عشيرته في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية . أما في الأراضي الزراعية مثل منطقة المنتفق فقد طرح إلزام ديرة المنتفق والمزابية منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وكان الشيخ الذي يقدم أكبر عرض مالي يحصل على إلزام الديرة واستمر هذا الأسلوب متبعاً حتى جاء مدحت باشا إلى العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ووضع نظاماً جديداً . فقد قام بتوزيع الأراضي الأميرية على الأهالي بأسعار منخفضة تشجيعاً للملكية الفردية ولكن لم تسفر

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

هذه المحاولات عن النجاح الذي كان يرتجيه لها ، فقد كانت الأموال وفيرة لدى شيوخ العشائر وكبار الموظفين والعشائر والتجار فأقبلوا جميعاً على شراء الأراضي الخصبية ، وظل الفلاح العراقي بعيداً عن الملكية الزراعية . ومن ناحية أخرى خصصت ديرة لكل عشيرة يدفع شيخها عنها مبلغاً من المال كان يوضع في الزايدة كل سنة . وظل هذا النظام المالي العشائري معمولاً به حتى توقف في أواخر القرن التاسع عشر . وفي خلال فترات التحول من نظام الإلتزام إلى نظام الملكية الفردية استطاعت إدارة البلاط السلطاني - الإدارة السنوية - أن تستولى على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، ولكنهم - أخضعت للقيود المالية التي فرضت على أراضي السلطان بسبب توقفه عن دفع الديون وبخاصة بعد مرسوم سنة ١٨٨١ ، ثم صدر في سنة ١٨٩٠ فرمان يجمل أراضي الدولة كلها ملكاً للسلطان . وقد ثبت أن هذا فرمان لم يطبق من الناحية الفعلية ، وإن ظل قائماً من الناحية النظرية . وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

ونخلص من هذا العرض إلى أن الصفة الإقطاعية كانت خصيصة بارزة من خصائص الدولة العثمانية وكانت لصيقة بها في معظم مراحل حياتها عبر العصور ، والأدهار .

الفصل السابع

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (١)

من تلك الخصائص العامة الست التي تميزت بها الدولة العثمانية ، كما وضحت في مجالات التطبيق العملي في أرجاء الدولة ، وهي الخصائص العسكرية ، والدينية ، والمالية ، والحكم المطلق ، والطبقية ، والإقطاعية ، يمكن أن نستخلص السياسة العليا للدولة في ضوء هذه الخصائص ومن معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية خلال المصور المتعاقبة التي عاشتها .

أولا : أن تكون دولة الإسلام الكبرى :

جاءت الدولة العثمانية من نفسها دولة الإسلام الكبرى بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامي منذ أن خاضت بنجاح في أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربي ضد الدولة الصفوية في فارس ، ثم نجاحها في القضاء على دولة الماليك الشراكسة في الشام أولا ، وفي مصر ثانياً ، وبسط سيادتها على إقليم الحجاز ، فدخلت في حوزتها أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على الإطلاق ، وهي : الكعبة الشريفة ، في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي ، في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، في بيت المقدس ، ثم مضيها في سياسة التوسع الإقليمي في البلاد الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط وفي شمالي إفريقيا حتى إقليم الجزائر . وقد سبق هذا التوسع في البلاد الإسلامية ثم صحبه ، ولحقه ، توغل الدولة في قلب أوروبا ، وضمها أقاليم أوروبية شاسعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى

دار الإسلام ونجاحها في انتزاع بعض الجزر في البحر المتوسط والتي كانت تعتبر قواعد عسكرية صليبية أو جيوباً صليبية تهدد أمن الدولة في هذا البحر مثل جزيرة رودس ، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا ، ومواجهتها بتكتلات دولية أوروبية صليبية كان بابا روما يرأس بعضها . وكان الحدود العثمانيون يحملون السلاح في أيديهم ويحملون العقيدة الدينية في قلوبهم . ونظر العالم في ذلك الوقت إلى الحروب التي كانت تخوضها الدولة ضد الدول المسيحية في أوروبا على أنها حروب مقدسة ^(١) ، وأضفى هذا النشاط على الدولة الطابع الديني .

وتمددت صور هذا الطابع الديني في السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقب «حامى الحرمين الشريفين» تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي ، ثم اتخاذهم لقب «خليفة» لنفس النرض ، ونجاح الدولة في إدخال تعديل على اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨) الخاصة بحرية المرور في قناة السويس كان من شأنه إعفاء السفن الحربية العثمانية من القيود المفروضة على سفن الدول المتحاربة إذا كانت الدولة في صدد الدفاع عن ممتلكاتها الإسلامية في الحجاز واليمن . ^(٢) ومن بين هذه الصور أيضاً تيسير أداء فريضة الحج أمام الراغبين فيه ، وتنظيم أربع قوافل رئيسية كل سنة تبدأ مسيرتها من أنحاء الدولة وتقل الحجيج تحت حراسة عسكرية مشددة ، ثم الدعوة إلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإنشاء سكة حديد الحجاز . وقد ظل الطابع الديني الإسلامي غالباً على السياسة العليا للدولة حتى إبان الحرب العالمية الأولى . وهكذا جعلت الدولة العثمانية الدين

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 26.

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى :

الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتى قناة السويس وإيريد الجديدة .

بحث منشور في حوليات كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الثانى والعشرون .

العدد الأول . سنة ١٩٦٠ ومطبوع سنة ١٩٦٤ من ص ١ - ٩٣ .

من دعائم الدولة ، وعبأت الشعور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية ، وعمت على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ، وأضمت على رجالها الكثير من الرعاية والنفوذ والامتيازات ، وأنشأت هيئة كانت من أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وشجعت التصوف وطوائف الدراويش .

وكان من مبادئ السياسة العليا للدولة في القطاع الديني أيضا منع تسلل المذهب الشيعي إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا . وقد جعل العثمانيون من أنفسهم حماة للمذهب السني في العالم الإسلامي .

ثانياً : جعل البحر الأحمر بحراً إسلامياً مغلقاً :

جعلت الدولة البحر الأحمر بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن غير الإسلامية . فكان يحرم عليها تجاوز موقع ميناء مخا في اليمن . وكانت أمثال هذه السفن تفرغ حمولتها في هذا الميناء ، ويعاد شحنها في سفن إسلامية تبحر بها إلى جدة أو يلبع أو السويس أو غيرها من موانئ البحر الأحمر . وبذلك أغلقت هذا البحر في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي الذي حاول أن يتسلل من باب المندب إلى الأقاليم الإسلامية التي تطل على هذا البحر من شاطئيه . وكان البحر الأحمر لا يزال مغلقاً في جزئه الشمالي ، لأن قناة السويس لم تكن قد أنشئت بعد . ولذلك انصرف اهتمام الدولة إلى مدخله الجنوبي عند باب المندب . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح في الفصل الأول من هذه الدراسة .

ثالثاً : نشاط حكومي محدود :

انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحرب ، والدين ، والحكم على أساس النظام البيروقراطي ، والزراعة . ولم تباشر نشاطاً يذكر في مجالات

الصناعة والتجارة ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين^(١) . ولم تهتم بتحصين المواصلات مثل إنشاء الطرق البرية أو حفر القنوات الملاحية أو إصلاح الموانئ ، كما أنها لم تبد اهتماماً بالنهوض بالتعليم العام بصفة عامة بين رعايا ولاياتها ، ولم تضع لهم في برامجها رعاية الصحة العامة ، أو ما يسمى الطب الوقائي ، فضلاً عن الطب العلاجي ، وبعبارة أخرى أغفلت الدولة إقامة منشآت ومرافق عامة تسهر على تحسين أوضاع الرعايا العثمانيين من النواحي الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية وما إليها . وكانت الدولة العثمانية تسير في هذا الصدد على النهج الذي كانت تسير عليه الدول الأوروبية ودول الشرق بصفة عامة في تلك العصور قبل أن يشرق عصر النهضة في مطلع العصور الحديثة على دول أوروبا الغربية . ولكن يؤخذ على الدولة العثمانية أنها لم تواكب التطور الذي طرأ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنظم السياسية والإدارية في الدول الأوروبية من حيث نوعية وحجم الخدمات التي تؤديها هذه الدول للجماهير . ولما حاولت الدولة العثمانية الأخذ بهذه الاتجاهات جاءت محاولاتها متأخرة وفي وقت كان الاضمحلال قد دب في أوصالها وبات العلاج متعذراً .

مارست الدولة سلطانتها في نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات ، مثل المحافظة على الأمن الداخلي ، وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة مثل نظام الإلتزام في الريف ، ونظام الطوائف في المدن ، ثم تنظيم القضاء . وقد جعلت إجراءاته وأحكامه متمشية مع مبادئ المذهب الحنفي الذي اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائي والمدني تمتد إلى جميع المقيمين في الدولة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عثماني وأجنبي . واستمر

Lewis Bernard; The Emergence etc., op cit., p. 26. (١)

هذا النظام القضائي الشامل تفضلته جميع المقيمين في أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات الأجنبية Capitulations ويستند هذا النظام إلى معاهدات عقدتها الدولة مع الدول الأوروبية واستهدفت تنظيم حياة رعايا هذه الدول المقيمين في أملاك الدولة بحيث جاءت لهم هذه المعاهدات كياناً شبه مستقل عن السطات العثمانية الحاكمة .

هذا النظام الضيق الذي مارست فيه الحكومة العثمانية سلطتها على رعاياها جعل الحكم العثماني سطوحيّاً متحرّجاً من أن يتغلغل في حياة الجماهير من ناحية ، كما جعل الجماهير من ناحية أخرى لا تشعر بحاجتها إلى الاتصال اليومي المباشر بالسلطات العثمانية للتعامل معها . فكان كل فرد يلوذ بشيخ الطائفة التي ينتمي إليها ، وهو رئيس المهنة أو الحرفة التي يزاولها ، ويعرض عليه مشكلاته فيعمل على تسويتها ، سواء بنفسه أو بالاتصال بأولى الأمر . ولذلك قيل إن الفرد في الأقاليم التي دانت للحكم العثماني كان يولد ويعيش ويموت دون أن يشعر في يوم ما بالحاجة إلى مقابلة أحد من الحكام العثمانيين

ووجه عن ذلك أن الدولة لم تحاول في البلاد التي فتحتها أن تقيم نفوذها على أسس علمية من الاستعمار المنتج ، وهي الأسس التي أرساها الاستعمار الأوروبي بعد ذلك لصالحه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قبل أن ينقشع من البلاد التي حضعت له سواء في العالم الإسلامي أو في غيره من البلاد الإفريقية والآسيوية . وتأسيساً على هذه الحقيقة كان الحكم العثماني بعيداً عن استقلال الشعوب أو اعتصار مواردها الاقتصادية . كانت إستانبول تستوفي نصيبها من الجزية السنوية المقررة على الولايات العثمانية ، وكانت كل ولاية تنفق الباقي من الموارد المالية الحكومية في داخل الولاية ذاتها . وإذا أخذنا مصر مثلاً لولاية عثمانية نجد أنها لم تكن إبان الحكم العثماني

مزرعة لإستانبول، كما كانت في أثناء الحكم الروماني مزرعة لروما تمدها بالحبوب، أو كما كانت إبان الاحتلال البريطاني مزرعة أفطان تمد المصانع الإنجليزية في مانشستر وليفربول وغيرها بالقطن لصناعة المنسوجات القطنية .

رابعاً : الاعتماد على العسكريين في الحكم كأهل ثقة :

استخدمت الدولة رجالها العسكريين كأهل ثقة تطمئن إلى ولائهم في تقلد معظم المناصب المدنية في حكومات الأقاليم التي فتحها . وقد سبق أن ذكرنا أنه كان للجيش العثماني وظيفتان : الحرب والحكم . وقيل في هذا الصدد إن الجيش العثماني كان بمثابة عملة معدنية نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ، ونقشت على الوجه الآخر لفظة الحكم . وكان لهذه السياسة - وهي إيثاق العسكريين بالمناصب المدنية القيادية والتوسطة آثار سيئة . كان أولئك العسكريون على درجة كبيرة من الاستعلاء والغرور والجهل بالمسائل الفنية . وكان من نتائج هذه السياسة أن حدثت عزلة بين الحكام والمحكومين ، وانعدمت الثقة بين الطرفين . وانصرف معظم المدنيين من الأتراك العثمانيين عن الاشتغال بالسياسة والحكم ، فلم يكن لدى الدولة رصيد من الكفايات المدنية لاستخدامها في دفع مجلة الإصلاح . ولم يدرك المصلحون إلا في وقت متأخر عواقب هذه السياسة غير الحكيمة .

خامساً : تجنب إدخال تعديلات جذرية تمس النظم القائمة :

لم تفرض الدولة على الأقاليم التي فتحها تعديلات جوهرية تمس النظم الأساسية القائمة فيها إلا ما كان يتعارض منها مع سيادة الدولة ، فكانت في هذه الحالة تدخل تعديلات تكميلية أو تخدم أو تساند « الوجود العثماني » ، وفيما عدا ذلك تركت رعاياها يمارسون حياتهم وفق الأسلوب الذي ألفوه من قبل محافظين على لغاتهم وثقافتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، لا يضيرهم إلا المظالم التي كانت

تفهاال عليهم من الحكام المحليين في عصر اضمحلال الدولة وتدهور نظمها .
وأكثر من هذا، تركت لبعض العناصر الأصباية نصيباً في حكم البلاد مع وضع
ضمانات تكفل لها الحفاظ على السيادة والسيطرة والحصول على الجزية المقررة .
أما تحويل الشعوب المسيحية في الأقاليم الأوروبية التي فتحها العثمانيون إلى
الإسلام فقد أدرجحت السياسة العليا للدولة تجاه هذه المسألة . كانت تارة تحمل
الرعايا المسيحيين على اعتناق الدين الإسلامي ، وتارة أخرى تسكنفي بتشجيعهم على
الدخول في الإسلام بمدحهم امتيازات مادية وأدبية ، وتارة ثالثة تقف موقفاً
سلبياً أو حادياً . وسنفتاقل هذه المسألة بشيء من التفصيل في الفصل التاسع
لأنها أكثر التصاقاً بموضوع عثمنة الشعوب التي دانت لحكم العثمانيين .

سادساً : بسط السيادة العثمانية على المضائق والبحر الأسود :

مارست الدولة سيادتها على المضائق ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ونقصد
بالمضائق The Straits في تاريخ الدولة العثمانية البوسفور وبحر مرمرية
والدردنيل ، فهذه كلها في الواقع تشكل مضيقاً طبيعياً واحداً يوصل بين البحر
الأسود وبحر إيجه الذي هو جزء من البحر المتوسط . وليس للبحر الأسود
مخرج آخر غير تلك المضائق الطبيعية ، فالبحر الأسود يتصل بالبحار العامة
والمحيطات عن طريق تلك المضائق .

وقامت السياسة العليا للدولة العثمانية على ممارسة سيادتها كاملة على المضائق .
واستندت في هذه الممارسة على القاعدة القانونية التي تقول إنه إذا كان المضيق
واقماً في أرض دولة واحدة ، وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فإن مياهه
تعتبر مياهاً إقليمية وتتبع هذه الدولة . وإذا زاد اتساعه على ستة أميال فإنه
لا يدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من
ناحيته ، على أنه يجوز اعتبار المضيق كله في هذه الحالة تاماً للدولة صاحبة

شاطئيه ، إذا كان العرف قد جرى بذلك^(١) . ومارست أيضاً سيادتها على البحر الأسود استناداً إلى أن هذا البحر كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة .

وقد نجحت الدولة العثمانية في فرض سيادتها على البحر الأسود ما بقيت الدولة قوية شامخة ، فكان لها حرية التصرف كاملة بخصوص الملاحة في البحر الأسود والمرور منه وإليه . وكانت تفتح له سفن بعض الدول باتفاقات خاصة استثنائية^(٢) .

كانت مسألة المضائق - بوجه خاص - مشكلة دقيقة ، ل كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ ، أو الاضمحلال والضعف . ففي العصور التي كانت هذه الدولة خلالها قوية مهيبة الجانب استطاعت فرض سيادتها على المضائق والبحر الأسود واحترمت الدول هذه السيادة إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني . وفي العصور التي اضمحلت فيها الدولة ووضح ضعفها تعرضت لضغوط سياسية حيناً وعسكرية أحياناً من الدول الأوروبية التي تسابقت فيما بينها للظفر - في معاهدات ساشير إليها - بحقوق لسفنها التجارية والحربية بالمرور في المضائق وبالملاحة في البحر الأسود في زمن السلم ووقت الحرب . وقد بلغ الهوان بالدولة أنها اعترفت في إحدى المعاهدات بأن الدفاع العسكري عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين روسيا مما يعد انتهاكاً لسيادة الدولة العثمانية وعضفاً بسيادتها العليا . وكان هذا الانتهاك هو الدرك الأسفل من الضعف الذي هوت إليه . وكان مرده إلى

(١) الدكتور محمود سامي جنيته بك . القانون الدولي العام . القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٣٠ .
(٢) دكتور عبد الله رشوان . المركز الدولي لفتاة السويس ونظائرها . القاهرة ، ١٣٦٩ م ، ١٩٥٠ م ، ص ٢٨١ .

الهزائم العسكرية التي تماقت عليها والأخطار التي جثمت عليها وضعف شخصية سلاطين الفترة الثانية^(١)، وهكذا أصبحت مسألة المضايق بمثابة الترمومتر أو المقياس الذي تقاس به قوة الدولة العثمانية أو ضعفها .

واختلطت مسألة المضايق بالسياسة الدولية ، وأصبحت هذه المسألة تشكل ركناً أساسياً في علاقات الدولة العثمانية بالدول الأوروبية منذ السبعينات من القرن الثامن عشر ، بل غدت المضايق من أبرز مشكلات السياسة الدولية ، واحتلت مكان الصدارة في خطط الدول وتفكير رجال القانون الدولي العام وفي مؤلفاتهم . وفي القرن التاسع عشر كان يضرب المثل بالمضايق على أنها أم المشكلات الدولية ، وأنها سبب اضطراب العلاقات الدولية وإزعاج الدول الأوروبية . ومما يذكر في هذا الصدد أن لورد إلينبورج Ellenborough وهو يترشح على مشروع قناة السويس قال في مجلس اللوردات بجملة ٦ من مايو (إيار) سنة ١٨٦١ « إن بوسفوراً واحداً - أي المضايق - كان مبعث متاعب كثيرة لنا . وإني اعتقد أن هذا المشروع - قناة السويس - الذي نحن بصددده ، إنما هو محاولة لإنشاء بوسفور آخر ووضعه في أيدي الفرنسيين » .^(٢) وقد رددت الصحافة الإنجليزية هذا الرأي ، وذهبت إلى أن قناة السويس ليست إلا بوسفوراً فرنسياً^(٣) . وقد يقال إن مرور السفن الحربية والسفن التجارية مسموح به في قناة السويس وفق عقود محددة في اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨) ومع ذلك فليس في مرور هذه السفن مساس بسيادة مصر على قفاتها وأراضيها . ولكن حين يصل الأمر إلى أن تعترف الدولة العثمانية بأن الدفاع عن المضايق هو

(١) ستركلم في الفصل العاشر عن ثنتين أو طائفتين أو مجموعتين من سلاطين الدولة ، هما - سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى . قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإشائها . من مطبوعاته معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧١ ص ١٤٢ .
(٣) المرجع السابق .

عبء يقع على عاتق هذه الدولة والروسيا معاً، فهذا هو المساس الصريح بسيادة الدولة على المضائق ، وهو خروج على السياسة العليا للدولة . ومع ذلك فإن قناة السويس سبق أن تعرضت لمثل هذا الوضع المبهين في معاهدة غير متكافئة (٢٦ من أغسطس - آب - ١٩٣٦) تقرر فيها أن تتولى القوات البريطانية بالاشتراك مع الجيش المصرى الدفاع عن القناة وكفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة، وأن ترابط القوات البريطانية في منطقة القناة ومناطق أخرى ، وأن يظل هذا الوضع قائماً وما يستتبعه من استمرار الاحتلال البريطانى حتى تتفق بريطانيا ومصر على أن الجيش المصرى أصبح في حالة يستطيع أن يكفل بمفرده الدفاع عن القناة وحماية أمنها .

* * *

الفصل الثامن

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (٢)

سيادة الدولة على المضائق والبحر الأسود

بين المعاهدات الثنائية والجماعية والتطبيق العملي

تكلمنا في الفصل السابق عن حرص الدولة العثمانية على بسط سيادتها على منطقة المضائق والبحر الأسود ، واعتبار هذه السيادة عنصراً جوهرياً من عناصر السياسة العليا للدولة . ونعني في هذا الفصل مروراً سريعاً على أهم المعاهدات التي ورد فيها ذكر لهذا الموضوع ، والتي أبرمتها الدولة بحريتها واختيارها مع غيرها من الدول ، أو التي فرضت عليها فرضاً في أعقاب هزائم عسكرية فزلت بها ^(١) . وبمعنى آخر ، سواء كانت هذه المعاهدات التزاماً بسياستها العليا أو خروجاً عليها ، وسواء كانت معاهدات ثنائية *traités bilatérales* أو معاهدات جماعية *traités collectifs* ونستقي المادة العلمية لهذه الدراسة الوثائقية من واقع نصوص هذه المعاهدات . كما نشير إشارة عابرة إلى بعض الأحداث العسكرية الهامة التي تعرضت لها منطقة المضائق من جانب بعض الدول الأوروبية الكبرى ، ومدى مسلاجة الأتراك العثمانيين واستبسالهم في الحفاظ على سيادة دولتهم على هذه الجهات .

(١) تباينت آراء فقهاء القانون الدولي العام فيما يشوب بعض المعاهدات من عنصر الإكراه القوي هو أحد عيوب الرضا ، وهي الخطأ ، والتدليس ، والغبن ، والإكراه . ويذهب فريق منهم إلى أن الإكراه يبطل المعاهدة بطلاناً نسبياً .

(١) معاهدة بلجراد ١٧٣٩ :

لما بدت في الأفق السياسي نذر اضمحلال الدولة العثمانية حاولت روسيا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر إقامة وجود عسكري بحري لها على الساحل الشمالي للبحر الأسود كقائمة لخطوات تالية نحو بسط سيطرتها العسكرية على منطقة المضائق وتمكين سفنها الحربية والتجارية من عبور البوسفور والدردنيل وقت السلم وضمن الحرب دون أية قيود أو شروط أو عوائق انطلاقاً إلى الوصول إلى البحار الداخلة . وكانت الوسيلة لتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة هي السيطرة على مصاب بعض الأنهار التي تصب في الساحل الشمالي للبحر الأسود مثل نهر دنيستر Dniester ، بيج Bug ، دنيبر Dniiper ، دن Don ، كوبان Kuban ، واشتملت في سنة ١٧٣٥ الحرب بين الدولتين . وأخفقت روسيا في تحقيق أهدافها ، وعقدت معاهدة بلجراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - ١٧٣٩ ، وتقرر فيها الاحتفاظ بالحدود القديمة للدولتين كما حددتها المعاهدات الموقعة من قبل بينهما (المادة ٢) ، كما تقرر هدم قلعة آزوف Azov ، وأن تترك الأرض المقامة عليها هذه القلعة في داخل الحدود التي رسمتها معاهدة سنة ١٧٠٠ ، وأن تستخدم كحاجز بين الدولتين . وسمحت المعاهدة كتمويض للروسيا بأن تبنى قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون بالقرب من آزوف ، وأن يسمح للدولة العثمانية بإقامة قلعة بالقرب من آزوف ، كما تقرر عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء أساطيل لها أو سفن أخرى في البحر الأسود (المادة ٣) ، كما قررت المعاهدة أن يمارس رعايا روسيا نشاطهم التجاري في البحر الأسود على سفن تركية (المادة ٩)^(١) .

(١) تجدائس الرسمي والسكامل لهذه المعاهدة و :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I. pp 47-51

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٢٨ من ديسمبر -

كانون أول - سنة ١٧٣٩

وقد استقرت معاهدة باجراد سارية المفعول منذ تزايد على ربيع قرن . وكانت خلالها أساس العلاقات بين الدولة العثمانية والروسيا ، إلى أن عقدت بين الدولتين معاهدة خطيرة هي كتشك كينارجى .

(ب) معاهدة كتشك كينارجى ١٧٧٤ :

جاءت معاهدة كتشك كينارجى ^(١) Kuouk Kaynarca ضربة قاصمة للسياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على البحر الأسود والمضايق . عقدت هذه المعاهدة في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - سنة ١٧٧٤ . بعد حرب دامية استطلت ست سنوات بين الدولة العثمانية والروسيا منيت فيها القوات المسلحة العثمانية بهزائم أليمة . وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية بجمحة إلى بحيرة عثمانية روسية بعد أن تقرر للروسيا الحق فى إنشاء عدة قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل هذا البحر ، وبذلك أصبحت الروسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها ، كما تقرر لها الحق فى أن تستخدم سفنها التجارية المضائق للخروج من هذا البحر إلى البحار العامة والدخول منها إليه .

وتهمنا فى معاهدة كتشك كينارجى النصوص التى وردت بها خاصة بمسألتين : أولاها ، الحقوق الملاحية التى تقررت للروسيا فى البحر الأسود والمضايق . وثانيتهما ، الوجود العسكري البحرى والبرى الذى تقرر لها فى البحر الأسود أما عن المسألة الأولى فقد تقرر أن تكون الملاحية فى هذا البحر حرة ومفتوحة وغير مقيدة بشروط للسفن الروسية التجارية ، والتى يصبح لها الحق فى حرية المرور فى المضائق بين البحر الأسود والبحر المتوسط وحرية دخول الثغور والموانىء .

(١) كتشك كينارجى اسم قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب بالقرب من سيلستريا Silistra .

الواقعة على سواحل البحر الأسود . كما قررت المعاهدة أن تسمح الدولة العثمانية لرعايا الروس بممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة في البر والبحر وفي نهر الدانوب ، وأن يطبق السلطان العثماني على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations الذي سبق له أن منحه لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل بريطانيا وفرنسا ، وأن يكون للرعايا الروس الحق في استيراد وتصدير جميع أنواع البضائع وتفريغ شحنات سفنهم في كل ثغور وموانئ البحر الأسود وفي سائر البحار الأخرى ، وأن تكون إستانبول من بين الثغور التي يسمح للسفنهم بدخولها والمراطة فيها لتفريغ شحناتها وشحن محمولات جديدة منها ، وذلك بمد دفع الرسوم المقررة (المادة ١١) .

أما المسألة الثانية فقد قررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا بصورة كاملة ودائمة ولا تقبل نقاشاً عدة قواعد ومواقع ، نذكر منها :

(أ) قلعة كينبرن Kinburn التي تقع عند مصب نهر دنيبر Dnieper ، وأن يدرج بها القسم الواقع على طول الشاطئ الأيسر لهذا النهر والزاوية التي تشكل الإقليم الصحراوي المحصور بين نهر دنيبر ونهر بوج Bug (المادة ١٨) .

(ب) قلعة جنيكال Jenicale وقلعة كيرتش Kertsch الواقعتين في شبه جزيرة القرم ، وأن تمتد هذه السيطرة إلى جميع موانئها والمنشآت القائمة فيها ، فضلا عن جميع أجزائها وأقسامها التي تحيط بها القلعة ، ويحدها خط يبدأ من البحر الأسود ويتبع الحدود القديمة لقلعة كيرتش إلى مكان يسمى بوجاك Bugak ، ومن بوجاك يتجه الخط مستقيماً نحو الشمال إلى بحر آزوف (المادة ١٩) .

(ج) مدينة آزوف Azow بمنطقها وحدودها التي وضعت سنة ١٧٠٠ (المادة ٢٠) .

وقد فاقت معاهدة كوتشك كينارجي جميع المعاهدات السابقة التي عقدت بين

الدولتين ، كما شكلت هذه المعاهدة نموذج العلاقات العثمانية الروسية إلى قيام الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ . كما أن الشروط المهينة التي فرضت على الدولة العثمانية في تلك المعاهدة قد أثارَت مزيداً من الأطماع القيصريّة ، كما أنها أوجدت مشكلات استعصى حلها في العلاقات بين الدولتين وفرضت نفسها فرضاً في مجال السياسة الدولية حتى منتصف القرن العشرين ^(١) .

(ج) تعهد عثمانى للنمسا ١٧٨٤ :

وحصلت النمسا على حق الملاحة الحرة غير المقيدة بشروط لسنفها التجارية في البحر الأسود وعبور هذه السفن المضائق . وقد حصلت عليها في وثيقة يطلق عليها *Senet* بمعنى « تعهد » أصدرها حامد باشا الصدر الأعظم في اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير - شباط - سنة ١٧٨٤ ^(٢) .

(د) معاهدة تحالف دفاعي بين الدولة العثمانية والروسيا (١٧٩٨) :

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ عقدت الدولة العثمانية مع الروس معاهدة تحالف دفاعي في إستانبول في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٩٨ ^(٣) .

وكانت مدة هذا التحالف الدفاعي ثمانى سنوات . وفي مواد سرية مفصلة

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة و:

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, pp54-61

وقد استشهد الأستاذ هبورويتز منها المادة (١٦) والفقرة الأولى من المادة (٢٤) بقوله
أنهما تخصان البلقان .

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول و ٢٤ من يناير - كانون
ثان - سنة ١٧٧٥

Noradounghian Gabriel; Recueil d'actes internationaux de (٢)
l'Empire Ottoman. 4 vols. Paris, 1897. Vol 1., pp. 379-386

(٣) تذكر بعض المراجع أن هذه المعاهدة قد عقدت و ٣ من يناير - كانون ثان - ١٧٩٩

تمهدت فيها روسيا بأن تمد الدولة العثمانية بأثنتي عشرة قطعة حربية، وإذا تطلب تطور الحوادث الحربية تعزيز القوات العثمانية فإنها تمدها بقوات برية يتراوح عددها بين خمسة وسبعين ألفاً وبين ثمانين ألف جندي روسي . وفي مقابل هذه المساعدات العسكرية الروسية تمهدت الدولة العثمانية « هذه المرة فقط » بمنح روسيا الحق في أن تمر سفنها الحربية في المضائق مروراً حراً^(١) .

وقد عقدت هذه المعاهدة على عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) والقيصر بول الأول (١٧٩٦ - ١٨٠١) . ويقول أحد المؤرخين الأمريكيين تعليقاً على سماح الدولة العثمانية للسفن الحربية الروسية بعبور المضائق إن بول الأول قيصر روسيا استطاع أن يعتمد الطرف الرفيع المذهب لسيده في باب السلطان بمقد معاهدة التحالف الدفاعي مع السلطان سليم الثالث . وبعضى متمكناً فيقول إن الفضل في عقد هذه المعاهدة يرجع إلى نابليون وحملته على مصر^(٢) . والحق أن تصرف السلطان سليم الثالث كان خروجاً على السياسة العليا التي سار عليها أسلافه . وكانت تعوزه رباطة الجأش ، إذ كان مترجعاً إلى أبعد حدود الانزعاج بسبب احتلال فرنسا لمصر . وكان أول احتلال عسكري أوروبي مسيحي لولاية عثمانية إسلامية في التاريخ الحديث .

(هـ) « تحرير » عثماني لبريطانيا (١٧٩٩) :

ولم تسكد تمر بضعة أشهر على عقد هذه المعاهدة حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة رسمية يطلق عليها « تحرير » ومؤرخة في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٧٩٩ منح فيها بريطانيا حرية الملاحة في البحر الأسود لسفنها التجارية وكذلك حق عبور هذه السفن المضائق^(٣) .

(١) نشرت المواد الملغاة في معاهدة التحالف العثماني الروسي و :

Neradounghian G. ; op. cit., Vol 2, pp. 24-27

والمواد السرية في Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 65

Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1., p 72 (٢)

rtalet E., Turkey Treaties.p. 270 (٣)

ويلاحظ أن هذا الإذن كان مقصوداً على السفن التجارية، ولم يشمل السفن الحربية على الرغم من أن بريطانيا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى في غربي أوروبا .

(و) معاهدة سلام بين الدولة العثمانية وفرنسا (١٨٠٢) :

ولما عاد السلام إلى أوروبا مؤقتاً عقب عقد صلح Amiens بين فرنسا وبريطانيا في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٢ استطاعت فرنسا أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة العثمانية ، فقدت معها معاهدة سلام Treaty of Peace في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٠٢ ، وكان أهم ما جاء فيها خاصاً بموضوع المضائق أن الدولة العثمانية منحت فرنسا لأول مرة الحق في أن تمارس سفنها التجارية والتي تحمل العلم الفرنسي حق عبور المضائق والملاحة في البحر الأسود ودون أن تقام في وجهها عوائق ، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التي تبحر في البحر الأسود والتي تتبع الدول الأخرى (المادة ٢)^(١)

(ز) تجديد معاهدة التحالف الدفاعي بين الدولة العثمانية وروسيا (١٨٠٥) :

استطاعت روسيا في سنة ١٨٠٥ أن تجدد معاهدة التحالف الدفاعي مع الدولة العثمانية والتي كانت قد عقدت كما مر بنا في سنة ١٧٩٨ . وقد تقرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية . وفي ظل هذا التجديد نجحت روسيا في أن تفتح من الباب العالي امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالي لروسيا . فقد اعترفت الدولة العثمانية في المعاهدة المجددة

(١) تجديد النمى الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp. 71-72

وقدم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في باريس في ٨ من

سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٢ .

التي أبرمت في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٥، بأن
الدفاع عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق
الدولة العثمانية والروسيا .

اشتملت المعاهدة على جزئين: جزء معلن في أربع عشرة مادة، وجزء سرى
يقع في تسع مواد . والجزء الأخير هو الذى يدخل في نطاق هذه الدراسة . نصت
المادة الأولى في فقرتها الأخيرة على أن يسمح السلطان العثماني للسفن الحربية
الروسية وناقلات الجنود بعبور المضائق زمن الحرب . وجاء في المادة الرابعة
أن قيصر روسيا قد قرر باسمه واسم خلفائه من بعده سلامة الجزر الأيونية
والدود عنها من كل اعتداء خارجى . ولما كان الموقف السياسى فى شبه
الجزيرة الإيطالية يجعل من الضرورى استمرار الاحتلال الروسى للجزر الأيونية،
فإن هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التى دعت إليه لاتزال قائمة .
وتصهدت الحكومة العثمانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية
عبر المضائق من أجل خدمة وتأمين القوات الروسية التى تحتل الجزر الأيونية ،
ثم جاءت المادة السابعة فى الملحق السرى أخطر المواد على الإطلاق إذ نصت على أن
الدولتين العثمانية والروسية ، وقد قررتا إغلاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن
تمر عبر المضائق السفن الحربية التابعة للدول الأخرى ، فإن كل محاولة من جانب
دولة أخرى مهما كانت لانتهاك هذا القرار يعتبر عملاً عدائياً موجهاً للدولتين العثمانية
والروسية . وعلى ذلك فهما يتعهدان باستخدام كل قواتهما البحرية فى وجه كل
سفينة حربية وكل سفينة تحمل مواداً حربية تحاول دخول البحر الأسود .

The Two Contracting Parties, having agreed on the closure
of the Black Sea, declare that any attempt by any Power
whatsoever to violate it shall be considered a hostile act
against them. Consequently, they pledge to oppose with all

their naval forces the entrance into that sea of every vessel of war and every ship carrying military stores⁽¹⁾.

ويلاحظ أن النسخة الروسية لهذه الماهدة جاءت مختلفة عن النسخة التركية. وقد نشر الأستاذ هيورويتز Hurewitz باللغة الإنجليزية كلا النصين عن النسخة التركية والنسخة الروسية التي نشرها هنا مترجمة أولاً إلى اللغة العربية بصرف « إن الطرفين الساميين المتعاقدين يوافقان على أن يكون البحر الأسود بحراً مطلقاً ، ولا يسمحان بأن تظهر في مياهه أية سفينة حربية أو أية سفينة مسلحة لأية دولة مهما كانت . وإذا حاولت أية سفينة أن تظهر مسلحة في داخل هذا البحر ، فالطرفان الساميان المتعاقدان يعتبران مثل هذه المحاولة باعثاً عدائياً ، ويتعين عليهما مقاومتها بكل قواهما البحرية . ويعتبران هذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة التي تكفل أمنهما للتبادل والمشاركة ، ومن المفهوم أن المرور الحر في المضائق سوف يستمر بالنسبة للسفن الحربية الروسية والنقل الحربي الروسي . ويجب في كل الأحوال على الجانب العالي أن يقدم إلى حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الروس كل المساعدات والتسهيلات التي قد يحتاج إليها » .

The Two High Contracting Parties agree to consider the Black Sea as closed and not to permit the appearance therein of any flag or armed vessel of any Power whatsoever, and if any should attempt to appear therein arms, the Two High Contracting Parties undertake to regard such an attempt as a *casus foederis* and to oppose it with their naval forces, as being the only means of assuring their mutual tranquillity ; it is understood that the free passage through the canal of Constantinople will continue in effect for the vessels of war and military transports of His Imperial Majesty of All the Russias, to which in each instance the Sublime Porte will furnish every assistance and grant every facility that may be required.⁽²⁾

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة بجموعها المأثورة وموادها السرية في :

Hurewitz, J. C , op. cit., vol. 1., pp 72-77

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه الماهدة في استانبول في ٢٩ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٠٥ .

Loc. cit., p. 76. f. 1

(٢)

التطورات الدولية ساعدت الدولة على إنهاء المعاهدة الجائرة :

كان تقرير هذا المبدأ - الدفاع المشترك عن المضائق - في مقدمة الأخطاء المصارخة التي سقط فيها السلطان سليم الثالث ودليلاً على حقه السياسي . فلم يحدث من قبل أن منح سلطان عثمانى للروسيا هذا الحق الذي يشكل خروجاً تاماً على السياسة العليا للدولة . وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غير المتكافئة أن التغييرات السريعة التي طرأت على الموقف العسكري والسياسي في أوروبا في سنة ١٨٠٦ قد عجلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة، وأطاحت بمرى التحالف الثلاثي بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا ، كما أدت إلى تعرض الدردنيل والبوسفور لاحتحام من جانب الأسطول البريطاني .

انتصارات نابليون العسكرية :

أحرز نابليون انتصارات عسكرية رائعة على النمسا في موقعة أولم ULM في ٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٥ ودخل فيينا في ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - ثم انتصر انتصاراً ساحقاً على القوات النمساوية والروسية في موقعة أوسترليتز Austerlitz أو موقعة الأباطرة الثلاثة في ١٢ من ديسمبر - كانون أول . وقد تمهق قيصر روسيا إلى بلاده، وأكره إمبراطور النمسا على التوقيع على معاهدة برسبرج Proseberg في ٢٦ من ديسمبر - كانون أول - وتنازل فيها لفرنسا عن أقاليم أوروبية هامة^(١)، كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهمية، وجاء في

(١) شكلاً من شروط هذه المعاهدة تنازل النمسا لفرنسا عن البندقية ، وفلاديا ، وأوكرانيا ، والفيول .

أعقابها أحداث خطيرة^(١). واتقصر نابليون أيضاً على بروسيا في موقعة بينا Jena في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين في ٢٧ من ذات الشهر . وأصدر مراسيم برلين في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ وهي المراسيم التي اشتهرت باسم النظام القاري Le Blocus Continental وبها أعلن نابليون حصار الجزر البريطانية وحرّم على جميع الدول الأوروبية الخاضعة أو الموالية له فتح موانئها للأتجار معها . وبمقتضى هذه المراسيم تكون السفن البريطانية التي تدخل موانئ فرنسا أو موانئ حليفاتها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الانتصارات الحربية من حيث حجمها ومن حيث أهمية مواقع الأقاليم التي استولى عليها نابليون ما جعل نفوذه يعلو علواً كبيراً عصف بمبدأ التوازن الدولي في القارة الأوروبية .

أسداء الانتصارات في إستانبول:

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصدائها في إستانبول ذغداً لنفوذ الفرنسي في دوائر الباب العالي الصدارة والقلبة على نفوذ سائر الدول الكبرى . وتضائل نفوذ روسيا في العاصمة العثمانية إلى حد بعيد حتى لم يعد لاتصالات إيتالينسكي Italinsky السفير الروسي وزن كبير في دوائر الباب العالي . وأخذت هذه الدوائر تداقن حق روسيا في مرور قواتها في البوسفور والدرديفل

(١) كان من بين نتائجها وأحداثها اللاحقة اعتراف النمسا في ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٦ باتحاد الراين Confédération du Rhin الذي تشكل من بافاريا ، وورتمبرج Wurtemberg ، وبادن Baden ، وثمانى ولايات أخرى ، وكبير مستشارى الإمبراطورية الألمانية (الأمير كارل دالبرج) ، ووضع هذا الاتحاد تحت حماية فرنسا . ومن نتائج المعاهدة أيضا إجبار إمبراطور النمسا في ٦ من أغسطس - آب - سنة ١٨٠٦ على التخلي عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك زال إلى غير رجعة شبح هذه الدولة الكبيرة .

انظر تفصيلات وافية عن الموقف الدولي في أوروبا في سنتي ١٨٠٦، ١٨٠٧ في : دكتور محمد مؤاد عسكري: الصراع بين البورجوازية والإقطاع (١٧٨٩ - ١٨٤٨) ٣ مجلدات، الناشر دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، المجلد الثاني ، الفصل الثالث ، ص ٦٨ - ٩٥ .

بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على إيطاليا وبعد أن أصبح نفوذ روسيا في الجزر الأيونية مراباً . وقد ذهب الباب العالي في موقفه العدائي من روسيا إلى حد أنه ألغى في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٦ جميع الامتيازات التي كانت ممنوحة أو مقررة من قبل للبحارة الروس . وتدخل شارل أربنوت Charles Arbuthnot السفير البريطاني لتأييد زميله السفير الروسي . ولكن كان النفوذ البريطاني في إستانبول قد تضاعف بل وصل إلى الحضيض ، وطلب السفير البريطاني من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضائق لتسانده في اتصالاته مع دوائر الباب العالي . وكان الجنرال سباستياني Sebastiani السفير الفرنسي قد وصل في ١٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٠٦ إلى إستانبول حيث ظفر باستقبال رسمي حافل غير مسبوق بمثال . واستقبلان للسفير البريطاني المكنانة العاليه التي يتبوأها سريعاً السفير الفرنسي في دوائر الباب العالي ، فكتب إلى حكومته في ١٥ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٦ يقول إذا لم تتحرك بريطانيا بأساطيلها فإن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية في المضائق ، ويكون هذا العمل موجهاً ضد بريطانيا . وقد تحققت تدبؤات السفير البريطاني في الأيام القليلة التالية . فقد قدم السفير الفرنسي مذكرة في ١٦ من سبتمبر - أيلول - إلى الباب العالي طلب فيها إغلاق البوسفور والدردينيل في وجه السفن الحربية الروسية ، وقرر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يكون عملاً عدائياً موجهاً ضد فرنسا . وفي هذه الحالة فإن القوات الفرنسية الزاحفة للجرارة ، والرابطة في إيطاليا ، سوف تجتاز الأقاليم العثمانية لمهاجمة الروس . وقال إن كل تحالف جديد أو استمرار العمل بتحالف قديم بين الدولة العثمانية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا وروسيا لن يكون تقضياً سريعاً لمبدأ الحياد ، ولكنه يمد إسهاماً إيجابياً واضحاً من جانب الدولة العثمانية في الحرب التي تشنها بريطانيا وروسيا على فرنسا .

وأكد السفير الفرنسي في مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تتماشى مع مصالحها ومع كرامتها، وأن القوات الفرنسية السكينة الرابطة في دلاشيا - وهي قوات مقصودتها أساساً الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية ضد أطماع بريطانيا وروسيا - ستوجه إلى أغراض تتعارض تعارضاً جذرياً مع الغرض الأول الذي من أجله أرسلت إلى دلاشيا .

الدولة تفسخ مهادتها مع روسيا وبريطانيا:

وصل النفوذ الفرنسي في إستانبول إلى الأوج حين أقدمت الحكومة العثمانية بإرادتها المفردة وفي يوم واحد هو ١٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي المجددة بينها وبين روسيا في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٥ ، فكانت هذه المعاهدة الجائرة ظلت نافذة بعد تجديدها ثلاثة عشر شهراً واحداً وعشرين يوماً . كما أقدمت الدولة العثمانية في ذات اليوم وإرادتها المفردة على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي المعقودة بينها وبين بريطانيا في الخامس من يناير - كانون ثان - سنة ١٧٩٩ .

ومن المبادئ المجمع عليها في القانون الدولي العام أن فسخ المعاهدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف فيها أمر غير جائز طالما أن المعاهدة لا تخول أطرافها هذا التصرف تأسيساً على أنه يؤدي إلى زوال الاستقرار في العلاقات الدولية، ويجعل الدول في حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شاعت، ويسلب المهادتات قدسيتهما، ويجعل بقاءها أو انقضاءها متوقفاً على السلطة التحكيمية الانفرادية للدول الأطراف فيها. ومن ناحية أخرى فإن الدولة التي تفسخ المعاهدة بإرادتها الانفرادية تستند عادة إما إلى حق الضرورة، وإما إلى خرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة، والنتيجة العملية لفسخ المعاهدة تقتضي الإرادة الانفرادية هي أن ينتهي الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمر الواقع *le fait accompli* ويؤدي في

غالبية الأحيان إلى تغلب الدولة التي تتوفر لها أسباب القوة المادية^(١). ويبدو من الملاحظات التي أحاطت بهذا الإجراء أن الدولة العثمانية قد أقدمت على فسخ معاهدتها مع روسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا وشموراً منها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارض مع سياستها العليا في بسط سيادتها كاملة على المضائق والبحر الأسود.

وكان هذا الإجراء الدبلوماسي المزدوج من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين كل من روسيا وبريطانيا وقيام الحرب. ولم تفلح دبلوماسية نابليون في أن تبحر الدولة العثمانية إلى الحرب ضد روسيا في عام ١٨٠٦ وضد بريطانيا في عام ١٨٠٧ :

بريطانيا ترسل أسطولاً يفتح المضائق:

على أن الحكومة البريطانية أقدمت قبيل قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وقبيل مناصرة السفير البريطاني والحايا البريطانيين إستانبول على عدة إجراءات ردت بها على الدولة العثمانية وعلى نابليون. كانت الوزارة القائمة في الحكم هي وزارة جونفيل Grenville وقد جاءت إلى الحكم في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة وليم بت Pitt ، وواجهت الموقف الدولي المضطرب والشائك. وأصدر وندهام Windham W. وزير الحربية فيها مذكرة مؤرخة في ٢١ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ واعتبرها سرية للغاية إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، وكان مما جاء فيها « إن بعض التصرفات التي صدرت عن الباب العالي أحيراً جعلت اتخاذ إجراءات سرية وحاسمة تجاه الحكومة العثمانية أمراً ضرورياً لا غناء عنه . ولذلك فقد كلفت بإبلاغكم أن أوامر قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولينجود Vice-Admiral lord Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حاضرة صاحب الجلالة ، تحت قيادة ضباط ذوي مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تعليمات بأن

(١) ج. كينور حامد سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم . العاجرة ، ١٩٦٢

يتقدموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضائق إستانبول حيث يتخذون موضعاً يفتح للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد إستانبول في حالة فشل المساعي التي كاف مستر أرثوثوت Mr. Arbuthnot (السفير البريطاني) القيام بها لدى الحكومة العثمانية^(١).

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية وهو نائب أمير البحر سير جون دكورت Vice - Admiral Sir John T. Duckworth لقيادة الأسطول المتجه إلى الدردنيل والبوسفور . وعهد إليه أن يلقى الأسطول مراسيه في مياه البوسفور تجاه الماصمة في مظاهرة عسكرية بحرية تأييداً لموقف السفير البريطاني في إستانبول، وأن يقدم إلى الحكومة العثمانية مذكرة بمطالب الحكومة البريطانية ، ومن بينها أن يقطع الباب المالي علاقته مع الحكومة الفرنسية ، وما يترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسي بمغادرة إستانبول، وأن يتبع الباب المالي خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، أي أن الحكومة البريطانية أرادت إجراء ما يسمى «مفاوضات مسلحة» armed negotiations مع الباب العالي لفرض مطالبها عليه . فإذا رفض الباب العالي الأخذ بما جاء في المذكرة البريطانية ، اعتبر هذا الرفض دليلاً على أن الحكومة العثمانية ماضية في تعاونها مع باريس ومصممة على موقفها العدائي من بريطانيا . وفي هذه الحالة يقوم دكورت قائد الأسطول بتبليغ هذا الرفض إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير إلى إرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كي تتخذ بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ضد فرنسا وضد الدولة العثمانية^(١) . وكانت بريطانيا تعتقد أن نابليون يماود الكرة

Douin G. et Mme Fawtier E. C.; L'Angleterre et L'Egypte. (١)
La Campagne de 1807. Le Caire, 1928; doc. No. 1, pp. 1-2

لتحقيق أحلامه في الشرق وتنفيذ أطباعه في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأ عسكرياً وسياسياً فاحشاً حين وافقت على الجلاء عن مصر تنفيذاً لصالح أميان Amiens (٢٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء في مارس ١٨٠٣ ثم استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين. فكان ذلك الإجراء الحربى البريطانى ذو الشقين - اقتحام المضائق لتقديم المطالب البريطانية كي يأخذ بها الباب العالى أو احتلال الإسكندرية، يقوم على استخدام الضغط ووسائل التخويف مع الحكومة العثمانية لجلها على قسم عرى «التحالف» مع فرنسا^(١). وقد عبرت وزارة الحربية البريطانية عن أهدافها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها «أرادت إكراه الباب العالى على التناقص من نفوذ فرنسا وحمله على إعادة علاقته مع بريطانيا العظمى والروسيا».

“... to compel the Porte to shake off the influence of France and to return to her connexion with Great Britain and Russia”.^(٢)

الأسطول البريطانى يقتحم المضائق:

تمكن دكورث من عبور الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور دون عناء ورسا بأسطوله أمام إستانبول في ١٩ من فبراير - شباط - سنة ١٨٠٧ كما سبق أن ذكرنا. ويلاحظ أن هذه هي المرة الوحيدة التي دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة المضائق

(١) دكتور محمد مؤاد شكرى: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨٦١ ثلاثة أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٢) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op. cit. وثيقة رقم ٥٤، ص ٦٦ - ٦٨، مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ من لورد كاشلر به وزير الحربية البريطانية إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة سقلية.

وهو في حالة « غير سلم » ، وسنرى بعد قليل أنه عجز عن اقتحام مصيق الدردنيل سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العالمية الأولى ، بعد هذا الحادث بأكثر من قرن من الزمان . ولما بلغ الأسطول مياه العاصمة كان شارل أربثنوت Charles Arbutnot السفير البريطاني قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين ، كما رحل عنها من قبله إيتالينسكي Italinsky السفير الروسي . وقدم قائد الأسطول البريطاني إلى الباب العالي مذكرة حكومته . وكان موقف الباب العالي ضيقاً حرجاً . ولم يكن حرج مركز الحكومة العثمانية راجعاً إلى أنها تفضل إحدى هاتين الدولتين العملاقتين على الأخرى . وهذا هو خطأ الراجع الفرنسية . وكانت تود لو تركها لشأنها الإنجليز والفرنسيون معاً . ولكن كان الطرفان يضغطان عليها ضغطاً لا هوادة فيه وكان عليها أن تفكر ملياً في تقدير الموقف السياسي والعسكري ، وهل خطر الإنجليز أكثر من خطر الفرنسيين أو العكس . وعمدت الحكومة العثمانية إلى أسلوبها الدبلوماسي المألوف وهو التسوية . ولم يكن في مقدورها طرد الجنرال سيباستياني Sebastiani السفير الفرنسي ، لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن نابليون في القارة الأوروبية كان طامعياً ، وبخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم في شرق أوروبا على مقربة من الممتلكات العثمانية هناك . وانتهت الحكومة العثمانية رأياً إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من خطر بريطانيا

ورأى قائد الأسطول أن الحكومة العثمانية لا ترد على مطالبه ، وأدرك أن هذا الصمت هو رفض للمطالب البريطانية ، ثم كان ما هو أشد خطراً . إذ لاحظ أن أعمال التحصينات العسكرية على ضفاف البوسفور والدردنيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسي يشرف عليها بشخصه ، ففكر دكورث في الخروج من منطقة المضائق والعودة من حيث أتى قبل أن يتحرج مركزه ويفلق الطريق على الأسطول . وكان تقدير دكورث للموقف الحرجي سليماً ، فأكاد يتحرك للخروج من منطقة المضائق في طريقه إلى البحر المتوسط حتى أتت مدفعية

للسواحل قذائفها على الأسطول وأصيبت بعض وحداته بعطب ، ولكنهم لم تفرق^(١) . وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ بمد أن استطل مكته في منطقة المضائق نحواً من اثني عشر يوماً. وقد جاء في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ وضعها وزير الحربية البريطانية أن دكورت وجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب بأسطوله من مياه البوسفور دون أن يحقق شيئاً ضد إستانبول . وعندئذ شرع دكورت ينفذ الشطر الثاني من خطة الحكومة البريطانية وهي إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية رفض الحكومة العثمانية الاستجابة للمطالب البريطانية فيبادر فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية . ويقع في خطأ المؤرخ الفرنسي الكبير إدوارد دريو Ed. Driault مدير معهد الدراسات النابليونية في باريس حين يذكر أن بريطانيا لم تحتل الإسكندرية إلا بعد أن عجزت عن احتلال إستانبول ، وأنها أرادت أن تموض فشلها الحربي في مياه البوسفور بنجاح عسكري على ضفاف النيل^(٢) .

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية في صقلية حملة قوامها زهاء خمسة آلاف جندي^(٣) بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser ولم يكن جميع جنود الحملة من الإنجليز ، بل كان من بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا خدمة الإنجليز^(٤) . وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية^(٥)

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C; op. cit. doc. no. 24, 7th March,] 1807. Duckworth to Fox.

(٢) Driault Ed; La Poltique Orientale de Napoléon. Paris

(٣) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C; op cit.,

وثيقة رقم ٧ ، ص ٦ .

(٤) الوثائق رقم ٩ ، ١٧ ، ٢٠ في المرجع السابق .

(٥) الوثائق رقم ١ ، ٧ ، ٩ ، ٣٦ ، ٧٧ في المرجع السابق .

ولو كان الإنجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا العدد الصغير يكفي لاحتلال البلاد، لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنوات قليلة سابقة^(١). ولما بانّت الحملة الإسكندرية^(٢) في ٦ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ استقرت على ثلاث قطع بحرية عثمانية كانت راسية في الميناء الغربي^(٣). وقد سلم المدينة إلى الإنجليز حاكمها أمين أغا ويسمى أيضاً أمين قبطان السكرتيل^(٤) بعد أن وقعت شروط التسليم^(٥). واحتل الإنجليز الميناء والمدينة وقلاعها وضواحيها^(٦) وحققوا الهدف الأساسي للحملة.

(١) كانت التجربة الأولى عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكانت تتكون من ٣٥ ألف جندي ولم يكن هذا العدد كافياً لسطح السيطرة الفرنسية التامة على مصر. وكانت التجربة الثانية عندما قرر الإنجليز الإسهام في إخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وكان معهم ١٢ ألف جندي كما كان معهم جيش عثماني.

(٢) لم تكن الإسكندرية حتى سنة ١٨٠٧ تتبع إدارياً حكومة القاهرة، بل كان يحكمها أحد العسكريين ويتم مباشرة قبوذين باشا، أي قائد عام الأسطول العثماني إلى استانبول. وبما يذكر أن أحمد حورشيد باشا - وهو آخر وال عثماني على مصر قبل عهد علي كان في أول أمره حاكماً على الإسكندرية ثم رقى والياً على مصر. وكان من نتائج احتلال الإنجليز الإسكندرية سنة ١٨٠٧ أن أصبحت الإسكندرية تابعة للحكومة القاهرة إدارياً، وكان أحمد علي هو المستفيد الوحيد من حملة فريزر.

(٣) وثيقة رقم ٣١ مؤرخة في ٢٣ مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ في المرجع المذكور في الحاشية رقم ١ في ص ٢١١ -

(٤) يلاحظ أن قائد البحارة البحرية العثمانية التي كانت راسية في الإسكندرية واسمها للأنجليز كان يسمى صالح أغا قومندان البحرية.

(٥) نشر دوان باللغة الإيطالية شروط التسليم، الوثيقة رقم ٢٧، ص ٢٣ - ٢٤ من المرجع السابق، ونشرها معربة الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكري، ج ٢، ص ٦٠٥ - ٦٠٦، ونشر الجبرتي صورة من شروط التسليم كما عرفت لأهل القاهرة في ذلك الوقت (الجبرتي ج ٤، ص ٤٥ - ٤٦ حوادث عرم سنة ١٢٤٢).

(٦) تضاربت الأقوال حول تاريخ تسليم الإسكندرية للإنجليز فنذكر هذه التواريخ ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢ من مارس - آذار - ١٨٠٧. لكن البلاغ الرسمي الذي أذاعه قيادة الحملة جاء فيه أن الاحتلال قد تم في يوم ١٦ مارس - آذار.

أنظر الوثيقة رقم ٢٦، ص ٢٢ - ٢٣ من :

وليست هذه الدراسة مجالاً لبحث الأسباب التي حملت قائد الحملة على مد العمليات الحربية إلى رشيد . وكان يزعم بعدها بعد ذلك إلى دمياط أيضاً^(١) .

(١) كان القنصل العام لبريطانيا في الإسكندرية - وهو الميجور ميسيت Major Misset رجلاً عسكرياً على درجة كبيرة من الحنق والغرور والجهالة بالمسائل العسكرية . وكان من أنصار ضم مصر إلى بريطانيا . وتعددت رسائله إلى الحكومة البريطانية في . المدة من سنة ١٨٠٣ إلى أوائل سنة ١٨٠٧ يطالبها باحتلال مصر . واما بلغت الحملة الإسكندرية اعتقد لحقه أن هذه القوة البريطانية المشيلة العدد تكفي لاحتلال مصر كلها . ولم يكف عن يومان على احتلال الإسكندرية حتى أرسل القنصل العام إلى وزيره يصف له خطورة الموقف التاموي للحملة نظراً لقلّة المواد الغذائية في الإسكندرية مما يمرض جنود الجنود للخط ، وذكر له أنه استطاع بصحبة مدير كمية من الأحموم تكفي تأمين جنود الحملة يوماً واحداً ، كما تكرر ذات المذكرة أنه استولى على جزء من القمح المخصص لاستهلاك سكان المدينة ، وأوضح له أن علاج الموت يتطلب ضرورة احتلال رشيد وارجانية ودمياط وترك حاميات بريطانيا فيها . ولما لمس القنصل العام من جانب قائد الحملة تردداً في تنفيذ اقتراحه ، أتب القنصل وبدأ من أعيان الإسكندرية لمقابلة وزيره وأوصحوه له القلق الذي يساورهم من نقص المواد الغذائية في المدينة . وذكروا له أنها تحصل على حاجاتها من داخل البلاد عن طريق الرحانية و رشيد . واقترع وزير هذه الأسانيد ، وجرّد للضرورة الحربية قوة برية من الحملة وجهها إلى رشيد ولقيت الهزيمة ولقي مصرعه الميجور جنرال وشوب Major General Wanchope قائد القوة الإنجليزية ، كما قُتل أربعاً من جنود بريطاني . (٣١ من مارس - آذار - ١٨٠٧) ووصف وزير هزيمة الإنجليز في رشيد بأنها صربة قاسية جدا وغير متوقعة a very heavy and unexpected stroke upon us وأرسل قوة ثانية استهدفت عدة أغراض منها : الغرض التمويحي ، الثأر لهزيمة رشيد ، والحفاظ على سمعة بريطانيا العسكرية ، وعهد قيادتها إلى الجنرال ستوارت Stewart ولقيت هزيمة منكرة في معركة الاتحاد (٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٠٧) وتراوح عدد القتلى والجرحى بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ ومخرج مركز الإنجليز ، والقوة المتبقية لديهم لا يتجاوز عددها ثلاثة آلاف ، وأولم يمد لهم في مصر سدق أو حليب وتمنر على بريطانيا لإرسال تعينات لهم . فاستقر رأي قائد الحملة على تركيز كل قواته في الإسكندرية . ولم يفتكر محمد علي في مهاجمة الإنجليز . وقد ألقى كل من قائد الحملة والقنصل العام مسئولية الهزيمة في رشيد والاتحاد على الآخر ، وتبادلا الاتهامات . وفي سياق الدفاع عن نفسه قال القنصل العام إن العالم ستعثره الدهشة حين يسم أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبي .

“ . . . the world will be astonished to hear that such a town as Rosetta could not be taken by an European army.

وقد تم جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في ١٩ من سبتمبر - أيلول - ١٨٠٧ وعادت إلى قواعدنا في جزيرة سفلية .

بريطانيا تصرف النظر عن إعادة اقتحام المضائق :

تولى وزارة الحرب البريطانية لورد كاسلريه Castlereagh في ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ حاناً لوند هام Windham . وقد انتقد الوزير الجديد الأسلوب الذي اتبعه سلفه في تنفيذ عملية اقتحام الدردنيل والبوسفور وإرسال جيش لاحتلال الإسكندرية . وقد وضع مذكرة سرية مؤرخة في ٨ من مايو - أيار - سنة ١٨٠٧ بعث بها إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية استعملها بعرض الملايسات التي أحاطت بحملة دكورث إلى منطقة المضائق . وقال إنه من الواضح أن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتعزيز الاستحكامات الدفاعية على سواحل منطقة المضائق منذ مدة طويلة سمحت بإرسال حملة دكورث ، وقد قاموا بهذه التعزيزات العسكرية تحت إشراف الخبراء الفرنسيين ، كما أن العثمانيين استطاعوا حشد قوات كبيرة للدفاع عن إستانبول مما يجعل أية عملية حربية أخرى عديمة الجدوى إلا إذا استطاعت بريطانيا حشد قوات تفوقها عدداً وعدة وبشرط ألا يؤثر حشدها على سلامة جزيرة صقلية . وذهب وزير الحرب إلى أن مثل هذه القوات المطلوبة من حيث حجمها تفوق الإمكانيات المتاحة لبريطانيا في البحر المتوسط حتى لو انضمت القوات الروسية المرابطة في جزيرة كورفو إلى القوات البريطانية . وتأسيساً على هذه الحقائق استقر رأي الحكومة البريطانية على صرف النظر عن إرسال حملة أخرى إلى المضائق ، وقررت تشديد الحصار على موانئ الإمبراطورية العثمانية وتضييق الخناق على تجارتها حتى تعود الحكومة العثمانية إلى صوابها وتستأنف علاقاتها الطبيعية مع بريطانيا^(١) .

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones, E.C.; op. cit.

رأى الخبراء العسكريين في حملة دكورث :

وفي تقرير نشر لأول مرة في سبتمبر ١٨٣٧ ، ١٨٣٨^(١) جاء فيه أن وجه الغرابة في حملة دكورث إلى منطقة المضائق أنها لم تسكن مصحوبة بقوات برية . وأن الجيش البريطاني الذي أرسل إلى الإسكندرية لاحتلالها كان يجب توجيهه أصلاً وأساساً مع الأسطول البريطاني إلى منطقة المضائق وإستقنول بدلا من الإسكندرية ، وأن هذا هو وجه الخطأ الذي وقع فيه المخططون لحملة دكورث . فإن وجود جيش مع الأسطول كان يسدى أجل الخدمات للحملة البريطانية ، لأن الجيش كان في استطاعته احتلال بعض النقاط أو المراكز الإستراتيجية في منطقة المضائق بحيث تؤمن هذه المراكز انسحاب الأسطول ، كما أن وجود جيش بريطاني كان يضيف مزيداً من الأهمية والتأثير حين ظهر الأسطول في مياه البوسفور تجاه إستقنول وبخاصة أن المفاوضات التي كان مزمعاً إجراؤها كانت مفاوضات مسلحة . وجدير بالذكر أن هذا الرأي الذي ورد في ذلك التقرير قد سبق أن أفصح عنه لورد كاسلريه وزير الحربية البريطانية في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ والتي سبق أن أشرنا إليها .

تقسيم منطقة المضائق يحبط مشروع اقتسام الدولة :

من المشروعات التي فسكر فيها نابليون عقب انتصاره على قوات روسيا وبروسيا في موقعة فريدلانند (Friedland) (١٤ من شهر يونيو - حزيران -

(١) عنوان هذا التقرير :

Notes on an Expedition to Alexandria in the Year 1807.

وقد نشر في United Service Journal ويتصح من دراسة هذا التقرير أن واضعه ، الذي لم يكشف عن شخصيته واكتفى باسم عام هو مايلز Miles ، كان معاصراً لأحداث حملة دكورث وأنه كتبه في موضوعية وحيدة ودقة .

وقد أعاد نشر هذا التقرير الضالفي المؤرخ الفرنسي دوان ورميلته مدلم فونير جونس في كتابها L'Angleterre et l'Egypte, op. cit., pp. 183-235.

(١٨٠٧) إعداد حملة برية فرنسية روسية مشتركة لثغزو الهند . وسواء كان هذا المشروع يستهدف حقيقة غزو الهند أو كان مشروعاً خيالياً أراد به نابليون إرهاب بريطانيا لإجبارها على قبول السلم في أوروبا وفق الأوضاع التي أراد فرضها ، فقد اقترن هذا المشروع بمشروع آخر يرمى إلى تقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية الكبرى . وقد عرض فكرة هذا المشروع هاردنبورج Hardenbourg وزير خارجية بروسيا على كل من نابليون وقيصر روسيا إسكندر الأول . وكان الباعث له على تقديم هذا المشروع أن ظال بلاده - بروسيا - حظاً مضاعفاً من المكاسب والمزايا : فهي تستولى على نصيب من ممتلكات الدولة العثمانية^(١) وفي ذات الوقت يشغل نابليون وقته وجهده في هذا المشروع فيبتعد عن مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في غرب أوروبا بمامة وبروسيا بخاصة .

ولم يرفض نابليون مشروع اقتسام ولايات الدولة العثمانية لأول وهلة ، ولم يقبله لأول وهلة ، وهذا دائماً شأن الرجل السياسي الحصيف وشأن الرجل العسكري المتزن . وقد عهد إلى سفيره لدى قيصر روسيا بمناقشة موضوع اقتسام أملاك الدولة العثمانية في حالة موافقة القيصر على مشاركة فرنسا في تسيير حملة برية مشتركة ضد بريطانيا إلى الهند . وقد وافق القيصر على اقتراح نابليون بخصوص الحملة المشتركة ، وكان قد تلقى خطاباً في فبراير - شباط - ١٨٠٨ أوضح فيه نابليون أهداف الحملة ومسارها وفوائدها ، ثم انتقل القيصر والسفير الفرنسي لمناقشة الموضوع الثاني . ولكن لم تسكد تبدأ مناقشة التفاصيل حتى تعذر الاتفاق

(١) جاء مشروع تقسيم أملاك الدولة العثمانية عام ١٨٠٨ على النحو التالي :

الروسيا : بلغاريا - ولاشيا - مولدافيا - إستانبول مع البوسفور والدردنيل

فرنسا : بلاد اليونان وجرر الأرشيبيل

النمسا : البوسنة والمهرسك وسائر أنحاء الصرب

بروسيا : سكسونيا

ملك سكسونيا : يستولى على بولندا بعد إعادة تكوينها ،

حول مسألة المضائق . فقد تمسك القيصر بأن تؤول إلى بلاده منطقة المضائق ، بينما أصر السفير الفرنسي على أن تكون منطقة المضائق من نصيب بلاده . ولما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود اقترح السفير الفرنسي حلاً وسطاً من وجهة نظره ، وهو أن تستولى روسيا على مدينة إستانبول والبوسفور الذى تطل مياهه على العاصمة ويعدى ذات الوقت المخرج من البحر الأسود وأن تستولى فرنسا على الدردنيل الذى يؤدى إلى البحر المتوسط . ومن المعروف أنه يقع على مقربة من الدردنيل فى هذا البحر مجموعة من الجزر ذات أهمية إستراتيجية بالغة تجعل منها قواعد عسكرية من الطراز الأول . وقد رفض هذا الاقتراح ووصفه بأنه غير عملى . وكان مما قاله إن أياً من البوسفور والدردنيل لا قيمة له بدون الآخر . وكانت مسألة ملكية المضائق هى الصخرة التى تحطم عليها مشروع اقتسام أملاك الدولة العثمانية فى عام ١٨٠٨ (١) .

(ح) معاهدة الدردنيل بين الدولة العثمانية وبريطانيا (١٨٠٩) :

كان صلح تلسيت Tilsit الذى أمضيت شروطه فى السابع من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول قيصر روسيا قد أطاح بالتقارب البريطانى الروسى ، ومهد الطريق لقيام تقارب بين الدولة العثمانية وبريطانيا . ومن ثم عقدت بين هاتين الدولتين فى الخامس من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٠٩ معاهدة الدردنيل ، أطلق عليها أيضاً معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance وقد قررت هذه المعاهدة إعادة سريان المعاهدات والاتفاقيات التى سبق عقدها بين الدولتين فيما يختص بنظام الامتيازات الأجنبية والتجارة فى البحر الأسود ، واعتبار هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية منذ إبرامها ، وكأنها لم تتعرض لفترة

توقف أو تعطيل أو إلقاء (المادة ٤) ، كما نصت هذه المعاهدة على منع السفن الحربية في وقت السلم وزمن الحرب من عبور المضائق والدخول في البحر الأسود . وبذلك أصبحت بريطانيا أول دولة أوروبية تعترف بحق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية في جميع الأوقات « بشرط أن تراعى كل دولة في المستقبل هذا النظام القديم في الإمبراطورية العثمانية »^(١) . وبذلك أكدت معاهدة الدردنيل ركناً رئيسياً من أركان السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتمسك به في عصور قوتها .

(ط) معاهدة أدرنة بين الدولة العثمانية والروسيا ١٨٢٩ :

وتطورت الثورة التي قام بها الشعب اليوناني طلباً للاستقلال تطوراً أدى إلى نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا في السادس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ وانتهت بإبرام معاهدة أدرنة في الرابع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التجارية من أى حجم الحق في المرور عبر المضائق وفي الملاحة في البحر الأسود وفي التمتع بحرية التجارة فيه ، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التي تكون في حالة سلم مع الدولة العثمانية . ونصت المعاهدة أيضاً على أن تصبح ولاية الأفلاق والبشدان - رومانيا حالياً - مستقلتين في إدارتهما الداخلية تحت حماية روسيا^(٢) . وكان هذا النص تدعياً لمركز روسيا في البحر الأسود

(١) تجرد النص الرسمي والسهام لهذه المعاهدة و :

Hurewitz, J.G.; op. cit., t, I, pp, 81—84.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول و ٢٧ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٩ .

(٢) أصبحت الرابطة الوحيدة التي تربط هاتان الولايتان بالدولة العثمانية تنحصر في حق السلطان في تعيين أمراء الهوسپدار Hospodars الحاكمين ، وفي دفع الحزبة السنوية للمال .

كإحدى دول هذا البحر، ونجم عن هذا النص أن تقلصت السيادة العثمانية عن جميع مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود^(١) مما يعد خروجاً على السياسة العليا للدولة.

(ى) معاهدة تجارة وملاحة بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة

الأمريكية (١٨٣٠) :

و في غمار أطماع بعض الدول وتطلعات البعض الآخر عقدت الدولة العثمانية مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارة وملاحة Treaty of Commerce and Navigation في السابع من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٠ تقرر فيها معاملة سفن الولايات المتحدة معاملة سفن الدول الأكثر رعاية وذلك بمنحها الحق في عبور المضائق والدخول إلى البحر الأسود والخروج منه سواء كانت هذه السفن محملة أو غير محملة^(٢).

(ك) معاهدة هنكار إسكلسي بين الدولة العثمانية والروسيا (١٨٣٣) -

وعلى أثر الانتصارات التي حققتها الجيش المصري على الجيش العثماني في حرب الشام الأولى عقدت الدولة العثمانية في الثامن من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٣٣ مع روسيا معاهدة تحالف دفاعي هي معاهدة هنكار إسكلسي Hunkar Iskelesi وكان النص الرسمي لهذه المعاهدة قد وضع باللغة الفرنسية وحاول كل فريق بعد ذلك في ترجمته لمواد المعاهدة أن يفسرها طبقاً لمصاحته ،

(١) Miller, W.; op. cit., pp. 130-131.

(٢) نجد النص الرسمي والسكامل لهذه المعاهدة في:

Hurewitz, J.C.; op. cit., t. I., pp. 102-105.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٥ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٣١ .

ونشأت عن ذلك ثلاثة تفسيرات مختلفة يطابق عليها ثلاث مدارس . ولن نخوض فيها في هذه الدراسة . وقد تقرر أن تكون مدة التحالف الدفاعي ثمانى سنوات . وقد ألحقت بالماهدة مادة سرية نصت على أن ينلق السلطان المضايق في وجه أية سفينة حربية أجنبية ما عدا السفن الروسية الحربية التي يسكون لها وحدها دون سواها من السفن الأجنبية حق عبور المضائق ^(١) . وقد أنشأت هذه الماهدة للروسيا مركزاً ممتازاً في الدولة العثمانية وعصفت بالسياسة العليا للدولة . ودخلت وحدات من الأسطول الروسي إلى البوسفور في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٣٣ ثم قدمت حملة روسية بحرية وبرية إلى البوسنور وأذنت حكومة السلطان للقوات البرية في أن تمسك على الساحل الآسيوي بحجة حماية السلطان من واليه الثائر محمد علي باشا . وكان عام ١٨٣٣ سنة مهمة لأن روسيا سيطرت فيها للمرة الأولى والأخيرة على إستانبول وعلى المضائق العثمانية . وإذا كان خطر محمد على قد ذهب إلى حين ، فقد ظل خطر الروس قابلاً في منطقة المضائق عاصماً بالسياسة العليا للدولة .

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا إلى الماهدة على أنها أداة تجعل من الدولة العثمانية دولة تسير في ركاب روسيا ، ولذلك بادرتا في السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٣٣ إلى الاحتجاج رسمياً لدى الباب العالي على عقد هذه الماهدة ^(٢) .

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة في

Hurewitz J.C., op. cit., vol. pp.105-106

وقد تم تبادل وثائق التصديق عليها في إستانبول و ٢٠ من أغسطس - اب - ١٨٣٣

Op. cit., p. 106.

(٢)

Miller W.: op. cit., pp. 147-148 .

(ل) معاهدة لندن بين الدولة العثمانية وأربع دول أوروبية (١٨٤٠) :

وإن معاهدة لندن التي أبرمت في الخامس عشر من شهر يوليو - ١٨٤٠ سنة ١٨٤٠ بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة المصرية وإنهاء النزاع بين السلطان ومحمد علي - وقد انضمت فرنسا إلى هذه المعاهدة في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ فأصبحت معاهدة جماعية سداسية - وردت في أكثر من موضع نصوص صريحة على أن الباب العالي يلتزم التزاماً دقيقاً بمنع السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضائق . وجاء في هذه المعاهدة أنه إذا أهدم محمد علي والى مصر على توجيه قواته البرية والبحرية للزحف على إستانبول ، فإن الدول الأطراف في المعاهدة توافق - بناء على الطلب الصريح الذي يصدر عن السلطان - على الاستجابة لطلبه وتتخذ الإجراءات لحماية عرشه عن طريق التعاون الذي يتم بموافقة مشتركة من الدول الموقعة على المعاهدة ، وبذلك تصبح المضائق وكذلك باقى الأراضى العثمانية فى مأمن من كل اعتداء . كما تقرر أن تظل قوات الدول المتماقدة مرابطة فى مواقعها طالما كان وجودها أمراً يطلبه السلطان العثمانى . وحين يرى الأخير أن وجود تلك القوات أصبح أمراً غير ضرورى ، فإنها تنسحب فى وقت واحد وتعود إلى مواقعها الأصلية سواء فى البحر الأسود أو البحر المتوسط (مادة ٣)

وورد فى المعاهدة أيضاً أن التعاون المشترك بين الدول الموقعة عليها والهادف إلى وضع المضائق وإستانبول فى مأمن من العدوان المصرى يمد إجراء عسكرياً استثنائياً اتخذ فى هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان للدفاع عنه . ومن المتفق عليه أن مثل هذا الإجراء لا ينتهض بأية درجة وهلى أى نحو من النظام الذى درج عليه الحكم فى جميع الأوقات فى الإمبراطورية العثمانية ، وبمقتضاها كانت تمنع السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق . ونصت المعاهدة على أنه فيما يتعلق بالحالة المشار إليها وهى مرابطة قوات الدول الموقعة عليها ، فى المضائق ،

فإن السلطان يعلن قراره الثابت بأن يلتزم في المستقبل بهذا المبدأ الذي أرسيت قواعده إرساء لا يتغير كنظام قديم سار عليه الحكم في الإمبراطورية العثمانية . وطالما كان الباب العالي في حالة سلم ، فإنه لا يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق وعبورها . ومن ناحية أخرى فإن أباطرة وملوك الدول الموقعة على المعاهدة يتعهدون باحترام قرار السلطان والالتزام بهذا المبدأ (المادة الرابعة)

وألحق بالمعاهدة بروتوكول جاء فيه أن السلطان مع التزامه بمنع جميع السفن الحربية الأجنبية من عبور المضائق في جميع الأوقات فإنه يحتفظ لنفسه بالحق في إصدار تصاريح بالمرور عبر الدردنيل والبوسفور للسفن الحربية الخفيفة الموضوعة في خدمة السفارات والتفصليات التابعة للدول الصديقة (١) .

ووقعت بريطانيا والنمسا والروسيا وروسيا في السابع عشر من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٤٠ بروتوكولا أطلق عليه بروتوكول انتفاء النرض Self-Denying Protocol ألحق بمعاهدة لندن وقررت فيه هذه الدول الأربع - إذ لم تكن فرنسا قد انضمت بعد إلى المعاهدة - ألا يسمى أي منها للحصول على أراضي أو الاستئثار بعمود أو الظفر بامتيازات تجارية لرعاياها لم تحصل عليها كل دولة أخرى على قدم المساواة (٢) .

(م) اتفاقية المضائق (١٨٤١) :

كان انضمام فرنسا في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ إلى معاهدة لندن المبرمة في الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - من السنة السابقة كفيلا

(١) نجد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. ٤, I, pp. 116—119.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في لندن في ١٧ سبتمبر - أيلول - ١٨٤٠ .

(٢) Thomas Erskine Holland, The European Concert (٢) in the Eastern Question, Oxford. 1885, p, 97

بعودة وحدة الصف إلى الدول الأوروبية الكبرى فيما يختص بتسوية المسألة الشرقية. فلما انتهت الأزمة العثمانية المصرية توصلت الدول الكبرى الست - وهي الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وبروسيا - إلى عقد اتفاقية جماعية في الثالث عشر من شهر يوليو - تمور - سنة ١٨٤١ ومن ثم أطلق عليها إتفاقية لندن بخصوص المضائق *Convention of London regarding the Straits* وقد أرسيت هذه الاتفاقية نظاماً للمضائق ظل معمولاً به بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤. وتقع الاتفاقية في ثلاث مواد. نصت الأولى على أن السلطان، من ناحية، يمان تصميمه الثابت على أن يلتزم في المستقبل بالمبدأ الذي أرسيت قواعده من قبل ولم يتغير كمنظام قديم في حكم الإمبراطورية، وبمقتضاه حرم في جميع الأوقات على كل السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية دخول المضائق، وأنه طالما كان الباب العالی في حالة سلم، فإن السلطان لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق. ومن ناحية أخرى يمان أباطرة وملوك الدول الموقعة على الاتفاقية أنهم يتعهدون باحترام تصميم السلطان وبالإلتزام بهذا المبدأ. واحتفظ السلطان لنفسه في المادة الثانية بحق منح تراخيص بمرور السفن الحربية الخفيفة التي سوف تستخدم، وفقاً للعادة المتبعة، في خدمة السفارات والقنصليات التابعة للدول الأجنبية. والتزم السلطان في المادة الثالثة بتبليغ هذه الاتفاقية إلى جميع الدول التي تربطه بها علاقات صداقة يدعوهم إلى الموافقة عليها^(١). وكانت هذه الاتفاقية الدولية الجماعية تتمشى نصاً

(١) نجد النص الرسمي لهذه الإتفاقية و.

Hurewitz, J.C.; op. cit., p. t I, p. 123

انظر أيضاً كلامي :

Gorainow, S.; Le Bosphore, chap. 10.

Phillipson, G. and Buxton N.; The Bosphorus, part 2, chap 4.

Webster, G.; The Foreign Policy of Palmerston (1830—1841), vol 2, pp, 758—767.

Mischef, P.H.; La Mer Moire, chap. 5

Shotwell, J.T. and Deak F.; Turkey at the Straits, chap 4

وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على المضائق . واكتسبت الدولة العثمانية قوة دولية بنسترك خمس دول أوروبية كبرى معها في تقرير حق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية . وتمتبر هذه الاتفاقية نصراً للدبلوماسية البريطانية ، لأنها — أى الاتفاقية — قد ألقت ضمناً مهادنة هتكار أسكسى التى كانت تعطى روسيا امتيازاً عسكرياً خطيراً انفردت به دون سائر الدول ، فوفقت هذه الاتفاقية الجماعية سداً مقيماً في وجه الأطماع الروسية التى كانت ترمى إلى تحقيق نوع من السيطرة العسكرية على المضائق والاستيلاء على إستانبول في نهاية المطاف ، سواء بالاشتراك مع الدولة العثمانية في الدفاع عن المضائق أو بعبور أسطولها الحربى البوسفور والدردييل .

(ن) مهادنة بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا لتقديم مساعدات

حربية دفاعاً عن المضائق (١٨٥٤) :

ولما اندلعت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروسيا في سنة ١٨٥٣ استطاع الأسطول الروسى في ٣٠ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٨٥٣ تدمير قوة بحرية عثمانية كانت راسية تجاه سينوب Sinope — وهي ميناء عثمانى على الساحل الجنوبي للبحر الأسود — وأثارت هذه الكارثة طائفة من السخط في أوساط الرأى العام في إنجلترا ضد الروسيا ، وأطلق الشعب الإنجائيزى على هذه الواقعة : مذبحه سينوب Massacre of Sinope ، وقامت مظاهرات في إستانبول تطالب بالنار من الروسيا . وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية

قد أمرتا في ٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عندما تدهور الموقف بين الدولة العثمانية والروسيا - الأسطولين البريطاني والفرنسي بالتحرك نحو خليج بيزيكا Basika خارج الدردنيل ليكونا على مقربة من مسرح الأحداث . وأذنت الحكومة العثمانية للأسطولين في اجتياز منطقة المضائق بصفتها قوات حليفة تقف إلى جانب الدولة ضد الروسيا والتي كانت قد قامت بعدوان على بعض ممتلكاتها واحتلت ولايتي الدانوب - الأفلاق والبغدان - وأظهر الشعب التركي العثماني مظاهر الابتهاج بوصول وحدات من الأسطولين البريطاني والفرنسي واستقبلهما على ضفاف البوسفور استقبالا حماسيا . وترتب على معركة سينوب أن دخل الأسطولان البريطاني والفرنسي البحر الأسود في ٤ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٤ (١) واشتعلت الحرب في شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٤ بين الروسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ثم مملكة سردينيا أو بيدمنت فيما بعد من ناحية أخرى (٢) .

وفي الثاني عشر من شهر مارس عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت على تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا أطلق عليها معاهدة من أجل المساعدة العسكرية للباب العالي Treaty of Military Aid to the Sublime Porte جاء فيها أن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا قد استجابا لطلب السلطان

(١) تذكر بعض المراجع أن الأسطولين البريطاني والفرنسي دخلا البحر الأسود في نهاية أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٥٣ .

(٢) انظر تفاصيل الاتصالات الدبلوماسية المكتشفة بين الدول الكبرى ، ثم المذكرة المشهورة التي عرفت باسم النقط الأربع ، وهي المذكرة التي وجهت دبلوماسية حرب القرم . وكان من بين هذه النقط وأهمها النقطة الثالثة وهي إعادة النظر في اتفاقية المضائق لعام ١٨٤١ من أجل حفظ وتحقيق توازن القوى في أوروبا وللحد من تفوق الروسيا البحري في البحر الأسود . ثم اجتماع مؤتمر فيينا في ١٥ من مارس - آذار - عام ١٨٥٥ في أثناء الحرب .
أنظر هذه التفصيلات وغيرها في كل من :

Miller W. ; op. cit., pp. 199—242.

دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ،

ص ص ٣٤ - ٤٩ .

(م ١٥ - الدولة العثمانية)

مساعدته لصد العدوان الروسي الذي هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية ،
وأنها قد أمرا قواتهما البحرية بالتقدم نحو إستانبول ، وقواتهما البرية
للدفاع عن الأراضي العثمانية في أوروبا وفي آسيا ضد هذا العدوان (المادة
الأولى) . وقررت المعاهدة أنه حالما يتحقق هدف المعاهدة بإنزال الذريعة
بالقوات الروسية وعقد الصلح ، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا يتخذان
التدابير للانسحاب الفوري ، لقواتهما البحرية والبرية التي اشتركت في الحرب .
وحددت المعاهدة لجلاء القوات البريطانية والفرنسية فترة أربعين يوماً أو
أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع
الروسيا (١).

(س) معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضائق والبحر الأسود :

أسفرت حرب القرم بعد سقوط سباسبول في ٨ من سبتمبر - أيلول -
١٨٥٥ في يد الحلفاء ، وكانت إمكة سردينيا قد انضمت إليهم ، عن معاهدة
باريس في الثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦ . ويهمننا في هذه
الدراسة المواد المتعلقة بالمضائق والبحر الأسود .

أكدت معاهدة باريس المبدأ التقليدي ، وهو منع الدفن الحربية الأجنبية
من المرور في المضائق . وقالت إن الدولة العثمانية لا تحيد عن هذا المبدأ ،
وإن اتفاقية المضائق التي عقدت في ١٣ من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٤١
والتي تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقعة على معاهدة باريس وتعتبرها
من ملاحق هذه المعاهدة ، ولها نفس القوة والمشروعية ، وإنها تشكل جزءاً
لا ينفصل عن المعاهدة (المادة العاشرة) . وهكذا أكدت معاهدة باريس
السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يخص بالمضائق . وكانت المادة العاشرة من
تلك المعاهدة نصراً للدولة .

(١) تحد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op cit , vol 1 ; pp 144—145

وعد تم تبادل وتائق التصديق على المعاهدة في إستانبول في الثامن من شهر مايو - آيار

- عام ١٨٥٤ .

وقررت المعاهدة أيضاً أن يكون البحر الأسود بحراً محايداً في مياهه وموانئه ومنفوحاً للدفن التجارية التابعة لجميع دول العالم ، ولكن تظل مياهه وموانئه رسمياً وإلى الأبد منطقة محرمة على السفن الحربية سواء سفن الدول التي لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه فيما عدا استثناءين وردا في المادتين رقم ١٤ ورقم ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) . ونصت المعاهدة على ألا تقام عوائق أمام التجارة في موانئ ومياه البحر الأسود وعلى ألا تخضع هذه الموانئ والمياه إلا للوائح الصحية والعادات ونظم الشرطة التي توضع بروح تستهدف نمو المعاملات التجارية ، ولكي يتوفر الأمان المطلوب أمام المصالح التجارية والبحرية لكل الدول ، تسمح الدولة العثمانية والروسيا بتعيين قناصل للدول الأجنبية في الموانئ الواقعة على سواحل البحر الأسود في النطاق الذي تجيزه قواعد القانون الدولي العام (المادة الثانية عشرة) . وقالت معاهدة باريس أيضاً إن إنشاء ترسانات بحرية حربية على سواحل البحر الأسود أو الإبقاء على الموجود منها يصحح أمراً لا مبرر له تأسيساً على حيطة البحر الأسود . وبناء على ذلك تتعهد الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية على سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشرة) (١) وهكذا حافظت معاهدة باريس إلى حد كبير على السياسة العليا للدولة العثمانية حين جمعت البحر الأسود منطقة محرمة على السفن الحربية التابعة لجميع الدول بما فيها الروسيا .

(ع) اتفاقية جماعية خاصة بالمضايق عام ١٨٥٦ :

وفي ذات اليوم الذي أبرمت فيه معاهدة باريس (٣٠ مارس - آذار - عام ١٨٥٦) عقدت اتفاقية خاصة بالمضايق وقعتها جميع الدول الأطراف في معاهدة باريس ، وجاء فيها أن السلطان يعلن عن عزمه الثابت على التمسك في قابل الأيام بالمبدأ الذي أرسيت قواعده وهو مبدأ غير قابل للتغيير ، وهو مبدأ خاص بالنظام الذي جرى عليه العمل في حكم الإمبراطورية

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, pp. 153—156

وقد تم تبادل وناثق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٧ من أبريل - نيسان - ١٨٥٦

العثمانية ، وبمقتضاه منعت في جميع الأوقات السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق ، وأنه طالما كان الباب العالي في حالة سلم فإنه لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق . ومن ناحية أخرى فإن جميع الدول الموقعة على معاهدة باريس تتعهد باحترام هذا القرار من جانب السلطان وبالالتزام بهذا المبدأ (المادة الأولى) . وقد استبقى السلطان في هذه الاتفاقية حقه الاستثنائي القديم في السماح بمرور المراكب الحربية الخفيفة الموضوعة في خدمة السفنارات والقنصليات (المادة الثانية) . واستحدثت الاتفاقية استثناء آخر خاصاً بالسفن الحربية الأجنبية التابعة للدول الموقعة على معاهدة باريس والمسموح لكل منها بالمرابطة في مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود ضمناً لتنفيذ اللوائح الموضوعية لكفالة حرية الملاحة في هذه النهر بحيث لا يزيد عدد هذه السفن عن اثنين لكل دولة (المادة الثالثة) (١) وقد ألحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس .

(ف) اتفاقية ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية لكل منهما في البحر الأسود (١٨٥٦) .

وعقدت في ذات اليوم أيضا اتفاقية ثنائية بين الدول العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية التي تحتفظ بها كل منهما في البحر الأسود لمدة سواحلها المطلية عليه بحيث لا تتجاوز أية دولة منهما العدد المقرر للسفن الخفيفة وقوتها وحجمها وحولتها وعدد أفرادها . وهي تفاصيل حددتها المادة الثانية من الاتفاقية (٢) . وقد تقرر إلحاق هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس على أن تكون لهذه الاتفاقية نفس القوة ونفس المشروعية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعاهدة . وتأسيساً على هذا الوضع القانوني لهذه الاتفاقية الثنائية العثمانية الروسية ، تقرر عدم إلغائها أو تعديلها بدون موافقة الدول الأطراف في معاهدة باريس (المادة الرابعة عشرة) .

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 156

Loc. cit.

(٢)

(ص) معاهدة جماعية لضمان تنفيذ أحكام معاهدة باريس ١٨٥٦

ورغبة في إضفاء مزيد من الضمانات لتنفيذ أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، ورغبة في تبديد كل أمل قد راود الروسيا في تعديل أو إلغاء أو تجاهل المواد الخاصة بالمضايق وتحييد البحر الأسود ، وقعت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا والنمسا معاهدة في الخامس عشر من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ جاء فيها أن الدول الثلاث تضمن استقلال وسلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأن كل إخلال بأية مادة من مواد معاهدة باريس يكون سبباً للحرب *Casus Belli* . وفي هذه الحال تتفق الدول الثلاث مع الدولة العثمانية على الإجراءات التي ترى هذه الدول الأربع أنها ضرورية لاستخدام قواتها البرية والبحرية (١) .

(ق) معاهدة لندن (١٨٧١) لتعديل أحكام معاهدة باريس بخصوص

المضايق والبحر الأسود .

وقد تحققت مخاوف الدول الكبرى من نيات روسيا نحو مسألة المضايق والبحر الأسود . فقد انتهز إسكندر الثاني قيصر روسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) فرصة اندلاع الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا ، وتحرك دبلوماسياً ، وطالب الدول الكبرى بتعديل النصوص التي وردت في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ والخاصة بمسألة المضايق والبحر الأسود . وكان هذا القيصر يعتبر ماورد بشأن هذه المسألة في تلك المعاهدة وصمة عار في تاريخ بلاده . واختار لتحركه الدبلوماسي وقتاً عصيباً ، إذ كانت الأعصاب مشدودة لتطور الموقف العسكري والسياسي في أوروبا وعجز فرنسا الجريحة وقتذاك عن الانضمام إلى بريطانيا أو غيرها من الدول في وجه روسيا . فتقدم إلى الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس بملذكرة مؤرخة في ٣١ من أكتوبر

(١) تحد نص هذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., ti. I., p. 156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٩ أبريل - نيسان - ١٨٥٦ .

تشرين أول - ١٨٧٠ وأردفها بأخرى مؤرخة في أول نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٧٠ (١) قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت روسيا في مركز سيء بالنسبة لبقية الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهو الملاك برى نفسه مضطراً لأن يجيز لنفسه أن يعلن أن الاتفاقية التي تحدد عدد وحجم نوعية السفن الحربية التي يكون للدولة العثمانية وللروسيا الحق في الاحتفاظ بها في البحر الأسود - وهي الاتفاقية الملحقة بمعاهدة باريس والتي أشرنا إليها من قبل تحت بند ف - أصبحت غير ذات موضوع . وكان لهذا التصرف الروسي وقع سيء للغاية في الدوائر البريطانية التي اعتبرت تصرف القيصر إهداراً لمبدأ احترام المعاهدات الدولية وعملاً انفرادياً من جانبه . وتدخل بسمارك المستشار الألماني ، واقترح عقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في النصوص الخاصة بمسألة المضائق والبحر الأسود . وكان بسمارك يريد مكافأة روسيا لأنها التزمت الحيطة في أثناء الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا . وانصاعت بريطانيا لرأى المستشار الألماني (٢) . وعقد مؤتمر في لندن في المدة من ١٧ يناير - كانون ثان - إلى ١٣ مارس - آذار - سنة ١٨٧١ أسفر عن عقد معاهدة جماعية من الدول الكبرى في الثالث عشر من شهر مارس - آذار ١٨٧١ عرفت باسم معاهدة لندن . رتقرر فيها إلغاء النصوص الخاصة بحيدة البحر الأسود والمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، والتي سبق أن بسطنا مضمونها عند التعرض لمعاهدة باريس ، كما ألغيت الاتفاقية الخاصة بتحديد القوات البحرية للدولتين في البحر الأسود . وحلت النصوص الآتية محل المواد الملغاة والاتفاقية النائية الملغاة .

تقرر في معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ أن يظل نافلاً مبدأ غلق المضائق على النحو الذي كان مقرراً في الاتفاقية المنصلة والمعقودة في ٣٠ مارس - آذار - ١٨٥٦ ، وتخويل السلطان العثماني الحق في فتح المضائق في أوقات السلم أمام السفن الحربية التابعة للدول الصديقة والمتحالفة في حالة إذا رأى الباب

(١) Sir Edward Hertslet ; Map of Europe, vol. 3 pp. 1892—1897

(٢) Shotwell J.T. and Deak . ; Turkey at the Straits, chap. 6

العالي أن مرور مثل هذه السفن في المضائق أمر يضمن تنفيذ أحكام معاهدة باريس (المادة ٢) ، كما نصت المعاهدة على أن يظل البحر الأسود بحراً مفتوحاً أمام التجارة البحرية لجميع الشعوب (المادة ٣) ، وقررت المعاهدة أن الدول الأطراف فيها تجدد وتؤكد كل الشروط الواردة في معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ من مارس - آذار - ١٨٥٦ وكذلك ملاحقتها التي لم يمسهما إلغاء أو تعديل في المعاهدة الجديدة ١ (المادة) .

(ر) معاهدة برلين (١٨٧٨) .

أيدت معاهدة برلين التي عقدت في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨ النصوص التي لم تتعرض للإلغاء أو التعديل في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ وفي معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ (٢) وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بجديد على نظام عبور السفن التجارية والحربية والملاحة في البحر الأسود . وظلت أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ تحكم نظام العبور والملاحة . وسارت الأمور سيراً عادياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فلم تقع سوى مخالقات قليلة للنظم المقررة حين مرت في المضائق سفن روسية في أثناء الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، وكانت في طريقها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط لتجتاز قناة السويس . وكانت هذه السفن الروسية تحمل العلم التجاري الروسي على الرغم من أنها كانت تحمل قوات وذخائر وأسلحة (٣) . وحدث أيضاً أن قامت السلطات العثمانية ببث الألغام في مياه المضائق في أثناء الغزو الإيطالي لولايتي برقة وطرابلس في سنة ١٩١١ فتعطل المرور في المضائق . وكان سندها في ممارسة

(١) تجدد نص المعاهدة في :

Hurewitz J.C., op. cit. t.I. pp 173—174

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في لندن في ١٥ مايو - آيار - سنة

. ١٨٧١

(٢) دكتور محمود سامي جنيته ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٢ .

هذا الإجراء الحربى حق الدفاع عن النفس ورغبةًها فى الحيلولة دون مرور السفن الحربية الإيطالية فى منطقة المضائق (١) .

الروسيا تسمى إلى احتلال المضائق :

حاولت الروسيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر خلق حالة دولية خطيرة تتيح لها احتلال البوسفور والدرديبل . وفى ٢١ من فبراير -شباط- سنة ١٩١٤ عقد اجتماع هام للغاية فى سان بطرسبرج برئاسة قيصر الروسيا حضره قادة الجيش والأسطول وكبار رجال السياسة لبحث مشكلة المضائق (٢) . وانتهوا فى هذا الاجتماع إلى أنه يجدر بالحكومة الروسية أن تتخذ الإجراءات لضمان سيطرتها العسكرية على البوسفور والدرديبل ، وألا يكون أسلوبها فى العمل لبلوغ هذه الغاية هو تاريخ الصراع الحربى المحلى المحصور بينها وبين الدولة العثمانية ، وإنما يتعين عليها إثارة أزمة سياسية مع الأتراك والسعى لتصعيد هذه الأزمة حتى تنقلب إلى حرب أوروبية تتخذها الروسيا ذريعة لإرسال قواتها المسلحة لاحتلال البوسفور والدرديبل فى وقت مبكر بحيث يكون فى يدها زمام المبادرة ووضع الأتراك والدول الأوروبية أمام الأمر الواقع . وكان هناك رأى يقول إنه يجب بصفة مؤقتة خلق جو سياسى موات للقيام بأى عمل يؤدى إلى احتلال المضائق .

وقد كتب السفير الفرنسى فى إستانبول إلى حكومته يقول إن قيصر الروسيا يرى أنه يجب إعادة فتح المضائق حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة (٣) . وكان قيصر الروسيا يعلق أغذب الآمال على فرنسا فى مساعدته على الوصول إلى اتفاق وثيق مع بريطانيا . ومن المعروف أن هذه الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا والروسيا كانت تؤلف فيما بينها

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٣ .

(٢) Montgelas M., The Case for the Central Powers. 1925, pp. 94—95

(٣) Documents Diplomatiques Français. (1871—1914). 3ème Serie ; vol. X, p. 200 .

الرفاق الثلاثي في مواجهة التحالف الثلاثي الذي كان قوامه ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وقد حال دون تنفيذ المخطط الروسي لاحتلال البوسفور والدردينيل سير إدوارد جراي Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الذي لم يكن يفكر في ذلك الوقت في استخدام القوة في أى مكان أو في عقد اتفاق جديد مع روسيا يزيد الموقف الدولي حساسية . وكان شديد الإيمان بفكرته في عقد مؤتمر أوروبي لتسوية المشكلات الدولية . فهذه الطريقة هي المثلى في حل الأزمات ، واعتقد أنها هي التي أبعدت شبح الحرب عن أوروبا في سنة ١٩١٣ (١) .

بريطانيا توافق على استيلاء روسيا على إستانبول والمضائق :

في أثناء حملة الدردنيل في سنة ١٩١٥ ، وستنكلم عنها في الفقرة التالية ، رأت بريطانيا أن تقدم وعداً للروسيا ، بصفتها حليفة لها في الحرب العالمية الأولى ، بالموافقة على استيلائها على مدينة إستانبول والداخل الأوروبي لمنطقة المضائق ومجموعات من الجزائر المتناثرة في هذه المنطقة . وجاء ذلك الوعد وهذه الموافقة في اتفاق عرف باسم اتفاق إستانبول بين روسيا وبريطانيا وفرنسا (٤ من مارس - آذار - أبريل - نيسان - ١٩١٥) ولم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يندرج تحت النوع الذي يعرف في القانون الدولي العام باسم الاتفاقات الدولية في الشكل المبسط (٢) Traités en forme simplifiée وقد جاء هذا الاتفاق في صورة مذكرات متبادلة بين سان بطرسبرج ولندن

(١) Grant A.J. and Harold Temperley ; op. cit., p. 382.

(٢) يقصد بها الاتفاقات الدولية التي تتخذ بين دولتين أو أكثر في صورة تبادل مذكرات يسجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستغناء عن تدخل رئيس الدولة في إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط وتلجأ إليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

وباريس خلال فترة امتدت خمسة أسابيع . وقام ديمتريفتش سازونوف Dmitriyevich Sazonov وزير الخارجية الروسية بوضع الصياغة اللغوية للمذكرات المتبادلة ، واشترك معه السفيران البريطاني والفرنسي في سان بطرسبرج في المدة من ١٩ من فبراير - شباط - إلى ٤ من مارس - آذار - سنة ١٩١٥ وسجل فيها رغبات الحكومة القيصرية . وكانت تنحصر في ضم إستانبول والمضايق عند انتهاء الحرب العالمية بانتصار بريطانيا وحليفاتها وإبرام ما سمي اتفاق الانتصار Entente Victory وقد جاء في المذكرة الروسية ما يلي :

« إن مجرى الحوادث الأخيرة جعل حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور نقولا يعتقد أن مسألتى إستانبول والمضايق يجب أن تحللا بصفة نهائية طبقاً للأمانى الروسية .

« وإن أية تسوية تكون ناقصة وقاصرة وغير مستقرة إذا لم تدمج في الإمبراطورية الروسية كل من مدينة إستانبول والساحل الغربي للبوسفور وبحر مرمرة والدردييل وكذلك تراقبا الجنوبية .

« وإن المصالح الخاصة بفرنسا وبريطانيا العظمى في الإقليم المذكور أعلاه ستحترم بدقة زائدة

« وإن الحكومة الإمبراطورية يحدوها الأمل في أن الحكومتين الحليفتين سوف تتقبلان بعطف الاعتبارات السابقة » . ومضت المذكرة الروسية تؤكد لحكومتى فرنسا وبريطانيا قيام تفاهم مماثل من جانبها من أجل تحقيق خطط قد تضعها الحكومات الثلاث بالنسبة لأقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية العثمانية أو أقاليم أخرى في جهات أخرى في العالم . وجاء الرد بموافقة الحكومتين الفرنسية والبريطانية على المذكرة الروسية (١) .

(١) بلغ عدد المذكرات التي تبودلت بين سان بطرسبرج وباريس ولندن تسع مذكرات وتجد نصها في

ويلاحظ أن بريطانيا بموافقتها على أن تأخذ روسيا كلاً من إستانبول والمضائق عند تصفية الإمبراطورية العثمانية قد أقدمت على تغيير جذري في سياستها الخارجية . فقد وقفت بريطانيا في وجه روسيا أكثر من قرنين تحول دون استيلائها على إستانبول ومنطقة المضائق . وكان الدافع لبريطانيا على هذا التخلي الجوهري هو رغبتها في شد أزر روسيا ورفع روحها المعنوية بعد الهزائم المذكورة التي أنزلتها بها القوات الألمانية في تاننبرج Tannenberg (٢٥-٣١ من أغسطس-آب-سنة ١٩١٤) ثم عند البحيرات الماسورية Masurian Lakes (٨-١٥ سبتمبر-أيلول-سنة ١٩١٤) . وكانت هاتان الموقعتان من أعظم المعارك التي انتصرت فيها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وتجلت فيها العبقرية العسكرية الألمانية بفضل القائد الألماني الفذ العجوز هندنبرج Hindenburg ورئيس أركانه لودندورف Lodendorf . وهكذا كانت رغبة بريطانيا في تشجيع روسيا على مواصلة الحرب وعدم إلقاء السلاح هي السبب الأول في عقد اتفاق إستانبول . كما كانت هذه الرغبة ذاتها في مقدمة أسباب حملة الدردنيل .

حملة الدردنيل سنة ١٩١٥ :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى في مطلع شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ ودخلتها الدولة التركية (العثمانية) في الخامس من شهر نوفمبر - تشرين ثان - في ذات السنة إلى جانب دولتي الوسط - ألمانيا والنمسا والمجر - قامت السلطات التركية ببث حتمول خفية من الألغام البحرية في مياه المضائق .

= وهذا الاتفاق غير الامتاق المعروف باسم سايكس بيكو والمعقود بين بريطانيا وفرنسا والروسيا في المدة من ٢٦ أبريل - نيسان - إلى ٢٣ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ وأختم أيضاً صورة مذكرات مبادلة بلغ عددها إحدى عشرة مذكرة وتحدد فيها مطالب الروسيا في الأقاليم المأهولة الواديه في المنطقة الشمالية الشرقية من الأناضول . وكان من بين الجهات التي نصت عليها أرضروم ، وطرابزون ، وفان ، وبطليس إلى نقطة تحدد فيما بعد على ساحل البحر الأسود عربي طرابزون ، تم معظم إقليم كردستان . واحتفظت الحكومة الروسية بحقوقها فيما يختص بالملاحة البحرية الكبرى في البحر الأسود وأيدت رغبتها في بحث هذا الموضوع بطريقة ودية فيما بعد بمعرفة حكومات الأطراف المختصة .

وكانت الشائعات قد استفاضت بقرب هجوم بريطانيا وحليفاتها على الدردنيل والبوسفور واحتلال إستانبول . ولم تلبث أن تحققت هذه الشائعات في ذات الشهر الذى دخلت فيه تركيا الحرب .

بواعث حملة الدردنيل :

في الحرب العالمية الأولى وفي مستهل دورها الثانى (سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٤ - مارس - آذار - سنة ١٩١٨)^(١) ، وبينما كان موقف روسيا الحربى يزداد خطورة ، رأت بريطانيا لإرسال حملة تحتل الدردنيل والبوسفور لتفتح الطريق أمام الأساطيل البريطانية والفرنسية إلى البحر الأسود ، لأن منطقة المضائق كانت تفصل بريطانيا وفرنسا عن روسيا وتحول دون إمدادها بالذخائر والأسلحة التى كانت فى ميسس الحاجة إليها ، لأن روسيا كانت قد استنفدت احتياطياتها من الذخائر ، ولم يكن فى متدورها أن تلبى سوى ثلث حاجياتها اليومية من الذخائر التى تنتجها مصانعها من الذخائر ، على الرغم من أنها كانت تملك قوات لا حصر لها من الرجال . وكانت بريطانيا تخشى أن تضطر روسيا إلى الخروج من الحرب لتقص الذخائر لديها . فإذا نجحت بريطانيا وحليفاتها فى بسط سيطرتها العسكرية على الدردنيل والبوسفور كان فى استطاعتها إرسال الذخائر والأسلحة والتمزات البحرية فى جميع فصول السنة إلى روسيا لشد أزر التمزات الروسية وهى تعانى أشد العناء من الحصار الألمانى ، كما ترفع الروح المعنوية لدى الشعب الروسى ، وكانت بريطانيا قد وعدت روسيا بإستانبول عروس البوسفور هدية لها . ولذلك علقت

(١) اتفق العسكريون رأياً على تقسم هذه الحرب إلى ثلاثة أحوار :

الدور الأول : من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ إلى سبتمبر - أيلول - من ذات السنة ، ووقع فيه الهجوم الألمانى الذى أوقف عند حد نهر المارن ، وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة .
الدور الثانى : من سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى مارس - آذار - ١٩١٨ ويسمى حرب الخنادق ، ولم يسفر عن نتيجة حاسمة .

الدور الثالث : وهو أحداث سنة ١٩١٨ وقد بدأ بهجوم ألمانيا وانتهى بارتدادها هى وحيلفاتها فى كل الميادين .

الروسيا أعذب الآمال على حملة الدردنيل ، لأن أى كسب عسكري تحرزه قواتها يتضاءل أمام استيلائها على هذه العاصمة العتيقة . وكان استيلائها عليها يعد تعويضاً عن خسائرها الفادحة في البحيرات الماسورية وفي بولندا وفي غاليسيا . يضاف إلى هذه الاعتبارات أن نجاح حملة الدردنيل يجعل في متناول بريطانيا وحليفاتها المحاصيل الوفيرة من القمح وغيره من مواد التموين التي تنتجها الأقاليم الجنوبية في روسيا . وكان رسو أسطول بريطاني في مياه الدردنيل والبوسفور كفيلاً بشطر الجيش التركي شطرين وفتح الطريق إلى نهر الدانوب . وكانت بريطانيا وحليفاتها ترجو أيضاً أن تكون حملة الدردنيل حافزاً لليونان ورومانيا على الانضمام إلى المعسكر البريطاني وإلحاق الهزيمة ببلغاريا وتشجيع العرب على القيام بثورة ضد الأتراك مما يؤدي في النهاية إلى تحطيم الدولة العثمانية تحطيماً تاماً .

هذه بلإنجاز شديد بواعث الحملة العسكرية التي أطلق عليها حملة الدردنيل وقد اختلطت فيها البواعث العسكرية والديبلوماسية .

فشل اقتحام مضيق الدردنيل بحرباً :

في أوائل شهر نوفمبر-تشرين ثان- سنة ١٩١٤ اقتربت بضع مدمرات بريطانية من مياه الدردنيل وألقت قنابلها على بعض الاستحكامات العسكرية الأمامية المقامة في هذه المنطقة . وقيل إن هذا الإجراء الحربي كان بمثابة جس النبض لمعرفة مدى استعداد الأتراك للدفاع عن منطقة المضائق . ومن المعروف أن مضيق الدردنيل هو أول مضيق تقابله السفن القادمة من البحر المتوسط والمنتجهة إلى البحر الأسود ، فكان عليها أن تعبر الدردنيل ، ثم بحر مرمرية ، ثم البوسفور ، ثم تدلف إلى البحر الأسود . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف الأتراك موقفاً سليماً من هذه الحركة الاستطلاعية التي قام بها الأسطول البريطاني . وقد تكون هذه الدلية أمراً مقصوداً أريد به استدراج الأسطول إلى داخل مضيق الدردنيل حتى يسهل ضربه وتحطيمه من الضفتين . وقد عادت هذه الحركة الاستطلاعية بالضرر على بريطانيا بقدر ما عادت به من النفع على الدولة العثمانية . كانت مثل هذه الحملة تتطلب الدرية الثابتة حتى

يتوفر لها عنصر المفاجأة . وهو عنصر هام في إحراز النصر . ولكن الأتراك علموا بما لا يدع مجالاً للشك أن بريطانيا وحليفاتها تعزم اقتحام الدردنيل كققدمة لاحتلال بقية منطقة المضائق ، ومن ثم استعدوا استعداداً واسعاً لصد هذا الغزو .

كانت نتيجة الحركة الاستطلاعية مشجعة لبريطانيا على المضي في إنفاذ الحملة البحرية . فوجهت قوات عظيمة من الأسطول إلى الدردنيل في يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٥ منذ انقضاء شهرين أو أكثر من شهرين من الحركة الاستطلاعية . وكانت الحملة تتطلب أيضاً سرعة التنفيذ بجانب السرية التامة . واتضح أن هذين العنصرين لم يكونا متوفرين . واستؤنف الضرب مرة ثانية في أواخر فبراير - شباط - . وفي ١٨ من مارس - آذار - قام الأسطول البريطاني باقتحام مضيق الدردنيل ، ولكن أخفق الأسطول اختفاً ذريعاً ، إذ أصيب بأضرار جسيمة بسبب انفجار حقل خفي من الألغام في مياه الدردنيل . وكان لهذا الإخفاق أصداء واسعة وبعيدة في أرجاء العالم سواء في دوائر بريطانيا وحليفاتها أو في دوائر معادها . ولم تحاول بريطانيا اقتحام الدردنيل بحرباً مرة ثانية ، وهو أمر انتقده الخبراء البحريون بعد ذلك .

إخفاق اقتحام منطقة الدردنيل برياً :

وأمام هذا الفشل البحري المتلاحق الذي منى به الأسطول البريطاني في اقتحام مضيق الدردنيل ، رأت بريطانيا وحليفاتها تعزيز الهجوم البحري على الدردنيل بهجوم بري . على أن يكون دور القوات البرية هو الدور الأساسي ، وأن يكون دور الأسطول مقصوراً على إمداد القوات البرية بما تحتاج إليه من مواد تموينية وأسلحة وذخائر ومساعدتها في النزول إلى البر وحماية النقط أو المواقع البرية التي تنزل فيها . وكانت القوات البريطانية البرية يتألف معظمها من جنود إسترلين ونيوزيلنديين ، وكان معروفاً عنهم أنهم محاربون ذوو بأس شديد . وكانت هذه القوات بقيادة سير إيان هاميلتون Sir Ian Hamilton ،

كما عززت بقوة برية فرنسية يقودها الجنرال جورو G. Gouraud

وصلت القوات البرية في شهر أبريل - نيسان - ١٩١٥ ، ووقع اختيارها

على بعض نقط قليلة في شبه جزيرة غاليبولى للنزول فيها . ولما تكامل عددها بدأ نزولها تحت نار حاصده في ٢٥ من ذات الشهر بعد أن أضاعت وقتاً طويلاً ومثمتاً . كان نزولها في شبه جزيرة غاليبولى سبباً في إطلاق بعض المراجع على هذه الحملة إسم حملة شبه جزيرة غاليبولى ولكن الاسم الغالب عليها هو حملة الدردنيل ، لأن الاسم الأخير يشمل هجوم القوات البرية والبحرية على منطقة المضائق . ويقرر الخبراء العسكريون أن القيادة البريطانية الفرنسية قد أخطأت في اختيار المناطق التي نزلت فيها ، لأن أرض هذه المناطق تنحدر تدريجياً نحو ساحل البحر مما كفل للأتراك المدافعين عنها مواقع صالحة لاصطياد المهاجمين البريطانيين والفرنسيين بمجرد محاولتهم التقدم من الساحل نحو الداخل . وكان الأتراك والألمان قد أكملوا استعداداتهم لمواجهة نزول البريطانيين والفرنسيين . وقد لقيت القوات البرية المهاجمة صلابة وشدة وبسالة من الأتراك .

وبينما كان القتال يدور في ضراوة بالغة أحرز الجنود المهاجمون نصراً محلياً في السادس من شهر أغسطس - آب - بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ونجحوا في النزول في خليج سولفا Sulva حيث أخذوا الأتراك على غرة . وكان في مقدور ستوب فورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن يتخذ من هذا الموقع نقطة انطلاق وينتشر في شبه جزيرة غاليبولى وينتزع تل أنافارتا Anafarta الذي كان مفتاح الموقف . ولكنه تباطأ في التحرك بقواته نحو ثمان وأربعين ساعة استطاع خلالها إنقاذ الموقف ضابط تركي شاب هو مصطفى كمال بك - كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا فيما بعد (١٨٨١ - ١٩٣٨) فقد عين قائداً للكتيبة رقم ١٩ وكانت لا تزال في دور التكوين في تكيرداج Takirdag على الساحل الأوروبي لبحر مرمرة . وخف على رأس هذه الكتيبة إلى شبه جزيرة غاليبولى . واستطاع لإجلاء المهاجمين عن هذا الموقع . وكان نجاح الجنود الأتراك البواسل في صد المهاجمين وإجلائهم عن موقعهم يعد أحد الانتصارات القليلة والرائعة التي أحرزها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١) . وقد أنقذ هذا النجاح إستانبول من خطر الغزو

الأجنبي . وفي ذات الوقت كان فشل القوات البريطانية والفرنسية في الاحتفاظ بالموقع قمة المأساة بالنسبة لهم وكان نصرهم مؤقتاً .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الألمانية العليا قررت اقيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق إلى تركيا لإمدادها مباترة بالأسلحة والمخاطر والرجال والأموال . ونجحت ألمانيا في تنفيذ هذا المخطط في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ .

ورأت بريطانيا وفرنسا سحب قواتهما من شبه الجزيرة بعد أن فقدتا الأمل في الاستيلاء على منطقة المضائق . وبدأت عمليات الانسحاب في ١٨ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ حتى ٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٦ بعد أن كلفت الحملة بريطانيا وحليفتها مائة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى ، وأخفقت حملة الدردنيل في تحقيق هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على المضائق . وكان الفشل مزدوجاً : في الهجوم البحري على الدردنيل وفي الهجوم البري على شبه جزيرة غاليبولي لتتقدم منها قوات بريطانيا وحليفتها لاحتلال المضائق والاستيلاء على إستانبول .

وهكذا حققت الدولة العثمانية نصراً باهراً في الدفاع عن منطقة المضائق والحفاظ على سيادة الدولة على هذه المنطقة الحساسة . وكان في مقدمة أسباب هذا الانتصار الرائع الأسلوب الذي اتبعه الأتراك في استدراج وحدات الأسطول البريطاني إلى مياه مضيق الدردنيل واصطيادها بسهولة وسط حقل خفي من الألغام البحرية ، ثم الصلابة التي أبدتها الجنود الأتراك في دفاعهم عن النمار . وهى بسالة أذهلت الأعداء كما أذهلت الأصدقاء ؛ واستعادت الدولة العثمانية سمعتها الحربية القديمة كدولة حربية من الطراز الأول ، ووقفت شاحنة في وجه أكبر وأقوى دول العالم في ذلك الوقت .

لقد أرادت بريطانيا وفرنسا والروسيا أن تكون حملة الدردنيل الضربة الكبرى التي توجهها هذه الدول الثلاث إلى الإمبراطورية العثمانية لقصم ظهرها عقاباً لها على انضمامها إلى ألمانيا . فلم تكدم أيام ذات عدد على دخولها الحرب .

في الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ حتى أرسلت بريطانيا بعض المدمرات إلى مياه الدردنيل في حركة إستطلاعية لكشف قدرة الاستحكامات التركية على المقاومة ومقدمة لإرسال الحملة البحرية الكبرى والتي باءت بالفشل واقرنت بخسائر فادحة في القتلى والجرحى . ومما زاد في فداحة الهزيمة وسدة وقعها في الدوائر البريطانية بوجه خاص أن انسحاب الحملة تم في وقت كان شديد الإظلام بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . كانت سنة ١٩١٥ تلفظ أنفاسها الأخيرة وكانت الهزائم والكوارث تحيط بهذه الدول : أيدت الصرب والجبل الأسود ، وانضمت بلغاريا إلى النمسا ، وحاقت بالروسيا هزائم تبدد كل أمل لها بعدها في الانتصار ، وعجزت إيطاليا عن إحراز أى نجاح حقيقى ، وهوت إلى الخضيض سمعة الأسطول البريطانى بعد فشله في حملة الدردنيل وإخفاقه في الوصول إلى إستانبول . ولانتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تنجح في اقتحام المضائق قوات عدائية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو روسية . أو أية جنسية أخرى .

* * *

الفصل التاسع

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (٣)

هزيمتها في الحرب العالمية الأولى

أطاحت بسيادتها على المضائق والبحر الأسود

هدنة مدروس واحتلال المضائق وإستانبول :

عرض وتحليل ونقد :

جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس في الثالث من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٨ على أثر إصابته بإنفلونزا لم تمهله سوى أيام ذات عدد ، فكانت وفاته شبه فجائية . وتولى العرش بعده أخوه وحيد الدين أفندي باسم السلطان محمد السادس ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره . وكان الموقف الحربى عصبياً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا . كان الأتراك قد فقدوا الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربى الآسيوى : الحجاز ، العراق ، شرق الأردن ، فلسطين ، الشام ، فضلا عن الهزائم والخسائر التي نزلت بهم في الميادين الأخرى . وفي شهر أكتوبر - تشرين أول - استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والترقى نتيجة فشل سياستهم الداخلية والخارجية والحربية ، ثم فر كبارهم إلى خارج البلاد حيث لقوا حتفهم تباعاً . وكان الرأى السائد في الدوائر العالمية وقتذاك أن ألمانيا وحليفاتها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طلب الصلح . ورأى السلطان الجديد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ووقع اختياره على رجل عسكري هو الجنرال أحمد عزت باشا وعينه صديراً أعظم وعهد إليه الاتصال ببريطانيا ابتغاء عقد هدنة . وسرعان ما شكلت الحكومة وفداً برئاسة رعووف بك وزير البحرية لعقد

الهدنة . وهكذا كانت تركيا أسبق من ألمانيا في عقد هدنة مع أعدائها بأحد عشر يوماً (١) . فقد أبرمت هدنة منفصلة مع تركيا في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ سميت هدنة مدروس Mudros نسبة إلى ميناء يحمل هذا الاسم في جزيرة لمنوس (٢) Lemnos حيث كانت ترسو في هذا الميناء باخرة إنجليزية اسمها أجامنون Agamemnon ، وقد دارت على ظهرها مناوشات الهدنة . ولم يستغرق إجراؤها أكثر من أسبوع . وقد وقعت عليها بريطانيا عن نفسها ونيابة عن حليقاتها . وقد نصت هدنة مدروس على المبادئ العامة الآتية فيما يختص بمسألة المضائق :

أولاً : فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه .

ثانياً : قيام بريطانيا وحليقاتها باحتلال القلاع والاستحكامات القائمة في منطقتي الدردنيل والبوسفور .

ثالثاً : تعهد السلطات التركية بالكشف عن مواقع الألغام وغيرها من المتفجرات في المياه التركية بما فيها مياه الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود - للسلطات البريطانية وسلطات الدول الحليفة لها (٣) .

وبعد أن تم التوقيع على الهدنة قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته من منصبه على أساس أنه أنجز المهمة التي عهد بها إليه السلطان . وخلفه أحمد توفيق باشا . وكان هناك إعتباران ملحوظان في إختياره لمنصب الصدارة العظمى . أولها أنه كان سفيراً لبلاده في لندن ، واكتسب تقدير

(١) طلب لودندورف القائد الألماني للبدان الغربي الهدنة رسمياً في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من عام ١٩١٨ على أساس الأربعة عشر شرطاً التي أعلنها ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كدستور للتسوية .

(٢) جزيرة لمنوس إحدى جزر بحر الأرحيبيل .

(٣) تجد النص الرسمي الكامل لهدنة مدروس في :

الدوائر العليا في بلاط سان جيمس في هذه العاصمة . وكان الأمل معقوداً عليه أن يكون موضع ثقة بريطانيا في هذه المرحلة الدقيقة التي كانت تتطلع فيها تركيا إلى إعادة علاقاتها مع بريطانيا إلى سيرتها الأولى ، وثانيها أن أحمد توفيق باشا سبق له أن تولى منصب الصدارة العظمى .

وأهم ما يلاحظ على هدنة مدروس أن بريطانيا حققت فيها ما عجزت عن تحقيقه في ساحات القتال في أثناء الحرب العالمية الأولى . فقد أماتت شروطها على تركيا . وكان من بينها فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين دخول البحر الأسود والخروج منه ، كما قررت لنفسها حق احتلال المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية في منطقة المضائق إلى غير ذلك . وكانت هذه الشروط الخاصة بالدردنيل والبوسفور والبحر الأسود نذيراً بمبادئ وقواعد جائزة تستند إلى مبدأ القوة وتضمنها معاهدة الصلح التي سوف تضعها بريطانيا وحليفاتها وتفرضها على تركيا . وقد جاء في أعقاب هدنة مدروس تنفيذ عملي لما تضمنته من مبادئ واتجاهات . فقبل أن ينتفضي أسبوعان على إبرام الهدنة حتى كانت الأساطيل الحربية لبريطانيا وحليفاتها تتخذ طريقها إلى منطقة المضائق من البحر المتوسط . واجتازت ستون قطعة حربية مضيق الدردنيل ثم بحر مرمر ثم البوسفور . والتزمت مدفعية الساحل التركية الصمت العميق إزاء هذه المظاهرة البحرية العدائية . وفي ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - ألفت بعض هذه القطع الحربية مراسيها في ميناء إستانبول . وفي ٨ من ديسمبر - كانون أول - كان قد استكمل في إستانبول إنشاء إدارة عسكرية دولية من بريطانيا وحليفاتها ، واحتلت القوات الأجنبية المتحالفة شتى أحياء العاصمة ، وفرضت رقابة عسكرية صارمة على الميناء ، وأخضعت لهذه الرقابة أيضاً قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلي - الحندرمه - وكذلك المرافق العامة حتى على خطوط الترام وعرباتها .

إستانبول تشهد مسرحية هزلية :

وتعرضت إستانبول لمسرحية هزلية كشفت عن شماتة السكان اليونانيين في العاصمة بهزيمة الأتراك من ناحية ، وتفاهة بعض العسكريين من ناحية

أخرى . ففي الثامن من فبراير - شباط - سنة ١٩١٩ دخل إستانبول القائد الفرنسي الجنرال فرانسيه دسبري General Franchet d'Espérey ممتطياً صهوة جواد أبيض أهدها إليه السكان اليونانيون في إستانبول . وكانت حججهم في تقديم هذا النوع من الهدية أن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام دخلها لأول مرة راكباً حصاناً أبيض اللون (١) ، فأراد هؤلاء اليونانيون أن يكون احتفالهم بدخول قوات بريطانيا وحليفتها عاصمة الأتراك وعلان ابتهاجهم بهذه المناسبة التاريخية على غرار ما حدث من أربعمائة وست وستين سنة خلت . ولم يلبث أن أعلن البطريرك اليوناني في إستانبول استقلال «الرعايا» اليونانيين عن الحكومة التركية ، وقطع في ٩ من مايو - آيار - ١٩١٩ علاقاته مع الباب العالي . وتناسى البطريرك والرعايا اليونانيون ما كانوا يظفرون به من معاملة كريمة وممتازة في ظل الحكم العثماني .

وفي ذات الرقت تقريباً كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت عدة مواقع في منطقة المضائق . وكان الأسطول البريطاني يربط في بحر مرمرية وفي مياه البوسفور تجاه العاصمة . فكان احتلال بريطانيا وحليفتها لمنطقة المضائق احتلالاً بحرياً وبرياً .

والحق أن هدنة مدروس وما ترتب عليها من أحداث مباشرة وسريعة كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة العثمانية ، وإنها كآ لسيادتها على منطقة المضائق ، وإنقاصاً من استتلاها ، ونذيراً بشروط قاسية تملئها بريطانيا وحليفتها في معاهدة الصلح التي سوف تفرضها على الدولة ، وهي معاهدة سيفر .

معاهدة سيفر :

عرض وتحليل ونقد :

كانت بريطانيا وفرنسا قد فرغت في ٢٦ (٢) من شهر أبريل - نيسان -

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc, op. cit., p. 240.

(١) كانت هاتان الدولتان قد فرغت في اليوم السابق - ٢٥ من أبريل نيسان - من تسوية مسألة الانتدابات على الأقاليم العربية التي كانت خاصة للدولة العثمانية في الشرق العربي الآسيوي .

١٩٢٠ من إقرار معاهدة الصلح مع تركيا في إجتماع المجلس الأعلى في سان ريمو San Remo ، وهى بلدة إيطالية على ساحل الريفييرا . وانضح أن الهدف من هذه المعاهدة هو تصفية الإمبراطورية العثمانية أو كما يقول ذوو البراعة في النكتة دفن رجل أوروبا المريض الذى طال مرضه وطال احتضاره أكثر من اللازم وقد سلمت هذه المعاهدة للوفد التركى في باريس في ١١ من مايو - آيار- وكان هذا الوفد يمثل السلطان العثمانى محمد السادس ووزراءه ، ولكنه لم يوقع عليها إلا مكرهاً في ١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ أى بعد إنقضاء ثلاثة أشهر . وقد تم التوقيع في مدينة سيفر Sèvres وهى مدينة فرنسية على نهر السين تشتهر بوجود مصنع فرنسى للأواني الخزفية المتناهية في جمالها ودقتها . وقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا والمملك حيين بن على في الحجاز التوقيع عليها . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد أن تم توقيع معاهدة سيفر ، بلل إلى مصنع الخزف الضابط مصطفى كمال ونسفه .

ويلاحظ ، أن معاهدة سيفر قد عقدت مع الدولة التركية The Turkish State ، ونفهم من بين ثنايا المطور على أنها امتداد للدولة العثمانية مصغرة . ولذلك جاء في بعض موادها ذكر للسلطان على أنه رأس الدولة ، وجاء ذكر إستانبول (القسطنطينية) على أنها العاصمة ، ونص فيها على أن حقوق الحكومة التركية على إستانبول لا تمتد ، وأن مقر السلطان والحكومة التركية هو إستانبول بصفتها عاصمة الدولة التركية .

وقد تعرضت معاهدة سيفر إلى ألة المضايق في المواد من ٣٧ إلى ٤٠ فنصت المادة (٣٧) على أن الملاحة في المضائق ، وتشمل على سبيل التحديد الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور ، تكون في المستقبل مفتوحة في وقت السلم وزمن الحرب لكل سفينة تجارية أو حربية ، وللملاحة الجوية العسكرية والتجارية دون أى تمييز بين الدول . ولا تكون مياه هذه المضائق عرضة للحصار ولا يباشر فيها أى حق حربى أو أى عمل عدائى إلا تنفيذاً لقرار يصدر عن مجلس عصبة الأمم .

ونصت المادة (٣٨) على أن الحكومة التركية تقرر أنه بات من الضرورى

اتخاذ مزيد من الاجراءات لضمان حرية الملاحة المنصوص عليها في المادة السابقة . وبناء على ذلك ، فبمى تعهد إلى لجنة تسمى لجنة المضايق بمراقبة حركة الملاحة في مياه المضايق . وتعهد الحكومة اليونانية أيضاً إلى هذه اللجنة بذات التفويض وتتعهد بأن تقدم لها في جميع الأحوال نفس التسهيلات ، على أن تمارس هذه المراقبة باسم الحكومتين التركية واليونانية ووفقاً للطريقة المنصوص عليها في المادتين التاليتين .

وقررت المادة (٣٩) أن ساطن لجنة المضايق تمتد على كافة المياه المحصورة بين مصب البحر المتوسط في الدردنيل وبين مصب البحر الأسود في البوسفور ، كما تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال فيما وراء كل من هذين المصبين ، ويجوز أن تمارس هذه السلطة على الاحل إلى الحد الذى يكون ضرورياً لتنفيذ الشروط الواردة في هذا القسم من المعاهدة الخاص بمسألة المضايق .

وتعرضت المادة (٤٠) لطريقة تشكيل لجنة المضايق وطريقة التصويت . فقررت أنها تنظم عشرة أعضاء يمثل كل عضو دولة واحدة . وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، روسيا ، اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا . وشملت المادة تحفظات على عضوية بعض هذه الدول ، فقالت إن روسيا ، وبلغاريا ، و تركيا لا يسمح لها بالانضمام إلى لجنة المضايق إلا إذا دخلت في عصبة الأمم . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد ترك أمر عضويتها إلى رغبة حكومة واشنطن ، فقالت « إذا أرادت ومتى أرادت هذه الحكومة أن تسهم في أعمال لجنة المضايق » . ونصت نفس المادة على أن يكون الممثل كل من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا وإيطاليا ، واليابان ، والروسيا صوتين . أما ممثلو اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، و تركيا فيكون لكل منهم صوت واحد . وأخيراً نصت المادة على أن يمثل كل دولة غير قابل للعزل إلا بمعرفة حكومته (١) .

(١) تجد النص الرسمي الكامل لمعاهدة سيفر في .

وقد جاءت معاهدة سيفر بمجموعة من المبادئ والقواعد العامة يمكن إدراجها تحت ثلاثة أنواع ، النوع الأول كان معروفاً ومعمولاً به من قبل ومعترفاً به في الأسرة الدولية بحيث غدا من المبادئ العامة في القانون الدولي العام ، النوع الثاني فينطوي على شذوذ وخروج على قواعد القانون الدولي العام ، النوع الثالث فيتمثل في مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد بدلاً من العمل على إلزاتها ، وإيثار مبادئ الاستعمار على مبادئ العدالة والحرية .

أما النوع الأول فيتمثل في تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور لجميع السفن التجارية والحربية في جميع الأوقات دون تمييز بين جنسية السفن مع تحريم فرض الحصار على المضائق أو ممارسة أى حق حربي أو عمل عدائي إلا إذا كان الإتيان بمثل هذا العمل تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . وهذا المبدأ العام مقرر في إتفاقية الأستانة المعقودة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ والخاصة بتنظيم حرية مرور السفن في قناة السويس . كما أنه مقرر في كل من معاهدة هاى - بونسفوت (١) - Hay Pauncefote في المادة الثالثة البند الأول والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠١ والخاصة بقناة بناما التي كان مزماً حفرها - وقد افتتحت هذه القناة للملاحة في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ - وفي معاهدة هاى - بونو قاريلا (٢) - Hay Bunau Varilla في المادة الثامنة عشرة والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠٣ والخاصة بقناة بناما أيضاً . فهذا المبدأ العام كان معمولاً به في قناة السويس ومقررراً للتطبيق عند افتتاح قناة بناما . غير أن معاهدة سيفر أجازت ممارسة الأعمال العدائية في منطقة المضائق إذا كانت هذه الأعمال تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . ومثل هذه الإباحة غير موجودة في إتفاقيات قناتى السويس وبناما . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن عصبة الأمم لم تكن قد رأت النور في سنة ١٨٨٨ أو سنة ١٩٠١ أو

(١) كان هاى وزير الخارجية الأمريكية ، وبونسفوت جوليان هو السفير البريطانى في

واشنطن .

(٢) بونو قاريلا هو ممثل بناما في واشنطن .

سنة ١٩٠٣ ، كما يلاحظ أيضاً أن معاهدة سيشر قد أجازت الملاحة الجوية التجارية والعسكرية لجميع الدول فوق منطقة المضائق بينما جاءت اتفاقيات قناة السويس وبناما خالية من مثل هذه الإباحة . وقد تداركت بريطانيا هذا الأمر بعد ذلك ، فنصت عليه في معاهدة ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ بالنسبة للطيران البريطانى . أما قناة بناما فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستأثر بالنفوذ عايتها استناداً إلى اتفاقيات عقدها مع الدولة صاحبة الإقليم وهى بناما التى ساهمت لها بهذا المركز الانفرادى المتميز وقنعت بالاحتفاظ بسيادة اسمية وأعطت الولايات المتحدة حق ممارسة جميع المظاهر العملية لهذه السيادة الفعلية .

أما النوع الثانى الذى جاءت به معاهدة سيشر فينطوى على مبدأ جائر وشاذ ، إذ جعلت فى الدولة العثمانية سيادة مزدوجة لإحداها للحكومة التركية والأخرى للحكومة اليونانية . وجعلت المعاهدة هاتين الحكومتين هما مصدر التفويض للرقابة الدولية على تنظيم حرية مرور السفن فى الدردنيل والبوسفور . وكانت هذه الرقابة الدولية ممثلة فى لجنة المضائق . فأصبحت هذه اللجنة تستمد وجودها وكيانها وسلطانها واختصاصاتها من الحكومتين معاً . وجعلت المعاهدة الحكومة اليونانية شريكة لصاحب الإقليم الأصيل فى إصدار تفويض لهذه اللجنة فى قيامها ومباشرة عملها . وهذا هو وجه الشلوذ فى معاهدة سيشر ، ولا يجد الباحث تفسيراً أو تبريراً لهذا الشلوذ سوى رغبة بريطانيا فى إذلال الشعب التركى عقب هزيمته عقاباً له على انضمامه إلى ألمانيا . وقد تجلت روح الانتقام فى كافة المعاهدات التى فرضتها بريطانيا وحليفاتها على الدول المهزومة مثل معاهدة فرساي Versailles مع ألمانيا فى ٢٨ من يونيو - حزيران - سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة سان جرمان (١)

(١) توجد فى فرنسا عدة أماكن تحمل اسم سان جرمان ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد بسان جرمان فى هذه الدراسة Saint-Germain-en-Laye وهى مدينة وعاصمة مقاطعة سين واواز Seine-et-Ois وعلى مقربة من فرساي ضاحية باريس .

St. Germain مع النمسا في ١٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ ،
ومعاهدة نويلى^(١) Neuilly في ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩
مع بلغاريا ، ومعاهدة تريانو^(٢) Trianon في ٤ من يونيو - حزيران - سنة
١٩٢٠ مع المجر .

وهناك تبرير آخر هو أن اليونان كانت قد احتلت أزمير في ١٥ من
مايو - آيار - سنة ١٩١٩ وسعت منذ ذلك الوقت نحو توسيع منطقة احتلالها .
واعتمدت بريطانيا أن الاحتلال اليوناني لأزمير سيطول أمدته وسيتمتع
مداه . وتناست بريطانيا أن الأتراك وهم من أشد المحاربين صلابه وبساله
واسترخاصاً للموت لن يقبلوا هذه الأوضاع ، ومن ثم أقبلت بريطانيا على
معاملة اليونانيين . ولا ننسى أنهم كانوا حلفاءها في الحرب العالمية الأولى .
ومن ثم جاء هذا الشذوذ في المبادئ التي انطوت عليها معاهدة سيفر .

والمبدأ الثالث الذي جاءت به معاهدة سيفر فيما يختص بمسألة الدردنيل
والبوسفور هو فرض رقابة دولية لضمان حرية مرور السفن في منطقة
المضائق . وقد أخذت هذه الرقابة الدولية شكل لجنة أطلق عليها لجنة
المضائق The Straits Commissiou وقوامها عشرة أعضاء يمثلون عشر دول
أوروبية وآسيوية وأمريكية ، ولم تكن إفريقية ممثلة بأية دولة في اللجنة .
ويلاحظ أن تمثيل الدول لم يكن على قدم المساواة ، فبعض الدول كان
لمثلها صوتان ، وللبعض الآخر صوت واحد ، كما أن عضوية بعض الدول
في لجنة المضائق كانت مقيدة بشرط حتمى هو قبول هذا الفريق من الدول
في عصبة الأمم .

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم نويلى ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد
المكان المقصود . ويقصد بكلمة نويلى في هذه الدراسة Neuilly sur Seine وهو اسم مدينة
هى عاصمة مقاطعة السين وتقع على نهر السين ، وعلى مقربة من غابة بولون Bois de Boulogne
وخلف سان دنى Saint Denis

(٢) تريانو اسم يطلق على قصرين صغيرين في متزهات فرساي ، يطلق على القصر الأول
تريانو الكبير Le Grand Trianon وقد شيده الملك لويس الرابع عشر ، ويطلق على القصر
الثانى تريانو الصغير Le Petit Trianon وقد بناه الملك لويس الخامس عشر .

وكانت لجنة المضايق تشبه إلى حد ما لجنة القناصل التي نصت عليها المادة الثامنة من اتفاقية ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ الخاصة بقناة السويس مع فروق هامة هي أن اتفاقية القناة قد حددت تحديداً دقيقاً اختصاصات لجنة القناصل وميزت بين الاجتماعات الطارئة والاجتماعات الدورية التي تعقدتها مرة كل سنة ، وطريقة مواجهة الأحداث التي تهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها ، ورياسة اللجنة في كل نوع من نوعي اجتماعاتها . أما لجنة المضايق فإن معاهدة سيفر لم تعرض لمثل هذه التفصيلات الهامة والضرورية . ولذلك كان الغموض يحيط باللجنة من يمين ونيمال .

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا سبق لها أن عارضت معارضة عنيفة للغاية فرض رقابة دولية على حرية مرور السفن في قناة السويس ، وذلك في أثناء البعثات التي عقدها لجنة باريس الدولية في الفترة من ٣٠ من مارس - آذار - إلى ١٣ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٥ لوضع مشروع اتفاقية قناة السويس . ووقفت بريطانيا في وجه الدول الأوروبية الكبرى وهي فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، والنمسا والمجر ، الدولة العثمانية . وقد شكلت هذه الدول تكتلاً دولياً في اللجنة ضد بريطانيا نكائية فيها لاحتلالها مصر . وتأرجح موقف إيطاليا بين الطرفين المتصارعين . ولما وجدت بريطانيا إصراراً من الدول الكبرى على قيام الرقابة الدولية على قناة السويس عملت بكل ثقلها على التخفيف من قيود هذه الرقابة . ومع ذلك فلما تقررت الرقابة الدولية في شكل لجنة تتكون من وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدين في مصر استغلت بريطانيا نفوذها المتفوق الانفرادي في مصر بسبب احتلالها مصر وعملت على منع اجتماعات لجنة القناصل سواء الاجتماعات الطارئة أو الاجتماعات الدورية منعاً باتاً سواء على عهد الاحتلال أو الحماية أو الاستقلال الشكلي فضلاً عن العهود اللاحقة (١) وهكذا فإن بريطانيا ، لمصلحتها الخاصة ، عارضت

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع :

في سنة ١٨٨٥ قيام رقابة دولية على قناة السويس : وفرضت في سنة ١٩٢٠ رقابة دولية على منطقة المضائق نكاية في تركيا ، ورغبة في دعم موقفها الاستعماري في منطقة الشرق الأدنى .

لم تكن الحكومة التركية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس في وضع عسكري أو سياسي يسمح لها بالاعتراض على ما جاء في معاهدة سيفر سواء فيما يختص بمسألة اللردنيل والبوسفور أو بالمسائل الأخرى التي تعرضت لها المعاهدة ، فالمتنصر وهو في قمة الانتصار ونشوة الابتهاج يشتط ويملي شروطه ويفرض إرادته على الدولة المهزومة . وقد قيل في هذا الصدد « ويل للمغلوب » وهي عبارة تصدق على الحاضر كما صدقت على الماضي . ويعلق أحد كبار المؤرخين الإنجليز على معاهدة سيفر بقوله إنها كانت في مواردها وأحكامها وشروطها أكثر قسوة على تركيا من شروط معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا(١) ، مع أن الدولتين - ألمانيا وتركيا - كانتا حليفين وهزمتا في حرب واحدة على يد دول واحدة . وقد قضت معاهدة سيفر على تركيا كدولة أوروبية من الناحية العملية(٢).

تجميد معاهدة سيفر :

كان السلطان محمد السادس ووزراؤه يعيشون في إستانبول تحت تهديد الأسطول البريطاني ، وقد ألقى مراسيه في مياه البوسفور ، بينما كانت قوات

= دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : تكتل الدول لتحويل قناة السويس ، نكاية في بريطانيا .

بحث منشور في جزئين في حوليات كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

الجزء الأول ، المجلد الثالث والعشرون - الجزء الأول - مايو ١٩٦١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١١ - ١٥٤ .

الجزء الثاني ، المجلد الثالث والعشرون - الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٦١ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١ - ٤٧ .

Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 247. (١)

Miller W. ; op. cit., p. 451. (٢)

بريطانيا وحليفاتها تحتل إستانبول وكانت قد أقيمت فيها - كما سبق أن ذكرنا - إدارة عسكرية تمثل دول المعسكر الغربي التي أقامت رقابة صارمة على شتى مرافق العاصمة . وفي جو الهزيمة الكئيب أرغم السلطان ووزراؤه على التوقيع على معاهدة سيفر ، ووقفت الغالبية الساحقة من الشعب التركي ضد المعاهدة الجائرة ، واعتبرت يوم التوقيع عليها يوم حداد عام في أرجاء تركيا .

وقد اعتقد البعض أن موافقة السلطان على المعاهدة هي بادرة طيبة لتنفيذها . ولكن سرعان ما تكشفت عدة عوامل جعلت تنفيذ شروطها أمراً متعذراً إن لم يكن مستحيلاً . لقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وحسين بن علي ملك الحجاز هذه المعاهدة كما ذكرنا . وكانت اليونان قد خرجت بمكاسب إقليمية وسياسية هائلة ، ولكنها لم تقنع بها ، وأرادت مزيداً من مكاسب أخرى على حساب تركيا لتكوين دولة تضم - فيما تشمل عليه - النصف الغربي من الأناضول ، ثم تصاعدت بطلباتها فعرضت على بريطانيا وحليفاتها أن تسمح لها باحتلال إستانبول مما زاد الموقف في تركيا اشتعالا . غير أن العامل الحاسم في تدهور الموقف بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها كان الشعب التركي . فقد أبى الاستسلام وهاله أن تتمزق بلاده على هذا النحو المزرى تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والفرنسية والإيطالية واليونانية ، وهو الذي خاض أشد الحروب هولا وكون إمبراطورية امتدت في ثلاث قارات . فثار على الأوضاع التي جاءت بها معاهدة سيفر . وقاد مصطفى كمال حركة ثورية واتخذ من الأناضول ، وهي منطقة منيعة محصنة بالهضاب الوعرة الجرداء ، مركزاً لحركته الثورية وألب الجيش للسرود والمقاومة ، وتحدى الدول التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى وفرضت معاهدة سيفر على بلاده فرضاً .

رأى مصطفى كمال في الموقف بعد هزيمة بلاده :

نعم مصطفى كمال على رجال الاتحاد والترقي سياستهم التي جعلت تركيا تواكب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وتعرض للانهايار السريع . وقد أرجع

التدهور الذي أصاب الدولة قبل الحرب إلى عوامل عديدة ومتشابهة : زجت بنفسها في حياكل الدول الأوروبية الكبرى ، وخضعت لتهايداتها ، وظلت متخلفة فلم تسأير ركب الحضارة ، وبددت جهودها في حكم شعوب غير تركية . وإذا كانت بريطانيا وحليفاتها قد احتلت في تلك الحرب العراق وفلسطين وسوريا ، ومن قبل الحرب تونس ومصر وليبيا وغيرها فإنه يقبل سلب هذه الولايات وغيرها من الأقاليم غير التركية التي كانت خاضعة للدولة . ولكن لا بد في مقابل هذه التضحيات من الاحتفاظ بالأناضول بصفتها الموطن الأصلي للأتراك وإقليم تراقيا الشرقية وإستانبول ، والحفاظ على الاستقلال التام للشعب التركي وسلامة أراضيه ، وسيادة الدولة على جميع بئاع الوطن التركي بما فيه منطقة المضائق . وكان شعاره تركيا للأتراك (١) Turkey for the Turks وتطلب تنفيذ هذه المبادئ التحرر من الحكم الأجنبي في جميع صورته وأشكاله ومظاهره .

ولن نتعرض لتاريخ تركيا في الفترة من توقيع هدنة مدروس (سنة ١٩١٨) إلى إبرام معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) إلا بالقدر الذي يتصل بموضوع المضائق والبحر الأسود والقدر الذي جعل بريطانيا وحليفاتها تغير سياستها تغييراً جذرياً تجاه تركيا المهزومة ، فتقرر إلغاء معاهدة سيفر ووضع معاهدة جديدة هي معاهدة لوزان تسبعا. منها معظم الشروط الجائرة التي جاءت بها المعاهدة الأولى . وعلى سبيل المثال تقرر إبعاد اليونان من الاشتراك مع تركيا في عمل من صميم سيادة الدولة على منطقة المضائق ، كما تقرر إعادة إقليم تراقيا الشرقية إلى تركيا . وكانت اليونان قد ظفرت بهذا الإقليم في معاهدة سيفر . مما يدل على أن لبريطانيا مصالح دائمة ولكن ليس لها أصدقاء دائمون .

تزاحم ثلاث مشكلات :

واجه مصطفى كمال موقفاً مظلماً كثيف الإلزام . كان جيش يوناني قد نزل في أزمير في ١٥ من مايو - آيار - سنة ١٩١٩ تحت حماية ثلاثة

أساطيل هي الأساطيل البريطانية والفرنسية والأمريكية . واحتل اليونانيون الميناء والمدينة والمنطقة المحيطة بها واتخذوها موقعا إستراتيجيا للتوسع في داخل الأناضول في اتجاه الشرق . وقيل في تفسير أو تبرير اشتراك أساطيل ثلاث دول كبرى في إنزال القوات اليونانية إن بريطانيا وحليفاتها أرادت قطع خط الرجعة على إيطاليا التي طالبت بتنفيذ ادعاءاتها في منطقة الأناضول بما فيها أزمير وجزر الدوديكانيز وجهات أخرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وكانت هذه الادعاءات موضوع اتفاقات عقدت في أثناء الحرب العالمية الأولى : منها اتفاق لندن السرى المعقود بين دول الوفاق الثلاثي وإيطاليا في ٢٦ من أبريل - نيسان - ١٩١٥ (١). وكان إبرام هذا الاتفاق هو ثمن بخروج إيطاليا على حليفيتها دولتي الوسط وإعلانها الحرب على النمسا في ٢٣ من مايو - آيار - سنة ١٩١٥ (١) ، ثم الاتفاقية الثلاثية المعروفة باسم سان جان دي مورين Saint-Jean de Maurienne المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية (١٩ من أبريل - نيسان - ٢٦ من سبتمبر - أيلول - ١٩١٧) وقد اجتمع رؤساء الوزارات البريطانية والفرنسية والإيطالية في عربة قطار وقف بهم في محطة سان جان دي مورين ، وهي قرية جبلية صغيرة على الحدود الفرنسية الإيطالية (٢) . وقد اقترف اليونانيون في نزولهم أزمير الكثير من ضروب

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Misc. No. 7. Cmd, 671.

تحت عنوان :

Secret (London) Agreement : The Entente
Powers and Italy. 26 April, 1915.

(٢) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. II, pp 23—25

تحت عنوان :

Tripartite Saint-Jean de Maurienne
Agreement for the Partition of the
Ottoman Empire : Britain, France, and
Italy. (19 April-26 September 1917).

الوحشية وجرائم الحرب . وقد ألهب الاحتلال اليونانى لأزمير مشاعر الأتراك ، واعتبروه إذلالاً لهم ، وأزكى فى نفوسهم تصميماً على طردهم ، إذ كانوا يحتفرون اليونانيين على أساس أنهم شعب خضع للأتراك أعصراً وأدهاراً وأحقاباً . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز لو أن الإيطاليين قد احتلوا أزمير ما أثار احتلالهم هذه الموجدة العارمة التى أثارها الاحتلال اليونانى فى نفوس الأتراك (١) . ويضيف إلى ذلك قوله إن منظر الراية اليونانية المزحرة وهى تخفق فوق أصقاع من الأناضول كان يعد من جانب كل تركى وطنى إهانة لا تغتفر . وكان مما أثار سخط الأتراك التصريحات المكرورة التى كان يعلنها اليونانيون من وقت لآخر ، وهى أن احتلالهم أزمير ومنطقتها ليس احتلالاً مؤقتاً ينحسر بعد فترة ، إنما هو عملية ضم نهائى ، وسيتم مع مدها ليشمل الأناضول لتكوين إمبراطورية هيلينية كبرى ، برية وبحرية ، وتمتد فى آسيا وفى أوروبا ، وتشمل السواحل الشرقية والغربية لبحر إيجه فضلاً عن منطقة المضائق . وكان اليونانيون يعتمدون فى تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا . وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالماً معهم ، ويشعر بكرهية شديدة نحو الأتراك ، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتموا العمل الذى قام به الجنرال مود Maude فى العراق والجنرال اللبى Allenbey فى فلسطين عند مانجحا فى طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركى فى هذين الإقليمين . ولذلك كانت اليونان الدولة البلقانية المدللة لدى بريطانيا وقتت إلى جانبها تؤيد الوجود العسكرى اليونانى فى منطقة أزمير . كانت اليونان قد ظفرت من بلغاريا - بمقتضى معاهدة نوبلى Nelly (٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩) - بإقليم تراقيا الغربية ، وظفرت من تركيا - بمقتضى معاهدة سيفر (١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠) بإقليم تراقيا الشرقية ، فأصبحت اليونان على مسافة بضعة أميال من إستانبول ، وراودتها أعذب الآمال فى الاستيلاء على العاصمة التركية العتيدة . وكانت تركيا قد تخلت لليونان بمقتضى معاهدة

(١) Fisher H.A.L. ; A History of Europe ; op. cit., p. 1179.

سيطر أيضاً عن كل حقوقها على إمبروس Imbros وهى جزيرة فى بحر إيجه على مقربة من الدردنيل ، وعلى تينيدوس Tenedos وهى جزيرة فى نفس المنطقة على ساحل الأناضول. وكان الوجود العسكرى اليونانى فى هاتين الجزيرتين يمثل خطراً مزدوجاً ، فهو ، من ناحية ، يدعم مركز اليونان فى لجنة المضايق وفى مباشرة سلطاتها على تنظيم حرية مرور السفن فى الدردنيل والبوسفور ، وبالتالى التحكم فى الإشراف على حركة الملاحة فى البحر الأسود باعتبار اليونان إحدى الدولتين اللتين تستمد منها لجنة المضايق شرعيتهما ووجودها واختصاصاتها، ومن ناحية أخرى فإن وجود اليونان فى تلك الجزيرتين وعلى مقربة من أزمير مما يدعم السيطرة العسكرية لليونان على الساحل الغربى للأناضول . ويلاحظ أنه كان لليونانيين نشاط واسع فى الأناضول حيث انتشروا فى هضابها ومدن ساحلها الغربى المطل على بحر إيجه وكانوا يبلغون فى تقدير البعض مايقرب من ١٠٠ ألف شخص فى بعض الأخر نصف مليون . وكان من بينهم التجار وزراع التبغ والكروم وصناع الطنافس إلى جانب رجال المال وأصحاب المصارف المالية .

وكان قنزيلوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، والزعيم السياسى الكبير ، والكريشى المولد ، قد وضع مشروع إنشاء إمبراطورية شاسعة الأرجاء على أنقاض الدولة العثمانية التى تداعت ، ونحل الإمبراطورية الهيلينية المرتجاة محل هذه الدولة فى الإشراف على مرور السفن فى منطقة المضايق وتكون لها الكلمة المدسوسة فى تنظيم حركة وحرية الملاحة فى البحر الأسود . وأخذ قنزيلوس على عاتقه تنفيذ معاهدة سيفر بمساعدة قرض من بريطانيا .

فلاحتلال اليونانى كان يمثل إحدى المشكلات التى واجهها مصطفى كمال . وكانت هناك مشكلة الاحتلال الدولى لإستانبول ومنطقة المضايق . وتمثل هذا الاحتلال ، كما سبق أن ذكرنا ، فى قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية . وتنبثق عن هذه المشكلة مشكلة إشراك اليونان مع تركيا كدولتين تستمد لجنة المضايق منهما أساس وجودها ، ثم الإشراف الدولى على تنظيم حرية (م ١٧ - الدولة العثمانية)

لمرور في المضايق على النحو الذي جاءت به معاهدة سيفر . وكانت هناك مشكلة ثالثة تطل برأسها وتفرض نفسها فرضاً على قيادة الثورة الكمالية ، وهي مشكلة السلطان محمد السادس وأعضاء حكومته في إسطنبول . وكانوا يشكلون في مجموعهم أداة طيعة لينة في يد بريطانيا يأتمرون بأوامرها وتستخدمهم أداة لضرب الثورة . وقد تطلبت المشكلة الثالثة نقطة دائمة ودبلوماسية مرنة وقدرة على التحرك السريع لمواجهة أى إجراء يتخذه السلطان وحكومته لوأد الثورة الكمالية وهي في مهاتها الأولى أو العصف بها حين يكتمل نموها ويشتد ساعدها .

مؤتمر أرضروم :

كانت المجموعات الأولى للمقاومة الشعبية قد تكونت في ديسمبر - كانون أول - ١٩١٨ عقب التوقيع على هدنة مدروس . وأطلق عليها جمعيات الدفاع عن الحقوق - مدافعي حقوق - وقد ظهرت طلائع هذه الجمعيات في تراقيا وأزمير وبعض جهات في الأناضول . ووجهت نشاطها ضد اليونانيين بوجه خاص . ثم تكونت في مدينة أرضروم (١) في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٩ جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول . ودعت إلى عقد مؤتمر اجتماع في ذات المدينة في ٢٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ وحضره مندوبون عن الأقاليم في شرقي الأناضول ، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر في اليوم الأول الذي اجتمع فيه ، وقد استمرت اجتماعاته حتى ١٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٩ ، وكان أهم إنجاز قام به المؤتمر هو وضع مشروع التصريح الذي عرف فيما بعد باسم الميثاق الوطني أو ملي ميثاق .

(١) يطلق على هذه المدينة أيضاً اسم أرزن الروم - يفتح الألف وسكون الراء وفتح الزاي - وهي قسبة ولاية أرمينية التركية . وكانت هذه المدينة من أهم الحصون الواقعة على الحدود الشرقية للدولة . وكان الفرس ينتزعون هذه المدينة من الأتراك ، ولكن كان الأخيرون ينجحون دائماً في استعادتها . وتشغل المدينة حيزاً كبيراً في تاريخ الدولة العثمانية .

مؤتمر سيواس :

وفي ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ عقد المؤتمر الثاني في مدينة سيواس^(١) وكان يفوق مؤتمر أرضروم من حيث الأهمية ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد . وانتخب مرة أخرى مصطفى كمال رئيساً له ، وأيد المؤتمر قرارات مؤتمر أرضروم ، وكان من بينها المحافظة على سلامة أراضي الدولة ، والاستمساك باستقلال الشعب ، ومباشرة العمل المسلح عند الضرورة ضد الدول التي تحتل البلاد . وكان اهتمام المؤتمر موجهاً بوجه خاص إلى إتاحة جو إعلامي مناسب لإذاعة قرارات مؤتمر أرضروم وكسب التأييد الشعبي لها في جميع أنحاء تركيا . وفي هذا المؤتمر تغير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول إلى اسم أكثر شمولاً هو « جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروملي » « أناضولو وروميلي مدافعي حقوق جمعيتي » مع تشكيل لجنة دائمة من بعض أعضاء المؤتمر يرأسها مصطفى كمال . وأصبحت هذه اللجنة هي رائدة الكفاح الوطني وأداته .

إثارة الأكراد على الكمالين :

وقد ردت حكومة إستانبول بتشجيع من بريطانيا على نشاط الكمالين ، فأثارت قبائل الأكراد الضاربة في شرقي الأناضول ضد حركة مصطفى كمال . ولم تسفر هذه المحاولة عن نتائج ذات بال ، بل جاءت بنتيجة عكسية ، إذ كانت من العوامل التي أدت إلى سرعة قطع العلاقات بين حكومة إستانبول والكمالين . ويلاحظ أن مصطفى كمال ظل حريصاً معظم الوقت على ألا يبدو بمظهر الثائر على الحكومة الشرعية في إستانبول . ولما أصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه كقنصل عام للجيش الثالث - وكان مقر قيادته في سامسون على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول - امتثل لهذه « الإرادة » وكف عن لبس الزي العسكري وارتدى الملابس المدنية .

(٢) سيواس مدينة تقع في شمال الأناضول .

برلمان إستانبول يتعاطف مع الكماليين :

اكتسبت حركة مصطفى كمال أنصاراً لها في طول البلاد وعرضها ، وتمحس لها الكثيرون من سكان إس-تانبول مقر حكومة السلطان . ولما أجريت انتخابات جديدة في ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ للبرلمان العثماني الذي اجتمع في إستانبول في ١٢ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ فاز بالأغلبية فيه أنصار مصطفى كمال والمتعاطفون مع حركته . ولم يلبث أن أقر البرلمان الجديد - بعد مضي أسبوعين - صياغة الميثاق الوطني في ضوء قرارات مؤتمرى أرضروم وسيواس (١) . وقد جاء في صياغة هذا الميثاق موافقة البرلمان على أن تذلل من جسم الدولة العثمانية الولايات غير التركية التي كانت خاضعة لها . ولكن تمسك المجلس في مقابل هذه «التضحيات» بعدة مطالب منها : الحفاظ على الأناضول متحرراً من كل نفوذ أجنبي بصفة هذا الإقليم هو الموطن الأصلي للأتراك العثمانيين ، وعلى إقليم تراقيا الشرقية ، وعلى بقاء إستانبول في نطاق الدوانة التركية تأسيساً على أن هذه المدينة هي « مركز خلافة الإسلام وعاصمة السلطنة ، ومقر الحكومة » وأن يكون بحر مرمرة بمنأى عن كل خطر أجنبي . ومعنى هذه الفقرة تحرير منطقة المضائق من الوجود العسكري لدول المعسكر الغربي . وجاء في الميثاق أيضاً أن تركيا تقبل فتح البوسفور والدردنيل لمرور التجارة العالمية مع ضرورة إسهامها في النظام الذي يوضع لمرور التجارة العالمية (٢) . ويلاحظ أنه لم يرد نص في الميثاق لمرور السفن الحربية سواء للدول

(١) لم تطل الحياة بهذا البرلمان ، فقد عقد آخر جلسة له في ١٨ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ حيث أصدر قراراً بالإجماع بالاحتجاج على القبض على بعض أعضائه ، ثم قرر تأجيل اجتماعاته إلى أجل غير مسمى .

ويبدو أن السلطان ساءه إقرار البرلمان بصياغة الميثاق الوطني ، فأصدر في ١١ من أبريل - نيسان - ١٩٢٠ قراراً بجعل البرلمان وقد وُضع هذا القرار نهاية الحياة النيابية في إستانبول

(٢) Toynbee Arnold J. ; The Western Question in Greece and Turkey. London., 1922, pp. 209—210.

الصديقة أو الدول العدو أو في وقت السلم أو زمن الحرب . وقال الميثاق إن هذه المبادئ هي التي تكفل قيام سلام عادل ودائم .

تعزير الاحتلال الأجنبي لإستانبول سنة ١٩٢٠ :

نشط أنصار مصطفى كمال في إستانبول وساعدوا الحركة الثورية قولا وعملا ، فأخذوا يهاجمون مستودعات الأسلحة والذخائر التابعة لقوات بريطانيا وحليفاتها ، ويرسلون مايتولون عليه إلى الأناضول كغنائم حرب . واتخذت بريطانيا وحليفاتها إجراءات مضادة وسريعة . حامت شكوكها حول على رضا باشا الصدر الأعظم واتهمته بأنه ضالع مع الكمالين ، وطلبت سلطات الاحتلال من السلطان إقالته من منصبه . والحق أن على رضا باشا لم يكن مؤيداً للكمالين قلباً وقالباً ، ولكنه كان متعاطفاً معهم . واستجاب السلطان لطلب سلطات الاحتلال بصورة أو أخرى . فاستقال الصدر الأعظم في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ وكان خروجه من رئاسة الوزارة أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ؛ وعين مكانه صالح باشا وزير البحرية في ٨ من ذات الشهر . وقرر المجلس الأعلى للقوات المتحالفة في ذات اليوم تعزير قوات الاحتلال في إستانبول . ودخلت في ١٦ من مارس - آذار - قوات بريطانية رابطة في شتى أحياء العاصمة إلى جانب القوات السابقة . وأمر الجنرال ولسن Wilson القائد العام للقوات المتحالفة بالقبض على المشتبه في أنهم من أنصار الكمالين ، ثم أمر بنفيهم إلى مالطة . وبلغ عددهم ١٥٠ كان من بينهم عدد من النواب . ولم يطلق سراحهم إلا في سنة ١٩٢١ في مقابل الإفراج عن ضباط بريطانيين اختطفهم الكماليون في الأناضول واحتفظوا بهم كرهائن حتى تفرج الحكومة البريطانية عن الوطنيين المعتقلين في مالطة .

المجلس الوطني الكبير :

دعا مصطفى كمال في ١٩ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ ، وهو اليوم التالي لتأجيل اجتماعات برلمان إستانبول ، إلى إجراء انتخابات تجرى في مدة وجيزة لعقد مؤتمر طوارئ يجتمع في أنقرة حيث كانت اللجنة الدائمة قد

اتخذتها مقراً لها منذ ٢٧ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ . وقد قدر لهذه المدينة الجبلية الصغيرة في الأناضول أن تصبح مقراً لحركة المقاومة الوطنية ثم تغدو عاصمة لجمهورية تركيا . واجتمع في ٢٣ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ في أنقرة ما عرف باسم المجلس الوطني الكبير . وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً أضيف إليهم ثمانون كانوا قد غادورا لإستانبول في يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ وحاول أعضاء المجلس إلى ذلك الوقت الوقت الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتخذوا مظهر الثوار . وفي ضوء هذه المحاولة أعلن الأعضاء ولاءهم لمحمد وحيد الدين بصفتهم سلطاناً للإمبراطورية وخليفة للإسلام وأعربوا عن رغبتهم في « إنفاذه من أيدي الأعداء » .

الصراع السافر بين السلطان والكماليين :

جاءت هذه المحاولة بنتيجة عكسية ، إذ ظن السلطان أنها دليل الضعف ، فحاض صراعاً عنيفاً سافراً ضد الكماليين ، كان من مظاهر هذا الصراع :

(أ) عين السلطان في ٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ داماد (١) فريد باشا صدرأ أعظم . وكان معروفاً بعدائه الشديد للكماليين .

(ب) استصدر السلطان من شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - واسمه درى زاده عبد الله أفندي - فتوى تبيح قتل العصاة بناء على أوامر الخليفة . ويعتبر درى زاده عيسد الله أفندي قتلهم فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

(ج) أصدر الصدر الأعظم إعلاناً دمع فيه بالبطلان الانتخابات التي دعا إليها مصطفى كمال ، واتهم الأعضاء بأنهم منافقون مخادعون ، وأنهم لا يمثلون الشعب التركي .

(د) أنشأت الحكومة في ١٧ من أبريل - نيسان - قوات عسكرية أطلقت عليها قوات نظامية - قوة انضباطية - لمحاربة الكماليين .

(١) كلمة تركية . ماها صهو

(هـ) صدرت في ١١ من مايو - آيار - أحكام غيايية من محاكم عسكرية في إستانبول بإعدام مصطفى كمال ورفاقه .

وهكذا استخدم السلطان وأعضاء حكومته جميع ما في جعبتهم من أسلحة دينية وعسكرية وقضائية وسياسية للقضاء على القوة الجديدة التي ظهرت ونمت سريعاً في الأناضول .

وقد رد الكماليون على السلطان وحكومته رداً عملياً بنفس الأسلحة وكان من بينها :

(أ) في ليلة ٣ - ٤ مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ عين المجلس الوطني الكبير مجلس وزراء في أنقرة .

(ب) في ٥ من مايو - آيار - أصدر مفتي أنقرة واسمه بوركشفي زاده محمد رفعت أفندي فنوي وقع عليها ١٥٢ مفتياً في الأناضول جاء فيها أن الفتوى الصادرة من شيخ الإسلام فتوى باطلة تأسيساً على أنها صدرت تحت الضغط الأجنبي . ودعت الفتوى المسلمين « لتحرير خليفتهم من الأسر » .

(ج) أعلن المجلس الوطني الكبير أن داماد فريد باشا خائن (١) .

ويلاحظ أن قرارات الكمالين جاءت ماسة بثلاث شخصيات كانت أكبر الشخصيات على الإطلاق التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية عبر تاريخها الطويل ، وكانت محل التبجيل العميق من الجماهير التركية ورعايا الدولة المسلمين ، ونعني بهذه الشخصيات : السلطان ، وشيخ الإسلام ، والصدر الأعظم . ولذلك لم يكن استقبال الشعب لهذه القرارات فاتراً فحسب ، بل قامت مظاهرات احتجاجاً عليها . وكانت حكومة إستانبول تشجع هذه المظاهرات .

معاهدة سيفر تخدم الكمالين في وقت عصيب :

اكفهر الجو السياسي أمام الكمالين ، ولكنها كانت أزمة عابرة ، وبدأ الموقف يتحول لصالحهم . كان الوفد التركي الذي يمثل حكومة السلطان لدى

مؤتمر الصلح قد وقع في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ على معاهدة سيفر. وقد أثار هذا الحادث موجة عارمة من السخط على المعاهدة وعلى الموقعين عليها. ونظرت الجماهير إلى السلطان وحكومته على أنهم رمز للهزيمة والتفريط في حقوق البلاد. وسمت مكانة الكماليين. وكان نجاحهم في محاربة اليونانيين قد ربط بين الكماليين والقضية الوطنية، وجعل معارضة الحركة الكمالية - بدلا من تأييدها - بمثابة خيانة للوطن.

حكومتان في تركيا :

ونجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت في تركيا حكومتان في وقت واحد : حكومة في إستانبول لا حول لها ولا قوة ، يرأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعي^(١) de jure يستمد وجوده من حق توارث العرش العثماني ، وحكومة في أنقرة ذات سلطات واسعة متعددة يرأسها مصطفى كمال وهو حاكم فعلي^(٢) de facto أى حاكم يستند في ممارسة سلطاته إلى الأمر

(١) مصطلح قانوني معناه يستند إلى القانون والحق Le droit

(٢) مصطلح قانوني معناه يستند إلى الأمر الواقع Le fait

وفي العلاقات الدولية يستخدم هذان المصطلحان عند التفرقة بين نوعين من اعتراف الدول بدولة جديدة ناشئة أو بحكومة جديدة قامت بانقلاب في دولة قديمة قائمة وأدى إلى قيام نظام جديد nouveau régime للحكم فيها ، فيقال الاعتراف القانوني de jure أو Reconnaissance de droit وهو الاعتراف الصريح المباشر ، والاعتراف بالواقع de facto أو Reconnaissance de fait ويكون هذا الاعتراف عن طريق إنشاء علاقات مع الدولة الجديدة دون التعرض بصفة رسمية لصريحية لموضوع وجودها القانوني. وهذا ما حدث فعلا للحكومة أنقرة فقد اعترف بها بعض الدول مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا وفارس وأفغانستان في الوقت الذي كانت لا تزال حكومة إستانبول قائمة برياسة السلطان محمد السادس ومع أجهزة الحكم مثل الصدر الأعظم ومفتي إستانبول والوزراء. ومرد التفرقة في الاعتراف إلى حيطة الدبلوماسيين حتى لا يؤخذ عليهم التسرع في الاعتراف نهائياً بدولة ناشئة إذا كانت ظروف قيامها تتطلب التريث في الاعتراف بها من ناحية ، وحتى لا تتأخر ممارستها لنشاطها الخارجي حين استقرار وضعها تماماً من ناحية أخرى ، فتعتمد الدول إلى الاعتراف بواقع وجودها أولاً حتى يستقر لها الأمر =

الواقع . وكانت توجد إلى سنوات ذات عدد في التاريخ المعاصر حالة مماثلة للحكومة المزدوجة في دولة واحدة هي الصين (١).

= فتصدر لها اعترافها القانوني . وللتفرقة بين الاعتراف بالواقع والاعتراف القانوني وزن في المجال الدبلوماسي ، ولكن لا أثر لهذه التفرقة في المحيط القانوني ، فالاعتراف ، سواء كان اعترافاً قانونياً أو اعترافاً بالواقع ، ترتب عليه ذات الآثار بالنسبة للدولة الصادر منها والدولة الصادر إليها . وجدير بالذكر أن فقهاء القانون الدولي العام يفرقون بين الاعتراف بالدولة ، ومحل صدوره ظهور دولة جديدة ، والاعتراف بحكومة جديدة أقامت نظام حكم جديد في دولة قديمة قائمة ، مع مراعاة هذا المبدأ الأساسي الذي لا يفضل نقاشاً ، وهو أن لكل دولة مطلق الحرية في أن تتخذ نظام الحكم الذي يراهى لها ، دون أن يكون للدول الأخرى سلطان عليها في هذا الأمر ، وإلا كان ذلك تدخلاً في شئونها الخاصة . ويكفى من أجل الاعتراف بالحكومة الجديدة أن يثبت أنها تمارس شئون الحكم فعلاً داخل الدولة ، وأن في استطاعتها وفي نيّتها الوفاء بالتزاماتها الدولية .

دكتور على صادق أبوهيف : القانون الدولي العام . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، صص ١٥٩ - ١٧٢ .

(١) بدأت المشكلة في سنة ١٩٤٩ على أثر انتصار قوات ماوتسى تونج الشيوعية على قوات حكومة تشانج كاي شيك الوطنية ، واستيلاء الأولى على مقاليد الحكم في الصين وتطبيق النظام الاشتراكي في أرجاء البلاد ، والتجاء الثانية إلى جزيرة فرموزا وإقامة الحكم فيها باسم الصين الوطنية. وبذلك أصبح في الصين حكومتان في وقت واحد : حكومة جديدة يرأسها ماوتسى تونج هي حكومة الصين الشعبية ونسيطر على كل أقاليم الصين في آسيا بمساحاتها الشاسعة وما يزيد على ٧٥٠ مليون نسمة . والحكومة القديمة برياسة تشانج كاي شيك ، واقتصر سلطانها على جزيرة فرموزا والجزر الصغيرة المجاورة لها ، وتعدادها لا يزيد كثيراً على ستة ملايين نسمة . واعترفت بعض الدول بحكومة بكين ، بينما رفضت الدول الأخرى الاعتراف بها . وتجمد الوضع على هذا النحو زهاء ٢٢ سنة . وزاده حدة مشكلة عضوية الصين في الأمم المتحدة ، لأن الصين إحدى الدول الخمس التي تتمتع بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن . وكان مقتضى المنطق القانوني لهذا التطور أن تحمل الصين الشعبية محل الصين الوطنية في عضوية الأمم المتحدة ، وما يترتب على ذلك من حق العضوية الدائمة في مجلس الأمن ، لأن الفقرة الأولى من المادة ٢٣ من الميثاق عند ما أشارت إلى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ذكرت الصين مجردة من كل وصف . ويلاحظ أن منظمة الأمم المتحدة قد نشأت قبل قيام الثورة الاشتراكية في الصين . وقد وقفت دول الغرب وتكتلت لمنع الصين الشعبية من عضوية الأمم المتحدة . وانتهى هذا الصراع في الدورة السادسة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة، إذ وافقت بجملة ٢٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٧١ على لإحلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية .

من أسباب نجاح الثورة الكمالية :

كانت محاربة اليونانيين هي المشكلة الأولى التي فرضت نفسها على الكماليين ، واحتلت مكان الصدارة في خططهم اعتقاداً منهم أن لإجلاء اليونانيين عن أزمير وطردهم من الأناضول هما مفتاح جميع المشكلات التي سوف تتوارى أو تخف حدتها تلقائياً ، الأمر الذي يؤدي في نهاية الكفاح إلى إلغاء معاهدة سيفر .

كان اليونانيون عند نزولهم أزمير سنة ١٩١٩ أكثر عدداً وعدة، وأنزلوا بالأتراك هزائم متتالية واستولوا على بروسة وتوغاوا في الأناضول . ولكن بدأ الموقف مع بداية سنة ١٩٢١ يتطور تطوراً سريعاً لصالح الكماليين . وكان هناك عاملان حاسمان في هذا التطور : أولهما شجاعة الأتراك كشعب محارب من الطراز الأول عقد العزم على إنزال الراية اليونانية المزدرة في عينه والتي كانت تخفق عالية فوق أزمير وبقاع أخرى في الأناضول وتراقية وغيرها . وثانيهما تصدع الجبهة الداخلية في اليونان ، فقد انتزع الموت فجأة إسكندر ملك اليونان الشاب على أثر عضه قرد أليف . وفي أعقاب هذا الحادث جرت انتخابات عامة أسفرت عن تنحية فنزيلاوس عن رئاسة الوزارة في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ومغادرته البلاد (١) . وتعرض

= انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد سرحان : التنظيم الدولي . الناشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

وبما هو جدير بالذكر أن الزعيم ماوتسي تونج وافاه الأجل في الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة من صباح الخميس ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٧٦ بتوقيت بكين (في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة من مساء الأربعاء ٨ من شهر سبتمبر - أيلول - بتوقيت القاهرة) عن ٨٢ عاماً ، وكان آخر عمالقة العصر الذي قاد مسيرة الصين الطويلة من عالم التخلف وال فقر لتصبح واحدة من قوى العالم الأساسية في التاريخ المعاصر .

(١) أنظر أسباب صدوف الشعب اليوناني عن فنزيلوس في

العرش اليونانى لهزات عنيفة فى تلك الفترة. حين أحد كبار ضباط البحرية اليونانية وصياً على العرش (١) ثم حامت مكانه بعد شهر وبعض شهور المالكة الوالدة أولجا (٢) Olga ، ثم أجرى استفتاء عام جادت نتيجته لمصلحة قسطنطين الملك الأسبق، وكان قد أقضى عن العرش سنة ١٩١٧ ميلوله الصارخة تجاه ألمانيا ، فعاد إلى العرش فى ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ ومعه حاشيته الألمانية، وامتنعت دول المعسكر الغربى فترة طويلة عن الاعتراف به. والحق أن إقصاء فنزيبوس عن الحكم قد حرم اليونان من عطف بريطانيا وبعض قطاعات الرأى العام بها ، كما ضيع عليها فرصة الاستيلاء على الأناضول أو نصفه الغربى على الأقل نظراً لما كان يتمتع به هذا الزعيم السياسى من تقدير عميق من رجال السياسة فى أوروبا للخدمات الجليلة التى أسداها للمعسكر الغربى، وما كان يتحلى به من عقلية رحبية الآفاق ودهاء وبهد نظر وقيادة حكيمة .

كان الملك قسطنطين مغامراً متهوراً ، بينما كان فنزيبوس حذراً يتجنب التوغل داخل الأناضول بعيداً عن الساحل لمهاجمة الكماليين . وقد صمم الملك على أن يزحف على أنقرة وينطاق فى المضاب الصحرية الجرداء المحيطة بهذه المدينة أملاً فى فرض شروطه على الكماليين من مرتفعات الأناضول . وكان الدافع له على هذه الخطة الحربية حرصه على عرشه وتحقيق مصلحة أمرته . وكان يأمل فى أن يجد من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية عوناً مادياً وتأييداً أديباً يكفلان له النجاح . وتوقع الخبراء العسكريون فى أوروبا

(١) كان هذا الضابط البحرى هو الأدميرال كونتوريوتس Admiral Kountouriotis وقد ظل وصياً على العرش فى الفترة من ٢ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٠ حتى ١٦ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ، ثم عين وصياً على العرش مرة أخرى فى الفترة من ٢٠ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٣ حتى ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ تاريخ إعلان قيام الجمهورية الهلينية ، وانتخب رئيساً للجمهورية فى ١٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٤ وأعيد انتخابه فى ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٦ .

(٢) ظلت المالكة الوالدة وصية على العرش فى الفترة من ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ حتى ٤ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ .

وقتذاك فشاء في الوصول إلى مشارف أنقره . وكان من تصرفاته التي اتسمت بالحماقة وسبغت عليه أنه طرد من الخدمة عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش بحجة أنهم من أنصار فنزيلوس مما أدى إلى حرمان الجيش من كفايات عالية في وقت عصيب كان يتطلب حشد جميع الجهود والارتفاع بالمستوى القتالي ليستطيع الجيش الصمود أمام الكمالين .^١

الانتصارات الأولى للثورة على اليونانيين :

أتاح هذا التصدع في الجبهة الداخلية اليونانية فرصة مواتية أمام الكمالين لإنزال ضربات موجعة باليونانيين . ففي ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ تصدت قوة تركية بقيادة عصمت لليونانيين في واد قريب من إينونو . ودارت معركة استمرت يومى ٣١ مارس - آذار - وأول أبريل - نيسان - وردت اليونانيين على أعقابهم خاسرين . ولقى عصمت تقديراً عميقاً . أطلق عليه عصمت إينونو تمجيذاً لبطولته في إيقاع الهزيمة باليونانيين ، كما رقي إلى رتبة عميد . ولم يلبث أن قام اليونانيون بزحف جديد بدأ في يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ والتقوا بالكمالين عند نهر سقارية حيث نشبت معركة كبرى . وكان مصطفي كمال يقود القوات التركية ، وأحرزت إنتصاراً رائعاً وانسحب اليونانيون مرة أخرى في اتجاه الغرب . وفي غمرة الانتهاج بهذا الانتصار أصدر المجلس الوطني الكبير قراراً بمنح مصطفي كمال لقب « غازى » ومعناه في اللغة التركية « الظافر في حرب مقدسة » . وكان لانتصار الكمالين في سقارية أصداء بعيدة : اعترف بهم دولياً كقوة عسكرية وسياسية لها وزنها في تركيا ، بينما اعترف البعض بهم كحكومة قائمة على أساس من الأمر الواقع *de facto* في تركيا .

اليونانيون يسعون لانتصار رحيص :

وقد سعى اليونانيون وسط هذه الهزائم التي نزلت بهم إلى إحراز نصر رحيص . فحصلت الوزارة اليونانية الائتلافية بملذكرة في يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٢ إلى بريطانيا وحليفاتها طالبت فيها بأن تسمح هذه الدول الحليفة

لقوات اليونانية باحتلال إستانبول . وجاء في المذكرة أن احتلالها والاستيلاء عليها هو الذى يؤدي - في نظر الوزارة اليونانية - إلى استتباب السلام في المنطقة . ومن المعروف - كما ذكرنا - أن القوات التابعة لبريطانيا وحليفاتها كانت تحتل إستانبول . ومعنى المذكرة اليونانية أن تتخلى القوات المتحالفة عن موافعها وتغادر العاصمة التركية لتحتلها القوات اليونانية دون أن تطلق طلقة رصاص واحدة . وقد رفضت المذكرة جميع الدول عدا بريطانيا التي تأرجحت في موقفها . وهددت تلك الدول بأنها سوف تستخدم القوة إذا حاولت اليونان تنفيذ مشروعها . وكان مرد هذا الرفض إلى أن دول المعسكر الغربي كانت تعلم علماً يقينياً أن الاحتلال اليوناني لإستانبول سيؤدي إلى تصعيد الموقف في المنطقة تصعيداً خطيراً . وإذا كان الكمايون قد نظروا إلى احتلال اليونانيين لأزمير على أنه إهانة لاتطاق ، فإنهم سينظرون إلى احتلال اليونانيين لإستانبول عاصمة الإمبراطورية على أنه كارثة وطنية تضاعل أمامها جميع الكوارث . وسيحماون الملاح في وجه اليونانيين في إستانبول الأمر الذى يؤدي إلى إشعال حرب في العاصمة ومنطقتها مما يعرض المدن في عبورها البوسفور لشتى الأخطار .

الكمايون يتفقون مع الروس على مستقبل البحر الأسود والمضائق :

وكما كانت سنة ١٩٢١ هي سنة الانتصارات العسكرية التي حققها الكمايون ، فقد كانت أيضا سنة انتصارات دبلوماسية حققوها في المحلات الدولية . فقد رأوا دعماً للحركة الكمالية إنشاء علاقات صداقة مع عدد من الدول . وسرعان ما حدث لقاء سياسي ودبلوماسي مع حكومة موسكو . استغلت الحكومة الأخيرة الصعوبات التي كانت تواجهها الحركة الكمالية ، إذ كانت بريطانيا تؤيد قلباً وقالباً اليونانيين واحتلالهم أزمير ، وتساند استمرار الاحتلال الفرنسي والإيطالي لمناطق هامة في الأناضول ، ومن ثم سعى النظام السياسي الجديد في روسيا ليكتسب تأييداً شعبياً واسعاً ضد بريطانيا وحليفاتها التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، أملاً في احتضان الشعوب المقهورة ، والتظاهر بمساعدتها ضد قاهريها من الدول

الأوروبية . عملت الحكومة الاشتراكية في موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع أنقرة منذ ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ . وقد وصل إلى موسكو في ٨ من نوفمبر - تشرين ثان - أول مبعوث دبلوماسي تركي يمثل الحركة الكمالية ليشغل منصبه . وتوصلت الحكومتان إلى عقد معاهدة في موسكو في ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢١ أطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا والروسيا . وأطلق على تركيا في هذه المعاهدة اسم حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ، كما أطلق على روسيا اسم الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية (١) R. S. F. S. R. .

وقد جاء في مقدمة المعاهدة أو الديباجة Le Préambule - وفقاً للمصطلح القانوني - أن هاتين الحكومتين تشتركان في دعم مبادئ حرية الشعوب وفي تأييد حق كل أمة في تقرير مصيرها ، وقضمان في اعتبارهما الكفاح المشترك الذي تخوضه كل منهما ضد الاستعمار ، وتدركان أن الصعاب التي تواجهها إحدى الحكومتين تنعكس على الحكومة الأخرى مما يجعل مركزها أكثر سوءاً . وجاء أيضاً في مقدمة المعاهدة أن تلكما الحكومتين تحددوهما رغبة في إنشاء علاقات صداقة دائمة تقوم على المصالح المشتركة ، وأنهما قررتا عقد اتفاق يؤكد علاقات المودة والصداقة بين البلدين .

اشتملت أحكام المعاهدة Le Dispositif على ست عشرة مادة . وقد جاءت المادة الأولى من المعاهدة بعدة مبادئ هامة استهدفت دعم مركز الثورة الكمالية في مواجهة بريطانيا وحليفاتها وفي مواجهة حكومة السلطان في إستانبول . ومن بين هذه المبادئ رفض حكومة موسكو الاعتراف بمعاهدة سيفر التي فرضت على تركيا في السنة السابقة (١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠) ، وفي ذات الوقت وفي نفس المادة اعترفت

(١) تمثل هذه الحروف ، الاسم الرسمي للروسيا في ذلك الوقت (سنة ١٩٢١)

Russian Socialist Federal Soviet Republic

ويرمز إلى اسمها حالياً (سنة ١٩٧٧) بالحروف التالية U.S.S.R. أي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتختصر هذه الحروف عادة إلى حرفين هما : Soviet Union S.U. أي الاتحاد السوفيتي .

موسكو بالميثاق الوطنى التركى ، وأعدت تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا . نصت هذه المادة على أن الطرفين المتعاقدين قد اتفقا على رفض الاعتراف بأية معاهدة سلام أو أى اتفاق دولى آخر يفرض على الطرف الآخر ضد رغبته . وخلصت من هذا المبدأ العام إلى القول بأن الحكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية توافق على عدم الاعتراف بأى اتفاق دولى يخص تركيا ولم توافق عليه الحكومة الوطنية فى تركيا والتي تتمثل فى ذلك الوقت فى المجلس الوطنى الكبير . ومضت المادة الأولى من المعاهدة تقرر أن تعبر تركيا فى هذه المعاهدة يعنى الأقاليم التى حددها الميثاق الوطنى المؤرخ فى ٢٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ والذى صدر عن مجلس النواب العثمانى فى إستانبول وأبلغ فى ذلك الوقت إلى الصحافة وإلى جميع الحكومات الأجنبية . وأخيراً تناولت المادة الأولى تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا .

ونصت المادة الثانية على أن تنازل تركيا لجورجيا عن حق السيادة على مدينة وثغر باطوم على البحر الأسود وأن يمارس سكانها قسماً وافراً من الحكم الذاتى يضمن لكل طائفة حقوقها الثقافية والدينية، ويسمح لهم بوضع القوانين الزراعية طبقاً لرغبات هؤلاء السكان . ولكن تقرر منح تركيا حق المرور الحافى لجميع الصادرات والواردات التركية فى ثغر باطوم بدون دفع ضرائب أو رسوم جمركية وبدون معوقات أو تأخير ، كما تقرر حق تركيا فى استخدام ثغر باطوم بدون مصاريف خصوصية .

وتعرضت المادة الخامسة لموضوع مرور السفن عبر المضائق والوضع السياسى للبحر الأسود ، فجاءت صياغتها على النحو التالى :

« من أجل ضمان فتح المضائق لتجارة جميع الشعوب، يوافق الطرفان المتعاقدان على أن يعهدا بوضع الصياغة النهائية لاتفاق دولى خاص بالبحر الأسود إلى مؤتمر يتكون من مندوبين يمثلون الدول الساحلية (لهذا البحر) بشرط ألا يكون من طبيعة قرارات هذا المؤتمر المساس بالسيادة الكاملة لتركيا وبسلامة إستانبول عاصمتها » .

In order to assure the opening of the Straits to the commerce of all nations, the Contracting Parties agree to entrust the final elaboration of an international agreement concerning the Black Sea to a conference composed of delegates of the littoral States, on condition that the decisions of the abovementioned conference shall not be of such a nature as to diminish the full sovereignty of Turkey or the security of Constantinople, her capital.

ويلاحظ على هذه المادة أنها جاءت متتضبة وانطوت على مبادئ عامة ، دون أن تتعرض لأية تفصيلات ، فهي تقرر حرية المرور لجميع السفن التجارية في الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور ، وأعلنت ذكر السفن الحربية سواء السفن التابعة لتركيا أو روسيا ، وسواء السفن التابعة للدول الأخرى . وكان هذا الإغفال متعمداً . كما سجلت تلك المادة عزم الحكومتين على عقد مؤتمر يمثل تركيا وروسيا وبلغاريا ورومانيا بصفتها دولاً تطل على الأسود لتقرير الوضع السياسي لهذا البحر فيما عدا ثغر باطوم على النحو الذي أشارت إليه المادة الثانية كما سبق أن ذكرنا . واحتاطت المادة الخامسة بالنص على عدم المساس بالسيادة الكاملة لتركيا ، وعلى بقاء إستانبول عاصمة لتركيا وعلى المحافظة على سلامتها أى تحريرها وتحرير مياهها الإقليمية من القوات الأجنبية .

وجاء في المادة السادسة أن الطرفين المتعاقدين يوافقان على أن المعاهدات التي أبرمت إلى ذلك الوقت بين الحكومتين لا تتماشى مع مصالحهما المشتركة . وعلى ذلك فقد اتفقا على اعتبار هذه المعاهدات ملغاة . كما نصت ذات المادة على موافقة حكومة موسكو على إعفاء ذمة الحكومة التركية من جميع ديونها والتزاماتها المالية التي تقرر في معاهدات سبق أن عهدت بين تركيا والحكومة القيصريّة السابقة .

وجاء في المادة السابعة أن الحكومة الاشتراكية في موسكو توافق على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في تركيا (١) نأسيهاً على أن هذا النظام لا يتماشى

(١) كانت معاهدة سيفر قد أعادت هذا النظام إلى تركيا ، على الرغم من أن الحكومة العثمانية كانت قد أرسلت منشوراً إلى الدول الأجنبية مؤرخاً في ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ تخطرها بإلغاء هذا النظام اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ .

مع الممارسة الكاملة لحقوق السيادة ومع التقدم الوطني في أى بلد . وقد تناولت المواد من ٨ إلى ١٦ في تلك المعاهدة مسائل لا تدخل في نطاق هذه الدراسة (١) .

مزيد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية :

حققت الحركة الكمالية مزيداً من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية . كانت القوات الإيطالية والفرنسية تحتل مناطق هامة في جنوبي الأناضول مما يجعل نفوذ تركيا في شمالي الحوض الشرقي للبحر المتوسط سراباً . مضت قوات الاحتلال الإيطالية والفرنسية توطن مواقعها ولا تبغى الجلاء عنها . وخاض الكماليون حرب استنزاف ضارية . ورأت إيطاليا سحب قواتها من الأناضول ، وتم جلاؤها في ٥ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ فكانت إيطاليا أول دولة تجلو عن الأناضول . ولكنها احتفظت بجزر الدوديكانيز أما فرنسا فقد استمرت تحتل مناطق هامة في جنوبي الأناضول ، وشدد الكماليون ضغطهم على القوات الفرنسية ولجأوا إلى حرب العصابات وأنزلوا خسائر فادحة متعاقبة بالقوات الفرنسية وبخاصة في كيليكيا Cilicie - وهى منطقة جبلية تقع في إقليم طوروس ، في جنوب شرق الأناضول وشمالي سوريا - وعلى الرغم من الهدنة المؤقتة التي عقدت في ٣٠ من شهر

(١) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة في كل من :

British and Foreign State Papers, Vol. 118, pp 990—996.

Survey of International Affairs, 1920—1923, pp 361—376.

وانظر أيضاً كلا من :

Dennis A.L.P.; Foreign Policies of Soviet Russia, chaps. 9,10.

Fischer L., Soviets in World Affairs, Vol I, Chap. 12.

وانظر كذلك مقالا بعنوان :

Les Relations Russo—Tuiques depuis l'avènement du Bolchevisme

في مجلة

Revue du Monde Musulman, No. 25 (Decembre, 1922) pp. 181—206.

وقد تم تبادل وتائق التصديق على هذه المعاهدة في مدينة قارس في ١٣ من شهر سبتمبر -

أيلول - سنة ١٩٢١ .

(م ١٨ - الدولة العثمانية)

مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ فقد استمرت العمليات الحربية بين الكمالين والفرنسيين تدور في عنف بالغ . ورجحت كفة الكمالين ، واضطرت فرنسا إلى إعادة تقدير الموقف الحربى والسياسى فى منطقة الشرق الأدنى كلها ، ومن ثم قررت فى مارس - آذار - سنة ١٩٢١ الاعتراف بالحكومة الكمالية *de facto* ، ولم تمض ستة أشهر حتى قررت الجلاء عن منطقة كيليكيا كى تتفرغ لتركيز جهودها على سوريا ولبنان . وقد عقد اتفاق *accord* فى مدينة أنقرة فى ٢٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ عرف باسم اتفاق فرانكلين بويو *Henri Franklin - Bouillon* وهو المندوب الفرنسى الذى وقع على الاتفاق (١). وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق لم يتعرض لمشكلة مرور السفن التجارية والحربية فى المضائق ولا لتقرير السيادة التركية على منطقة المضائق إلا أنه تناول مسائل بالغة الأهمية . فقد قرر لإنهاء حالة الحرب بين الكمالين والفرنسيين، وجلاء القوات الفرنسية كلية عن منطقة كيليكيا ، وأعاد تخطيط الحدود بين تركيا وسوريا على نحو أفضل من الحدود التى قررتها معاهدة سيفر من وجهة المصالح التركية ، واستولى الكماليون على كميات وفيرة من الذخائر والأسلحة كانت فى مستودعات الجيش الفرنسى فى كيليكيا ، واستعادوا الأسرى الذين كانوا فى أيدي الفرنسيين (٢) . واستطاع الكماليون تعزيز قواتهم التى كانت تحارب فرنسا وتوجيهها إلى تصفية الاحتلال اليونانى وطرد اليونانيين كلية من

(١) كان المندوب التركى هو يوسف كمال بك وزير خارجية الحكومة الوطنية فى أنقرة .

(٢) تجدد النص الرسمى الكامل لهذا الاتفاق فى :

League of Nations. Treaty Series, No 1284, Vol. 54 (1926-27), pp. 178-193.

وانظر أيضاً كلا من :

Temperley H.W.V., History of the Paris Peace Conference, Vol. VI pp. 33-35.

Cumming H.H., Franco British Rivalry in the Post-War Near East. chapter XII.

Vere-Hodge E.R., Turkish Foreign Policy, 1918-1948, pp. 33-37.

وقد أقرت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق ودخل فى دور التنفيذ ابتداء من ٢٨ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ .

الأناضول . وبعد هذا الاتفاق أول اتفاق يعقد بين الحكومة الكمالية في أنقرة وبين دولة أوروبية غربية . وقد كشف هذا الاتفاق عن عمق الاختلاف بين السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية تجاه المشكلات الخاصة بتصفية ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأدنى .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركي الفرنسي (١) وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدعم مركز الكماليين سواء في الداخل تجاه حكومة السلطان ، أو في الخارج تجاه اليونان وبريطانيا . وحصل الكماليون على كميات وفيرة إضافية من الأسلحة . وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمفردهم الموقف الحربي أمام الكماليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية .

الكماليون يحرزون انتصاراً حاسماً على اليونانيين بطردهم من الأناضول :

في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٢٢ كان اللقاء الحاسم في حرب التحرير التي خاضها الكماليون ضد اليونانيين في الأناضول ، فقد أحرزوا انتصاراً ساحقاً على اليونانيين في دملينار Dumlupinar وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير في ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وأشعلوا النيران في جميع الأحياء اليونانية في المدينة وذبحوا جميع من صادفهم من الجيش اليوناني . وأنقذت سفن بريطانيا وحليفاتها جموعاً كثيفة العدد من المسيحيين هاموا على وجوههم فراراً من الكماليين . ولم يضع هذا الانتصار الساحق نهاية للحكم اليوناني في الأناضول فحسب ، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لمقام اليونانيين في هذا الإقليم ، لأن مصطلق كمال لم يقنع بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط ، بل طرد كل يوناني كان يقطن الأناضول ، خشية أن يقوم بقايا اليونانيين في الأناضول بتكوين طابور خامس أو تشكيل جيوب يونانية قد تنقلب على الكماليين في قابل الأيام . وطارت أحلام اليونانيين في إنشاء دولة لهم في الأناضول . واشتد سخط

(١) نجحت حكومة أنقرة أيضاً في عقد معاهدات صداقة مع جمهورية القوقاز وفارس وأفغانستان . وكان إبرام هذه المعاهدات دعماً سياسياً وأديباً كبيراً للحركة الكمالية .

اليونانيين على ملكهم قسطنطين ، واعتبروه المستول الأول عن هذه الكارثة التي أرجعوها إلى سوء تدبيره واندفاعه في توغله في هضاب الأناضول بعيداً عن الساحل ، واستقروا رأياً على أن « وجوده على العرش قد حرم أصدقاء اليونان الأقوياء من مساعدتها » (١). وفي ذات الشهر أكره على التنازل عن العرش ، وكتب وثيقة التنازل عن العرش بالقلم الرصاص في ٢٧ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وغادر البلاد إلى بالرمو Palerme في جزيرة صقلية. ولم تطل به الحياة فقد وافاه الأجل في ١١ من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٣ .

أثر تغيير وزارى فى بريطانيا على الكمالين :

استعد مصطفى كمال لمواصلة الصراع الحربى فى تركيا الأوروبية لطرد اليونانيين من تراقيا الشرقية . وكان عليه فى هذه المرحلة أن يعبر الدردنيل ، وكانت تحتله قوات تابعة لبريطانيا وظل البريطانيون فى مواقعهم لا يبغون عنها حولا. ولاح أن صداماً مسلحاً وشيك الوقوع بين الكمالين والبريطانيين أمر لامفر منه . فرئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ، متعاطف مع اليونانيين كما ذكرنا ، وقد صرح بأنه سيدافع عن « حرية المضايق » وأنه سيقف فى وجه هجوم الكمالين ويمنعهم من العبور إلى أوروبا . وهو تهديد سافر أزعج أقطاب حزب المحافظين وخشوا اندلاع حرب جديدة فى منطقة الشرق الأدنى The Near East كما كانت تسمى فى ذلك الوقت . وخشوا أن تمتد لهيب هذه الحرب إلى أوروبا ، فعقدوا اجتماعاً فى مقر حزبهم فى أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ وقرروا الانسحاب من الوزارة الائتلافية ، واضطر لويد جورج إلى تقديم استقالة الوزارة . وجاءت إلى الحكم وزارة المحافظين برياسة ستانلى بلدوين Stanley Baldwin . عقب انتخابات عامة وتخلص الكماليون من خصم قوى عنيد كان يضم الكراهية للأتراك بصفة عامة .

الفصل العاشر

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (٤)

الكماليون بمحسون عار سيشر

تراجع بريطانيا وحليفاتها :

لم تجد معاهدة سيشر من ينفذها ، أو كما يقول أحد قدامى المؤرخين الإنجليز المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية إن إكراه تركيا على تنفيذ معاهدة سيشر لم يكن أمراً سهلاً^(١). وقد أدركت الدوائر السياسية في دول المعسكر الغربي أن الموقف في تركيا يزداد تفاقماً يوماً بعد يوم بسبب إصرار الكماليين على التخلص من الوجود العسكري اليوناني في الأراضي التركية ، وعلى تحريد اليونان من حقوقها في السيادة على المضائق ، وهي الحقوق التي جاءت بها معاهدة سيشر ، وعلى إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذي أعادته هذه المعاهدة وغير ذلك من مأخذ . وانتهت تلك الدوائر رأياً إلى أن إلغاء معاهدة سيشر أمر لا مفر منه لاستقرار الأمور في المنطقة ، وأنه يتعين في ضوء هذا الرأي وضع معاهدة سلم جديدة . ثم جاء انتصار الكماليين على اليونانيين ودخولهم أزمير في ٩ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ معززاً هذا الرأي لدى بريطانيا وحليفاتها . وتتابع الأحداث سراعاً ، ففي ١١ من أكتوبر - تشرين أول - عقدت هدنة في مودانيا Mudanya تقرر فيها موافقة بريطانيا وحليفاتها على أن تسترد تركيا سيادتها على إستانبول والمضائق وتراقيا الشرقية^(٢) . وقد احتلت الإقليم الأخير فوراً قوة من الجندرمة

Miller W: op. cit., p. 542.

(١)

Lewis Bernard; op. cit., p. 254.

(٢)

التركية قوامها ثمانية آلاف جندي . وعلق تسلم تركيا بقية الأقاليم حتى يتم التوقيع على معاهدة سلام جديدة. وإذا كانت دول المعسكر الغربي قد ارتضت عقد الهدنة، فقد اقتفى اليونانيون سياسة أسيادهم، فأبرموا هدنة مع الكمالين في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - أي بعد مضي يومين من الهدنة الأولى . ثم اجتاز رفعت باشا البوسفور ودخل إستانبول في رفقة لجنة تمثل المجلس الوطني الكبير ، وكان ذلك في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ .

وكورقة أخيرة في يد الاستعمار حاولت بريطانيا وحليفتها أن تستغل وجود حكومتين في تركيا لتضرب وقت الحاجة لإحدهما بالأخرى، أو تتمخذه من إحدهما أداة للضغط على الأخرى . فوجهت دول المعسكر الغربي في ٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ الدعوة إلى كل من الحكومة السلطانية في إستانبول والحكومة الكمالية في أنقرة لحضور مؤتمر يعقد في لوزان ، وهي مدينة في سويسرا تقع شمالى بحيرة جنيف ، لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام بدلا من معاهدة سيفر التي اتضح استحالة تنفيذها . وقد أجابت الحكومة الكمالية بأنها وحدها ودون سواها الحكومة الشرعية التي تمثل تركيا . وكان توجيه دعوة مزدوجة إلى الحكومتين في تركيا دافعا لمصطفى كمال على اتخاذ إجراء سريع لحسم هذا الموضوع الخطير ، وهو ازدواج الحكومة في تركيا . ولكي يضع مصطفى كمال العالم كله أمام الأمر الواقع، استصدر في أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ من المجلس الوطني الكبير في أنقرة قراراً بإلغاء نظام السلطنة ، ونص في القرار على أن يكون هذا الإلغاء بأثر رجعي يرجع إلى ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ أى قبل تاريخ صدور القرار بستين ونصف سنة . وكان الهدف من إرجاع إلغاء السلطنة إلى هذا التاريخ (١) هو بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي ارتبط بها السلطان وحكومته واعتبار معاهدة سيفر باطلة ، ويذهب الوفد الكمالي إلى لوزان وهو مطلق اليدين غير مقيد

(١) يرجع اختيار هذا التاريخ وهو ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ إلى أنه في هذا اليوم دخلت قوات بريطانية جديدة الأحياء التركية في إستانبول لتعزيز قوات الاحتلال فيها .

بأية قيود جاءت بها معاهدة سيفر . واستصدر مصطفى كمال من المجلس الوطني الكبير في ذات اليوم قراراً بالإبقاء على نظام الخلافة وأن تظل قائمة في البيت العثماني بشرط أن تستند كنظام إلى الدولة التركية ، وأن يختار المجلس الوطني من بين أعضاء البيت العثماني خليفة يكون في عمله وفي خلقه أكثرهم جدارة بهذا المنصب وأكثرهم ملائمة له . وبعد ثلاثة أيام أعلن المؤتمر أن حكومة السلطان في إستانبول قد فقدت أسباب وجودها *raison d'être* وأصبح لا وجود لها . وهرب السلطان محمد السادس في ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ على ظهر طراد إنجليزي أبحر به إلى مالطة . وعلى هذا النحو المزرى كانت نهاية آخر سلاطين الدولة العثمانية الذين حكموا لإمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات العالمية . وباختفاء محمد السادس من الحياة السياسية كان الطريق ممهداً أمام المجلس الوطني الكبير ، فانتخب في ١٩ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ أميراً عثمانياً هو عبد الحميد خليفة للمسلمين لا سلطاناً . ولم يقدر له أن يظل في منصب الخلافة أكثر من عام وبعض عام ، ثم أخرج لإخراجاً غير كريم مع جميع أفراد أسرته من الأراضي التركية في فجر اليوم الرابع من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ ، فجاءت نهاية آخر خليفة عثمان على غرار نهاية آخر سلطان عثمان (١) .

مؤتمر لوزان (١٩٢٢ - ١٩٢٣) :

ذهب الوفد التركي إلى لوزان يمثل حكومة واحدة . وكانت الشروط أو ورقة العمل التي حملها معه هي التي كانت قد تحددت في الميثاق الوطني قبل

(١) أصدر المجلس الوطني الكبير في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ قراراً بعزل الخليفة عبد الحميد ، وإلغاء نظام الخلافة ، ونفى جميع أعضاء البيت العثماني من الأراضي التركية . واتخذت الحكومة لإجراءات أمن متددة خشية أن تقوم مظاهرات لإحتجاجاً على طرد الخليفة . وتم نقله - في فجر اليوم التالي لصدور القرار - في عربه أقلته إلى محطة سكة حديد صغيرة تقوم خارج إستانبول ، وتم وضعه في قطار الشرق السريع . ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحطة الحديدية الرئيسية وهي محطة شركس . ولما استيقظ الشعب في الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفة وأسرته قد تمت دون أن تتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على خليفة المسلمين (السابق) .

ذلك بنحو ثلاث سنوات . وتمسك الوفد التركي بالمحافظة على إستانبول وضرورة إسهام تركيا في النظام الذى يوضع لتنظيم مرور السفن في المضائق وللملاحة في البحر الأسود وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية إلى غير ذلك

مقترحات أمريكية تتعارض مع السياسة العليا للدولة العثمانية :

حين استفاضت الأنباء بعزم بريطانيا وحليفاتها على إجراء مفاوضات في لوزان لوضع تسوية جديدة مع تركيا في صورة معاهدة نحل محل معاهدة سيفر أدلت بدلوها الدوائر المعنية في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد وضعت هذه الهيئات ثلاث مذكرات تناولت فيها عدداً من المسائل السياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأدنى ، وطالبت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بمراجعة المصالح الأمريكية عند بحث هذه المسائل وعند وضع الصياغة النهائية لأحكام المعاهدة الجديدة مع تركيا . وأوضحت أن الولايات المتحدة حريصة على حماية المصالح الأمريكية في هذه المنطقة .

وكان من بين هذه الموضوعات موضوع مرور السفن في المضائق التركية وتحديد المركز القانوني للبحر الأسود . وأوضحت رغبتها في تقرير مبدأ حرية مرور السفن التجارية والحربية في الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور . وقت السلم وزمن الحرب بدون أدنى تمييز بين جنسية السفن . وشرحت الوسائل التي تراها كفيلة بتقرير هذا المبدأ من ناحية ، وضمان تنفيذه تنفيذاً سليماً من ناحية ثانية . وفيما يتصل بموضوع البحر الأسود أرادت أن تجرده من صفته القديمة التي لازمته حين كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وهي أنه كان بحيرة عثمانية تخص الدولة العثمانية بمفردها أو تخص الدولة العثمانية والروسيا معاً . وأضفت على هذا البحر طابع البحر العام ووصفته بأنه جزء من طريق تجارى هام من الطرق البحرية العالمية ، وتعتمد عليه في حياتها الاقتصادية الدول المطللة عليه ودول وسط أوروبا والتي تجرى في أراضيها نهر الدانوب الذى يصب في البحر الأسود . وخلصت الحكومة الأمريكية من هذا رأى إلى أن البحر الأسود والمضائق تعتبر المنفذ البحرى أو عنق

الزجاجة الذي تمر منه تجارة روسيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ،
ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وبلغاريا . .
ونعرض موجزاً لهذه المذكرات الثلاث .

أولاً : مذكرة الحكومة الأمريكية :

أرسلت الحكومة الأمريكية مذكرة مؤرخة في ٣٠ من شهر أكتوبر -
تشرين أول - عام ١٩٢٢ إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبدي فيها
رغبتها في أن تشارك كمرقب في أعمال المؤتمر المقترح عقده . وجاء في هذه
المذكرة أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ولم تكن
أحد الأطراف في هدنة مدروس Mudros التي وقعت في ٣٠ من شهر
أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ مع تركيا ، وهي لا ترغب في أن
تسهم في مفاوضات السلام النهائية ، ولا أن تأخذ على عاتقها مسؤولية
التعديلات السياسية والإقليمية التي سوف تتقرر . ومضت الحكومة الأمريكية
تقول إنها بينما هي تصر على هذا التحفظ في صدد مراحل معينة في تسوية
مشكلات الشرق الأدنى ، فإنها لا ترغب في أن يستقر في الأذهان أنها تنظر
إلى مصالحها نظرة تقل عن نظرة الدول الأخرى إلى مصالحها ، أو أنها
لا تتمسك بالحقوق المشتركة التي تتمتع بها دول أخرى ، أو أنها لا تكثرت
بالمفرص التجارية المناسبة ، أو أن المشروعات الإنسانية القائمة في منطقة
الشرق الأدنى أمر لا يعنينا .

واستعرضت الحكومة الأمريكية في مذكرتها ما أسمته شروط المساهمة
الأمريكية في مؤتمر لوزان Conditions of American Participation
in the Lausanne Conference وأوضحت طبيعة المصالح الأمريكية التي
ترغب في حمايتها وبالتالي في أن تكون موضع اعتبار المؤتمر . وكان عدد هذه
المصالح سبعة (١) ، كان من بينها وضع ضمانات لممارسة حرية مرور السفن

(١) كانت هذه المصالح حسب ترتيب ورودها في مذكرة الحكومة الأمريكية :

١ - الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية في تركيا على أساس ضرورته لحماية المصالح غير

الإسلامية .

في المضايق . واستطردت المذكورة فقررت أن هذا الموجز يصلح لتوضيح المصالح الأمريكية . ومن أجل حماية هذه المصالح ، ومن أجل تبادل وجهات النظر بسهولة ، ومنعاً لأى سوء فهم ، فإن حكومة الولايات المتحدة على استعداد لإيفاد مراقبين إلى المؤتمر المقترح عقده إذا رأت الدول المعنية أن هذا الإجراء مناسب لها . وأضافت المذكورة إلى ذلك أن المراقبين الأمريكيين لن يشتركوا في مفاوضات معاهدة السلام ، بل ستكون مهمتهم مقصورة على شرح وجهات نظر الحكومة الأمريكية بطريقة أكثر فاعلية من وضع مذكرات ، ويكون في استطاعتهم تزويد الحكومة بموقف الدول الأخرى من المسائل ذات المصالح المشتركة والتي سوف تعرض على بساط البحث .

وحملت الحكومة الأمريكية في مذكرتها على المعاهدات والاتفاقيات السرية ، وقالت إنها لاتقر هذا الأسلوب في العلاقات الدولية . وإن الاتفاقات التي سبق أن عقدت لتقسيم الأقاليم العثمانية إلى مناطق نفوذ تجارى واقتصادى تتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص . وأعربت عن رغبتها في أن تكف الدول المتحالفة عن تنفيذ مثل هذه الاتفاقيات السابقة . وختمت مذكرتها بقولها إن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب في أن تتصرف تصرفاً يعرقل الجهود التي تبذلها الدول المتحالفة للوصول إلى السلام ، وليست لها مطالب تؤدى إلى صدام مع مصالح الدول الأخرى ، وهي لاتريد أن تميز نفسها أوراياها بامتيازات لاتتمتع بها الدول الأخرى . ولكنها تريد توفير الحماية لمواطنيها الذين يرغبون في المضى في عملهم الإنسانى الذى حملوه على عاتقهم جيلا بعد

= (ب) حماية المؤسسات الخيرية والتعليمية والدينية وذلك بتقرير ضمانات مناسبة .

(ج) تكافؤ الفرص أمام الجميع فيما يتصل بالمشروعات التجارية بعدم منح امتيازات خاصة أو تمييز البعض على البعض .

(د) تعويض الخسائر التي وقعت على الأمريكيين في تركيا نتيجة أعمال تعسفية وغير قانونية .

(هـ) وضع شروط مناسبة لحماية الأقليات .

(و) وضع ضمانات لكفالة حرية المرور في المضايق .

(ز) إتاحة فرص معقولة للبحث عن الآثار وإجراء الدراسات .

جيل في الشرق الأدنى وأصبح في ذلك الوقت أكثر ضرورة عن ذي قبل . وكان هذا العمل الإنساني يشمل البحث عن الآثار ، وإجراء الدراسات ، واستئناف المؤسسات التعليمية والتنصيرية والخيرية نشاطها السابق (١) .

ثانيا : مذكرة وزير الخارجية الأمريكية :

وفي مذكرة سرية ومنفصلة عن المذكرة السابقة ومؤرخة في ذات اليوم (٣٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٢) بعث بها شارل ليفانز هيوز Charles Evans Hughs وزير الخارجية الأمريكية إلى سفراء الولايات المتحدة في لندن وباريس وروما ، قال إن الحكومة الأمريكية ان توقع على معاهدة السلام المزمع عقدها مع تركيا ، ولن تشترك في المؤتمر المقترح اجتماعه لإجراء مفاوضات لإبرام هذه المعاهدة ، وإن هذا الامتناع المزدوج مرده إلى أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ومع ذلك فإنه في حكم الاستحالة من الناحية العملية أن يمضى « الحلفاء » في إجراء مفاوضات بدون أن يتناولوا مسائل تهم الحكومة الأمريكية . وإذا تركت الحكومة الحلفاء يقومون بإجراء المفاوضات وإبرام المعاهدة مع الأتراك بدون أية محاولة منها لعرض وجهات نظرها أو الحصول على ضمانات لحماية المصالح الأمريكية ، فإن مثل هذا الموقف السلبى يضع الحكومة الأمريكية أمام الأمر الواقع في موضوع العلاقات بين الحلفاء والأتراك . وخلص وزير الخارجية إلى القول بأن رأى وزارة الخارجية قد استقر على وضع مذكرة توضح طبيعة ومجال ومدى المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأدنى كى يسترشد بها المفاوضون عند تناول الموضوعات التى لها علاقة بهذه المصالح ، ثم استعرض المصالح التى ترغب الحكومة فى حمايتها ، وهى : (١) نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا وانتهى رأياً إلى ضرورة الإبقاء عليه . وسرد الأسباب التى تحمل الحكومة الأمريكية على المطالبة باستمرار هذا النظام .

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

U.S. Aide Mémoire to Britain, France and Italy, 30 October, 1922.
in

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol.2, pp. 114-115.

(٢) حماية المؤسسات الأمريكية في تركيا سواء المؤسسات التعليمية أو الخيرية أو الدينية ، وإعادة فتح المؤسسات الأمريكية التي أغلقتها حكومة تركيا منذ عام ١٩١٤ ، وإنشاء مدارس جديدة ، واستخدام اللغة الإنجليزية فيها ، ومنح المؤسسات الأمريكية الاعفاءات الضريبية والجمركية وغيرها من الامتيازات الممنوحة لمثيلاتها المؤسسات التركية (٣) حماية المصالح الأمريكية التجارية وإلغاء نظام مناطق النفوذ ، وانتهاج سياسة الباب المفتوح ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، واتباع نظام ضريبي موحد (٤) التعويض عن الخسائر التي نزلت بالأمريكيين منذ عام ١٩١٤ (٥) حماية الأقليات . واهتمت المذكورة بالأقليات المسيحية دون غيرها وبخاصة بالمسيحيين في إستانبول وبالمسيحيين المبعثرين في آسيا الصغرى وبالأرمن (٦) حرية المرور في المضائق، وقالت وزارة الخارجية إن هذه المسألة لها شطران ، يتمثل الشطر الأول في حرية المرور وقت السلم ، والشطر الثاني في حرية المرور زمن الحرب . ولا تميل الحكومة الأمريكية إلى أن تزج بنفسها في الشطر الثاني حتى لا تلزم باتخاذ سياسة معينة تجاه مرور السفن زمن الحرب ، وبخاصة إذا كانت تركيا أو الدول الكبرى في أوروبا دولاً متحاربة . أما بخصوص تنظيم مرور السفن وقت السلم « فإن المصلحة الجلية للولايات المتحدة أن تحصل على تأكيدات فعالة وقوية بأن تظل المضائق مفتوحة في وقت السلم للسفن التجارية والحربية لتعبر المضائق وتمضى إلى إستانبول والبحر الأسود ، فهذا البحر هو طريق للتجارة ويجب ألا يكون تحت الرقابة الانفرادية لتركيا والروسيا » .

وانتقلت مذكرة وزير الخارجية الأمريكية في فقرتها السابقة إلى موضوع لجنة الرقابة الدولية على الدين العثماني العام، وطالبت بمزيد من الاهتمام بالمسائل المالية والتجارية . وفي الفقرة الثامنة والأخيرة أشارت إلى موضوع المؤسسات الأمريكية التي تفرم بالتنقيب عن الآثار في الأراضي التركية وضرورة توفير الجو المناسب لها كي تمضى في أعمالها الكشفية وفي إجراء الدراسات .

وفي نهاية المذكرة قال وزير الخارجية إنه ليس من الطبيعي ولا من المرغوب فيه أن تسهم حكومة الولايات المتحدة في مؤتمر السلام أو تقحم

نفسها في مفاوضات تتناول مسائل سياسية لم تشارك في وضعها أو التخطيط لها ، إلا أنه من الضروري أن تكون وزارة الخارجية على علم تام بالموضوعات التي تتناولها المفاوضات وكيفية معالجتها ، والوزارة حريصة على حماية المصالح الأمريكية ، وهي على استعداد لأن تلتى بكل ثقلها ونفوذها للحصول على ضمانات خاصة بحرية الملاحة في المضائق وحماية الأقليات . وإن الولايات المتحدة كدولة مستقلة تحافظ على سلامة موقفها، وهي لم تزج بنفسها في غمار المنافسات الدولية التي جعلت من الشرق الأدنى في معظم الأحيان مسرحاً للحروب(١).

ثالثاً : مذكرة البحرية الأمريكية :

ولم يقف الأمر بالسياسة الأمريكية تجاه موضوع المضائق عند هاتين المذكرتين ، بل تدخل أيضاً مجلس البحرية الأمريكية العام ، ووضع مذكرة . في ١٠ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ تناول فيها توصيات سياسية بخصوص البحر الأسود والمضائق التركية . وجاء في هذه المذكرة أن الدردنيل طريق عام ذو أهمية عظمى أوجدته الطبيعة ، وهو يؤدي من ناحيته الشمالية إلى البحر الأسود الذي تطل عليه تركيا والروسيا ، ورومانيا وبلغاريا ، وبعض دول صغرى أخرى، وتصب فيه مياه خمسة أنهار كبرى . وتأسيساً على هذه الحقائق فإن هذا البحر لا يخص دولة واحدة كما كان الأمر من قبل . وكان واضعو المذكرة يقصدون تركيا بهذه الدولة الواحدة . ثم مضت المذكرة تقول إن البحر الأسود يخص العالم كله كجزء من طريق تجارى . فأية محاولة لغلاق هذا البحر أو إعاقه وصول التجارة المنقولة بجرأ إلى البحر الأسود هي عمل تخريبي يتعارض مع المصالح العالمية ويحدث اضطراباً في العلاقات الدولية يؤدي إلى تجدد الحرب .

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

Secretary Hughes' Instructions to U.S. Ambassadors at
London, Paris and Rome, 30 October, 1922.

in

Hurewitz J.C., op. cit., Vo/. 2., pp. 115-117 .

وقالت المذكورة إن روسيا - وهي من أكبر دول العالم - تصدر في الأوقات العادية نصف محاصيلها عن طريق البحر الأسود . وليس أمام روسيا مخرج بحرى آخر يمكن أن يقارن في أهميته بطريق الدردنيل، وسوف تزداد أهمية هذا المخرج البحرى زيادة كبيرة بالنسبة لروسيا تبعاً لزيادة الكثافة السكانية فيها ، وتبعاً لتحسين وسائل النقل الداخلى فى المناطق الروسية . فإذا حيل بين دولة كبرى مثل روسيا وبين استخدام البحر الأسود بمنع سفنها من عبور الدردنيل ومنعها من الانطلاق إلى المحيطات والبحار ، فإن هذا العمل ، وهو حجز الأسطول التجارى فى مياه البحر الأسود ، لا يحمل فى طياته عناصر الاستقرار والدوام لأية تسوية تتناول مشكلة المضائق التركية .

ومضت مذكرة البحرية الأمريكية تقول إن شطراً كبيراً من تجارة النمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ينقل عن طريق نهر الدانوب إلى البحر الأسود حيث يعاد شحنها فى سفن كبرى تعبر الدردنيل إلى البحار العامة . فهذه التجارة تحتاج بدورها إلى حرية المرور عبر المضائق ، وعلى ذلك فإن تقرير مبدأ حرية مرور السفن فى كلا الاتجاهين عبر الدردنيل ضرورة لاجدال فيها . وقد وافقت الدول ومن بينها تركيا على مبدأ حرية المرور عبر الدردنيل للسفن التجارية التابعة لجميع الشعوب .

واستدركت المذكورة فقالت إن التجارب فى بقاع كثيرة فى العالم قد دلت على أن قبول مبدأ ما لا يكون دائماً كافياً لضمان تطبيقه تطبيقاً محايداً ، ولا يكتفى أن تعلن الدول موافقتها على قبول مبدأ عام ، بل يجب أن تكون هذه الموافقة مقرونة بتنفيذ أو تطبيق هذا المبدأ . فالموافقة على مبدأ معين وتنفيذ هذا المبدأ عمليتان مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها . وكل عملية منهما لا تقل أهمية عن الأخرى. وإلى أن تستقر الأمور فى منطقة الشرق الأدنى ، فإن خير وسيلة لضمان تكافؤ الفرص هى لإسهام الدول المعنية إسهاماً يقوم على قدم المساواة فى الرقابة على حرية المرور فى المضائق .

وانتقلت مذكرة مجلس البحرية العام إلى موضوع المصالح الأمريكية

في المضايق فقالت إن تقرير حرية مرور السفن في الدردنيل لا يعد في حد ذاته عملاً كافياً كي يضمن للسفن الأمريكية نفس الفرص التي تتمتع بها السفن التجارية التابعة لدول أخرى. فلا بد أن تضمن الحكومة الأمريكية ، عن طريق اتفاقات ، المساواة في الحقوق وفي الامتيازات التي تتمتع بها الدول الأجنبية في كل ما يتصل بالعمليات التجارية والبحرية . وذكرت المذكورة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الحقوق والامتيازات ، فقالت إن السفن التجارية في حاجة إلى استخدام أجهزة ترديد الصوت ، والأسلاك البحرية الغليظة « الكابلات » ، والانتفاع بالأرصعة في موانئ المضايق ، والصنادل ، وخدمات الإرشاد ، والرسو ، والسحب ، والقطر ، وتسهيلات التفتيش على السفن . وإذا لم تكن هناك معاملة واحدة لجميع السفن في مثل هذه المسائل وغيرها ، فإن السفن الأمريكية تُجد في أثناء عبورها وتواجدها في منطقة المضايق إعاقة تجعلها في مركز أقل من مركز السفن التابعة لدول أخرى .

ووجهت المذكورة النظر إلى حقيقة كانت تعلق عليها حكومة الولايات المتحدة آمالاً كباراً ، وهي حالة ازدهار التجارة بتزايد حجمها تزايداً جديداً وكبيراً في جميع الأقاليم المطلة على البحر الأسود والأقاليم التي تجرى في أراضيها أنهار تصب في هذا البحر . وقد جاء هذا الازدهار التجاري نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية التي سادت في تلك الأقاليم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد تولدت عن هذا النشاط الاقتصادي الضخم المكثف مجالات واسعة للمشروعات التجارية الدارة . وقالت المذكورة إن الخطوات التي تتخذ والترتيبات التي توضع في ذلك الوقت قد تؤثر تأثيراً عميقاً على الحياة التجارية للولايات المتحدة في قابل الأيام . وخلصت البحرية الأمريكية إلى القول بأنها لا تطالب بحقوق خاصة بها ، ولكنها تطالب ، بل تصر على أن تكون لها حقوق مساوية لحقوق الدول الأخرى . وهو مطلب ينبثق عن رغبة الولايات المتحدة في تحقيق عدالة مطلقة وكاملة في محيط العلاقات الدولية .

وحاولت مذكرة البحرية الأمريكية أن تعالج مشكلة حرية مرور السفن الحربية في المضائق ، فقالت إن هذه المشكلة أكثر تعقيداً من مسألة عبور السفن التجارية ، وهي لا تتيح فرصاً لوضع تسوية دائمة لها مثل الفرص التي تتيحها مسألة السفن التجارية . وقالت إن هناك مبدأ عاماً يجب أن يوضع في الاعتبار ، وهو أن أية حقوق للملاحة في المضائق تمنح لدول بعيدة عن البحر الأسود يجب أن يمنح مثلها للدول المطلة على هذا البحر .

وخلصت البحرية الأمريكية إلى أن الحل الطبيعي هو تقرير الحرية التامة للملاحة عبر المضائق للسفن الحربية أيضاً ، وسأقت عديد الأمثلة الافتراضية التي تساند هذا الرأي ، كما أنها انتهت رأياً إلى أن هذا الحل يعد الحل الأمثل للمصالح الأمريكية وللنفوذ الأمريكي في شئون العالم .

واستطردت مذكرة البحرية الأمريكية فقالت إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين مركز كل من المضائق التركية ، وقناة بناما ، ولذلك يجب الفصل بينهما . فالاثنتان مختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً جذرياً ومن عدة وجوه . فتاريخ المضائق التركية مليء بعدم الاستقرار والمصالح المتضاربة ومعاملة السفن معاملة تقوم على التمييز بينها ، وجعل حق مرور السفن في الدردنيل مقصوراً على سفن دولة واحدة ، بالإضافة إلى أن المضائق التركية طريق مائي طبيعي بينما قناة بناما ممر مائي صناعي . وتقتضى العدالة ألا تكون هذه المضائق تحت سيطرة دولة واحدة تنصرف فيها كما تشاء ، بل يجب أن تكون طريقاً عالمياً . وفضلاً عن ذلك فإن كل حل تم الوصول إليه واستهدف فرض رقابة على هذه المضائق لمصلحة دولة واحدة ضد دول أخرى كان بمثابة تسوية تقوم على الاستفزاز والتحرش وإثارة الحقد، وأدى إلى الاضطراب في العلاقات الدولية. ولذلك لم تم إطلافاً تسوية مسألة المضائق ، لأن جميع التسويات التي تمت كانت تنسم بطابع التحيز للدولة التي كانت تتمتع بالقسط الأوفى من السيطرة والقوة في ذلك الوقت .

وخاضت مذكرة البحرية الأمريكية في مجموعة من التنبؤات والافتراضات تم في مجموعها عن اتجاه السياسة الأمريكية تجاه مشكلة المضائق ، فقالت إذا

فرضت رقابة على حرية مرور السفن في المضائق وأزيلت الاستحكامات القائمة في منطقتها فإن تلك الرقابة سوف تقع على عاتق الأسطول البريطاني بسبب شدة بأسه وبطشه . وإذا جردت من السلاح والتحصينات كل من ميتلين Mitylene و لمنوس Lemnos ، وإمبروس Imbros وساموتراكي Samothraki فإن هذا التجريد يتمشى مع الرقابة المستقبلية على المضائق ، وتمارسها القوات البحرية بدلا من الاستحكامات الثابتة . وراحت المذكورة تؤكد مرة أخرى قيام رقابة بريطانية على المضائق تأسيساً على أن الأسطول البريطاني في ذلك الوقت سنة ١٩٢٢ - بقواعده المتناثرة هو أقوى الأساطيل . وذهبت المذكورة إلى القول بأنه ليس هناك على الأرجح معاهدة أو قانون يمنع الحصر البحري في زمن الحرب إذا كانت الدولة التي تمارس هذا الحصر ذات بأس شديد في البحر .

وناقشت المذكورة كيفية قيام الرقابة على المضائق ، وناقشت ثلاثة آراء : رقابة انفرادية من جانب تركيا ، ورقابة انفرادية تختص بها دولة أجنبية واحدة ، ورقابة دولية جماعية . فقالت عن الرأى الأول إن التجارب قد دلت على أن قيام تركيا بممارسة الرقابة على المضائق لم يتسم بسياسة محايدة ولا ثابتة ، وإن تركيا كانت لا محالة تتأثر بالضغوط الخارجية . وإذا وضعت الرقابة في يد دولة أجنبية واحدة فمن المتوقع ألا تفعل هذه الدولة أكثر من محاباة سفنها وتجارها بغير وجه حق على حساب سفن وتجارة الدول الأخرى . تبقى الرأى الثالث فقالت إن فرض رقابة دولية جماعية على المضائق في الظروف القائمة وقتذاك لن يكون محل اعتراض من جانب الأسرة الدولية على عكس إذا ما تقرر قيام رقابة انفرادية من جانب تركيا .

وأخيراً لخص المجلس العام للبحرية الأمريكية هذه المذكورة الضافية بقوله إن المصالح الأمريكية في منطقة المضائق تتطلب إدراج المبادئ التالية في المعاهدة المقترح عقدها مع تركيا .

أولا : إذا أنشئت لجنة دولية للرقابة على المضائق فيجب أن تكون (م ١٩ - الدولة العثمانية)

الولايات المتحدة ممثلة في هذه اللجنة وفي جميع المواقع والمراكز التابعة لهذه اللجنة ، وتكون على قدم المساواة مع أية دولة أجنبية أخرى .

ثانياً : إن المضائق - وهي تشمل الدردنيل وبحر مرمره والبوسفور - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن التجارية التابعة لجميع الدول بدون تمييز أو تفضيل .

ثالثاً : يكون للولايات المتحدة ومواطنيها ذات الحقوق والامتيازات في مياه المضائق والمياه المتاخمة كما هي ممنوحة في الماضي والحاضر أو تمنح مستقبلاً لأية دولة أجنبية أخرى أو لمواطنيها . وجاء ذكر تلك الحقوق وهذه الامتيازات على النحو الذي ورد في سياق المذكرة وأشرنا إليه .

رابعاً : إن المضائق - بأجزائها الثلاثة المعروفة - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن الحربية التابعة لجميع الدول .

خامساً : عدم مباشرة أى حق حربي وأى عمل عدائي في داخل المضائق التي تشمل الدردنيل ، وبحر مرمره ، والبوسفور .

سادساً : إزالة جميع التحصينات التي تسيطر على مياه المضائق ، ولا يسمح بإقامة تحصينات جديدة (١) .

تحليل الموقف الأمريكي من مشكلة المضائق والبحر الأسود :

من هذه المذكرات الأمريكية الثلاث يتضح موقف الولايات المتحدة بوجه عام من مشكلة المضائق والبحر الأسود . ويمكن إيجاز هذا الموقف في عدة نقاط ، منها : أن المضائق طريق عالمي للتجارة فلا تخضع للسيطرة

(١) أنظر نص المذكرة بعنوان :

Policy Recommendations on the Turkish Straits by the General Board of the U.S. Navy, 10 Noember 1922.

in

Hurewitz J.C; op. cit, volz, pp. 117-119.

الانفرادية لتركيا ، تقرير حرية الملاحة عبر المضائق في وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية والحربية التابعة لجميع الدول دون تمييز لجنسيتها ، تجريد منطقة المضائق وعدد من الجزر في بحر إيجه من الاستحكامات العسكرية وعدم السماح بإقامة منشآت عسكرية جديدة بها تمشياً مع حرية المرور عبر المضائق ، إنشاء رقابة جماعية في شكل لجنة دولية لضمان تنفيذ مبدأ حرية مرور السفن بكافة أنواعها في جميع الأوقات . أما البحر الأسود فهو - في نظر الولايات المتحدة - لا يخص تركيا وحدها أو روسيا بمفردها ، بل هو بحر عالمي منفتح لجميع الدول والشعوب ، يمر منه شطر لا يستهان به من تجارة روسيا ودول وسط أوروبا - وتستحسن تجريده من القواعد البحرية العسكرية وتعد محاولة إغلاقه عملاً تخريبياً .

هذه المبادئ تعصف بالسياسة العليا للدولة العثمانية. وتسلب حقها في ضمان تنفيذ مبدأ حرية المرور عبر المضائق التي هي جزء من الإقليم التركي ، وتخويل هذا الحق للجنة دولية . فالولايات المتحدة تضع مصالحها التجارية في منطقة الشرق الأدنى فوق كل اعتبار ، وهي لا تبدي مثل هذا الاهتمام بمصالحها الإستراتيجية في تلك المنطقة ، إذ لم تكن قد تكونت لها في ذلك الوقت مصالح من هذا النوع ، ولم تكن قد احتضنت الحركة الصهيونية الاحتضان السافر الذي ظهرت به فيما بعد . ولم تكن قد وقفت موقفاً غير ودي من حكومة موسكو السوفيتية R.S.F.S.R. بل على العكس أظهرت مذكرة المجلس العام للبحرية الأمريكية تحمساً لرعاية المصالح الروسية الاقتصادية بتوفير السبل لنقل محاصيلها عبر البحر الأسود والمضائق. وإن كان وزير الخارجية الأمريكية قد أشار في مذكرته إشارة لها مدلولها في هذا الوقت المبكر من تاريخ العلاقات الأمريكية السوفيتية إذ قال ، وهو يتناول موضوع الأقليات المسيحية في تركيا ، إنه من الممكن عند عودة الأوضاع الأكثر استقراراً في روسيا أن توافق الحكومة الروسية على منح أكراد تركيا ملجأ في القوقاز يقيمون فيه .

تلك هي المقترحات الأمريكية وضعت قبل أن يعقد مؤتمر لوزان جلساته بأيام قلائل . وهي مقترحات لها أهميتها من النواحي الأكاديمية والعلمية والتاريخية.

جلسات عمل مؤتمر لوزان :

عقد مؤتمر لوزان جلساته على فترتين . بدأت الفترة الأولى في ٢٠ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان :
اختصت اللجنة الأولى بمشكلة نظام المرور في المضائق والملاحة في البحر الأسود والقضايا العسكرية ومشكلة الأقليات والمشكلات الإقليمية. واختصت اللجنة الثانية بقضايا الأجانب في تركيا. واختصت الثالثة بالقضايا الاقتصادية والمالية . وقد استمرت اجتماعات المؤتمر حتى ٤ من فبراير - شباط - ١٩٢٣ حين انفض بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع معاهدة الصلح . ورفض المجلس الوطني الكبير في ٦ مارس - آذار - ١٩٢٣ مشروع معاهدة الصالح لمخالفته الميثاق الوطني ، ولكنه حول الحكومة التركية لإعادة فتح باب المفاوضات مع بريطانيا وحليفتها . وفي ٨ مارس - آذار - ١٩٢٣ أرسل عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركي إلى المؤتمر رسالة ومعها اقتراحات تركية إلى الدول الأعضاء في المؤتمر . وقد وافقت هذه الدول على بحث المقترحات التركية . وفي ٢٣ أبريل - نيسان - ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان عقد جلساته ، وبذلك بدأت الفترة الثانية واستمرت حتى ٢٤ من يوليو - تموز - سنة ١٩٢٣ حيث تم في هذا اليوم التوقيع على المعاهدة التي حملت اسم معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . وتتميز من بين جميع معاهدات الصلح التي أبرمت لتدوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها المعاهدة الوحيدة التي عقدت نتيجة مفاوضات مضنية للغاية اشترك فيها الأطراف المعنية لتحل محل معاهدة جائزة وضعها المنتصرون ، واستطاع المنهزم بالدبلوماسية المرنة حيناً ، والدبلوماسية ذات العصا الغليظة حيناً آخر أن يحمل المنتصرين على إلغائها . وقد وقع على معاهدة لوزان ثمانى دول ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا .

معاهدة لوزان تفرد اتفاقية خاصة بالمضائق :

لم تتعرض معاهدة لوزان لسألة مرور السفن في المضائق ، ولكن

سجلت تنازل تركيا عن حقوقها في مصر والسودان وجزيرة قبرص لبريطانيا ، وتنازلها لإيطاليا عن حقوقها في ليبيا وفي ثلاث عشرة جزيرة كانت تحتلها إيطاليا وقتذاك ، كما سجلت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وتقرر إخلاء إستانبول من القوات الأجنبية وإعادة تراقيا الشرقية بما فيها أدرنة إلى تركيا ، وكذلك منطقة كراجاتش Karagatch في تراقيا الغربية . واستردت تركيا جزءاً لا يستهان به من أملاكها في أوروبا ، كما تقرر إعادة الجزء الغربي من الأناضول وسائر المراكز التي كانت تحتلها اليونان في هذا الإقليم إلى تركيا . وقد تناولت المعاهدة العديد من المسائل التي لا تدخل في نطاق دراستنا .

وتقديراً من الدول الأطراف في معاهدة لوزان لموضوع المضائق أفردت اتفاقية خاصة بهذه المسألة وأرفقتها بالمعاهدة ، وأصبحت جزءاً منها وأطلقت عليها اتفاقية نظام المضائق Convention on the regime of the Straits وتقع في ثمانى عشرة مادة وجاءت بعدة مبادئ ، نذكر منها :

أولاً : مرور السفن في المضائق :

نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تقرير مبدأ حرية المرور وحرية الملاحة بحراً وجواً في منطقة المضائق . وقالت إن المضائق اسم عام يشمل على وجه التحديد مضيق الدردنيل ، وبحر مرمره ، ومضيق البوسفور ، ونصت المادة الثانية على أن حرية المرور وحرية الملاحة تشمل السفن التجارية والحربية والطائرات التجارية والحربية في زمن السلم ووقت الحرب . ثم وضعت تفاصيل لحرية المرور أدمجتها في ملحق يتبع المادة الثانية وأطلقت عليه قواعد لمرور السفن التجارية والطائرات التجارية والسفن الحربية والطائرات الحربية . وتناولت في القسم الأول من هذا الملحق السفن التجارية وقالت إنها تشمل أيضاً سفن المستشفيات واليخوت^(١) ومراكب الصيد والظيران غير الحربي . وقالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

(١) يخوت جمع يخت yacht ، وهي سفينة السياحة الخاصة .

الحالة الأولى: وقت السلم فتتقرر حرية تامة للملاحة والمرور نهراً ولبلا لجميع السفن بدون تمييز بين جنسياتها . ويصرف النظر عن نوعية الشحنات التي تحملها وبدون دفع رسوم سوى الرسوم المقررة للإرشاد والإضاءة والجر والقطر وما إليها ، وذلك بدون الإضرار بالحقوق التي تمارسها في هذا الصدد الشركات التي تعمل في وقت إبرام المعاهدة بموجب امتيازات منحها لها الحكومة التركية .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة : فتتقرر الحرية التامة للملاحة والمرور على النحو الذي جاء في الحالة الأولى ، مع مراعاة أن حقوق وواجبات تركيا كدولة محايدة لا تجيز لها أن تتخذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلاً في الملاحة عبر المضائق التي تكون مياهها وأجواؤها حرة تماماً وقت الحرب التي تتخذ فيها تركيا موقف الحياد .

الحالة الثالثة: زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها: فتتقرر حرية الملاحة للسفن المحايدة وللطيران غير الحربى التابع للدول المحايدة بشرط ألا تقدم أمثال هذه السفن والطائرات مساعدات للعدو ، وبوجه خاص لا تنقل قوات أو بضائع ممنوعة أو رعايا الدول المتحاربة . ويكون لتركيا الحق في زيارة وتفتيش أمثال هذه السفن والطائرات . ولهذا الغرض يجب على الطائرات أن تهبط على الأرض أو على البحر في مساحات تحددها وتعدها تركيا لهذا الغرض . ومن المتفق عليه أيضاً ألا تمس حقوق تركيا في تطبيق الاجراءات المقررة في القانون الدولى العام على سفن الأعداء . ولتركيا السلطة التامة في اتخاذ أمثال هذه الاجراءات حين ترى أنه من الضرورى منع سفن الأعداء من استخدام المضائق ، على ألا يكون من طبيعة هذه الاجراءات منع سفن الدول المحايدة من المرور في المضائق ، وتوافق تركيا على أن تمتد أمثال هذه السفن بالتعليمات الضرورية أو تزودها بالمرشدين لعبور المضائق .

وتناولت اتفاقية المرور في القسم الثانى من الملحق موضوع السفن الحربية . وقالت إنها تشمل أيضاً السفن المعاونة للأساطيل والسفن الناقلة للجنود والطائرات الحربية والطائرات الحاملة ذخائر أو أسلحة أو قوات . وعلى

غرار القسم الأول قالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

الحالة الأولى : وقت السلم، فتتقرر حرية كاملة لمرورها نهراً ولبلا بدون تمييز بين جنسياتها ، ولكنها تخضع للقيود التالية بالنسبة لقوتها الكلية . فيكون الحد الأعلى للقوة التي تستطيع أية دولة أن تمررها عبر المضائق لدخول البحر الأسود لا تتجاوز أقوى أسطول للدول الساحلية الواقعة على البحر الأسود والتي تكون موجودة في هذا البحر في وقت مرور هذه القوة . وتقرر أيضاً أن تحتفظ الدول لنفسها دائماً بالحق في أن ترسل إلى البحر الأسود في جميع الأوقات وفي كل الظروف قوة لا تتجاوز ثلاث سفن لا تزيد حمولة الواحدة منها عن عشرة الآف طن . وجاءت فقرة أخيرة تقرر عدم مسؤولية تركيا فيما يختص بعدد السفن الحربية التي تعبر المضائق .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة . فتتقرر الحرية الكاملة للمرور نهراً ولبلا بدون تمييز بين جنسياتها مع مراعاة القيود المذكورة في الحالة السابقة، ومع ذلك فإن هذه القيود لا تطبق على أية دولة متحاربة تطبيقاً يضر بمقوقها الحربية في البحر الأسود ، كما أن حقوق تركيا وواجباتها كدولة محايدة لا تجيز لها اتخاذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلاً في الملاحة عبر المضائق التي تظل جميع مياهاها وأجوائها حرة تماماً في زمن الحرب طالما كانت تركيا دولة محايدة كما يحدث تماماً وقت السلم . وتقرر أيضاً منع السفن الحربية والطيران الحربي التابع للدول المتحاربة من مباشرة أية عملية من عمليات الأسر أو مباشرة حق الزيارة والتفتيش أو القيام بأي عمل عدائي آخر في المضائق .

الحالة الثالثة : زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها . فتتقرر الحرية الكاملة لمرور السفن الحربية المحايدة مع مراعاة تطبيق القيود المنصوص عليها في الحالة الأولى في هذا القسم (القسم الثاني) . ونص على أن الاجراءات التي تتخذها تركيا لمنع سفن وطائرات الأعداء من استخدام

المضايق لا يكون من شأنها منع المرور الحر للسفن المحايدة والطيران المحايد . وعلى تركيا أن تزود أمثال هذه السفن والطائرات بالتعليمات الضرورية أو بالمرشدين للغرض المذكور . ويقوم الطيران الحربى التابع للدول المحايدة بالمرور الجوى فوق المضائق على مسؤوليته ويخضع للتفتيش عن طابعه . ولهذا الغرض فإن على أمثال هذه الطائرات أن تهبط على الأرض أو فى البحر فى المساحات التى تحددها وتعددها تركيا لهذا الغرض .

وقد تعرضت الاتفاقية فى ذات الملحق التابع للمادة الثانية لغواصات الدول التى فى حالة سلم مع تركيا، فنصت على أن يكون عبورها المضائق وهى فوق سطح الماء . كما تناولت مسائل تنظيمية خاصة بمرور السفن الحربية وضرورة إخطار الحكومة التركية بوصولها وعددها ، وضرورة مرورها فى أقصر وقت ، وتحريم مرابطنها داخل المضائق إلا فى حالتين : هما إصابة السفينة بعطب أو اضطراب البحر واشتداد عواصفه .

والملاحظة التى نخرج بها من الدراسة التحليلية لهذا الجزء من الاتفاقية هى أنه لم يشمل التفاصيل الدقيقة عن تنظيم مرور السفن بنوعها التجارية والحربية فى المضائق على عكس ما جاء فى اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨) الخاصة بتنظيم مرور السفن فى قناة السويس . فقد تضمنت هذه الاتفاقية أدق التفاصيل عن هذا الموضوع . ونذكر على سبيل المثال تقييد تموين السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة (المادة الرابعة فقرة ٢ من اتفاقية الآستانة) ، منع السفن الحربية المتحاربة من إنزال وشحن القوات والمهمات الحربية (المادة الخامسة) ، مرور الغنائم (١) (المادة السادسة) .

ثانيا : لجنة المضائق :

نصت اتفاقية المضائق على إنشاء لجنة دولية يطلق عليها لجنة المضائق

(١) يقصد بالغنائم Les Prises السفن الحربية أو التجارية المغنومة التى تمر فى المضائق وهى بهذه الصفة ، أى تكون فى حوزة السفينة القابضة عليها ، على أن يكون اغتنامها قد تم خارج منطقة المضائق ، إذ لا يجوز داخل هذه المنطقة القبض على السفن المعادية واغتنامها ، لأن حق الاغتنام من الحقوق الحربية التى حرمت الاتفاقية مباشرتها فى هذه المنطقة .

تختص بالإشراف على حرية المرور في المضائق ، ويكون مقرها إستانبول ، وتكون لتركيا دون سواها من الدول رئاسة هذه اللجنة ، بمعنى أن تكون رياستها ذات صفة دائمة . وأن تشمل عضوية اللجنة : فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، بلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والاتحاد ال وقي ، ويوغوسلافيا. (١) وقد روعى في اختيار هذه الدول لعضوية اللجنة أنها الدول الأطراف في معاهدة لوزان . ونص على ألا تبدأ أى منها في مباشرة عملها في لجنة المضائق إلا من تاريخ تصديقها على المعاهدة . وورد في ذات المادة أنه إذا انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعاهدة فيكون لها الحق في عضوية اللجنة . وبنفس هذه الشروط تقرر أن أية دولة مستقلة تطل على البحر الأسود ولم يرد ذكرها في الاتفاقية وتنضم إليها يكون لها نفس الحق (المادة ١٢) .

وتباشر لجنة المضائق عملها تحت رعاية عصابة الأمم ، وتكون مسئولة أمامها ، وعليها أن ترفع إلى العصابة تقريراً سنوياً تعرض فيه نشاطها وتذكر كل المعلومات التي تكون ذات قيمة ونفع لصالح التجارة والملاحة . وعلى اللجنة - تمكيناً لها من تحقيق هذا الهدف - أن تكون على اتصال بمصالح الحكومة التركية المختصة بالملاحة عبر المضائق (المادة ١٥) .

لجنة المضائق ولجنة الدانوب :

ومما هو جدير بالذكر أن لجنة المضائق الدولية لم تكن شيئاً جديداً على المجتمع الدولي في ذلك الوقت . فقد سبق لهذا المجتمع أن عرف هيئات ذات

(١) جاءت الصياغة اللفظية في المعاهدة لاسم يوغوسلافيا على هذا النحو :

The Serb - Croat - Slovene State

أى الدولة الصربية الكرواتية السلافية .

ويطلق عليها حالياً (سنة ١٩٧٧) اسم اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وتتكون من ست جمهوريات ومن خمس قوميات هي الصرب - كرواتيا - سلوفينا - الجبل الأسود - مقدونيا . وفيها ثلاث لغات : الصربية ، والكرواتية ، والسلوفينية . وفيها أربع ديانات : الإسلام ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والمسيحية الكاثوليكية ، واليهودية . وهي جارة لسبع دول .

طابع دولى واختصاصات واسعة مثل لجنة الدانوب الأوروبية التي تكونت لتنظيم حرية الملاحة في نهر الدانوب والإشراف عليها والقيام بأعمال الصيانة والتحسين وتطهير قاع النهر من العوائق لمواجهة الاحتياجات الدولية للملاحة الحرة (١). وتقرر أن يكون لهذه اللجنة شخصية متميزة ذات طبيعة دولية . وأن تتمتع بالحصانة ، ولا تستطيع دولة محاربة أن تحمد من نفوذ هذه اللجنة ، وأن يكون جميع موظفيها ومكاتبها والأشغال التي تقوم بها على طول النهر بمنأى عن العمليات الحربية ، وأن يكون للجنة علمها ، وكأنها دولة ، ولها الحق في رفعه على سفنها ومكاتبها ومبانيها الرسمية ، ويكون لها ميزانية تتألف من حصيلة رسوم المرور ، وتنفق منها على شتى أوجه نشاطها . وقد أبيحت الملاحة البريئة في نهر الدانوب لسفن المتحاربين . ونص على حياد هذا النهر مع تحريم إقامة تحصينات أو منشآت عسكرية على ضفتيه . ومع ذلك فإن المضائق التركية لا يمكن أن يقاس بينها وبين نهر الدانوب الذي يجري في أراضي عدة دول . ولا يعد إنشاء لجنة الدانوب مبرراً لإنشاء لجنة المضائق

(١) أنشئت هذه اللجنة بمقتضى معاهدة أبرمت في عام ١٨١٦ في ضوء القواعد التي كان قد قررها مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥ بشأن الملاحة في الأنهار الدولية . ثم تعرضت هذه اللجنة للتعديل من حيث تشكيلها واختصاصاتها في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، ثم في معاهدة جالاتز Galatz في ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٦٥ ، وفي مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ أدخلت تعديلات جديدة على اختصاصات اللجنة ، ثم أبرم اتفاق لندن في ١٠ من مارس - آذار - عام ١٨٨٣ منحت اللجنة بمقتضاه اختصاصات قضائية ، وجعل منطقة نفوذها ممتداً من « جالاتز » إلى « برايلا » Braila . وفي معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وضعت نصوص استهدفت توسيع اختصاصات لجنة الدانوب وزادت من سلطتها .

أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : نكتل الدول لتدويل قناة السويس نكاية في بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ح ١ ، صص ٦٨ - ١١٤ وبين في هذه الصفحات من المناقشات الإضافية التي خاضها أعضاء لجنة باريس الدولية عام ١٨٨٥ أوضاع لجنة الدانوب .

وانظر أيضا :

دكتور مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج ٣ ، القاهرة ، سنة

الدولية . وإذا كان القانون الدولي العام يعترف بحرية الملاحة في المضائق ، إلا أنه لا يخضعها لإشراف لجنة دولية تقيم في إقليم الدولة التي تخترق المضائق أراضيها .

مقارنة بين لجنة المضائق ولجنة القناصل في مصر :

وسمع المجتمع الدولي بعد ذلك عن تكوين لجنة دولية في مصر هي لجنة قناصل الدول لمراقبة تنفيذ اتفاقية الآستانة المبرمة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ الخاصة بتنظيم حرية المرور في قناة السويس . والرعاية نوع من الضمان لتنفيذ المعاهدات . وفي اتفاقية المضائق وفي اتفاقية قناة السويس استقر رأى الدول على أن تكون الرقابة على تنفيذها ذات طابع دولي . ومن ثم جاءت اتفاقية قناة السويس بلجنة القناصل وجاءت اتفاقية المضائق بلجنة المضائق . ولما كانت لجنة القناصل تتعلق بقناة السويس التي هي ممر مائي تمر في مصر التي كانت تحت السيادة العثمانية في ذلك الوقت طبقاً لقواعد القانون الدولي العام ، فسنعرض مقارنة سريعة جداً بين هاتين اللجنتين حتى تتضح في الأذهان صورة عن هذه الهيئات التي صنعها الاستعمار . ثم فرضها على الدولة العثمانية وعلى بعض أقاليمها في عصر الاضمحلال ضارباً عرض الحائط بالسياسة الولاية العليا للدولة العثمانية واحترام سيادتها على أراضيها .

كانت لجنة القناصل تتكون من تعة أعضاء يمثلون فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وهولندا ، والروسيا ، وتركيا . وكان هؤلاء الأعضاء جميعاً ، باستثناء تركيا ، هم قناصل الدول الأطراف في اتفاقية الآستانة أو طبقاً للنص الوارد فيها « وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدون بمصر » ولذلك لم يكونوا متفرغين لعملهم في اللجنة .

أما لجنة المضائق فكانت - وفقاً للتعديل الذي جاءت به معاهدة لوزان - تتكون من عشرة أعضاء يمثلون تركيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وبلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والروسيا ، ويوغوسلافيا .

وتركت الاتفاقية الباب مفتوحاً لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها ، وكذلك أية دول مستقلة تطل على البحر الأسود لم يرد ذكرها من بين أسماء الدول الأعضاء .

وقد نص في اتفاقية القناة على أن تعقد لجنة القناصل نوعين من الاجتماعات : اجتماعات طارئة في كل حالة تهدد فيها سلامة القناة أو حرية المرور بها . وتعقد هذه الاجتماعات بناء على دعوته ثلاثة من أولئك القناصل ، وتكون تحت رئاسة عميدهم على أن يكون بطبيعة الحال من ممثلي الدول الأطراف في الاتفاقية ، وإلا كانت الرئاسة لأعلاهم درجة أو أقدمهم في المنصب أو أكبرهم سناً طبقاً للعرف البائد في تعيين عميد السلك السياسي أو القنصلي في عاصمة كل دولة . ويكون الهدف من الاجتماعات الطارئة هو لإجراء التحقيقات اللازمة ، ثم قيامهم بإبلاغ الحكومة المصرية بالخطر الذي يتبينونه حتى تتخذ هذه الحكومة الاجراءات التي تكفل حماية القناة وحرية استخدامها .

أما النوع الثاني من الاجتماعات فهو الاجتماعات التي تعقد مرة كل سنة للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وأضاف النص أنه يجوز أن يشترك في الاجتماعات السنوية مندوب يمثل الحكومة المصرية . وتعقد الاجتماعات السنوية برئاسة مندوب خاص تعينه الحكومة العثمانية لهذا الغرض . وفي حالة غيابها يحل محله في الرئاسة مندوب الحكومة المصرية . أما لجنة المضايق فجعلت رئاسة اجتماعاتها لمندوب تركيا بصفة دائمة . ويكون الهدف من الاجتماعات السنوية للجنة القناصل هو التحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية في السنة السابقة على الاجتماع . وعلى اللجنة أن تطلب إلغاء كل عمل أو تفريق كل حشد ، على أحد جانبي القناة ، يمكن أن يكون الغرض منه أو يؤدي إلى المساس بحرية الملاحة وسلامتها التامة . ويرى أحد أساتذة القانون أن الهدف من الاجتماعات السنوية هو المحافظة على ديمومة مهمة لجنة القناصل والتنبيه إلى قيامها حتى لا يأتي عليها مرور الزمان ويطويها في زوايا النسيان . فقد تسير الأمور بشكل طبيعي لسنوات كثيرة مما لا يتطلب عقد اجتماعات

طارئة ، فيكون في الاجتماعات السنوية ما ينبه إلى وجود رقابة ، ولو شكلية ، على تنفيذ الاتفاقية يتولاها ممثلو الدول الموقعة عليها^(١) . وعلى مبلغ علمنا لم تعقد لجنة القناصل أى اجتماع طارئ أو دورى ، لأن بريطانيا كانت تعارض لإنشاء هذه اللجنة من حيث المبدأ خشية أن تعصف اللجنة بالنفوذ البريطانى الانفرادى المتفوق فى منطقة القناة المستند إلى الاحتلال العسكرى ، فبقيت لجنة القناصل مجرد نص قانونى ميت لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ الفعلى . أما لجنة المضايق فقد ظلت تمارس اختصاصاتها إلى أن استطاعت الحكومة التركية التخلّص من أحكام اتفاقية المضايق ، وعقدت اتفاقية مونترية فى ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وتسلمت اختصاصات اللجنة وأعدت تمصين المضايق وتولت بنفسها مهام الدفاع عنها .

ثالثاً : تجريد منطقة المضايق من السلاح :

ونصت الاتفاقية على تجريد الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق من السلاح ، وأن يمتد هذا التجريد ليشمل جميع الجزر الموجودة فى بحر مرمرة وعدة جزر فى بحر إيجه . واستثنت من نزع السلاح بعض جزر صغيرة تركية ويونانية . وقد حددت المادة الرابعة من الاتفاقية تحديداً دقيقاً المناطق التى ينزع سلاحها^(٢) . كما جاء فى الاتفاقية أن هذه المناطق تجرد من السلاح والتحصينات العسكارية تجريداً تاماً ، فينقل من جميع أرجائها سلاح المدفعية والسلاح الجوى الحربى والقواعد البحرية وألا ترابط فيها قوات مسلحة ، ويسمح فقط بوجود قوات الشرطة والجنדרمة للمحافظة على الأمن العام . وذهبت الاتفاقية إلى أبعد من ذلك فحددت الأسلحة التى

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٢) بالإضافة إلى الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق وكذلك الجزر ، جردت من السلاح منطقة برية شاسعة تشمل الجزء الشرقى من إقليم تراقيا الشرقية وقد استردت تركيا هذا الإقليم بمقتضى معاهدة لوزان . وشمل التجريد من السلاح أيضاً جزءاً من الأراضى اليونانية .

تزود بها هذه القوات ، فقالت إنها المسدسات والسيوف والبنادق وأربعة مدافع من طراز لويس . ولا تحتفظ هذه القوات بأى سلاح أو عتاد أو أدوات حربية من سلاح المدفعية في الجيش التركي . أما المياه الإقليمية للمناطق والجزر المنزوعة السلاح فيسمح بوجود غواصات فيها بعد أن تنزع منها الآلات وأدوات الحرب بحيث تغدو هذه الغواصات في وضعها الحديد مجرد سفن عادية (المادة ٨) .

نتائج نزع السلاح من منطقة المضائق :

كان تجريد المضائق والجزر من السلاح وما ترتب عليه من آثار سببت في صلب المعاهدة هو أسوأ ما جاءت به معاهدة لوزان بخصوص موضوع المضائق ، فقد كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة ، وانتهاكاً لسيادتها وانتزاعاً لحق مقدس لها هو الدفاع عن أراضيها . ولم يكن في مقدور الوفد التركي وهو يمثل دولة هزمت في الحرب العالمية الأولى ويتفاوض مع دول أوروبية كبرى خرجت منها منتصرة أن يستخلص لبلادها أكثر مما حصل عليه . وقد اتبع الوفد التركي في مفاوضات لوزان ما يسمى «الدبلوماسية المرنة» . فقد حصل على مكاسب كثيرة وضخمة لا شك فيها. وحسبه أن معاهدة لوزان قد سحبت عار معاهدة سيفر. وكان إصرار الدول الأطراف في معاهدة لوزان على ضمان حرية المرور في المضائق هو الذي اتخذ ذريعة لنزع سلاح هذه المنطقة . ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول استرضاء تركيا أو تعويضها عن تجريد هذه المنطقة من السلاح ، فتعهدت الدول الكبرى منها بضمن سلامة المضائق والمناطق المجاورة لها من كل اعتداء ، وما قد يتطلبه هذا الضمان من التدخل الحربي لأربع دول كبرى دفاعاً عن الأراضي التركية ، مما يجعل المضائق منطقة مشمولة بحماية دولية . وقد جاءت المادة (١٨) من اتفاقية المضائق على النحو التالي :

« إن الدول السامية المتعاقدة ، وهي ترغب في أن تؤكد أن نزع سلاح المضائق والمناطق المجاورة لها لن يشكل خطراً

غادراً (١) على الأمن الحربى لتركيا ، وأن أى عمل حربى لن يعرض للخطر حرية المضايق أو سلامة المناطق المحررة من السلاح ، فقد اتفقت على الآتى :

« إذا تعرضت للخطر حرية الملاحة فى المضايق أو سلامة المناطق المنزوعة السلاح نتيجة الإخلال بتنفيذ المواد الخاصة بحرية المرور ، أو نتيجة هجوم مفاجيء ، أو بعض أعمال حرية ، أو تهديد بالحرب ، فإن الدول السامية المتعاقدة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان ، تعمل معاً ، لمواجهة مثل هذا الإخلال ، أو الهجوم ، أو أى عمل حربى آخر ، أو التهديد بالحرب بجميع الوسائل التى يقررها مجلس عصبة الأمم لهذا الغرض .

« وحالما ينهى الطرف الذى تتطلب اتخاذ الإجراء المنصوص عليه فى الفقرة السابقة ، ينفذ تنفيذاً دقيقاً النظام الموضوع للمضايق وفقاً لنصوص هذه الاتفاقية » (٢) .

تقييم معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة بديلة لها هى معاهدة لوزان انتصاراً للقومية التركية . فقد استطاع مصطفى كمال أن يتحدى بريطانيا

(١) غير قابل للتبرير أو العذر un danger injustifiable

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لمعاهدة لوزان فى :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No.16, Cmd. 1929.

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Turkey No. 1. Cmd, 1814, "Lusanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923" (Proceedings) .

وقد دخلت المعاهدة دور التنفيذ اعتباراً من اليوم السادس من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٤ بعد أن أودع فى باريس العهد المطلوب من تصديقات الدول الأطراف فى المعاهدة .

وبما هو جدير بالذكر أن حكومة موسكو وقعت على اتفاقية المضايق فى الرابع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ ، ثم امتنعت عن التصديق عليها .

وحليفاتها ، وأن يحملها على إلغاء معاهدة فرضتها على بلاده وهي في حالة الهزيمة والانتكاس . والمعنى الهام الذى انطوى عليه عقد معاهدة لوزان هو إعادة إنشاء سيادة تركية كاملة على معظم الأقاليم التى تتكون منها في الوقت الحاضر جمهورية تركيا (١) ، كما قررت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان يعد انتقاصاً لسيادة الدولة في المجالات التشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية . ولذلك كان إلغاء الامتيازات الأجنبية استكمالاً لسيادة الدولة .

ومن بين جميع الدول التى لقيت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى كانت تركيا هي الدولة الوحيدة التى نجحت ، بصلاصة أبنائها واستبسالهم في الكفاح وتمسكهم باستقلال بلادهم ، في أن تستبدل معاهدة جديدة بمعاهدة ظالمة غير متكافئة . وتعد معاهدة لوزان في مجموعها اعترافاً دولياً بالمطالب التركية القومية كما وردت في الميثاق الوطنى . ويرى بعض المؤرخين العرب أن معاهدة لوزان تعد من وجوه عديدة خاتمة فصول المدألة الشرقية ، لأنه كان واضحاً أن بريطانيا وحليفاتها المنتصرة الاستعمارية حاولت في معاهدة سيفر تصفية الإمبراطورية العثمانية تصفية نهائية وتصفية المسألة الشرقية معها ، لولا نهضة تركيا الحديثة الكمالية وقيامها من أنقاض الموت والدمار . فاضطرت الدول الحليفة - وقد انشقت فيما بينها في سياستها نحو تركيا - إلى عقد مؤتمر لوزان ، وفيه نالت تركيا الحديثة امتيازات كثيرة واعترف بكيانها دولة مستقلة واستطاعت فيما بعد التخلص من قيود معاهدة لوزان (٢) .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت تجريد منطقة المضايق من السلاح ، إلا أنها حافظت على إبقاء هذه المنطقة جزءاً لا يتجزأ من الوطن التركى ، وعلى إبقاء إستانبول داخل نطاق الوطن التركى . وكانت اليونان حريصة

Lewis Bernard; op. cit, p. 254.

(١)

(٢) دكتور فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية . من مطبوعات معهد

الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦

الحرص كله على ضم هذه العاصمة إليها . وكانت اتفاقية المضائق خطوة نحو استكمال سيادة الدولة عليها بإقامة التحصينات العسكرية فيها وبقيام القوات المسلحة التركية بالدفاع عنها ، وهو ما تقرر في اتفاقية مونتريه Montreux المبرمة في ٢٠ من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ ، واشتركت في التوقيع عليها عشر دول كما سنشير إليها إشارة سريعة في موطن قريب في نهاية هذا الفصل . ويمكن تشبيه معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضائق بالمعاهدة البريطانية المصرية التي عقبت في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٣٦ فقد كانت هذه المعاهدة خطوة نحو الاستقلال التام الذي تحقق بعقد اتفاقية الجلاء في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٥٤ واستمادت مصر سيادتها التامة على منطقة القناة وحقها الكامل في إقامة الاستحكامات العسكرية على ضفتي قناة السويس وانفرادها بالدفاع عنها وحماية أمنها .

وإذا كانت اتفاقية المضائق قد قررت حرية المرور في المضائق للسفن الحربية والتجارية في وقت السلم وزمن الحرب ، إلا أنها جاءت بأحكام كانت تقتضيها المصلحة العليا لتركيا ، وهي تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

لقد جاءت معاهدة لوزان بما سبق أن جاءت به معاهدة سيفر فيما يتصل بالرقابة على المضائق . ولكنها جاءت بهذه الرقابة مخففة بأن جعلت لتركيا الرياسة الدائمة للجنة المضائق ، وهبطت باليونان دسواً عادياً في لجنة المضائق فأقصتها عن مركزها الممتاز كصيدر - مع تركيا - لساطعات واختصاصات لجنة المضائق ، كما سبق أن ذكرنا ، وقضت على التمايز بين أعضاء اللجنة فجعلت لكل دسواً صوتاً واحداً بصرف النظر عما إذا كان العضو يمثل دولة كبرى أو وسطى أو صغيرة . وقد حاول باحثان اشتراكا في مؤلف واحد إعطاء صورة عامة عن معاهدة لوزان وما جاءت به من مبادئ ، فمثلاً إن هذه المعاهدة قد أنشأت نظاماً لمرور السفن في المضائق وللرقابة الدولية على هذا المرور . وهذا النظام عبارة عن موامعة بين مصالح الدول المطلة على البحر الأسود وبخاصة مصالح روسيا التي

كانت تتطلع إلى معاملة تميزها عن غيرها من الدول وبين دول المعسكر الغربي وبخاصة بريطانيا التي كانت تطمع في تقرير حرية تامة للسفن في عبورها المضائق (١).

ونخلص من هذا التقييم لمعاهدة لوزان أنها كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة وانتقاصاً لسيادتها على جزء من أراضيها على الرغم من أنها كانت تفضل من عدة وجوه معاهدة سيفر .

وقد أصدر مجلس النواب التركي (٢) قرراً في ٢٣ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ بالموافقة على معاهدة لوزان . وكان هذا المجلس قد أصدر قبل ذلك بعدة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . (٣) وفي ٢ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ تم جلاء آخر قوات الاحتلال من إستانبول ، وقد دخلتها في اليوم السادس من ذات الشهر القوات التركية تحت قيادة شكري نايلي . ومن المصادفات العجيبة أنه في هذا اليوم كان الداماد فريد باشا الصدر الأعظم السابق والخصم اللدود لمصطفى كمال ورفاقه وأحد أقطاب حكومة السلطان محمد السادس يلفظ أنفاسه الأخيرة في مدينة نيس بجنوبي فرنسا .

(١) Shotwell J. T. and Deak F. ; Turkey at the Straits. p. 117.

(٢) كان المجلس الوطني الكبير قد حل نفسه في ١٦ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٣ استعداداً لإجراء انتخابات جديدة جاءت بمجلس نواب يتكون من ٢٨٦ عضواً . وبدأ المجلس جلساته في ١١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ .

(٣) لما كانت جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميل قد نجحت في تحقيق أهدافها في أثناء الكفاح من أجل تحرير الوطن التركي ، رأى مصطفى كمال تحويل هذه الجمعية إلى حزب سياسي حقيق يخضع للتنظيمات الحزبية . وقد أصدر مصطفى كمال في ٦ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ أول بيان للصحافة عن تأسيس حزب جديد يسمى حزب الشعب . وطلب من المثقفين في تركيا موافقته بأرائهم بالكتابة إليه شخصياً . وقد اجتمع حزب الشعب في ٩ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ - أي قبل اجتماع مجلس النواب بيومين - واتخذ قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وقد اتخذ هذا الحزب في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٤ اسماً آخر هو حزب الشعب الجمهوري تأكيداً في أذهان الشعب للنظام الجمهوري . وتشير الراجع الأجنبية إلى اسم الحزب مختصراً على هذا النحو The R.P.P. أي The Republican People's Party.

إستانبول تفقد مركزها كعاصمة :

غدت إستانبول ، بعد تجريدتها من السلاح طبقاً لاتفاقية المضايق ، مدينة مكشوفة معرضة للهجوم عليها برأً وبحراً . ورأى مصطفى كمال نقل العاصمة إلى أنقرة وهى المدينة التى تقع فى قلب الأناضول ، الوطن التركى الأصيل ، وتمتع بحصانة طبيعية تجعلها بمنأى عن هجوم الأعداء ، ومقبرة لهم إذا حاولوا اجتياز الجبال والمضاب المحيطة بها للوصول إليها أو الاقتراب منها . وقد اتخذ مجلس النواب التركى فى ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٣ قراره بنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة (١) . وكان نقل العاصمة ضربة عنيفة لإستانبول ، فقد حرمت من مركز ظلت تشغله أربعائة وسعين سنة كعاصمة لإمبراطورية إسلامية وعاصمة من أكبر عواصم العالم وكبرى عواصم الشرق على الإطلاق .

ويرى أحد كبار المؤرخين الإنجليز أن هذا الإجراء كان بمثابة عملية قطع أو فصل لماضى الدولة العثمانية عن حاضر تركيا . ويبرر نقل العاصمة بأنه كان نتيجة منطقية لإلغاء نظام السلطنة ، فقد ذهب السلطان ، ولم تعد إستانبول فى ظل الأوضاع الجديدة مكاناً صحياً لتكون مقراً لحكومة الثوار الذين أطاحوا بالسلطان العثمانى . ويمضى هذا المؤرخ قيقول إن الماضى الحافل بالأعجاز عالق بالأذهان : القصور الرائعة والمساجد الفخمة والمباني العظيمة التى تزخر بها إستانبول ، وضاحيتها بيرا Pera موطن السفارات الدبلوماسية وموئل الجاليات الأجنبية والتجارة من مختلف الجنسيات ، كل أولئك كان مرتبطاً أشد الارتباط بالماضى فى الواقع الملموس ومستقراً فى أذهان الشعب التركى . فلم تكن إستانبول صالحة لتكون مركزاً لتركيا الحديثة التى أراد مصطفى كمال أن يقيمها ، ومن ثم اختيرت مدينة أخرى لتكون عاصمة جديدة كى تكون رمزاً يجسد التغييرات التى أراد إدخالها . فالدولة الجديدة

(١) كان حزب الشعب قد وافق فى ٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ ، بناء على اقتراح عصمت باشا ، باتخاذ أنقرة عاصمة للدولة الجديدة بدلاً من إستانبول . وبعد أربعة أيام وافق مجلس النواب على هذا التعديل .

لم تستند إلى أسرة حاكمة ، ولم تقم على إمبراطورية ، ولا على عقيدة Faith ، وإنما قامت على الشعب التركي ، ومن ثم كانت عاصمة هذه الدولة في قلب الوطن التركي (١) . وهذا الرأي يحمل في معظم عناصره طابع التبرير أكثر مما يحمل من طابع التفسير ، لأن التصرفات الأولى لمصطفى كمال كانت تنم عن اتجاهه إلى الأناضول بصفتهما الوطن التركي الأصيل يتخذ منها مهاداً لحركته الثورية . ففي الأناضول تكونت في شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٨ المجموعات الأولى للمقاومة . وفي الأناضول اجتمع مؤتمر أرضروم ثم مؤتمر سيواس في ٢٣ من شهر يوليو - تموز - وفي ٤ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٩ على التوالي : ووقع اختيار مصطفى كمال في وقت مبكر على أنقرة ، وكانت وقتذاك قرية جبلية صغيرة ، واتخذ منها منذ اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٩ مقراً للجنة الدائمة المنبثقة عن «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميلي» وهي اللجنة التي كانت بمثابة مركز قيادة الثورة ، وكان مصطفى كمال رئيساً للجمعية واللجنة معاً . وفي أنقرة اجتمع المجلس الوطني الكبير في ٢٣ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٠ واتخذها مقراً رسمياً دائماً للمجلس . وفي أنقرة تكون أول مجلس وزراء شكلته قيادة الثورة في ليلة ٣ - ٤ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٢٠ . وكانت حكومة أنقرة هي التي عقدت اتفاقيات دولية مع كل من الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية R. S. F. S. R وجمهورية فرنسا ومعاهدات صداقة مع كل من جورجيا وفارس وأفغانستان . وأصبحت أنقرة مقرونة في أذهان الرأي العام التركي والرأي العام العالمي باسم الثورة الكمالية التي نجحت في تحرير الوطن من دنس الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي واليوناني . كما أن رجال حكومة أنقرة هم الذين قاموا بإجراء مفاوضات لوزان التي انتهت بعقد المعاهدة . وكل هذه شواهد أو دلائل تنم عن اتجاه مصطفى كمال لتقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة . أما الرأي

الذى يذهب إليه الأستاذ لويس برنارد بأن جمهوريه تركيا لم تقم على أساس أسرة حاكمة ، فإن إستانبول لم تكن مسقط رءوس السلاطين الأوائل ولم تكن مرتعاً لصباهم . وإذا كانت إستانبول تزخر بالقصور والمساجد وغيرها من المنشآت التى تعد من روائع الفن المعمارى ومظهراً مجسداً للحضارة العثمانية ، فإن جمهورية تركيا هى امتداد للدولة العثمانية ، وهى دولة ذات ماض حافل بالأيجاد . والاثنان - السلطنة والجمهورية - تطاولان الزمان وجوداً .

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة بواعث أملت على مصطفى كمال نقل العاصمة من إستانبول .

أولاً : كانت إستانبول فى متناول قذائف الأساطيل البحرية للأعداء ، كما كان يسهل حصارها برياً ومهاجمتها على عكس أنقرة .

ثانياً : كانت إستانبول تعج بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية اليونانية ، وكانت كثيفة العدد يقيم أفرادها فى حى الفنار . وكان هذا الحى لايزال مقراً للبطريك اليونانى ومقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . وما هو جدير بالذكر أن أعضاء الوفد التركى فى مفاوضات لوزان طلبوا نقل مقر البطريرك والكنيسة خارج إستانبول . ولم يجدوا استجابة لطلبهم (١) .

ثالثاً : كانت إستانبول فى نظر مصطفى كمال مقراً لعلماء الدين وأنصار السلطنة . وكان يخشى أن يقوموا بحركات مضادة تهدد النظام الجمهورى الوليد . أما أنقرة فكانت مدينة ثورية لحماً ودماً .

ومع ذلك فعلى الرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على حرمان إستانبول من مركزها كعاصمة للدولة ، فإنها لاتزال أكبر مدن تركيا من حيث الكثافة السكانية ، فطبقاً لتعداد سنة ١٩٧٥ بلغ عدد سكان جمهورية تركيا زهاء ٤١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعة على ٦٧ مقاطعة . وبلغ عدد سكان

• Miller W., op.cit., 556-557.

(١)

إستانبول أربعة ملايين نسمة ، بينما بلغ تعداد العاصمة الجديدة ، أنقرة ، زهاء مليون ونصف مليون نسمة ، تليها مدن أزمير ، وأضنا ، وإسكى شهر ، وبورصة (بروسة) ، وسامسون ، وقيسرى ، وغازى عنتات ، وسيواس ، وديار بكر . فضلا عن كنوزها وثراوتها الفنية التى تتمثل فى قصورها التاريخية ومساجدها ومبانيها ومتاحفها .

مقارنة بين معاهدى سيفر ولوزان فيما يختص بالمضايق :

يلاحظ أن هاتين المعاهدتين قد قررتا إنشاء لجنة المضايق . وقد قامت هذه اللجنة فى المعاهدتين على تأكيد مبدأ الإشراف الدولى على تنظيم مرور السفن والطائرات فى منطقة المضايق . ولكن جاءت معاهدة لوزان بعدة مبادئ كانت فى مصلحة تركيا . كان أول هذه المبادئ أنها استبعدت اليونان كدولة تشارك تركيا فى السيادة على منطقة المضايق التى هى جزء من الوطن التركى ، وهو مبدأ خطير كانت قد استحدثته معاهدة سيفر حين نصت على أن لجنة المضايق تستمد من تركيا ومن اليونان مصدر وجودها وسلطاتها واختصاصاتها ، وبعبارة أخرى كانت تركيا واليونان شريكين فى مصدر السيادة . ثم جاءت معاهدة لوزان فجعلت تركيا الدولة الوحيدة التى تستند إليها لجنة المضايق فى وجودها ، وأصبحت اليونان عضواً عادياً فى لجنة المضايق . كما قررت معاهدة لوزان انفراد تركيا بالرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وشجبت لوزان التمايز بين أعضاء اللجنة الذى جاءت به معاهدة سيفر التى جعلت لبعض أعضاء اللجنة صوتين لكل منهم وجعلت للبعض الآخر صوتاً واحداً . وكانت تركيا من الفريق الثانى ذى الصوت الواحد . فساوت معاهدة لوزان بين مندوبى جميع الدول الكبرى والصغرى بأن جعلت لكل مندوب دولة صوتاً واحداً . ولم يرد فى معاهدة لوزان الشرط الحتمى الذى جاءت به معاهدة سيفر وهو أن تكون الدول الممتلئة فى لجنة المضايق أعضاء فى عصبة الأمم بحيث لا تباشر عملها فى اللجنة إلا بعد قبولها فى عصبة الأمم . وكان المقصود بهذه الدول وقتئذ ذلك روسيا وتركيا وبلغاريا . أما معاهدة لوزان فقد قررت أن يكون تصديق كل دولة على المعاهدة هو

شرط ممارستها لعضويتها في نشاط اللجنة ، وهو شرط أدنى إلى العدالة والاعتدال. لأنه قد تقوم عقبات تحول دون انضمام الدولة إلى عصبة الأمم ، بينما التصديق على المعاهدة هو عمل تمارسه الدولة بمحض رغبةٍ وإرادتها ولا يتطلب إصداره موافقة دول أو هيئات أجنبية (١) .

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التي تملك عقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هي إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما رئيس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستوري المعمول به في كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة من حيث السلطات التي تمنحها الدساتير لرؤساء الدول في شأن إبرام المعاهدات والتصديق لإجراء واجب لنفاد المعاهدة في الدائرة الدولية يؤيد ضرورته القانون الدولي الوضعي وكذلك العرف المتواتر بين الدول .

وقد اعتمد فقه القانون الدولي العام في ضرورة التصديق على المعاهدات على عدة أسانيد ، منها خطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها في المعاهدات ، وإتاحة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها وللهيئات النيابية فيها لإعادة النظر في المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد ترى فيما اتفق عليه مندوبوها تعارضاً مع مصالحها أو انتقاصاً من حقوقها أو قد تطرأ ظروف تدعوها إلى العدول عما كانت تراه من قبل فتمتنع عن التصديق . وهذا الامتناع تسقط المعاهدة تلقائياً بالنسبة لها . وأخيراً فإن من بين أسانيد التصديق الرغبة في تفادي ما يحتمل التعلل به من أضرار بعد التوقيع بمقولة تجاوز المفاوضين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسئولية دولية ، ولكن لا يلحق المعاهدة في هذه الحال وصف النفاذ . فالتصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة ، بل هو الإعلان الحقيقي لإرادة الدولة في الالتزام بأحكام المعاهدة ، وهو الذي يحدد اللحظة التي تصبح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك إجراء شكلي يستكمل به إجراء التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فلكي ينتج التصديق آثاره القانونية في الدائرة الدولية يجب أن تعلم به الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة . ويتحقق هذا العلم ، في حالة المعاهدات الثنائية ، عن طريق تبادل الوثائق التي تفيد التصديق . أما في حالة المعاهدات الجماعية فيتم عن طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هي في العادة عاصمة الدولة التي تم التوقيع في إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذي تدخل به المعاهدة في دور التنفيذ الدولي .

أنظر كلا من :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، صص ٢١٤ - ٢٢٠

دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام . دراسة لفضايله الأصولية ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٢٦ .

فضل الثورة الكمالية في تحسين وضع المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة لوزان وما نجم عنها من تحسين الرضع السياسى نسبياً لمنطقة المضايق ثمرة من ثمار الثورة الكمالية. ولا جدال فى أن نجاح هذه الثورة كان مرده إلى القيادة الحكيمة التى اتسم بها مصطفى كمال ، فلم يلجأ إلى اجراءات تعسفية من اعتقال المواطنين بالآلاف وتعذيبهم وإهدار كرامتهم بل وادميتهم ومصادرة أموالهم وتقديمهم إلى محاكمات صورية تصدر فيها أحكام بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة بناء على أوامر مسبقه . وكان حريصاً منذ بدء الثورة على إنشاء مجلس نيابى وفر له الاستقرار الزمنى والحماية الدستورية ، فاستطاع أن يقدم للجمتمع التركى الكثير من الخدمات . وكان رفاق مصطفى كمال متلاحقاً فى النزاهة والأخلاق والبعد عن استغلال النفوذ والإثراء غير المشروع وهتك الأعراض وما إلى ذلك . ولم يشكل هؤلاء الرفاق والأعوان ، كما فعل غيرهم فى دول أخرى ، مراكز قوى حتى أصبح كل منهم بمضى الأيام حكومة داخل الحكومة *imperium in imperio* . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة معبرة حكيمة ذكرها نيقولا مكيافيلى وهو يتكلم عن الأمير . وكان يقصد بالأمير فى هذه الجملة الحاكم أياً كان لقبه : إمبراطوراً أو ملكاً ، أو أميراً . وقد جاء فيها أن رجحان عقل الأمير وكفايته يقاسان بصفات الأفراد الذين يحيطون به والذين اختارهم لمعاونته فى شئون الحكم . فإذا كانوا على حظ موفور من الأمانة والكفاية والخلق كان ذلك دليلاً ساطعاً على حكمة الأمير ، وإلا كان الرأى فى الأمير على عكس ما تقدم (١) .

موقف موحد لبريطانيا وحليفاتها من تركيا وألمانيا فيما يختص بالمرات
المائة :

من المواقف السياسية والعسكرية الجسدية بالملاحظة أن بريطانيا

(١) انظر عرضاً لحياة مكيافيل وآرائه السياسية فى كتابنا :

أوروباً فى مطلع المصور الحديثة . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، الفصل الثانى وعنوانه :

ثلاثة من أعلام الفكر الأوروبى الحديث فى مطلع عصر النهضة . الجزء الخاص بمكيافيل ،

وحليفاتها وقفت موقفاً موحداً من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية التي في أراضي كل منهما . ولذلك كان موقف هذه الدول من المضائق التركية مشابهاً إلى حد كبير لموقفها من قناة كييل La Canal de Kiel وهذه القناة تصل بحر الشمال ببحر البلطيق عبر الأراضي الألمانية (١). وقامت ألمانيا بحفرها دون أى تدخل أجنبي وافتتحت للملاحة سنة ١٨٩٦ ، وكانت تسمى أيضاً قناة غليوم نسبة إلى غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقتذاك (١٨٨٨ - ١٩١٩) . وكان الهدف من إنشائها حربياً أكثر منه تجارياً ، واعتبرت طريقاً ألمانياً بحثاً في صميم الأراضي الألمانية . وكانت ألمانيا تمارس على هذه القناة جميع حقوق الملكية والسيادة والإدارة والاستغلال . ولم توضع اتفاقية دولية تقيد سلطة ألمانيا عليها ، فكان لها مطلق الحرية في تكثيف مركز هذه القناة ، وفي أن تمنع مرور أية سفينة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ولقيت فيها ألمانيا الخزيمة . وكان من الطبيعي أن يكون لقناة كييل نصيب ملحوظ في أحكام معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا . فقد نصت على تجريد هذه القناة ومدخلها من الدلاح وتحطيم التحصينات العسكرية التي كانت موجودة فيها وتحريم إقامة تحصينات جديدة (المادة ١٩٥) ، وهذه المادة تشبه ما تقرر في اتفاقية المضائق من نزع سلاح منطقة المضائق ، كما أدرجت في ذات المعاهدة أحكاماً تضيء على قناة كييل صبغة دولية نسبية . وجاءت هذه الأحكام في سبع مواد (من ٣٨٠ إلى ٣٨٦) .

وتهمنا في هذه الدراسة بوجه خاص المادة ٣٨٠ فقد نصت على أن « تكون قناة كييل ومنافذها حرة ومفتوحة دائماً على قدم المساواة التامة للسفن الحربية والتجارية لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا » . ويتفق هذا النص مع ماورد في اتفاقية المضائق حين نصت على أنه في زمن الحرب وإذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فبكون المرور عبر المضائق مقصوراً على سفن الدول المحايدة ، بمعنى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

(١) تبدأ القناة من ميناء كييل الحربى على بحر البلطيق إلى مصب نهر الإلب Elbe

على بحر الشمال .

وقررت معاهدة فرساي في المادة ٣٨١ تطبيق مبدأ المساواة على السفن التي تستخدم قناة كييل تطبيقاً دقيقاً بالنص على أن حق المرور بالشكل الذي تقرر لجميع الدول التي في حالة سلم مع ألمانيا يجب أن تتمتع به هذه الدول وكل ما يتبعها من أشخاص وأموال وسفن ومراكب على قدم المساواة التامة دون تمييز بينها وبين رعايا وأموال وسفن ومراكب ألمانيا أو الدولة الأولى بالرعاية . « وألا تعوق مرور الأشخاص والسفن والمراكب عوائق أخرى إلا ما كان نتيجة النصوص الخاصة بالشرطة أو الرسوم أو التدابير الصحية أو الهجرة أو المهاجرة ، وكذلك النصوص الخاصة باستيراد أو تصدير البضائع الممنوعة ، ويجب أن تكون هذه القيود مناسبة وتطبق على وجه التساوي وألا تعوق الحركة دون مبرر » . وفي اتفاقية المضايق نصوص مشابهة إلى حد كبير وتستهدف عدم التمييز بين جنسيات السفن على النحو الذي مر بنا وعدم السماح لتركيا - كدولة محايدة أو محاربة - باتخاذ أية إجراءات تعتبر تدخلا في الملاحة عبر المضايق أمام سفن الدول المحايدة .

وجاءت المادة ٣٨٢ خاصة بتنظيم الرسوم وتحديد أنواعها ، فقررت ألا يفرض على السفن سوى الرسوم التي تغطي على وجه عادل نفقات صيانة وتنظيم الملاحة أو تحسين القناة أو مداخلها ، وأن يكون تقدير الرسوم على نحو لا يحمق فحص حمولة السفينة بالتفصيل حتى لا يتعطل مرور السفن . ونظمت المادة ٣٨٣ مسألة البضائع المارة Transit وجعلت إنزال وشحن البضائع وركوب المسافرين ونزولهم بالقناة مقصوراً على الموانئ التي تحددها ألمانيا . وعادت المادة ٣٨٤ إلى موضوع الرسوم فقررت عدم جواز جباية أي رسم في القناة وفي مداخلها غير ماورد ذكره في هذه النصوص .

وقررت المادة ٣٨٥ أنه « يتعين على ألمانيا أن تتخذ الاجراءات المناسبة لإزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة ، وأن تكفل توافر شروط صلاحية الملاحة . ولا يجوز لها إقامة أشغال من طبيعتها عرقلة الملاحة بالقناة أو مداخلها » . ويفسر أحد اساتذة القانون المصريين الفقرة الأولى من هذه

المادة بأنها تعطى ألمانيا مهمة الدفاع عن قناتها واتخاذ سائر التدابير اللازمة لسلامة الملاحة بها وطمأنينتها على الدوام (١). والواقع أن نص هذه الفقرة يكتنفه الغموض فهو لا يشير صراحة إلى تحويل ألمانيا حق الدفاع عن القناة لأن عبارة « إزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة » عبارة عامة .

وحددت المادة ٣٨٦ جهات الاختصاص للفصل في المنازعات التي تنشأ نتيجة مخالفة أحكام المواد التي قررتها معاهدة فرساي فيما يخص بقناة كييل أو نتيجة الخلاف على تفسير هذه المواد ، فأجازت للدولة صاحبة الشأن أن تلجأ إلى « جهة القضاء التي تقيمها لهذا الغرض عصبة الأمم » وجهة القضاء هذه ليست إلا محكمة العدل الدولية الدائمة . كما نصت ذات المادة على أنه « لتفادى عرض المسائل القليلة الأهمية على عصبة الأمم تقيم ألمانيا في كييل سلطة محلية تحاط بالمنازعات في مرحلتها الأولى ، ولها حق إعطاء الرضوية الممكنة للشكاوى التي يقدمها المندوبون القنصليون للدول المختصة » أى تقيم ألمانيا في ميناء كييل محكمة محلية أو لجنة قضائية أو ما أشبه كدرجة أولى من درجات التقاضي تنظر في المخالفات البسيطة وتقدم عنها الرضوية الممكنة لقنصل الدول التي تقع المخالفات في مواجهة ما يتبعها من سفن أو رعايا أو ممتلكات (٢) .

ومن مجموعة هذه المواد التي جاءت بها معاهدة فرساي يتضح أن قناة كييل خرجت من النطاق الوطني البحت بعد أن كانت تعتبر في ظله قناة داخلية تحت السلطان الكامل لألمانيا ، فأصبحت لها صفة دولية وتقررت حرية مرور جميع السفن التجارية والحربية على قدم المساواة لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا . وهذا الوضع السابق والوضع اللاحق لقناة كييل عقب معاهدة فرساي يشبهان الوضع الذي آلت إليه المضائق التركية عقب معاهدة لوزان .

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

استمرت نصوص معاهدة فرساي نافذة إلى أن أعلنت ألمانيا في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٣٦ إلغاء هذه المعاهدة وتحللها من أحكامها ومنها ما يتعلق بقناة كييل . ولم يحتاج على هذا الإلغاء من الدول الأطراف في المعاهدة سوى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (١) . واستردت ألمانيا سلطاتها المطلقة على القناة وأخضعها إخضاعاً تاماً لمصالحها .

ومرة أخرى نجىء التوقيت واحداً بالنسبة للمضايق التركية وقناة كييل . فقد استطاعت الحكومة التركية بالطرق القانونية الشرعية التي تمثل في الدبلوماسية المرنة والمصارفة واستغلال تطور الظروف الدولية - إلغاء النصوص الجائرة التي جاءت في اتفاقية المضايق وعقدت معاهدة جديدة هي معاهدة مونترية في ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وسنعرض لها بعد قليل .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ منعت ألمانيا أعداءها من المرور في قناة كييل . ولما خرجت من هذه الحرب منهزمة واحتلت الدول المتحالمة الأربع الكبرى الأراضي الألمانية كان نصيب بريطانيا احتلال المنطقة التي تقع فيها قناة كييل فعادت الملاحاة في القناة حرة للجميع دون أن تنتظر بريطانيا إبرام معاهدة دولية لتوضيح المركز القانوني لقناة كييل ، وبذلك كانت حرية المرور في قناة كييل تستند إلى الأمر الواقع ، بعد أن طويت معاهدة فرساي . ومرة أخرى طلبت حكومة موسكو في عام ١٩٤٥ - بعد الحرب العالمية الثانية - وضع نظام جديد للمضايق التركية . .

اتفاقية مونترية سنة ١٩٣٦ :

اشتد ساعد الجمهورية التركية في المجال الدولي . وكانت قد ضاقت ذرعاً بالأحكام الجائرة المتصلة بموضوع المضايق والتي جاءت بها معاهدة لوزان ، وبخاصة تجريد منطقة المضايق وجزرها من السلاح وقيام اللجنة الدولية -

لجنة المضايق - بالإشراف على حرية المرور في المضايق . وأرادت أن تتخلص من هذه القيود لتتولى الدفاع بنفسها عن المضايق وإلغاء لجنة المضايق تأكيداً لسيادة الدولة على هذه المناطق التي هي جزء من الوطن التركي . ومنذ سنة ١٩٣٣ قامت الحكومة التركية باتصالات دبلوماسية مع الدول ابتغاء تعديل أحكام معاهدة لوزان فيما يختص بموضوع المضايق . وجاء اضطراب العلاقات الدولية في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ عاملاً ساعداً على تحقيق مطالبها . فقد جاء الغزو الإيطالي للحبشة في هاتين السنتين نذيراً بتزايد الخطر الفاشستي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وأحدث بدوره تقارباً بين تركيا وبريطانيا . وعقد مؤتمر في مونتريه Montreux بسويسرا في الفترة من ٢٢ يونيو - حزيران - إلى ٢٠ يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ اشتركت فيه عشر دول ، هي : أستراليا وبلعاريا وفرنسا واليونان واليابان ورومانيا والاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا فضلاً عن بريطانيا و تركيا . وقد أسفر هذا المؤتمر عن عقد اتفاقية مونتريه في ٢٠ من يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ .

وقد استردت تركيا بمقتضى الاتفاقية الجديدة حقها في تخصيص منطقة المضايق . ولم تتوان في مباشرة هذا الحق استكمالاً لسيادتها على هذه المنطقة والتي كانت قد سلبت جزءاً منها بمعاهدة لوزان . كما استردت حقها في الدفاع عن هذه المنطقة التي غدا شأنها شأن سائر أجزاء الوطن التركي .

كما خولتها اتفاقية مونتريه اختصاصات اللجنة الدولية ، وعدلت لصالح الحكومة التركية شروط مرور السفن التجارية والحربية سواء في وقت السلم أو زمن الحرب . ولن نتعرض لتفاصيل هذه الاتفاقية لأنها تتصل بتاريخ جمهورية تركيا ، ولا نريد التوسع في تاريخ هذه الفترة .

(١) نجد نص هذه الاتفاقية في كل من :

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime de détroits. Liège, 1936.

Survey of International Affairs, 1936, pp. 584-651.

المذكرة السوفيتية سنة ١٩٤٦ :

ولنفس السبب لن نتعرض لتفاصيل المذكرة السوفيتية التي قدمتها حكومة الاتحاد السوفيتي في ٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٦ إلى حكومات تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وطلبت فيها تعديل أحكام اتفاقية مونترية تأسيساً على أن اتفاقية مونترية لم تحقق سلامة دول البحر الأسود، ولم تضمن عدم استخدام المضائق لأغراض معادية لهذه الدول ، إذ دخلت ، في خلال الحرب العالمية الثانية ، بعض السفن المعادية التابعة لدول المحور ، البحر الأسود ، عبر المضائق وباشرت نشاطاً معادياً للاتحاد السوفيتي ، وتأسيساً على أن الدول الكبرى كانت قد وافقت في مؤتمر بوتسدام - ضاحية برلين - والذي عقد في الفترة من ١٧ من يوليو - تموز إلى ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٥ عقب تسليم ألمانيا على ما رأته الحكومة السوفيتية من ضرورة وضع نظام جديد للمضائق يتناسب مع مركزها الجديد بعد أن خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية . وكانت المذكرة السوفيتية قد طالبت بخمسة مبادئ تكون أساساً لتعديل اتفاقية مونترية (١) . وكانت هذه المبادئ هي :

١ - تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجارية التابعة لجميع الدول .

٢ - تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود .

٣ - عدم السماح بمرور السفن الحربية التابعة لدول من غير دول البحر الأسود إلا في أحوال خاصة محددة .

٤ - تقع مسؤولية تحديد نظام للمضائق - وهي الطريق الوحيد للبحر الأسود - على عاتق تركيا وبقية دول البحر الأسود .

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨٦ - ٣٨٧

٥ - تتعاون تركيا والاتحاد السوفيتي - باعتبارهما أكثر الدول مصلحة وأقدرها على ضمان حرية الملاحة وسلامة المضائق في تنظيم الدفاع عن المضائق ومنع الدول الأخرى من استخدامها في أغراض معادية لدول البحر الأسود (١).

وقد أظهرت تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا ميلا إلى قبول المطالب أو المبادئ الثلاثة الأولى . ولكنها عارضت المبدأين الرابع والخامس . ورأت تركيا في المبدأ الخامس مساساً بسيادتها لأنه يؤدي إلى إثراك الاتحاد السوفيتي معها في الدفاع عن منطقة المضائق ، وهي جزء من الوطن التركي ، وتعتبر هذه المشاركة مساساً بالسياسة العليا للدولة . واقترحت الولايات المتحدة أن تتولى هيئة الأمم المتحدة الإشراف على الملاحة عبر المضائق (٢) .

* * *

من هذا العرض لتاريخ البحر الأسود ومنطقة المضائق والسلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية أو فرضت عليها نجد أن الدولة كانت تمارس سيادتها على الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور والبحر الأسود في معظم عصور تاريخها ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب . وكانت هذه الممارسة الفعلية إحدى الدعائم الأساسية التي قامت عليها سياستها العليا . كان البحر الأسود بحيرة عثمانية داخلية . وكانت منطقة المضائق بوجه خاص ذات صبغة عثمانية بحتة ، فلم تكن الدولة بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ تسمح لأية سفينة حربية أجنبية بعبور المضائق في أوقات السلم فضلا عن زمن الحرب . أما السفن التجارية فكان اجتيازها المضائق متوقفاً على إرادة السلطان العثماني وحده . ثم أخذت تفقد تدريجياً هذه الصبغة العثمانية البحتة وتنتج نحو الدولية نتيجة عدة عوامل ، منها نجاح روسيا في غزو شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر ، دخول الدولة في دور الاضمحلال ، وأطماع الدول

(١) دكتور مصطفى الحفناوى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٢٨ - ٦٣٩ .

(٢) المرجعان السابقان . وانظر نصوص المذكرات المتبادلة بين حكومات موسكو وأتقرة

وواشنطن في كتاب الدكتور الحفناوى ص ٦٢٨-٦٤٥ .

الأوروبية الكبرى فيها ، وكانت روسيا ثم النمسا في مقدمة هذه الدول ثم تبعتهما كل من بريطانيا وفرنسا ، وازدياد حدة التنافس الاستعماري الأوروبي ورغبة الدول في الاستئثار بالمناطق الحساسة في الدولة ، وكان من بينها منطقة المضائق ، وازدياد أهمية الملاحة البحرية العالمية ، والنمو المطرد في حجم وعدد الأساطيل التجارية والبحرية لدول العالم ، والتحسين المستمر في بناء واستخدام هذين النوعين من الأساطيل ، وتشعب مصالح الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . وكانت الدولة العثمانية في أدوار اضمحلالها تواجه حيناً ضغطاً من دولة واحدة مثل روسيا ، وأحياناً تواجه تكتلاً من الدول الأوروبية الكبرى لفرض أنظمة معينة على منطقة المضائق كان فيهما مساو بسيادة الدولة وتجريد لها من سلطانها على المضائق .

* * *

الفصل الحادي عشر

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٥)

عدم صبغ الشعوب بالصبغة العثمانية :

لم تحاول الدولة عثمينة الشعوب التي دانت لحكمها سواء الشعوب الأوروبية أو الشعوب الإسلامية. ونقصد بالعثمينة L'Ottomanisation صبغ هذه الشعوب بالصبغة العثمانية أو ربطها برباط الحضارة العثمانية ، وهي حضارة ، مهما تهجم عليها بعض الباحثين ، فكانت حضارة قائمة فعلا واستقت مقوماتها وعناصرها من منابع متعددة كما سنوضح ذلك في كتاب قادم نضده للنظم العثمانية . والحق أن السياسة العليا للدولة العثمانية اتسمت بالسلبية حيال عثمينة شعوبها . وكان مرد هذه السلبية إلى عاملين . كان العامل الأول هو سطحية الحكم العثماني بحيث مارست الدولة نفوذها في نطاق ضيق للغاية . وقد سبق أن شرحنا هذا العامل في فصل سابق . أما العامل الثاني فكان الاستعلاء الذي كان من السمات البارزة في الخلق العثماني . وقد اشترك في هذا الاستعلاء السلاطين والأترك العثمانيون على السواء .

وقد بلغ الاستعلاء بالسلاطين حداً جعلهم يرفعون عن مخاطبة أباطرة أوروبا وملوكها بألقابهم المتعارفة في محيط العلاقات الدولية . كانوا يعتبرون الدول الأوروبية في عداد الإمارات أو الولايات ، ويعتبرون الأباطرة والملوك غير نظراء لهم . كانت صياغة الاتفاقات التي يعقدها السلاطين مع ملوك الدول الأوروبية تتم عن استعلاء بالغ على هؤلاء الملوك . وفي إتفاقيات الهدنة بين الدولة العثمانية والنمسا ترد هذه الديباجة « منحت هذه الهدنة عن تفضل من السلطان أهدى الانتصار إلى ملك النمسا المغلوب دوما » . كان

السلطان العثماني إذا ما وعد أحد ملوك أوروبا بالمساعدة بأي تسجيل هذا الوعد كتابة ، بل يكتفى به مجردا . وقد ظل سلاطين الدولة العثمانية أمداً طويلاً يرفضون تعيين سفراء للدولة لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، وأن على رجال الدول التي تحتاج إليهم أن يحضروا إلى إستانبول باعتبارها عاصمة العالم كله . كان على سفراء الدول أن يقدموا كل سنة هدايا ثمينة على سبيل الجزية . أما البعثات السياسية التي يوفدها ملوك أوروبا إلى السلاطين من وقت إلى آخر فكان على أعضاء البعثات أن يرفعوا إلى القصر هدايا ثمينة رمزاً لعلو مركز السلطان بالنسبة لأولئك الملوك^(١). واستمر هذا التقليد المسمى «التقدمة» معمولا به حتى ألغاه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) . كانت مقابلة السفراء والمبعوثين السياسيين للسلاطين تتم وسط مراسم وتقاليد مزرية بكرامة أولئك السفراء . وقد قضت على معظم هذه التقاليد معاهدة ستيفاتوروك، ويطلق عليها البعض من قبيل الاختصار معاهدة توروك Torok (١١ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٦٠٦) التي عقدت بين الدولة العثمانية والنمسا ووضعت نهاية رسمية وشكلية لحرب استطالت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الدولة^(٢).

واستعلاء السلاطين كان نزعة أصيلة في نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشعب نظر إلى الحرب على أنها مهمته الأولى ، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى ، فكان حفيظاً على هذه الأصول ، ضنيناً بالزواج من غير التركيبات العثمانيات . ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء ، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء .

(١) محمد جميل بيهم . فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها . بيروت ، ١٩٢٥ ، انظر فيه : مظاهر العظمة في التقاليد والمعاملات ص ٢٩١ - ٢٩٥ .

(٢) كان من بين أحكام هذه المعاهدة إلغاء السيادة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا ، وقيام العلاقات بين الدولة العثمانية والنمسا على قدم المساواة .

سياسة الدولة تجاه الولايات الأوروبية المسيحية :

وقد أدى هذا الاستعلاء في خلق العثمانيين إلى نتيجة طبيعية هي عزلة اجتماعية عاش فيها العثمانيون بعيدين عن الشعوب الأوروبية التي خضعت لهم. وكان العثمانيون أقلية عديدة بالنسبة للسكان أصحاب البلاد الأصليين. وقد أدت هذه العزلة الاجتماعية بدورها إلى نتيجة أخرى هي عدم التزاوج بين الأتراك العثمانيين وبين سكان البلاد الأوروبية المفتوحة. ويلاحظ أن الإسلام يبيح زواج المسلمين من الكتائيات ، ولكن الأتراك أو الغالبية الساحقة جداً منهم لم يقبلوا على الزواج منهم . وكان موقفهم من المسيحيات شبيهاً بموقفهم من المسلمات في الولايات الإسلامية . وقد أصبحت هذه الظاهرة وهي عدم الاتصال الجنسي الشرعى بين الفريقين تقليداً حرص عليه العثمانيون وارتاحوا إليه ارضاء للنزعة الاستعلائية التي كانت تغمر نفوسهم ، وبالتالي لم يحدث ما يمكن أن نطلق عليه « تريك جنسى » للشعوب الأوروبية التي دانت لهم . وكان عدم نشر اللغة التركية بين هذه الشعوب هو الحصيلة النهائية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية وعدم التزاوج وعدم الانصهار وعدم الامتزاج بين الفريقين ، لأن الدولة لم تعمل على توفير الجو الصحى لانتشار اللغة التركية ، فظلت الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين محافظة على لغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وديانتها في الأعم الأغلب وغير ذلك من مقومات حضارتها . ومن هنا كان الأثر الحضارى للعثمانيين في تلك الشعوب الأوروبية قليلاً للغاية ، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدين لهم ثقافياً أو حضارياً. يقول المؤرخ الإنجليزي فيشر Fisher H. A. L « إن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية وزناً ، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثمانيون غريباً أجنبياً في أوروبا ، لانصيب له في تقاليدها ، ولا يتعدى تفكيره في لزوميات الحكم الإمبراطورى مبادئ الأوليغاركية - أى حكومة الأقلية - الاستثنائية ، وهي المبادئ التي

تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية « (١) .

وإلى جانب انعدام وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الثقافة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن هناك وحدة في الطقوس أو الأعياد أو التقاليد أو المثل أو غير ذلك من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى لم تكن هناك عناصر حضارية واحدة تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية . وكانت نتيجة ذلك أن الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين لم تتجاوب بشعور واحد مشترك بالولاء للسلطان العثماني .

والحق أن « الوجود » العثماني في أوروبا قد عجز عن أن يثبت جنوراً تمده بالعناصر التي تحفظ عليه حياته حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة . فلما زال هذا « الوجود » العثماني من أوروبا لم يخلف من بعده أثراً ذا بال سوى بصمات باهتة في بعض الأقاليم البلقانية . ومضت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في البلاد الأوروبية التي دانت لحكم العثمانيين في مسارها العادي دون أن تشعر الجماهير أن زوال هذا السيد التركي المسلم الوافد عليها ، قد أعاق استئناف مسيرتها ، أو أن اختفائه قد أدى إلى تغييرات جذرية في حياتها ، سوى تخلصها من حكم إسلامي كانت تنظر إليه شذراً ويضيق صدرها به .

سياسة الدولة تجاه الولايات الإسلامية :

كانت سلبية العثمانيين في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها تضارع سلبيتهم في الأقاليم الأوروبية التي دانت لهم . فلم يحاولوا صيغ الولايات الإسلامية بالصبغة العثمانية . وكانت تلك السلبية ترجع إلى ذات السببين أو العاملين اللذين تكلمنا عنها ونحن نستعرض السياسة العليا للدولة تجاه ممتلكاتها الأوروبية ، وهما سطحية الحكم العثماني والاستعلاء . وقد حال هذا

(١) فيشر هربرت : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . ترجمة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة وزميليه . قسبان . دار المعارف . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، القسم الثاني ، ص ٤٥٨ .

الاستعلاء الذى تعددت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية ، ولولا الرشيحة الدينية التى كانت تربط بين الفريقين بعروة وثقى ، ولولا المذهب السنى الذى كان يوحد بينهما لكان التباعد بينهما تاماً . ولكن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية . وكان الدين عاملاً هاماً فى تكوين عواطف الجماهير ، وبالتالي فى التخفيف من حدة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى القاهرة والى امتدت زهاء ثمانية أشهر بعد دخوله العاصمة فى اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٩٢٣ حتى مغادرته لها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣ (٢٦ يناير - كانون ثان) إلى ١٠ سبتمبر - أيلول - ١٥١٧ - فى طريقه برآ إلى إستانبول - قد ترامت إلى مسامعه أن الأتراك العثمانيين قد أقبلوا على الزواج من أرامل المماليك الذين لقوا حتفهم فى المعارك الرهيبة التى دارت بين الأتراك العثمانيين والقوات المملوكية . فأصدر أمراً إلى العثمانيين بالكف عن الزواج منهم ، كما أصدر أمراً عاماً إلى جميع قضاة مصر - ولم يكن النظام العثمانى قد نفذ بعد فى مرفق القضاء - بأن يمتنعوا عن عقد مثل هذه الزيجات (١) . فانصرف الأتراك العثمانيون إلى الزواج من المصريات . وثار تائراً السلطان سليم الأول ، وأصدر أمراً توعد فيه بالشنق كل عثمانى تسول له نفسه الزواج من مصرية . يقول ابن إياس - وكان لا يزال معاصراً لهذه الأحداث . « وفى يوم الأربعاء الرابع من هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٩٢٣) (٢٤ يونيو - حزيران - ١٥١٧) «نادى السلطان فى عسكره أن كل من كان متزوجاً بأمرأة من نساء أهل مصر يطلقها ، وإلا يشنق من غير معاودة ، فمنهم من طلق زوجته ، ومنهم من أبقاها فى عصمته» (٢) . ومنذ ذلك الوقت غدا عدم زواج الأتراك العثمانيين بالمصريات وغيرهن من سيدات الشعوب الإسلامية التى خضعت لهم تقليداً حرص عليه

(١) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ج ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

العثمانيون وارتاحوا له بمضى الزمن لإرضاء للنزعة الاستعمارية التي كانت تغمر نفوسهم .

وعلى غرار ما حدث في الولايات العثمانية في أوروبا انتهجت الدولة العثمانية نفس السياسة في الولايات الإسلامية من حيث عدم الاندماج وعدم الانصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالي الولايات الإسلامية. ولم يحدث تريك جنسى لهذه الشعوب الإسلامية . وانكشيت اللغة التركية على نفسها في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية. فلم تكن تستخدم إلا في دواوين الحكومة - وكانت قليلة العدد - ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان . وكانت السلطات العثمانية تعتمد على ترجمة فرمانات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية ، وتتل في المساجد الكبرى وفي الأسواق والقياسر وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية، أو يطوف بها المشاعلية كرجال إعلام^(١). وهكذا تعددت مظاهر العزلة الاجتماعية بين الفريقين . وقنعت الدولة بالجزية السنوية ترسل إليها من كل ولاية ماعدا إقليم الحجاز^(٢) وبذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد في

(١) المشاعلية مصطلح تاريخي له عدة مدلولات في العصر العثماني :

أولاً : الرجال الذين يطوفون الشوارع والحارات يذيعون الأوامر والأنباء الحكومية الهامة. وكان يطوف في معظم الأحيان أربعة من المشاعلية ممعاً ينادى اثنان منهم باللغة التركية واثنان باللغة العربية ، وفي بعض الأحيان كان يطوف اثنان فقط من المشاعلية ممعاً أحدهما ينادى باللغة التركية ، والآخر باللغة العربية . وكان المشاعلية يسرون في العادة لئلا يحملون المشاعل. ومن هنا جاءت تسميتهم المشاعلية . وكانوا يسمون أيضاً الضوية نسبة إلى الضوء .

ثانياً : السيفاء والجلادون وهم الذين يتفقدون أحكام الشق والجلد. وجرت العادة على أن يكون المشاعل الذي يقوم بهذه المهمة يهودياً عثمانياً أو مسيحياً عثمانياً .

ثالثاً : المشاعلون بالحرف الدنيئة مثل نزع الأبار والحمامات والمجارى

ابن لياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٤٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ٣٢٩ ،

٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ .

(١) كان من بين الامتيازات المقررة لهذه الولاية إعفاؤها من أداء الجزية ، وأن ترسل إليها كل عام الإيرادات المالية والعينية التي تغلها الأوقات المرصودة على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة والأشراف والقائمين على خدمة الأماكن المقدسة هناك وعلى الفقراء المقيمين في هذه البقاع . ولما جاء السلطان سليم الأول إلى مصر أمر بالإبقاء على هذا الامتياز بشقيه : الإعفاء من أداء الجزية وتقديم إيرادات الأوقاف مع تعزيزها .

خطب أيام الجمعة والأعياد ، وبالعملة تضرب باسمه ، وبوال عثماني نائباً عن السلطان في كل ولاية وهو يحمل رتبة الباشوية أو البكوية ، ويحمل ثلاثة أطواخ أو طوخين^(١)، وبقوة عسكرية عثمانية ترابط في البلاد ويطلق عليها أهل الولاية اسم « الحامية العثمانية » . وكان حصاد هذه السياسة أن احتضت الشعوب الإسلامية وهي في ظل الحكم العثماني بلعنها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وغيرها من عناصر حضارتها . وكانت من أهم المقومات التي استندت إليها حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر .

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتي ذكرها نابليون الأول في مذكراته التي أملاها وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand قوله إنه لما جاء إلى مصر قائداً عاماً للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية ، وأنهم يجهلونها ، وأن هذه اللغة كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء^(٢) .

دراسة مقارنة بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

يجرنا هذا الموضوع إلى عقد دراسة مقارنة بين حركة الفتوح العثمانية وحركة الفتوح الإسلامية العربية التي قامت بها حكومة الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة ، ثم حكومة الأمويين في دمشق ، ثم حكومة العباسيين في بغداد . فإلى جانب السلبية المطلقة التي اتسمت بها سياسة الدولة العثمانية من حيث عدم محاولة عثمانة الشعوب الأوروبية والإسلامية التي دانت لها ، نجد السياسة الإيجابية النشيطة في السياسة العليا للدولة الإسلامية - تخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة - لتعريب الشعوب التي فتحت بلادها في العراق والشام

(١) سنعرض لشرح هذا اللفظ في ص ٣٦٤-٣٦٦ في الفصل الثاني عشر عند الكلام على الوزراء .

(٢) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte

et de Syrie (1798- 1799.) Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte Hélène et publiés par Général Bertrand. Paris, 1847 2 vols. t II. 151.

ومصر وشمالى إفريقيا وإسبانيا وغيرها(١)، ثم اتخذ الوسائل السلمية لنشر الإسلام نشرأ هادئاً بعيداً فى معظم الحالات عن العنف أو الإكراه .

الفروق بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

أولاً : إن الفتوح الإسلامية العربية والفتوح العثمانية قامت بها دولتان إسلاميتان ابتغت كل منهما على نحو من الأنحاء نشر الإسلام فى الاتجاهات التى رسمتها ظروف كل منهما . وقد كان واضحاً وملحوظاً وبارزاً أن نشر الإسلام كان هدفاً رئيسياً من فتوحاتها . وفى حالة الدولة العثمانية نجد أن فتوحاتها فى الأقاليم المسيحية قد تمت باسم الإسلام . وكانت الدولة العثمانية عقب نجاحها فى فتح إقليم مسيحي هام أو مدينة مسيحية ذات أهمية كبرى تبعث الرسل إلى حكام العالم الإسلامى وإلى الشعوب الإسلامية تزف إليهم وإليها أنباء الانتصارات الحربية فى تلك الأقاليم . ونذكر على سبيل المثال ما فعله فى هذا الصدد السلطان محمد الثانى حين فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ وحول اسم العاصمة إلى إستانبول ومعناها دار الإسلام . وجاء إلى القاهرة مبعوث من لدن السلطان العثمانى (٢) فى تلك السنة (٣) لإبلاغ إبنال سلطان دولة المماليك الشراكسة الحاكم وقتذاك (١٤٥٣ - ١٤٦٠) أنباء هذا الانتصار الإسلامى الحربى الخطير . فأمر السلطان إبنال

(١) يستثنى من هذه القاعدة من قواعد الحكم الإسلامى خارج الجزيرة العربية : بلاد فارس التى قبلت الإسلام ديناً ، ولكنها احتفظت بصفتها الفارسية لأسباب ليست هذه الدراسة مجالاً لشرحها .

(٢) يطلق ابن إياس عليه المصطلح التاريخى ، فيقول « وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان » ويطلق على القسطنطينية اسم القسطنطينية العظمى .

ابن إياس : نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى بمنوان صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ (١٤٥٣ - ١٤٦٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٥ .

(٣) بلغ القاهرة فى يوم السبت ٢٣ من شوال ٨٥٧ (٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - ١٤٥٣) ، وأقام فى القاهرة شهراً وغادرها يوم السبت ٢٢ من ذى القعدة ٨٥٧ (٢٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٤٥٣) .

بإقامة الزينات في الأسواق والطرق وإيقاد الشموع في الشوارع وعلى المآذن،
ودق البشائر السلطانية في القلعة عدة أيام (١).

ثانياً : إن القوات الإسلامية العربية فتحت أقاليم لم يكن سكانها يتكلمون
اللغة العربية . وفتحت القوات العثمانية بلاداً لم يكن أهلها يتحدثون اللغة
التركية . فوقف كل من الدولة الإسلامية العربية والدولة العثمانية كان متشابهاً
من هذه الناحية .

ثالثاً : إن القوات الإسلامية العربية كانت تمارس عملياتها الحربية
في بلاد لم يكن أهلها يدينون بالإسلام . أما القوات العثمانية فمارست نشاطها
الحربي في ميدانين متباينين أشد التباين : الأقاليم المسيحية في الأناضول
والأقاليم الأوروبية في البلقان وشرقي أوروبا ووسطها . وكان سكانها لا يعتقدون
بطبيعة الحال الدين الإسلامي . وفي ذات الوقت غزت بلاداً إسلامية كان أهلها
يدينون بالإسلام . وكانوا يعتقدون المذهب السني فيما عدا بلاد الدولة
الصفوية في فارس . وكان العثمانيون قد أقاموا من أنفسهم حماة للمذهب
السني في العالم الإسلامي . وفي الميدان الأخير كانت الدولة العثمانية تحارب
في جو صهي ، وفي يدها ورقة رابحة . ومع ذلك فلم تقم - أو لم تحاول -
التغلغل في حياة الشعوب الإسلامية ابتغاء ضيقها بالصيغة العثمانية . أما
الفاثحون المسلمون العرب فقد واجهوا في صدر الإسلام الموقف الشائك
الصعب بسياسة مرسومة لتعريب الشعوب التي دانت لهم وتشجيعها على
اعتناق الإسلام طوعاً عملاً بالآية القرآنية الكريمة « لإكراه في الدين »
وتابعوا في إصرار تنفيذ هذه السياسة العليا المزدوجة .

اندفع المسلمون العرب في موجات بشرية متلاحقة من قلب الجزيرة

(١) أبو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك

مصر والقاهرة ص ص ٤٣٦ - ٤٣٨ .

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر . مرجع سبق ذكره ،
مجلة الجمعية التاريخية المصرية . المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو - آيار - ١٩٥١ ، ص ص

١٩٧ - ٢٢٨ .

العربية إلى خارجها في أعقاب الفتوح الإسلامية لينتشروا فوق الرقعة الفسيحة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ثم استداروا مهاجرين حتى مصب نهر السنغال في الوقت الذي عبرت فيه بعض البطون العربية إلى إسبانيا واستقرت فيها وصبغتها بالصبغة الإسلامية العربية التي ظلت تلازمها أحقاباً وأدهاراً وأعصراً .

وطبقاً للمخطط الإسلامي العربي وضعت الدولة الإسلامية العربية أول الأمر قيوداً على اختلاط الجنود بأهالي البلاد الأصليين ، فأقامت لهم مهاجر ، كانت عبارة عن مدن جديدة أو معسكرات في البصرة والكوفة في العراق ، وفي بعض الأجناد في بلاد الشام ، وفي الفسطاط في مصر ، وفي القيروان في تونس ، وفي بعض المراكز العسكرية في بلاد المغرب الأقصى . وكانت السياسة العليا للدولة الإسلامية في أول عهدها هي الاعتماد على العنصر العربي وحده في الفتوح الإسلامية ، فالعرب هم عدة الحرب ، وهم وقود الجهاد . ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل العنصر العربي محتفظاً بامتيازاته العسكرية كاملة ، وأن تظل شعلة الحماسة فيه متقدة لا تنخبو . ولذلك حيل بين الأجناد العرب وبين الاشتغال بالزراعة . وكانت الدولة لا تجند في الجيش إلا العرب وتعين لهم الأرزاق والأعطيات للإنتفاق على عائلاتهم . ولكن بمضي الوقت لم تستطع الدولة المضي في هذه السياسة بسبب زيادة الأعباء المالية على بيت المال ، ولأن الأوضاع الإسلامية العربية في البلاد المفتوحة كانت قد استقرت إلى حد بعيد . فبدأت الدولة الإسلامية في العصر الأموي ترفع تدريجياً هذه القيود عن الجنود العرب المدونين ، فانطلقوا إلى حيازة الأرض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولهم على العطاء من بيت المال . وعلى ذلك غادر هذا الفريق من الجنود العرب مراكز تجمعاتهم في المعسكرات والمدن الكبرى وأقاموا في المناطق الزراعية وبعثوا إلى ذويهم في الجزيرة العربية يطلبون منهم القدوم إلى موطنهم الجديد (١) .

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المجتمع العربي . القاهرة ، ١٩٦٠ ، الباب الثاني .

تكوين المجتمع العربي . صص ١٥ - ٤٣ .

فحدث نوع من الاقتراب بين العرب والمهاجرين وبين أهالى البلاد المقيمين في تلك المنطقة . واشتد هذا الاقتراب في القرن الثاني الهجرى ومطلع القرن الثالث (الثامن الميلادى وبعض التاسع) حين ألغت الدولة الامتيازات التى كانت تعطى للعسكريين وفرضت عليهم الضرائب أسوة بغيرهم . وقد أدت هذه الإجراءات في النهاية إلى انسياح العرب في المناطق الزراعية واشتغالهم بالزراعة واختلاطهم بالسكان الأصليين والتزاوج معهم مما أدى إلى نتائج خطيرة من حيث التكوين الإثنوجرافى للدرارى هؤلاء السكان ونتائج أخرى خطيرة دينية ولغوية ، كان لها آثارها البعيدة في الأقاليم التى فتحها العرب .

الارتباج :

غير أن المسامين العرب لم يتقيدوا تماماً أول الأمر بهذا المخطط الذى كان أحد أركان السياسة العليا للدولة الإسلامية ، فقد بدأت طلائع الاقتراب بينهم وبين أهالى البلاد في زمن مبكر جداً يرجع إلى أول عهد الفتوح الإسلامية الكبرى . وكان الارتباج هو أحد المسارب الأولى التى لجأ إليها الجنود العرب في البلاد التى فتحوها. ففي مصر على سبيل المثال كان الولى يأذن لهم عند حلول فصل الربيع بمغادرة تجمعاتهم في مدينة الفسطاط والتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتها ، فينطلقون بصطادون ، ويشربون اللبن الذى يقدمه المصريون إليهم ، ويأكلون الخراف التى يحصلون عليها منهم ، ويطلقون خيولهم ترعى في حقول البرسيم لتسمن وتقوى ، وليس يخاف أن سلاح الفرسان كان يشكل القوة الرئيسية في الجيش الإسلامى العربى. وأطلق على هذه العملية نظام الارتباج ، لأنها تم إذا قبل فصل الربيع وتستمر طيلة شهور الربيع الثلاثة ، حتى إذا جاء الصيف عادت القبائل العربية إلى الفسطاط. وكان الارتباج نوعاً من العطلة والاستجمام من مشاق القتال . ولكنه لم يكن يتم كيفما اتفق ، بل وضع له منذ اللحظة الأولى نظام مرسوم ، فكان يراعى أن ترتبج كل قبيلة في مكان مخصص لها يسمى المرتبج لا يتغير كل سنة . ويلاحظ أن الجيش الإسلامى العربى كان منظماً على أساس قبلى ، بمعنى أنه كان يراعى في تكوين الكتيبة أن تكون من أفراد

قبيلة واحدة ، فإذا لم يتوافر العدد المطلوب كان يستكمل عددها من أفراد قبيلة أخرى متقاربة . وعلى الرغم من أنه كان يترك للكتيبة اختيار المنطقة التي تفضل الارتباع فيها ، سواء في الدلتا أو في الصعيد ، فإن الوالى كان يصدر أمراً كتابياً يحدد فيه القرية التي تذهب إليها الكتيبة وكميات اللبن التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين . وكان عمرو بن العاص والى مصر يوصى جنوده عند حلول موسم الارتباع بأن يحسنوا معاملة الأقباط عند ما يتصلون بهم في فترة الارتباع . وكان يصدر أوامر صريحة ومشددة بأن يكفوا أيديهم عن أموال الأقباط . وكانت من أهم مناطق الارتباع - أو المرتبعات كما تسمى - منوف ، الحوف الشرقى ، منف ، الفيوم ، الهنسا ، أهناسيا ، وهى مناطق تتمتع بخصوبة أرضها إلى جانب متاخمتها للصحراء حيث كان يتهباً للجنود العرب عديد الفرص للصيد وتدريب الخيول مع الإقامة في جو قريب من جو البادية . ويلاحظ أيضاً أن المرتبعات كانت تتركز حول القسطنطينية أو على مقربة منها (١).

وكان نظام الارتباع بمثابة هجرة داخلية تتجدد كل سنة وتتحرك من التجمعات العسكرية الإسلامية العربية وتتغلغل في أعماق الريف المصرى وتهيء عديد الفرص للاتصال المباشر بين العرب الفاتحين وأهالى البلاد . وكان الارتباع هو أقدم أشكال الاتصال بين العرب وسكان البلاد، ويعد اللبنة الأولى في تعريف المصريين . وليس أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعاتها أماكن للإقامة الدائمة بعد أن تركت القسطنطينية نهائياً .

الرباط :

لم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة التي اقترب بها الجنود المسلمون العرب من سكان البلاد واختلطوا بهم . فقد كانت هناك وسيلة ثانية هي

(١) دكتور عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، صص ٤٥-٤٩ .

الرباط^(١) . ونعنى بهذا المصطلح العسكرى العربى مرابطة جزء من القوات الإسلامية العربية فى الثغور والسواحل بصفة دائمة . فقد تطلبت المحافظة على وضع مصر كجزء من دولة الإسلام توزيع قوات الجيش الإسلامى العربى بين الفسطاط والإسكندرية وسائر الثغور والسواحل المصرية مثل رشيد والبرلس ودمياط وأشتوم والعريش وغيرها . وكان يطلق على هذه المناطق العسكرية اسم المواحيز^(٢) . ولم تكن هذه القوات تقيم فى معسكرات خاصة بها أو فى مدن مقفولة ومخصصة لها مثل الفسطاط ، ولكنها كانت تقيم فى مساكن الأهلىن العادية .

وكان عمرو بن العاص هو الذى وضع التنظيم الأساسى للرباط بعد أن فرغ من العمليات التى انتهت بفتح مصر ، فخصص ربع قواته للمرابطة فى الإسكندرية وحدها، والربع الآخر للمرابطة فى سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فقد استبقاه فى الفسطاط . وبمضى السنين تزايد عدد القوات الإسلامية فى مصر نبلغت القوة المرابطة فى الإسكندرية وحدها سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) على عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان اثنى عشر ألفا ، أى ما يساوى عدد الجيش الذى فتح مصر كلها سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . وكانت القوات المرابطة يستبدل بها غيرها مرة كل ستة شهور صيفاً وشتاء^(٣) . ولا ريب أن إقامة أفراد هذه القوات بين أهالى البلاد أدت إلى اقترابهم منهم ثم اختلاطهم معهم . وإذا كانت حركة الارتباج لم تمتد إلى ثغور مصر لبعدها من جهة ، ولعدم صلاحيتها لأنها ليست ريفاً من جهة أخرى ، إلا أن

(١) الرباط تجمع ربط بضم كل من الراء والباء .

(٢) المواحيز جمع ماحوذ ، وهو الموقع الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وهو مصطلح يستخدمه أهل الشام ومعناه الحدود .

أنظر :

دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، الطبعة الثانية ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ ، حانية رقم ٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٩ - ٥٠

مرابطة هذه الأعداد الهائلة من القوات العربية في الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وأسلوب استيطانها كانا لها أثرهما في تعريب هذه الثغور ، فالرباط قام تقريباً بذات الدور الذي أداه الارتباع .

الليوانات :

كانت اتفاقيات الصلح تنص على تحويل العرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم . وتستمر هذه الضيافة ثلاثة أيام كان على المصريين خلالها القيام بجميع واجبات الضيافة نحو العرب (١) . وقد نظمت مسألة الضيافة ، فكان أهالي كل قرية يخرجون من زمامها الذي سيقدر الخراج على أساسه عدداً من الأفدنة ينفق ريعها على المرافق العامة مثل الكنائس والحمامات والمعديات والضيافة المسلمين (٢) والعبارة الأخيرة تشمل موظفي الولاية وأفراد الجيش العرب . وكان المسلمون ينزلون في الليوان أو الإيوان ، وهو المضييفة أو قاعة الاجتماعات التي لاتزال تحيط بالكنيسة في كثير من قرى الصعيد والدلتا (٣) . ويلاحظ أن رصد اعتمادات مالية للإنفاق على الضيوف المسلمين دليل على أن هذه الضيافة كانت ظاهرة عامة مألوفة في المجتمع المصري في ذلك الوقت . وسواء كان العربي ينزل ضيفاً على المصري في بيته الخاص أو في المضييفة العامة فقد كانت هذه الضيافة نوعاً من أنواع الاتصال كان لها أثرها في حدوث التقارب ثم الاختلاط بين العرب والمصريين (٤) .

وعلى ذلك لم يكن اختلاط العرب بالمصريين مقصوراً على المدن وحدها وإنما امتد إلى جوف الريف . ويقول أحد الباحثين الفرنسيين إن العرب هم

(١) ابن عبد الحكم : عبدالرحمن بن عبدالله : فتر ح مصر وأخبارها ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحتين .

الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من اختلاط المصريين بالعرب (١). والحق أن عمليات الاختلاط قامت من الجانبين : العرب الوافدين والمصريين المقيمين في بلادهم . فكانت هذه العمليات في واقع الأمر قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالعرب استقطبوا المصريين جنسياً ولغوياً ودينياً وثقافياً . والمصريون استقطبوا العرب اجتماعياً ثم حضارياً أول الأمر . وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشي (٢) . وظاهرة تعريب مصر ظاهرة نادرة خارقة ، فصر الفرعونية التي سيطرت على مناطق كثيرة في الشرق الأوسط ونجحت في تصدير حضارتها المادية لم تستطع أن تمتد لغتها خارج حدودها ، في حين أن العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ولم يكن لهم في ذلك الوقت رصيد من الحضارة المادية خارج نطاق الدين واللغة استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حينها ذهبوا . أما الأتراك العثمانيون فقد أخفقوا في نشر اللغة التركية حتى على الشعوب التي خضعت لهم عسكرياً وسياسياً (٣) . وما ينطبق على مصر ينطبق على سائر الأقاليم التي فتحتها المسلمون العرب باستثناء فارس ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد نجح العرب في فارس دينياً وأخفقوا لغوياً .

ومع ذلك فهناك اتجاه بن فريق من المؤرخين المحدثين لا يخلو من رأى سديد، يقول إنه بجانب الأجناد العرب الذين وقع عليهم عبء الفتوح الإسلامية والاشتغال بالسياسة والإدارة ، وفدت قبائل عربية في خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من أجزاء الدولة الإسلامية حيث انتشر عشرات الألوف

(١) Chantre E., Recherches Anthropologiques dans l'Afrique Orientale, Egypte, 1904, pp. 302 - 303

(٢) محمد العزب موسى : وحدة تاريخ مصر الباشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور جمال حمدان : شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان . الناشر دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢ .

من أفراد هذه القبائل . وكانت الأرض واسعة وفي رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين . وإذا كان عمر بن الخطاب ثانياً الخلفاء الراشدين قد حرم على جنود العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة، إلا أن هذا المنع لم يمتد إلى العرب عامة، لأنه من غير الطبيعي ومن غير المعقول أن يحرم عمر العمل على عربي عادى هاجر بنفسه وأهله إلى بلد كصر ليرتزق ويعيش . والعرب الذين انتشروا في أجزاء دولة الإسلام لم يكونوا جميعاً جنوداً مدونين . وكانت النتيجة أن وجدت في مصر والعراق والشام وغيرها من بقاع دولة الإسلام جماعات عربية مدنية هي التي اشتغلت بالزراعة والضرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر . وهذه الجماعات هي التي انبثت من أول الأمر بين الأهليين في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في عمليتي التعريب ونشر الإسلام . وجدير بالذكر أن هؤلاء العرب سواء الذين اشتغلوا بالعلم أو بطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي ، وتزاوجوا معهم ، وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية . فأولاد العرب خرجوا إلى الحياة عرباً مسلمين تكلموا العربية، وكل منهم كان لا يزال في المهدي صبيّاً، ومن ثم زاد تعدادهم . وكانت لهم امتيازات مادية ومعنوية بحكم الدين والأصل واللغة ، وكانت هذه الامتيازات مما حجب إلى الناس الانتداب إليهم ودخول الإسلام واتخاذ أسماء عربية ، بل اصطناع أَسْمَاء عربية (١) .

وكانت أمام العرب المدنيين الذين وفدوا من الجزيرة العربية إلى أجزاء دولة الإسلام عديد الفرص للاتصال بأهالي البلاد اتصالاً مباشراً ، إذ كان هؤلاء العرب ، ومعظمهم من العرب اليابانية ، ذوي خبرة بالأعمال الزراعية وصناعة المنسوجات وبناء السفن وغير ذلك من فروع النشاط الصناعي

(١) انظر بحثاً عميقاً وضافياً للأستاذ الدكتور حسين مؤنس بعنوان « تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون » في المجلد الثاني من تاريخ الحضارة المصرية. نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي (بدون تاريخ الطبع) ٤ ص ص ٢٢٣ - ٤١٧ .

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى (٢) Gandarli تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسي في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) برد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها : Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

- أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
- ب - ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبى يزيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
- ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
والسلطان مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١)
- د - ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١)

(م - ٢٤ ، الدولة العثمانية)

المنصب مقصوراً على القولاى أى طبقة العبيد . وفعلا عين فى منصب الوزىر الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصدر العظام والوزراء يعىنون من الموظفىن العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزىرلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزىر وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تباعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فىسمى أحدهم الوزىر الثانى ، والآخر الوزىر الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزىر الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزىر القبة يسمى فى هذه الحال « قائمقام » ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال « السردار » . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وأجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزىر أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الفتاح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجرة عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١) (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شامعاً فخماً يقيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمته وحرسه في أحد أجنحته ، وتخصص باقى الأجنحة لاجتماعات كبار موظفى الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى فى سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقرأ لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التى كان لها مبنى خاص يسمى «دفتر دار قابيسى» أى «بوابة الدفتر دار» وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سئرى فى موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشى قابيسى» ، أى بوابة الباشا ، «وبابى عالى» ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة فى التاريخ وهو الباب العالى (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشيد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .

أنظر :

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابى عالى كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمى للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime ، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعند الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شؤون الدولة ، الداخلىة والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلديز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شؤون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأنوخة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part 1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلىة فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحرم والبلاط الداخلى . وكان لايسمح لأحد بدخول جناح الحرم إلا للسلطان والخصيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جميعاً الباش جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلديز وما بين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بالخدم الخصوصيين للسلطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري (الهمايوني)

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتخلّى عن رئاسة الديوان للصبر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون - فضلاً عن رئيسه الصبر الأعظم - من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أي أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسيير دفة أمور الدولة نلم أولاً إلاماً سريعاً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشانجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، دفتر أمينى .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان «الرئيس أفندي» في العصر

(١) هـايرن كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ. وتستخدم بمعنى ملكي أو سلطانى أو إمبراطورى . وتأسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايوني معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشأى باشى أو الكاخيا بك أو الجاوش باشى أو الدفتردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة « خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikji يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السالطانية يسمى بيليك قلمى Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين - غير بيليك قلمى - لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «تحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رعوس » وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم لإسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكردات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطراً .

٢ - الإعلابى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التي قد تطراً والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التي يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسة دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان للرئيس أفندى « كيسة دار » مستقل وخاص به (١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيايكچى .

رابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التي يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الأمدجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يميلى رغباته ، فإذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحييت مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحدث . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالى وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتى الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تخصص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندى سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه ديوان ترجمانى أى مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهى سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندى ليبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندى el Reis effendi وكان هذا الرئيس أفندى في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشأجى باشى :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشأجى يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسلك على عهده في الضربخانة ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائجي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشائجي مقروناً بكلمة الباشي فيقال النشائجي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي (١). وكان للنشائجي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغلي بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أي منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسي للنشائجي كان ختم الوثائق والمراسم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختتمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسابقتها للقوانين المعمول بها ، وتفرض عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائجي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائجي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائجي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182. (١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1, (٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125. (٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشائجي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في « الدفترخانة » أى دار السجلات كان النشائجي يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كاستناد لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشائجية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي ينضموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشائجي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التي أعطيت للنشائجي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة التولار - العبيد - في شغل منصب النشائجي . ويقول ليبير الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرن العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشائجي (٢) .

وكان النشائجي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أفندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشائجي يعتبر في السلم الوظيفي نداءً لمدير الإدارة المالية - الدفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشائجي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشائجي في الأفلو في الوقت الذي ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

« ٢ »

الرئيس أفندى . ومرد هذا الأقول إلى سببين : أولها انزواء السلطان في أجنحة الحرير . فأضعف احتجاجه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشأجي . وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تحلى عنها للرئيس أفندى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشأجي هبوطاً شديداً .

الجاوش باشي :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشي يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، أُلحق الجاوش باشي وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

D'Ohsson Ignatius Mouradega ; op. cit., vol. VII, p. 159 (١)
et suiv.

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بوون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكمل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. (١)
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H. ; op. cit, p. 183. (٢)

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في المهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبى .

وكان الجاوش باشى ، فى النطاق القضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجى» أى التذكرجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير فى كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء فى القانون نامه الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتعان بالأسبقية على كتبة الرئيس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشى قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً فى شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم فى المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أى عبيد السلطان - سواء فى خدمة القصور أو فى الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم فى الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يقومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات فجائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبجى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتجى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتبى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولاق » أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبجى والتشرىفاتجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

(١) يصفه ليير بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يقول عنه بون إنه السكرتير العام للصدر الأعظم .
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبجي والتشريفاتجي يعتمدون في دخلهم على النصيب الذي يتقاضاه كل منهم من الهدايا التي يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١). كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم. وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة. وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب في الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة في أثناء توليهم هذا المنصب.

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التي كان يمارسها في النطاق المحلي كرئيس للإدارة المالية في مصر إبان الحكم العثماني عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢). وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى في مصر. وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التي خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى ». وكان أعلى مركزاً من سابقه. وأطلق عليه الباش دفتردار. وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى في القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر. ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية الحمر ومنطقة الدانوب (٣). ولما فقدت الدولة إقليم الحمر في أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردارلق الخاصة بالحمر، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى. وهو الباش دفتردار - يتولى المسؤولية عن السياسة المالية للدولة كلها.

Loc. cit. (١)

(٢) انظر ص ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ في هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit.; t. VII, p. 261. (٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

في شمالى العراق والشام . فإن هذه الحركات لم تستهدف الانفصال عن الدولة والاستقلال بحكم بعض الأقاليم الإسلامية ، وإنما كانت في لحمتها وسداها تهدف إلى الانفراد بحكم الولاية مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية . وإذا أخذنا حركة على بك الكبير في مصر كمثال لهذا النوع من الحركات ، نجد أنه شل نفوذ « بيوك ديوان » أى الديوان الكبير وهو ديوان مصر أو « ديوان محروست مصر » كما تسميه الوثائق ، كما شل نفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، ثم تخلص من الباشا العثماني في سنة ١٧٦٨ (١) كما امتنع في ذات السنة عن إرسال الجزية إلى السلطان (٢) .

وإذا كان على بك الكبير قد التمس مساعدات عسكرية من كاترين الثانية قيصرة روسيا دعماً لحركته فإنه لم يجرؤ على إعلان استقلاله بمصر استقلالاً تاماً . لقد سك على بك بعد انفراده بحكم مصر عملة فضية ثم أخرى ذهبية تحمل كل منهما على أحد وجهيها اسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ - ١٧٧٤) ، وتحمل على الوجه الآخر اسمه بطريقة ملتوية (٣) ، كما أمر بضرب إمام مسجد الداودية في القاهرة لأنه دعا في خطبته في أحد أيام الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (وكان يقع في الفترة من ٢٩ ديسمبر - كانون أول - ١٧٦٩ حتى ٢٧ يناير - كانون ثان - ١٧٧٠) للسلطان ثم دعا لعلى بك الكبير . فأظهر الأخير امتعاضاً من تصرف الخطيب ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب مقصوراً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (٤) .

(١) الجبرتي ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ص ٣٣٤ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ، ٢١٨ ، وهو يترجم للأمير قاسم بك أبي سيف في وفيات

١٢١٧ هـ .

(٣) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، مرجع سبق ذكره ص ٦٢-٦٤ .

(٤) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : صور لمن دور الأزهر في مقاومة الاحتلال

الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر . مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ - ٦٣ وحاشية

وقم ١ ، ص ٦٢ .

ويلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك أى تجاوب بين زعماء مثل هذه الحركات وبين الجماهير أى القاعدة الشعبية العريضة التى بقيت على ولائها للسلطان . وهكذا شددت العاطفة الدينية للرعايا المسلمين إلى السلطان وأوجدت نوعاً من التماسك بين الدولة وولاياتها الإسلامية . وكان هذا التماسك يزداد قوة وصلابة كلما أوغلت الدول الأوروبية فى أطماعها الاستعمارية . كانت رواسب الحروب الصليبية لاتزال عالقة فى أذهان المسلمين . وكان المسلمون لايعرفون عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذى يتمثل فى الحروب الصليبية وفى أطماعها الاستعمارية . ورأى الرعايا المسلمون فى السلطان الرمز الحى المحسد لمجد الإسلام والذى يقف على رأس دولة عسكرية دينية مترامية الأطراف فى أوروبا وآسيا وإفريقية بحيث غدت بحق دولة الإسلام الكبرى . ورأى المسلمون فى السلطان أيضا السياج القوى الذى يحمى بلادهم من الزحف الأوروبى الاستعمارى . ومن ثم أخذت الشعوب الإسلامية التى امتدت إليها الفتوحات العثمانية تتقبل السيادة العثمانية على بلادها . ونجحت الدولة فى حماية الشرق الإسلامى من هذا الزحف ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب . وارتاح السلطان لوضعه السياسى والدينى فى الدولة ، وعمل على دعمه فى أذهان المسلمين وفى أوروبا على الدوام ، وكان أن بعث سلاطين الدولة لقب « خليفة » ليظهروا أن للسلطان نفوذاً روحياً على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

(ب) نفوذ السلطان على الطوائف غير الإسلامية :

لم ينعم السلطان العثمانى بطبيعة الحال بمثل هذا النفوذ الروحى سواء على الأقليات المسيحية واليهودية فى العالم الإسلامى الخاضع له أو بين سكان القسم الأوروبى المديحى . من أملاك الدولة ، على الرغم من التدابير التى كان يتخذها السلطان عند تعيين الرؤساء الروحانيين للطوائف غير الإسلامية . كان البطريرك اليونانى يتلقى من السلطان فرمان تعيينه فى منصبه . وكان هذا البطريرك يعتبر أكبر رئيس روحى غير مسلم فى الدولة . وكان يتبعه الروم المسيحيون الأرثوذكس ، وله مكانة مرموقة فى نفوسهم وتنفو إليه أفئدتهم . ومع ذلك

كان هذا البطريرك في خدمة الدولة نظرياً . وكان يرد في فرمان تعيينه نص يوجب على الأساقفة ومن إليهم من رجال الإكليروس التابعين للكنيسة الشرقية وكذلك أتباعها طاعة البطريرك طاعة تامة في نطاق الاختصاصات المخولة له . وكان السلطان يصدر فرمانات أخرى بتعيين الرؤساء الدينيين لرعايا الدولة المسيحيين الذين يدينون بمذاهب أخرى ، وكذلك لاختصاصات اليهود . وكانت تدرج في جميع تلك فرمانات نصوص توجب طاعة كل طائفة لرئيسها الروحي في المسائل الدينية دون غيرها ، وأخيراً فالامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب في النولة العثمانية اعتمدت على منح صادرة عن السلطان أو تطبيقاً للمعاهدات التي أبرمتها الدول الأجنبية مع السلطان .

ومع ذلك فقد كان تاريخ الدولة العثمانية يموج بحركات انفصالية في عهد اضمحلالها وتدهورها ، أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الولايات الأوروبية المسيحية مثل اليونان والصرب وولايي الأناضول والبغدان ، ويطلق عليهما أيضاً مرادافيا وولاشيا ، وهما - رومانيا حالياً - وبلغاريا والبوسنة والهرسك - يوغوسلافيا حالياً - وغيرها . كان الرعايا المسيحيون في أوروبا بوجه خاص ينظرون شذراً إلى تبعيتهم لحاكم مسلم هو سلطان الدولة العثمانية . واستهدفت حركاتهم استقلال بلادهم عن الدولة . وكان مرد هذه الحركات إلى نمو الروح القومية وتأصل الأزعة الدينية بينهم ، وكانت بعض الدول الأوروبية الكبرى مثل روسيا والنمسا أول الأمر تغذى هذه الحركات الانفصالية بين الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة وتروق لها شتى الدرائع سواء اختلاف الدين ، فلا يجوز في تقدير هذه الدول أو الشعوب أن تخضع لشعوب مسيحية لحاكم مسلم ، أو أن هذه الشعوب ذات ماض حضارى مجيد يفوق حضارة العثمانيين . ولذلك ينطبق على حركات القسم الأوروبي صفة الثورات أو الحركات الاستقلالية أو الحركات التحررية أو الحركات الانفصالية (١) .

نخلص من هذا العرض إلى أن نفوذ السلطان العثماني في الولايات الإسلامية كان قوياً ، وأن مركزه كان مدعماً بسبب العاطفة الدينية الإسلامية أولاً وبسبب

(١) Toynbee and Kirkwood, Turkey. London. 1926. pp. 16—18.

المصالح المشتركة بين الطرفين ثانياً ، وذلك لم ترالشعوب الإسلامية في الاحتلال العثماني لبلادها نوعاً من الاستعمار الأجنبي بالمعنى المعروف في العصر الحديث . وقد أطلقت هذه الشعوب اسم الحامية العثمانية على جيش الاحتلال العثماني المرابط في بلادها ، بينما رأت الشعوب المسيحية في الاحتلال العثماني لبلادها استعماراً كريهاً بسبب اختلاف الجنس والدين واللغة وما إلى ذلك ، ورأت أنه يتعين عليها السعي لإنهاء هذا الاحتلال والتحرر من التبعية لحاكم مملوك . ويقرر أستاذان إنجليزيان كبيران أن الدين كان عاملاً قوياً من العوامل التي أثارت الاضطرابات في وجه السلطان من جانب الصربيين وأهالي الجبل الأسود والبلغار والألبان المسيحيين والمقدونيين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب كانت تضم أعداداً كبيرة من المسلمين ، فإن المسيحية كانت هي الغالبة بمذهبها الأرثوذكسي بين أكبرية هذه الشعوب . وكان قيصر روسيا هو الرئيس الرسمي للكنيسة الأرثوذكسية . ومابرح الدين يتخذ في شبه جزيرة البلقان طابعاً سياسياً عنيفاً (١) وبمعنى آخر كان نفوذ السلطان في الولايات الإسلامية يستند في المقام الأول إلى الوشيجة الدينية والمصلحة السياسية ؛ بينما كان نفوذ السلطان في الولايات الأوروبية المسيحية يستند فيما يستند إليه إلى القوة العسكرية والثقل السياسي في مجال السياسة الدولية ، ثم في عصور الاضمحلال إلى قرارات المؤتمرات الدولية التي توالى عقدها في العواصم الأوروبية لبحث ما عرف باسم « المسألة الشرقية » دعماً لمركز الدولة أو تقسيماً لممتلكاتها أسلاباً فيما بين الدول الأوروبية . وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر لندن (١٨٣١) ، ومؤتمر باريس (١٨٥٦) ، ومؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ومؤتمر لندن (١٩١٣) .

٢ - القولا

القولا هم طبقة العبيد رفعتهم الدولة مكاناً علياً ، فشغلوا شتى المناصب الحكومية من أذناها إلى أعلاها حتى منصب الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة ، ولم تستثنى الدولة من هذه المناصب سوى وظائف القطاع الديني أو ما عرف بلسم « الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة » . وقد جاء هؤلاء العبيد إلى الحياة أطفالاً

(1) Grant and Temperley ; op. cit., p. 211.

مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات ، ثم انتزعتهم الدولة ، وهم في سن غضة من عائلاتهم وأبعدتهم عن الجو العائلي وحولتهم إلى الإسلام وأعدت لفريق منهم دراسات دينية ومدنية ، كما نظمت لفريق آخر دراسات دينية وعسكرية لتتخذهم في نهاية المطاف أدوات للحكم والحرب ، وأضفت عليهم الدولة الكبير من الرعاية المادية والأدبية وأغدفت عليهم الامتيازات في شتى صورها وأشكالها بحيث أصبحوا طبقة متميزة في المجتمع العثماني . وقد تكلمنا في موطن سابق في هذه الدراسة عن دور الدولة في تنشئة هذا الفريق من العبيد في القطاع المدني (١) . ونشير هنا إلى بعض المناصب القيادية المدنية التي تولها القولار فأصبحوا يشكلون إحدى الهيئات الحاكمة في الدولة .

الصدر الأعظم ووزراء القبة (صدر أعظمى وقبة وزير لرى)

الإسلام ونظام الوزارة :

عرف العالم الإسلامي نظام الوزارة قبل قيام الدولة العثمانية . ولكن لم تأخذ وظيفة الوزير مكانها ضمن وظائف الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو الخلفاء الراشدين أو الأمويين . ولكنها أنشئت أيام الدولة العباسية . وقد نقلها الخلفاء العباسيون عن الفرس ، ورسخ نظام الوزير كأساس للإدارة العباسية . ويلاحظ أنه ورد في القرآن الكريم ذكر الوزير مرتين : المرة الأولى على لسان موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢) . والمرة الثانية « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً » (٣) .

البيرفانجى :

وكان لمنصب الوزير عند أول عهد الدولة العثمانية بهذا المنصب أهميته

(١) انظر ص ص ١٢٠-١٢٨ فى هذه الدراسة .

(٢) سورة طه ، الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٥ .

وخطورته . فقد كان بمثابة المبتدع الأول للسلطان . وفي عهد البلاطين العثمانيين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير ، بل كان يسمى *بيرفان* (١) *Pervane* أو *بيرفانجي* *Pervaneci* وهو مصطلح فارسي اقتبسهُ العثمانيون من سلاجقة قونية (٢) ، ومدلول هذا المصطلح قائد ، أو مفتش ، أو صاحب رتبة صدرت بها براءة ملكية أو براءة سلطانية . وكان للبيرفان حق التصرف في نطاق السلطات الواسعة الخوافة له من لدن السلطان . ولذلك كان يعتبر البيرفان وزير تفويض ولم يكن وزير تنفيذ (٣) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن البلاطين العثمانيين الأوائل كانوا منصرفين إلى العمليات الحربية التي لم تكن تتوقف أو تهدأ ابتغاء توسيع رقعة الدولة فتركوا للبيرفان سلطات متعددة وواسعة مارسها نيابة عن السلطان . ويستثنى من هذا الحكم العام وزراء ثلاثة سلاطين هم محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وسليم الأول وهو ياوز سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . فقد كانوا على خط موفور من الحيوية والنشاط والقدرات العقلية واستطاعوا أن يجمعوا بين القيام بأعباء الحكم وقيادة الجيوش . ومن ثم كان الوزراء الأول والوزراء على عهدهم وزراء تنفيذ . وظلوا على هذه الصفة حتى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان حين تزوج روكسلانه *Roxelana* الروسية وأحبها حباً بلغ

(١) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., Vol. I. Part 1, p. 108.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة وزير .

(٣) اتفق فقهاء المسلمين على تقسيم الوزراء إلى نوعين . فالنوع الأول هم وزراء تنفيذ حين يكون ولي الأمر - خليفة كان أو سلطاناً أو ملكاً - منصرفاً إلى تصريف أمور الدولة بنفسه مستعنياً بالوزراء لتنفيذ أوامره . أما النوع الثاني فهم وزراء التفويض حين يكون ولي الأمر منصرفاً إلى حرب خارجية ، أو متعياً عن الدولة يؤدي فريضة الحج مثلا ، أو كان ضعيفاً أو مشغولاً بملذاته ، أو لغبر ذلك من الأسباب العامة أو الشخصية فيترك أمور الدولة بتصرف فيها الوزير كما يريد ، أو على أحسن الفروض يتصرف في النطاق الذي يضمه له ولي الأمر .
أنظر :

الموردى (عل بن محمد بن حبيب المصرى البغدادي) ، أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك « ١٩٢٩ . وهذا الكتاب من كتب النظم تناول المؤلف فيه نظام الوزارة من النواحي التنظيمية وأسس قواعدها . واستقى مادته العلمية من الأحداث التاريخية ، وحدد الشروط التي يجب توافرها في كل من يشغل كل نوع من نواحي الوزارة وواجباته وحقوقه .

شغاف قلبه ، وأصبح لا يطيق عنها بعداً ، فانزوى عن الحياة العامة وغدا وزيره الأول وزير تفويض . ومنذ ذلك الوقت وطوال حكم خلفائه سلاطين الفترة الثانية إلا في حالات نادرة كان الوزراء على اختلاف درجاتهم وزراء تفويض .

إنشاء منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم)

ولما اتسعت الدولة اتساعاً إقليمياً سريعاً ومذهلاً ، ازدادت أهمية مركز الوزير ، وتضاعفت اختصاصاته ، وسيطر على إدارات الحكومة ، وأنشئ منصب الوزير الأول .

ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد الفاتح وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شتى أصبح مجموعها يشكل القانون الأساسي للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت في هذا القانون نامه مراكز موظفي الدولة المختلفين واختصاصاتهم تحديداً دقيقاً ، فأشير إلى الوزير الأول على أنه « الوكيل المطلق » وهو مصطلح مقتبس من اللغة العربية بمعنى « الوكيل المطلق » أو الممثل المطلق للسلطان The Sultan's absolute representatitive . وأبطل استخدام لفظة پيرقان أو پيرقانبجى ، ثم استبدلت الدولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو « أولو وزير » Ulu Vezir أى الوزير الأول أو « وزيرى أعظم » Vezîri A'zem أى الوزير الأعظم . وبذلك عادت الدولة العثمانية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير ، ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن اللقب الذى كانت الدولة قد منحتة بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الآخرون الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يمنحهم اللقب ويخولهم سلطات واسعة يستطيعون بمقتضاها إصدار فرمانات « محلية » لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى إستانبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طبيعتها عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم ، ومعنى هذا المصطلح التاريخى أعظم كبار الموظفين ،

الصدر الأعظم في قانون نامه :

وقد رفع السلطان محمد الفاتح الوزير الأول - أو الصدر الأعظم كما لقب فيما بعد - مقاماً علياً في الدولة . فقد جاء في القانون الأساسي للدولة العثمانية والمسمى قانون نامه مانصه « لتعلم أولاً أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء . إنه أعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة في إدارة شئون الدولة . أما التقسيم على أملاكه فهو الدفتردار . غير أن الصدر الأعظم هو رئيسه . وللصدر الأعظم في حركاته وسكناته ، وفي قيامه وقعوده ، حق التقدم على جميع موظفي الدولة » (١) فكان هذا القانون قد وضع الصدر الأعظم في المكان الثاني بعد السلطان مباشرة ، أو كما يقول المؤرخ الفرنسي رامبو غدا الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور (٢) . أما المستشرق الألماني بروكلمان فيقول إن قانون نامه قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الإمبراطورية ، مطلق الصلاحية ، يسيطر على فروع الإدارة كلها ، ويفصل في جميع شئون الدولة ، وفي مسائل الموت والحياة أيضاً ، منفرداً مطلق السلطة (٣) .

الصدر الأعظم والخاتم السلطاني :

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان في الواقع الحق الذي خوله له سلاطين الدولة في حمل الخاتم السلطاني رمزاً لثقته العميقة فيه ، إذ كان الصدر الأعظم يوقع بهذا الخاتم على الفرمانات السلطانية ، كما كانت تحتم به المخازن الهامة وهي : مخزن السجلات المالية (مالية دفترخانة سي) ، والمخزنة الخارجية للسراي (ديش خزينة) ، والمخزن العام للمحفوظات (الدفترخانة) ، والحقبة اليومية (روزنامه كيديه سي) (٤) . وكان الماورخون العثمانيون في تعاليمهم

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٩٤ ، حاتبة رقم ١٦

(٢) Lavissee et Rambaud : Histoire Générale. t IV. L'Empire

Ottoman. L'Apogée (1481 — 1566), p. 753.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

صص ٩٤ - ٩٥ .

Gibb Hamilton and Bowen, Harold op. cit., Vol. 1, Part (٤)

1, p. 112, fn. no.3.

على تسلم الصدر الأعظم الخاتم السلطاني يقولون إنه حصل على شعار عاهل العالم « نائل مهر شهر يارى جهان أولشرى » (١) . وكان الصدر الأعظم في العهد الأول يضع خاتم التوقيع السلطاني في أصبعه ، أما في العهد اللاحق فكان يضعه في جيبه في حافظة من القماش المذهب . وكان السلطان في العهد الأول يبعث بخاتمه إلى الصدر الأعظم في مسكنه يحمله إليه أحد موظفي البلاط ، ثم تغير هذا التقليد منذ عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ، إذ كان السلطان يتولى شخصياً تقديم خاتمه إلى الصدر الأعظم . وكان سبب الخاتم من الصدر الأعظم بمثابة أمر سلطاني بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوفد أحد موظفي البلاط لسحب الخاتم منه . وكان يتعين على الصدر الأعظم في هذه الحالة مغادرة العاصمة فوراً .

سلطات أخرى للصدر الأعظم :

امتدت سلطات الصدر الأعظم إلى الإدارة المركزية في الدولة وإلى إدارة الولايات . كان الصدر الأعظم هو رئيس الديوان ، وسنتكلم في الفصل التالي عن هذا الديوان من حيث تشكيله واختصاصاته ودوره البارز في حكم الإمبراطورية - وكان الصدر الأعظم يهيمن أيضاً على شؤون الجيش ، وكان يقود المعارك الحربية حين تدعو الضرورة . وفي هذه الحالة كان له الحق في حمل البيرق النبوي - راية النبي صلوات الله وسلامه عليه - إلى ساحة القتال . وهو حق كان ينفرد به السلطان دون سواه (٢) . وكان يرأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصدر الأعظم يقوم بجولات في العاصمة ويتفقد أسواقها ويرافقه في هذه الجولات قاضي القضاة ، والمشرف على الأسواق ، وكان يسمى « احتساب أغاسى » بمعنى الرقيب ويقابل هذا المصطلح العثماني المصطلح العربي « المحتسب » ، ورئيس الفياق الإنكشارية ، ورئيس شرطة المدينة (٣) .

Loc. cit., fn ; no. 2.

(١)

Loc. cit., p. 112.

(٢)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 166.

(٣)

وكان بعض البلاطين يزوجون الصدور العظام - لثقتهم العميقة فيهم وتقديرهم الكبير لهم - من بناتهم أو شقيقاتهم أو أخواتهم . وفي هذه الحالة يلحق باسم الصدر الأعظم لقب داماد ، وهي كلمة تركية بمعنى صهر . ويذكر هذا اللقب قبل اسم الصدر الأعظم مباشرة ، فكان يقال : داماد صوقاو محمد باشا .

فيض من مظاهر العظمة على الصدر الأعظم :

وقد أضفت الدولة على الصدر الأعظم الكثير من مظاهر العظمة والأبهة . كان يتقبل الصدر الأعظم في أيام محددة بعضها كل أسبوع والبعض الآخر كل شهر ولقاء موظفي البلاط والدولة على غرار ما كان يفعل السلطان . فكان على كل من رئيس الإنكشارية والقضاة والبكوات والصناجق وقادة الجيش ومن إليهم من شاغلي المناصب القيادية زيارة الصدر الأعظم زيارة رسمية (١) . وكانت تتكرر هذه الزيارات في عيد الفطر وعيد الأضحى . وكان على جميع الموظفين المدنيين وأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة - عدا شيخ الإسلام أن يقبلوا طرف رداء الصدر الأعظم حين يدخلون مجلسه . وكان يذهب إلى صلاة الجمعة في موكب رسمي تشارك فيه فرقة من حرس السلطان وفرقة المنفردة بملابس التشريفية - الملابس العسكرية الرسمية - وكان الجاوش باشي (٢) وقوة من رجاله يصحبون الصدر الأعظم كل يوم في ذهابه من مسكنه إلى مقر الديوان وفي عودته إلى داره . وكان فريق من رجال الخدمة في القصور السلطانية يقومون على خدمة الصدر الأعظم مرة كل أسبوع . وكان سماح السلطان بهذه الخدمة يعد تشريفاً كبيراً للصدر الأعظم .

رجال الخدمة الداخلية للصدر الأعظم :

وكان يقوم على حراسة حريم الصدر الأعظم جماعة من الحصيان يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة ، وكان له خدمة داخلية وخدمة خارجية . ويرأس الخدمة الداخلية أربعة وعشرون غلاماً ، كان أكبرهم ساحدار أغا - حامل

(١) ذكر المؤرخ لبيبر أيام الأسبوع التي كانت تتم فيها هذه الزيارات الرسمية :

انظر : Lybyer A.H. ; op. cit., p. 166.

(٢) شرحنا اختصاصات هذا الموظف في الفصل الثالث عشر في هذه الدراسة .

السيف وحارسه - وكان من بينهم القهوة جى باشى ، وكانت مهمته أن يمد القهوة ويقدمها للصدر الأعظم ولضيوفه ، وأبر يقدار باشى ، وكانت مهمته أن يحمل لإبريق الماء ويصب الماء منه على يدي الصدر الأعظم حين يرغب في غسلها ، وبشكير آغا وهو حامل البشكير « المنشفة » يمسح الصدر الأعظم به يديه بعد غسلها ، وصاريق جى باشى ، وهو الذى يلف العمامة ويضعها على رأس الصدر الأعظم ، وبربر باشى وهو الذى يقص شعر الصدر الأعظم ، وجوقه دار آغا أى رئيس الخدم الخصوصيين ، وهم جميعاً يطابقون رجال الخدمة الداخلية فى القصر السلطاني - الخاص أوطه ليه - مهن يحملون نفس الألقاب . كما كان للصدر الأعظم مفتاح آغا ، يطابق الانتخاب آغا الخاص بالسلطان (١) . وكان للصدر الأعظم أيضاً ذهبية خاصة يقوم عليها طاقم من البحارة ، ويقود الأوطه باشى هذه الذهبية ، فيمك بالبدنة بينما يجذف الآخرون .

متاعب وأخطار الصدر الأعظم :

وعلى الرغم من هذه المظهرية البراقة وذلك النفوذ الواسع العريض ، فقد كان الصدر الأعظم تحت رحمة مزامرات ودسائس الحريم السلطاني والحصبان فى القصور السلطانية ، وسنعرض لهما عند كلامنا على مراكز القوى فى الدولة ، وحينئذ أن نذكر هنا إبراهيم باشا الذى وقع عليه اختيار السلطان سليمان المشرع ليشغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٥٢٤ . وكان والده يونانياً من برغنه . وقد ظفر بتقدير السلطان سليمان إلى حد بعيد حتى أنه زوجه من أخته . ولم تكن مصاهرته للسلطان بعاصمة له من الدسائس التى تعرض لها . فقد نشطت دوائر الحريم السلطاني للإيقاع به ، وروجت شائعات تتممه بأنه طامع فى عرش الحجر . ولما أخفقت هذه الدسيدة ، وجهت إليه تهمة أخرى أشد خطراً ، هى أنه يرنو ببصره لاعتلاء عرش الدولة اعتماداً على المصاهرة

(١) الانتخاب لفظه تركية معناها مفتاح . والانتخاب أغاسى ضابط يقوم بأعمال الشرطة ثم أدخلت تعديلات على اختصاصاته .

انظر :

التي تربطه بالأسرة العثمانية الحاكمة . وعلى الرغم من أن التهمتين لم يفهم عليهما أى دليل مادى ، فقد اغتيل بأمر السلطان فى مساء ٥ مارس - آذار - سنة ١٥٣٦ وطويت صفحته بعد أن لبث زهاء اثنتى عشرة سنة كان خلالها المرجع فى كافة شئون الدولة . ونضيف إلى ذلك أنه لم يكن للصدر الأعظم أية سلطة مباشرة على الهيئة الإسلامية ولا على خدم القصور . وكان الصدر الأعظم يتداوى فى هذا الصدد مع الوزراء سواء بسواء . وكثيراً ما كانت والدة السلطان وزوجاته الأربع تصدرن الأوامر إلى الصدر الأعظم ينقلها إليه شفويّاً كبير الخصبان فيصدع بما يؤمر به .

وكان هناك خطر آخر داهم يهدد حياة الصدر الأعظم بحكم أنه كان ينتمى إلى طبقة القولار - عبيد السلطان - فكانت حياته مرتبطة برضاء السلطان عنه . فإذا غضب عليه لم يكن السلطان ليقنع بعزله من منصبه ، بل كان فى غالب الأحوال يقرب عزله بإنهاء حياته . ويذكر ليير المؤرخ الأمريكى أن حوالى المائتين تولوا منصب الصدارة العظمى فى خمسة قرون أعدم السلاطين عشرين صدرّاً أعظم منهم (١) . والحق أن المفارقات كانت عجيبة بين هذه النهاية المفجعة وبين السلطات الواسعة والحياة الرغيدة والمظهرية المتألقة التي عاشها كل منهم . لقد كانت الدولة تحرص على ألا يظهر الصدر الأعظم أمام الجماهير إلا فى مواكب رسمية تضم حاشية تجمع صفوة العسكريين ونخبة المدنيين يحيطون به من يمين ويسار ، ومن أمام وخلف ، وتتقدمه سارية تحمل خيمة أطواخ .

الوزراء وعدد الأطواخ :

كان لكل وزير ثلاثة أطواخ - جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هذا النحو : طوغ وأطواغ ، وتكتب فى بعض المراجع غير العربية أحياناً Tugh وأحياناً أخرى Tug - والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية وفى أعلاها كرة من النحاس المطلق بالذهب .

وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التي ترفع أمامهم فى

المواكب والحفلات الرسمية ، حيث كانت تتقدمهم سارية تحمل الطواخ أو الأطاوخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطاوخ هو الذي يحدد مراكز كبار رجال الدولة (١) . فالسلطان له تسعة أطواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ . أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ وكذلك الذين يحملون رتبة الباشوية . وكان البك يحمل طواخاً واحداً أو طواخين تبعاً للمركز الذي يشغله ، فإذا كان يحكم وحدة إدارية هي الصنّجقية فإنه يحمل طواخاً واحداً ، وإذا كان حاكماً لولاية صغيرة أو متوسطة فإنه يحمل طواخين . وإذا صدر فرمان سلطاني بمنح أحد البكوات رتبة الباشوية فإنه يحمل بقوة القانون ثلاثة أطواخ بصرف النظر عن المنصب الذي يشغله . وكان يحدث أن تسند ولاية دمشق أو حلب أو بغداد أو مصر إلى ولاة سبق لهم تقلد منصب الصدر الأعظم أو كانوا وزراء ، ففي مثل هذه الحالات كان يسمح لهؤلاء الولاة بالاحتفاظ بحقهم المقرر لهم من قبل في عدد الأطاوخ على الرغم من أن منصب الوالي كان يقل عن منصب الصدر الأعظم (٢).

ويدل استخدام الأطاوخ على أن العمانيين كانوا متمسكين بالحفاظ على التقاليد التي تتمثل في بعض الرموز أو الشعارات المتشعبة من أصول قبلية تركية قديمة . ويرى بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون هذا التقليد مستمداً من أصل طوطمي (٣) Totemic origin وكانت الأطاوخ تؤخذ أول الأمر من ذيول الياكات Yaks . ثم رأت الدولة أن تستبدل ذيول الخيل بذيول الياكات .

مجموعتان من الصدور العظام :

يلاحظ أولاً أن المدنيين والعسكريين تعاقبوا على منصب الصدارة العظمى .

(١) Hourani Albert H., The Ottoman Background etc., op. cit., p. 7.

(٢) دكتور عبد الكريم غرايبة ، سوريا في القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ ، ٤٣ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part 1, p 139.

فلم يكن هذا المنصب وقفاً على فريق دون فريق . ولكن كانت الحاجة ماسة في عهد سلاطين الفترة الثانية إلى شغل هذا المنصب بالعسكريين ، لأن الصدر الأعظم كان يقود المعارك الحربية بدلا من السلطان الذي كان يؤثر العلامة والعزلة عن الجماهير وتلمس أسباب المتعة بشرب الخمر أو الإقامة في أجنحة الحریم (١) .

وقد حمل تاريخ الدولة بعدد من الصدور العظام كانوا على حظ موفور من الكفاية والإخلاص والنزاهة . نهض بعضهم بالدولة بينما أنقلها البعض الآخر من الانهيار في أواخر القرن السابع عشر مثل كوپريلي . وقد تولى خمسة من أفراد هذه الأسرة - وهي أسرة ألبانية - منصب الصدارة العظمى (٢) ، وأسدى أربعة منهم على الأقل خدمات جليلة للدولة وسنلتقى ببعض أفراد أسرة كوپريلي في هذه الدراسة .

(١) من بين العسكريين الذين تولوا منصب الصدارة العظمى ، نذكر منهم :

- ١- عازى حسن باشا (١٠٢٣-١٠٢٤هـ / ١٦١٤-١٦١٥ م) .
 - ٢- سلحدار محمد باشا (١١٤١-١١٤٣هـ / ١٧٢٨-١٧٣٠ م) .
 - ٣- سلحدار سيد محمد باشا (١١٤٨-١١٥٠هـ / ١٧٣٥-١٧٣٧ م) .
 - ٤- سلحدار ماهر حزه باشا (١١٨٢-١١٨٢هـ / ١٧٦٨-١٧٦٩ م) .
 - ٥- سلحدار محمد باشا (١١٨٤-١١٨٥هـ / ١٧٧٠-١٧٧١ م) .
 - ٦- حلمى إبراهيم باشا أغا الإنكشارية (١٢٢١-١٢٢٢هـ / ١٨٠٦-١٨٠٧ م) .
 - ٧- سلحدار مصطفى باشا (١٢٢٣-١٢٢٣هـ / ١٨٠٨ م) .
 - ٨- سلحدار على باشا (١٢٣٩-١٢٤٠هـ / ١٨٢٣-١٨٢٤ م) .
- ويلاحظ أن هؤلاء الصدور اعطام قد تولوا هذا المنصب إبان عهد سلاطين الفترة الثانية . انظر

- محمد جبل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، صص ٣٤-٣٥ .
- (٢) محمد كوپريلي باشا تولى الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ إلى وفاته سنة ١٦٦١ .
- (ب) ابه فاضل أحمد باشا وقد عين صدراً أعظم بعد وفاة والده مباشرة في سنة ١٦٦١ وظل في منصبه حتى جاز إلى ربه سنة ١٦٧٦ .
- (ج) فاضل مصطفى باشا ابن محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٨٩ إلى أن قتل في حربه سنة ١٦٩١ .
- (د) حسين باشا ابن أخ محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٩٧ إلى أن اعتزل الخدمة سنة ١٧٠٢ .

ولئن حنل تاريخ الدولة بهذا الطراز الطيب من الصدور العظام فقد اتشح تاريخها أيضا بعدد آخر يصدق عليهم وصف المتسلمين . فقد كانوا إما جهلة وإما وصلوا إلى منصب الصدارة العظمى بطرق غير شريفة أو غير كريمة . وقد وضع أحد الباحثين ثبناً بأسماء ثلاثة وعشرين شخصاً بدأوا حياتهم خدماً في النصور السلطانية ، ثم دارت الأيام دورتها ، فإذا هم يتولون منصب الصدارة العظمى الذى كان المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان . وفى هذا الثبث ذكر الباحث نوع الحرفة أو العمل الذى مارسه كل منهم قبل أن يشغل ذلك المنصب الخطير ، كما ذكر اللمنة التى تولى فيها منصب الصدر الأعظم وسنة وفاته أو عزله أو إعدامه . ومن هذا الثبث نقف على حقائق مذهلة : كان من بينهم من كان مريباً للسلطان ، أو خادماً ، أو بونانياً ، أو خطاباً فى التصور السلطانية (١) . وحارت الشبهات حول عدد منهم من حيث عدم النزاهة ، استغلوا نفوذ المنصب الكبير الذى سما إليه كل منهم وتفننوا فى ابتداع وسائل الكذب غير المشروع لإتغاء إثناء ثرواتهم . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد الصدر الأعظم صوقلو محمد باشا . وكان صقليياً من مواليد قرية صوقل فى إقليم البوسنة . وكان اسم صوقلو الذى اشتهر به هو تترك اسمها الأصيل صوقوايقيتش (٢) Sokolevich وقد تزوج إسمات الأميرة ابنة السلطان سليم الثانى فاكتسب لقب داماد ، وغدا اسمه داماد صوقلو محمد باشا . وظل متربعا فى منصب الصدر الأعظم مدة تراوحت بين خمسة عشر عاما وثلاث عشرة سنة (٣) .

(١) نعمان باشا وعو ابن مصطفى باشا . وقد شغل منصب الصدر الأعظم من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧١٠ وقد تزوج من عائشة سلطان أخت السلطان مصطفى الثانى فأصبح اسمه داماد نعمان باشا .
أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold op. cit., vol. I. Part 1, p. 110, fn. 3

(١) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٤-٣٥

(٢) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I. p. 110, fn. No. 3.

(٣) يقول البعض إنه تولى منصب الصدر الأعظم فى سنة ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع ، وإنه خدم هذا السلطان فى منصبه كصدر أعظم خمسة عشر شهراً ، بينما يقرر البعض الآخر أنه شغل منصبه سنة ١٥٦٨ بعد سنتين من وفاة السلطان سليمان وفى أثناء حكمه

زين له جشعه وخلقه السيء أن يفرض على حكام الولايات العثمانية أن يعيدوا شراء مناصبهم كل سنة ، بعد أن كانت عملية الشراء تتم مرة واحدة عند التعيين لأول مرة في المنصب . وكانت عمليات تجديد الشراء السنوية تقترن بأن يقدم كبار الموظفين إلى صوقلو باشا هدايا نقدية وعينية تناسب مع المركز القيادي الذي يشغله كل منهم والموارد المالية التي يديرها هذا المركز القيادي . وما يذكر في هذا الصدد أن الباشا العثماني في مصر كان يدفع ما يزيد على مائة ألف بندقي (١) كل سنة إلى محمد صوقلو باشا لقاء تجديد شراء منصبه أو بعارة أخرى تجديد تعيينه وإبقائه والياً على مصر لمدة سنة أخرى (٢) . أما إذا توفي أحد شاغلي المناصب فكان صوقلو باشا يعين خلفاً له من يدفع أعلى ثمن للوظيفة التي كان يشغلها المتوفى . وامتدت أطماعه إلى العلاقات الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر مثالا واحدا لهذا النوع من التصرفات ، فقد نجحت جمهورية البندقية في أن تشتري من صوقلو باشا صلحا في سنة ١٥٧٣ لقاء خمس عشرة ألف دوكة (٣) . ولقي هذا الصلح الأعمى مصرعه في سنة ١٥٧٩ جزاء وفاقاً لما فعله من ضرور في حق دولة آوته ورفعته مكاناً عالياً في حياته الوظيفية . كان صوقلو محمد باشا قدوة سيئة أمام موظفي الدولة في شتى فروع الإدارة سواء الإدارة المركزية أو حكومات الولايات وبخاصة أنه استمر سنوات طويلاً في موقعه ، ويبدو الرجل الثاني في

ابنه سليم الثاني ، ويتفق الجميع على أنه ظل يشغل منصبه حتى قتل سنة ١٥٧٩ على عهد السلطان مراد الثالث . وعلى ذلك فإن داماد صوقلو محمد باشا عاصر وهو يشغل هذا المنصب ثلاثة سلاطين (سليمان المشرع ، وسليم الثاني ، ومراد الثالث) في رواية ، وعاصر سلاطين اثنين (سليم ومراد) في رواية أخرى .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ مرجع سبق ذكره ، صص ٣٤-٣٥
(٢) البندق عمل ذهبية تنسب إلى جمهورية البندقية .
(٣) كارل بروكلمان ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ ويضرب هذا المستشرق الألماني أمثلة أخرى على الوسائل غير المشروعة التي كان يلجأ إليها صوقلو باشا في استغلال منصبه وإنماء ثروته .

(٤) الدوكة وجمعها دوكات وهي عملة ذهبية ، وهي على أنواع منها الدوكات النمساوية ، وقد أطلق العثمانيون عليها إسم حجر آلتينى أى الذهب المجرى ، ومنها الدوكات البندقية ، وقد أطلق العثمانيون عليها إسم فلورى أو بالديز آلتينى

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى (٢) Gandarlı تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسى في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قيام تواطؤ بين خايل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تخوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) برد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها : Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
ب - ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبى يزيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
والسلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١)
د - ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١)

(م - ٢٤ ، الدولة العثمانية)

المنصب مقصوراً على القولار أى طبقة العبيد . وفعلًا عين في منصب الوزير الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصلور العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثمانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرارى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تبعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فيسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزير الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السرदार» . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الفاتح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصرأ قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجرة عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالي :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١) (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شاسعاً فخماً يتيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمته وحرسه في أحد أجنحته ، وتخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقراً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى «دفتر دار قابسي» أي «بوابة الدفتر دار» وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سئرى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالي من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشي قابسي» ، أي بوابة الباشا ، «وبابي عالي» ، أي بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذي أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالي ، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .
أنظر :

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابي عالي كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعدا الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شؤون الدولة ، الداخلىة والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلديز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شؤون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)
1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلىة فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحرم والبلاط الداخلى . وكان لايسمح لأحد بدخول جناح الحرم إلا للسلطان والحصيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الخاشية يقومون على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جليماً الباش جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلديز وما بين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بالخدم الخصوصيين للسلطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري (الهمايوني) .

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتخلي عن رئاسة الديوان للصبر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون - فضلاً عن رئيسه الصبر الأعظم - من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أي أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى ننف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسيير دفة أمور الدولة نلم أولاً إلاماً سريعاً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشاجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، الدفتر أمينى .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان «الرئيس أفندي» في العصر

(١) همايون كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ. وتستخدم بمعنى هلكى أو سلطانى أو إمبراطورى . وتأسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايونى معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشأجي باشي أو الكاخيا بك أو الجاوش باشي أو الدفتردار ، أو غيرهم من كبار موظفي الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً في سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن في تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندي مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها في المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية. الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم في شئون السكرتارية. وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب في الخزانة العامة « خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التي كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلي الوظائف من أهل العلم والقابجي باشية والسكرتيرين الذين يعملون في الإدارة والذين يتلقون إحانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقي . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجي Beylikji يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السامطانية يسمى بيليك قلمي Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين - غير بيليك قلمي - لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «تحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التي تصدر إلى موظفي

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى «رعوس» وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم لاسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكرادات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسة دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان للرئيس أفندى « كيسة دار » مستقل وخاص به (١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيليكيچى .

رابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit. Vol I., Part 1, (١)
p. 122. *Bm.* No. 5.

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الأمدجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يميلى رغباته ، فإذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحيات مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القون السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحدث . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة توثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالى وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتى الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندى سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه ديوان ترجمانى أى مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتمتع في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهى سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندى لبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندى el Reis offendi وكان هذا الرئيس أفندى في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشأجي باشى :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشأجي يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معتد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسك على عهده في الضربخانة ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يتذكر اسم النشائي مقبروناً بكلمة الباشي فيقال النشائي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي^(١). وكان للنشائي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغلي بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أي منها على مقعد في الديوان^(٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسي للنشائي كان ختم الوثائق والمراسم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختتمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسيرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرض عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور^(٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشأنجي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في « الدفترخانة » أي دار السجلات كان النشأنجي يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرماني » كاستند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشأنجية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي يختموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشأنجي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التي أعطيت للنشأنجي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد القاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة التولار - العبيد - في شغل منصب النشأنجي . ويقول ليبير الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشأنجي (٢) .

وكان النشأنجي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أذندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أي أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشأنجي يعتبر في السلم الوظيفي ناداً لمدير الإدارة المالية - الدفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشأنجي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكلمركى الروملى . وقد أخذ مركز النشأنجي في الأفول في الوقت الذي ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186. (٢)

الريس أفندى . ومرد هذا الأفول إلى سببين : أولها انزواء السلطان في أجنحة الحرم . فأضعف احتجابه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشأجي . وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تخلى عنها للريس أفندى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشأجي هبوطاً شديداً .

الجاوش باشي :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشي يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشي وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., vol. VII., p. 159 (١)
et suiv.

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكلى العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. (١)
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H. ; Op. cit, p. 183. (٢)

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في التهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبي .

وكان الجاوش باشي ، في التبتاق التضامني الذي كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكريجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكريجي» أي التذكريجي الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكريجي» أي التذكريجي الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذي يتخذه الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التي كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفي لهذين الموظفين ، جاء في القانون نامه الذي صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتتان بالأسبقية على كتبة الريس أفندي .

وهكذا نرى أن الجاوش باشي قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكري والطابع القضائي . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمنابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أي عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال التلم ورجال السيوف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المدائل الساخية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يتومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات إيرية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات إقليمية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبجى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتبى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به . وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولاق » أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبجى والتشرىفاتجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

(١) يصفه نيدر بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يعرفه بوبو بأنه السكرتير العام للصدر الأعظم .

نصر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبجي والتشريفاتجي يعتمدون في دخلهم على
النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم
أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين
الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان
الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا
هذا المنصب في الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة في أثناء توليهم
هذا المنصب .

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها في النطاق
المحلى كرئيس للإدارة المالية في مصر إبان الحكم العثماني عندما تعرضنا لنظام
الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفتري في مصر . وقد أنشأت
الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المسالية
للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل
اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية
ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه
الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى في القرن السادس عشر
أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت
اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان
سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية الحبر ومنطقة
الدانوب (٣) . ولما فقدت الدولة إقليم الحبر في أواخر القرن السابع عشر ألغيت
الدفتردارلق الخاصة بالحبر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش
دفتردار - يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ في هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit. ; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

وكان الدفتردار يحتفظ بالدفاتر أو السجلات التي تبين الموارد المالية للدولة سواء كانت هذه الموارد أموالاً سائلة أو عينية ، ومقدار الأموال المتحصلة والمنتظر إنفاقها ، والفائض والاحتياطي ، وكيفية الحصول على موارد مالية أخرى حين يطرأ عجز على موازنة الحكومة . وكان للدفتردار سكرتارية فنية خاصة به تسمى « مالية قلمى » . كما كان يعمل تحت إدارته عدد كبير من الموظفين المتخصصين في الشؤون المالية . وكانت تتبعه محكمة تفصل في المنازعات التي تقوم بين الحكومة والأفراد فيما يتعلق بالمسائل المالية .

وكانت رتبة الدفتردار باشا تعادل رتبة النشائجي باشا . وكان يلي الصدر الأعظم باستثناء وزراء القبة وكبار رجال الهيئة الإسلامية . وكان الدفتردار هو الموظف الوحيد في الإدارة الذي يتمتع بحق تقديم العرائض بنفسه إلى السلطان . وكان لا يشاركه في هذه الميزة سوى « قضاة العسكر » أى روساء القضاة ورئيس الحصيان .

وقد جاء في مقدمة قانون نامه الذي أصدره السلطان محمد الفاتح أن الدفتردار هو التميم على أملاك السلطان . وكان له الحق في حمل الطغراء واستخدامها في فرمانات - أى المراسيم - المتعلقة بالشؤون المالية . وكان هذا الحق أساساً للنشائجي ، ثم منح هذا الحق بصورة جزئية للدفتردار في الشؤون المالية ، ومنح أيضاً لروساء القضاة في القرارات المبنية على قواعد الشريعة الإسلامية .

وهناك تشبيه للدولة العثمانية مستمد من البيئة الرعوية - الإستبس - التي كانت المهاد الأولى للأتراك العثمانيين . فيقال إن الدولة العثمانية كانت بمثابة خيمة نصبت على الأرض ، وشدت بحبال مربوطة بأربعة أوتاد مثبتة في الأرض . وكانت هذه الأوتاد الأربعة في حالة الدولة العثمانية هي الدعائم التي استندت إليها : الصدر الأعظم والوزراء ، قضاة العسكر ، مجموعة الدفتردارين ، (م ٢٥ - الدولة العثمانية)

والنشابجي (١) .

الدفتر أمينى :

كان يشرف على الدفترخانة ، وهى دار السجلات . وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام . ويطلق على القسم الأول « إجمال » وتحفظ فيه الوثائق التى توضح توضيحاً دقيقاً حدود كل ولاية من ولايات الدولة وأقسامها ، وكذلك حدود كل الإقطاعات . ويسمى القسم الثانى « مفصل » أى السجل المفصل وتحفظ فيه وثائق ومستندات مشابهة ، ولكن تتعلق بالملكيات الخاصة Private Property ، وهى تقابل فى الوقت الحاضر فى مصر سجلات مصلحة الشهر العقارى . أما القسم الثالث فيسمى « روزنامة » . وقد سبق أن شرحنا مدلول هذه الكلمة عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وكانت الروزنامة فى هذا المقام العام تختص بتسجيل التغييرات التى تطرأ على عمليات نقل الإقطاعات من شخص إلى آخر .

وكانت الفرص مهيأة أمام الدفتر أمينى للترقية إلى منصب الدفتر دار الذى كان الطريق أمامه مهدياً للترقية إلى مرتبة وزير .

تشكيل الديوان :

كان يتكون الديوان من :

١ - الصدر الأعظم رئيساً .

٢ - الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى آخر .

٣ - قاضى عسكر الأناضول . وقاضى عسكر معناها كبير القضاة أو قاضى القضاة .

٤ - قاضى عسكر الروم إيلى أى بلاد البلقان وأوروبا .

Lavisse et Rambaud; op cit., t. IV, p. 753.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٧ حاشية رقم ٣ فى هذه الدراسة .

- ٥ - قاضي عسكر عن إفريقية . وقد ظفر هذا القاضي بعضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية في إفريقية في القرن السادس عشر .
- ٦ - دفتر دار الروم لإيلي وهو الباشا دفتر دار .
- ٧ - دفتر دار الأناضول .
- ٨ - دفتر دار ثالث أضيف إلى عضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية في العالم الإسلامي .
- ٩ - قائد فيالق الإنكشارية بصفته ممثلاً للجيش .
- ١٠ - قبودان باشا - قائد الأسطول البحري - بصفته ممثلاً للسلاح البحري بالتعبير العسكري الحديث .
- ١١ - النشأنجي باشا .

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من ذوى الخبرة في شتى المسائل . كان بعضهم يجلس على الأرض في قاعة الاجتماع ، والبعض الثاني يظل واقفاً ، والبعض الثالث يجلس في غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفنى في مسألة مطروحة على الديوان .

ويتضح من هذا التشكيل أن عضوية الديوان لم تكن مقصورة على كبار موظفي الهيئة العامة من طبقة القولاار - عبيد السلطان - بل كانت الهيئة الإسلامية ممثلة في الديوان عن طريق رؤساء القضاة الذين كان يطلق عليهم قضاة العسكر . ويتضح أيضاً من هذا التشكيل الخطأ الذى يقع فيه بعض الباحثين حين يقررون أن الديوان في الدولة العثمانية كان هو مجلس الوزراء بمعناه المتعارف عليه في التاريخ المعاصر ، وهو خطأ مادى لا يتحمل اختلافاً في وجهات النظر .

جلسات الديوان زمن السلم :

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع .

هى السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفى خلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات . وكان الديوان يعقد جلساته مند الضحوة حتى وقت الأصيل، فكان الاجتماع يستغرق وقتاً يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات. ويتخلل الاجتماع فترة وتعبها فترة أخرى عند نهاية الاجتماع . وتخصص الفترتان لتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقتضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة (١) .

اجتماعات الديوان أيام الحرب :

وفى زمن الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم التى تقام على مقربة من مخيم السلطان . ولما كان كبار الموظفين فى الدولة يصحبون السلطان إلى ساحات القتال ، فإن لإجراءات عقد الديوان تكون مماثلة تقريباً للنظام المتبع فى إستانبول . أما إذا كان السلطان متغيباً عن العاصمة فى رحلة ومعها الصدر الأعظم ، فإن الديوان يعقد اجتماعاته يومى السبت والأحد فقط . ويحضر هذه الاجتماعات العدد القليل من كبار الموظفين أو أركان الدولة الذين يظلمون فى العاصمة . وفى حالة الضرورة فى زمن الحرب أو فى حالة طوارئ خطيرة كان أعضاء الديوان يجتمعون وهم على ظهور الخيل ، وهى عادة قديمة درجت عليها الدولة العثمانية حيناً من الدهر وهى لا تزال فى مرحلة الإمارة ، وكانت تعتمد فى تصريف شئونها على النظم القبلية . فكان يعقد وقتذاك مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر فى الإمارة أو الدولة الوليدة ، ويجتمعون وهم على ظهور الخيل ، ويبحثون الموضوعات الهامة مثل خوض الحرب أو تقرير السلم . ويرى بعض المؤرخين أن هذا

Lybyer A.H., op. cit., p. 190.

المجلس كان نواة نظام الديوان ، أى أن الديوان هو نظام متطور بتطور الدولة نتيجة نموها السريع واتساعها الإقليمي وتشعب مصالحها .

لماذا تخلى السلاطين عن رئاسة الديوان ؟

قلنا إن السلاطين كانوا يحرصون أول الأمر على حضور جلسات الديوان ثم أوقف السلطان سليمان المشرع هذا التقليد (١) . وأتاب عنه الصدر الأعظم واكتفى بالاستماع إلى المناقشات التي تدور في الاجتماع ، وذلك من وراء ستار أو من نافذة تطل على قاعة الاجتماع . وقد حمل بعض المؤرخين ، وكان من بينهم كوشى بك Kochi الفيلسوف التركي ، على السلطان سليمان تخلفه عن حضور اجتماعات الديوان . وبخاصة بعد أن اتخذ خلفاؤه سلاطين الفترة الثانية هذا التغيب عن جلسات الديوان تقليداً التزموا به بعد أن اعتزل معظمهم الحياة العامة واحتجبوا في أجنحة الحريم بالقصور السلطانية واستناموا إلى حياة الدعة أو إشباع شهواتهم مع النساء أو تعاطى الخمر حتى أطلق على بعضهم اسم السكير وما إلى ذلك من صور المتعة التي انغمسوا فيها ، فلم يرتفعوا إلى مستوى سلاطين الفترة الأولى . ويعزو هذا الفريق من المؤرخين اضمحلال الدولة إلى ذلك التقليد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين مثل ليبير الأمريكى أنه كان لامناص أمام السلطان سليمان المشرع من التخلف عن حضور جلسات الديوان الذى كان يعقد أربع جلسات أسبوعية تستغرق كل جلسة اليوم بطوله مما كان يصرفه عن التفرغ لمهام أخرى كانت تراكم أمامه . وكان حكمه حافلاً بجلائل الأعمال الحربية والإنجازات التشريعية والإدارية وغيرها . ويقول ذلك المؤرخ الأمريكى دفاعاً عن السلطان سليمان أو تبريراً لتصرفه إن أعضاء الديوان كانوا يتناقشون ويتصرفون وكأن السلطان سليمان مائل أمامهم . وقد حدث في إحدى المرات أن أمر هذا السلطان

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 188.

(١)

ويقرر بوبون أن السلطان الذى استن هذا التقليد هو السلطان محمد الفاتح حين تقدم له أحد الرعايا بشكوى وكان نائراً ، ولم يظهر الاحترام الواجب نحو السلطان
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vo. 1, Part 1, p. 116.

بإعدام حشمت باشا الصدر الأعظم بعد أن استمع بطريقته الخاصة إلى مناقشاته في الديوان . واستعاض السلطان سليمان عن حضور جلسات الديوان باستقبال أعضائه عند انتهاء الاجتماع ويعرض عليه الصدر الأعظم القرارات التي اتخذها الديوان في ذلك اليوم فيوافق عليها أو يطلب إدخال تعديلات عليها . وكان في أحيان أخرى يملئ بنفسه رداً على رسالة بعث بها أحد السفراء الأجانب .

نظام الحضور والدخول والجلوس في الديوان :

وكان حضور أعضاء الديوان إلى مقر الاجتماع ودخولهم إليه وجلوسهم وانصرافهم كل أولئك يخضع لنظام دقيق . كانوا يصلون مبكرين إلى مقر الديوان ليكونوا في استقبال الصدر الأعظم الذي يصل محاطاً بحاشيته . ويقفون في صفين متقابلين لاستقباله . ويمر الصدر الأعظم بين الصفين ، ثم يسير خلفه الأعضاء وفقاً لترتيب ونظام موضوعين . وكان الصدر الأعظم يجلس - طبقاً للطريقة التركية العثمانية - وسط أريكة طويلة تمتد حول ثلاثة جوانب من قاعة الاجتماع . وتأخذ الأريكة شكل حرف U فلذا استوى على الأريكة جالس إلى يمينه الوزراء ثم كل من باشا الأناضول وباشا البلقان ثم رئيس الإنكشارية ثم قبودان باشا ، وفي نهاية طرف الأريكة يجلس النشائي باشا ويجلس إلى يسار الصدر الأعظم وقضاة العسكر الثلاثة ثم الدفتردارون الثلاثة وكبير المترجمين . ويجلس على الأرض الرئيس أفندي ، كما يحضر اجتماع الديوان كل من التذكريجي ويتولى قراءة الشكاوى المقدمة إلى الديوان ، وقاچيچيلو كخياسى Kapujilar kiayasi وينعته المؤرخ بوون بأنه مفتش حراس البوابات (١) بينما يقول عنه ليبير إنه كبير الياوران (٢) . أما الموظفون الذين

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part (١)
1, p. 83.

Lybyer A.H ; op. cit., p. 190. (٢)

وبلاحظ أن الياوران جمع ياور . وفي اللغة التركية إذا أضيف حرفا الألف والون إلى نهاية الاسم اكتسب هذا الاسم صبغة الجمع، مثل المستحفظان أى رجال الحفظ، والمبتدبان أى المبتدئين .

قد يحتاج إليهم أعضاء الديوان فينتظرون في غرف مجاورة ، بينما يقف الحرس وأفراد الحاشية على مسافات متقاربة خارج وداخل الردهة. وقد يحتاج الديوان في أثناء الجلسة إلى الاستنارة بأراء بعض المختصين ، فكان يستدعى بعض قادة الجيش أو كبار موظفي الدولة المدنيين للاستماع إلى آرائهم . ولهذا الغرض كانت توجد في غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع مجموعة من العسكريين على أهبة الاستعداد للتحرك السريع لاستدعاء من يرى الديوان حاجة إلى حضورهم . وعند ما يبدأ الديوان النظر في المسائل القضائية كان بيوك تذكري ، أى التذكري الكبير ، يقف أمام الصدر الأعظم ويتولى قراءة الشكاوى والعرائض المقدمة للديوان للفصل فيها ، ثم يكتب القرار الذي يتخذه الديوان في شأن كل عريضة أو شكوى .

وكان في مقدور أى فرد من رعايا الدولة أن يتقدم بشخصه إلى الديوان عارضاً مظلّمته فينظرها الصدر الأعظم مستعيناً بقضاة العسكر وبعض الموظفين المختصين . وكان في بعض الأحيان يحيلها إلى الجهة المختصة لدراستها ولكن أدى طول الوقت الذى كانت تستغرقه الاجتماعات الأربعة التى كان يعقدها الديوان أسبوعياً ، وازدحام جدول أعماله بالعديد من المسائل المتنوعة إلى استبعاد المسائل الفردية وتخصيص وقته لبحث المسائل العامة (١) .

اختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة :

انتقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليا التي كان يرأسها السلطان من قبل ، لأن الصدر الأعظم كان قد حصل على تفويض عام من السلطان بحكم تقلد الأخير وظيفة الإمامة . وتأسيساً على هذا التفويض كان الصدر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضاة الشريعة بعد أن تم تطعيم الديوان بأكبر العناصر القضائية التي تمثل الشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا في هذا المجال لهؤلاء القضاة الكبار بحكم ثقافتهم وتعمقهم في مسائل الشريعة ، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كانوا من أهل الخبرة . ولكن لما

(١) انظر تفصيلات وافية عن الديوان في :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., vol, VII, pp. 211—232

كان الصدر الأعظم أعلى من القضاة في السلم الوظيفي بحكم منصبه ، كانت الأحكام والتصرف في القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر في المسائل القضائية ، أي تطبيق القانون من ناحية ، والنظر في المسائل الإدارية من ناحية أخرى . ويبرر المؤرخ الأمريكي لبيير اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون في الدولة العثمانية موضوعاً ومحددًا ، وطالما كان أي تشريع يصدر عن الدولة يركز حول شخص واحد هو السلطان ، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية (١) . وهذا التبرير لا يصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة . وسرى أنه عاد بعد ذلك فأعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره الفعال في إيجاد رقابة دقيقة ومحكمة على أعمال الحكومة سواء في الإدارة المركزية أو في الولايات العثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تضع التشريعات للدولة ، ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة Cabinet ومحكمة عليا Court Suprême ويقول أحد رجال القانون - وهو هايدبورن - في تقييمه لذلك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة ، وفي ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق في أن تنقل أمامها كل قضية وأن تنظر في القضايا بين العثمانيين والأجانب والتي تزيد قيمة المبالغ المتنازع عليها على ثلاثة الآف أسبر .

Le divan était à la fois une sorte de Conseil d'Etat, où se discutaient les affaires politiques importantes, et une Cour suprême autocrisée à évoquer tout litige devant elle et à connaître notamment des procès entre Ottomans et étrangers qui dépassaient la valeur de 3000 aspres. (٢)

أما المؤرخ الأمريكي لبيير فيعلق على اختصاصات الديوان وعلى الدور

Lybyer A.H.; op. cit., p. 187. (١)

Heidborn A. ; Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman. Vienne, 1909, p. 141. (٢)

الذى قام به في إدارة شؤون الإمبراطورية العثمانية تعليقاً قال فيه إنه على الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم ، وهو معين بفرمان سلطاني . وكانت موافقة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكتسب القرارات الصبغة القانونية وتأخذ طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان . ولم تكن هذه المسئولية محصورة في تصرفات العضو فحسب ، بل في حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام (١) . وفي ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة في الإمبراطورية كلها ، وهي محكمة من طراز فريد . فليست لها اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة ، أى المحاكم الابتدائية . وكان لا يدخل في اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين ، ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التي ترفع إليه من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية ، ونجم عن ذلك أن سلطته القضائية لم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها . ويمضى ذلك المؤرخ الأمريكى في تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التي تؤخذ على نظامه واختصاصاته ، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية . كان الديوان أدنى درجة من السلطان ، ولكنه كان يعلو جميع الهيئات في الدولة . سواء الهيئة الحاكمة من طبقة العبيد - القولار - أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينها بحكم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . ويلتقى بها في شخص السلطان الذى هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذى تدور حوله كل الوحدات المتنوعة في الحكومة العثمانية ، وهي حكومة ذات حكم مطلق . وفي رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقدرة وخبرة .

(١) كان هذا الجزاء لايسرى على قضاة السكر الأعضاء في الديوان بحكم أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من طبقة القولار - عبيد السلطان - وكان الأخير يملك إعدامهم بدون مسائلة .

ويقع الاختيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر في عدة مراحل . وأعطت الدولة كلا منهم مسئوليات ضخمة ومنحتهم سلطات واسعة كي ينفذوا بدون إبطاء ، في النطاق المحدد لكل منهم ، القرارات التي تصدر عن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يسير ويدعم بطريقة بارعة وممتازة النظام العثماني العام للإدارة المركزية في الدولة . وبفضل الديوان كان في استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رفايته على كل جزء في الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من الذكاء والمقدرة ، وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هي مزيج من المشاعر التي تتمثل في العرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مزيد من الترقيات وإخوف من بطشه . وفضلا عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة تدرّب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم ، كما كان مجالا لتنمية معلوماتهم وزيادة تجاربهم . وكلما كانت حصيلتهم من هذه وتلك كبيرة أتاحت لهم عديد الفرص للترقية إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم اتصالا مباشراً ومستمرّاً أربع مرات في الأسبوع . والسلطان على مقربة منهم يتابع نواحي نشاطهم . وفي يد الإثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيةهم . وفوق هذا كله ، لم يكن الديوان مجرداً من أى نفوذ على التشريع . فالقوانين كانت تصدر بإسم السلطان وبعد موافقته النهائية عليها . ولكن المادة القانونية التي تضمنتها هذه القوانين قد اشترك في إعدادها أعضاء الديوان ، وهم الذين قاموا بمعاونة مساعديهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسباب وغيرها كان الديوان ، برئاسة الصدر الأعظم ، وهو يراقب الإدارة ويفصل في القضايا الهامة ويترك بصماته في مجال التشريع ، يحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن أجله ولمصلحته (١) .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية التي بسطناها لباحثين أحدهما نلسون والآخر أمريكي إلى أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية

والإدارية في الدولة قد تركزت في يد السلطان ، فإن إنشاء الديوان الهمايوني أو الإمبراطوري لايعنى أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها ، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية في المسائل التي تعرض عليه أو في القرارات التي تصدر عنه ، لأن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً *Sine quanon* لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتصرتهم مهمتهم على بحث المسائل أولاً ، ثم تحضير القرارات ثانياً ، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع الدولة ، وتزاحم المشكلات بشتى أنواعها، والتوسع في إلتناء مناصب جديدة وعدد من أجهزة الحكم، سواء في العاصمة أو في الأقاليم التي فتحت، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية وازدياد عدد الموظفين .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٣)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

الهيئة الإسلامية والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

كانت الدولة العثمانية تضم بين رعاياها فريقين من المسلمين . ويطلق على الفريق الأول القولار . كانوا في نشأتهم الأولى مسيحيين انتزعتهم الدولة وهم في سن غضة من آباؤهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الإسلام، وهيأت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً، وجعلت منهم أدوات للحرب والحكم ، ولكنهم كانوا عبيداً للسلطان ، ومن ثم أصبح وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي : من حيث لأمر الواقع مسلمين عبيداً. ويطلق على الفريق الثاني ، وهو خارج عن نطاق الفريق الأول ، الهيئة الإسلامية . وكانت هذه الهيئة تضم جميع رعايا الدولة المسلمين الأحرار بما انضم إليهم من مسيحيين اعتنقوا الإسلام طوعاً فأصبحوا بدورهم مسلمين أحرارا . وكان هؤلاء الأخيرون قلة عددية نسبياً، ولكنهم كانوا مع أقرانهم أفراد الطائفة الأولى الذين جاءوا من عائلات إسلامية يشكلون نسبة عددية كبيرة جداً بالنسبة لفريق القولار . وبذلك كان رعايا الدولة المسلمون طائفتين :

١ - المسلمين العبيد ويطلق عليهم القولار .

٢ - المسلمين الأحرار ويطلق عليهم الهيئة الإسلامية .

وأفراد الهيئة الإسلامية متساوون جميعاً ، وهيأت لهم الدولة مبدأ تكافؤ الفرص ، بمعنى أن الذين حصلوا منهم على قسط وافر من التعليم في علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات كانوا يشغلون شتى المناصب في سلك القضاء والإفتاء والتدريس وما إلى ذلك . وكانوا يتدرجون

في هذه المناصب حتى يصلوا إلى أعلاها ، وكان من بينها منصب المفتى الذي أطلق على شاغله فيما بعد شيخ الإسلام . وكانت أمنية كل والد ينتمي إلى الهيئة الإسلامية أن يرى ابنه يتدرج في سلك تلك المناصب حتى يصل إلى أعلى درجاتها . أما أفراد الهيئة الإسلامية الذين لم يصلوا في تعليمهم إلى نهاية الشوط ، فكانوا يشغلون المناصب الصغرى في القطاع الديني وفي وظائفه الإدارية التي تتفق مع حجم التعليم الذي حصلوا عليه . فكان الباب مفتوحاً أمام الجميع ولا يشترط سوى معيار الكفاية والذي يتمثل في حجم حصيلته من العلم . فالفكرة قامت على أساس ديمقراطي : المساواة وتكافؤ الفرص . وقد أطلق على أفراد الهيئة الإسلامية الذين تلقوا تعليماً دينياً أياً كان حجمه وشغلوا مناصب القطاع الديني : الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو The Religious Islamic Ruling Institution كما اصطلاح على تسميتهم المؤرخون والباحثون . وهذه الهيئة هي موضوع دراستنا في هذا الفصل .

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمنظمات المسيحية :

وتختلف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في الدولة العثمانية في طبيعتها وتكوينها عن جميع المنظمات الدينية المسيحية في أوروبا . فالدين الإسلامي لا يعترف بوجود طبقة دينية. مما يطلق عليها في الغرب الكهنوت وما إلى ذلك من مسميات . والإسلام يتميز بالبساطة ويتعد عن التعقيدات ، ولا يقيم وسيطاً بين العبد وخالقه . ويقول سبحانه وتعالى « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١) . وقد اختلط الأمر على البعض فأصبحوا يتكلمون عن وجود طبقة في الإسلام أطلقوا عليها اسم طبقة رجال الدين. والحق أنه لا توجد مثل هذه الطبقة في الإسلام ، بل يوجد أفراد تفقهوا في الدين أى تثقفوا بثقافة دينية عميقة واسعة سواء في علوم أصول الدين أو علوم الشريعة وما يتصل بها . والاسم الصحيح لهم هو علماء الدين ، ولكنهم لا يشكلون طبقة خاصة بهم . والإسلام لا يعترف بالأرستقراطية الدينية ، أو الرهبانية ، أو الطبقة الدينية

(١) سورة النورة ، آية رقم ١٨٦ .

مثل الكرادلة ، والأساقفة ، والقسيسين ومن إليهم . وفي ظل هذه النظرة الإسلامية السمحة يستطيع أى مسلم بالغ ملم بأصول الدين أن يؤذن للصلاة ، أو يلقي خطب الجمعة والعيد ، أو يؤم المصلين ، أو يصلى على ميت أو غير ذلك من الأعمال التى تتصل بإقامة الشعائر الدينية . ولا يشترط الإسلام مكاناً معيناً لأداء مثل هذه الشعائر ، ولا يشترط شخصاً معيناً يقوم بها بحيث يكون أداؤها باطلاً إذا قام بها شخص عادى .

تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

إذا كان السلطان هو رئيس الهيئة الإسلامية بمداوليها العام والخاص ، فإن شيخ الإسلام كان الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمهيمن عليها . وكانت هذه الهيئة تضم أربعة عناصر :

١ - شيخ الإسلام .

٢ - القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم .

٣ - المفتون .

٤ - أساتذة الشريعة وأصول الدين .

٥ - هيئات التدريس فى المدارس الإسلامية .

٦ - ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإداريون فى القطاع الدينى . وكان مستواهم العلمى لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً .

شيخ الإسلام

كان يطلق على شيخ الإسلام أول الأمر مفتى العاصمة، وأحياناً المفتى الأكبر . وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية . كان الصدر الأعظم والوزراء ، وفى بعض الأحيان السلطان نفسه ، يلتصقون رأيه فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصفة نهائية . ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكان مجال

إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التي يرى القاضى الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم . وهو إجراء كان يستهدف الإطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة وتوفير الأدلة على ثبوت التهمة . وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع سياسى ، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة . كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية . وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة يعلنون أن الحرب المقدمة عليها الدولة هي حرب دينية ، وأن الجماهير يجب أن تقف صفاً واحداً تؤيد قلباً وقالباً الجيش وهو يخوض الحرب ، ومنها أيضاً الفتاوى التي تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التي تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر . وكانت الحالة الأخيرة هي قمة الاختصاصات التي كان يباشرها شيخ الإسلام . وقد ذكرنا من قبل أمثلة لبعض أنواع هذه الفتاوى وسنشير إلى أمثلة لاختصاصاته الأخيرة سواء في مجال السياسة العليا أو في عزل للسلطين بعد أن نشرح الملابس التي آحاطت بتغيير لقبه من المفتى إلى شيخ الإسلام ، ثم مركزه في البروتوكول العثماني .

إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى العاصمة :

وتقديرأ للمسئوليات الجسم التي كان يضطلع بها مفتى العاصمة أو المفتى الأكبر، رأت الدولة أن نميزه عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الإمبراطورية ، وكان عددهم يصل إلى قرابة مائتى مفتياً ، فأطلقت على مفتى العاصمة لقب « شيخ الإسلام » فأصبح هو الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *de facto* وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية *de juri*

وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذي

أطلق فيه على مفتى العاصمة هذا اللقب . فيرى أحدهم وهو قانوني نمساوي يسمى هايدبورن (١) Heidborn أن السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) هو أول من أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى أدرنة التي كانت عاصمة الدولة وقتذاك، وأن خلفه السلطان محمد الثاني أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية بعد فتحها وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة ، وأنه أطلق عليه لقباً جديداً هو رئيس العلماء (٢) . ويرى فريق من المؤرخين على رأسهم دوسون D'Ohosson الفرنسي (٣) وليبير Lybyer الأمريكي (٤) أن السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١) هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى القسطنطينية بعد أن فتحها . ويرى فريق ثالث منهم جب وبوون Gibb and Bowen الإنجليزيان (٥) أن السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) هو صاحب التسمية ، وأخيراً ذهب أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد جميل بيهم ، إلى أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول قد حدث في عصر متأخر يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . ويضيف إلى ذلك قوله إن السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول . وكان ذلك في سنة ١٧٤١ م الموافقة لسنة ١١٥٤ هـ (٦) .

Heidborn, A. ; op. cit., p. 215.

(١)

(٢) في قانون نامة الذي صدر على عهد السلطان محمد الثاني أمير إلى شيخ الإسلام بأنه رئيس العلماء .

(٣) D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., t. IV, p. 500.

(٤) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 208.

(٥) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٥)

part II, p. 84.

(٦) أنظر كتابه :

أ- فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها .

بيروت ، فبراير (شباط) ١٩٢٥ ، ص ٢٩٨ .

وهو رأى ضعيف لا تؤيده الشواهد التاريخية ، وكذلك الرأى القائل بأن السلطان مراد الثانى هو أول من أطلق ذلك اللقب على مفتى العاصمة . بقى بعد ذلك الرأى الآخر المنسوب إلى السلطان محمد الثانى ، وإلى السلطان سليمان المشرع . والرأى الأذى إلى الحقيقة منهما هو أن السلطان محمد الثانى هو الذى استحدث لقب شيخ الإسلام فى تاريخ الدولة العثمانية ، فإنه بعد أن فتح هذا السلطان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وبعد أن نقل عاصمة دولته إليها ، وبعد أن حول كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية إلى مسجد ، وبعد أن أطلق على العاصمة الجديدة اسماً إسلامياً عثمانياً هو إستانبول أى دار الإسلام ، نقول إنه بعد أن أتم هذه الإنجازات أطلق لقب شيخ الإسلام على المفتى فى دار الإسلام متمشياً مع الجو الدينى والسياسى العابق للدولة وهى تعيش أجمل أيامها وفى قمة أفراحها بفتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية . أما القول بأن هذا السلطان قد أطلق لقب « رئيس العلماء » على المفتى فهو من قبيل التزيد ، لأن شيخ الإسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة العثمانية ، فإذا أضيف إلى منصبه ذى الاختصاصات العديدة المتشعبة والى يتصل بعضها بالسياسة العليا للدولة — هذا اللقب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الإسلام فإنه يعتبر رئيساً للعلماء ، ويشملون القضاة ورجال الإفتاء وأساتذة الشريعة وأصول الدين ومن إليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فهو يجتهد على بكرة أبيهم جيداً . أما السلطان سليمان المشرع فقد ازداد على عهده مركز شيخ الإسلام تألقاً (١) ، وارتفع مكاناً علياً حتى غدا من الناحية الافتراضية أو التقديرية نداءً للصدر الأعظم (٢) . وكان الجانب

ب - العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ ،
حاشية رقم ١ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة شيخ الإسلام .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part

II, p. 86.

الحضارى المتعدد الألوان والصور من أبرز الجوانب فى شخصية السلطان سليمان إلى جانب الإنجازات الحربية التى تمت إبان حكمه الطويل والذى استطال زهاء ستة وأربعين عاماً . وستظل التشريعات التى تم وضعها من مفاخر حكمه ومن مفاخر الدولة فى تاريخها الحضارى . ومن هنا كان دور شيخ الإسلام على عهد سليمان دوراً ببناء خلافاً . ويلاحظ أن الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطاً ملحوظاً وغير عادى فى وضع التشريعات العثمانية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه . وكان لشيخ الإسلام دور رئيسى فى وضع وصياغة هذه التشريعات ، يدل على ذلك أن جزءاً كبيراً منها كان عبارة عن مجموعات فتاوى فى صورة أسئلة وجهتها السلطات الحاكمة فى الدولة وإجابات شيخ الإسلام عليها . ومن المحتمل أن يكون اللبس الذى حدث فى تحديد اسم السلطان الذى أمر بتغيير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام إنما مرده إلى الأضواء التى سلطت على شيخ الإسلام إبان حكم السلطان سليمان المشرع وكثرة ما كتب عن إنجازاته التشريعية مما جعل البعض يعتقدون أن سليماناً هو الذى أطلق اللقب على مفتى العاصمة ، مع أن جميع القرائن تدل على أن السلطان محمد الثانى هو الذى أحدث هذا التغيير بعد أن فتح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام .

ويلاحظ أن فريقاً من الباحثين ، وبعضهم من الأوروبيين والأمريكانيين لا يلتزمون بالفاصل التاريخى الخاص بهذا اللقب بين المفتى وشيخ الإسلام ، ويخلطون بين اللقبين ، فيذكرون فى بحوثهم كلمة المفتى فى الوقت الذى غدا لقبه الرسمى شيخ الإسلام . وكان يحدث هذا الخلط عادة عند كلامهم عن الفتاوى التى كان يستصدرها السلاطين من شيخ الإسلام ، فكانوا يربطون بين كلمتى المفتى والفتوى لتشابه كل منهما لغوياً ولفظياً .

= وقد تأكدت المساراة فى المرتبة بين شيخ الإسلام والصدر الأعظم فى المادة ٢٧ من الدستور الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٨٧٦ .

سببان لإطلاق لقب شيخ الإسلام على المفتي :

تتبق مسألة لها أهميتها لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بموضوع لقب شيخ الإسلام ، وهي خاصة بمعرفة الأسباب التي حملت الدولة العثمانية على إحداث هذا التغيير . لقد قبلت في هذا الصدد عدة أسباب . كان أولها رغبة الدولة في إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفتي العاصمة في مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية ، نذكر منهم على سبيل المثال البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني وحاخام اليهود . كان شيخ الإسلام وهؤلاء الرؤساء يباشرون اختصاصاتهم الدينية من مدينة واحدة هي إستانبول . وكان السلاطين بوجه عام حريصين على احترام مشاعر رعايا الدولة غير المسلمين . ولم تكد تمر ثلاثة أيام على فتح القسطنطينية حتى أمر السلطان محمد الفاتح باتخاذ الإجراءات الفورية لانتخاب بطريرك للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية يعتلى كرسي البطريركية الشاغر . وأمر أيضاً بأن تتبع في إجراءات تنصيبه نفس المراسم التي كانت تنفذ أيام أباطرة الدولة البيزنطية في هذه المناسبة مع تعديل طفيف هو استبعاد الإجراءات التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية . وأقام له السلطان مأدبة فخمة وألقى كلمة أكد فيها أن البطريرك سيتمتع بكافة الحقوق والامتيازات التي كان يمارسها أسلافه . وسار البطريرك في موكب رائع ممتطياً صهوة أحد خيول السلطان المطهمة يحيط به كبار الموظفين العثمانيين حتى بلغ دار البطريركية .

ومضى السلطان محمد الثاني في سياسة التسامح الديني ، فاستدعى إلى إستانبول أسقف يروسه الأرمني . وأقامه بطريركاً للأرمن ، ومنحه نفس الحقوق والاختصاصات التي خولها للبطريرك اليوناني ، كما أذن هذا السلطان لليهود في الإقامة في إستانبول وعين حاخاماً لهم أطلق عليه «حاخام باشي» ومنحه سلطات على رعايا الدولة اليهود مماثلة للسلطات الممنوحة لكل من البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني .

فإذا كان السلطان محمد الثاني قد أبقى بعد فتح القسطنطينية على النفوذ

الديني لرؤساء الطوائف غير الإسلامية وعلى المظاهر التي كانت تحيط بهم من يمين وشمال داخل النطاق المذهبي ، فكان من الطبيعي أن يحرص هذا السلطان في ذات الوقت على ألا تكون شخصية المفتي في العاصمة ، وهو أكبر موظف ديني مسلم في الدولة ، بأقل في مظهرها ومخبرها ، وفي ظاهرها وباطنها ، من شخصية أولئك الرؤساء جميعاً وبخاصة شخصية بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية . وكانت هذه الكنيسة برياستها وأتباعها الكثيفي العدد مركز قوة في الدولة ، ولكنها كانت تحت أعين رجال الحكومة ما بقيت الدولة العثمانية قوية ، وفي استطاعتها سحق أية ثورة أو حركة تمرد قد يفكر أتباع هذه الكنيسة في القيام بها . ولاننسى أن الدولة العثمانية كانت دولة تيوقراطية un état théocratique أى دينية ، فجاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تنسم بالطبع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائص هذه الدولة . وقد سبق أن تعرضنا في شيء من التفصيل لهذه الخصيصية في هذه الدراسة (١) . فإضفاء لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة كان في لحمته وسداه متمشياً مع السياسة العليا للدولة وتطبيقاً عملياً لتلك الخصيصية الدينية القوية من خصائص الدولة .

أما السبب الثاني الذي حمل الدولة على تغيير لقب المفتي إلى شيخ الإسلام فيرجع إلى رغبتها في إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية في تلكما الهيئتين الحاكمتين الرئيسيتين في الدولة وهما طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فإذا كان الصدر الأعظم باختصاصاته العديدة وسلطاته الواسعة يعد أكبر موظف في طبقة القولار الحاكمة ، فقد رأت الدولة أن تطلق على شخصية دينية إسلامية لقباً دينياً وأدبياً يجعل هذه الشخصية نداءً للصدر الأعظم ، وأضفت عليه الكثير من الامتيازات سواء في حياته الخاصة أو في حياته العامة، وسواء في كثرة اختصاصاته وتعددتها، أو في عدد الإدارات الفنية التابعة لمكتبه، وفي حشد كثير العدد من القضاة ومن إليهم من كبار العلماء الذين كانوا يعملون في شتى الأجهزة التابعة له .

ويلاحظ أنه لم يكن عضواً في الديوان الإمبراطوري الذي يرأسه الصدر الأعظم . والحكمة في عدم تقرير عضويته في هذا الديوان ترجع إلى حرص الدولة على ألا يكون شيخ الإسلام ، وهو أكبر شخصية دينية إسلامية في الدولة كما ذكرنا ، مرعوساً للصدر الأعظم الذي ينتمي إلى طبقة القولاخ الحاكمة . واكتفت الدولة بأن تكون الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ممثلة في الديوان بعناصر أخرى من هذه الهيئة أقل درجة من شيخ الإسلام .

ويرى البعض أن السلطان محمد الثاني كان متأثراً بوجود الخلفاء العباسيين في القاهرة بجوار سلاطين دولتي المماليك البحرية والشرابية منذ أن نجح الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وكان هؤلاء السلاطين يستندون إلى الخلفاء في تأييد سلطتهم . فحذا السلطان محمد الثاني حذواً مماثلاً إلى حد ما ، ومن ثم عمل على أن تكون بجانبه شخصية دينية إسلامية تحمل لقباً دينياً براقاً له وزنه وتقديره في نظر الجماهير . ويستطيع أن يستند إلى شيخ الإسلام في دعم مركزه وتثبيت عرشه وتأييد تصرفاته السياسية والحربية والعائلية وغيرها . ومن المتعذر - إن لم يكن في حكم الاستحالة - الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، نذكر منها :

أولاً : إن العرش في دولة المماليك الشراكية لم يكن وراثياً في معظم الأحوال . وإنما كان يتربع عليه الأمير الأعز نفراً والأكثر أنصاراً والأوفر ثراءً ، ومدى ما كان يتصف به من صفات المكر والخديعة والغدر والنفاق والمقدرة على تدبير المؤامرات إلى جانب الكفاية الحربية والمهارة الدبلوماسية . فظل عرش تلك الدولة مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك (١) ، بينما كان عرش الدولة العثمانية وراثياً ، كان يتقلده أفراد أسرة واحدة عبر الأعصار

(١) كان مبدأ وراثة العرش محترماً في حالات كثيرة أيام دولة المماليك البحرية ولا سيما في أسرة قلاوون .

النظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الشراكية ، مرجع سبق

والأدهار . ولم يكن يشترط فيمن يتولاه سوى شرط واحد هو أن يكون من أصلاّب الأسرة ، أى من أولاد الذكور ولا يكون من أولاد البنات . فالدولة العثمانية كانت تتميز - فيما كانت تتميز به - بالاستقرار : فلا يجيء غريب أو طارئ أو من كان في مرتع شبابه عبداً مملوكاً ثم يتولى العرش .

ثانياً : كان السلطان محمد الثاني يعلم علماً يقينياً الحقائق المتصلة بالخلافة العباسية في القاهرة ، ومن بينها أنها كانت خلافة صورية تتمثل في أن يصدر الخليفة تفويضاً يسمى « التقليد » لكل سلطان مملوكى يتربع على عرش دولة المماليك حتى يكون لهذا السلطان حق شرعى في الحكم شعوراً من سلاطين دولتي المماليك - البحرية والشراكية - بخرج مركزهم لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اغتصبوا السلطة في مصر اغتصاباً مزرياً من حكامها السابقين ، فأرادوا أن يضيفوا على حكمهم شرعية وعلى أنفسهم مهابة وعلى مركزهم دعامة يسندون بها عرشهم . وإذا كان اسم الخليفة يذكر قبل اسم السلطان في خطب صلاة الجمعة والعيدين ، فقد كان هذا السبق أيضاً مسألة شكلية ، لأن الخليفة كان محجوراً عليه . ولم يكن يغادر داره في أوقات السلم إلا مرة واحدة في أول كل شهر هجرى وفي أول يوم من أيام العيدين إلى القلعة لتهنئة السلطان . فكان عدد المرات التي يخرج فيها من داره ثلاث عشرة مرة في السنة (١) ، ولم يكن في مكنته أى شخص أن يتصل بالخليفة إلا بإذن من السلطان (٢) . أما في زمن الحرب فكان الخليفة يصحب الجيش من قبيل التبرك . وبذلك تلاشت شخصية الخليفة أمام السلطان المملوكى موثلاً السلطة الفعلية في الدولة (٣) . وعلى حد قول المقرئى كانت الخلافة العباسية

(١) من المعروف أن غرة شهر شوال هو أول أيام عيد الفطر فكان يؤذن للخليفة في الخروج في هذا اليوم الذى تجتمع فيه هاتان المناسبتان لتهنئة السلطان ، وبذلك يصبح عدد المرات ثلاث عشرة مرة .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى الخ ، مرجع سبق ذكره ،

ص ص ٣٤٢-٣٤٧

(٣) حدث استثناء لهذا المبدأ العام الذى التزم به السلاطين المماليك تجاه الخلفاء العباسيين . فعلى عهد دولة المماليك الشراكية تنافس على العرش أميران ، هما : نوروز ، وشيخ . ورأى الأمير =

في القاهرة « ليس لها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (١) . فلم يكن من المعقول أن يستهوى السلطان محمد الثاني مثل هذا المركز الهابط الذي كان يشغله الخليفة العباسي في القاهرة ، فيعمل على إنشاء منصب ديني مقارب له في إستانبول . وقد ذكرنا من قبل أن السلاطين العثمانيين قد اهتموا بإضافة لقب « حامي الحرمين الشريفين » إلى ألقابهم العديدة عقب دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . ولكنهم لم يتخذوا وقتذاك لقب خليفة ، لأنهم كانوا يدركون أن هذا اللقب قد هوى بصاحبه في القاهرة إلى الخضيض . ولكنهم بعثوا لقب خليفة في القرن الثامن عشر لأسباب سياسية . أما ما ذكره بعض المؤرخين من أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلتمسون تفويضاً من الخليفة العباسي في القاهرة عند اعتلائهم العرش (٢) ، فأمر مشكوك فيه ، لأن الاستعلاء الذي كان من أبرز صفات السلاطين العثمانيين كان يمنهم من أن يستمدوا سلطتهم من قوة خارجية يعلمون جيداً مبلغ هوانها في نظر السلاطين المماليك والشعوب الإسلامية في مصر والشام وغيرها . فالتماس التفويض كان أمراً يتنافى مع طبائع السلاطين العثمانيين ومع أخلاقهم .

باب مشيخت ، شيخ الإسلام قايبسى :

كان يطلق أحياناً على منصب شيخ الإسلام والمكاتب والأجهزة الملحقة به « باب مشيخت » أي باب المشيخة ، كما كان يطلق أحياناً أخرى مصطلح

= شيخ في مخطئه للقضاء على منافسه أن يضع مؤقتاً الخليفة العباسي ، المستعين ، على العرش (سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م) . ولما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ عزل الخليفة من العرش بعد أقل من ستة شهور بنفس السهولة التي وضعه عليه ، ثم عزله من الخلافة أيضاً وسجنه في القلعة .

انظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة . مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣-٦٥ .

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الطبعة الأهلية . أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٩٠٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٢) السيوطي جلال الدين : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

آخر هو «شيخ الإسلام قاييسي» أي باب شيخ الإسلام (١) ، تأسيساً على أن لفظة «باب» جرى العرف على إطلاقها على قصر أو مقر أي حاكم أو بلاطه أو حكومته .

ولما قضى السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) على نظام الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) خصص الدار التي كان يشغلها قائد فيالق الإنكشارية في إستانبول لشيخ الإسلام، فأصبحت مقرآله يمارس فيها اختصاصاته. وكانت هذه الدار تقع على مقربة من مسجد السلمانية .

باب فتوى ، فتوى خانة :

أنشأ السلطان سليمان المشرع مكتباً فنياً ألحقه بشيخ الإسلام وأطلق عليه المصطلح التاريخي «باب فتوى» أو «فتوى خانة» بمعنى دار الإفتاء. وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء يبحثون بصفة تمهيدية المسائل الشرعية التي يطلب إلى شيخ الإسلام إصدار فتاوى بشأنها. وكان يرأس دار الإفتاء أحد كبار العلماء المرموقين ويطلق عليه «فتوى أميني» أي أمين الإفتاء أو أمين الفتاوى (٢) .

وإذا أرادت الحكومة المركزية الوقوف على رأى شيخ الإسلام في مسألة معينة، وطلبت منه إصدار فتوى بشأنها ، كان عليها أن تتقدم بطلب رسمي إليه . ولكن كان يسبق تقديم هذا الطلب اتصالات غير رسمية بين الوزراء المختصين من ناحية ، وبين أمين الإفتاء من ناحية أخرى ، فيسحها بصفة تمهيدية أو يحيلها إلى أحد معاونيه في «الفتوى خانة» .

التلخيصجي :

وقد استدعت كثرة عدد الفتاوى التي كانت تطلب من شيخ الإسلام تعيين موظف كان يسمى «تلخيصجي» - وهذا المصطلح مأخوذ من

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : باب مشيخت .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit., vol.I. Part II, p. 86.

اللفظة العربية لخص والاسم منها - تلخيص - فيقوم بإعداد موجز للعناصر التي تتألف منها المسألة المراد استصدار فتوى بشأنها (١). وكان من بين موظفي مكتب شيخ الإسلام موظف يختص بإدارة المؤسسات الخيرية التي كان يعهد إليه بالإشراف عليها ، وكان هذا الموظف يسمى « كخيا » . ومن اختصاصه أيضاً الإشراف على الشؤون الخاصة بشيخ الإسلام ، فكان يساعده في هذا الصدد ، شأنه شأن باشوات الدولة . وكان هؤلاء الموظفون الملحقون بمكتب شيخ الإسلام والذين يعتبرون مساعدين له يؤخرون من رجال القضاء من فئة « مولا » أو من رجال الإفتاء .

مقارنة بين مركز كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام :

كان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام هما الموظفين الوحيدين في الدولة اللذين يتسلمان فرمان تعيين كل منهما في منصبه من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة في الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنباً إلى جنب ، وإن قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع في استقباله وتوديعه مراسم التكريم والتشريف التي تتبع في استقبال وتوديع الآخر . فكان كل منهما يعتبر نداءً للآخر ، كما سبق أن ذكرنا .

وإذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكثر ، فإن شيخ الإسلام كان يظفر بتقدير أكبر . وكان من أسباب هذا التقدير العميق أن شيخ الإسلام كان يمارس سلطاته في مجالات دينية لها وزنها وتقديرها في نظر الجميع ، فضلاً عن اختصاصات لا تسمو إليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالاً مباشراً بالسياسة العليا للدولة ، فله وحده ودون سواه ، الحق في إصدار فتاوى تجيز الحرب التي تخوضها الدولة ، أو فتاوى

(١) يلاحظ أنه كان بين حاشية الصدر الأعظم ضابطان يحمل كل منهما نفس اللقب وهو تلخيصجي ، يقومان بتسليم رئيس الحصيان السود - وهو أغا البنات المسمى فيزير أغا - المذكرات التي كان الصدر الأعظم يرسلها إلى السلطان . وكان رئيس الحصيان السود ، في معظم الأوقات . هو الوحيد الذي يمكنه أن يرفع هذه المذكرات إلى السلطان .

بتقرير الصلح ، أو إبرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم . كما لم يكن لشيخ الإسلام شأن مباشر بالخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية للسلطان . واعتاد السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) أن يقف لاستقبال شيخ الإسلام ويمنحه مقعداً أعلى من مقعده (١).

وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الإسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتي تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذي يقوم بزيارات عديدة لشيخ الإسلام في مقر منصبه على فترات متقاربة . وكانت هذه الزيارات لكثرتها تم في بعض الأحيان بطريقة غير رسمية لتجنب إقامة المراسم التي تتبع عند زيارته لشيخ الإسلام .

مركز شيخ الإسلام في البروتوكول العثماني :

حدد السلطان سليمان المشرع تحديداً نهائياً وقاطعاً المركز الوظيفي والقانوني لشيخ الإسلام ، فجعله رئيس هيئة العلماء وأكبر شخصية عاملة في الهيئة الإسلامية . كما أضحى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ . كان شيخ الإسلام يتقدم على جميع موظفي الدولة . ثم غدا يتمتع في البروتوكول العثماني بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أي رئيس الوزراء وعن الوزراء . فعند ذهاب شيخ الإسلام لمقابلة السلطان كان يخف هذا لاستقباله متقدماً سبع خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح لشيخ الإسلام بتقبيل كتف السلطان ، بينما كان لايسمح للصدر الأعظم إلا بلثم ذيل ثوبه (٢).

وقد قيل في مستهل حكم السلطان سليمان المشرع إن الشعب كان يظهر لشيخ الإسلام احتراماً لم يظهره قط لرجل آخر في الدولة . وقد بنى الشعب تقديره العميق له تأسيساً على أنه يمثل الإسلام والشريعة الإسلامية، وأنه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 209.

(١)

(٢) محمد جميل بينم : العرب والترك الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٤-١٢٥.

المفسر لها . وكان السلطان لا يستطيع المساس بها من قريب أو من بعيد ، وإلا تعرض للعزل والقتل ، فالشريعة فوق السلطان نفسه . وكان السلطان هو الذى يتولى اختيار شيخ الإسلام ، ويصدر فرماناً أى مرسوماً سلطانياً بتعيينه فى هذا المنصب . وكان السلطان يختاره أول الأمر من بين المفتين الذين يعملون فى أنحاء الدولة . ولما تغير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام كان السلطان يختاره من بين كبار رجال القضاء .

وكانت الدولة تخصص أحد كبار ضباط القصر السلطاني لمساعدة شيخ الإسلام فى ارتداء ملابس التشرىفة . ويطلق على هذا الضابط اسم « الخالص أوطه باشى » وكان فى أول الأمر وعلى عهد سلاطين الفترة الأولى رجلاً كامل الرجولة ، ثم رأت الدولة - بعد انتهاء حكم السلطان سليمان المشرع - أن يكون هذا الضابط خصياً ومن طائفة الخصبان البيض (١) .

فتاوى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية :

ومن الأمثلة على الفتاوى التى كان يصدرها شيخ الإسلام تجيز فيها للدولة أن تنازل عن بعض أقاليم خاضعة لها ، نذكر الفتوى التى صدرت عنه فى سنة ١٨٢٩ . كانت الدولة قد اضطرت إلى قبول الصلح عقب الحرب الخاسرة التى خاضتها ضد روسيا فى أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ ، وعقدت معاهدة أدرنة فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، واعترفت الدولة فى هذه المعاهدة باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً ، وباستقلال ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا حالياً) فى إدارتها تحت حماية روسيا . ورأى السلطان محمود الثانى أن يتجه إلى شيخ الإسلام ، وحصل منه على فتوى تجيز هذا التصرف . وبناء على هذه الفتوى أصدر السلطان تصديقاً لـ La Ratification على معاهدة أدرنة .

فتوى توجب محاربة محمد على وفتوى تجيز العفو عنه :

وعند ما اندلعت حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر استصدر السلطان من شيخ الإسلام فتوى تجيز

له محاربة محمد على . ولما توقفت العمليات الحربية وأبرمت اتفاقية كوتاهية في اليوم السادس من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٣ استصدر ذلك السلطان من شيخ الإسلام فتوى أخرى تجيز العدول عن محاربة محمد على . ونذكر النص الحرفي للسطر الأول من الفتوى ، وهو في صورة سؤال موجه إلى شيخ الإسلام « إذا كانت طائفة من المسلمين جمعت العساكر وهجمت على طائفة أخرى أيضاً من المسلمين . ولكنها - بعد ذلك - عرضت الطاعة إلى إمام المسلمين وخليفة الأرضين ، خاد الله ملكه إلى يوم الدين ، ورجعت عن تعدياتها ، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها ، وترك قتالها ؟ » (١) .

وصدرت الفتوى تقرر أن قبول طاعتهم والكف عن قتالهم أمر مشروع .

فتاوى عزل السلاطين :

كان أقوى مظهر يوضح مدى سلطة ونفوذ شيخ الإسلام أنه كان له وحده ودون سواه الحق في إصدار فتوى بعزل السلطان القائم بالحكم تأسيساً على أنه انحرف عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً سليماً ، أو استناداً إلى أنه مصاب بمرض عقلي لا يرجى شفاؤه ، أو غير ذلك من ذرائع أو أسباب . وكانت فتاوى العزل تختلف اختلافاً جذرياً عن الفتاوى التي تتناول مسائل السياسة أو الحرب ، فبينما الفتاوى الأخيرة يستصدرها السلطان القائم بالحكم لأنه صاحب المصلحة الأولى في صدورها ، كانت فتاوى العزل تستصدرها إحدى جهتين : أحد المنافسين للسلطان على العرش من أعضاء الأسرة السلطانية ، أو من العسكريين أو من أحد مراكز القوى السياسية في الدولة . كما كان هناك فارق جوهري آخر هو أن فتاوى العزل لا تنتهي بعزل السلطان الحاكم ، ولكن كان لها نتائج أخرى ترتب عليها ، هي قتل السلطان المعزول أو اعتقاله في أحد القصور مع حريمه وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجي بحيث يصبح السلطان مع أسرته من أموات الأحياء حتى يدرك الموت السلطان المعزول ويتفرق ذووه .

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

وسنمر مروراً سريعاً على أربع فتاوى صدرت في أوقات مختلفة، ونشرح الملاحظات التي أحاطت بصدور كل فتوى. كانت الفتوى الأولى قد صدرت بعزل السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) لأنه أعاد تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية ، فصدرت الفتوى تقول « إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » . وتم عزله وقتله (١) على يد الإنكشارية الذين وقفوا بدافع المصلحة الشخصية في وجه كل محاولة لإصلاح الجيش وتطوير نظامه وأساحته . و صدرت الفتوى الثانية في ٢٩ من مايو - آيار - ١٨٧٦ بوجوب عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) تأسيساً على إسرافه والتجائه إلى عقد قروض أجنبية من البيوت المالية في باريس ولندن ، وعجزه عن تصريف شئون الدولة . وأيد العسكريون هذه الفتوى وطالبوا بتنفيذها . وكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً في اليوم التالي لصدورها (٢)، وعين مكانه ابن أخيه مراد باسم السلطان مراد الخامس . ولم يكن هذا السلطان أوفو خطأً من سابقه . فقد صحته عزيمة مدحت باشا وزملائه على عزله ، واستصدروا فتوى من شيخ الإسلام توجب إعفائه من الحكم . ولم يعدوا سبباً يستندون إليه في استصدار الفتوى . وكان هذا السبب هو اختلال قواه العقلية. وتدل الملاحظات السياسية التي أحاطت برجال الحكم في ذلك الوقت على أن هذا السبب كان مختلفاً . وتم عزل السلطان العثماني بعد حكم قصير لم يتجاوز ثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٣). وعين أخوه الأصغر عبد الحميد في ٣١ من أغسطس -

(١) محمد جميل بهيم : العرب والترك في الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧
(٢) ولم تمض أيام ذات عدد على عزل السلطان عبد العزيز حتى قضى نحبه . واختلفت الآراء حول وفاته ، فمن قائل إنه مات منتحراً ، ومن قائل إنه قتل غيلة . ويقول ميلر Miller المؤرخ الإنجليزي إنه تحدث مع الطبيب ديكسون Dickson وهو الذي فحص جثمان السلطان ، وعلم منه أن السلطان عبد العزيز مات منتحراً بعد أن قطع شرايينه بمقص . ومع ذلك فبعد خمس سنوات من وفاته وجهت التهمة إلى مدحت باشا وبعض رفاقه بقتل هذا السلطان ، وقدموا محاكمة صورية وأدينوا وأعدموا .
انظر :

Miller W. ; op. cit., p. 368

(٣) حددت إقامة السلطان مراد الخامس في أحد القصور المطلية على البوسفور وظل معتقلاً فيه زهاء تسعة وعشرين عاماً حتى جاز إلى ربه في سنة ١٩٠٤ وظلت زوجاته معتقلات في هذا القصر حتى قام انقلاب سنة ١٩٠٨ فأذن رجال الحكم الجديد لحريمه بمغادرتهم القصر بعد إقامة جبرية فيه استطلت أكثر من ثلاثين عاماً .

آب - سنة ١٨٧٦، واتخذ لنفسه اسم عبد الحميد الثاني . ويقال إن نامق كمال - وهو من أبرز زعماء رجال تركيا الفتاة - توسل إلى مدحت باشا والدموع تترقق في عينيه كى يؤجل عزل مراد . ولكن أصر مدحت باشا على رأيه . وسارع السلطان الجديد عبد الحميد الثاني بتعيين مدحت باشا صدراً أعظم . وقد قدر للسلطان عبد الحميد أن يستوى على عرش الدولة العثمانية فترة قاربت أربعة وثلاثين عاماً تراحت خلالها الأحداث الجسام على الدولة ، ثم يعزل عن العرش في سنة ١٩٠٩ بناء على فتوى أصدرها شيخ الإسلام نزلوا على رغبة العسكريين ، وجاء في الفتوى أن السلطان عبد الحميد يكيد للنظام الدستوري في الدولة .

طرازان من شيوخ الإسلام :

وقد يبدو من هذه الفتاوى على اختلاف أنواعها والتي صدرت عن شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أنهم كانوا أداة طبعة لينة في يد السلطان الحاكم أو في أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة يطلبون من شيخ الإسلام إصدار فتوى لتبرير أو لتفسير إجراء معين . وكان شيخ الإسلام يصدع بما يؤمر به . ونحن لا ننكر أن بعضهم كان من هذا الطراز من الرجال ، ولكن من ناحية أخرى كان بعض شيوخ الإسلام ذوى شخصية قوية ، جاهروا السلاطين برأيهم في تصرفاتهم . ولم تصدر عنهم فتاوى إلا ما كان منها متمشياً مع مبادئ الشريعة الإسلامية . ونعرض في هذه الدراسة مثالا لهذا الطراز من شيوخ الإسلام .

شيخ الإسلام يتحدى السلطان :

كان عدد من رعايا الدولة في الأناضول بوجه خاص قد اعتنقوا في أوائل القرن السادس عشر المذهب الشيعي الذي تدلل إلى أراضى الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في فارس . وكان هذا المذهب خليطاً من مبادئ الشيعة ومبادئ أخرى فوضوية يقول عنها أصحابها إنها تحريرية . وأطلق على هذا المذهب قزل باش أى الرأس الأحمر . ونجح السلطان سليم الأول في أن يحصل

من شيخ الإسلام على فتوى توجب قتل معتنق هذا المذهب. وتمت مذابح عامة قتل فيها معظمهم، وبذلك تخلص سليم منهم. والتفت إلى الدولة الصفوية في فارس واستصدر من شيخ الإسلام فتوى توجب قتال هذه الدولة، ومن ثم زحف عليها بقوات جرارة وخاض حرباً خاطفة وأحرز انتصارات كبيرة، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية. ولكنه لم ينجح في سحق الشيعة سحقاً كلياً، وعاد إلى إستانبول. وفي أثناء هذه العمليات صدرت عن الرعايا المسيحيين في الدولة تصرفات مريبة جعلت السلطان يتوجس منهم خيفة. ورأى أنهم يشكلون تجمعات بشرية كثيفة العدد داخل الدولة، وقد ينتهزون فرصة انشغال الحكومة في حرب ويكون الجيش العثماني منصرفاً إلى العمليات الحربية فيقومون بحركة تهدد الدولة تهديداً خطيراً في مثل هذا الوقت العصيب، وانتهى تفكيره إلى ضرورة تسوية هذه المشكلة، فيعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما اعتناق الإسلام وإما القتل. ويقول أحد المؤرخين الأجانب إن السلطان سليم في اتخاذ هذا القرار كان متأثراً بالمذابح الدينية التي أقدمت عليها السلطات الإسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحي (١). فلم يكن هذا القرار هو الأول من نوعه، بل كان له نظير في الطرف الغربي من أوروبا وفي ذات الوقت تقريباً.

عرض السلطان سليم الأول هذه المسألة بصورة مختلفة على الشيخ جمالي شيخ الإسلام، وطلب منه إصدار فتوى توجب إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام وقتل من يرفض منهم هذا الأمر. وصدرت الفتوى على النحو الذي كان السلطان يبتغيه، ثم استبان لشيخ الإسلام أن السلطان سليم قد عرض عليه الموضوع عرضاً غير سليم؛ وأنه أخفى بعض عناصر الموضوع عنه؛ وبعبارة أخرى أدرك شيخ الإسلام أن السلطان قد خدعه. فما كان منه إلا أن أصدر فتوى لاحقة سحب فيها الفتوى السابق إصدارها بخصوص هذا الموضوع. وقرر في الفتوى الجديدة أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين يخضعون للحكم الإسلامي

بالبقاء على دينهم طالما كانوا يدفعون جزية الرأس كبديل نقدي يعفيهم من التجنيد وبأن يمارسوا بجملة حريتهم شعائرهم الدينية ، وأن تتكفل الدولة بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم وطالما كان سلوكهم العام لا تشوبه شائبة ، وولاؤهم للدولة ملحوظاً وتصرفاتهم سليمة . وقد أبلغت هذه الفتوى إلى البطريرك اليوناني في إستانبول بصفته رئيس أكبر ملة غير إسلامية في الدولة . واعتبر البطريرك هذه الفتوى ميثاقاً أو مستنداً يدرأ عن رعايا الدولة غير المسلمين أى اضطهاد ديني قد يتعرضون له . وقد أذعن السلطان سليم لرأى شيخ الإسلام الذى سجلته تلك الفتوى .

ويقول المؤرخ الأمريكى ليبير ، تعليقاً على موقف كل من السلطان وشيخ الإسلام ، لو أن السلطان سليم قد نفذ قراره بإكراه جميع رعايا الدولة غير المسلمين على اعتناق الإسلام لنجم عن ذلك مزايا كبرى بالنسبة للدولة العثمانية . وكان من بينها زوال الكنائس المسيحية التى كانت قائمة فى أرجاء الدولة . وكانت تشكل مجموعة من الهيئات الدينية القوية والمنافسة للهيئات الإسلامية . وكانت آمال الرعايا المسيحيين متعلقة بهذه المنشآت الدينية التى تتميز بالحياة . ومنها أيضاً أن الدولة كانت تنعم بوحدة العقيدة الدينية بين رعاياها ، إذ يحدث فى المدى البعيد اختلاط وانصهار بين الرعايا المسلمين والرعايا المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام . ولكن ما حدث كان مخالفاً تماماً لهذه التوقعات ، لأن الإبقاء على رعايا الدولة المسيحيين محافظين على ديانتهم كان معناه فى المجال السياسى الإبقاء على الروح القومية والروح الانفصالية تتأججان فى صدور الرعايا المسيحيين . كما كانت هناك نتيجة أخرى لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بإكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام ، فيقول إن وجه التاريخ فى منطقة الشرق الأدنى كان يتغير تغييراً جذرياً . ويطرى هذا المؤرخ الأمريكى موقف شيخ الإسلام ، ويصف قراره بأنه قرار سليم يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية ، وكانت لدى شيخ الإسلام الشجاعة الأدبية حين أصدر هذه الفتوى بصفته حارساً للشريعة الإسلامية . ويختتم ذلك المؤرخ تعليقه على هذه الفتوى قائلاً إن الإسلام

الذى جاء به قبل أن يأتي السلطان سليم الأول إلى الحياة بتسعة قرون قد جعل قيام وحدة دينية من رعايا الدولة العثمانية أمراً مستحيلاً (١). ونرى أنه استند إلى أن الإسلام بسماحته كان يجيز لأهل الكتاب الإبقاء على ديانتهم بشرط أداء جزية الرأس . وقد قال الله تعالى « لا إكراه في الدين » .

أما رأينا في هذه المسألة فقد سبق أن ذكرناه من قبل وفي أكثر من مؤلف لنا ، وهو أن التاريخ لا يتحدث عن المستقبل ، والتاريخ ليس رجماً بالغيب ، وهو لا يبنى أحكامه على احتمالات قد تحدث في قابل الأيام وقد لا تحدث . والتاريخ الموضوعي المحايد لا يفترض أحداثاً، ويتابع المؤرخ تنفيذها في عالم الخيال . ويرتب على هذه الأحداث الخيالية والتنفيذ الخيالي نتائج تتمشى مع عقيدته الدينية أو اتجاهه السياسى ، فيقف منها مكثباً حزيناً أو مبتهجاً متمللاً حسب وجدانه الدينى ونزعته القومية وتحرره من التعصب . فهذه أمور تخرج بالمؤرخ عن اختصاصه ونطاق دراسته كباحث يتميز بالموضوعية والحيدة ، والحق أن رأى شيخ الإسلام الذى عبر عنه فى الفتوى يعتبر تحدياً للسلطان ، ورجوعاً إلى الحق ، وتمسكاً بمبادئ الشريعة الإسلامية ، ودليلاً على شجاعته الأدبية .

نظرة أوروبا إلى شيخ الإسلام فى إستانبول :

وقد طاب للمراقبين السياسيين فى دول غربى أوروبا فى القرن السادس عشر أن يقولوا عن شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية إنه يشبه « كاردينالا عظيماً جداً » . وقالوا عنه بعد ذلك إن مركزه يفوق مركز البابا فى روما (٢) . والحق أن هؤلاء المراقبين والمعلقين الأوروبيين قد ربطوا فى أذهانهم بين مركز شيخ الإسلام فى إستانبول وبين المركز الدولى للإمبراطورية العثمانية وهى تقف فى ذلك الوقت فى الصف الأول بين أكبر دول العالم مهيبة

Lybyer A. H., op. cit., pp. 210—212.

(١)

Lybyer A. H. op., cit., p. 209.

(٢)

الجانب مرفوعة الرأس ذات قوات مسلحة ضاربة رهيبة . وبعبارة أخرى رأى أولئك المراقبون والمعلقون السياسيون المسيحيون في تحليلهم السياسى للمركز المرموق الذى سما إليه شيخ الإسلام فى إستانبول أنه لا يستمد هذا المركز السامى من الشريعة الإسلامية التى كان يمثلها فحسب ، بل من مركز الدولة الريادى والقيادى سواء فى العالم الإسلامى أو فى الأسرة الدولية . ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى، وأنها تضم الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المسجد الأقصى فى القدس ، وأن تمتلكها الإقليمية امتدت فى ثلاث قارات . ومن ثم كانت نظرهم إلى شيخ الإسلام فى إستانبول على أنه أكبر شخصية دينية إسلامية فى العالم . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة إلى شيخ الإسلام أن لقب خليفة لم يكن قد التصق بعد باسم سلطان الدولة العثمانية . وسيحدث هذا الالتصاق فيما بعد فى خلال القرن الثامن عشر وما تلاه .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن حيث الواقع التاريخى أيضاً ، وفى أثناء القرن السادس عشر بالذات ، كانت دولة المماليك الشراكسة فى مصر قد ذهبت إلى مغيب ، وفقدت مصر استقلالها وخسرت زعامتها للعالم الإسلامى ، وهبطت من دولة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية ، واحتجبت إلى حين مكانة الأزهر ومكانة علمائه ، وغدا الميدان أمام شيخ الإسلام العثمانى فسيحاً رحيباً خالياً من المنافسين الأقوياء .

ونرجع هنا إلى باحث إنجليزى أقام فى إستانبول فى القرن السابع عشر ، وامتدت إقامته سنين عددا ، وأصدر كتاباً تناول فيه بالشرح الأوضاع السائدة فى الإمبراطورية العثمانية (١). وقد ذكر فيه أنه استقى مادته العلمية من السجلات العثمانية المحفوظة لدى كبار الموظفين ، ومن أعضاء هيئة العلماء المسلمين ، ومن رجل من أصل بولندى أتت به ضريبة الغلمان إلى إستانبول وعاش فى البلاط العثمانى تسع عشرة سنة . ونال كتاب هذا الباحث الإنجليزى شهرة علمية عريضة ، إذ كان مرجعاً للذين كتبوا فى تاريخ الدولة العثمانية منذ

(١) Ricaut, Sir Paul; The History of the Present State of the Ottoman Empire. 6 th edition London, 1686.

القرن السابع عشر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات . وإلى سنة ١٦٨٦ كان الكتاب قد طبع ست طبعات باللغة الإنجليزية . وقد منحه الحكومة الإنجليزية لقب سير Sir . أفرد هذا الباحث حيناً كبيراً من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته واهتمام السلطان العثماني باسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان . فقال إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية ، وهو المرجع الذي ترفع إليه كافة المسائل المختلف عليها من ناحية مدى مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين . والسلطان دون سواه هو الذي يقوم بتعيينه ، ويختاره رجلاً ضليعاً في علوم الشريعة وأصول الدين ، معروفاً بفضائله ، مشهوراً باستقامة سلوكه . وإذا أصدر شيخ الإسلام رأياً أو بياناً فلا يستطيع السلطان بأية حال أن يعترض على ما جاء في ثنايا هذا الرأي أو ما تضمنه هذا البيان . والسلطان يطلب دائماً رأى شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة كافة المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية . والسلطان يحتّم دائماً بشيخ الإسلام إذا كان في صدد عزل أحد الباشوات من منصبه . أو إعدام وزير ، أو كان على وشك اتخاذ إجراءات جديدة وهامة تتناول تغييراً في سياسة الدولة ، ففي كل هذه الحالات وأمثالها كان السلطان يسأل نفسه باستصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز له اتخاذ الإجراءات التي يقدم عليها السلطان ويقرر شيخ الإسلام أنها متمشية مع مبادئ الشريعة (١) .

إلغاء منصب شيخ الإسلام :

وعندما آلت السلطة في الدولة إلى جماعة الاتحاد والترقي عقب إنقلاب سنة ١٩٠٩ ، وكان النفوذ الأول في دوائر هذا الحزب لضباط الجيش ، حرص النظام الجديد على الانتقاص من سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين وتجريدهم تبعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم . وكان قد انتزع منهم الإشراف على التعليم والقضاء .

وألغيت وظيفة شيخ الإسلام مع إلغاء نظام السلطنة سنة ١٩٢٢ . ولما ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ أنشأت الجمهورية بدلا من وظيفة شيخ الإسلام إدارة جديدة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء في أنقرة . وكان رئيس هذه الإدارة يطلق عليه « ديانت إيشلرى رئيسى » ويعتد رئيس الموظفين الدينيين في جمهورية تركيا ، ويعين بقرار من رئيس الوزراء . وكان من اختصاصاته الإشراف على المساجد والتكايا وتعيين الأئمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد ، وله أيضاً الإشراف على أعمال المفتين ، كما أنشأت حكومة الجمهورية إدارة عامة للمؤسسات الخيرية يرأسها مدير عام يطلق عليه « أوقاف عموم مدير ليشى » يختص بالإشراف على الأوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المباني الموقوفة (١) .



الفصل العاشر عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٤)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

القضاة :

ينتمي القضاة إلى الهيئة الإسلامية . وكانوا يمرون بطريق دراسي طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء . ونظرت الدولة إلى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه . ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنحاء الدولة في القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وإفريقية ، والأمر الجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التي ضعف فيها النفوذ العثماني سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً مثل بلاد القرم وشمال إفريقيا . وعلى ذلك فالقضاء العثماني كان أكثر نفاذاً وبقاء واستقراراً في الولايات العثمانية من النفوذ العسكري أو السياسي أو الإداري للدولة في تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية . وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاء على بكرة أبيهم مسلمين ، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمي للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهباً رسمياً في الأقاليم الإسلامية التي فتحتها القوات العثمانية . وكان هذا التغيير المذهبي هو أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التي أدخلتها الدولة في أقاليم العالم الإسلامي التي فتحتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الإمام الشافعي هو المذهب الرسمي في مصر قبل الفتح العثماني ،

فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية المذهب الحنفي بالمذهب الشافعي . وكان لا بد أن يكون حنفياً كبير القضاة الذي توفده الحكومة العثمانية إلى مصر ليشغل هذا المنصب القضائي الكبير . وكان يطلق على شاغله أيضاً قاضى القضاة أو قاضى عسكر أفندى . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد إلى جميع الأشخاص في الدولة ، إذ كانت في الدولة هيئات معترف بها وكانت لها محاكمها الخاصة تنظر في قضايا أفرادها مثل القولار ، وهم العبيد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه . أما رعايا الدولة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء المسيحيين يرأسها زئيس « الملة » ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين المسيحي . وكانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراض معينة من أراضى الأوقاف فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التي تتعلق بالشريعة الإسلامية في جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحيين ، إلا إذا كان المسلم ينتمى إلى طائفة لها نظام قضائي يختص بها مثل القولار والأشراف كما سبق أن ذكرنا . وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التي تمس موضوعات خارجة عن نطاق الشريعة الإسلامية .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين : الرسوم القضائية ، والغرامات التي يحكمون بها ، وكلا المصدرين يدر إيراداً وثيراً . كانوا يتقاضون جزءاً من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التي تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل في كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب . وكان رسم زواج الأنسة ٣٢ أسيراً Asper أو أفجة وهي عملة فضية ، بينما كان رسم زواج الثيب ١٥ أسيراً (١) .

(١) انظر الرسوم التي حددها السلطان محمد الثاني لثقى المناسبات والتصرفات القانونية في :

فئات القضاة :

كان القضاة بندرجون تحت درجات أو فئات شتى :
قاضى القضاة أو رئيس القضاة أو قاضى عسكر .

هيئات التدريس فى المعاهد والمدارس التى تعد العلماء والباحثين
والمتمخصصين فى الثقافة الإسلامية العليا واللغة التركية والأدب التركى وشتى
التخصصات فى نواحي المعرفة .

المولا (١) الكبير ويطلق عليه المصطلح التركى « مولا بيوك » .

المولا الصغير ويطلق عليه المصطلح التركى « مولا كوچوك » .

المفتش .

القاضى .

النائب .

وكان الاسم العام للقاضى بصرف النظر عن درجته هو القاضى . ولكن
كان التعبير الشعبى الذى يطلق على كل منهم من قبيل الاحترام والتقدير هو
المولا .

قاضى عسكر :

أنشأت الدولة على رأس النظام القضائى منصب قاضى القضاة أو رئيس

(١) المولا Molla تحريف للكلمة العربية مولى-بفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح اللام-
بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم - وقد حرفت هذه اللفظة بدورها فى أقاليم شمالى إفريقيا
فأصبحت مولائى . ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة المولوية التى أسسها جلال
الدين الرومى . وقد اشتقت اسمها من كلمة « مولانا » بمعنى سيدنا .

ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر (١٩٧٨) لفظة المولا على السيد الرقور كبير السن
ذى المركز المرموق سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهى تقابل فى المجتمعات
القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخداماً لهذه الكلمة هم أكراد العراق ، فيذكرون اسم
الشخص مسبقاً بكلمة مولا . وعلى سبيل المثال ، المولا مصطفى البرزائى زعيم الأكراد المعاصر .
وتكتب الكلمة أحياناً الملا بعد إسقاط حرف الواو منها . وتنطق فى اللغة التركية وفى اللغة العربية
بضم حرف الميم . وفى اللغة الكردية بفتح الميم . كما أنها تنطق فى هذه اللغات الثلاث بدون شدة .

القضاة . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ؛ ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم وترقياتهم ، وتعرض عليه التقارير والمدكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال المطلبجى ، والتطبيقجى والمكتوبجى . وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفتاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المدكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى عسكر .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وقد خشى أحد الصُدور العظام ، ويسمى قرمان محمد باشا ، أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى أن ينشئ منصباً ثانياً لوظيفة قاضى عسكر - ويسمى قاضى عسكر لىك - وأن يطلق على شاغله قاضى عسكر الأناضول ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى عسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوروبا . وكان الدافع الخفى للصدر الأعظم - محمد قرمان باشا - على هذا الاقتراح هو كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى عسكر حين كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الثانى بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى سنة ١٤٨٠ قبل وفاة السلطان بسنة واحدة (١) . وعلى هذا النحو وجد فى الدولة منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر مع إضافة الإسم الجغرافى الذى

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قاضى عسكر .

يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضي عسكر الروملى أعلى مركزاً من زميله قاضي عسكر الأناضول . وكان الأول يصحب الجيش العثماني حين كان يتوغل في أوروبا ويخوض المعارك . وكان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون في أوروبا ، وكذلك العاملين في المساجد التي أقيمت في الولايات العثمانية الأوروبية ، وكان قاضي عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم العثمانية في آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران يريان شيخ الإسلام في المرتبة . ولكي تواجه الدولة زيادة الأعباء التي نجمت عن التوسع الإقليمي العثماني في العالم الإسلامي منذ حكم السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان المشرع أنشأت منصباً ثالثاً لقاضي عسكر شملت ولايته القضائية معظم الأقاليم الإفريقية التي دانت لحكم العثمانيين .

كان قضاة العسكر أعضاء في الديوان الإمبراطوري . وكانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً مع رئيسه الصدر الأعظم في نظر القضايا التي تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك في هذا العمل في بعض الأحيان بعض القضاة من فئة مولا الكبير ، وسنعرض لهم في موطن قادم في هذا الفصل ، ونقف هنا لندرد على رأى أبداه أحد كبار المستشرقين الإنجليز حين قرر أن عضوية الديوان الإمبراطوري كانت ميزة لقضاة العسكر لم يشاركهم فيها شيخ الإسلام (١) والواقع كان عكس ذلك تماماً ، لأن عدم تقرير عضوية شيخ الإسلام في الديوان الإمبراطوري كان نوعاً من التكريم لشيخ الإسلام تفادياً لوجوده في موقع يكون فيه تحت رياسة الصدر الأعظم الذي كان يرأس بحكم منصبه الديوان الإمبراطوري . وكانت الدولة تحرص على تجنب شيخ الإسلام مثل هذه المواقف التي قد تنال من هيبته شاغل أكبر منصب ديني إسلامي في الدولة .

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1 Part (١)

امتيازات قاضي العسكر :

من بين الامتيازات التي تقررت لقاضي عسكر الدولة أن يقام حفل رسمي لكل منهما عند تعيينه في منصبه . وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه في حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضي عسكر رداء التشريفة ، وهو فرو سمور ، ويساعده على ارتدائه في أثناء الحفل (١) . وكانت تخصص لكل قاضي عسكر عربة يستقلها في تنقلاته . وإذا قامت الحرب في آسيا صحب قاضي عسكر الأناضول الجيش العثماني إلى ساحة الحرب . أما إذا كانت الحرب في أوروبا فإن قاضي عسكر الروملي هو الذي يرافق الجيش . وفي كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ (٢) تنصب أمام خيمته التي تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

قضاة التخت :

كان يلي قضاة العسكر في الدرجة والمركز قاضي إستانبول ويطلق عليه إستانبول أفنديسي (٣) والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث : وكانت هذه الضواحي

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol., IV p. 552, (١)

(٢) انظر ص ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .

(٣) أفندي لفظه عثمانية شاع استخدامها في جميع البلاد التي خضعت للدولة العثمانية . وهي لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة . وقد اشتقت من كلمة أفندي عده مصطلحات تاريخية ، نذكر منها :

أفنديز ومعناها مولانا . وكان السلطان العثماني ينادى أحياناً بهذا اللقب .

أفندينا ومعناها مولانا . وكان ولاية مصر من أسرة محمد علي يطلق عليهم هذا اللقب سواء من كان يحمل منهم لقب خديو اعتباراً من سنة ١٨٦٧ أو من لم يكن يحمله قبل هذا التاريخ .

أفندم لقب معناه السيد أو السيدة .

أفنديسي : إستانبول أفنديسي أي قاضي إستانبول .

ديوان أفنديسي أي سكرتير ديوان القاهرة الكبير ديوان بيوك .

الريس أفندي لقب يطلق على وزير الخارجية العثمانية .

Barbier de Meynard; op. cit., Vol. I, pp. 42—43.

هي : سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضاً الاسم التركى أسكودار (١) Uskudar ، ثم ضاحية جالاطه Galata ، ثم ضاحية أيوب ، وكان يطلق على هذه الضواحي الثلاث اسم « بلاد ثلاثة » أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى . فقضاة هذه الضواحي يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى إستانبول . كما كان لهذه الضواحي بعض الاستقلال فى شئون الشرطة . (٢) وكان هؤلاء القضاة الأربعة يجلسون جلسة الديوان الإمبراطورى يوماً واحداً فى الأسبوع ، ويحلون محل قاضى العسكر ،

(١) استخدم اسم سكوتارى فى أواخر عهد الدولة البيزنطية . ويحتمل أن يكون هذا الاسم قد اشتق من اسم كنيية حامل الدروع التى رابطت فى تلك البقعة على عهد الإمبراطور فالنس Valens . ويوجد احتمال أقوى من الاحتمال السابق ، هو أن هذه المنطقة قد اكتسبت اسمها من قصر كان مشيداً فيها يسمى سكوتاريون Scutarion منذ عهد الأباطرة الكومننوى Comnenoi .

أما كلمة أسكودار ، أو ، أسكودار ، أو إسكىدار ، فهى كلمة تركية معناها محطة البريد ، إذ كانت بحكم موقعها الجغرافى القاعدة الهامة للحملات الكبيرة والصغيرة التى تخرج من العاصمة إلى أطراف الإمبراطورية العثمانية فى آسيا وإفريقية . إذ تقع هذه الضاحية - وهى أقدم حى فى إستانبول - فى منطقتها الواقعة على الجانب الآسيوى من البوسفور عند سفح تل بو لغورلى حيث يمتد الشاطىء الآسيوى أقصى امتداد نحو الغرب مقابلاً برج لياندر Leander أو قين أقوله .

وفى العهد العثمانى ازدادت كثافة السكان فى أسكودار ، وبخاصة منذ عهد السلطان سليمان المشرع . وكان من أسباب زيادة تعدادها أنها أصبحت موئلاً لتجمعات الدراويش ومقراً للتكايا ومركزاً هاماً لحياة التصوف فى العاصمة . وأشهر التكايا القائمة بها تكية الطريقة الخلوتية . كما شيد فيها عدد كبير من المساجد أنشأت أكبرها سيدات فى البلاط العثمانى . ومن أشهرها :
مهرمه جامى أو إسكله جامى شيد سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م أمام المرعى الكبير
إسكى والده جامى ، ويقع فى الجنوب ، وتم بناؤه سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م .
جامع چنبلى ، فى الجنوب الشرقى ، وكل بناؤه سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م .
يكى والده جامى تم بناؤه سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م .
جامع السليمية وقد شيده سليم الثالث لجيشه الجديد الذى سمى « نظام جديد » .

(٢) لم تكن هذه الضواحي الثلاث تخضع فى شئون الشرطة لسلطة رئيس الإنكشارية ، شأن إستانبول نفسها ، وإنما كانت تخضع لضباط آخرين .

ويساعدون الصدر الأعظم رئيس الديوان في نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة - قاضى إستانبول وقضاة الضواحي . اسم معبر هو « تخت قاضيسى » ، أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة في العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطاني الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب انتهاء جلسة المحكمة يذهب في صحبة قاضى إستانبول في جولته التفتيشية الميدانية في العاصمة . وبما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولا الكبير .

القضاة من فئة مولا الكبير :

كان عدد القضاة من فئة مولا الكبير يختلف من عصر إلى عصر (١) وفي القرن الثامن عشر بلغ عددهم سبعة عشر قاضياً (٢) تضمهم عدة مجموعات .

قاضى عسكر الروملى ، وقاضى عسكر الأناضول .

قضاة التخت .

قاضيا مكة المكرمة والمدينة المنورة .

قضاة بروسه ، وأدرنة ، ودمشق ، والقاهرة . ويلاحظ أن بروسه وأدرنة كانت كل منهما في وقت ما عاصمة للدولة العثمانية .

قضاة بيت المقدس ، وأزمير ، وحلب ، ولاريسا (٣) ، وسالونيك .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة السبعة عشر ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينهم في مناصبهم . وكانوا يشغلون المناصب القضائية مدى الحياة . ولكن كانت تصدر من وقت إلى آخر حركة ترقيات أو تنقلات تشمل أولئك القضاة الكبار . وكان لكل

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, (١)
Part II, p. 89.

Lybyer A.H.; op. cit., p. 217. (٢)

(٣) لاريس Larisse مدينة في بلاد اليونان وتقع في إقليم تساليا .

منهم جهاز إدارى يتكون من مراقبي الحسابات وأمناء الخزائنة والكتابة ومن إليهم من المساعدين . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يعقدون الجلسات أحيانا في بيوتهم ، بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا في المحاكم .

وإلى جانب أولئك القضاة من فئة مولا الكبير كان يوجد ستة علماء ينتمون إلى هذه الفئة ، وهم : خوجة السلطان ، الإمامان ، حكيم باشى ، وجراح باشى ، ومنجم باشى .

المفتشون :

كان المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لا يميز عن مهمتهم القضائية . وكان عددهم قليلا يصل إلى خمسة مفتشين ، وكانوا جميعا قضاة من درجة « مولا بيوك » ؛ أى مولا الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف السلطانية ، فينفقون من إيراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية . وكان بعضها تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث والأخير تحت إشراف رئيس الحصيان البيض الذى يقوم على الخدمة الداخلية فى أجنحة الحرم السلطاني . وكان يطلق عليه أحيانا « باب السعادات أغاسى » أى أغا باب السعادة ، وأحيانا أخرى « قابى أغاسى » . أى أغا البوابة . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى إستانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف . كان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى « شيخ الإسلام مفتشى » ، وكان الثانى يعمل مع الصدر الأعظم ويسمى « وزيرى أعظم مفتشى » ، وكان الثالث يسمى « حرمين مفتشى (١) » لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويلاحظ أن الأخير كان حتى قرب نهاية القرن السادس عشر رئيس الحصيان البيض . وفى القرن السابع عشر تقاسم مع زميله رئيس الحصيان السود ، والذى كان

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1 Part II, (١)
p. 92, fn. No. 2.

يطلق عليه « قيزلر أغاسى » أى أغا البنات ، الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الحصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة ، وكانا يتبعان رئيس الحصيان (١) . وكان لكل من هؤلاء المفتشين الخمسة جهاز يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين يتجولون فى مناطق الأوقاف (٢) .

امتيازات رجال القضاء من فئة مولا الكبير :

كان القضاة من فئة مولا الكبير يتمتعون بعدة امتيازات . كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين ينعم به عليهم . ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين . ويتولى رئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور .

وكان من امتيازات القضاة من فئة المولا الكبير أن يتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم عدد من الرجال يسمى كل منهم المحضر . وتكتب فى اللغة التركية المحذر . وكان يرأس هؤلاء الرجال ويتولى توزيعهم على القضاة رئيس يسمى محذر باشى . وكان يؤخذ من حراس بوابات القصر - القاىچية . وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدرسة الشريعة والقانون بإستانبول لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر بعد ذلك مرتين على مدار السنة . كانت المرة الأولى عند حلول « كوچوك پيرامى »

D'Ohsson Mouradgea Ignatius, op. cit., t. IV, p.568. (١)

Lybyer A.H.,; op.ict., p.201. (٢)

الصغير ، ويسمى أيضاً « سكر بيرامى » أى عيد الحلوى وهو عيد الفطر ،
والمرة الثانية عند حلول « بيوك بيرامى » أى العيد الكبير ، ويسمى أيضاً
« قربان بيرامى » أى عيد الأضحى . فكان يقام فى كل عيد من هذين
العيدين حفل استقبال رسمى « ركاب همايون » فى القصر السلطانى . وكان
القضاة من فئة الملا الكبير يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام
وقاضيا العسكر .

القضاة من فئة مولا الصغير :

كان القضاة من فئة مولا الصغير يعملون فى عشر مدن من مدن الصف
الثانى، وهى : مرعش ، بغداد ، بوسنا سراى (١) ، صوفيا (٢) ، بلغراد ،
عنتاب (٣) ، كوتاهية ، قونيه ، فيلوبو بوليس (٤) ، ديار بكر .

القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة
الإسلامية . وكان عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغ زهاء أربعائة
وخمسين قاضياً يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة فى أوروبا وآسيا وإفريقية .
وكان عددهم فى أوروبا يبلغ مائتين . وكان القضاة الذين يعملون فى بلاد
القرم وفى شمالى إفريقيا يتبعون قضائياً كبير القضاة فى الروملى . وكان
قضاة مصر يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول والذى يسمى
قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة
فى إستانبول .

(١) بوسنا سراى Bosna Seraj هى عاصمة ولاية البوسنة ، وتقع حالياً فى
يوغوسلافيا .

(٢) صوفيا وتكتب أحياناً Sophia وأحياناً أخرى Sofia ، عاصمها بلغاريا .

(٣) عنتاب مدينة فى سوريا .

(٤) تكتب بالفرنسية والإنجليزية Philippopolis مدينة فى بلغاريا ، وتقع على نهر
مارتيزا La Martiza الذى يصب فى بحر إيجه . وكانت إبان الحكم العثمانى عاصمة لإقليم
الروملى . ولهذا المدينة شهرة واسعة فى صناعة الروائح العطرية ، وبخاصة روح الورد .

النواب :

وكانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفي القضائي . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية في المدن الصغيرة أو في القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة في أثناء تغييبهم عن عملهم عند قيامهم بالأجازة أو في أثناء مرضهم . وكان النائب يشترى منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالآداب العامة وما إلى ذلك .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية في الهيئة الإسلامية إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون في المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتي بعد مركز القضاة ، ويظلون في مناصب الإفتاء مدى الحياة ، أي دون التقيد ببلوغهم سنأ معينة يحالون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم إصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منهم بحثها ، فيعكف الواحد منهم على دراستها في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل ، وتشبه الاستشارة . وكان الرأي الذي ينتهي إليه المفتي يسمى فتوى .

وكان عدد المفتين في أنحاء الإمبراطورية يصل إلى ما يقرب من المائتين . كانت غالبيتهم تعمل في المدن الهامة بجانب القضاة كما ذكرنا ، بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم في الولايات يمدونهم بالرأي الصحيح في المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه المصطلح الحديث منصب المستشار الديني . فكان هناك مفتيان : أحدهما يعمل مستشاراً دينياً للحاكم العام لمقاطعات الأناضول أو إيلي أناضولى ، وثانيهما للحاكم العام لمقاطعات الروملى التي يطلق عليها إيلي روملى ، كما عينت الحكومة مفتين لحكام المديرية الذين يطلق عليهم الصناجق البكوات . وكان إذا طلب حاكم الولاية أو الصنجق البك من المفتي

أن يوضح له رأى الشريعة فى مسألة عامة أو فى قضية قانونية معلقة ، فإن مثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلا ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة .

وكانت مجالات العمل أمام المفتين محدودة وبالتالي ضيقة ، فقلما لجأ إليهم القضاة أو رجال الحكم المحلى لإصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفى كان يشوبه الخمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين لإصدار الرأى القانونى فى القضايا المطروحة أمام المحاكم . فكان المفتى يصدر رأيه كتابة ومسجلا على ورقة رسمية على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية . ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كاستند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه . ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون عنصراً ضرورياً وهاماً ونافعاً فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ، لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى . وكان للمفتين نصيب من هذه الرسوم . فكان يأتهم رزقهم رغداً من كل مكان .

أما المفتون الذين كانوا يعملون فى سائر المدن فلم يشغلوا المركز الكبير الذى تمتع به مفتى العاصمة . كان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتباً من القضاة ومن إليهم من موظفى الحكومة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة لأجل الخدمات ، فقدموا لها بصفتهم حراس الشريعة قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومناورة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه (م ٢٨ - الدولة العثمانية)

القوة الروحية لهزات أو تغييرات ، بل مضت في طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامي العميق .

وقام نفوذ المفتين على عدة عوامل ، منها : أن جميع الرعايا المسلمين يعتقدون اعتقاداً راسخاً في التفوق المطلق للشريعة الإسلامية الغراء ، لأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية . والعثمانيون معروفون باحترامهم مبادئ الدين وبتعصبهم الشديد للإسلام . ولا يمكن أن يداني قانون من القوانين الوضعية الشريعة الإسلامية . كما أن الرعايا المسلمين كانوا يعرفون أن أولئك المفتين قد درسوا الشريعة الإسلامية سنوات طوالاً وتحملوا في تعلمها وتحصيائها مجهوداً عقلياً مضنياً ، ولكنهم لم يهجروا العلم بمجرد انتهاء دراستهم ، بل مضوا يمارسون مذاكرة العلم والاستزادة منه ، ثم تطبيقه عملياً في المجالات التي يعملون فيها وفي المواقف التي يطلب منهم الإدلاء برأى الشريعة فيها . يضاف إلى تلك العوامل التي كانت دعامة نفوذ المفتين أن العثمانيين كانوا يدركون أن الفضل في بقاء الدولة العثمانية وتفوقها إنما يرجع إلى المفتين لأنهم أسهموا إلى حد كبير في بقاء الدولة العثمانية سليمة متماسكة ، واستطاعت أن تقف في وجه الهزات العنيفة والنكسات الأليمة والخسائر الفادحة التي تعرضت لها ، وأن يستمر بقاؤها أحقاباً وأعصرأ وأدهاراً استطالت أكثر بكثير مما كان يتوقعه العالم كله لسقوطها . وكان دور المفتين بارزاً وقويماً في بقاء بنيان الدولة شامخاً قوياً ضد أعداء كانوا يتربصون بها الدوائر في الداخل والخارج .



كان عدد من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، ويعملون على مقربة من السلطان ، وكانوا يمثلون الهيئة الإسلامية داخل القصور السلطانية . كان في مقدمتهم :

خوجة السلطان :

والمعنى الحرفي لهذا المصطلح معلم السلطان . كان بمثابة مستشار السلطان في المسائل الدينية وغيرها . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين أفراد

حاشية السلطان وفي دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان في درجة المولا الكبير أى قاض من الدرجة الأولى . ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا في الدولة ، وإذا امتد به الأجل يصل إلى أعلاها .

الإمامان :

وكان هناك إمامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب في صلاته سواء في داخل القصر أو في المساجد السلطانية التي يقع اختيار السلطان عايتها لأداء صلاة الجمعة فيها . ويلحق بالإمامين عدد من المؤذنين يؤذنون للصلاة سواء في مساجد القصور أو في المساجد التي يؤدى فيها السلطان صلاة الجمعة . وكان للمؤذنين رئيس خاص بهم يسمى « المؤذن باشى » أى كبير المؤذنين . وكان المؤذنون يؤخذون من الجاوشية الذين يتميزون برخامة الصوت ، وكانوا من جاوشية الأقسام الدنيا . وكان يختارهم موظف يلى المؤذن باشى في الرتبة ، ويطلق عليه الناس مؤذن أو «سرى محفل» أى رئيس المقصورة الخاصة التي كان السلطان يؤدى فيها الصلاة من وراء ستار في المساجد السلطانية . وكان «سرى محفل» يدرّب الجاوشية ، فإذا أظهروا كفاية أدرجت أسماؤهم في كشوف لتعيينهم حين تخلو وظائف لهم .

وكان خوجة السلطان والإمامان من الهيئة الإسلامية ، وتمنعوا بنفوذ كبير جداً في الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التي أولاه إياهم السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : أذن السلطان L'oreille du Sultan .

تخصصات علمية أخرى ينتمى أصحابها هيئة العلماء :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين^(١) ومن إليهم من أصحاب التخصصات

العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب والفقہ وأصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم في معظم هذه المجالات قدم راسخة . ونذكر منهم على سبيل المثال بهجت مصطفى أفندي (١١٨٨-١٢٤٩ هـ / ١٧٧٤-١٨٣٤ م) ، تقلد المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٨٠٣ إلى منصب كبير أطباء السلطان ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضي أمير من طبقة مولا ثم قاضي مصر سنة ١٨٢٠ ثم توج حياته الوظيفية بشغله وطيفة قاضي عسكري الأناضول سنة ١٨٢٢ ، ثم قاضي عسكري الروملي (البلقان وبقية الولايات العثمانية في أوروبا) سنة ١٨٣٢ . وكانت هذه الشخصية تعتبر أحد رواد الطب الحديث على النمط الأوروبي . أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة استقدمت الدولة لها مدرسين أوروبيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضاً مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوروبية على يد كبير الترجمة في الباب العالي . وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها : كتاب ينر Jenner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعي ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوباء الغنم (١) . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» إلى اللغة التركية . وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر ، وأطلق عليه « تاريخ مصر » وقد طبعه في إستانبول سنة ١٢٨٢ هـ (٦٥-١٨٦٦ م) .

وتوجد شخصيات عثمانية أخرى من هذا الطراز كانت أسبق من بهجت مصطفى أفندي ، نذكر منها على سبيل المثال آيدينلي (٢) حاجي باشا وهو ، خضر

(١) انظر ترجمة حياته في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « بهجت مصطفى أفندي » .
(٢) آيدينلي نسبة إلى آيدين وهي مدينة في آسيا الصغرى . وقد احتلها السلاجقة الروم في العصور الوسطى ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسبها الأمير آيدين وخلع عليها اسم . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثماني أبي يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثاني عليها نهائياً سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) عند وفاة أميرها جنيد . ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثياً في أسرة قره عثمان أوغلي عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثاني في إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

ابن علي بن خطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول -يلدريم- (١٣٨٨-١٤٠٣) ، جمع بين دراسة الفقه الإسلامي وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب ، فقد ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة على أشياخ عصره ، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الطب . وألف في تلك التخصصات عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت ، من حيث عددها وأهميتها ، رسائله في الفقه والتفسير والمنطق . وقيل إن كتابيه « الشفاء » و « تسهيل الطب » قد نقلتا إلى اللغة اللاتينية (١) .

علماء التنجيم :

أما علم التنجيم ، فعلى الرغم من أن جمهرة العلماء والفلاسفة المسلمين يجمعون على إنكار التنجيم ، إلا أنه يوجد عدد قليل من علماء المسلمين مثل الكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي يخالفون هذه الجمهرة ، ويعتبرون التنجيم فرعاً من علم النجوم ، وأطلقوا عليه علم أحكام النجوم (٢) . وفي

(١) من رسائله في الفقه والتفسير والمنطق :

« تفسير في مجمع الأنوار في جميع الأسرار » . ويقع في مجلدين .

« طوابع الأنوار في الكلام » وهو شرح على تفسير البيضاوي للقرآن الكريم .

حوادثي على شرح فخر الدين الرازي لكتاب « مطالع الأنوار في المنطق » .

ومن مؤلفاته الطبية :

« الشفاء » وضعه باللغة التركيبية وبحث في أنواع العلاج . وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول في

القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية ، وفي الثاني الأطلمة والأدوية ، وفي الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

« تسهيل الطب » وهو عبارة عن رسالة بسط فيها كتابه السابق .

« شفاء الأسقام ودواء الآلام » .

« الفريدة في ذكر الأغذية المفيدة » .

« التعاليم » .

« الكيمياء الجلالى » .

(٢) يقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يقع من أحداث جسم وغير جسم في العالم إنما

يتصل اتصالاً وثيقاً بتحركات الأجرام السماوية ، وأن الإنسان خاضع لتأثيرات النجوم .

وينحصر عمل المنجم في معرفة هذه التأثيرات . وكانت المسائل التنجيمية تعالج من حيث أنها

مسائل فلكية ورياضية من هندسة وحساب وحساب مثلثات . وقد ظهر هذا الاتجاه في المصنفات

الخاصة بالفلك وفي الجداول التي وضعت للأغراض الخاصة بالتنجيم . وكان اليونانيون والهنود =

رأيهم أن علم الفلك وعلم أحكام النجوم يؤديان إلى علم التنجيم . وأطلقوا على المشتغل به « الأحكامى » أو « المنجم » ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى أيضاً . ولم يفرق بدقة بين المنجم والفلكى إلا فى القرن التاسع عشر . وكانت مهمة المنجم تعيين « الطالع » سواء بالنسبة للفرد أو الشعب أو المدينة أو الدولة وما يتبع ذلك من وقوع حوادث سعيدة أو أحداث دامية مثل نشوب حرب ، أو انتشار أوبئة ، أو حدوث فيضانات خطيرة تهدد البلاد بالغرق ، أو وقوع كوارث أخرى مثل الزلازل والبراكين . وعلى الرغم من إنكار جمهرة علماء المسلمين لعلم التنجيم إلا أنه استهوى أفئدة الجماهير ، وكان له شأن كبير فى قصور السلاطين العثمانيين (١) .

حكيم باشى ، جراح باشى ، منجم باشى :

وكان للسultan ثلاثة من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، هم طبيبه

= هم أساتذة المنجمين الإسلاميين . ولكن تفوق الأخيرون على من سبفهم من المنجمين الذين كانوا يقومون بحسابات مبتسرة . وجدير بالذكر أن دور الطباعة فى أوروبا تولت طبع الكتب والجدول التى وضعها المسلمون فى علم التنجيم . وعلى سبيل المثال طبع فى البندقية الكتاب الجامع الذى وضعه أبو الحسن على بن أبى الرجال ، وهو فى ثمانية مجلدات فى السنوات ١٤٨٥ ، ١٥٠٣ ، ١٥٢٣ ، كما طبع فى مدينة باك فى سويسرا سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٧١ .
انظر دائرة المعارف الإسلامية : مادة التنجيم .

(١) كدليل على تأصل علم التنجيم فى بعض الدول الإسلامية قبل قيام الدولة العثمانية بقرون طويلة مارواه المقرئى من أن جوهر الصقل لما أراد تأسيس مدينة القاهرة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراساً ، وقالوا للعالم : إذا تحركت الأجراس فألقوا ما فى أيديكم من طين وحجارة . وبينما كان العالم يترقبون ، وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعاً ، فظن العالم أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وترعوا فوراً فى البناء . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع . ففى ذلك وقتهم ما قصده ، ويقال إن اربيع كان فى الطالع فى تلك اللحظات عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة .

وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين رفضوا الأخذ بهذه الرواية فإن ذبوعها بين الجماهير دليل على أن الكثيرين كانوا يعتقدون فى علم التنجيم المؤسس على الفلك والحسابات الفلكية . ويذكر ابن القلائس أبو على حمزة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » (طبعة =

الخاص ، ويطلق عليه « حكيم باشى » أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رياسته عدد من المساعدين ، ثم « جراح باشى » أى كبير الجراحين (١) ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمثابة مساعدين له . (٢) ثم منجم يطلق عليه « منجم باشى » (٣) أى كبير المنجمين . وكان لعلم التنجيم مكانة فى البلاط السلطاني تنعكس على المنجم باشى . وكان يعد تقويمياً يتنبأ فيه بالأوقات السعيدة التى على السلطان أن ينفذ فيها ما يعززه من مشروعات . وكان السلطان يسترشد بما جاء فى التقويم عند تعيين الوزراء ومن كبار موظفى الدولة (٤) . ولذلك كان السلطان يوجب البدء فى تنفيذ مشروع هام حتى يحين الوقت المناسب فى ضوء ما جاء فى تقويم المنجم باشى (٥) .

الأشراف :

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تضم أيضاً الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة . والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطاني . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسماً آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبقاً بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى هيئة العلماء إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يقنعون بانتسابهم إلى أسرة النبي صلوات الله عليه ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيف أنفسهم . وكان عدد الأشراف بوجه

= بيروت سنة ١٩٠٨) أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كان يعتقد فى علم النجوم ، ويستشير منجميه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وبالشئون العامة للدولة الفاطمية . (ص ١٤) .

(١) ترد كلمة الجراح فى الكتب العربية القديمة ، وعلى قلة ، فى صور أخرى ، مثل :

الجراحي بكسر الجيم ، والجراحي بفتح الجيم ، والآسى بمعنى الجراح وهى تدل أيضاً على الطبيب .

(٢) D'Ohsson Mouradgea Ignatius ; op. cit., t. iv, p. 548. (٢)

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 129. (٣)

Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol.I Part II,p.90. (٤)

D'Ohsson Mouradgea Ignatius ; op. cit., t.iv pp 551—555. (٥)

عام كبيراً ، وتسلسل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشبهات .

وكان الأشراف يتميزون بلباس خاص ، فكان لهم دون سواهم الحق في ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية ، فلم تكن توقع عليهم عقوبة الضرب ، وكانت لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاة من الأشراف .

وفي نطاق الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريفيين : أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به في المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم . أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية في الهيئة الإسلامية . وفي الاحتفالات التي تقام خلال شهر رمضان كان نقيب الأشراف يتقدم على مفتى الإسلام ، وكان يعين في منصبه مدى الحياة ، وكان السلطان هو الذي يصدر فرماناً بتعيينه في منصبه . وكان مقره في العاصمة ، وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ويتولى تنفيذ العقوبات عليهم . وكان له جهاز فني وإداري يعمل تحت إدارته . ويوفد بعضاً منهم إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصي الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك . وتجرتنا هذه المهمة - وهي تقصي الحقائق عن وضع الأشراف في ولايات الدولة إلى الإشارة إلى مركز الأشراف في مصر كمثال يمكن تصوره لوضعهم في سائر ولايات الدولة .

كان للأشراف في مصر نقيب يصدر بتعيينه فرمان من السلطان في إستانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تماماً وبخاصة عند ما ضعفت قبضة الدولة على مصر التي اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسي (١٨٠١-١٨٠٥) ، فقد استطاع أفاق تركي أن يستصدر من السلطان فرماناً في نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٠١ بتعيينه نقيباً للأشراف في مصر بدلا من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثماني في ذلك الوقت ، وهو محمد

خسرو باشا ، أن يتجاهل فرمان السلطان ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف في ٢ من فبراير - شباط - ١٨٠٢ للأفاق التركي واسمه يوسف أفندى ، ولحق أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم في ١٨ من أبريل ١٨٠٢ بعد مساع بذلت لدى السلطان في إستانبول (١) . وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف في إستانبول أصداً على مركز نقيب الأشراف في مصر ، إذ كان الأخير أيضاً يشغل مكاناً علياً . فهو بحكم منصبه عضو في ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثماني يرجع إليه في كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فراوى سمور في شتى المناسبات وفي فترات متقاربة على مدار السنة . وكان أشراف مصر يدينون لنقيبهم بالطاعة ، وكان يقدم لهم كل ثلاثة شهور مرتبات يطلق عليها چميكية . وكانت هذه المرتبات محددة قيمتها ومدونة في سجلات النقابة . ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لما فتح مصر سنة ١٥١٧ أبقى على الموارد المالية التي كان يعتمد عليها نقيب الأشراف في صرف المستحقات والمرتبات « وللمذكور بلاد أعطاها له السلطان ، ومكنه فيها لأجل معاشه وإعانتته على ذلك » (٢) .

الدرأوش :

وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضاً طوائف الدرأوش ، وكانوا كثرة عديدة كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدرأوش ينتمون إلى طرق كثيرة . وقد قرر المراقبون في القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وإن كان أهمها أربعاً فقط . وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضخمة فبلغت ستاً وثلاثين في أواخر القرن الثامن عشر . وإن كان البعض الآخر يرى أن عددها تجاوز ضعف هذا العدد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن عددها قفز إلى أربعة أمثال هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : هم مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٩٢-٩٧ .
(٢) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره .

العدد (١). وانتشرت هذه الطوائف في أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية (٢). ومما هو جدير بالذكر أن عددها بلغ في مصر إبان الحكم العثماني زهاء ثمانين طريقة (٣). والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة . وقد سجل الجبرتي عليهم ميلهم إلى الدراويش وهو يعرض لحوادث حملة حسن باشا الجزائري على مصر (٤) . ويشبه بعض الباحثين (٥) الدراويش بطوائف الإخوان الفرانسيسكان والدومينكان الذين كان يطلق عليهم الشحاذون (٦) . وعن طريق الدراويش انتشرت الخزعبلات بين الرعايا المسلمين في الدولة ودبرت الفتن . وكانوا يشكلون مجموعهم وتأثيرهم في الجماهير الإسلامية خطيرة على سلطة الحكومة . وكانوا يتنادون إلى إثارة الحروب الدينية . وقد مر بنا أن الدراويش قاموا في ٣١ من مارس - آذار - ١٩٠٩ بدور فعال في تحريك ثورة ضد الحكومة القائمة في إستانبول عقب إعادة الدستور وتنادوا إلى إلغاء النظم النيابية وإعلان الشريعة المحمدية . واستطاع الدراويش التأثير في جنود حامية العاصمة وسار الجنود في مظاهرات صاخبة في شوارع إستانبول يتقدمهم الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويهتفون هتافاً منغماً « باشا سون شريعة محمدية » أي لتحيا الشريعة المحمدية . وأريق في هذه الحركة دماء بريئة بين كبار وصغار ضباط الجيش على السواء (٧) . وتقتضى الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى في الأمانة وخشية

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; vol. I, Part II, p. 196.

(٢) Loc. cit.

(٣) دكتور توفيق الطويل : التصوف في مصر إبان الحكم العثماني . القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٧٥ .

(٤) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٥) Lybyer A.H.; op. cit., p. 207

(٦) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ص ٥٤٧-٥٥٢ ، حاشية رقم ٥ .

(٧) انظر ص ص ١١٦-١١٧ في هذه الدراسة .

الله ، بينما كان عدد منهم لصوصاً متجولين بارعين يتميزون بجهالة الحركة والمقدرة على اختيار الشخص الثرى الملىء مع تظاهرهم بالتقوى والصلاح .

الهيئة الإسلامية ونظارة الأوقاف :

كان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفين ينتمون إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وكان اختيار السلاطين يقع على شيخ الإسلام وعلى غيره من كبار رجال هذه الهيئة نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم وغيرها من الأوقاف الخيرية ، بينما كان البعض الآخر من السلاطين يختارون المصدر الأعظم للتنظر على هذه الأوقاف . أما أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد تبادل التنظر عليها بمعاونة أو باشتراك رجال الهيئة الدينية كل من رئيس الحصيان البيض - باب السعادات أغاسى - ورئيس الحصيان السود - قيزلر أغاسى - وفي القرن الثامن عشر كان الأخير يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يساعده عدد من رجال القضاء يطلق عليهم « حرمين مفتشى » أى مفتشى الحرمين وإثنان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما في بروسة والآخر في أدرنة .

ومن الحصيلة الضخمة التي كانت تغلها الأوقاف الخيرية تنوعت أوجه الإنفاق تنوعاً مذهلاً . فالأراضي الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كانت تشكل إيراداتها المنبع المالى الذى تؤخذ منه الاعتمادات المالية للإنفاق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، كما شملت أوجه الإنفاق المنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية ، ووضح في أوجه الإنفاق التكافل الاجتماعى الإسلامى في أروع صوره ، وتمثل فيها أيضاً حرص الواقفين على تأمين الدفاع عن أراضي الدولة بصفتها دار الإسلام تقف في مواجهة دار الحرب ، وما تطلبه هذا التأمين من الإسهام المالى في تحصين البلاد وإقامة التحصينات العسكرية والنهوض بالأسطول البحرى الحربى العثمانى . وكان الواقفون يذكرون في صلب الوقفية أوجه الإنفاق التي يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها .

وكان المشرفون على هذه الأوقاف يلتزمون إلزاماً دقيقاً بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التي يحددها الواقفون .

كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على المساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والخانقوات والمستشفيات والملاجئ وبيوت النساء الأرامل والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة ، فضلاً عن المؤسسات التعليمية مثل المدارس والمكاتب والمكتبات ، وتنظيم رحلات لتلاميذ وطلاب المدارس يقومون بها في فصل الربيع ، وكذلك كانت توجه من حصيلة إيرادات الأوقاف اعتمادات مالية لتقديم المال إلى المعوزين ومساعدة البنات اليتامى عند زواجهن ، ودفع الديون عن المدينين المسجونين ، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن لدفع الضرائب العرفية (١) ، وتقديم المال لتجهيز ودفن الفقراء . وكانت إيرادات الأوقاف الخيرية يوجه شطرها منها لتقديم مساعدات عينية في شكل ملابس لتلاميذ وطلبة المدارس والفقراء الطاعنين في السن ، وشراء كميات من الأرز أو الحبوب لإلقائها للطيور في مواسم الجليد نظراً لشدة البرد ، وشراء طعام للحيوانات . وكان بعض إيرادات الأوقاف يوجه للإنفاق على القوات المسلحة في الدولة وتمويل عمليات إنشاء الحصون وصيانتها وإقامة تحصينات عسكرية والإنفاق على السفن الحربية . وكانت بعض الإيرادات توجه أيضاً إلى الأشغال العامة Public works التي تستهدف الخير العام ويعود نفعها على المجتمع كله ، مثل إنشاء الطرق ، وإقامة الكبارى ، وحفر القنوات الصغيرة التي تمد القرى بالمياه العذبة ، وبناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلاً من الثغور .

الدولاب وأوجه استغلاله :

كانت إيرادات الأعيان الموقوفة تزيد أحياناً على المصروفات المخصصة

(١) أطلق على نوع من الضرائب في الدولة العثمانية اسم الضرائب العرفية تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التي تستق أصولها وجدورها من مبادئ الشريعة الإسلامية . أما الضرائب العرفية فتستمد سندها القانوني من السلطات المخولة للسلطان العثماني بصفته الرئيس الأعلى للدولة يفرضها لمواجهة النفقات غير المنظورة .

للإنفاق على المؤسسات الدينية أو الخيرية المحددة في نصوص الوقفية . وكانت تحدث هذه الزيادة في الأوقاف السلطانية بوجه خاص . وكانت هذه الزيادة أو الفائض تشكل مالا احتياطياً يطلق عليه « الدولاب » ، وهي كلمة فارسية معناها أسطوانة تدور حول نفسها توضع في فتحة في حائط مؤسسة خيرية مثل دار اليتامى أو دار النساء الأرامل ، ويضع فيها الخيرون التبرعات أو الصدقات زلنى إلى الله . ومن هذا الدولاب أو الفائض كانت إدارة الوقف تشتري أعياناً جديدة سواء كانت أراض زراعية بموافقة السلطان أو عقارات مبنية مثل الحوانيت والحواصل والطواحين وما إلى ذلك مما يمتلكه الأهالى ، ثم تحبس هذه وتلك على المؤسسات الدينية . أو الخيرية أو غيرها . وكانت تم عمليات الشراء وإجراءات تسجيل الوقفية في المحكمة وفي المكاتب المتخصصة بسرعة ومرونة ملحوظتين بحيث لا تتعثر أمام التعقيدات المكتسبية ، أو ما يسمى « الروتين » وحتى يعم الخير المرتجى قطاعات دينية وخيرية واجتماعية جديدة . فهذا وجه من وجوه استغلال الدولاب أو الفائض . وهو استغلال يحمل الطابع الدينى الخيرى .

وكان هناك وجه آخر من وجوه استغلال الدولاب حين كانت الحكومة المركزية تلجأ إلى الاقتراض من « الحرمين دولابى » أى الفائض من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان الهدف من الاقتراض هو مواجهة أزمة مالية ، أو عند شروع الحكومة في تنفيذ مشروعات عامة عاجلة ، أو خوض حرب . وهذا الوجه الثانى من أوجه استغلال الدولاب يحمل الطابع القومى ويستهدف المصلحة العامة . وبصفتهم متنظرين على الأوقاف الخيرية أتيح لرجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عديد الفرص للتغلغل فى القطاعات الحكومية وفى شتى نواحي الحياة ، وجعلتهم على اتصال وثيق ومستمر بالقاعدة الجماهيرية الشعبية وارتفعت مكانتهم فى هذه الأوساط .

(١) يسبه الدولاب إلى حد ما فى الوقت الحاضر صناديق النور التى توضع فى عدد من المساجد بجوار الأضرحة ، مع فارق هام هو أن حصيلة صناديق النور لا توجه إلى شراء عقارات وحسبها على مؤسسات دينية أو تعليمية ، بل يوزع جزء منها فى حدود نسبة معينة على موظفى المسجد وخدمه ، ويرسل الباقى إلى وزارة الأوقاف .

الهيئة الإسلامية والمساجد :

ولم تكن وظيفة المساجد الكبرى في مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب ، بل كانت تلحق بهذه المساجد منشآت خيرية تضم مدرسة ومكتبة تحفل بكتوز من التراث الفكري الإسلامي سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية ، وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المباني حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة وللشيخوخة ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل فيه الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة . ومن المساجد التي طبق فيها هذا النظام مساجد محمد الفاتح وسليمان المشرع وأحمد الأول في إسطنبول وبيلديرم بايزيد وجلبلي محمد في بروسه ، وجامع أدرنه (١) . وكان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون في إقامة هذه المنشآت الخيرية . وإلى دمشق امتد هذا النظام على عهد السلطان سليمان المشرع ، فقد أقام قصر الأبلق الذي كان قد شيده السلطان بيبرس البندقداري مدرسة وتكية إلى جانب المسجد (٢) . وكان ينفق على المسجد وتوابعه والموظفين الذين يعمالون في هذه المنشآت من إيراد الأراضي الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كما سبق أن ذكرنا .

الهيئة الإسلامية ومدارسها :

كان للهيئة الإسلامية نظام تعليمي دقيق . كان لا بد أن يمر في جميع مراحل المتطلعون إلى الوظائف الكبرى في هذه الهيئة . كانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

١ - المدارس الابتدائية ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت في القرن

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ،

ج ٣ ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص

١٢٥-١٢٦ .

السادس عشر باسم « أوكوماك برليري » ومعناها أماكن القراءة . وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

٢ - المدارس المتوسطة وكان يدرس فيها عدة مقررات في النحو والبلاغة والمنطق والهندسة وعلم الفلك وفقه اللغة . وكان المتخرجون في هذه المدارس يعينون مدرسين في المدارس الابتدائية أو يعملون وعاظا وأئمة في المساجد .

٣ - المدارس العالية وتدرس فيها الشريعة والقانون . ويتعمق الطلبة في دراسة العلوم القرآنية والشريعة الإسلامية كالحديث والفقه وأصول الدين ، كما كانوا يدرسون القوانين الوضعية . وكان يتعين على المتعلمين لوظائف القضاء والإفتاء أن يواصلوا دراساتهم العليا . ويشترك شيخ الإسلام اشتراكاً فعلياً في امتحاناتهم . وكان الطالب الناجح يمنح لقب ملازم . ولم تكن هناك سنوات محددة لمراحل الدراسة . وكان المعيار في تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلي للطالب وقابليته للدراسة . ولكن كانت الدراسات العليا تنهى في سن يتراوح عادة بين الثلاثين والأربعين .

ولم يكن التعليم إجبارياً ، كما أن المدارس التي تشرف عليها الهيئة لم تكن تتسع لجميع الأطفال المسلمين على الرغم من وفرة عددها ، وكان عدد المدارس الملحقة بمسجد السلطان محمد الفاتح ثمانية ، وعدد المدارس الملحقة بمسجد سليمان خمس مدارس .

وكان من المفروض أن الأب المسلم الذي يسكن مدينة ويريد أن يلحق ابنه في مدرسة كان لا يحال بينه وبين إلحاق ابنه بمدرسة المدينة . وكان التعليم بالهجان في المدارس الابتدائية . وفضلاً عن ذلك كانت تقدم لبعض تلاميذها الطعام وتأوى بعضهم في مبانيها . أما المدارس المتوسطة فكانت تقدم مثل هذه الخدمات لبعض تلاميذها . وفي المدارس العالية كان الطلاب يتقاضون مرتبات شهرية . ويقرر المؤرخ الامريكى ليبير أن النظام التعليمي في مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمي آخر في دول أوروبا في ذلك الوقت .

وكان العثمانيون يؤمنون بمائدة التعاليم وضرورته . ولكن مما أفسد التعليم روح المحافظة على القديم . وهى روح متأصلة فى نفوسهم جعلت هذا النظام التعليمى العثمانى يتقلب من نعمة إلى نقمة ، إذ ظلت نظم التعليم وبرامجه جامدة لم تتطور . وتعاقبت القرون دون إدخال أى تطوير عليها . ونجم عن هذا النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية والذى كان فى بدايته مزدهراً وأخرج نخبة من العلماء أن تجمد فى ذات الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية تمضى قدماً فى تطوير نظمها التعاليمية

الهيئة الإسلامية وموظفو الجوامع والمساجد :

كان يتبع الهيئة الإسلامية موظفو الجوامع والمساجد ، وهم : الإمام ، وخطيب الجامع ، والواعظ ، والمؤذن ، والقائم . وكان المستوى العلمى لهؤلاء الموظفين لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً فى دوائر الحكومة ، وإن كانوا موضع التقدير والإجلال من الجماهير .

كان الإمام يؤم المصلين يومياً . وكان خطيب الجامع يلقي خطب صلاة الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحى ، ويؤم المصلين فى صلاة الجمعة والعيدين . وكان الخطيب أعلى مركزاً من إمام المسجد ، لأن طبيعة عمله تتطلب أن يكون ذا مستوى علمى يفوق المستوى العلمى للإمام ، فهو يتناول فى خطبه المسائل الدينية وقضايا الساعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ، وكان يدعو فى خطبه للسلطان العثمانى الحاكم بالتوفيق فى حكم الدولة وبالانصر على أعدائها . وكان الدعاء للسلطان فى خطب الجمعة والعيدين مظهراً من مظاهر السيادة السياسية للسلطان ، ويتعد الدعاء قريناً لسك العملة باسم هذا السلطان . أما الواعظ فكان يلقي دروساً دينية فى رحاب المسجد ويبتصر المسلمين بشئون دينهم ودنياهم عقب صلاة الجمعة أو بعد صلاة العصر أو فى الفترة التى تتخلل صلاة المغرب وصلاة العشاء . أما المؤذن فكان يختار لرخامة صوته . وقد اهتم العثمانيون اهتماماً كبيراً بالأذان . وفى المساجد الجامعة والكبرى كان يشترك عدد من المؤذنين فى أداء الأذان فى وقت واحد وصوت واحد

عذب يخلق جواً روحانياً يشد المسلمين إلى الصلاة . وكان يسبق تعيين المؤذنين فترة تدريب يقضيها كل منهم على أداء شتى أنواع الآذان . وكان عليهم - بجانب الآذان - أن يرتلوا بعض الابتهالات . ويتخصص بعضهم في ترتيل آيات القرآن الكريم . أما القمّ فكان يشرف على موظفي الجامع أو المسجد ويراقب حضورهم في الوقت المناسب ، أى قبل حلول موعد الصلاة بوقت كاف ، ويراقب أداء أعمالهم على الوجه الأكمل .

ولم تكن المساجد الجامعة تحصل على عدد متساو من الموظفين ، بل كان عددهم يزيد وينقص تبعاً لأهمية الجامع أو المسجد ، وبخاصة المساجد الجامعة السلطانية ، وتبعاً للموارد المالية الموقوفة على الجامع . ففي بعض المساجد الجامعة كان يوجد في كل منها اثنا عشر مؤذناً . أما مسجد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) والذي شيد في مطلع القرن السابع عشر فكان يضم ستة وثلاثين مؤذناً. وقد غدا هذا المسجد في فترة من الفترات أعظم المساجد السلطانية في الدولة . أما في المساجد الصغيرة فكان لا يوجد سوى إمام يقوم أيضاً بوظائف الخطيب والمؤذن والقمّ .

وكان التعيين في تلك الوظائف يتم بمعرفة المشرفين على المؤسسات الخيرية التي تدفع مرتبات موظفي المساجد . وكان وعاظ الجوامع السلطانية في إستانبول هم الذين لا يخضعون لهذا النظام في التعيين ، إذ كان شيخ الإسلام هو الذي يتولى تعيينهم . فكانوا يشكلون فئة قائمة بذاتها . وكانوا يبدأون حياتهم الوظيفية في المساجد المشيدة حديثاً ، فإذا رقوا انتقلوا إلى المساجد الأقدم . وإذا امتد بهم الأجل وصلوا في ترقياتهم إلى مسجد السلطان محمد الثاني الذي كان من قبل كاتدرائية القديسة صوفيا وأصبح قمة المساجد السلطانية . ومن أجل هذا السبب كان وعاظ هذه المساجد في مرتبة أعلى من مرتبة خطبائها ، بينما كان الخطباء في المساجد أعلى مركزاً من الوعاظ . وكان تعيين موظفي سائر المساجد القائمة في إستانبول يتطلب صدور تصديق أو موافقة شيخ الإسلام . أما موظفو المساجد القائمة خارج العاصمة والمنتشرة (م ٢٩ - الدولة العثمانية)

في أنحاء البلاد ، فكان الأمر يتطلب صدور قرار باعتماد تعيينهم من أحد قاضي العسكر تبعاً لموقع المسجد إذا كان في أوروبا أو في آسيا .

الهيئة الإسلامية والحكومة العثمانية :

كانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وهي تباشر اختصاصاتها في شتى مجالات عملها تحرص حرصاً بالغاً على أن تكون مبادئ الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام العميق من جانب الحكام والمحكومين على السواء . والدولة العثمانية دولة دينية ، واتسمت سياستها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائصها . والأتراك العثمانيون شعب مطواع لحكومته ، غيور على دينه ، محافظ على تقاليدده ، يعتقد أن التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية أسلوباً ومنهجاً وسلوكاً في الحياة يكفل للإنسان السعادة والنجاح في الحياة الدنيا والنعم في الحياة الآخرة . فكانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، تؤدي رسالتها الإسلامية نشرًا وتعليمًا وقضاء وإفتاء . ويتبوأ أفرادها مكاناً علياً وهم يشغلون تلك المناصب المرموقة . فكانت الهيئة الدينية هي صمام الأمان للشعب والحكومة معاً . وكان نفوذ الهيئة يغطي جميع أرجاء الدولة ويمتد إلى خارج حدودها السياسية .

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والذين جاؤوا من عائلات إسلامية بعروة وثقى . حقيقة لم يكن هذا النمط من التفكير الديني والسياسي يغلب على جميع الرعايا المسلمين ، كما لم يكونوا جميعاً من أتباع المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة ، ولكنهم كانوا جميعاً مسلمين فخورين بدينهم ، محتويهم لإخلاص غامر للإسلام ، ورغبة دافقة للعمل من أجل تحقيق تفوق الإسلام في أرجاء العالم . وإذا كان بعض المسلمين نظروا إلى نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالي ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة العبيد - القولا - واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأغدقت عليهم الامتيازات لإغداقاً ، فإن نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان على كل حال ، وفي رأيهم أيضاً ، نظام يلوذ

به المسلمون ، ويعين على صمود الإسلام كدين عالمي أمام البابوية في روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية . وكانت هاتان القوتان المسيحيتان قد أظهرتا لعداء في العداء للدولة العثمانية .

وباستثناء طائفة الأشراف الذين كانوا ينحدرون من نسل النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وباستثناء طوائف الدراويش الذين كانوا يمارسون ألواناً من النشاط الديني ، فإن جميع وظائف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الإسلامية أي المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علمياً لتولى مناصبها ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة . كانت هيئة العلماء وهي تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والقضاة والمفتين قد تلقى أفرادها العلم وفقاً لنظام تعليمي واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمدارس وكليات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الإسلامية يمضي الطالب في رحابها سنوات طوالا يتلقى الدراسات إلى نهاية الشوط إذا كانت استعداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، ولا يتكبد ذووه نفقات تعليمه ، لأن الموارد المالية التي تدرها الأوقاف الدينية الإسلامية كان يوجه جزء منها للإنفاق عليه . وانتشرت المدارس في أرجاء الدولة في القارات الثلاث تقدم العلم للراغبين فيه على يد العلماء . ولم يكن مستوى التعليم يقل في مستواه عن مثيله الذي سبق أن تلقاه هؤلاء العلماء حين كانوا يطلبون العلم . كانوا يتولون التدريس لنوعيات مختلفة من الدارسين : الطلاب شباباً وشيبة ، أفراد طبقة القولا الحاكمة ، الأمراء ، والسلطان الحاكم نفسه ، إذ كان يعمل على مقربة منه خوجة السلطان ، أي معلم السلطان ، وكان بمثابة مستشار له . وكان السلطان يكن له احتراماً عميقاً وتقديراً بالغاً . وكلما مضت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك إلى وظائف القضاء والإفتاء بل إلى منصب شيخ الإسلام . وبذلك لم يظل أثر العلماء مقصوراً على الأفراد في مجالات التعليم ، بل امتد إلى مستقبل الدولة نفسها . كان فريق منهم يعملون في المحاكم قضاة ومفتين ، وفريق آخر يعملون في المساجد والمؤسسات الدينية في شؤون الدعوة

والإرشاد والتوجيه . وفوق هذا كله كان بجانب كل موظف كبير في الإدارة المركزية وفي حكومة كل ولاية قاض أو مفت يسدى إليه الرأى فى المسائل التى يستغلق فهمها على ذلك الموظف الكبير ، فيتولى شرحها له فى ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية .

امتيازات علماء الدين :

وأضفت الدولة على العلماء بعض الامتيازات الهامة مثل الإعفاء الضريبى . وكانت ممتلكاتهم لاتخضع للمصادرة ، ولا تؤول ملكيتها على الإطلاق للسلطان . فكانت ممتلكاتهم تورث لأولادهم وذرائعهم حسب قواعد الشريعة الإسلامية . وقد زادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء فى نظر الجاهل (١) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان أصحاب المناصب الدينية الكبرى ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام وقضاة العسكر وخوذة السلطان والقضاة من فة المولا الكبير والمفتون ومن إليهم من العلماء ، يتقاضون مرتباً إضافياً أطلق عليه « آربة لى » أى مال الشعير (٢) . وكان هذا المرتب فى أصله عبارة عن علاوة تمنح لأولئك الذين يحتفظون بقوات من الفرسان المعروفين باسم السباهى أو يناط بهم العناية بالتحيل سواء فى الجيش أو فى الإسطبلات السلطانية ، ثم توسعت الدولة فى تطبيق هذا المرتب على رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بحد أقصى لأصحاب المناصب الدينية الإسلامية سبعة آلاف أسير (٣) . ومنذ القرن الثامن عشر أصبح منح هذا المرتب الإضافى مقصوراً على شاغلى المناصب الدينية الكبرى .

ويلخص الأستاذ ألبرت حورانى الخطوط الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وذلك فى شتى المجالات التى امتد إليها نشاط هذه الهيئة فىقول . . « كانت السلطنة دولة تحكم فى نطاق

Lybyer A. H.; op. cit., p. 203.

(١)

(٢) آربة فى اللغة التركية معناها الشعير .

(٣) درج الكتاب الأوروبىون على استخدام كلمة أسير أو أسرة Asper أو Aepre

على العملة التركية أقة « بتضخيم الهمزة وفتحها » . وهى كلمة تركية معناها مائل إلى البياض . وهى تستعمل للدلالة على المسكوكات الفضية وبخاصة الصغيرة منها .

الشريعة الإسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى . وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التي كانت شيعية . وبفضل ما كان للعثمانيين من قريحة وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمرتبات التي تجرى عليهم بصفة رتيبة ومتظمة . وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيخ الإسلام ، وكبار رجال القضاء والإفتاء يستشارون في الشؤون العليا للدولة . وكان القضاة في الأقاليم هم السبيل الرئيسي الذي يتم عن طريقه الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الإسلامى في المدن الكبرى . وبسطت الحكومة رعايتها وحمايتها على المدارس الإسلامية في المدن العربية ، وقامت هى من ناحيتها بإنشاء مدارس جديدة في إستانبول لتعليم أولئك الذين سيشغلون أعلى المناصب في الهيئة الإسلامية في قابل الأيام » (١) .

وقد عمد المؤرخ الأمريكى ليبر Lybyer إلى تشبيه الهيئة الإسلامية بيد الإنسان ، وتشبيه الحكومة العثمانية بالقفاز الذى يضعه الإنسان فى يده . ومهد لهذا التشبيه بقوله إن الهيئة الإسلامية كانت تشمل جميع الرعايا المسلمين الأحرار الذين جاءوا من عائلات إسلامية ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الجماهيرية العريضة . والقفاز لابد أن يكون مناسباً لليد ملائماً لها ، كذلك كانت الحكومة العثمانية مناسبة وملائمة للهيئة الإسلامية ، واستطرد ذلك المؤرخ فقال إن التشبيه يذهب إلى أبعد من هذا الحد . فاليد تؤدى وظيفتها بنفس الكفاية سواء بالقفاز أو بدون قفاز ، بينما يكون القفاز عديم الفائدة بدون يد الإنسان . وفضلا عن ذلك فإن اليد تعيش مع الإنسان وتلازمه فى شتى مراحل حياته . واليد ترتدى عدداً كبيراً من القفازات ، وكلما بلى قفاز استخدمت اليد قفازاً جديداً ، وتستمر اليد تؤدى وظيفتها ما بقيت تنبض بالحياة (٢) .

Hourani Albert ; The Ottoman Background etc, op. cit., (١)
p. 8.

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 225—226. (٢)

الفصل السادس عشر

دراسة مقارنة بين الهيئتين الحاكمتين

المنابع الأولى لنظام الهيئتين :

حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصى المنابع الأولى التي استقى منها الأتراك العثمانيون الفكرة الأساسية التي قام عليها نظام كل من طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وقد أرجع فريق منهم المنابع أو الأصول التي قام عليها نظام طبقة القولار إلى الصين وفارس القديمة بحكم مجاورة هاتين الدولتين للمهاد الأولى التي نشأ فيها الأتراك العثمانيون في مناطق الإستبس في أواسط آسيا . وقرر فريق آخر أن أسلاف سلاجقة الروم هم الذين تولوا نقل الآراء التي قام عليها نظام طبقة القولار إلى الأتراك العثمانيين الذين تأثروا بدورهم بعد ذلك بالموثرات البيزنطية ، كما أنهم تأثروا بموثرات الصليبيين الذين وفدوا من أوروبا ومروا بمنطقة آسيا الصغرى وهم في طريقهم إلى الشرق الآسيوي الإسلامي حيث استقروا حيناً من الدهر وتركوا بصماتهم في هذه البقاع . ويضيف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين إلى ذلك أنه نجم عن هذه المؤثرات في مجموعها أن الأتراك العثمانيين لم يكتفوا بالأخذ بنظام طبقة القولار كما نقل إليهم فحسب ، بل عملوا إلى تطعيمه بآراء جديدة فرضتها عليهم الملابس التي أحاطت بهم منذ إنشائه دولتهم ، وأثم مضوا في تحوير هذا النظام سواء في آسيا الصغرى أو في الأقاليم التي دانت لحكمهم في الجنوب الشرقي من أوروبا إلى عصر السلطان سليمان المشرع . أما فيما يختص بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فقد ذهب فريق من المؤرخين والباحثين إلى أن الأتراك العثمانيين قد استمدوا الهيكل العام لهذه الهيئة من النظم التي كانت سائدة في الدولة الساسانية .

ومن الصعب تقيل هذه الآراء التي تبدو أنها آراء اجتهادية أو افتراضية تتطلب منا أن نخوض في دراسة النظم التي كانت قائمة في تلك الدول القديمة لتبين وجه الحقيقة . وهذا الأمر يخرجنا بعيداً وبعيداً جداً عن نطاق الدراسة التي نقوم بها ، ومثل هذه الدراسة لا تسمح لنا بالتعرض لتاريخ نظم قامت في دول موعلة في القدم . ولهذا نرى أن نكتفي بذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف وأوجه التداخل بين هاتين الهيئتين اللتين كانتا من المعالم البارزة في تاريخ الدولة العثمانية ، وقام على أكتاف أفرادها كل الإنجازات الحربية والإدارية والتشريعية والدينية والاجتماعية .

أوجه الشبه بين الهيئتين :

كان من أوجه الشبه بين طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أنها اتخذتا من التعليم وسيلة للبقاء والاستمرار والأخذ بأسباب القوة والنماء . فكان لكل منهما نظام تعليمي خاص بأفرادها يتمشى مع رسالتها ويحقق أهدافها . كانت طبقة القولاار الحاكمة تقدم إلى أبنائها تعليماً تناول التربية العسكرية وتناول أيضاً النواحي التثقيفية العلمية المحضة ، بينما كان اهتمام الهيئة الإسلامية مقصوراً على الدراسات العقلية ، وفي مقدمتها علوم الشريعة وأصول الدين ، وأهملت إهمالاً تاماً التربية الرياضية .

وحرصت كلتا الهيئتين على تزويد القاعدة العريضة بتلاميذ جدد تقدم لهم التعليم وفقاً للمناهج الموضوعه لكل هيئة . وكان الصف الأول في كل من هاتين الهيئتين يجد دواماً رصييداً لا ينفد من رجال الصف الثاني ليشغلوا منه المناصب العليا أو القيادية التي تخلو بمضى الأيام . وبالمثل كان الصف الثاني يجد معيناً لا ينضب من رجال الصف الثالث يملأ منه الوظائف الشاغرة . وهكذا مضت عملية ملء الصفوف في كل هيئة وفق خطة مرسومة ونظام رتيب .

وانتشر أفراد الهيئتين في شتى القطاعات المدنية والعسكرية . عمل أفراد طبقة القولاار في الجيش وفي الإدارة المركزية وفي حكومة الولايات وفي البلاط السلطاني . وكان أعلى منصب وصلوا إليه هو منصب الصدارة العظمى .

وعلى هذا النحو عملوا أدوات للحرب والحكيم والخدمة الداخلية والخدمة الخارجية للسلطان في قصوره . أما أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فقد شغلوا مناصب القضاء والإفتاء وتدرّيس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها . وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس ، وشمالاً إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمالى إفريقية ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تلور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسينين : النصر أو الاستشهاد . ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية العربية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية . كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمّون الجنود في صلاة الخوف (١) وهم في ساحات القتال . وكان أعلى منصب يصل إليه أفراد هذه الهيئة هو منصب شيخ

(١) من المعروف أن المحاربين لا يستطيعون أداء الصلاة في طمأنينة وأمان وهم في ساحات القتال بينما العدو متربص بهم ، يود منهم الاسترخاء أو الانشغال عن القتال ولو لفترة وحيدة فيأخذهم على غرة . وتقديراً من الله سبحانه وتعالى للظروف الخطيرة والشاقة التي يحارب فيها المسلمون ، وتمكناً لهم من إقامة الصلاة ، وتسكيراً عليهم في أداؤها ، فقد وردت في القرآن الكريم صلاة الخوف في قوله تعالى . « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتنم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم ، فمبيلون عليكم ميلاً واحدة . » سورة النساء ، صدر الآية الكريمة رقم ١٠٢ .
وفي صلاة الخوف تنقسم المجموعة أي الوحدة - سرية كانت أو فصيلة - بشرط أن تكون متجمعة ، إلى مجموعتين : مجموعة الاستعداد للدرجة القصوى في مواجهة العدو . والمجموعة الثانية مع الإمام ، فيصل بهم ركعتين في الصلاة الرباعية ، ثم يسلمون من الصلاة وينصرفون =

الإسلام . وكان أكبر منصبين في الدولة - المصدر الأعظم وشيخ الإسلام - يتم التعيين فيها بفرمان يصدره السلطان شخصياً ومباشرة لكل منها ، ويستقران في منصبيهما في العاصمة على مقربة من العرش السلطاني . وكذلك كان شأن معظم كبار أفراد الهيئتين .

أولاً : اختلاف الأساس الذي قامت عليه الهيئتان :

كان من أهم أوجه الاختلاف بين طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أن الأساس الذي قامت عليه كل منهما كان يختلف عن الآخر اختلافاً جذرياً . قامت طبقة القولاار على أساس مصطنع غير طبيعي ، ولذلك لم يقدر له الاستقرار أمداً طويلاً . كان أفراده عبيداً للسلطان ، ولكنهم لم يولدوا عبيداً . لقد جاءوا إلى الحياة أطفالاً مسيحيين أحراراً ، ثم تغير وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي ، فغدوا مسلمين عبيداً للسلطان . ولم يكن في الاستطاعة أن تمضي هذه العملية المصطنعة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً دون أن يعترها وهن ثم اضمحلال يؤدي بها إلى التوقف والزوال . وقد ذكرنا من قبل أنه كانت هناك أربعة منابع حصلت منها الدولة على أفراد طبقة القولاار الحاكمة : أسرى الحرب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة الغلمان . وبمضي

= لاستلام مهام المجموعة الأولى التي تأتي بدورها لتدخل في الصلاة فتصل مع الإمام ركعتين تسلم بعدهما . أما في حالة الاشتباك الفعل أو القتال المتلاحم فإن المحاربين يصلون بالإيماء ومعهم أسلحتهم . ولا يشترط حينئذ استقبال القبلة ، لأنه شرط مع القدرة عليه .

وقد صلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه صلاة الخوف على أنواع مختلفة تناولتها بالتفصيل كتب الفقه . والهدف من هذه الصلاة هو التوفيق بين ضرورات القتال وما يجب له من تهيؤ وحذر ، لإحباط مكائد العدو وهجمات المباغثة وبين اتخاذ عدة النصر كاملة ، وفي أولها الصلة بالله في الصلاة إذ هي السلاح الأول من أسلحة النصر في المعركة لا يجوز تركها أو تأجيلها ، فجاءت تلك الآية الكريمة في صلاة الخوف مع رسول الله ومع خلفائه وأئمة المسلمين الملتزمين بسنته .

انظر :

أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري : الروضة السنية . شرح الدرر البهية . جزءان . نشر وتصحيح وتمليق إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقي ، شارع الكحكيين رقم ١ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ص ١٤٧ - ١٤٩ .

الزمن انحضرت هذه المنابع الأربعة في مصدرين : الأسرى و ضريبة الغلمان .
وقد نضب معين المصدر الأول وهو أسرى الحروب بعد أن بلغت الفتوحات
العثمانية في أوروبا حد التشبع ، وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية في زحفها
على قلب أوروبا إلى مشارف فيينا ، وتعذر على هذه الجيوش أن تمضي
قدما في زحفها الخاطف والظافر . فالدولة كان قد بدا عليها الهزال ،
بينما كانت الدول الأوروبية التي وقفت في وجهها بعد ذلك تملك الكثير
من أسباب القوة والمنعة والصمود . أما المورد الآخر وهو ضريبة الغلمان
فلم يكن في مقدور الدولة أن تستمر في جمعها قروناً متعاقبة ، وانتهى بها
الأمر إلى إلغائها . وكان هؤلاء الصبيان يفصلون عن آبائهم وأمهاتهم
وسائر ذويهم فصلا مصطنعاً وحاداً وعنيفاً . ولما اشتد ساعد هؤلاء الصبية
واكتملت رجولتهم لم تشجعهم الدولة على تكوين روابط عائلية . وإذا تزوج
فريق منهم - لأن الزواج ظل محرماً على الذين انخرطوا منهم في السلك
العسكري ثم أذن لهم في الزواج - لم يكن الآباء مطمئنين إلى أن الثروات
التي كونوها سواء كانت عقاراً أو أموالاً سائلة سوف توول إلى أبنائهم
وذريهم ، بل كان ينتابهم خوف مرير مدمر من أن يسلبهم السلطان
أموالهم وممتلكاتهم بل وحياتهم . ولذلك كانت طبقة القولار الحاكمة في
أساسها وفي نظمتها تسير في خطوط تتعارض مع فكرة الأسرة وروابط
الأسرة وجو الأسرة . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت تأخذ
أفرادها من أبناء المسلمين الأحرار ، وكان يتزايد عددهم باطراد .
وكان عليهم إذا أرادوا أن يتبوأوا مكانة مرموقة في وظائف الهيئة أن
يواصلوا دراساتهم العليا . وكانوا أحراراً لا يعوقهم عائق في علاقاتهم
العائلية أو في حياتهم الخاصة . يتضح مما سبق أن أهم سبب لاختلاف
الأساس الذي قامت عليه كل هيئة من هاتين الهيئتين أن أفراد طبقة
القولار جاءوا - أو جمعوا بعبارة أكثر دقة - من عائلات مسيحية ،
بينما جاء أفراد الهيئة الإسلامية من عائلات إسلامية . ومعظم أوجه
الاختلاف ، إن لم يكن جميع أوجه الاختلاف بين هاتين الهيئتين ، إنما تنبثق
من هذا السبب .

ثانياً : نظرة كل هيئة إلى السلطان : عبودية أو طاعة :

ينبتق عن الاختلاف السابق اختلاف آخر وثيق الصلة به ، هو نظرة أفراد كل من الهيئتين إلى الرئيس الأعلى للدولة . فعلى الرغم من أن السلطان كان رئيس الهيئتين ، إلا أن نظرة أفراد كل هيئة إلى السلطان كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة أفراد الهيئة الأخرى إليه . ومرد هذا الاختلاف إلى أن رئاسة السلطان لطبقة القولاار الحاكمة ورياسته للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانتا تستندان إلى اعتبارات قانونية . فالهيئة الأولى مجموعة من المسلمين العبيد ، والهيئة الثانية مجموعة من المسلمين الأحرار .

كان السلطان بالنسبة لطبقة القولاار الحاكمة هو كل شيء : هو السيد المطاع ، وهم العبيد الأرقاء يملك بالنسبة لهم أسباب الموت ، ويتخذ ضدهم ما يشاء من إجراءات بحكم تملكه لهم وما ملكت أيديهم ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لرغبته . وهم كعبيد يدينون له بالعبودية التامة بكل ما تحمله هذه العبارة من معاني الصرامة والسيطرة التي لا يحدها قيد أو حد . أما بالنسبة للهيئة الدينية الإسلامية ، فكانت رئاسة السلطان لها تقوم على أساس أنه يعتبر إماماً للمسلمين الأحرار الذين هم أفراد الهيئة الإسلامية . وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولى الأمر كما يأمرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (١) .

ونقف هنا وقفة قصيرة لنزيد جلاء هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين أفراد طبقة القولاار الحاكمة وأفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . توجد نقطتان هامتان تفرضان نفسيهما فرضاً في هذا الحال . النقطة الأولى هي أن الفارق كبير بين العبودية التي تدين بها للسلطان العثماني طبقة القولاار أى عبيد السلطان ، وبين الطاعة التي يدين بها للسلطان المسلمون الأحرار ، وهم أفراد الهيئة

الإسلامية . والنقطة الثانية هي أن طاعة المسلمين الأحرار مشروطة بأن تكون في نطاق الشريعة الإسلامية . وطبقاً للنص القرآني في الآية الكريمة السابقة يجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداء ، وأن يطيعوا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما له من صفة الرسالة . فطاعته هي من طاعة الله الذي أرسله بالشريعة . أما أولو الأمر أياً كان لقبهم أميراً أو ملكاً أو سلطاناً ، فيجعل الله طاعتهم تبعية ، ولا يجعل طاعتهم أصلية . ولذلك اقتضت حكمة الله أي يرد النص القرآني في الآية الكريمة المشار إليها مجرداً من لفظ الطاعة عند ذكر أولى الأمر ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله . فليس لأولى الأمر طاعة فيما وراء الشريعة ، لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست طاعة أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هي بذاتها أصلاً . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١) في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها منهاجه في الحكم . وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله « أيها الناس إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عايكم » (٢) وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله . لا طاعة لحاكم في معصية الخالق . وقد مر بنا في هذه الدواسة أن شيخ الإسلام كان يلوذ بالشريعة الإسلامية ويعتمد عليها إذا احتدم الخلاف بينه وبين السلطان أو الصدر الأعظم إذا حاد أحدهما أو كلاهما عن مبادئ الشريعة . ويحفل تاريخ مصر إبان الحكم العثماني بمواقف رائعة تمسك فيها علماء الأزهر بهذا المبدأ الإسلامي تمسكاً جعلهم يرفضون تنفيذ أوامر السلطان العثماني إذا رأوا فيها خروجاً على مبادئ الشريعة . كان السلطان قد أرسل إلى مصر عدة

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن مالك . فهو يلتقي مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مرة .

(٢) الفلشندي أبو العباس أحمد : صبح الاعتي في صناعة الإنشا ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

فرمانات (١) كان بعضها يختص بتغيير نظام صرف الأموال المرصودة على المساجد والأسبلة والتكايا وغيرها من الجهات الخيرية . وطلب قاضي القضاة العثماني في مصر إلى علماء الأزهر تنفيذ هذه فرمانات ، كل فيما يخصه . ولكنهم رأوا أنها تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، فرفضوا تنفيذها . فقال لهم قاضي القضاة « إن أمر السلطان لا يخالف ، ويجب طاعته » . فتصدى له الشيخ سليمان المنصوري ، ويصفه الجبرتي بأنه « أحد الصدور المشار إليهم » وتحدى السلطان وأعلن في مواجهة قاضي القضاة أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان ، لأنه يخالف لأحكام الشريعة ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك » . وسجل الجبرتي موقفاً مماثلاً لعلماء الأزهر حين وقفوا في وجه حسن باشا الجزائري قائد الحملة العسكرية العثمانية التي جاءت إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة الأمراء المماليك ودعم نفوذ الدولة العثمانية في مصر . كان هذا القائد وهو في أوج نفوذه قد فكر في استباحة أموال الأمراء المماليك والقبض على نساءهم وأولادهم وعرضهم في سوق الرقيق بالقاهرة لبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال . ولما أقدم حسن باشا على تنفيذ فكرته ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر مستنكرين هذه التصرفات . واحتدمت المناقشة بينه وبينهم ، وقال له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات « هل أرسلك السلطان إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال « هؤلاء أرقاء بيت المال » . فأجابه الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فثارت نائرة القائد العثماني ، وأمر سكرتيه بكتابة أسماء العلماء الحاضرين ليبلغ السلطان بمعارضتهم لأوامره . فانبرى له أحد الحاضرين قائلاً « اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا » (٢) .

(١) سجل هذه فرمانات أغا من إستانبول . وكان ذلك في أثناء ولاية باكير باشا الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ هـ / ١٧٣٤ - ١٧٣٧ م) . انظر :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص في سياق

ترجمة الشيخ محمد السادات في وفيات سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١-١٨٧٢ م .

ونخلص من هذا العرض إلى أن المسلمين الأحرار أفراد الهيئة الإسلامية نظروا إلى الشريعة الإسلامية على أنها فوق السلطان العثماني . أما العبيد أعضاء طبقة القولار الحاكمة فلم يعترفوا بسلطة أعلى من سلطة السلطان .

ويمكن تفسير هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الإسلامية بأن نشأة أفراد كل من هاتين الهيئتين قد انعكست على تصرفاتهم ومسلكهم بل وعلى روحهم العامة في الحياة . كان أفراد طبقة القولار الحاكمة أطفالاً مسيحيين في مهادهم - كما سبق أن ذكرنا - ثم انتزعهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم وحوّلهم إلى الدين الإسلامي . فكانوا حديثي عهد بالإسلام . ونجم عن ذلك أن عقيدتهم الدينية الجديدة لم تكن بنفس الأصالة والقوة والصلابة التي كان يشعر بها ويدين بها أفراد الهيئة الإسلامية الذين ولدوا مسلمين ، وشبوا وترعرعوا وعاشوا في جو إسلامي غير مصطنع ، فتشبعوا بالإسلام ديناً بعد أن تمكن من أفئدتهم وتغلغل في أعماق نفوسهم .

ثالثاً : نوعية أفراد الهيئتين :

ومن أوجه الاختلاف بين الهيئتين نوعية الأفراد الذين تستقى منهم كل هيئة قاعدتها العريضة . فالدين الإسلامي دين عام بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث به رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه للبشرية جمعاء ، فهو ليس ديناً خاصاً بقوم ، أو بجنس من أجناس البشرية ، أو بجيل من الأجيال ، أو بإقليم من الأقاليم . والله يقول في كتابه العزيز « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ، الذي يوئمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . (١) والإسلام يمثل عبر التاريخ الإخاء الإنساني في أروع صوره ، وقد عبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وأباكم واحد . لا فضل لعربي على عجمي ،

(١) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٨ .

ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود ، إلا بالتقوى» (١) . والإسلام لا يعرف الطبقة ولا التمييز العنصري . والرسول عليه الصلاة والسلام ليس رسولا عنصرياً أو إقليمياً أو طبقياً ، وهو يقول « بعثت إلى الناس كافة ، الأحمر ، والأسود » (٢) . وتأسيساً على هذه المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فإن الهيئة الإسلامية ، وهي تضم الأفراد الذين ولدوا مسلمين أحراراً ، كانت لا تقيم وزناً لأجناسهم .

أما طبقة القولار الحاكمة فكان أفرادها يؤخذون من الأسرى المسيحيين واعتنقوا الإسلام . ويؤخذون أيضاً من الحصيلة البشرية لضريبة الغلمان ، وهي أغنى منابع الرقيق . وطبقت الدولة هذه الضريبة على طوائف معينة من رعاياها ، وأعفت طوائف أخرى . فقد أعفت رعاياها اليهود كلية ، كما أعفت رعاياها المسيحيين الكاثوليك . وطبقت الضريبة على المسيحيين الأرثوذكس وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويطلق عليهم في بعض المراجع الروم الأرثوذكس ، ونجم عن هذا الإعفاء فروق صارخة . ونسوق في هذا المجال مثالا لهذه التفرقة . كان من بين رعايا الدولة أرمن كاثوليك وأرمن أرثوذكس . وطبقاً للقانون كانت الدولة تعني أبناء الأرمن الكاثوليك من ضريبة الغلمان وتطبقها على أبناء الأرمن الأرثوذكس ، مع أن الجميع رعايا الدولة ، والطائفتان من الأرمن . ثم أوغلت الدولة في الإعفاء بين أفراد المذهب الديني الواحد ، فأعفت من الضريبة أبناء المسيحيين الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المقيمين في المدن الكبرى مثل إستانبول وأثينا وبعض الجزر مثل رودس . وترتبت على هذا الإعفاء المكافي فروق صارخة أيضاً على غرار ما سبق .

ومن ثم كان الاختلاف بين الهيئتين ملحوظاً . فالهيئة الإسلامية تفتح أبوابها على مصاريعها للمسلمين الأحرار ، ويتقلد مناصبها ويتدرج إلى أعلاها

(١) الهيثمي ، مجمع الزوائد . ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل . طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦١ عن رواية

ابن عباس .

كل فرد يمضى فى دراساته إلى نهاية الشوط ، وإلا فإنه يتولى الوظيفة التى يؤهلها لها مستوى ما حصل عليه من علم ، سواء كانت هذه الوظيفة فى القطاع الدينى أو فى القطاع الإدارى . أما طبقة القبولار الحاكمة ، وهى فى صدد تكوين قاعدتها العريضة ، فكانت تأخذ فريقاً من أبناء رعايا الدولة المسيحيين دون أبناء فريق آخر . ومعيار التطبيق العملى هو انتهاء الغلمان للمذهب دىنى مسيحي معين كان يعتنقه آباؤهم ، أو لأنهم يقيمون فى إقليم معين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية .

رابعاً : امتيازات الهيئتين :

أضفت الدولة العديد من الامتيازات على أفراد طبقة القبولار الحاكمة . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبي والإعفاء من الخضوع للقضاء العادى ، وأنشأت لهم نظاماً قضائياً خاصاً بهم ، وأصبح التعيين مقصوراً عليهم فى بعض فرق الجيش وفى المناصب المدنية خارج نطاق القطاع الدينى فى شتى مجالاته ، فشغلوا عديد الوظائف سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومة الولايات أو فى البلاط السلطانى . وتمتعوا بمركز مادى واجتماعى وأدبى مرموق . وكانت هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ومسمياتها تشكل تعميقاً للفروق الصارخة بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية ، إذ انفصل أفراد طبقة القبولار الحاكمة مالياً وقضائياً وضريبياً عن سائر رعايا الدولة ، الأمر الذى أوجد حقداً طبقياً على القبولار من جانب سائر المجتمعات العثمانية . حقيقة اقتصت الدولة أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وبخاصة الذين شغلوا منهم المناصب الكبرى ، بامتيازات . ولكن لم تكن هذه الامتيازات بمثل ذلك الحجم أو التنوع الذى ظفر به أفراد طبقة القبولار الحاكمة .

خامساً : القبولار طبقة قائمة بذاتها :

والحق أن إطلاق كلمة «طبقة» على أفراد القبولار أدنى إلى الحقيقة من لفظة «هيئة» ، لأن القبولار - وهم عبيد السلطان - كانوا يشكلون طبقة

خاصة قائمة بذاتها في أجهزة الحكم في الدولة العثمانية . وكانوا في ذات الوقت شريحة هامة من شرائح المجتمع العثماني ، ينتمى إليها أفراد معينون وضعت الدولة لهم مواصفات محددة تحديداً دقيقاً بحيث غدوا يشكلون طبقة مغلقة ، لا يدخلها ولا ينتمى إليها سوى الأفراد الذين جاءوا إلى الحياة مسيحيين ، ويعتقون مذهباً دينياً مسيحياً معيناً ، هو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ثم انتزعتهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم ، وحولتهم إلى الإسلام ، وجعلتهم عبيداً للسلطان ، وقدمت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً مقروناً بدراسات دينية إسلامية ، ورسمت لهم مجالات واسعة يعملون فيها ، ورتبت لهم امتيازات طبقية . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت هيئة مفتوحة تتسع للمسلمين الأحرار المؤهلين علمياً لتتولى مناصبها .

سادساً : الأخطار التي كانت تواجهها طبقة القولار :

اختلفت حياة أفراد طبقة القولار عن حياة أفراد الهيئة الإسلامية . كانت حياة القولار مهددة باستمرار . فإذا غضب السلطان على أحد منهم ، كان له الحق في أن يصادر أمواله أو أن يأمر بقتله أو بإعدامه . وتم إجراء المصادرة أو القتل أو الإعدام دون محاكمة . ولم يكن في مقدور أحد في الدولة أن يراجع السلطان في مثل هذه الرغبات أو الأوامر التي تسلب أحداً من القولار أمواله أو حياته حتى ولو كان يشغل منصب الصدارة العظمى . أما أفراد الهيئة الإسلامية فكانوا بمنجاة ، في الأعم الأغلب ، من أمثال هذه الإجراءات ، إذ كانوا يخضعون لإجراءات قضائية مقررة طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وكانت المحاكم تنظر فيما يشجر بينهم من خلاف أو بينهم وبين إدارات الحكومة أو ما يقع منهم من مخالفات . ولذلك عاشوا في طمأنينة نسبية على أموالهم وعلى حياتهم .

سابعاً : مدى نفوذ كل من الهيئتين :

كانت طبقة القولار الحاكمة تملك أسباب القوة المادية التي تمثلت في الجيش والمناصب القيادية في الإدارة المركزية وفي حكومات الولايات وفي (م - ٣٠ الدولة العثمانية)

البلاط السلطاني ، بينما كانت الهيئة الإسلامية تملك أسباب القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة رجال الهيئة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، والتنظر على الأوقاف ثم نشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين . ولذلك كان رجال الهيئة الإسلامية الذين يمارسون هذه الاختصاصات أكثر التصاقاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين .

كان نفوذ إحدى هاتين الهيئتين ينمو ويزكو على حساب الهيئة الأخرى تبعاً لشخصية السلطان المتربع على العرش . ومع ذلك - كما سنرى في سياق هذه الدراسة المقارنة - كانت كفة الهيئة الإسلامية هي الراجحة في معظم العهود ، إن لم يكن في جميعها . وقد شهدت الدولة نماذج متنوعة من السلاطين . كانت تطغى على بعضهم الزعة الحربية تفكيراً ومنهجاً في الحكم وأسلوباً في الحياة . فكان حكم كل منهم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الخارجية لا هوادة فيها ، تستهدف توسيع رقعة الدولة سواء في أوروبا أو في آسيا أو في إفريقية ، أو في هذه القارات الثلاث معاً ، أو في الاستيلاء على جزر في البحر المتوسط كانت بمثابة قواعد عسكرية يتخذها أعداء الدولة جيوباً صليبية لهم . وينطبق هذا النوع على عدد كبير من سلاطين الفترة الأولى ، وقد حفل حكمهم بانتصارات عسكرية رائعة ، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان محمد الفاتح . وعلى عهد هذا النوع من السلاطين كان نفوذ طبقة القولاير الحاكمة يزداد بل يشتد ، وبخاصة في القطاع العسكري . ومع ذلك يظل نفوذ الهيئة الإسلامية قوياً ملحوظاً وبخاصة في ساحات القتال قبيل المعارك وبعد المعارك على حد سواء . وقد تكلمنا عن دورهم الخطير قبيل بداية المعارك التي كان يخوضها الجيش العثماني . وكان لهم أيضاً دور هام بعد أن تضع الحرب أوزارها، إذ كانوا يعكفون على تنظيم الحياة الدينية الإسلامية في ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية في البلاد المفتوحة .

وكان هناك فريق آخر من السلاطين جمعت الدولة على عهدهم بين

الأعجاد العسكرية البراقة والإنجازات الدينية الرائعة . ونذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الأول . أتجه في فتوحاته وجهة شرقية إسلامية كانت جديدة بالنسبة للدولة ، فقد حارب الدولة الصفوية في بلاد فارس ودخل عاصمتها تبريز وهبط بهذه الدولة من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ثم فتح بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة وهى انتصارات عسكرية رائعة خلدت اسم السلطان سليم الأول في تاريخ الدولة العثمانية . وساعدت هذه الانتصارات على نمو نفوذ طبقة القولار الحاكمة . ومن ناحية أخرى دخل إقليم الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . وهو من أهم الأحداث السياسية في تاريخ العالم الإسلامى في القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، وأهم حدث دينى في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ أكد زعامتها للعالم الإسلامى . فهذا الإقليم يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهما أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض . وأضاف السلطان سليم الأول وخلفاؤه إلى ألقابهم لقباً دينياً جديداً استهوى أفتنتهم ، كما ذكرنا من قبل ، وهو «حامى الحرمين الشريفين» . وضمت الدولة العثمانية أيضاً المسجد الأقصى فى بيت المقدس وهو ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبليتين ، إلى جانب مراكز الحضارة الإسلامية فى القاهرة ودمشق وحلب وغيرها . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية والدينية التى تمت على يد سليم الأول أن ازداد عدد رعايا الدولة المسلمين زيادة جارقة ، وبرز فى الدولة الطابع الإسلامى بروزاً واضحاً قوياً . وكانت لكل هذه الإنجازات نتائجها الهامة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد سبقت طبقة القولار الحاكمة بمراحل من حيث علو شأنها واتساع نفوذها وازدياد هيبتها . وما حدث لها على عهد السلطان سليم الأول تكرر على عهد ابنه السلطان سليمان المشرع الذى فتح عدة جهات حربية وانساح الجيش العثمانى فى بلاد المجر وجاب الأسطول العثمانى حوض البحر المتوسط يقضى على بعض الجيوب الصليبية ، ويبسط السيادة العثمانية على شمالى إفريقيا ما عدا مراکش ، ويفتح جهة ثالثة فى الشرق الإسلامى ضد فارس وفى العراق . وقد تميز هذا السلطان بجوانب حضارية متعددة تمثلت فى التشريعات التى وضعها على هدى من مبادئ

الشريعة الإسلامية؛ وظل معمولاً بها في معظم ولايات الدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر، كما تمثلت في المنشآت الدينية المعمارية التي أقامها . وكان أهمها مسجد السلمانية والعديد من المساجد الكبرى والصغرى بالإضافة إلى معاهد تحفيظ القرآن والمدارس وتجديد بناء الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وتجديد أسوار بيت المقدس . وكان اهتمامه بالنواحي الدينية بارزاً. وانعكس على وضع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فازدادت مصادرها المالية نماء وتعاظم نفوذها .

وكان هناك النوع الثالث والأخير الذي يتمثل في سلاطين ذوى ميول سلمية وتميزت عهودهم بهدوء نسبي . وينطبق هذا الحكم على الغالبية الساحقة من سلاطين الفترة الثانية . وإذا كانت الدولة على عهودهم قد خاضت حروباً خارجية ، وهم لم يتولوا قيادتها في معظم الأحوال لأنهم آثروا السلامة والعزلة ، فإن هذه الحروب كان معظمها حروباً دفاعية استهدفت الحفاظ على تماسك الدولة وسلامة ممتلكاتها . وقد استمر مركز الهيئة الدينية الإسلامية على عهودهم قوياً منيعاً لم يهتز ولم يمسه وهن من قريب أو من بعيد .

ويمكن القول بوجه عام إن نفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان يتصاعد باطراد في كل العهود . وكان الفارق بين عهد وعهد يكن فقط في مدى السرعة التي يزايد بها هذا النفوذ . أما طبقة القولار الحاكمة فكانت تزايد سلطتها وقيمتها في نظر العالم الخارجي المعاصر ما بقيت عجلة الفتوح الحربية تسير بسرعة مذهلة . فلما توقفت الفتوح، ذهب البريق الذي كان يحيط بها .

أما النمو السريع لنفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل تجمعت على مر السنين . كانت لها موارد مالية ضخمة تمثلت في الأراضي الزراعية والعقارات وغيرها من الأوقاف الخيرية. وقد تكدست هذه المصادر في أيدي الهيئة ولم تفقد منها شيئاً . وكان السلاطين أنفسهم شديدي الاهتمام برصد الأموال العامة والخاصة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة سواء كان الدافع لهم هو التقوى والرغبة في التقرب إلى الله ، أو نيل مزيد

من مظاهر العظمة والتباهى ابتغاء اكتساب محبة الجماهير وتقديرها . وفي ذات الوقت تنافس الأثرياء من أهل البذل على إنشاء المساجد والكتليات والمدارس والحمامات العامة والأسبلة والتكايا وغيرها ، ويوقفون عليها الأوقاف الخيرية للإنفاق من إيراداتها على هذه المرافق الدينية . ومن هذه العوامل أيضاً احتكار الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة التعليم العقلي بعيداً عن ميدان التعليم العسكرى . فكان في يدها سلاح أدبي رهيب تغزو به عقول الناشئة . وكانت كل مدرسة جديدة وكل كلية شريعة تنشأ حديثاً مما يقوى أثر الهيئة الدينية الإسلامية ونفوذها في مجال تربية العقول . وكان كبار « الخوجات » يقومون بالتدريس لطوائف الغلمان في القصور السلطانية ويسدون النصائح إلى والدة السلطان ، وإلى زوجاته ، ويتولون تعليم أبنائه .

تأثير كل من الهيئتين في الأخرى :

كانت الهيئتان : طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة توديان رسالتيهما وتحققان أهدافهما المرسومة لهما ، وتعتمد عليهما الدولة في مسيرتها سواء في مرحلة التوسع الإقليمي هجوماً على أعدائها أو في مرحلة الجمود الحربى دفاعاً عن أقاليمها . وكان لا مناص من أن تؤثر كل هيئة في الأخرى ، لأنهما الهيئتان الرئيسيتان في نظم الدولة ، وكانتا تشكلان معا العمود الفقرى فيها .

جاء تأثير طبقة القولار الحاكمة في الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عن طريقين : الحرب ، وارتقاء أفرادها مناصب الحكم والإدارة من أذناها إلى أعلاها . فساندت وجود الهيئة الإسلامية ودافعت عن بقائها وقيامها ووجودها *raison d'être* وكانت هي الوسيلة أو الأداة في تنفيذ قرارات هذه الهيئة وأحكامها القضائية ، والحفاظ على الشريعة الإسلامية عملياً وعدم المساس بالمصادر المالية للهيئة الإسلامية مما كفل السيولة النقدية تصل في نظام رتيب إلى العلماء والقضاة ورجال الإفتاء ومن إليهم؛ واستطاعوا المحافظة على مستوى معيشة محترم . وانصرفوا يكرسون جهودهم وأوقاتهم إلى أداء المهام المنوطة بهم في شتى مجالات الشريعة الإسلامية وأصول الدين نظرياً وتطبيقياً .

وأثرت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في طبقة العبيد - القولار -
إذ طبعت الهيئة الأخيرة بطابع المحافظة على القديم الذى وصل فى بعض
الأحيان إلى الجمود . ومن المعروف أن المحافظة على القديم ومقاومة كل
جديد كانتا من خصائص الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد قام العلماء
والمفتون ومن إليهم من أفراد هذه الهيئة الدينية الإسلامية بالتدريس للأمراء
وعلمان القصور وغيرهم من ناحية ، أو بإصدار الفتاوى لرجال الحكم
سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومات الولايات من ناحية أخرى . وبذلك
تناولوا الجانب التعليمى والتثقيفى فى تنشئة فريق من أفراد الهيئة الحاكمة
وفى التوجيه السياسى والدينى لرجال الحكم المركزى والحكم المحلى فى المسائل
التي يطلب من رجال الهيئة الدينية الإسلامية إصدار الرأى فيها أو ما يسمى
الفتاوى . ولذلك ينسب المؤرخون الجمود الذى أصاب نظم الدولة وأجهزتها
إلى تأثير رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وهو حكم لا يصور الحقيقة
من جميع جوانبها . فالأتراك العثمانيون كمشعب اشتهروا بالمحافظة على القديم
والاستمسك بالتقاليد والعرف والعادات لا يبتغون عن كل أولئك بديلاً .
فهم يتحملون نصيبهم غير منقوص من مسئولية الجمود الذى ران على
أنظمة الدولة وأجهزتها فى وقت كان العالم فى أوروبا الغربية بوجه خاص
يطور حياته ويحور نظمه فى الحكم والإدارة والعسكرية وغير ذلك تحويراً
يواكب سنة التطور ويتمشى مع إدخال العلوم الحديثة فى شتى مجالات الحياة .
ومن المعروف أن الموقف الثابت المتجمد الذى تلتزم به دولة ما، هو الخطوة
الأولى التى تؤدى بهذه الدولة إلى طريق الاضمحلال .



الفصل السابع عشر

مراكز القوى في الدولة (١)

فيالق الإنكشارية

بجانب الهيئتين الحاكمتين - طبقة القولار والهيئة الدينية الإسلامية - وجدت في الدولة مراكز قوى كان لها نفوذ واسع وخطير في دوائر الحكومة ، ووجهت شئون الدولة ، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، الواجهة التي كانت تبثها . وكان من بين هذه المراكز : الفيالق الإنكشارية في الجيش ، الحريم السلطاني ، العبيد الخصبان ورؤسائهم .

الفيالق الإنكشارية :

نشأت الدولة العثمانية في أول أمرها إمارة غزاة . فكان الغزو العسكري هو شغلها الشاغل ابتغاء التوسع الإقليمي المرحلي . وقد سبق أن ذكرنا أن الطابع العسكري الصارم كان الخصيصة الأولى من خصائص الدولة العثمانية (١) . ولم تظفر هيئة في الدولة بمثل الاهتمام العميق الذي ظفر به الجيش العثماني بوجه خاص . فقد كانت الدولة تنظر إلى الجيش على أنه أداتها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها .

ولن نحوض في هذه الدراسة في ذكر الفرق العسكرية التي كان يتألف منها الجيش العثماني في نشأته ، أو الفرق المستحدثة التي أدخلت عليه تباعاً . ولن نتعرض لتنظيمات الجيش وقياداته والمدارس العسكرية وما إلى ذلك من موضوعات تتصل بالجيش عامة . وسيكون بحثنا في هذه الدراسة مقصوراً

(١) انظر في هذه الدراسة ص ص ٤٩ - ٥٣ .

على الفياتق الإنكشارية مع إشارة سريعة في الحواشي يقتضيها منهاج البحث إلى بعض الفرق العسكرية التي كان لها اتصال مباشر بالفياتق الإنكشارية مثل فرقة البلطجة ، وفرقة البوستانجية ، وفرقة الجبه جيه .

كان الإنكشارية - وهم طائفة عسكرية من البيادة (١) - أى المشاة - يشكلون تنظيمياً خاصاً بهم ، لهم ثكناتهم وشاراتهم ودراساتهم وامتيازاتهم . وكانوا أعز فرق الجيش نفراً ، وأقواها جنداً ، وأكثرها نفوذاً . وأفسحت الدولة لهم الطريق كى يقفروا إلى أعلى الرتب العسكرية ويتقلدوا أخطر المناصب القيادية ، العسكرية والمدنية على حد سواء ، وإذا كانت الدولة قد استفادت منهم في ساحات القتال في عصرها الذهبي ، فقد أضررت منهم في العصور التالية ، إذ نزعوا إلى حركات العصيان العسكرى لتحقيق مطالب لهم حيناً ، وللتدخل في السياسة العليا للدولة أحياناً متجاوزين اختصاصاتهم كمحاربين محترفين . واستراحوا لسلاح التمرد يشهرونه في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، فيعزلون ويقتلون هؤلاء وأولئك . والأمر العجيب أنه لما دب الوهن إلى صفوفهم ، وفقدوا الكثير من كفاءتهم القتالية ازدادوا شعوراً بقوتهم وأمعنوا في طغيانهم بحيث غدوا مركز قوة خطير في الدولة وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصدور العظام .

ضريبة الغلمان :

أشرنا من قبل في هذه الدراسة إلى ضريبة آدمية فرضها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول ، وتحولهم إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الختان La Circoncision ، وتنظم لهم دراسات دينية وعامية - مدنية وعسكرية - لتتخذ منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة (٢) . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي

(١) البيادة كلمة فارسية معناها « على الأقدام » وتقابلها في اللغة التركية « اليايا » بنفس

المعنى .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ص ١٢٠ - ١٢٣ .

ديو شيرمه Deuchermé وبتربحها المؤرخون والباحثون في أوروبا
وأمرىكا The Tribute Boys أو The Tribute Children
أى ضريبة الغلمان ، وقلنا إن الدولة كانت تقسمهم إلى ثلاث مجموعات :
المجموعة الأولى وتعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان في القصور السلطانية ،
والمجموعة الثانية تعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة ،
والمجموعة الثالثة لتشكيل من أفرادها فرق مشاة في الجيش العثماني . ويطلق
على أفراد هذه المجموعة الثالثة الإنكشارية(١) ومعناها الجنود الجدد وكان
عددهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين .

نشأة ضريبة الغلمان :

كان صاحب الفكرة في فرض ضريبة الغلمان المسيحيين الأرثوذكس

(١) كان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
بجامعة القاهرة يرى أن الباحثين العرب يقومون في خطأ لغوي واضح حين يطلقون على هؤلاء
الجنود المشاة إسم الإنكشارية، ويرى أن الدقة في الصياغة اللفظية تتطلب استخدام اللفظ التركي
وهو ألبني شرية ، وترد في بعض المراجع بئى تشرى . واستند في رأيه إلى أن الفرنسيين استخدموا
في لغتهم اللفظة التركية ، فأصبح مدلولها الفرنسي Les Janissaires .

والواقع أن شكل كتابة هذه الكلمة قد ساعد على تحريفها . فهى تكتب « يكتجرى »
وتنطق « بئى تشرى » لأن حرف الكاف في اللغة التركية القديمة كان ينطق ثوتاً ، وحرف
الجيم ينطق تاه وشيناً . وهذا المصطلح التاريخي مكون من مقطعين : الأول يكئى - ومعناه جديد
أو حديث . والثاني - جرى - ومعناه جندي ، فيكون المعنى : الجنود الجدد أو العسكر الجديد .
ونحن - مع احترامنا لرأى أستاذنا الدكتور زيادة ومع تقديرنا العميق لأستاذيته الشاخصة -
نرى أن اللفظة التركية الأصلية وهى بئى تشرى Yéni Tchéri ، واللفظة المعربة أو اللفظة
التي تستخدم في الكتب العربية وهى الإنكشارية قريبتان من بعضهما من بعض بحيث لا يستحق الأمر
مثل هذا التمييز الشكل الذي قد يؤدي إلى بلبلة الأفكار حول مدلول بئى تشرى ، أو البئى شرية .
انظر :

الحاشية التي كتبها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة مقرونة برقم ١ ص ٤٤٥ في ترجمته
إلى اللغة العربية لكتاب فيشر Fisher H. A. القسم الثاني : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى .
الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

هو هابيل الأسود (١) Black Habil وزير السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ - ١٣٦٠) (٢)، فهو الذي حَبَّب إلى هذا السلطان الفكرة وزينها له في قلبه ، فأخذ بها أورخان . وكانت هذه الضريبة الآدمية عوناً كبيراً للدولة الناشئة على إيجاد مورد آدمى لا ينضب معينه لتجنيد فرق عسكرية كاملة من المشاة يضعون عقولهم وأجسامهم وخبراتهم في خدمة السلطان في ميادين القتال ابتغاء احراز انتصارات عسكرية تحقق بها الدواة مزيداً من التوسع الإقليمي سواء في أوروبا أو في آسيا في ذلك الوقت ، ثم في إفريقية منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد وضع السلطان أورخان قانوناً خاصاً بالإنكشارية جاء في أربع عشرة مادة تضمنت النظام الداخلي لهم ، وتنظيم علاقات أفرادهم بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان (٣) .

وكانت الحكومة المركزية تقوم بترحيل الغلمان الذين لا يتحدثون اللغة التركية إلى الأناضول حيث يوضعون في خدمة السباهية - الخيالة الإقطاعيين - فترة قد تطول وقد تقصر ، ثم ينقلون إلى إستانبول حيث يعاد اختبارهم وفرزهم ، ويلحقون بفرقة البلطة جيه (٤) أو فرقة

(١) Fisher H.A.L., A History of Europe. op. cit., p. 402.

(٢) يقرر بعض المؤرخين أن حكم أورخان امتد فقط إلى سنة ١٣٥٩ .

(٣) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٤) البلطة جيه جمع بلطجي ، وهي مشتقة من كلمة بلطة ، وهي كلمة عربية وتركية بمعنى الفأس الذي يستخدم في قطع سيقان الأشجار وفروعها والأخشاب بصفة عامة . أما معناها كمصطلح تاريخي فهو فرقة عسكرية في الجيش العثماني تسمى « بلطجي أوجاق » أي فرقة البلطجية أو فرقة قاطعي الأخشاب . وقد أنشئت قبل فتح القسطنطينية واستخدم أفرادها في قطع الأشجار وتجهيف المستنقعات وتعميد الطريق أمام الجيش الزاحف ، ثم تحولوا بعد فتح القسطنطينية إلى حرس للحريم السلطاني . وكانت تضاف إلى عملهم الحديد أعمالهم الأولى حين يذهب السلطان إلى الحرب . وقسمت هذه الفرقة إلى قسمين . كان مقر أحدهما القصر القديم ، ومقر الآخر القصر الجديد . وكان أغا الخصيان يقود القسم الأول . أما القسم الثاني فكان يقوده السلحدار أغا ، أي الضابط حامل السيف . وكان يطلق على رجاله هذه العبارة : « رولوفلو بلطه جيلر » ومعناها قاطعو الأخشاب ذوو السوالف ، لأنهم كانوا يضمون ذؤابة من الشعر على جانبي وجوههم . (زولوفلو كلمة فارسية من زولف Zolf ومعناها خصلة من الشعر تتدل إلى أسفل) .

البوستانجية ، أو فرقة الجبهه جيه (١) ، أو السلاح البحرى فى إستانبول

= أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit, Vol., 1. Part 1, p. 86.

وكلمة بلطجى شائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر فى مصر وفى معظم الدول العربية وتسمى الشخص المنحرف ذا القوة العضلية الذى لا يكثر بالخروج على القانون فى سبيل تحقيق أغراضه . ويدانها فى المعنى لفظة أخرى شائعة هى الزلطحى . ويضاف إلى المعانى السابقة معنى آخر هو أن الزلطحى يلجأ إلى استخدام عضلاته فى ضرب الآخرين فى سبيل حل مشكلاته .

(١) البوستانجية كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية بستان . وأطلقت على أفراد فرقة عسكرية «تسمى بوستانجية أو جاق» أى فرقة البستانيين . وكان يقودها ضابط يطلق عليه «بوستانجى باشى» . وكان أحد أغوات الركاب ، أى ضباط الركاب السلطانى . وقد تكونت هذه الفرقة أول الأمر بهدف تنسيق حدائق القصر السلطانى وتحويل الأرض الخلاء المجاورة للقصر إلى حدائق ذات بهجة وإلى مزارع خضراء مع استمرار العناية بها . ولم يتم بهذا العمل إلا عدد قليل من أفراد هذا الأوجاق واشتغل معظمهم حراساً على المباني الملحقة بالقصر والمبشرة بجوار أراضيها ، وعلى بعض بوابات أسوار القصر ، وعلى المرافق الصغيرة الواقعة حول القرن الذهبى والبوسفور وجزء من بحر مرمره . كما كان لهم الإشراف على السفن التى كانت ترسو فى تلك المرافق ، وكانوا يعملون أيضاً بمثابة شرطة محلية . وهكذا كانت اختصاصات الغالبية العظمى من أفراد أوجاق البوستانجية بعيدة كل البعد عن العناية بالبساتين .

وكانت اختصاصاتهم الرئيسية تتركز فى إجراءات أمن تختص بشخص السلطان وحراسة بعض المنشآت التابعة للقصر والمجاورة له ، ومراقبة السفن التى ترسو فى مرافق قريبة من منطقة القصر ويكون فى استطاعة هذه السفن إلحاق الضرر بمبنى القصر . وقد بلغ عدد أفراد هذا الأوجاق ألفين وخمسة جندى ، كان كل فرد منهم يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء تميزه عن أفراد الفرق العسكرية الأخرى . وكان يتألف أوجاق البوستانجية من عدة وحدات تكاد تكون كل وحدة منفصلة عن غيرها داخل الأوجاق . فكانت هناك وحدة الخاصكية ، عدد أفرادها ثلاثمائة من ضباط الصف *Sous officers* يقودهم «خاصكى باشى» أو خاصكى أغا . وكان هذا الضابط يلى فى الرتبة رئيس أوجاق البوستانجية . وكان يساعده بعض كبار ضباط الأوجاق . ويشترك ستون من قوة الخاصكية فى حراسة السلطان الخاصة ، كما يرافق اثنا عشر من الخاصكية السلطان فى جميع تنقلاته وتحركاته بصفتهم مخبرين ، ويطلق عليهم «تبدليل خاصكية» ويرأسهم ضابط يسمى «باشى تبدليل» أى رئيس المخبرين . وكانت وحدة الخاصكية تختلف من حيث طبيعتها عن الوحدات الأخرى فى أوجاق البوستانجية وتفوقها . ومن الوحدات الهامة فى هذا الأوجاق أيضاً : الصندلجية - أى المراكبية (الصندلجية جمع صندلجى ، وهو الرجل الذى يعمل على صندل ، والصندل سفينة تجديف من الطراز الأوروبى) ، وكان الصندلجية يقومون بالتجديف فى «دهبية» السلطان ، فى حين يمسك رئيس أوجاق البوستانجية بالدفعة . ولم يكن الصندلجية =

وغالبويلى (١) . ولكن كان مصير معظمهم الانخراط فى سلك الفيالق الإنكشارية .

وجدير بالذكر أن هذه الفيالق لم يكن جميع أفرادها من حصيلة ضريبة الغلمان فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، بل كانت تضم بين صفوفها مجموعات صغيرة العدد من أولاد أسروا فى الحرب أو اشتروا بالمال (٢) .

يقومون بالتجديف فى سفن السلطان فحسب ، بل كانوا يجدفون أيضاً فى مراكب كبار ضباط القصر السلطانى . وكانت هناك وحدة تسمى « البامية جيه » نسبة إلى خضار البامية لأنهم كانوا يقومون بتدريباتهم العسكرية قرب آماسية فى منطقة كانت تزرع فيها البامية بكثرة . وكانت هذه الوحدة تقوم بحراسة قصر ستان باشا الملحق بالقصر السلطانى . وكانت هناك وحدة أخرى تسمى « الطوب قابى » أى بوابة المدفع ويعهد إليها بمنع الأشخاص غير المرغوب فيهم من دخول فناء القصر بالرسو من ناحية البحر . هذا إلى عدد كبير جداً من الوحدات العسكرية تابعة لهذا الأوجاق . وكان البوستانجى باتى يتمتع فى القصر بنفوذ واسع لم يظفر به أحد من زملائه ضباط الركاب السلطانى . وكان مرد هذا النفوذ إلى سببين: أولهما أنه كان يرأس أكثر من ألفى رجل يقومون بأعمال نسي ومنتشعبة وحساسة تحت إشرافه ، وثانيهما أن التحقيقات مع الموظفين المدنيين كانت تم تحت إشرافه ، وكان ينرف على إجراءات تنفيذ أحكام الإعدام التى كانت تصدر على من ثبتت إدانته منهم .

انظر كلا من :

- D' Ohsson Ignatius Mouradega ; op. cit., V.VII, pp 27.—30L byber
A.H., op. cit., p. 131, fn. 2.
Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol 1. Part 1. pp.
350—352.

أما الجبه جيه فهم صانعو الأسلحة (جبه معناها درع) ، وكان من اختصاص هذا الأوجاق إنتاج وإصلاح الأسلحة والذخائر للجنود المشاة . وكان من واجبات هذا الأوجاق حراسة وسائل نقل الجيش والمخازن فى أثناء الحرب . وكان السلطان محمد الثانى هو أول من أنشأ هذا الأوجاق . وكان تعداده أول الأمر سبائة جندي تحت إمرة ضابط يطلق عليه «جبه جيه باشى» .

(١) كانت غالبويلى قاعدة البحرية العثمانية ، ثم اتخذت الحكومة فى سنة ١٥١٦ من إستانبول مقراً للبحرية الرئيسية ، وأنشأت مصانع بحرية جديدة فى بقعة تسمى قاسم باشا من ضاحية جلاله على القرن الذهبى ، وتعرف منذ ذلك الوقت باسم «ترسانه بوغازى» أى بوغاز دار الصناعات البحرية ، أو بوغاز البحرية .

- Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٧)
Part 1, pp. 59-60.

مواعيد جمع الغلمان :

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول تحديد مواعيد جمع الغلمان ، فيقرر بعضهم أنهم كانوا يجمعون مرة واحدة كل أربع سنوات . ويقول البعض الآخر إن هذه الفترة لم تكن ثابتة . ففي بعض الأحيان كانت عملية جمع الأبناء المسيحيين تحدث مرة كل خمس سنوات (١) ، وفي أحيان أخرى كانت هذه العملية تتم مرة كل سبعة أعوام (٢) . بينما يذكر المستشرق الألماني بروكلمان أن هذه الضريبة الآدمية كانت تجميع أول الأمر كل خمس سنوات ثم أصبحت تجميع سنوياً (٣) . والشق الأخير من هذا الرأي أدنى إلى الحقيقة ، إذ كانت الدولة في معظم الأوقات في صراع حربي عنيف ضد بعض الدول الأوروبية . وقد اتخذ هذا الصراع طابع التكتلات المسيحية والحروب الصليبية . وكانت الحرب تهدأ في جهة لتشتعل أعنف ما تكون في جهات أخرى مما جعل الدولة العثمانية في حاجة مستمرة إلى تعزيز الجيش نحوض به الممارك في أوروبا فضلاً عن الجهات التي فتحتها في آسيا لمحاربة الدولة الصفوية ، تم فتح بلاد الشام والعراق واليمن وغيرها ، أو في إفريقية : في مصر وشمالى إفريقية انبثاقاً من سياستها العليا في التوسع الإقليمي المرحلى .

رعايا الدولة الذين طبقت عليهم ضريبة الغلمان :

كان فرض ضريبة الغلمان مقصوراً — كما سبق أن ذكرنا — على رعايا الدولة المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولذلك أعفى منها اليهود وكذلك الأرمن الكاثوليك بحكم القانون . أما الأرمن الأرثوذكس وهم الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فقد طبقت عليهم ضريبة الغلمان . كما أعفى من هذه الضريبة الآدمية سكان بعض المدن الكبرى مثل : إستانبول وأثينا وجزيرة رودس وبعض جزر أخرى . وفيما عدا ذلك طبقتها

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit., Vol IV, ip. 857.

سير أرنولد توماس (سير) : الدعوة إلى الاسلام . تعريب دكتور حسن ابراهيم وزميله . ص ١٧٥ حاشية رقم ٢ .

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 51—53. انظر كلامن :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., Vol VII. p. 310 ff.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ج ٣ ، مرجع سبق ذكره ،

الدولة تطبيقاً صارماً في شبه جزيرة البلقان والمجر والساحل الغربي لآسيا الصغرى والسواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأسود . ولكن كان أقوى المجندين وأقدرهم على الخدمة يجلبون من المناطق الجبلية التي تقطنها الطوائف المسيحية في ألبانيا والجبل الأسود والشعوب السلافية أى الصقالية في جنوبي أوروبا (١) . وبعبارة أخرى شملت ضريبة العلمان اليونانيين والصرب والبلغار وسكان كرواتيا وأهل المجر والألبانيين والأرمن الأرثوذكس وغيرهم .

معيشة الإنكشارية :

كانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على منع اتصال الإنكشارية بأقربائهم . وتفرض عليهم في وقت السلم أن يعيشوا كلية في الثكنات (٢) . وخصصت الدولة للإنكشارية الذين يرابطون في إستانبول ثكنتين ، كانت تسمى الثكنة الأولى «آسكى أوطه لر» أى الفرقة القديمة . وتسمى الثكنة الثانية «بنى أوطه لر» أى الفرقة الجديدة أو الحديثة . ولم تكن هاتان الثكنتان تحتويان فقط على أماكن النوم لضباط وجنود الإنكشارية ، بل كانتا تضمّان مطابخ ومخازن (٣) للأسلحة والدخائر وكافة الحاجيات المدنية لهم .

وخصصت الدولة لكل أورطة (٤) من الإنكشارية شارة توضع على أبواب ثكنتها وعلى أعلامها وعلى خيامها التي كانت تقام في ساحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة . وكانت هذه الشارات إما سمكة ، وإما مفتاحاً ، وإما خطافاً «هلباً» ، وإما هراة ذات طرف مدبب . وجرت عادة الإنكشارية على نقش الشارة المميزة لهم على أذرعهم وسيقانهم مستخدمين طريقة الوشم (٥) . وكانت ترقيات الإنكشارية تتم طبقاً لقواعد الأقدمية . وكانت الدولة تسرح

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 34, pp. 51—52.

(٢) كانت الثكنة تسمى أوطه أى غرفة . وتسمى في اللغة التركية القديمة أوتاغ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I Part. I, p. 62.

(٤) الأورطة وحدة حربية يتفاوت عدد أفرادها تبعاً للظروف ، فكان يتراوح عددهم

بين مائة جندي وخمسةائة جندي وثلاثة آلاف جندي .

(٥) كان الإنكشارية يفرزون رسم الشارة على أجسامهم بإبرة ، ثم يصيبون على هذا الرسم

مادة معينة تسمى النبلج . فيأخذ رسم الشارة لوناً أخضر ثابتاً لا يمحوه كزمان .

الذين يتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم عن العمل . وفي كلتا الحالتين كانت الدولة تقرر لهم معاشاً ، ويعرفون باسم «أونوراق» . وقد خصت الدولة الطوائف الإنكشارية بعدة امتيازات (١) ، منها : منحهم حصانة تمنع القبض عليهم أو قيام السلطات المدنية بتوقيع العقوبات عليهم . وكان ضباط الإنكشارية دون سواهم يقومون بتنفيذ العقوبات التي يحكم بها عليهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والإعدام . وكانت عقوبة الخصاص توقع على الإنكشارى إذا اعتاد الإجرام أو تعددت حوادث خروجه على قواعد الانضباط العسكرية . فيأمر « بنى شريه أغاسى » ، أى رئيس الإنكشارية ، بإجراء عملية الخصاص الجزئى أو عملية الخصاص الكلى له . ويفقد الإنكشارى رجولته ويأحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى . وسنعرض لهذا الموضوع فى الفصل الثانى والعشرين . أما الإعدام فكان ينفذ سراً فى ظلمة الليل فى روملى حصار . وكانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية - أى المدفعية - بإطلاق طلقة واحدة من مدفع إيداناً بتنفيذ الحكم . فإذا تم التنفيذ رميت جثة الإنكشارى بعد أن تشد إلى القدمين جلة من الحديد . وكان الإنكشارية يتقاضون مرتبات من خزينة السلطان . ولهذا السبب الأخير كان يطلق عليهم «قبوقولرى» (٢) ، وهو اسم عام كان تدرج تحته القوات العسكرية التى تتقاضى مرتبات تميزاً لها عن القوات الإقطاعية Feudal Forces التى كانت الدولة تعطى أفرادها أراض زراعية يقومون باستغلالها فى مقابل اشتراكهم فى حروب الدولة دون أن تدفع لهم مرتبات .

تحريم الزواج على الإنكشارية ونتائجه :

وكان يحرم على الإنكشارية الزواج . فكان الفرد منهم يعيش دون أمل فى أن تكون له زوجة أو بنون أو بنات أو حفدة . فالإسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثمانى والده ، والشكته العسكرية مأواه ،

(١) Lavissee et Rambaud ; op. cit. , Tome IV, pp. 759-760.

(٢) قيو أو قاني لفظة تركية معناها باب أو بوابة . قول بمعنى عبد . وهذا المصطلح له عدة

مدلولات ، منها : كل شخص فى وضع العبيد يقوم على خدمة السلطان .

والحرب مهنته ، والفوز بإحدى الحسنين مأربه . وكان الإنكشارى ينظر إلى أعداء الدولة على أنهم أعداء الله ، وليس أمامه إلا أن يمضى فى قتالهم ، فإما أن ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، وإما أن يفوز بالجنة إذا استشهد فى الحرب . ولذلك كان يخوض المعارك بروح دينية إسلامية عالية ، ملوؤها حماس متأجج وتعصب ركيز (١) . وكما حرم السلاطين على الإنكشارية الزواج حرموا عليهم أيضاً تحريماً تاماً الاشتغال فى التجارة أو الصناعة خشية أن تحبب عسكريتهم الصارمة وأن يتحولوا إلى أهل حرف (٢) . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ العصور الرومانية (٣) .

العلاقات الوطيدة بين الإنكشارية والطريقة البكتاشية :

يردد فريق من المؤرخين والباحثين رواية تقول إن السلطان أورخان قد حصل على موافقة حاجى بكتاشى - الحاج بكتاشى - شيخ الطريقة الصوفية البكتاشية على مشروعه ، وهو جمع الغلمان المسيحيين ثم تحويلهم إلى الإسلام وإعداد دراسات عقلية وتدريبات عسكرية تجعل منهم فى نهاية المطاف رجال حرب أو حكم يتولون المناصب القيادية فى الجيش أو فى القصور السلطانية أو فى سائر أجهزة الحكم والإدارة . وقال هذا الفريق من المؤرخين والباحثين للتدليل على صحة تلك الرواية أن الحاج بكتاشى قد بارك الرواد الأوائل من الإنكشارية بوضع كم رداثه فوق رعوسهم . وبسبب هذه المباركة وقع اختيارهم على غطاء غريب الشكل لرعوسهم ، كان عبارة عن قلنسوة من الصوف الأبيض تتدلى من خلفها قطعة طويلة من القماش أسطوانية الشكل هى رمز للبركة التى منحها الحاج بكتاشى لهم . وفى الصور التى رسمت لغطاء رعوس الإنكشارية يظهر هذا الغطاء واضحاً .

Fisher H.A.L. ; op. cit., p. 402. (١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part. (٢)
I., p. 64.

Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610., being Vol. (٣)
V. of "Methuen's History of Medieval and Modern Europe". Eleventh
edition, 1967., p. 212.

وهناك فريق آخر من المؤرخين والباحثين يتشككون في صحة تلك الرواية بل ينفونها نفيًا باتًا تأسيساً على أن الحاج بكتاشي كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أوجاق الإنكشارية بقرن من الزمان (١). ولن نخوض في دراسة مقارنة بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض ، لأنها خارجة عن نطاق البحث . ولكن الثابت تاريخياً - وهو ما يهمنا في المقام الأول في هذه الدراسة - أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية ، ويظهرون نحو شيوخها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاية العميق ، ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً « عسكرى بكتاشية » ، أي الجنود البكتاشية ، وأحياناً ثانية « بكتاشية أوجاق » ، أي أوجاق البكتاشية ، وأحياناً ثالثة « حاجي بكتاش أوجلاري » ، أي أبناء الحاج بكتاش (٢) . والواقع أن الأهمية السياسية التي اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما ترجع إلى ارتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة آفة لهم (٣) .

وبمضى الأيام ازدادت العلاقات توتراً بين فيالق الإنكشارية وشيوخ وأتباع الطريقة البكتاشية . ومن العوامل التي ساعدت على هذا الارتباط الوثيق بين الطائفتين كثرة عدد تكايا البكتاشية وانتشارها في طول البلاد وعرضها . وكانت تطلق على شيخ كل تكية بكتاشية كدبة « بابا » ، وعلى الدرويش لفظة « مريد » ، وعلى المنتحن بالتكية لقب « منتسب » . وفي أواخر القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩١ مسموح لثمانية من البكتاشية أن يقيموا في أحد عنابر فرقة إنكشارية كانت تسكن في الشكنات الجاهيدة في إستانبول وهي الفرقة التاسعة والتسعون . وكان رئيسي هؤلاء

(١) Kopruluzade (Koprulo) Mehemed Fuad : Les Origines du Bektachisme. Paris. 1926, p. 21.

Tschudi ; Encyc. of Islam. Art. Bektash. (٢)

(٣) عن علاقات الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية انظر :

Hasluck F.W.; Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929, pp. 483-493.

الدرراويش يعتبر وكيلا اشيخ الطريقة البكتاشية. وكان هؤلاء البكتاشية يتناولون طعامهم في هذا العنبر ، ويعكفون على الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم ، ويدعون الله أن ينصر القوات العثمانية المسلحة ، وأن يجعل الدولة العثمانية مهيبة منية من كلى غزو وتعرض له (١) . وكان هؤلاء الدرراويش البكتاشية يسرون في المواكب الرسمية أمام أغا الإنكشارية مرتدين الملابس الخضراء ، وينادى رئيسهم بأعلى صوته : « كريم الله » أى « الله كريم » ، فيرد عليه بقية البكتاشية في صوت واحد جهير « هو » أى « الله سبحانه وتعالى موجود . ولهذا أطلق على هؤلاء الدرراويش « هوكشان » Hu-kechan — ومعناها 'الصائحون بلفظة « هو » (٢) .

ومن دلائل التصاق الإنكشارية بالطريقة البكتاشية أن أتباع هذه الطريقة كانوا يقيمون إلى جانب الإنكشارية في أثناء حركات العصيان العسكرى التي كانت تقوم بها الفياق الإنكشارية ضد السلطان والحكومة المركزية ، بل كانوا يشتركون فيها ، كما أن السلطان محمود الثانى حين عصف بالفياق الإنكشارية أطاح أيضاً بالطريقة البكتاشية فأمر بإلغائها وإغلاق تكاياها ، كما سنوضح في الفصل التاسع عشر .

مركز رئيس الإنكشارية :

كان رئيس الإنكشارية — ويطلق عليه أغا الإنكشارية أو المصطلح التركى بنى شرية أغاسى — من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية ، إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية رهيبة فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان . كما أنه بحكم منصبه كان يشغل وظيفتين أخريين ، فهو رئيس قوات الشرطة فى إستانبول ، وهو فى ذات الوقت عضو فى مجلس الدولة ، وإن كانت مثل هذه المصنوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام الذى

Gibb Hamilton (Sir) and Bowen Harold ; op. cit. Vol. 1 (١)
Part 1, p. 65.

Part 2 p. 193.

D'Ohsson Ignatius Mouradgea, op. cit., t. IV, p. 673; (٢)
et t. VII, P. 325.

يتبادر إلى الذهن . وكان رئيس الإنكشارية - بحكم منصبه كقائد لقوات الشرطة (١) - يعتبر مسؤولاً عن حفظ النظام وتوفير أسباب الأمن وحماية الأملاك في معظم جهات العاصمة ، ولم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطاني والمنطقة المحيطة به . والضواحي الثلاث للعاصمة وهي : أيوب ، غلطة ، إشقودرة .

وطبقاً للبروتوكول العثماني كان رئيس الإنكشارية في درجة وزير ، فكان يتقدم على كل من تقل مرتبته عن مرتبة وزير ، وكان يتقدم أيضاً على جميع القادة العسكريين أيّاً كانوا فيما عدا أيام الأعياد ، فكانت الأسبقية عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية .

وكان لرئيس الإنكشارية مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في الجهات التي تعمل الفرقة فيها . وكان يتبعه على الدوام ضباط أركان حرب يحمل الناقمة . ويتقدم هذا القائد في ميدان القتال علم أبيض يعلوه ثلاثة أطواخ (٢) ، ثم يتبعه الإنكشارية وقد رفعوا أذيال ملابسهم وربطوها بأحزمتهم .

وكان السلطان يختار رئيس الإنكشارية من بين ضباط هذا السلاح . وظل هذا التقليد متبعاً حتى حكم السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) فأراد أن يحد من جبروت أفراد هذا السلاح وطفغيانهم وعصيانهم ، فأدخل تعديلاً جوهرياً على نظام الاختيار تقرر بتمتصاه أن يتم اختيار رئيس الإنكشارية من بين كبار ضباط القصر السلطاني .

(١) يلاحظ أنه لم تكن توجد قوات شرطة مستقلة سواء في العاصمة أو في الولايات . وعلى ذلك فإن المهام التي يجب أن تكون من اختصاص قوات الشرطة كانت تقوم بها وقت السلم فرق من الإنكشارية . أما المنطقة التي تقع تحت إشراف الأغا فكانت تقوم فرق موضوعة في العاصمة بهذه المهام . وفي وقت الحرب كانت هذه الفرق تتجه إلى ساحات القتال وتحمل معها قوات من العجمي أوغلان .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part I, p. 66.

(٢) سبق أن شرحنا مدلول هذا المصطلح . انظر ص ص ٣٦٤-٣٦٥ في هذه الدراسة .

موقف العائلات المسيحية من ضريبة الغلمان :

لم ترحب معظم العائلات المسيحية بضريبة الغلمان ، بل عارضتها من حيث البناء ، ولجأ عدد من هذه الأسر إلى بعض الوسائل للتهرب من أداء هذه الضريبة البشرية . فعمدت إلى تزويج الأولاد الذين بلغوا الحلم كى تحول دون انتزاعهم من ذويهم . وكان القانون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين . وإذا كانت الأسرة على حظ موفور من الثراء ، فلإنها كانت تقدم رشوة لمندوب الحكومة المركزية المنوط به جمع الغلمان . وقد وجد هؤلاء المندوبون في هذه الرشا وسيلة لجمع الثروات بطريق غير مشروع . ولكنه كان يمتص مصالح متباداة بين المندوب الحكومي والأسرة المسيحية .

ودع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا إلى العملية كلها بجميع جزئياتها ومراحلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبثاً نفسياً قهراً . ويؤكدون هذا الرأي بقولهم إن العائلات المسلمة كانت تطالب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى مندوب الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلاً من أولاد هذه الأسر المسيحية . وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون (١) . وبذلك تسرى ، في غفلة من الحكومة ، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التي كانت تغتدى إغداقاً على أبناء الأسر المسيحية (٢) . ويذكر بروكلمان المستشرق الألماني في هذا الصدد : « كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع أنه استثار حسد الأتراك (٣) أنفسهم ، فكانوا يسعون ، في أحوال

(١) Christian parents had sometimes bought off their sons from conscription; Moslem, Jewish, and Gypsy youths had been substituted for Christian.

See

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180

Lybyer A.H.; op. cit., p. 54.

(٢)

(٣) كان هذا المستشرق يعصد بلفظة الأتراك العباين المسلمين الذين جاؤوا إلى الحياة

من آباء مسلمين أحرار .

كثيرة ، إلى دس أبنائهم في صنف الغلمان من النصارى « (١) . ولكن كانت الحكومة المركزية توقع عقوبات قاسية على مرتكبي حوادث الغش والتزوير والرشا حين تكتشفها ، كما أن هذه المساوىء - إذا مضت دون كشف أمرها - لم تقض على الكفاية القتالية للفيالق الإنكشارية (٢) .

والحقيقة التي لا مرأ فيها أن المعارضة الحقيقية لضريبة الغلمان كانت تكمن في العائلات المسيحية التي كانت الرابطة الدينية تسيطر عليها سيطرة جياثة . فتمدكرهت أمثال هذه العائلات أن يرثد أولادها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمام هؤلاء الغلمان زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة وثراء . فالعاطفة الدينية عند هذه العائلات كانت من القوة بحيث تبخرت أمامها مغريات الحياة المادية . وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموماً والذين لا يزالون إلى اليوم يهاجمون ضريبة الغلمان في الدواة العثمانية إنما تنبثق حملاتهم عليها من الدافع الدينى . كما أن الكراهية الشديدة التي كان ولا يزال يشعر بها الأوروبيون نحو الأتراك العثمانيين كان من بين بواعثها ضريبة الغلمان .

آراء المؤرخين في ضريبة الغلمان :

اختلفت آراء المؤرخين والباحثين حول ضريبة الغلمان ، فبعضهم هاجمها هجوماً عنيفاً ، والبعض الآخر دافع عنها من حيث المبدأ . وقد أقام الفريق الأول من أولئك المؤرخين والباحثين معارضتهم على ركيزتين . كانت الركيزة الأولى العواطف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية المبرحة التي كان يئن منها الوالدان وبخاصة الأم الثكلى عند انتزاع والدها منها ، وكيف كانت تذرّف الدموع غزيرة ، وصوروا هذه اللحظات بأنها أقسى اللحظات التي تمر بها أم في حياتها . ووصفوا ضريبة الغلمان بأنها تمثل أشجع أنواع

(١) بروكلان كارل . الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، رجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part (٢)
1, p. 180.

الظلم والتسوية وافتقاد الرحمة من قلوب البشر ، وأنها اعتداء سافر على حرية الفرد وعلى حق الآباء على أبنائهم الصغار ، وقرروا أن هذه الضريبة تنتزع من الإنسان أعز ما يملك في حياته ، لأنها ضريبة اللحم الإنساني يفرضها مستصر على قوم شاء سوء حظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التي كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة في صورة تنافي مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية . ويخلص أولئك الباحثون إلى أن الأتراك العثمانيين قد سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهم . أما الركيزة الثانية التي أقام عليها خصوم ضريبة الغلمان اعترضهم فكانت إكراه الغلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . وقالوا إن هذا الإكراه يتنافى مع حرية الفرد في اختيار عقيدته .

أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين الذين دافعوا عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ فقد استندوا إلى أن الحروب التي خاضها الأتراك العثمانيون في الأقاليم التي فتحوها قد نشرت الخراب والدمار فيها . واستهدف عدد كبير من العائلات المسيحية إلى خطر الملاك جوعاً . وكان معظم الأطفال المسيحيين الذين أخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا آباءهم . ولولا أخذ الحكومة لهم لتعرضوا لهلاك أو الانحراف . كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة . فلم تكن ضريبة الغلمان بالشئ الجديد على المجتمعات المسيحية الأوروبية في تلك القرون . بل إن بعض الباحثين يذهبون في هذا الصدد إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الدولة البيزنطية التي سقطت على يد الأتراك العثمانيين بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

أستاذ أمريكي يدافع عن ضريبة الغلمان :

يقول الأستاذ الأمريكي ليبي Lybyer تعليماً على ضريبة الغلمان بمجموعاتها الثلاث إنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جراحة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، فليس لهذه التجربة نظير سوى في جمهورية أفلاطون من الداجية النظرية وفي دولتي المماليك

البحرية والشراكية في مصر من الناحية العملية ، ولكن لا يلبث هذا الأستاز الأمريكي أن يقيد أوجه الشبه ، فيقول إن نظام جمهورية أفلاطون يشترط أن تكون الفئة الحاكمة مقصورة على الأرستقراطية الهيلينية ، كما أن التجربة العمانية عمرت أكثر مما عمرت تجربة الممالك بعد أن أزال العثمانيون دولة الممالك الشراكية . ويمضى الأستاز ليبير في تعليقه على ضريبة الغلمان فيقول إن نظامها كان لا يعترف بالفروق الاجتماعية . فالدواة تجرع أبناء رعاياها المسيحيين من الريف ، والغالية الساحقة منهم يعملون في فلاحه الأرض ورعى الأغنام ، وفيهم الفقراء الذين لهم قدم رائحة في مخالفة الفقر ومزاملته حتى الصق بهم الفقر والتصقرا به ، وأصبحوا هم جزءاً لا يتجزأ من حياة البؤس والفاقة والحمران ، وإذا بأولاد هؤلاء المعذبين في الأرض قد بلغوا بمضى الأيام أرقى المناصب : صدوراً عظاماً ، ووزراء ، وقادة عسكريين ، وحكاماً ، في دولة إسلامية مترامية الأطراف في القارات الثلاث التي كانت تشكل العالم القديم وقتذاك .

ويبدل الأستاز الأمريكي على ديمقراطية النظام العثماني في ضريبة الغلمان بقوله إن شعب الولايات المتحدة الأمريكية قد يفخر بأن رجالاً وصلوا إلى كرسى رئاسة الجمهورية وكانوا في مستهل حياتهم يؤدون أعمالاً متواضعة ومضنية في الغابات المهجورة البعيدة عن العمران . ولكن أمثال هؤلاء الرجال قد بلغوا منصب رئيس الجمهورية بفضل مجهودهم ، وليس بفضل الترقى وفق نظام وضع بعناية ليدفع بهم إلى مدارج الرقي . ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول إن الكنيسة الكاثوليكية قد تفخر بأن بعض البابوات كانوا في مطلع حياتهم فلاحين ، ولكن من الثابت أن اختيار الكنيسة لم يقع على أحد ينحدر من أسرة كانت تعتنق ديناً مخالفاً للمسيحية أو تدين بمذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي . أما الدولة العمانية فعلى النقيض من ذلك كله ، أخذت غلماناً كانوا يتمتعون انشاء مباشراً إلى عائلات مسيحية . وقد حملت هذه العائلات أسماء مسيحية أجيالاً وأعصرراً وأدهاراً . وأخذت الدولة بأيدي أطفال هذه العائلات وفتحت أمامهم الأبواب على مصاريحها وجعلت من بعضهم جنوداً في الجيش يصلون إلى أعلى المناصب العسكرية ، وجعلت من البعض

الآخر رجالاً يشتغلون في البلاط العثماني ووزراء ، ولم يحدث أن وجهت الدواة سراً إلى أحد من هؤلاء الأطفال تستفسر منه عن اسم والده أو الحرانة التي كان يزاؤها أبوه ، بل كانت الدواة تقول له إن اختيارها قد وقع عليه ليكون جندياً بإسلا في جيش السلطان ، وإذا أثبت كفاية عسكرية فإنه سيبلغ أعلى الرتب العسكرية وأرقى المناصب القيادية في القوات المسلحة . وتتبول الدواة لطفل آخر وهو ينال تدريبه المادي والعسكري إنه سيعمل في البلاط السلطاني . وإذا أظهر متانة فإنه سيكون والياً في إحدى الولايات أو وزيراً أو صديقاً أعظم . ويمثل هذا النظام - في نظر الأستاذ الأمريكي - الديمقراطية بأجلى معانيها ، كما أنه ينطوي على إفساح الطريق أمام الكفايات فتتبرأ مكاناً علياً بعد أن كان هتدراً لها أن تعيش مغدورة وتتمشى حياة يحف بها البؤس من يمين وشمال (١) .

تقييم ضريبة الغلمان :

إن تلك الآراء التي بسطها الفريقان المتبارضان من المؤرخين والباحثين ليست إلا آراء اجتهادية لا تعدو أن تكون تبريراً لموقفهم من ضريبة آدمية فرضتها الدواة على غلمان مسيحيين ، ولكن هناك رأى واحد يمكن أن نسوقه هنا تفسيراً لهذه الضريبة يجب جميع الآراء التي سبق عرضها تأييداً أو اعتراضاً على ضريبة الغلمان . إن هذه الضريبة ليست إلا صورة من صور التجنيد العسكري الذي تباشره الحكومات في كافة الدول النامية والمتقدمة على حد سواء لسد حاجة القوات المسلحة من الرجال مع وجود عدة فروق هامة ، نذكر من بينها :

أولاً : إن الشاب المخذ يرضى فترة التجنيد لمدة زمنية محددة ، وقد تطول وقد تقصر تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التي تجتازها الدواة ،

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 45-47.

(١)

ولمعلومات أوفى انظر في هذا المرجع الفصل الثاني بعنوان :

The Ottoman Ruling Institution ; as a Slave-Family. General Description. pp. 45-61.

بل إن بعض الدول كانت تستبقي الجندي في سلك الجيش حتى يتقضى نجبه سواء حثف أنفه أو في ساحات الوغى . أما الدولة العثمانية فبدلاً من أن تنتظر الغلام حتى يبلغ أتمه ويصبح في عنفوان شبابه لتجنده ، نجد أنها تأخذه وهو في سن مبكرة لتدربه التدريب الذى يتششى مع استعداداته العملية والجسمانية تمهيداً لتعيينه في وظائف السلك العسكرى أو السلك المدنى ، ويظل في خدمة الدولة طوال حياته .

ثانياً : إن الجندي في الدول الأخرى لا يباغ عند وفاته أو عند تسريحه من الجيش رتبة من الرتب العسكرية الكبيرة . بينما كان الغلام الذى تأخذه الدولة العثمانية يصل إلى أعلى الرتب العسكرية والمناصب القيادية في الجيش أو البلاط السلطاني أو الصدارة العظمى - رئاسة الوزارة - أو كرسي الوزارة أو الوظائف الإدارية المدنية ذات المستوى العالى . وعلى ذلك فإذا كانت الدولة العثمانية تأخذ الأطفال المسيحيين وهم في سن غضة ، فإن مسنة بلا زهراً كان ينتظرهم في قابل الأيام ويظلون ينعمون به مدى الحياة .

ثالثاً : إن الجندي في الدول الأخرى كان لا يطلب منه في الأعم الأغلب تغيير عقيدته الدينية أو مذهبه الدينى . أما في الدولة العثمانية فكان يتم تحويل الغلمان إلى الدين الإسلامى ، لأن هذه الدولة كانت تلتزم في معظم الأوقات التزاماً صارماً بتطبيق مبدأ عام هو عدم إشراك غير المسلمين في الجيش الذى يظل مقصوراً على المسلمين دون سواهم .

ويلاحظ أن فريقاً من المؤرخين والباحثين يتناسون المسافة الزمنية التى تفصل بين الغلمان الذين عاشوا في أوروبا في القرن الرابع عشر وما تلاه وبين غلمان أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتجاهلوا الحروب الدينية العديدة والعيفة التى خضبت أرض أوروبا بالدماء منذ حركة مارتن لوثر ، ونحن نقتصر حديثنا في نطاق التاريخ الحديث ، ولا نوغل بعيداً في أغوار تاريخ العصور الوسطى أو تاريخ العصور القديمة . وكانت كل طائفة دينية تريد لإكراه طوائف أخرى على اعتناق مذهبها ، وما تحلل هذه الحروب من لاغتيالات ومذابح عامة تنوعت صورها وأشكالها ووحشتها ، سواء في شبه

جزيرة إيطاليا ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الاتحادية (الغربية) ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) ، أو فرنسا ، أو سويسرا ، وغيرها بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو في أسبانيا بين الكاثوليك والمسلمين بوجه خاص . ونحن إذا أسرنا إلى هذه الأمثلة فلإننا لا ندافع عن سياسة الدولة العثمانية في هذا الصدد استناداً إلى أن أحداثاً على شاكلتها قد وقعت من قبل في أوروبا . ومن المبادئ المستقرة في مناهج البحث العلمي التاريخي أن تقييم الحادث ووزنه لا يتمان إلا في ضوء تقاليد المجتمع وقتذاك وحضارته والعصر الذي وقع فيه هذا الحادث .

أهمية الإنكشارية :

ترجع أهمية الإنكشارية إلى عدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العددية (١) وضراوتهم في المعارك الحربية . فكانوا يشكلون ثقلاً حريياً رهيباً لمصلحة الدولة في الحروب التي كانت تخوضها الجيوش العثمانية دفاعاً أو هجومياً سواء في آسيا ، أو في أوروبا ، أو في إفريقيا .

وقد أرجع أحد المؤرخين ضراوة الإنكشارية في القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التي اتسمت بها تربيتهم ، وإلى نحو ماضيهم محو كاد يكون تاماً ، وإلى التركيز على الاستبسال في الحرب واسترخاض الموت . فكانت حصيلة هذه التربية البعيدة عن جو الأسرة والذي تزكو فيه شتى المشاعر من الحب والعطف والحنان ، أن نشأوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التي تهذب الطباع ، ومحرومين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح الأذهان ، وبعيدين عن كل المثل التي تحرك الإرادة . فغداً تفكيرهم وسلوكهم ومستقبلهم مرتبطاً بالحرب (٢) .

(١) كان عدد الإنكشارية أول الأمر ١٢,٠٠٠ ثم ارتفع عددهم باطراد إلى ١٣,٠٠٠ ثم

٤٦,١١٣ ثم قفز إلى ١٤٠,٠٠٠ .

(٢) Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 402.

وكان الإنكشارية يأخذون سنى المواقع في ميدان المعركة ، بل وقبل بدايتها . كان فريق منهم يرافقتون طليعة الجيش يتبعهم عدد من رؤسائهم . فإذا بلغ الجيش مكان المعركة وقف الإنكشارية في القلب واتخذ السلطان مكانه خلفهم ، وإلى جانبه يبرق الحرب ، وهو العلم الإمبراطورى (١) . وكان الصناديق الأعظم ينفذ إلى جانب السلطان ، وكذلك كبار القادة . وجميعهم من نواح ضريبة الغلمان ، أى القزلار عبيد السلطان .

وكان الإنكشارية أيضاً يتبعون السلطان في تنقلاته . ويعزو بعض المؤرخين والباحثين مصاحبة الإنكشارية للسلطان في تحركاته إلى أنهم كانوا يؤلفون الحرس السلطاني . ويقولون إن هذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم الرئيسية . ومن الخطأ الأخذ بهذا الرأي الذى يجعل البعض يعتقد أن عمل الإنكشارية الرئيسى كان مقصوراً على الخدمة في الحرس السلطاني في حين أنه كانت هناك أربع فرق عسكرية ذات مركز عال تعمل إلى جانب فرق أخرى في الحرس السلطاني . وهذه الفرق الأربع هى : الصولاك ، والبيكات ، والجاوشية ، والمتفرقة . وكان أفراد بعض هذه الفرق يخطون بالسلطان في المواكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان إطلاقاً حين كان يذهب إلى الحرب ، وكان البعض الثالث يتناوبون الحراسة في القصر : وكان البعض الرابع يلازمون السلطان باستمرار . وكانت الغالبية العظمى من أفراد هذه الفرق لا يقومون بأى خدمة حربية إلا في تلك المناسبات (٢) . ومما يدحض الرأى الذى ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين ،

(١) استبدلت الدولة رأية الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمسماة البيروقراطية بالعلم الإمبراطورى . وقد تم هذا التغيير منذ حكم السلطان سليم الأول ، ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية عام ١٥١٧ وكان العثمانيون يعتبرون هذا البيروقراطية من أهم الأمانات المنسوبة ، وأطلقوا عليه « صنجنج تريف » أى البيروقراطية الشريفة . وكان هذا البيروقراطية الشريفة من بين الهدايا التى أرسلها بركاب تريف . مكه إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامته في القاهرة عنواناً على ولايته للدولة ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وكان السلاطين منذ ذلك الوقت يحرصون على أخذ هذا البيروقراطية الشريفة معهم حين يخرجون إلى الحرب تركاً به .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold : op. cit., Vol. 1, Part 1, pp. 86-88.

وهو أن الإنكشارية كانوا يؤلفون الحرس السلطاني ، أن الفيالق الإنكشارية كانت من أهم الثرات الضاربة الرئيسية التي اعتمدت عليها الدولة في فتوحاتها لأقاليم مترامية الأطراف ، وفي صمودها أمام نكتلات صليبية أوروبية رهيبية واجهتها السواة عبر تاريخها الطويل (١) .

ويؤيد هذا الرأي جمهرة من أعلام المستشرقين والمؤرخين الأجانب . وحسبنا أن نذكر أربعة منهم . يقرل بروكلهان المستشرق الألماني إن الإنكشارية كانوا قوام الجيش العثماني وعماده (٢) . ويقرر المستشرق كليمان إيوارت أن الإنكشارية كانوا أكبر قوة في فرق المشاة استطاع بها السلاطين تهتميق الفتوح الواسعة التي قاموا بها في القرن الرابع عشر وفي القرون التالية (٣) . وهناك مؤرخ إنجليزي - هو الأستاذ جرانت - يذهب إلى أبعد من هذا الرأي ، فيقول « إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حد كبير جداً على الإنكشارية » (٤) ، ثم يقول في موطن آخر إن الدولة العثمانية أحرزت أعظم انتصاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية ، بسبب مقدرتهم القتالية وشجاعتهم الحربية . ولما افقدوا هذه الزايات والحصائل ولت الأيام الذهبية التي عاشتها الدولة عبر تاريخها الطويل (٥) . أما المؤرخ الإنجليزي فيشر فكان أكثر تفصيلاً لهذا

(١) عن التوسع الإقليمي وعن النكتلات أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . ج ١ ،
الطبعة الأولى ، ص ص ٥٦٤ - ٥٨٢ ، ص ص ٥٩٣ - ٦٢٠ ، ص ص ٦٢٥ -
٦٥٠ ، ص ص ٦٥٥ - ٦٦٨ ، ص ص ٦٧٥ - ٦٧٧ ، ص ص ٦٨٩ - ٧٠٦ ،
ص ص ٧١٠ - ٧٢٤ ، ص ص ٧٤٨ - ٧٥٠ ، ص ص ٧٦٠ - ٧٧٧ ، ص ص
٧٨٤ - ٧٨٨ ، ص ص ٧٩٣ - ٧٩٥ ، ص ص ٧٩٩ - ٨١٠ .

(٢) بروكلهان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣

ص ٨٣ .

Huart Cl., Encyc. of Islam. Art. Janissaries. (٣)

Grant A.J., A History etc., op. cit., p. 211. (٤)

op. cit., p. 212. (٥)

الرأى من سابقه ، فهو يتبرل إن وجود فرته واحدة من الإنكشارية فى أى جيش عثماني كان كفيلا باستماتة هذا الجيش كله فى ميدان القتال ، ثم يتبرل فى موطن آخر إن الإمبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا كثرة فى الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل ، والنتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جرى بهم إلى مدارس الإنكشارية حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكري والعقيدة الإسلامية (١) .

ويسجل أحد الباحثين العرب المحدثين رأيه فى أهمية الفيلق الإنكشارية فى القترات المسلحة العثمانية ويشيد بصنمات أفراد هذه الفيلق ودورهم فى الفتوحات العثمانية التى تمت غرباً وشرقاً ، فيتبرل إن الفيلق الإنكشارية كانت محور قرة الدولة . وبهذه الفيلق المنظمة والمدربة والمتفانية استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة . فلأنها من ناحية فتحت بلاداً فى أوروبا كانت حتى ذلك الوقت خارج حوزة الإسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الإمارات الإسلامية الصغيرة التى قامت فى الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة (٢) . ولا شك أن هذا الباحث العربي كان يتكلم عن القترات الإنكشارية فى عصرها الذهبي قبل أن يتطرق إليها الفساد وتغدو معمار أخطار على الدولة .

ونضيف إلى ما قرره هؤلاء الأربعة ، عن الدور الرئيسي الذى قام به الإنكشارية فى حروب الدولة هجومياً ودفاعاً ، أن الإنكشارية كانوا يشكلون

(١) ".....it is clear that without such a tribute (the tribute of Christian children) a regular recruitment could not have been maintained. It followed, as a consequence, that the Ottoman Empire was made and maintained, not only or even mainly, by men of the Ottoman race. but by the slave children of Christian parents, who had issued through the seminaries of the janissaries. with the appointed stamp of military subservience and the Moslem faith".

Fisher H. A. L.; op. cit., p. 402.

(٢) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، صص ١٧-١٨

الحاميات التي ترابط على حدود الدولة . وكانوا يتلقون مرتباتهم من الحكومة المركزية في إستانبول .

وجرت العادة على أن ترسل هذه الحكومة عدداً من ضباط الإنكشارية أول الأمر إلى المواقع المقترحة لإنشاء الحاميات فيها . ويقوم هؤلاء الضباط بدراستها على الطبيعة وتقديم مقترحاتهم إلى إستانبول . وكانت الدولة أيضاً تعزز جيوش الاحتلال في الأقاليم التي فتحتها بقوات من الإنكشارية . وكانت هذه القوات الصدارة على سائر فرق جيوش الاحتلال في الولايات العثمانية في أوروبا ، و فرق الحاميات العثمانية في الولايات العربية . ونذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية ، ومصر ، والعراق . وكان الإنكشارية في الممتلكات العثمانية يخضعون لإمرة الولاة المحليين ، ويتقاضون مرتباتهم من الحكومة المحلية في الولاية .

جبروت الإنكشارية وطغيانهم :

كان الإنكشارية سلاحاً رهيباً حاداً بآراء استطاعت به الدولة أن ترضى قديماً في سياسة التوسع الإقليمي المرحلي . وكان الجيش العثماني يضارع أقوى الجيوش الأوروبية . ثم غدوا مركز قوة خطير في حياة الدولة تعرضت بسببه لأخطار جسيمة . استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومقدرتهم القتالية فدخلهم الغرور ، أو بعبارة أكثر دقة ، ازدادوا غروراً على غرور ، وصلفاً على صلف .

كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد . ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أي البقشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مها أوتي من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة في اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام

١٧٧٣ (١) وكانت حجته في إلغاء هذا التقليد حجة قوية ، هي أن الدولة كانت تجتاز وقتذاك أزمة مالية عصبية بسبب ضخامة الإنفاق العسكى على القوات العثمانية المسلحة إبان الحرب التي اشتعلت بين الدولة وبين روسيا . وهى الحرب التي استطالت ست سنوات كوامل وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان ، وانتهت بعقد معاهدة جائرة هى معاهدة كيتشك كينارجى فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ . وقد أُلحق بهذه المعاهدة بندان سريان : نص أولهما على أن تدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامة حربية قدرها خمسة عشر ألف كيس ، تسدد على ثلاثة أقساط متساوية فى اليوم الأول من شهر يناير - كانون ثان - فى عام ١٧٧٥ ، وعام ١٧٧٦ وعام ١٧٧٧ .

وتد بدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية فى المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان « أبى زيد الثانى » (١٤٨١-١٥١٢) ، ثم اشتدت هذه الظاهرة على جهود معظم خلفائه السلاطين . حدث أن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) - وهو معروف بصرامته وإسرافه فى سفك الدماء - كان قد توغل فى أراضي الدولة الصفوية فى فارس على رأس قوات زاحفة جرارة . وفجأة طلب الإنكشارية من هذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضي العدو . وخشى السلطان أن يعمدوا إلى التمرد والعصيان وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يمرض الجيش العثمانى إلى التمزق . وكان تقدير السلطان للموقف الحربى أن الانسحاب هو أخف الضررين . فرضخ لطلب الإنكشارية . وعاد أدراجه إلى إستانبول . وتكرر مثل هذبا الحادث على عهد سلطان لاحق هو السلطان عثمان الثانى . وسنوضح هذين الحادثين فى الفصل القادم .

وازداد نفوذ الإنكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم إلى عاصمة الدولة مما أتاح عديد الفرص لروشاهم ليتأدوا فى طلباتهم كلما أتسوا

(١) يرى بعض المؤرخين والباحثين التفاضى عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر - كانون الأول - ١٧٧٣ ، ويحملون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول .

من السلطان الحاكم ضعفاً . كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، ويتولون بعضهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاغليها . وأصبح كبار موظفي الدولة يخشون الإنكشارية ويتماقرون رؤسائهم ، ويفنون أوامرهم خوفاً من بطشهم . وبلغ من عتو الإنكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتنفيذ الأوامر العسكرية التي تصدر لهم من قيادة الجيش ونذكر على سبيل المثال أنه إذا استول الجيش على مدينة وعتبات مدينة أو اتفاقية مرتقة تتضمن شروط التسليم ، وكان من بينها المحافظة على أرواح سكان المدينة وأموالهم وأعراضهم ، كانت الفياقق الإنكشارية لا تعبأ بشروط التسليم ، وتنطلق في نشاط محمود تمارس أعمال النهب والسلب والقتل وهتك الأعراض وإحراق المباني .

وكان الإنكشارية في أوقات السلم يشقون عصا الطاعة ، ويلجأون إلى سلاحهم التتايدي ، وهو القيام بحركات عصيان تحمل معنى التحدي للسلطان والحكومة المركزية في العاصمة . وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تهفو نفوسهم إلى أعمال التمرد وخلع السلطان الحاكم والمادة بتنصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم طمعاً في تجديد العطايا . وكانوا يلجأون إلى وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكري . كانوا يترضون الموكب السلطاني ويمنعون السلطان من الوصول إلى القصر ويهتفون في وجهه هتافات غير كريمة مطالبين إما بمزيد من العطايا والإمتيازات ، وإما بالغاء قوانين كانت قد صدرت باغلاق محلات بيع الخمر وحظر تناول هذه المشروبات . فكانوا يحملون في أيديهم كؤوس الشراب ويرفعونها في وجه السلطان مما يعد تحدياً صريحاً للرئيس الأعلى للدولة وحكومته .

الإنكشارية يتخذون من القزانات رمزاً لتمردهم :

كان الإنكشارية يتخذون من القزانات - وهي القدور التي يطهى فيها الطعام - رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكهم . فكانوا لا يجتمعون حول

القرانات لتناول الطعام فحسب ، بل وللتشاور في أمورهم الخطيرة أو الهامة . فإذا استقروا رأياً على القيام بحركة عصيان عسكري جماعي قلبوا القرانات بعد التهام الأطعمة الموجودة بها ، ووضعوها صفوفاً متراسة أمامهم في ساحة آت ميداني - أى ميدان الخيل - وكانت تقع في هذا الميدان ثكناتهم . ويمكنون أمام القرانات بعض الوقت ، وهم في هرج ومرج شديدين . فإذا أقبل رؤسائهم ساد الحاضرين صمت مطبق ، ويعلن أحد الرؤساء تفاصيل التمرد العسكري وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة ، أو عدة شخصيات ، أو تنظيم مظاهرات عسكرية تتعرض لموكب السلطان في أثناء مروره ، أو الهجوم على القصر السلطاني والمناداة بخلع السلطان وتنصيب غيره . وبعدئذ ينطلق الإنكشارية وحوشاً كاسرة لتنفيذ مخطط العصيان . وهم في وضع استعداد تام لمواجهة أية قوات ترسلها الدولة للتصدي لهم . وكانوا إذا قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رعوس القتلى معهم ووضعوا كل رأس أمام قران مقلوب . وعند نجاح تنفيذ مخططهم تصدر لهم الأوامر من قيادتهم بإعادة القرانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن انتهاء التمرد العسكري .

تفاهم خطورة الإنكشارية :

وازدادت مشكلة الإنكشارية تفاقماً عندما قررت الحكومة المركزية ، أو بعض عناصر هامة مستنيرة فيها ، تطوير الجيش بإدخال النظم العسكرية الحديثة التي أخذت بها الدول الأوروبية في جيوشها . وقد أطلق العثمانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (١) . وجاء قرار الحكومة في هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لهزائم أليمة متعاقبة من الدول

(١) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) هو الذي أطلق هذه التسمية على الفرق العسكرية التي بدأ في إنشائها ، وجعل مقرها ساحة لوند چفتلك على مرتفعات أورته كوى ، وأرناؤد كوى على الساحل الأوروبي للبوسفور .

انظر

Huart Cl. ; Encyc. of Islam. Art. Janissaries.

(م - ٣٢ الدولة العثمانية)

الأوروبية . وبات واضحاً عجز الدولة عسكرياً عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص . ونبتت الفكرة القائلة إن ضعف الدولة هو ضعف عسكري قبل كل شيء ، وأنه لا يرجى أى إصلاح إلا إذا بدأت الدول بإدخال النظم الحربية الحديثة في قواتها العسكرية بحيث يسير الجيش العثماني جيوش الدول الأوروبية تسليحاً وتنظيماً وتدريباً . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهي عصورها على الأجداد العسكرية التي حققتها الجيش العثماني . وكان هذا الجيش أداة للحرب أولاً ، وأداة للحكم ثانياً . وقد ذكرنا من قبل أن بعض المؤرخين شبهوا الجيش العثماني بعملة ضربت على أحد وجهيها لفظة «الحرب» ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة «الحكم» . فكان الحكم العثماني في لحمته وسداه حكماً عسكرياً .

عارض الإنكشارية معارضة شديدة لإدخال النظام الجديد في فيالقهم ، لأنهم أدركوا أن تطبيقه في محيطهم العسكري سيؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم في الفرق العسكرية الجديدة التي أنشأتها الدولة وفقاً للنظام الجديد . وكانوا حريصين الحرس كله على الاحتفاظ بكيانهم الخاص ووضعهم الخاص وامتيازاتهم الخاصة في الجيش . ولذلك رفضوا رفضاً باتاً وقاطعاً العروض التي قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام إلى الفرق العسكرية الحديثة ، ورفضوا أيضاً قبول معاش تقررته الدولة لمن يرفض منهم النظام الجديد . واستهجنوا هذا النظام ، بل أنكروه قائلين « إن ولي الله الحاج بكتاشي كان قد بارك جماعة الإنكشارية عند تكوينها ، ودعا لها بالنصر الدائم » (١) . وزعموا ، تأسيساً على دعاء هذا الولي وبركاته ، أنهم في غنى عن كل تعليم .

وقد ذهب الإنكشارية في معارضتهم لتطبيق النظام الجديد عليهم إلى أنهم لجأوا إلى سلاحهم الرهيب وهو تنظيم حركات التمرد أو العصيان في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم معتمدين على قوتهم العسكرية ووفرة أعدادهم بحيث أصبحوا مركز قوة خطير عرض أمن الدولة الداخلي والخارجي

(١) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، صص ٧٦-٧٧ .

لأخطار بالغة . ونجحوا في إكراه عدد من السلاطين على إلغاء النظام الجديد . وهكذا أصبح الإنكشارية بمضى الزمن عنصر فساد في جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وتعددت حركات العصيان وارتاحوا إليها ، إذ وجدوا فيها وسيلة عملية لتحقيق رغباتهم من ناحية ، ولكي يثبتوا من ناحية ثانية لسائر أسلحة الجيش ولكبار موظفي الدولة وللقطاعات الجماهيرية أنهم لا يزالون أولى بأس شديد ، وفي استطاعتهم عزل السلاطين وقتلهم وتعيين غيرهم ، فضلاً عن قدرتهم على البطش برجال الدولة من ناحية ثالثة .

شور الإنكشارية تمتد إلى المدنيين :

وامتدت شورش الإنكشارية في أوقات السلم إلى المدنيين الودعين ، سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فارتاحوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب . كانوا يعمدون إلى إحراق أحد أحياء مدينة يبغون نهبها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الإنكشارية ينهبون الأحياء الأخرى في المدينة . فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراس ، ويهاجمون المحلات التجارية ، ويركزون هجومهم على محلات اليهود ويخطفون بضائعها (١) . وبلغ بهم الجبروت والعصيان أنهم اعتقدوا أن جميع الأفعال مباحة لهم حتى ولو كانت قوانين الدولة تمنعهم من ارتكابها أو الإتيان بها (٢) . ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة الدار المخصصة لسكنى الصدر الأعظم إذا تباطأ في تنفيذ طلباتهم (٣) . وبذلك أصبح الإنكشارية كأن قلوبهم غلف (٤) لاتعى شيئاً ولا تقبل نصحاً أو أمراً عسكرياً ، لأنها مغلفة ، ولكن طبع الله عليها بسبب جبروتهم وطغيانهم .

Lybyer A.H.; op. cit., p. 92. (١)

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, p. 759. (٢)

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., tome VII, pp. (٣)

359 - 360.

(٤) غلف مفرداً أغلف . ويقال قلب أغلف لا يعي لعدم فهمه ، كأنه حجب عن الفهم كما يحجب السكين ونحوه بالغلاف .

إجراءات الدولة للحد من طغيان الإنكشارية :

استبان للسلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) نزعة الإنكشارية نحو التمرد العسكري ثم تدخلهم في السياسة العليا للدولة . وقد وضحت هذه المثالب منذ الأيام الأولى لحكمه وفي أثناء الحرب التي نشبت بين الدولة والصفويين على النحو الذي سنشرحه في الفصل التالي ، ورأى هذا السلطان ، مع الإبقاء على الإنكشارية كتنظيم عسكري في الجيش ، أن يكسر حدة طغيانهم وجبروتهم من ناحية ، وأن يفيد منهم كقوة من المشاة لها وزنها وثقلها في الحرب من ناحية ثانية . ولما فتح بلاد الشام سنة ١٥١٦ ثم مصر سنة ١٥١٧ عزز القوات العثمانية المسلحة التي تركها في هذين الإقليمين بفيالق من الإنكشارية لدعم الحكم العثماني فيهما وتشتيت جموع الإنكشارية بحيث لا يتجمعون أو يتكثرون في عاصمة الدولة . ولما عاد إلى إستانبول تلقى نداء من خير الدين بربروسه ، أى خير الدين ذى اللحية الحمراء ، كى يعاونه في جهاده ضد الإسبانيين ، فأرسل له السلطان سليم في عام ١٥١٨ ألفين من الإنكشارية (١) كإجراء سريع ، وسمح له بتجنيد الأهالي من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية الصليبية . وقد أقبل أهالي الأناضول على الالتحاق بخدمة خير الدين طمعاً في الغنائم (٢) من ناحية ، ولإسهاماً منهم في حركة الجهاد الديني في شمالي إفريقيا من ناحية أخرى . وكان هذا التصرف من جانب السلطان سليم الأول متمشياً بفتح السياسة التي أرسى قواعدها تجاه الإنكشارية . ومضت الدولة على عهود السلاطين اللاحقين تتابع هذه السياسة في النيابات العثمانية الثلاث في شمالي إفريقيا والتي دخلت تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر .

ولما استفحلت شرور الإنكشارية عمد السلاطين إلى وسائل أخرى

(١) كان خير الدين بربروسه يقود الحامية العثمانية في الجزائر . وتخرج مركزه بعد مقتل أخيه عروج في أثناء محاولته تخليص مدينة تلمسان من الإسبانيين .
انظر :

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, pp, 806-807.

Loc. Cit.

(٢)

ابتغاء الحد من طغيانهم . كان من بينها توزيع الفيالق الإنكشارية على حاميات الحدود كما سبق أن ذكرنا في موطن سابق في هذا الفصل . وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية . كان يدرك تماماً أنهم تجاوزوا المدى وأصبحوا مركز قوة خطير في الدولة ، أو كما يقول المستشرق هارولد بوون ، إنهم غدوا أصحاب الدولة الأقوياء (١) . وانتهز هذا السلطان فرصة وقوع حوادث مؤسفة في إستانبول في أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ختان ابنه سنة ١٥٨٢ . ازدحمت العاصمة بالآف من سكان الأقاليم قدموا إليها لمشاهدة المهرجانات . ومات من شدة الزحام كثير من الوافدين ومن سكان العاصمة . وبرز في هذه الأحداث شبان أظهروا شجاعة وحسن تصرف في إنقاذ الأهلين من الازدحام والموت . وأراد السلطان أن يكافأهم فألحقهم بفيالق الإنكشارية (٢) ، كما أمر هذا السلطان بإلحاق عدد كبير من المجندين غير المدربين بفيالق الإنكشارية مباشرة . ولقي هذا الإجراء معارضة شديدة من رئيس الإنكشارية . ولكن لم يأبه السلطان بهذه المعارضة ومضى ينفذ هذا الإجراء الذي قابله رجال الحاشية بترحيب حار . وانتهز السلطان مراد الثالث فرصة تجدد الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، فوجه ضربة شديدة إلى الإنكشارية كتنظيم عسكري ، إذ سمح بإدخال أعداد وفيرة من المجندين المسلمين الأحرار ، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين ، في الفيالق الإنكشارية بعد أن كانت هذه الفيالق مغلقة تماماً في وجه هؤلاء المجندين . وترتبت على إدخالهم نتيجة هامة هي مطالبة هؤلاء المجندين بإلغاء الحظر المفروض على أفراد الفيالق الإنكشارية بعدم الزواج . واستجاب السلطان لهذا المطلب ، وبعبارة أكثر دقة ارتاحت الدولة لهذا المطلب ، ورفعت الحظر عن جميع أفراد

The Potential Masters of the State.

(١)

انظر

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180.

(٢) انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع المصور الحديثة . مرجع سبق ذكره .

الطبعة الأولى ، صص ٧٥٥-٧٥٦ .

هذه الفياق . فشغل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية والإنسال عن الحياة العسكرية التي كانوا منصرفين إليها كلية . وضعف استعدادهم الحربى وأصبح الانتماء إلى الفياق الإنكشارية وراثياً بغض النظر عن كفايتهم القتالية مما أدى إلى تدهور نظام الإنكشارية . ثم خطت الدولة خطوة أخرى في سبيل كسر شوكة الإنكشارية واسترضائهم معاً . فأذنت لهم في ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة في أوقات السلم بعد أن كان محرماً عليهم العمل في أمثال هذه الأنشطة الحرفية والتجارية (١) فازدادوا ابتعاداً عن الحياة العسكرية البحتة ، وازداد مستواهم القتالى هبوطاً . وأصبح بعضهم لا يذهبون إلى ثكناتهم إلا لتسلم مرتباتهم . وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية في أوقات السلم تجنباً لاستخدامها في حركات العصيان العسكرى أو في الفتك بالمدينين . وعلى الرغم من كل هذه القيود التي أحيط بها الإنكشارية من يمين وشمال فقد ظلوا يثقلون كاهل الحكومة بمرتباتهم وسائر النفقات العسكرية . وظلوا في مركز القوة لأن ثكناتهم التي كانوا لا يذهبون إليها إلا لما كانت مكاناً لتجمعاتهم إذا أرادوا القيام بحركة تمرد . وكانت لهم صيحة تجمعهم في الثكنات ، وهي « يولداش يوقى » (٢) ومعناها أليس لنا زملاء ؟ وكان لهم ضباط يقومون بتسليحهم وتوجيههم قبل تنفيذ حركات التمرد .

ونعرض في الفصل التالى صوراً من طغيان الإنكشارية وجبروتهم كمرکز قوة خطير في تاريخ الدولة .



Marriot J.A.R. (Sir); op. cit., pp. 102-103.

(١)

(٢) يولداش معناها زميل طريق . كلمة يول معناها طريق وتستخدم في الوقت الحاضر عبارة زميل في السلاح . وتكتب هذه الصيحة في اللغة التركية بالحروف اللاتينية : Yoldas Yokmu .

إفصل الثامن عشر

مراكز القوى في الدولة (٢)

صور من

طغيان الانكشارية وجبروتهم

الإنكشارية يرتكبون عمليات القتل والسلب عند تعيين أبي يزيد الثاني سلطاناً :

توفي السلطان محمد الثاني أو السلطان أبو الفتح أو السلطان الفاتح عن ولدين، أكبرهما «أبو يزيد» (١) ، وكان حاكماً على آماسيا، والآخر، «جم». وكان يحكم القرماني . وقد أخبر قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه الأكبر كى يسرع في العودة إلى إستانبول ويتبوأ العرش . ولكن عاد الصدر الأعظم فأرسل إلى الابن الثاني الأمير جم يخبره سرّاً بوفاة والده . وحدث تسابق بين الأخين على السفر إلى العاصمة ، وكان كل منهما يبغي الوصول إليها قبل الآخر مما يتيح له الفرصة لارتقاء العرش . وعلم

(١) يرد اسم هذا السلطان في الغالبية العظمى من الكتب العربية مكتوباً على هذا النحو : بايزيد . والواقع أن كلمة بايزيد هي النطق التركي للإسم العربي «أبو يزيد» . وما هو جدير بالذكر أنه توجد مدينة تحمل هذا الإسم في آسيا الصغرى ، وكانت حاضرة صنيق في ولاية أرضروم وتبعد ستة كيلومترات عن الحدود العثمانية الفارسية . وتشرف على الطريق المؤدى إلى أذربيجان . وقد أنشأ هذه المدينة السلطان أبويزيد الأول واتخذ منها مركزاً لمراقبة تيمور ، وفيها قلعة قديمة . وفي داخل البلدة مسجد رائع شيده هلول باشا آلوالى العثاقى على تلك الولاية . وظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٢١ ، ولم يسيطر عليها العثمانيون سيطرة تامة إلا بعد الحملات التي وجهها السلطان سليمان المشرع على الدولة الصفوية في سنوات ١٥٤٨ ، ١٥٥٢ . واستولى عليها الروس عدة مرات في القرن التاسع عشر في سنوات ١٨٢٨ ، ١٨٥٤ ، ١٨٧٧ ثم في سنة ١٩١٤ . وهي تشع حالياً جمهورية تركيا . ومعظم سكانها من الأتراك والأكراد . ويتركز نشاطهم في تربية الأغنام وإنتاج الصوف والجلود الخام والجلود المدبوغة وصنع السجاجيد .

الإنكشارية بتصرف الصدر الأعظم فثاروا عليه وقتلوه ، ثم عاثوا في إستانبول نهياً وسلباً . وأقاموا ابن الأمير أبي يزيد ، واسمه قرقد ، « قائماً عاماً للدولة » ، أى سلطاناً بالنيابة لحين حضور والده إلى العاصمة ويباشر مهام منصبه سلطاناً للدولة . ووصل أبو يزيد إلى إستانبول حيث كان في استقباله كبار رجال الدولة عند بوزغاز البوسفور . وفي أثناء اجتيازه البوسفور أحاطت به سفن وقوارب عديدة ملئت بالإنكشارية الذين رحبوا به . وكان الهدف من هذه المظاهرة البحرية هو إشعار السلطان الجديد بأن لهم اليد الطولى في ارتقائه العرش بعد أن كسب الجولة الأولى من أخيه الأمير جم . ولما وصل السلطان الجديد إلى القصر السلطاني وجد فيالق من الإنكشارية مرابطة أمام القصر ومدخله ، وهم في مظاهرة عسكرية ، وقدموا له عدة مطالب وطلبوا تنفيذها فوراً ، وكان من بين هذه المطالب عزل أحد الوزراء واسمه مصطفى باشا وتعيين وزير آخر يسمى اسحق باشا كان متعاطفاً معهم ، وأن يقدم لهم عطايا ابتهاجاً بتعيينه سلطاناً ، وأن يصدر عفواً عاماً عنهم بسبب ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب في العاصمة . وقد استجاب السلطان أبو يزيد الثاني لجميع مطالب الإنكشارية . وكانت مبادرة هذا السلطان بتقديم عطايا مالية للإنكشارية بمناسبة ارتقائه العرش تقليداً يلتزم به إلزاماً صارماً بعد ذلك كل سلطان يتربع على عرش الدولة (١) . واستمر هذا التقليد سارياً زهاء ثلاثة قرون - أو مائتين وأربعة وتسعين عاماً على وجه التحديد - حتى نجح السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) في إلغاء هذا التقليد . ولم تكف تنقضي ثلاثة أشهر على ارتقاء السلطان العرش حتى طلب منه الإنكشارية أن يسمح لهم بنهب مدينة بروسة عقاباً لسكانها على أنهم أووا إليهم أخاه الأمير جم الذي كان ينازعه على العرش . ورفض السلطان طلبهم . وخوفاً من حدوث شغب منهم دفع إليهم عطايا مجزية للمرة الثانية في مستهل حكمه . وقد مر بنا في الفصل السابق أنهم أجبروا السلطان أبا يزيد على إعادة فتح محلات بيع الخمر كي يمارسوا عادتهم في تناول المسكرات .

(١) كان يطلق على عرش الدولة « التخت السلطاني » .

الإنكشارية يشتركون في عزل السلطان أبي يزيد الثاني :

كان السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) قد أنجب ثمانية أولاد ، توفي خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة (١) . وبقى له ثلاثة أولاد هم : الأمير أحمد ، والأمير قرقد Korkoud ، والأمير سليم ، وعين والدهم كلا منهم حاكماً على إقليم من أقاليم الدولة . فعين أحمد حاكماً على آماسيا ، وعين قرقد حاكماً على صاروخان (مانيسه) ، وعين سليم حاكماً على طرايزون . وكان الأمير أحمد أكبر الأبناء الثلاثة وأجهد إلى قلب السلطان فاختره ولياً للعهد . فتحركت عوامل الغيرة في الأميرين الأخيرين . وكان يروم كل منهما أن يكون ولياً للعهد . واشتهر الأمير سليم بشغفه بالحرب وجرأته وصرامته وميله لسفك الدماء . ويطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقباً يجمع هذه الصفات ، فيقولون إنه الوحش أو المفترس Le Féroce ويصفه أحد البنادق في هذه العبارة « إنه أكثر السلاطين قسوة ، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب » (٢) . أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه « ياوز » (٣) أي السلطان الحاد الباتر العنيد . وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية

(١) كان هؤلاء الأولاد الخمسة هم :

- الأمير عبد الله وقد توفي عام ١٤٨٣ .
- والأمير محمد وقد توفي عام ١٥٠٤ .
- والأمير محمود وقد توفي عام ١٥٠٧ .
- والأمير شاهنشاه وقد توفي عام ١٥١١ .
- والأمير علمشاه وقد توفي عام ١٥١٢ .

انظر :

دكتور أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشام ومصر . ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . الناشر : دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٨ .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، صص ٦٧٩-٦٨٠ .

(٣) إن لفظة ياوز في اللغة التركية تتقابل في اللغة الفرنسية كلمتين : إحداها Tranchant ومعناها الباتر ، أو الحاد ، أو القاطع ، أو الحاسم . وأخرها Inflexible ومعناها الشخص المتيد الصلب الذى لا يلين . ويترجم البعض كلمة ياوز بلفظة مهول .

العثمانية (١) . وقد أكسبته هذه الصفات شعبية واسعة بين أفراد الفيالق الإنكشارية . وكانت نفوسهم تهفو إلى استئناف سياسة الفتوح الحربية طمعاً في غنائمها . وكانت معظم الحروب التي خاضتها الدولة على عهد السلطان « أبو يزيد الثاني » حروباً دفاعية أكثر منها حروباً هجرامية نظراً لميوله السلمية حتى اشتهر باسم « أبو يزيد الصوفي » أو « أبو يزيد المتصوف » أو « أبو يزيد الولي » . وعقد معاهدة صلح مع جمهورية البندقية سنة ١٥٠٣ ، تلها هدنة في ذات السنة مع الحبر مدتها سبع سنوات . واكتفى بتعزيز الجهود الحربية الذي كان يبذله قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦) سلطان دولة المماليك الشراكسة في صراعه ضد البرتغاليين في البحار الشرقية . فأرسل إليه أبو يزيد مقادير وفيرة من المدافع والنخائر والأسلحة بالإضافة إلى شحنات كبيرة من الأخشاب لبناء سفن حربية . وقد وصلت هذه الشحنات إلى مصر في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١١ ورفض أبو يزيد أن يتقاضى ثمنها واعتبرها هدية من الدولة للسلطان الغوري ، ثم أرسل ألفين من البحارة العثمانيين إلى مصر ليشاركوا في بناء وإعداد السفن الحربية في ميناء السويس . وكان هؤلاء البحارة تحت قيادة قائد بحري عثماني هو سلمان الرومي (٢) . وكانت معظم سنوات حكم السلطان « أبو يزيد » قد ران عليها هدوء حربي . وظل الجيش العثماني خلالها بمختلف فرقته في حالة استرخاء . وتعلقت آمال الإنكشارية بوجه خاص بالأمير سليم - إذا ظفر بالعرش - في أن يدفع عجلة الحروب في حركة دائبة مطردة نشيطة .

طلب الأمير سليم أن ينقل من طرابزون . وأقام طلبه تأسيساً على أنه ظل

(١) ومما هو جدير بالذكر أن رجال تركيا الفتاة أطلقوا اسم « ياوز سلطان سليم » على الطراد الألماني « جون » الذي استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطاني له في البحر المتوسط في سبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهى هذا الطراد إلى حوزة تركيا .
انظر :

بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٤-٦٥ .
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه . من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية التي عقدت في الموحة في المدة من ٢١ مارس - آذار - إلى ٣١ منه عام ١٩٧٧ .

في هذه الصنچقية مدة طويلة ناهزت الثلاثين عاماً (١) ، وأن طرايزون تقع في جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، وطلب أن ينتقل إلى إحدى الصنچقيات في أوروبا . ورفض أبو يزيد طلب ابنه علي الرغم من الشكايات العديدة التي بعث بها سليم إلى والده وإلى الصدر الأعظم وإلى أعضاء الديوان الهمايوني في إستانبول (٢) . وفي حديث دار بين سليم وأحد كبار العلماء ، قال الأخير إن عصيان الابن لوالده يؤدي إلى مواجهة عسكرية بينهما . فرد عليه سليم بقوله « ليحدث ما يحدث » (٣) . جمع سليم قوات من رجاله ومن جنود خان القرم واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذي كان يقيم وقتذاك في هذه المدينة . وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها عائداً إلى إستانبول حزيناً على وفاة ابنه الأمير شاهنشاه . واشتد عليه المرض . فأرسل في طلب ابنه الأكبر الأمير أحمد ، بصفته ولياً للعهد ، ليكون قريباً منه إذا وافاه الأجل المحتوم . وفوجيء الأمير أحمد عند وصوله إلى إستانبول بتدخل الإنكشارية ضده وأكرهوه على العودة من حيث أتى . وفي هذا الوقت الحرج تدخل الإنكشارية مرة أخرى لصالح الأمير سليم . وضغطوا على السلطان « أبي يزيد » ضغطاً شديداً حتى أجبروه على إصدار « خطي شريف » (٤) Hatt - i - Sherif بالعفو عن الأمير سليم وإعادته إلى ولاية

(١) جاء في رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الصدر الأعظم أنه أقام في صنچقيه طرايزون ثلاثين عاماً ، ثم ذكر في رسالة بعث بها إلى أعضاء الديوان الهمايوني في إستانبول أنه أقام في طرايزون خمساً وعشرين سنة .

(٢) انظر الرسائل التي وجهها سليم إلى شقي النواثر العليا في إستانبول مترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية في : دكتور أحمد فؤاد متولي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٩-٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٣ ، وقد جاء في التقرير الذي رفعه هذا العالم - واسمه نور الدين صاري كورز إلى السلطان - أن الأمير سليماً مصر على موقفه ، وأنه عتيد إلى أبعد حدود العناد .

(٤) خطي شريف مصطلح تاريخي مأخوذ من اللغة العربية ترجمته خط شريف . ومعناه يتصرف قرار يحمل اسم السلطان . وقد يذكر هذا المصطلح في بعض الأحيان مضافاً إليه لفظ همايوني على هذا النحو : خطي همايوني شريف ، وترجمته الحرفية قرار إمبراطوري شريف . ومعناه يتصرف : قرار سلطاني شريف يحمل اسم السلطان . وقد مر بنا صدور خطي شريف جليخان عام ١٨٣٩ ، وخطي همايوني عام ١٨٥٦ انظر في هذه الدراسة : ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

سمندرية (١) Semendris في أوروبا والتي كان قد عينه حاكماً عليها . وفي أثناء سفر سليم إليها قابله الإنكشارية وعادوا به إلى إستانبول . فدخلها سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية . وشعر السلطان أن الأرض تميد تحت قدميه ، واهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً . وكحل لهذه الأزمة عرض السلطان على ابنه سليم أموالاً طائلة إغراء له على العودة إلى مقر منصبه . فرفض الابن . وعاد السلطان يعرض على ابنه أن يعينه ولياً للعهد بشرط أن يحتفظ الوالد بالعرش ويمارس مهام منصبه حتى يقضى نجبه . ورفض سليم والإنكشارية هذا العرض . وأصروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده . وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٥١٢ نظمت مظاهرة عسكرية كبرى ضمت الإنكشارية والسباهية - الفرسان الإقطاعيين - وبلغ عدد المشتركين في هذه المسيرة العسكرية اثني عشر ألف جندي . واتجهت هذه المسيرة إلى القصر السلطاني في إستانبول . وطلب كبار الضباط مقابلة السلطان « أبي يزيد الثاني » فأذن لهم . ولم يكن في مقدوره أن يرفض طلبهم . وقالوا له « إن الهادشاه (٢) رجل طاعن في السن تنتابه الأمراض ، ونريد أن يتبوأ ابنكم الأمير سليم العرش بدلا منك » . وطبقاً للترتيب الموضوع لهذه المقابلة ارتفع إلى عنان السماء صحب الجنود حتى يدرك السلطان أن الأمر جد وليس بالهزل ، فتنهار حالته النفسية . وقد نجح هذا الترتيب فأذعن السلطان وتنازل عن العرش لابنه سليم . وبعد عشرين يوماً طلب الوالد من ابنه السلطان سليم الأول أن يأذن له في مغادرة إستانبول والتوجه إلى مسقط رأسه في ديموتيقه Démotica ليقضى فيها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وفي اليوم الثالث للرحلة توفي في الطريق (٣) .

(١) سمندرية هي العاصمة القديمة لبلاد الصرب ، وهي تقع عند التقاء نهر الدانوب بنهر مورافا . وإليها نسبت ولاية سمندرية .

(٢) الهادشاه - وتكتب في بعض المراجع الهاديشاه - عبارة عن كلمتين فارسيتين : ياد ، وشاه ، ومعناها ملك الملوك Rois des Rois . ويقصد بها في هذه الدراسة السلطان . ولذلك ترد هذه اللفظة في بعض الكتب بادشاه آل عثمان ، وفي كتب أخرى بادشاه الإسلام .

(٣) يرى بعض المعاصرين أنه مات حزناً وكداً . ويرى البعض الآخر أنه مات بعد =

وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان « أبى يزيد الثانى » لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه . وانتهزوا فرصه الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش فزجوا بأنفسهم فى هذا الصراع ابتغاء تحقيق منافع لهم ، لأنهم توسموا فى الأمير سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحروب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية .

موقف الإنكشارية من السلطان سليم الأول :

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) هى موقف الإنكشارية منه ، اعتقدوا أنه مدين بعرشه لهم . فأرادوا أن يتقاضوا منه الثمن أضعافاً مضاعفة . كان سليم قد خرج إلى أسوار العاصمة مودعاً والده ، وعاد إلى القصر السلطانى لىباشر سلطات الحكم . ولكن ترامت إليه الأنباء بأن الإنكشارية محتشدون فى مظاهرة عسكرية فى الطريق المؤدى إلى القصر ليطالبوا السلطان بمكافآت سخية لقاء مساعدتهم له فى ارتقاء العرش . وقد استاء السلطان من هذا التصرف ، فأفسد تدبيرهم وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر . ولكن لحق به الإنكشارية واضطر أن يدفع لكل جندى اشترك فى الحركة خمسين دوكة (٢) . وتشجع أحد الرؤساء وطلب من السلطان زيادة مرتبات العسكريين ، فاستل سليم سيفه ، وبضربة واحدة سريعة أطاح برأس هذا القائد .

= أن دس أحد المرافقين له فى الرحلة السم فى الطعام . وهو رأى صائب تزيده ملبسات الموقف . ويذكر أحد المؤرخين أن سليماً الأول هو الذى قتل أباه أبى يزيد الثانى بمساعدة الإنكشارية .

Grant A. J. ; A History etc. ; op. cit., p. 213.

(٢) الدوكة Le Ducat هى عملة ذهبية كانت متداولة فى أقاليم الشرق الأدنى . وأقبل التجار والأهالى على التعامل بها نظراً لأنها ذات عيار عال يقرب من أربعة وعشرين قيراطاً . وكانت هذه العملة تقرب فى البندقية . ويطلق عليها البندق تمييزاً لها عن « الدوكات النمساوية » . انظر :

دكتور عبد الرحمن فهمى : التقود المتداولة أيام الجبرقى . ببحث منشور فى مجلد بعنوان : عبد الرحمن الجبرقى . دراسات وبحوث . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦

الإنكشارية يجبرون السلطان سليم الأول على إنهاء الحرب :

غير أن خطر الإنكشارية ظل جاثماً على الدولة العثمانية وعلى السلطان سليم الأول بالذات، على الرغم من أن هذا السلطان كان قد استجاب استجابة فورية لطلبهم توزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش، وكان وفتند في السابعة والأربعين من عمره، إذ سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم في شؤون الدولة أخطر ما يكون هذا التدخل وذلك النفوذ. فلم يمض عام وبعض عام حتى استكمل سليم استعداداته لحرب شاملة يشنها على الشاه إسماعيل الصفوي. واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس. واستطاع سليم أن يوقع هزيمة بالصفويين في موقعة تشالدران (١) في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥١٤ وأن يدخل في العام التالي تبرز عاصمة الدولة الصفوية في ذلك الوقت، وأن يستولى على عرش الشاه وكنوزه وتحفه ونسائه، ومضى سلم ينتقل من نصر إلى نصر متوغلا في أراضي الدولة الصفوية؛ وانسحب الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خشية وقوعه في الأسر. وبينما كان سليم في قمة انتصاره إذ حدث تطور في الموقف الحربي، فقد أوقف سليم العمليات الحربية فجأة. وعاد إلى استانبول قانعا بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمينية وما بين النهرين. وكان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم لإنهاء الحرب (٢) وخشى سليم أن يعمدوا إلى التمرد وهو بعيد عن بلاده. ويتنزه الشاه إسماعيل هذه الفرصة الذهبية ويعيد الكرة على الجيش العثماني. وقد ينال منه منالا عظيماً ويتعرض الجيش للتمزق.

(١) تشالدران سهل يقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية.

(٢) تختلف المراجع التاريخية في ذكر السبب الذي تدرج به الإنكشارية لمطالبهم السلطان سليم لإنهاء العمليات الحربية. فتذكر بعض المراجع أنهم تملأوا بسوء الأحوال الجوية في فارس، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم تدرعوا بحجة أخرى هي الاكتفاء بالانتصارات التي حققوها للسلطان في هذه الحرب نظراً لخطورة تعقب الشاه إسماعيل بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الهضاب.

الإنكشارية يدبرون حركة تمرد على عهد السلطان سليمان المشرع :

دبر الإنكشارية حركة عصيان في شهر مارس - آذار - عام ١٥٢٥ في إستانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) إليها من أدرنة حيث كان يقضى فصل الشتاء . وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان وقتذاك في مصر ، كما هاجموا الديوان جمركى - ديوان الجمارك - وعدداً من مساكن الأعيان ، ثم اتجهت جموعهم إلى حارة اليهود . حيث قاموا بصمليات النهب والسلب . ويلاحظ أن الهدف من عصيانهم كان اغتصاب الأموال سواء من أماكن حكومية أو أهلية ، وسواء من المسلمين أو اليهود ، وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنفسه بمنتهى السرعة ، فوزع عليهم ألف دوكة Ducats كدفعة أولى تلوها أقساط أخرى إذا أخلدوا إلى النظام . وأنهى الإنكشارية حركة التمرد طمعاً في الحصول على مزيد من العطايا . وقد فاجأهم السلطان بتشتيت شملهم بتوزيعهم على عدة أماكن يرابطون فيها ، ثم ألقى القبض على رؤسائهم الذين تزعموا حركة العصيان فقتل بعضهم وعزل البعض الآخر (١) . وكان من بين المكاسب التي عادت على الدولة من الحروب التي خاضها تباعاً السلطان سليمان المشرع وبخاصة في أوروبا وفي آسيا امتصاص نزعة التمرد من الإنكشارية (٢) . إذ لم يكن لديهم من الوقت متسع لتدبير حركات تمرد يقلقون بها الدولة . ويضاف سبب آخر هو قوة شخصية السلطان سليمان المشرع وشدة بطشه .

الإنكشارية يعترضون موكب سليم الثاني ويطالبونه بأعطيات :

تعرض السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) في مستهل حكمه للمهانة على

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، صص ٦٦-٦٧

(٢) يذكر المؤرخون للسلطان سليمان أنه جهز ست عشرة حملة .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الطبعة الأولى . الناشر دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٦٨٤ ، ص ص ٦٩٣ -

أيدى الإنكشارية حين دخل إستانبول لأول مرة عقب ارتقائه العرش مباشرة وسط مظاهرات صاحبة قاموا بها وأظهروا في أثناءها ازدراءهم الشديد له ، إذ اعترضوا طريق موكبه بعربة ملئت تبناً . وتوقف الموكب السلطاني وطالبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة إعطيات لهم حتى يسمحوا لموكبه بمواصلة التقدم إلى القصر . وقد رضخ السلطان لطلبهم .

تحدى الإنكشارية للسلطان مراد الثالث :

وعلى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) طالب الإنكشارية بتسليمهم كل من الباشا دفتردار (١) وكان يتولى المسئولية عن أموال الإمبراطورية كلها ، ومحمد باشا بكلكر بك الروملي (٢) ، وهو رئيس البكوات الصناجق ويشمل نفوذه الولايات العثمانية في أوروبا . وكانت مدينة صوفيا مقر قيادته . وكان يحمل ثلاثة أطواخ (٣) ولقب باشا (٤) ، ويمثل السلطان كتائب أعلى في الولايات الأوروبية ، ويتعين على الأمراء أنفسهم أن يطيعوه ويخضعوا له (٥) . وكانت حجة الإنكشارية في طلبهم القبض على هذين الموظفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لهم نقوداً فضية ناقصة المعيار . وكانت الحكومة المركزية في إستانبول قد لجأت فعلاً إلى هذا الإجراء

(١) كان الباشا دفتردار هو دفتردار الروملي أول الأمر ، وكان يتولى الشؤون المالية في ولاية المجر ومنطقة الدانوب . وكان السلطان سليمان المشرع هو الذي أنشأ منصب دفتردار الروملي . فلما ضاعت المجر في أواخر القرن السابع عشر ألغت الدولة هذا المنصب ، وأصبح دفتردار الروملي يلقب بإسم الباشا دفتردار . وغدا مقره إستانبول .
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol., 1, Part, 1, p. 129, Fn. No. 5.

(٢) يرد ذكره في بعض المراجع بكلكر بك روم ليلي .
(٣) سبق أن شرحنا مدلول لفظة أطواخ في ص ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .
(٤) كان بكلكر بك الروملي أعلى مرتبة من زميله بكلكريك أناضولي ، أى باشا الأناضول ، وكانت أنقره مقر قيادته حتى عام ١٤٥١ ثم أصبحت كوتاهية مقر قيادته .
(٥) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص

لمواجهة زيادة حجم الإنفاق العسكرى نتيجة تضخم عدد أفراد الإنكشارية بعد أن سمح السلطان مراد الثالث للمجندين المسلمين الأحرار بالالتحاق بالفيالق الإنكشارية كما رأينا فى الفصل السابق . ولما لم تستجب الدوائر العليا فى الدولة لطلب الإنكشارية جمعوا مجموعهم واتجهوا إلى سكن كل منهما وضربوا حصاراً حول داريهما . ومنعوا دخول أو خروج أحد ، ثم اقتحموا الدارين وقتلوهما شر قتلة . وعجز السلطان وحكومته عن منع الإنكشارية من ارتكاب جريمتى القتل . وذهبت هاتان الشخصيتان ضحية طغيان الإنكشارية . وكان قتلهما تحدياً صارخاً لأكبر شخصية فى الدولة ، وهو السلطان مراد الثالث ، ومشجعاً فى ذات الوقت لبعض الفرق الأخرى فى الجيش على القيام بثورات أو حركات عصيان مثل فرقة الخيالة التى قامت بثورة بعد ذلك بسنوات قليلة على عهد السلطان مراد الثالث ، وثورة أخرى فى سنة ١٦٠٣ إبان حكم ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) ، ولكن كانت هذه الحركات قليلة إن لم تكن نادرة ، وكانت تحدث على فترات متباعدة ، وأهم من ذلك كله لم تبلغ درجة الخطورة التى كانت تبلغها حركات الإنكشارية .

الإنكشارية يعزلون ثم يعدمون السلطان عثمان الثانى :

اشتهر السلطان عثمان الثانى (١٦١٨-١٦٢٢) فى تاريخ الدولة العثمانية بلقب « كنج » بمعنى الحدث أى صغير السن الذى لم يبلغ الحلم . فكان يطلق عليه كنج عثمان ، لأنه تولى العرش فى سن مبكرة غير مسبوقة بمثال . وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين كان عثمان من مواليد سنة ١٦٠٤ (١) . وهناك سبب آخر لإطلاق هذا اللقب عليه هو تمييزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . وقد استخف به الإنكشارية وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التى كان يخوضها ضد بواندا . وكان موقفهم يتعارض مع تقاليدهم بصفهم

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

(٣ - ٣٣ الدولة العثمانية)

جنوداً محترفين ، ووظيفتهم الوحيدة هي القتال يستهوى أفئدتهم . واضطر السلطان إلى النزول على رغبتهم ، وعقد الصلح مع البولنديين في أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٦٢٠ . وحنق السلطان على الإنكشارية لموقفهم المخزي ، فقد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه من هذه الحرب . فاعتزم السلطان عثمان الثاني تصفية قوات الإنكشارية . وأمر بحشد قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا كملت هذه القوات عدداً وعدة استعان بها على إبادة هذه الفئة من الإنكشارية . وشرع فعلا في تنفيذ خطته . وأحس الإنكشارية بهذه الحركة وثاروا نائراً . ووطدوا العزم على عزل السلطان عثمان الثاني . ونجحوا فعلا في عزله في اليوم الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٦٢٢ ، وهجموا عليه في القصر السلطاني وأخذوه إلى ثكناتهم ، وأوسعوه سباً وشتماً وضرباً ، ثم ساقوه إلى يدي قوله - قلعة الأبراج السبعة - التي أصبحت السجن الرسمي للدولة (١) حيث تم إعدامه (٢) . وقد كان لإعدام السلطان أصداء بعيدة ، إذ انتشرت الرهبة في دوائر الحكومة وفي شتى القطاعات الجماهيرية . وعلا شأن الإنكشارية علواً كبيراً ، وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم .

الإنكشارية يقتلون الصدر الأعظم إبان حكم السلطان مراد الرابع :

لم يمض وقت طويل على قتل السلطان عثمان الثاني حتى أقدم الإنكشارية على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤) (٣) . وقد بدأت أحداث هذه الجريمة حين أصدر السلطان مراد

(١) كان السلطان محمد الثاني - عقب فتحه القسطنطينية عام ١٤٥٣ - قد أعاد إنشاء الأسوار المحيطة بها ، وشيد عند طرفها الجنوبي الغربي ، إلى جانب بحر مرمره ، هذه القلعة .

(٢) محمد فريد بك : مرجع سبق ذكره ، ص ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) تولى عرش الدولة بعد السلطان القليل عثمان الثاني سلطان آخر ، أو بعبارة أكثر دقة أعيد للعرش السلطان مصطفى الأول (١٦٢٢ - ١٦٢٣) لأنه كان قد سبق أن ارتقى العرش (١٦١٧ - ١٦١٨) ، ثم خلع ، ثم أعيد عام ١٦٢٢ وظل متربصاً على العرش إلى أواخر شهر أغسطس - آب - عام ١٦٢٣ حيث خلع بإشارة المدعو كما نكش على باشا الصدر الأعظم لضمف =

فرماناً بعزل خسرو باشا الصدر الأعظم وإعادة حافظا باشا إلى منصب الصدارة العظمى . فأراد الباشا المعزول أن يؤكد كيداً للسلطان ، فاتصل بروساء الإنكشارية وأبلغهم أن السلطان لم يعزله من منصبه إلا لأنه كان متعاطفاً مع الإنكشارية ويسارع إلى تنفيذ رغباتهم . فثار الإنكشارية وطالبوا بإعادة خسرو باشا إلى منصبه . وأصر السلطان مراد الرابع على موقفه ، فأشعل الإنكشارية فتنة كبيرة في العاصمة ، وقتلوا حافظ باشا الصدر الأعظم في اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٦٣٢ ، وكان السلطان قد أخفق في بسط حمايته عليه . ولكنه عمد إلى الرد عليهم رداً عملياً ، فأمر بقتل خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة العسكرية التي قام بها الإنكشارية ، وأصدر فرماناً بتعيين بيرام محمد باشا صدرراً أعظم . وأصر السلطان على المضى في خطته وهي إبادة الإنكشارية ، وأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا في الفتنة كخطوة أولى ، فلما فرغ منها أمر بتوسيع عمليات القتل لتشمل كل من يثبت عليه أنه شارك ولو مشاركة جانبية في الفتنة التي أشعلوها . فلجأ الإنكشارية إلى خداع السلطان ، وتظاهروا بأنهم يلتزمون بقواعد الإنضباط العسكرية ، وأنهم يكونون للسلطان مراد الرابع كل تقدير وينفذون أوامره تنفيذاً صارماً ويطيعونه طاعة عمياء . واستهدفوا من هذا التظاهر التموه على السلطان كي يوقف المذابح التي أمر بها . ولكنهم كانوا يبيتون أمراً آخر .

فلم يكذب يمر شهران وبعض شهر حتى قاموا بحركة عصيان بقيادة رجب باشا في شهر مايو - آيار - في ذات السنة (١٦٣٢) ، فأمر

= عزيمته ووهن قواه العقلية . والحق أن هذا السلطان كان من أتمس سلاطين الدولة ، لأنه قضى حياته قبل توليه العرش معزولاً عن العالم في القفص (أنظر ما سبق صص ٣٥٠-٣٥١) . فلما تولى العرش أول مرة كان عديم التجارب . ولم يكن يدرى شيئاً عن أحوال الدولة . ولم يكن قد مارس أعمالاً عامة . وقد أطلق عليه في تاريخ الدولة لقب المعتوه أو الأبله . ويرد ذكره في المراجع الفرنسية مقروناً بوصف L'idiot بنفس المعنى السابق . وتولى العرش بعد عزله للمرة الثانية السلطان مراد الرابع . وظل السلطان التمسى مصطفي الأول مبعداً عن العرش وعن المجتمعات إلى أن قضى نحبه في سنة ١٦٣٩ .

السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبايبك القصر حتى يراها الإنكشارية (١) .
ومضت السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان في جو هادئ نسيباً إذ أدرك
الإنكشارية أنهم أمام سلطان قوى مقتدر .

الإنكشارية يعزلون ثم يختفون السلطان إبراهيم الأول :

من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الإنكشارية أنهم قتلوا خنقاً السلطان إبراهيم
الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) . وكانت الحججة التي استندوا إليها أن السلطان
يقف موقفاً عدائياً منهم ، وأخذوا يتناولونه بالنقد والتجريح ، واستقر رأيهم
على عزله ، وانتهزوا فرصة زواج إحدى بنات السلطان من ابن الصدر
الأعظم . وفي ليلة الزفاف اجتمعوا في أورطة جامع - مسجد الفرقة -
وانضم إليهم بعض علماء الدين وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي . وقرروا عزل
السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) واتخذوا لإجراءات
عسكرية واسعة النطاق لتنفيذ قرارهم . وتمت هذه الثورة في اليوم الثامن من
شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٧ . وبدا أن زمام الموقف في أيديهم .
ولم تكد تمر عشرة أيام حتى أظهر رؤساء فرق الجيش الأخرى عدم ارتياحهم
لتولية سلطان صغير السن عرش الدولة وطالبوا بإعادة السلطان إبراهيم إلى
العرش . ورأى الإنكشارية إزاء هذه المعارضة أن يضعوا الجميع أمام الأمر
الواقع . وقرروا قتل السلطان إبراهيم . وسرعان ما قاموا بحركة تمرد واتجهت
جموعهم ومعهم الجلاذ - قره علي - إلى حيث يقم السلطان وقتلوه خنقاً (٢) .
كما قتلوا السلطان عثمان الثاني من قبله . وارتاحت نفوس الإنكشارية لهذا
الانتصار الرخيص وانفسح المجال رحيباً أمامهم كي يعيشوا في الأرض فساداً
منتهزين فرصة تولي سلطان صغير السن هو محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)
عرش الدولة ، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد وتعرضت الدولة لهزائم أمام
الروسيا والنمسا والمجر وغيرها . وتدهور موقف الدولة إلى أسوأ مما كان قد
وصل إليه قبل أن يلي الحكم السلطان مراد الرابع . ومع ذلك فإن السلطان

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .

الجديد - محمد الرابع - على الرغم من حكمه الطويل لتي نفس المصير الذي لقيه معظم أسلافه . فقد عزله الإنكشارية في اليوم الثامن من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٨٧ ، وولوا أخاه السلطان سليمان الثاني وهو ابن السلطان إبراهيم الأول الذي سبق أن قتلوه خنقاً . أما السلطان المعزول - محمد الرابع - فلم يتعرض له الإنكشارية بالقتل ، وظل معزولاً قرابة خمس سنوات حتى قضى نحبه في اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٩٢ .

الإنكشارية يعمدون إلى قتل الصدر الأعظم وسبى زوجاته أيام السلطان سليمان الثاني :

أغدى السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١) العطايا على الإنكشارية وصفح عن عصيانهم الذي كانت نتيجة عزل السلطان محمد الرابع . ولكن لم تثمر الثمرة المرجوة سياسة المال والصفح التي انتهجها هذا السلطان مع الإنكشارية ، إذ اتخذوا إلى حركات العصيان سبيلاً . فحاصروا قصر سياوس باشا الصدر الأعظم ، ثم اقتحموه ، وقتلوا الصدر الأعظم وعرف باسم قتيل الإنكشارية ، وألقوا القبض على زوجاته واتخذوهن سبايا . وأصبحت إستانبول تموج بالفتن والإضطرابات مما شجع أعداء الدولة على مهاجمة الممتلكات العثمانية الأوروبية : في النمسا ، والمجر ، وبلاد اليونان ، والصر ب .

الإنكشارية يطالبون بقتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا :

نشبت الحرب بين الدولة العثمانية على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) وبين الدولة الصفوية على عهد الشاه طهاسب الثاني (١٧٢٢-١٧٣٢) . وكان السلطان العثماني عزوفاً عن الحرب ، رغب في تسوية النزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية . ولكن ثار الإنكشارية في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ على سياسته السلمية ، إذ تحول بينهم وبين الحصول على غنائم الحرب وما تتيحه فتوح المدن من ممارسة

عمليات السلب والنهب ، وتزعم ثورة الإنكشارية بترونا خليل (١) . وطلب من السلطان قتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا - قائد السلاح البحرى العثمانى - بحجة أنهم يؤيدون السلطان فى انتهاج سياسة سلمية تجاه الدولة الصفوية . ورفض السلطان الاستجابة لطلبهم أول الأمر . ولكنه تراجع عن موقفه حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشى أن تمتد شرور الإنكشارية إليه ، فسمح لهم بقتل الصدر الأعظم وقبودان باشا والإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأى العام عليه . وقبل الإنكشارية هذا الحل على مضض . وقتلوا الصدر الأعظم وقبودان باشا ، وألقوا بجثتيهما فى البحر فى أول أكتوبر - تشرين أول - ١٧٣٠ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يمنع رضوخ السلطان لطلبات الإنكشارية من تطاولهم عليه . وشجعهم على هذا التطاول تساهله المستمر معهم . فأعلنوا فى مساء ذات اليوم عزل السلطان ونادوا بتنصيب ابن أخيه السلطان محمود الأول . وأذعن السلطان أحمد الثالث لطلب الإنكشارية بدون معارضة . وظل معزولاً إلى أن جاز إلى ربه فى اليوم الخامس من شهر أبريل - نيسان - عام ١٧٥٨ (٢) .

الإنكشارية يقتلون رئيسهم :

لم تكن شرور الإنكشارية مقصورة على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولة فحسب ، بل امتدت إلى زعمائهم . لم يكن للسلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) من السلطة إلا اسمها . واستأثر بالنفوذ بترونا خليل رئيس الإنكشارية الذى قاد حركة الانقلاب وعزل السلطان أحمد الثالث بعد أن قتل الصدر الأعظم وقبودان باشا . فكان يعزل من يشاء ويولى من يشاء من كبار الموظفين تبعاً لأهوائه ، وأصبح كبار رجال الدولة يتملقون هذا الزعيم الإنكشارى . وقد أوغل فى استبداده حتى عيل صبر السلطان محمود الأول .

(١) يرد ذكر اسمه فى بعض المراجع على هذا النحو : بطرونا خليل .

(٢) مما يذكر لهذا السلطان أنه أدخل المطبعة فى إستانبول وأسس دار طباعة فيها بعد أن استصدر فتوى من شيخ الإسلام تجيز هذا الإجراء واشترط الأخبز عدم طبع القرآن الكريم خشية وقوع أخطاء مطبعية أو تحريف فيه .

وفي ذات الوقت تحركت الإطاع في نفوس أفراد الفيالق الإنكشارية. وطالبوا زعيمهم بترونا خليل بتحسين أوضاعهم المالية . ولكنهم وجدوا على عكس ما كانوا يتوقعون أنه يستولى على بعض مخصصاتهم، فاتفقوا على التخلص منه معتمدين على كثرتهم العددية وتم لهم قتله دون أن يتحرك أحد للدفاع عنه . وهكذا انطبق على الإنكشارية القول إن الثورات تأكل بنيتها . وبقتل هذا الزعيم عادت السكينة إلى إستانبول وأمن سكانها على أموالهم وأرواحهم . وباشر السلطان محمود الأول سياسة حربية نشيطة ضد الدولة الصفوية في فارس ثم ضد النمسا والروسيا .

السلطان مصطفى الثالث يتجنب الاحتكاك بالإنكشارية :

ولما تولى العرش السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) أراد أن يعضى في حكمه آمناً مطمئناً من الإنكشارية حتى لا يصيبه منهم ما أصاب أسلافه . واتجه إلى تطوير السلاح البحري وسلاح الطوبجية - المدفعية - واستقدم عدداً من الخبراء العسكريين الأوروبيين . وكان من بينهم البارون دي توت De Tott وهو مجرى الأصل ، التحق والده بخدمة الحكومة الفرنسية وحصل على الجنسية الفرنسية . وأوفدت حكومة باريس ابنه البارون دي توت إلى إستانبول حيث عكف على إصلاح سلاح المدفعية وسلاح البحرية (١) . وكانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وهي الحرب التي انتهت بمعاهدة كتشك كينارجى Kiiçiiik Kaynarca في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ (٢) . ولم تثمر إصلاحات السلطان مصطفى الثالث ، لأنها لم تمتد إلى القوات الضاربة الرئيسية في الجيش وهي

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي . الناشر مطبعة المعارف ومكبتها بمصر . لم تذكر سنة الطبع ، ص ص ٧٦ - ٨٠ .
(٢) عقدت معاهدة كتشك كينارجى بعد أن جاز إلى ربه السلطان مصطفى الثالث في اليوم التاسع من شهر شوال عام ١١٨٧ - الموافق اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٧٧٣ وأبرمت المعاهدة في مستهل حكم أخيه السلطان عبد الحميد الأول .

البيادة - المشاة - ومن بينها الفيالق الإنكشارية (١).

تمرد الإنكشارية على الدولة في الصرب :

من الصور التي يتشخ بها تاريخ الإنكشارية أنهم قاموا بحركة عضيان ضد الدولة في الصرب في السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) . كانت الحرب قد اندلعت بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا في التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٧٨٨ إبان حكم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) . واستطاعت هاتان الدولتان إنزال هزائم بالقوات العثمانية في اليوم الواحد والثلاثين من شهر يوليو - تموز - واليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - من عام ١٧٨٩ . وفي أثناء اشتعال هذه الحرب هرع جوع كثيفة العدد من أهل الصرب إلى المحر حيث انضم أفرادها جنوداً بواسل إلى الجيش النمساوي أملاً في أن تنتهي الحرب بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، ويستطيع الصربيون التخلص من الحكم العثماني لبلادهم . ولكن لم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة بسبب نشوب الثورة الفرنسية في منتصف عام ١٧٨٩ وانصراف حكام أوروبا إلى مراقبة تطوراتها ونتائجها على بلادهم . وتدخلت بين الدول الثلاث المتحاربة بعض الدول المعادية لفرنسا مثل إنجلترا وروسيا فتوقفت العمليات الحربية بعقد هدنة مع النمسا عام ١٧٩٠ تلتها معاهدة صلح معها في ٤ من أغسطس - آب - ١٧٩١ ردت النمسا بمقتضاها معظم الأراضي التي احتلتها إلى الدولة العثمانية ، تم دارت مفاوضات طويلة مفضية مع روسيا تدخلت فيها بعض دول أوروبا لإنجاحها ، وأسفرت عن إبرام معاهدة صلح في اليوم التاسع من شهر يناير - كانون ثان - ١٧٩٢ احتفظت فيها روسيا لنفسها ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب .

ولما عاد الصربيون إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب تعرضوا لعمليات

(١) دكتور السيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . (١٨٤٠ - ١٩٠٩) ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ص

السلب والنهب والقتل بصورة وحشية لم يسبق لها من قبل مثيل على أيدي الإنكشارية . وكانت الذريعة التي استندوا إليها هي أن الصريين انضموا إلى أعداء الدولة فلا مناص من التنكيل بهم . وكان هذا القول تبريراً يتسترون به على غرضهم الحقيقي والأوحد ، وهو تحقيق منافع شخصية وعاجلة لهم بطريق غير مشروع . وكان تصرفهم مدعاة لإحراج الباب العالي أمام النمسا . إذ نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة الصلح على أن « يمنع كل من الطرفين حصول التعدي والإهانة على الآخر ، ويعفو عن كل من اشترك في الحرب من رعايا أحد الطرفين ضد الآخر ، وعلى الأخص جميع صنوف أهالي الجبل الأسود والبوسنة والهرسك والأفلاق والبلقان ، بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العفو العمومي في الرجوع إلى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أيّاً كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم جلالة السلطان صاحب السيادة عليهم والخليفة الأعظم ، أو لإظهار ولائهم لجلالة إمبراطور النمسا » (١) .

أرسل الباب العالي تعليمات عاجلة إلى السلطات العثمانية الحاكمة في بلغراد استنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصريين ، وقال إنه أصدر عفواً عاماً لجميع أهل الصرب . وطلب أن تصدر السلطات العثمانية في بلغراد أوامر مشددة إلى الفياق الإنكشارية بعدم الاعتداء على الصريين . غير أن الإنكشارية لم يحفلوا بهذه الأوامر واستمروا في غيهم . وتوالت شكايات الصريين على الحكومة المركزية في إستانبول . فأصدرت أمراً إلى والي بلغراد بالتصدي للإنكشارية وطردهم من الأراضي الصربية كلية . وسارع الوالي إلى تنفيذ هذا الأمر وخاض ضدهم قتالاً معتمداً على بقية القوات التي لديه ، وكان على رأسها السباهية - الفرسان الإقطاعيون - وتغلب عليهم ، ولقي رئيسهم «ولي أحمد» مصرعه .

الإنكشارية ينضمون إلى أحد الثأرين العتاة :

لجأ الإنكشارية إلى أحد المغامرين الثأرين العتاة ، وهو بازوند

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٨٦ - ١٩٢ .

أوغلي (١) ، ويعرف أيضاً باسم عثمان باشا . شق عصا الطاعة على الدولة ، واتخذ من ولاية ودين (٢) في بلغاريا مقراً له ، وجمع فيها حوله قطاع الطرق والإنكشارية المتلذمين الذين أخرجوا من الصرب . وجردت الدولة عليه قوات جرارة ، ولكنه انتصر عليها ، فأرسلت إليه كوجك حسين باشا (٣) وظلت الحرب بينهما سجالياً . وختى حسين باشا أن يحدو حكام الولايات العثمانية في البلقان حدو هذا الثائر ويقومون بثورات ضد الدولة . وأخذ السلطان سليم الثالث باقتراح حسين باشا وهو منح الثائر عثمان حكم ولاية ودين طوال حياته . وكان هذا الثائر من أكبر المعارضين لمشروع تطوير الجيش ومن أشد خصوم السلطان سليم الثالث عنفاً (٤) . وكان من الطبيعي أن ينضوى

(١) يرد ذكر اسمه في بعض المراجع : باسبان أوغلي ، بازواند أوغلي ، نازوانت أوغلي ، بازواند زاده عثمان .

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع العربية فيدين استناداً إلى اسمها بالفرنسية Viddin وهي مدينة حصينة في بلغاريا ، وتقع على نهر الدانوب وهي ذات موقع إستراتيجي هام وتبعد ٢٢٥ كيلو متراً عن بلغراد . واكتسبت شهرة خاصة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ كانت مقراً للثائر بازواند زاده عثمان .

(٣) يعد كوجك حسين باشا من أعلام العسكريين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث في تنفيذ مشروع تطوير القوات المسلحة العثمانية . وتطابقت وجهتا نظرهما في ضرورة التخلص من الإنكشارية بعد أن أصبحوا عنصر فساد في جسم الدولة ومن أسباب تأخرها . وقد ظفر بتقدير عميق من سليم الثالث وزوجه إحدى أخواته . وعينه فبؤاداً عاماً أمى رئيساً لل سلاح البحري العثماني . وبذل جهوداً كبيرة في إصلاح النغور وإقامة القلاع الحصينة لحمايتها ، وأنشأ عدة سفن حربية على غرار أحدث السفن الإنجليزية والفرنسية . واستقدم عدداً كبيراً من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع ، وأدخل تطويراً جذرياً في المدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية - المدفعية - متمشياً مع أحدث النظم في المدارس العسكرية الأوروبية . وعلى الرغم من أنه كان قائداً للسلاح البحري ، فإنه أنشأ في سنة ١٧٩٦ فرقة مشاة وفقاً للنظام الجديد ، وجعل عددها ١٦٠٠ جندي ، وعهد بتدريبهم إلى ضابط إنجليزي اعتنق الإسلام واشتهر بإسم « إنجليز مصطفي » .

(٤) كان عثمان باشا الملقب بازواند أوغلي (١٧٥٨ - ١٨٠٧) من أسرة نمساوية اعتنقت الإسلام . وكانت تقيم في مدينة توزله من أعمال البوسنة في النمسا . وأقطعت الدولة في عام ١٧٣٩ على عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) جده المسمى باسبان أفا قرينين بالقرب من ودين في بلغاريا مكافأة له على حسن بلائه في الحرب التي شاختها الدولة ضد روسيا والنمسا عام ١٧٣٦ ، وكانت الجيوش النمساوية قد أغارت على =

== البوسنة والصرب وغيرها . ولم يقتصر ميراث ابنه - عمر أغا باسبان أوغل - على هاتين القريتين اللتين آلتا إليه ، بل كان بصفته بـرقداراً - حامل العلم - رجلاً ثرياً مرموقاً . وقد قتله والى الجهة لأنه شق عليه عصا الطاعة . وكاد يلقى ابنه عثمان نفس مصير والده لولا أنه فر إلى ألبانيا . ولكنه عاد إلى انسا بعد أن اشترك في الحرب التي اشتملت مرة أخرى بين الدولة وبين روسيا والنمسا عام ١٧٨٨ م نزح إلى ولاية ودين عام ١٧٩١ ، وفيها انشغل هو ورجاله في إعداد الحملات التي كان يبعث بها إلى الأفلاق والصرب ضد الدولة العثمانية . ولما أراد السلطان سليم الثالث معاقبته أعلن عثمان عصيانه عام ١٧٩٣ واعتصم بالجبال ، وغزا إقليم ودين في أواخر ١٧٩٤ مستعيناً بمصائب قطاع الطرق والإنكشارية ، ثم هاجم في سنة ١٧٩٥ الحاج مصطفى باشا والى بلغراد . وكان الأخير من أنصار تطوير الجيش العثماني وعهدت إليه الدولة بالتخلص من عثمان ، إلا أنه أخفق في تأديبه أو قتله . فأرسل الباب العالي عدة فرق لمحاربه ، ولكنها فشلت في التغلب عليه . ورأت الدولة اتباع الطريق السلمى ابتغاء إعادته إلى حظيرتها رجلاً من رجالها . ودارت اتصالات بينها وبينه في أواخر عام ١٧٩٥ ، وأخفق الحل السلمى وظل عثمان مستقلاً بالقطاع الشمالي من بلغاريا . ولم تعرف الدولة رسمياً به ، فعمد هذا إلى طرد الوالى العثماني في ودين . وقام عثمان بغزو الولايات المجاورة عام ١٧٩٧ واحتل وهدد في الشرق بلداناً كثيرة في بلغاريا ثم اتجه إلى بلغراد وفتحها ولكن استعصت عليه قلعة هذه المدينة ، إذ نجح في الاحتفاظ بها العثمانيون والصربيون الذين سلحهم الحاج مصطفى باشا والى بلغراد .

وزاد من خطورة عثمان أن اتصالات دارت في الخفاء بين فرنسا وبينه لتنسيق العمليات الحربية ضد الدولة . ووقف الباب العالي على أمر هذه المحادثات ، فأرسل قوات كثيفة العدد بقيادة كوزك حسين باشا وحاصرت ودين حتى أكتوبر ١٧٩٨ ثم رقت الحصار بسبب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر في مطلع نهر يوليو - تموز - عام ١٧٩٨ ونجاحها في دخول القاهرة وانصراف الدولة إلى مواجهة هذا الموقف المسكرو والسياسي الجديد . كما أنها خشيت اتساع حركة المصيان في البلقان فأخذت بصيحة كوزك حسين باشا وعقدت على كره منها صلحاً مع عثمان ومنحته لقب باشا عام ١٧٩٩ .

وكان عثمان باشا يصرح بمعارضته لتطوير الجيش ، وباحتقاره للحكومة المركزية في إستانبول ، وبعدم ولائه للسلطان سليم الثالث ، مما يدل على أنه لم يكن صادق النية في قبول الصلح . وقد أرسل عدة حملات لنهب ولاية الأفلاق في عامي ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . وبمساعده نجح الإنكشارية في احتلال قلعة بلغراد في صيف ١٨٠١ وفي قتل الحاج مصطفى باشا في أواخر العام نفسه .

ولم يقنع عثمان باشا بما حققه من نجاح ، فسعى جاهداً لدى قيصر روسيا كي يعتبره من رعاياه المخلصين . وعرض خدماته على فرنسا . واستبان للباب العالي أن عثمان يتأرجح في ولائه للدولة ، فقرر محاربه عام ١٨٠٣ ولم يكذب يبدأ القتال حتى توقف بسبب ثورة الصرب عام ١٨٠٤ . ثم وجد عثمان باشا في ظهور الروس على الضفة اليسرى لنهر الدانوب عام ١٨٠٦ فرصة لمصالحة ==

الإنكشارية تحت لواء هذا الثائر، واستطاعوا بمساعدته حصار بلغراد، ثم دخلوها وقتلوا واليها وانتشروا في أطراف البلاد يهبون ويسرقون . ولما ضاق الصربيون ذرعاً بالإنكشارية اجتمعوا لمناقشة وسائل الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . واستقروا رأياً على ضرورة ردع الإنكشارية باستخدام القوة ضدهم . وانتخبوا رئيساً لهم منهم هو قره جورج Kara George أى جورج الأسود وهو سليل أسرة كارچفيتش Kargeorgevic وطاردوا الإنكشارية وأبعدوهم عن القرى وضيقوا عليهم الخناق حتى حصروا إقامتهم في المدن . وكان ساكنوها متحفزين للانقضاض عليهم إذا حدثتهم أنفسهم بالسلب والنهب أو أية صورة من صور العدوان . وأدرك الباب العالي خطورة الموقف في الصرب نتيجة تصرفات الإنكشارية، وأدرك أن هذا الموقف ملئ بالمفاجآت . وخشى أن يتقلب قتال الصربيين للإنكشارية إلى حركة قومية لا تستهدف القضاء على هذه الفئة الباغية ، بل طرد العثمانيين كلية من الصرب .

= الدولة العثمانية فرض خدماته عليها، ولكنها عرضت عنه وعهدت بالقيادة العامة إلى قائد روستحق مما أثار حفيظة عثمان باشا وصمم على أن يدافع عن ودين وحدها ضد هجمات الروس والصربيين . ولكن عاجلته المنية في ٢٧ يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٧ .

والحق أن التقييم المحايد لشخصية عثمان باتنا يكشف عن عدة حقائق عنه ، منها : أن الطابع الإسلامي العثماني كان ضعيفاً باهتاً في تصرفاته المتناقضة . وكان رمزاً للخيانة ، تأرجح في ولائه بين أربع دول هي العثمانية والنمساوية والروسية والفرنسية . وكان رائده في هذا التذبذب تحقيق منافع شخصية وأمجاد في مجالات السياسة والحكم والحرب والمسال . وكانت الدولة العثمانية هي أكثر الدول الأربع معاناة من تصرفاته . انقلب عليها ، وساعد الإنكشارية في حركة التمرد التي قاموا بها في الصرب ، وانضم إلى صفوف الجيش النمساوي وحارب القوات العثمانية . وصبرت عليه الدولة وصارته مصابرة متألبة ، وأصدرت عفواً شاملاً عن جميع جرائمه التي وصلت إلى حد الخيافة العظمى ، وصالحته وعينته وآلياً على ودين طوال حياته ، وأخذ يجمع منها في حزم واستبداد المكوس والضرائب . ثم عاود أسلوبه غير الأخلاق واتصل بأعداء الدولة لمساندتهم عليها . ولما وجد إضراباً منهم ، عاد يعرض خدماته عليها ، ولكنها نبذته ، إذ وجدت أنه وصولي متقلب ، فكان بحق رمزاً للسياسة المكيفالية بين باشوات الدولة يتقلب بين عشية وضحاها على أولياء نعمته .

انظر :

فأرسل الباب العالي إلى بكير باشا وإلى البوسنة بأمره بالزحف على بلغراد وطرده الإنكشارية منها . وقد استطاع بكير باشا بقواته ومساعدة الصربيين دخول بلغراد التي كان الإنكشارية معتصمين بها . ونجح في طردهم منها ثم تعقبهم حتى شنت شملهم . وعاد بكير باشا إلى مقر منصبه في البوسنة .

وبعد فترة قصيرة عاود الإنكشارية سيرتهم الأولى . جمعوا فلولهم ومارسوا بحماس مسعور عمليات النهب والسلب ولزهاق الأرواح . فقام الصربيون عام ١٨٠٤ بزعماء قره جورج وقتلوا العثمانيين قتالاً عنيفاً ، لأن الصربيين اعتبروهم مسئولين مسئولية كاملة ومباشرة عن الأعمال الإجرامية التي قام بها الإنكشارية وعن إبتعادهم عن قواعد الانضباط العسكري . وحفلت هذه الحرب بملاحم بطولية ، واثشتت أيضاً بمذابح دموية بين الطرفين . واستطاع الصربيون مقاومة العثمانيين ثمانى سنوات متعاقبة . ونجح قره جورج في تدعيم مركز الصربيين فحصل في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٨١٢ على وعد بالاستقلال الذاتي لبلاده ، غير أنه لم يلبث أن دب الشقاق بين الصربيين واضطر إلى الفرار إلى الأراضي النمساوية ، ثم أشعل منافسه وقاتله ميلوش أوبرينسو فيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى عام ١٨١٥ ونجح في دعم استقلال الصرب استقلالاً واقعياً *de facto* أى يستند إلى الأمر الواقع (١) ، واستطاع بعد الكثير من التسويات المضنية الحصول على دستور لبلاده والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

نخرج من هذا العرض السريع لحركات تمرد الفياثق الإنكشارية في الصرب بحقائق هامة ، منها : أن شرور أفراد هذه الفياثق لم تكن مقصورة على إستانبول وضواحيها وعواصم الولايات العربية فحسب ، بل امتدت شرورهم إلى البلقان ، وهي منطقة حساسة ، إذ كانت موطن الثورات قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية على الحكم العثماني مدفوعة بعامل القومية من ناحية ، وعامل

(١) سبق أن شرحنا مدلول هذا المصطلح القانوني . انظر ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥

في هذه الدراسة .

Grant A.J. and Temperley,; op. cit., p. 203.

(٢)

الدين من ناحية ثانية ، وتشجيع روسيا من ناحية ثالثة . وكان قيام الصربيين بقتال الإنكشارية للحد من شرورهم مقدمة لتطور هذا القتال إلى محاربة الدولة العثمانية لإجبارها على دفع عادية الإنكشارية عنهم ، ثم تطور القتال إلى محاربة الوجود العثماني في الصرب . وكان الصربيون ، وليس اليونانيون ، هم أول شعوب البلقان سعيًا وتحركًا في سبيل حرية البلقان ، فهم الذين أشعلوا الشرارة الأولى عام ١٨٠٤ بزعامة قره جورج ، على الرغم من أن الصرب كانت أكثر خضوعاً لإستانبول من إقليمى مولداقيا ، وولاشيا (١) . وكان ضعف الدولة العثمانية وتردها أو تلكوها في الضرب على أيدي الإنكشارية في الوقت المناسب مما شجع شعوب البلقان على القيام بحركات استهدفت الانفصال عن الدولة واستقلال هذه الشعوب .

سليم الثالث يعين قائد الإنكشارية صدرًا أعظم :

أبدى السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) منذ أن ارتقى العرش اهتماماً عميقاً بإدخال « النظام الجديد » في الجيش وذلك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها وتدريبها على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة . واتخذ الزى الأوروبي للجيش ، وشيد ثكنة خاصة به ، واستقدم من أجل تعليمه وتدريبه خبراء عسكريين من بعض الدول الأوروبية ، ولكن اعترض الإنكشارية على هذه السياسة الإصلاحية في الجيش جملة وتفصيلاً اعتقاداً منهم أن هذه السياسة وإن لم تمسهم مساً مباشراً وفورياً في أول الأمر ، فإنها ستؤدى في النهاية إلى القضاء على الفيالق الإنكشارية .

والحق أن الشغل الشاغل للسلطان سليم الثالث كان - بجانب الحروب التي خاضها ضد روسيا والنمسا وفرنسا والثورات الداخلية التي واجهها - هو إدخال « النظام الجديد » وتعميمه في جميع فرق الجيش . وقد تجبّط في سياسته لزاء المعارضة التي حمل لواءها الإنكشارية ، فكان يتجنب الاحتكاك

(١) يطلق على هذين الإقليمين أيضاً البغدان والأفلاق ، وهما يكونان الجزء الأكبر من رومانيا حالياً .

بهم حيناً ، ويدخل معهم في مواجهة عسكرية حيناً ثانياً ، ويرضخ لطلباتهم حيناً ثالثاً .

كان مركز الخطر هو الفيالق الإنكشارية المرابطة في الولايات العثمانية في أوروبا . وقد اتخذ أفرادها من مدينة أدرنة وكرآ للمؤامرات . ورأى السلطان استخدام سياسة الضغط العسكري عليهم ، واستقدم من الأناضول قوات عسكرية بقيادة عبد الرحمن باشا ، وكان من أشد المتحمسين لتطوير الجيش . وبعد أن أقامت هذه القوات بعض الوقت في إستانبول حيث استعرضها السلطان ، واصلت سيرها إلى أدرنة في منتصف شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ ، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة بعد عدة محاولات وعادت أدرجها إلى إستانبول . وأذعن السلطان لمطالب الإنكشارية وهم في قمة الانتصار . وكان من بينها إعادة الفرق العسكرية الجديدة التي هاجمهم في أدرنة إلى الأناضول ، وإلغاء النظام الجديد أو على الأقل وقف تطبيقه على الفيالق الإنكشارية ، وعزل الصدر الأعظم ، وتعيين أغا الإنكشارية صدرأ أعظم ، وتعيين بعض ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أجهزة الحكومة . وهكذا استشرى نفوذ الإنكشارية وطغيانهم ، فأصبحوا وكأنهم دولة معادية انتصرت على السلطان وأملت عليه شروطها ، فقبلها كرئيس دولة منهزمة .

الإنكشارية يضمون المتصوفة وبعض علماء الدين إليهم :

لم يقنع الإنكشارية برضوخ السلطان لمطالبهم . بل كان هذا الرضوخ مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العدائية نحو السلطان . وأخذوا يتناولون هذا العاهل بالنقد والتجريح . واستقر رأيهم على خوض جولة جديدة لعزله من الحكم . واصطنعوا وسائل جديدة ، منها : تأليب بعض عناصر الشعب عليه ، وضم فريق من علماء الدين ورجال الطرق الصوفية إليهم . وكانت هذه الطرق قد انتشرت انتشاراً واسعاً في آسيا الصغرى أولاً ثم في الروم إيلي بعد ذلك . وكان الإنكشارية يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكتاشية ،

وهم من أكبر الطرق الصوفية في الدولة . ويقول أحد المستشرقين الألمان « إن الإنكشارية قد انضوبوا تحت لواء الطريقة البكتاشية » (١). واستند علماء الدين والمتصوفة في معارضتهم للنظام العسكرى الجديد إلى أن التعليم العسكرى من الأمور التى لم يعرفها الإسلام ، وأن الفتوحات الإسلامية كلها تمت دون أن تحتاج إلى أمثال هذا التعليم (٢) . وخلصوا من هذا القول إلى أن النظام الجديد إنما هو بدعة . وأخذوا يرددون الحديث النبوى الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » . وذهبوا فى معارضتهم إلى الزعم بأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم (٣) . وكان لصدور هذه الآراء وغيرها عن بعض علماء الدين والمتصوفة أصداء بعيدة فى الرأى العام . وهكذا تكونت جبهة عريضة لمعارضة « النظام الجديد » . وكان قوام هذه المعارضة الفيالق الإنكشارية وعلماء الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات جماهيرية أخرى كثيفة العدد من الجهلاء ، وانضم إليهم فريق من النفعيين والوصوليين من رجال الدولة . وانفسح المجال أمام الدسائس والمؤامرات . ووقع اختيار هذا الخليط من المعارضين لتطوير أنظمة الجيش على رئيس لهم يدعى قباقجى أوغلى . وضع خطة محكمة لاغتيال كبار رجال الدولة المؤيدين للنظام الجديد ، ثم إلغاء هذا النظام ، ثم عزل السلطان سليم الثالث أو اغتياله إذا تطلب الأمر إقصاءه عن العرش .

الإنكشارية يعزلون السلطان سليم الثالث :

ولما اطمأن رؤساء الإنكشارية إلى هذا التخطيط واستكمال خيوطه وعناصره ، قررو القيام بحركة تمرد تعبيراً عن استنكارهم للنظام العسكرى الجديد . وحشدوا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ جموعاً غفيرة العدد من الجنود الإنكشارية فى آت ميدانى ، أى ميدان الخليل .

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٢٢ .

(٢) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٣) دكتور السبد رجب حراز : الدولة العثمانية ألغ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

وطبقاً لتقاليدهم جاءوا بالقزانات ، وهي قدور الطعام ، فارغة ، ووضعوها مقلوبة في صفوف متراصة ومنتظمة ، علامة على عصيانهم . وتليت عليهم أسماء جميع المؤيدين للنظام العسكري الجديد من الوزراء وكبار موظفي الدولة ، ثم انطلقوا إلى مساكنهم وقتلوهم ، وأتوا برؤوسهم ووضعوا كل رأس أمام قزان من القزانات ، ثم فرضوا حصاراً محكماً حول قصر السلطان . وأرغموه على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجنود الذين التحقوا بالجيش وفقاً لهذا النظام . ولكن لم يقنع الإنكشارية بتراجع السلطان سليم الثالث عن مشروع إصلاح الجيش ، وخشوا أن يعود في يوم ما إلى تنفيذ هذا المشروع ، فقرروا عزله بعد أن استصدروا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيها « إن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » (١) . وعهد الإنكشارية إلى شيخ الإسلام ، وكان ضالماً معهم ، بتبايخ هذه الفتوى إلى السلطان . فذهب إليه وأبلغه بها « مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية » (٢) . وأذعن السلطان وغادر القصر السلطاني . ولم تستمر حركة عصيان الإنكشارية سوى يومين . ونودي في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ بعزل السلطان سليم الثالث وتنصيب السلطان مصطفى الرابع - وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول - خلفاً له . وتفرق الجنود النظاميون شلر مندر ، وألغى مشروع تطوير الجيش العماني لاعتراض الإنكشارية عليه . وقتل بعض الوزراء المهذبين لهذا المشروع ، بينما اختفى البعض الباقي منهم عن الأنظار . ولم يكن خضوع السلطان سليم الثالث لقرار الإنكشارية بعزله عاصماً له من القتل في العام التالي ، أي في سنة ١٨٠٨ ، حين أمر خلفه السلطان مصطفى

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

وانظر أيضاً :

سامي الكيالي : الأدب والقومية في سورية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية .

القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

الرابع بقتله عندما طالب أنصار النظام الجديد بإعادته إلى العرش حتى يستمر في تنفيذ مشروع إنشاء الجيش الجديد .

الصراع بين أنصار النظام الجديد وخصومه :

كان السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨) يدرك أنه مدين بارتقائه العرش للإنكشارية ولشيخ الإسلام . فالأولون قاموا بحركة عصيان ونادوا بتنصيبه سلطاناً بعد أن خلعوا سلفه السلطان سليم الثالث ، بينما كان شيخ الإسلام ضالماً معهم في هذه الحركة . وقد وعى السلطان الجديد هذا الدرس تماماً . فغدا أداة طيعة لينة في أيدي الإنكشارية وشيخ الإسلام . وأمسى النفوذ في إستانبول مركزاً في هاتين القوتين . استجاب السلطان لرغبة الإنكشارية ، فعين قباچچی أوغلي قائداً لجميع قلاع البوسفور . وأعاد الإنكشارية القزانات - قدور الطعام - إلى ثكناتهم كتعبير عملي عن رضائهم على السلطان مصطفى الرابع ، وأخلدوا إلى السكينة .

ولكن حين ترامت إلى الجيش العثماني الذي كان يخوض حرباً أوروبية ضد روسيا في ولاية البغدان - أنباء الفتنة التي قام بها الإنكشارية المرابطون في إستانبول اغتبطت فيالق الإنكشارية المشتركة في هذه الحرب ، لأنه كان من نتائج هذه الفتنة وقف تنفيذ مشروع « النظام الجديد » . ولكن القائد العام للجيش ، وهو حلمي إبراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، اعترض على حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في إستانبول وعزلوا فيها السلطان سليم الثالث . فثار الإنكشارية على الصدر الأعظم وقتلوه ، وأقاموا مكانه مصطفى شلبي باشا وأصبح لقبه القائمقام مصطفى باشا إلى أن يصدر السلطان فرماناً بتثبيتته في منصبه الجديد . ووقع الاضطراب في صفوف الجيش وفي وقت عصيب كانت تمر به الدولة وقتذاك . . ولكن كان من حسن حظ

(١) أنظر دور الإنكشارية في الاضطرابات العسكرية والسياسية التي واجهتها الدولة في تلك الفترة في كل من :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١١ - ٢١٧ .

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 74-76.

الدولة أن انتصر في ذلك الوقت نابليون الأول على روسيا وبروسيا في موقعة فريدلاندر Friedland في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٧ وتقهقرت الجيوش الروسية من ولاية البغدان . من غير قتال ونجا الجيش العثماني من التمزق أو التحطيم . ويلاحظ أنه تعاقب على منصب الصدارة العظمى في إستانبول عدد من الصدور العظام في الفترة من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ حتى شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ ، وكان عدم الاستقرار السياسي في أجهزة الحكم من أبرز خصائص هذه الفترة . وانقسمت البلاد بين أنصار النظام الجديد وخصومه . وكان للإنكشارية دور بارز في تصعيد الفوضى السياسية والعسكرية التي حاقت بالبلاد .

مصطفى باشا البيرقدار وخلان روستجق :

كان مشروع إصلاح الجيش قد اكتسب أنصاراً أقوياء في بعض الولايات العثمانية . واستنكروا الأحداث التي تتابعت في إستانبول من عصيان الإنكشارية وإلغاء النظام الجديد وعزل السلطان سليم الثالث . وكان فريق من هؤلاء الأنصار يقيمون في روستجق (١) Ruschuk وعرفوا فيما بعد باسم « خلان روستجق » وكان على رأسهم مصطفى باشا البيرقدار (٢) حاكم

(١) يرد اسم المدينة في بعض المراجع على هذا النحو : روسجوق ، روسجق ، روسجك (٢) يرد اسمه في بعض المراجع : العلمدار. والكلماتان بمعنى واحد هو حامل العلم . وكلمة بيرقدار تتكون من بيرق بمعنى علم وكلمة دار ومنها البيرق النبوي أي العلم النبوي . وترجم بعض المراجع الإنجليزية كلمة البيرقدار Standard - bearer بينما تذكر بعض المراجع الإنجليزية اللفظة التركية بحروف لاتينية على هذا النحو :

بيرقدار Bayrakdar

علمدار Alemdar

والأصل في شاعل هذه الوظيفة أنه كان أكبر ضباط الخدمة الخارجية في قصر السلطان . وكان مستولاً عن العلم السلطاني والشعار الخاص بالسلطان وهو تسعة أطواخ . ولم يكن يطلق على هذا انضباط « بيرقدار » بل « ميرعلم » . ومعناها أمير العلم وكان البيرقدار يقدم الى حكام الولايات عند تعيينهم شعارات تتناسب مع درجة وظيفة كل منهم . وكان مستولاً أيضاً عن فرقة القصر الموسيقية العسكرية ، ثم أضيف إليه اختصاص آخر هو الإشراف على مجموعة من المبحوثين المخصوصين الذين سموا لأسباب تاريخية قباييجي باشيه =

المنطقة . وكان هو الآخر يفيض حماساً لإدخال النظم الأوروبية الحديثة في الجيش ، بعد أن كان في مطلع حياته من أشد المعارضين عنفاً لتطوير الجيش . وكان تحت إمرته قوة تتكون من ستة عشر ألف جندي ، وقرر الزحف على إستانبول لردع الإنكشارية وإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش لتمكينه من مواصلة تنفيذ مشروع إصلاح الجيش . وكان هذا السلطان لا يزال على قيد الحياة .

أسرَّ مصطفى باشا البيردار إلى مصطفى باشا شلبي الصدر الأعظم وبعض الوزراء برأيه وهو إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش ، وأقنعهم بضرورة مسائلة كل من شيخ الإسلام وقباچجي أوغلي باعتبارهما مسئولين عن حركة التمرد التي حمل لواءها الإنكشارية وعزلوا فيها السلطان سليماً الثالث واستأثروا بالنفوذ . واستصدر الصدر الأعظم أمراً من السلطان بإعدام قباچجي أوغلي تأسيساً على أنه كان السبب المباشر في قتل الكثيرين من كبار موظفي الدولة بصفته رئيساً لحركة التمرد التي تمت في أواخر شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ . وقد عهد الصدر الأعظم إلى أحد رجاله - حاجي علي - بتنفيذ هذا الأمر على أي صورة من صور القتل . فسار الأخير على رأس مائة فارس إلى إستانبول لقتله ، بينما كان مصطفى باشا البيردار متجهاً إلى العاصمة في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدرنة . ولما وصل حاجي علي إلى مشارف إستانبول علم أن قباچجي أوغلي مقيم في قصر خارج العاصمة فاقتحم القصر وقتله . وفي ذات الوقت وصل مصطفى باشا البيردار مع قواته وعسكر خارج إستانبول ، وانضم فرسان حاجي علي إلى قوات البيردار .

عزل ثم قتل السلطان مصطفى الرابع :

حين علم السلطان مصطفى الرابع بهسذه التطورات ازدادت هواجسه

= (جمع قاييچي باسي) أي كبار الحراس . وكان حكام الولايات العثمانية بمهدون إلى ضباط من ذوى الرتب العالية بالعناية بأعلامهم الخاصة وبشعاراتهم . وكان يطلق على كل من هؤلاء الضباط بيرقدار أو لقب آخر له نفس المعنى هو الصنچق دار . وكان لكل أوطه من الإنكشارية حامل علمها ويسمى بيرقدار . وكان هذا اللقب يطلق أيضاً على بعض زعماء ألبانبا الوراينين .

وخشى على نفسه أن يصيبه سوء ، فانقلب على الإنكشارية وأنصارهم ، أو لعله تظاهر بهذا الموقف المعادى لهم ، فأمر بعزل شيخ الإسلام الذى كان ضالماً مع خصوم « النظام الجديد » والذى حارب بقلبه ولسانه وقلمه إدخال الأنظمة الحديثة فى الجيش ، وأمر السلطان أيضاً بتسريح الفيالق الإنكشارية التى كانت تحت قيادة قباچقى أوغلى ، وهى الفيالق التى كانت لها اليد الطولى فى عزل السلطان سليم الثالث وإيقاف العمل فى تطوير الجيش . وتظاهر البيرقدار بأنه راض تماماً عن الوضع الجديد ، وأشاع أنه عارم على العودة إلى مقر منصبه فى روستجق . وفى صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٨ اتجه بقواته إلى القصر السلطانى ، وطالب بإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش . وازداد السلطان مصطفى الرابع اضطراباً ، وتأرجح فى موقفه حيال أنصار « النظام الجديد » وخصوم هذا النظام . وتغلبت عليه نزعة البقاء على العرش ، فأمر بقتل السلطان سليم وإلقاء جثته إلى الثأرين . وكان فى تقديره للموقف الصعب الذى يحيط به من يمين ويسار أن الثأرين يعودون أدراجهم بعد أن يروا بأعينهم ويتأكدوا أن السلطان الذى يطالبون بإعادته إلى الحكم قد غدا جثة هامدة . ولكن أدى هذا القتل إلى نتيجة عكسية تماماً ، فازداد الثأرون هياجاً ، ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وتعيين أخيه محمود سلطاناً للدولة باسم محمود الثانى . وأمروا باعتقال السلطان المعزول فى نفس القصر الذى كان محجوزاً فيه السلطان سليم الثالث . وقد قتل فى ذات السنة التى عزل فيها (١٨٠٨) وهى ذات السنة أيضاً التى شهدت قتل سلفه .



الفصل التاسع عشر

مراكز القوى في الدولة (٣)

الخطوة الحاسمة

الفاء الفيالق الانكشارية

السلطان محمود الثاني يحاول تطويع الإنكشارية بالحسنى :

كان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ذا عزيمة قدت من حديد . صمم على تعميم تطوير القوات المسلحة بجميع أسلحتها وفرقها بما فيها الفيالق الإنكشارية ، ولكنه آثر أول الأمر أن يسلك مسلكاً سلمياً تجاه الإنكشارية . وحاول بالحسنى إقناعهم بقبول إدخال النظم الحديثة في الفيالق الإنكشارية حتى تكون متمشية في تنظيمها وتسلحها وتدريبها مع سائر الفرق العسكرية في الجيش . وعرض في ذات الوقت معاشاً على كل من يرفض منهم مشروع الإصلاح الجديد في الفيالق الإنكشارية . ولكنهم رفضوا هذا العرض بشقيه ووضعوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً .

وعلى الرغم من موقف الرفض الذي اتخذته الإنكشارية ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود كان موقناً أنهم لن يرضخوا لطلبه ، إلا أنه أراد أن يمد لهم في جبال الصبر ويمنحهم فرصة أخرى لحسم موقفهم قبل أن يخوض مواجهة عسكرية سافرة ضدهم . فعهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار بتنفيذ خطته . وكان قد عينه في منصب الصدارة العظمى منذ أن ارتقى العرش ، لأنه كان من أنصار تطوير الجيش من ناحية ، ولأنه كان قائد حركة الانقلاب العسكري التي نادى به سلطاناً من ناحية أخرى . دعا البيرقدار إلى اجتماع يعقد في القصر السلطاني في إستانبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، ووجه البيرقدار الدعوة إلى عدد من

أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، وبكلر بك الروم إيلي ، وبكلر بك أناضولى ، وحكام الولايات القريبة من العاصمة ، وقادة أسلحة الجيش ، ومن إليهم من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين ، وكذلك الأعيان (١) ، ورؤساء العائلات الإقطاعية القوية فى الأناضول والذين يطلق عليهم «دره بكوات» (٢) Derebeys أى أمراء الوديان (٣) Valley Lords .

وشرح لهم الصدر الأعظم التدهور الذى أصاب الإنكشارية بعد أن كانوا أداة بطش يرهبون أعداء الدولة وينزلون بهم أفدح الخسائر ، وما يجب أن يكونوا عليه من الالتزام الصارم بالانضباط العسكرى ، وضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، التى كان استخدامها فى الجيش الروسى فى مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة . ثم اختتم الصدر الأعظم حديثه إلى المجتمعين بعرض اقتراحات هامة ، كان من بينها : إلزام الإنكشارية فى أوقات السلم بملازمة ثكناتهم ، وخصوصاً غير المتزوجين منهم ، وإيقاف صرف مرتبات وبدلات الساكنين خارجها ، وضرورة مواظبتهم على حضور التدريبات العسكرية ، وتسليحهم بالأسلحة النارية الحديثة . وأكد الصدر الأعظم اعتقاده الراسخ أنه لو استجاب الإنكشارية لهذه المقترحات وغيرها فلنهم يستعيدون مجدهم الحربى القديم ويصبح الجيش العثمانى من أقوى جيوش العالم كما كان فى أول الأمر ، وقبل أن تتسرب القوضى إلى صفوفهم وقبل أن يتجاوزوا اختصاصاتهم بتدخلهم فى الشؤون السياسية الخارجية والداخلية للدولة مثل عزل السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم مما عرض الأجهزة الحكومية هزات عنيفة أمام أعداء الدولة . . وقد أقر

(١) الأعيان طبقة بدأ ظهورها فى القرن السابع عشر تتكون من الشخصيات البارزة فى كل ولاية . وكان الأهال هم الذين ينتخبون أولئك الأعيان لتمثيلهم لدى السلطات المحلية . وكان السلطان يصدر فرماناً بتعيينهم . وكانوا يخاطبون بهذا المصطلح : « أعيان ولاية و آيش أرلرى » أى أعيان الولاية ورجال الشؤون . وكانوا يستمدون نفوذهم من كونهم ملاك الأرض . وفى القرن الثامن عشر تطورت اختصاصاتهم فأصبحوا يشرفون على الإدارات المدنية والمالية فى المدن .

(٢) انظر نشأة واختصاصات هذه العائلات فى

الحاضرون مقترحات الصدر الأعظم الذى لم يكتف بهذه الموافقة الإجماعية ، بل استصدر فتوى من شيخ الإسلام الجديد بضرورة تنفيذ نظام الإنكشارية بكل حزم وصرامة . فأصدر الصدر الأعظم أوامره بتنفيذ مقترحاته متحصناً بموافقة المجلس الذى دعا إليه وبالفتوى التى حصل عليها من شيخ الإسلام (١).

تحدى الإنكشارية للسلطان والصدر الأعظم :

لم يأبه الإنكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم ، وصحت عزيمتهم على مقاومته . وطبقاً لتقاليدهم وضعوا القزانات ، قدور الطعام ، مقلوبة دلالة على قيامهم بحركة عصيان . ولم يكن لدى الصدر الأعظم قوات تحت تصرفه سوى ستة عشر ألف مقاتل جاء بها من روستجق ، وهى المنطقة التى كان يحكمها قبل تعيينه صيدراً أعظم ، وثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود النظاميين السابقين ، وبعض سفن حربية تحت إمرة رامز باشا أمير البحر .

هزيمة الصدر الأعظم أمام الإنكشارية ومصرعه :

حشد الإنكشارية جموعهم فى مدينة فيلية (٢) وأعلنوا العصيان . فوجه الصدر الأعظم اثنى عشر ألف جندى لمحاربتهم . ولم يبق لديه سوى أربعة آلاف مقاتل والثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا . وأدرك الإنكشارية ضآلة حجم القوات التى لدى الصدر الأعظم . وانهزوا هذه الفرصة الذهبية كى يكيدوا كيداً للسلطان الجديد محمود الثانى وللصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار. واتجهوا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ إلى قصر السلطان المعزول مصطفى الرابع لإعادته إلى العرش . وتصدى لهم الصدر الأعظم وقاومهم مقاومة عنيفة . ولكن استبان له أن القتال يدور فى صالح الإنكشارية. وخشى العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتصارهم ، ومن أهمها أن الإنكشارية يعلنون عزل السلطان محمود

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) مدينة تقع فى مقدونيا .

الثاني وإعادة السلطان مصطفى الرابع إلى العرش . فأمر الصدر الأعظم بقتل السلطان المعزول . وكان رائده من هذا القتل هو إفساد خطة الإنكشارية ، فإن السلطان مصطفى الرابع كان الورقة الراجعة في أيديهم . وقد أمر الصدر الأعظم بإلقاء جثة السلطان مصطفى للإنكشارية ، وما أن وقعت أعينهم على جثة السلطان حتى ازدادوا هياجاً، وأضرموا النار في القصر كي يضطر الصدر الأعظم إلى الفرار ويقع أسيراً في أيديهم ويمثلون بجثته بعد قتله . ولكن الصدر الأعظم آثر الموت على التسليم للإنكشارية، فأقدم على عملية انتحارية وظل يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً . ويقال إنه تحصن في أحد الأبراج ثم أشعل النار في البارود المكس في هذا البرج ومات هو ومن معه تحت الأنقاض في شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ .

وفي أثناء دفاع الصدر الأعظم كان رامز باشا أمير البحر قد رسا بسفنه الثلاث في مضيق البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية ، ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة ورجال المدفعية وسار بهم لتدعيم قوات الصدر الأعظم . ولم يكن يدرى أنه قضى نحبه ، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن باشا ومعه ثلاثة آلاف جندي يسرعون في زحفهم لمساعدة الصدر الأعظم ، وفوجئوا بنبا وفاته . ولم يتطرق اليأس إلى رامز باشا وعبد الرحمن باشا وقررا مواصلة قتال الإنكشارية ، ولكنهما عجزا عن إحراز أى نصر عليهم . واستمر إطلاق المدافع والبنادق في الآستانة طوال اليوم . ولما سجا الليل رأى رامز باشا أمير البحر أن يعفو عن جميع الإنكشارية بشرط أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم لرحمة السلطان محمود الثاني . أما عبد الرحمن باشا فلم يشاطره هذا الرأي ، ورأى مواصلة القتال واتخاذ حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية وسيلة لإعدامهم وإلغاء طائفهم بتشكيلاتها الحربية . وكان السلطان محمود من أنصار هذا الرأي . وتمشياً مع هذا الاتجاه تحركت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالي تتقدمها المدافع تطلق قذائفها على الإنكشارية من كل حذب وصوب . ولما رأى الإنكشارية أن الموت يحيط بهم من يمين وشمال أضرموا النار في جميع أرجاء المدينة حتى

كادت النيران تلتهم جميع مبانيها . وفي هذا الموقف العصيب تدرع السلطان بسياسة الحلم والأناة على ما فيها من غضاضة ، لأن حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في هذه المرة كانت أوسع مدى وأشد خطراً من سابقتها . واضطر إلى الإذعان كي يتفقد المدينة من دمار محقق ، وأن يرجىء حسابه مع الإنكشارية إلى فرصة أخرى في قابل الأيام . ومن ثم انصرف إلى لإخماد الحرائق التي كادت تلتهم المباني لو لم يتداركها السلطان . واستمر الإنكشارية في صحبهم وضجيجهم مصرين الإصرار كله على معارضة إدخال النظم الحربية الحديثة في الفيلق الإنكشارية . ولم يلبث أن تفرغ السلطان لمواجهة الحرب التقليدية التي اشتعلت بين الدولة والروسيا وانتهت بعقد معاهدة بخارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ .

الدرس الذي خرج به السلطان من الثورة اليونانية :

استطاع السلطان فيما بين عامي ١٨١٤ - ١٨١٦ أن يتخلص سراً من جماعات صغيرة العدد من الإنكشارية (١) . وأجل القيام بحركة تصفية شاملة لجموع الإنكشارية حتى تحين له فرصة مواتية فيوجه لإيهم ضربة قاضية ويتخلص منهم جميعاً . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى اندلعت الثورة اليونانية في شبه جزيرة المورة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٢١ وظفر الثوار بانتصارات سريعة وباهرة على القوات العثمانية التي بعث بها السلطان بقيادة خورشيد باشا (٢) . وكانت هذه

Hasluck F.W.: op. cit., Vol. 2, p. 619.

(١)

(٢) هو أحمد خورشيد باشا وكان حاكماً للإسكندرية ثم رقي والياً على مصر . ودخل القاهرة في ٢٦ من مارس - آذار - عام ١٨٠٤ . وفي أثناء ولايته قام أهل القاهرة بانتفاضة شعبية احتجاجاً على مظلته . وتزعم الانتفاضة الشيخ عبد الله حجازي الشهير باسم الشراوى شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم الأسيوطي نقيب الأشراف ، وانتهت هذه الانتفاضة بالمناذاة في ١٣ من مايو - آيار - عام ١٨٠٥ بخلع خورشيد وتمعين محمد على مكانه . واستجابت الدولة على كره منها لهذه الرغبة الشعبية . فصدر فرمان بتثبيت محمد على في ولاية مصر - ونقل - خورشيد إلى سالونيك . وظل خورشيد يتقلب في عديد من المناصب القيادية إلى أن عهدت إليه الدولة بإخماد ثورة قام بها علي باشا في ألبانيا وتمصن في أبيروس واتخذ يانينا Janina مقراً له . ودارت اتصالات =

القوات تضم عدداً من الفيالق الإنكشارية . وانتقل الثوار اليونانيون من نصر إلى نصر . ومدوا عملياتهم الحربية إلى مقدونيا وتساليا ، واستولوا على المدن والمراكز الحصينة ، وكان من بينها : تريبوليتزا (١) مقر السلطة العثمانية في هذه المنطقة ، وأوقعوا بالقوات العثمانية والسكان المسلمين مذابح رهيبية (٢) . ولم يمض عام ١٨٢٢ حتى كان النفوذ العثماني قد تقلص من المورة مما جعل الإنكشارية موضع التهمك والسخرية من الجماهير العثمانية

= بين هذا الثائر وقادة الثورة اليونانية لتنسيق التعاون العسكري بين الثورتين. واستطاع خورشيد باشا إخماد الثورة بعد أن ضرب حصاراً محكماً على مقر الثائر في يانينا . وكان الأخير قد يئس من وصول مجندات عسكرية إليه من قادة الثورة اليونانية . واستسلم في الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٢٢ لخورشيد باشا الذي أمر بأن يساق إلى الحمام حيث كان بعض الجنود في انتظاره ، فقاموا بجز رأسه ، وأرسلت إلى إستانبول . وعندئذ عهد السلطان محمود الثاني إليه بالتحرك مع قواته إلى المورة للقضاء على الثورة اليونانية ، فأحرز انتصاراً في المرحلة الأولى ثم ظهر عليه الثوار اليونانيون الذين أنزلوا به حسانر جسيمة . وازداد الثوار جرأة بما حققوه من انتصارات في بحر الأرخبيل حيث أحرقوا كثيراً من السفن العثمانية ، وغاثوا في البحر فساداً . وتعرضوا لسفينة أقلتت من إستانبول وهي في طريقها إلى الإسكندرية . وكان من بين ركابها قاضي قضاة مصر العثماني وزوجاته وبناته وحواريه وعدد من الحجاج فقتلهم الثوار ذبحاً عن آخرهم ثم أغرقوا السفينة .

انظر كلا من :

- (١) الجبرقي . عجائب الآثار الخ ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣١٩-٣٢٠
(حوادث ذي القعدة عام ١٢٣٦ / أغسطس - آب - عام - ١٨٢١)
(ب) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٧-٢٢٨ .
(ج) عبد الرحمن الراجعي : عصر محمد علي . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، الناشر : مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ١٦٣-١٦٤
(د) دكتور محمد فؤاد شكري : أوروبا في القرن التاسع عشر . الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩-١٨٤٨ ثلاثة مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الناشر دار الفكر العربي . المجلد الثاني ، ص ص ٤٥٨-٤٦٢

(١) تقع هذه المدينة في قلب شبه جزيرة المورة . وكانت عاصمة المورة .
(٢) يقول ميلر إن عدد المسلمين الذين ذبحهم الثوار اليونانيون بلغ عدة الآف . وثأر السلطان محمود الثاني للمسلمين فأمر بإجراء مذابح عامة بين اليونانيين. وبدأ بترجمان الباب العالي والشخصيات التي كانت تقطن حى الفنار في إستانبول ، وكان موطن الأرسقراطية اليونانية ثم أمر بذيح جورجي الخامس بطريك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وهو من المورة موطن الثورة . وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام على باب الكنيسة ، ثم أنزلها اليهود وسحبوها في الشوارع وألقوا بها =

التي كانت تتعلق آمالاً كبيراً على الإنكشارية بسبب ما اشتهروا به من شجاعة وكفاية قتالية . وفي هذا الوقت العصيب استعان السلطان محمد علي باشا والى مصر لإخضاع اليونانيين (١) ، فأرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة كبيرة من الجيش المصرى الحديث تحرسها وحدات من الأسطول المصرى . وأقلمت الحملة من الإسكندرية فى شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢٤ واستطاعت القوات المصرية أن تنزل فى مودن Moden فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى للمورة ، وأن تخضعها فى فبراير - شباط - عام ١٨٢٥ وتوجه إلى الثوار ضربات عنيفة ، وتتقدم عبر المورة وتستولى على معظم المواقع اليونانية الحصينة مثل مسولنجي Mesolonghi فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، وتريبوليتزا ، وأثينا فى اليوم الخامس من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٧ ، وبسقوط أثينا أصبحت المورة بأكملها تقريباً فى أيدي القوات المصرية . وبلغت الانتصارات الرائعة التى أحرزها الجيش المصرى حداً جعل الروسبا تعلن أنه لا بد من التدخل لإنقاذ اليونانيين من القضاء (٢) . وأخذت الجماهير

على البحر واستطاع بعض اليونانيين استحراج الخنة من البحرودفوها فى أوديسا ، ثم نقلت بعد خمسين عاماً إلى كاترانية أثينا . وامتدت المذابح إلى اليونانيين فى سالوبكا ، وأزهر ورودس ، وقبرص ، وخبوس Chios . انظر .

Miller W. ; op. cit., pp. 74—75, 79—80.

(١) كان السلطان محمود الثانى قد عهد إلى محمد على عام ١٨٢١ - أى قبل حملة المورة - بأن يرسل أسطوله لضرب سفن النوار . وقد أبحر الأسطول من الإسكندرية فى اليوم العاشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢١ ، واتجه إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية . والتقى بالأسطول العثماني فى مياه الدردنيل . ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس - آذار - ١٨٢٢ لتأهب لنقل الحملة المصرية إلى جزيرة كريت . وكان السلطان قد عهد إلى محمد على بإخضاع الثورة فيها . فأعد محمد على حملة من خمسة آلاف جندي نزلوا فى جزيرة كريت فى يونيو - حزيران - ١٨٢٢ وظفروا بالنوار وشتوا شملهم ، وفر كثير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى . أما المورة فى المورة فقد شعر السلطان أنه عاجز عن القضاء عليها ، فعهد إلى محمد على بإخضاعها وتخويله حكم ولاية المورة مكافأة له .

Grant A.J. and Temperley, H; op. cit., p. 204.

(٢)

العثمانية تقارن بين إخفاق الإنكشارية في إخضاع الثورة اليونانية ونجاح الجيش المصرى الحديث في القضاء عليها . وانتهز السلطان محمود الثانى هذه الفرصة لوجه إلى الإنكشارية ضربة قاضية إذا أصروا على الرفض .

والواقع أن السلطان محمود الثانى ازداد اقتناعاً بالكفاية القتالية في الجيوش الأوروبية التي أخذت بالأنظمة العسكرية الحديثة تسليحاً وتدريباً وقتالاً . وأرجع إلى هذا السبب الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الأوروبية على الجيش العثماني . وكان أمامه مثل حى في دولته في منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى في ذلك الوقت (١) ، تمثل في الجيش المصرى الذى شرع في إنشائه منذ سنة ١٨٢٠ محمد على باشا والى مصر من الفلاحين المصريين وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة ، واستقدم الخبراء العسكريين من بعض دول أوروبا لتدريب أفرادهم على أحدث النظم الحربية . وكان السلطان يعتمد اعتقاداً راسخاً أن ابراهيم باشا ابن محمد على مدين بانتصاراته التي حققها في بلاد المورة لإبان الثورة اليونانية منذ عام ١٨٢٥ للجيش المصرى الذى أخذ بالنظم والنظريات الحربية الحديثة في التسليح والتدريب والقتال . وكانت هذه الحرب اليونانية أول حرب أوروبية خاض هذا الجيش المصرى الصميم غمارها

(١) كان رجال الساسة في أوروبا وأمريكا يعملون إلى تقسيم الشرق إلى ثلاث مناطق : الشرق الأدنى The Near East وكانوا يعبرون عن هذه المنطقة أحياناً بعبارة The Nearer East . وتشمل مصر وبلاد الشام وتركيا واليونان . والشرق الأوسط The Middle East ويشمل شبه القارة الهندية وأفغانستان وفارس والعراق وشبه الجزيرة العربية . والشرق الأقصى The Far East ويشمل جوب شرق آسيا بأقسامه السياسية والصين واليابان . وظلت هذه التسميات فائمة إلى الحرب العالمية الثانية ، (١٩٣٩-١٩٤٥) ثم أدمج الساسة الأمر ليكون القسمين الأولين بعضهما في بعض ، وأطلقوا عليهما الشرق الأوسط الذى أصبح يشمل في مدلول السياسة الدولية : مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، وتركيا ، والعراق والسعودية ، وإيمن بقسميها ، والدول العربية في الخليج ، وإيران ، والهند ، وباكستان ، وبنجلاديش ، وسرى لانكا ، وأفغانستان .

ويلاحظ أيضاً أن المؤرخين والباحثين الغربيين أطلقوا مصطلح اللثانات Levant على الدول المطلة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط والمناطق الساحلية فيها بصفة خاصة ، وهى سواحل مصر ، وبلاد الشام ، وتركيا ، واليونان .

وقد برهن فيها على مقدرة قتالية ممتازة ، وأنه يضارع أرق الجيوش الأوروبية في ميادين القتال .

أربعة عوامل خارجية شددت السلطان إلى تطوير الفيالق الإنكشارية أو إلغائها :

ومما جعل السلطان محمود الثاني يزداد تشبهاً برأيه وهو ضرورة تطوير فرق الجيش ، ومن بينها الفيالق الإنكشارية ، أنه كان يشعر بأنه محوط بالوهابيين أو السلفيين (١) في شبه الجزيرة العربية ، وبالوثار اليونانيين في المورة ومياه بحر الأرخيبيل ، وكانت لا تغيب عن ذهنه العداوة التقليدية والمزمنة بين الدولة العثمانية والروسيا . وقد شهد مطلع حكمه استئناف الحرب ضد روسيا التي أوقعت هزائم بالجيش العثماني بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم (٢) ، واستولى الروس على عدد من الأقاليم العثمانية في أوروبا . وانتهت الحرب بمعاهدة بخارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ ، وبمقتضاها اختصت روسيا لنفسها بإقليم بساراييا . يضاف إلى هذه العوامل الخارجية أن السلطان كان يتوجس خيفة من محمد علي

(١) كان الوهابيون يطلقون على أنفسهم أول الأمر « الموحدين » أو « المسلمين » ثم أطلقوا على أنفسهم « السلفيين » .

انظر في هذه الدراسة ص ٧٩ ، الحاشية رقم ١

(٢) كان يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم هو الذي جاء إلى مصر عن طريق بلاد الشام على رأس جيش عثماني ليتسلم مقاليد الحكم في أثناء مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين . واستولى ضياء باشا على العريش في اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٧٩٩ ولما عقدت معاهدة العريش في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٠ تقدم ضياء باشا بجنوده تنفيذاً للمعاهدة فدخل بدون قتال قطية ، والصالحية ، وبلبيس ، والسويس والمنصورة ، وعزبة البرج ، ودمياط ، واستقر في بلبيس . فلما نقضت معاهدة العريش اشتملت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين . ودارت معركة عين شمس في اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٠ ولقى على يد الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية وقتذاك هزيمة متكررة انسحب الصدر الأعظم بعدها إلى بلبيس ثم تقهقر إلى الصالحية ، ثم ارتد إلى حدود فلسطين . ثم عاد إلى مصر في شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٠١ على رأس جيش يتكون من عشرين ألف مقاتل للإسهام مع القوات البريطانية في إخراجه الفرنسيين من مصر .

باشا والى مصر ، إذ كان يعتقد أن هذا الباشا لن يقنع بمركزه كوال من الولاة العاديين فى الدولة ، بل ببغى الاستقلال بحكم مصر . ويلاحظ أن محمد على كان قد تسرع فأعرب فى وقت مبكر جداً يرجع إلى شهر سبتمبر أيلول - عام ١٨٠٧ - أى بعد تعيينه والياً على مصر بعامين وبعض عام - عن رغبته فى أن يحكم مصر وراثياً فى أسرته متمتعاً بالاستقلال الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية ، على غرار الأسرة الحسينية التى حكمت تونس وراثياً منذ عام ١٧٠١ ، وعلى غرار أسرة القرمانيلى التى حكمت طرابلس الغرب وراثياً منذ عام ١٧١١ (١) . ومن المحتمل جداً - إن لم يكن من المؤكد - أن

(١) كشف محمد على عن مشروعه فى أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبين المندوبين الإنجليز بجلاء الحملة البريطانية التى جاءت بقيادة الجنرال فريزر Mackenzie Fraset إلى مصر واحتلت نهر الإسكندرية فى النصف الثانى من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٧ . وعلى أثر الهزيمة التى لقيتها الحملة فى رشيد وفى الحامد ، ولأسباب أخرى ، رأت الحكومة البريطانية الجلاء عن الإسكندرية . ودارت المفاوضات لتنظيم عمليات الجلاء وتوقيتها وتبادل الأسرى وما إلى ذلك من مسائل . وكانت المفاوضات ذات طابعين : طابع عسكرى خاص بالجلاء ، وطابع سياسى يتعلق بمشروع محمد على فى تحقيق الاستقلال الذاتى ، أى حكم مصر وراثياً فى أسرته ، ويستقل عن الدولة العثمانية فى شئون الحكم الداخلى ، ولا تربطه بالدولة سوى السيادة الاسمية التى يرمز إليها بجزية سنوية يدفعها محمد على للسلطان فى مواعيد منتظمة وبصفة رتيبة على أن تحدد قيمة هذه الجزية ، وبعض مسائل أخرى يتفق عليها فيما بعد . وطلب محمد على أن تبتذل الحكومة البريطانية مساعها الحمدة لدى دوائر الباب العالى لتحقيق هذا المشروع فى مقابل عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا ومصر تنص على تعهد محمد على برعاية المصالح التجارية البريطانية فى مصر ، وتسهيل المواصلات البريطانية عبر الأراضى المصرية إلى الهند ، وتزويد القوات البريطانية فى مالطة وسائر القواعد العسكرىة التى كانت تحت سيطرة بريطانيا فى ذلك الوقت بالمواد التموينية وماء الشرب ، وأن تبادر الحكومة البريطانية إلى وقف أى محاولة قد يقوم بها الباب العالى لنقل محمد على من مصر إلى ولاية أخرى ، كما حدث عند ما أصدر السلطان فرماناً بنقله والياً على سالونيك وتعيين موسى باشا والياً على مصر ، وقرن السلطان هذا فرمان بإرسال أسطول بقيادة صالح باشا قيودان وصل إلى الإسكندرية فى أول يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ . وطلب محمد على أيضاً أن تستخدم بريطانيا قواتها البحرية فى الدفاع عن الإسكندرية إذا حاول العثمانيون أو الفرنسيون أو جيش أى دولة أخرى مهاجمة الإسكندرية أو غيرها من ثغور سواحل مصر . ومن المعروف أن محمد على لم يكن قد ولد بعد علاقاته مع فرنسا . وبعبارة أخرى أراد محمد على من معاهدة التحالف مع بريطانيا أن يؤمن مركزه فى مصر ضد العثمانيين والفرنسيين والماليك . وكان الأخيرون حلفاء الإنجليز . ولم يجد مشروع محمد على أذناً صاغية من الإنجليز . وعقدت معاهدة الجلاء عن الإسكندرية فى الرابع

الإنجليز نقلوا تفاصيل هذا المشروع إلى دوائر الباب العالي وعلم به السلطان محمود الثاني الذى تولى العرش بعد شهر معدودة من تلك المفاوضات ، واستطال حكمه اثنى وثلاثين عاماً . ومن هنا كانت توجد أزمة عدم ثقة بين السلطان محمود الثاني ومحمد على فى معظم سنوات حكم هذا السلطان . وكانت سياسته تقوم على اتخاذ الأخطار والمتاعب التى واجهها وسيلة لتحقيق هدفين : أولهما الاستعانة بمحمد على للقضاء على الحركة الوهابية والإخماد الثورة اليونانية . ثم طلب منه الاشتراك مع جيوش الدولة فى حربها ضد روسيا عام ١٨٢٨ ، ولكنه رفض معتذراً ببعد المسافة بطريق البر وبعدم وجود سفن تنقل الجنود بطريق البحر ، ويتفشى وباء الكوليرا فى مصر والشام وبانتشاره بين جنود الجيش المصرى (١) . وكان ثانى الهدفين إضعاف محمد على عسكرياً ومالياً واقتصادياً بسبب إسهامه فى حروب الدولة . وقد تكبدت مصر فيها خسائر فادحة فى الأ نفوس والأموال والسفن والأسلحة وما إليها (٢) . وقد صدقت نبوءة السلطان ، فلم تكد تمر سنوات ذات عدد

= عشر من تهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ . وكانت مقصورة على المسائل العسكرية المتصلة بجلاء القوات البربطانية عن الإسكندرية . ولم تتعرض من قريب أو من بعيد للمشروع السياسى الذى عرضه محمد على .

للاستزادة من المعلومات عن الجانب السياسى للمفاوضات انظر :

Douin George; Mohamed Aly, Pacha du Caire. (1805-1807). Le Caire, 1926.

الوثيقة رقم ١٥٩

وعن الجانب العسكرى للمفاوضات انظر :

Douin George et Fawtier-Jones E. C. ; L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit.,

الوثيقة رقم ١٢٠ وما بعدها

(١) أودى وباء الكوليرا بحياة خمسة آلاف جندى . ومات به من المدنيين نحو ١٥٠ ألف

نسمة . واستطال فتحه أربعة وثلاثين يوماً فى عام ١٨٣١ .

(٢) كانت الحرب الوهابية أشق الحروب التى خاضت مصر نهارها ، وأطولها مدى ، ومن

أكثرها ضحايا ومتاعب . جردت مصر خلالها حملات عديدة متعاقبة على امتداد سنوات متوالية .

وتلقى فيها الجنود الشدائد من وعورة الطرق وشدّة القَيْظ وقلة المؤونة وندرّة المياه وفى محاربة عدو

مستبسل بذل النفس والنفس دفاعاً عن وطنه ومذهبه .

أما القوات التى بعثت بها مصر لإخماد الثورة اليونانية فقد بلغ تعداد أفرادها اثنى وأربعين

ألف جندى خسرت منهم ثلاثين ألفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥,٠٠٠ جنيه ، وفقدت أسطولها

فى معركة ناقرين البحرية

على اشتراك مصر في إخماد الثورة اليونانية حتى نشبت بين السلطان ومحمد علي حرب الشام الأولى عام ١٨٣١ وتلتها حرب الشام الثانية سنة ١٨٣٩ .

اجتماع موسع لمناقشة مشكلة الإنكشارية :

بعد أن استردت القوات المصرية - باسم السلطان العثماني - مدينة مسولنجي من الثوار اليونانيين في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، كما سبق أن ذكرنا ، رأى السلطان محمود أن يمضي قدماً في إصلاح الجيش . وهو المشروع الذي كان يعلق عليه أعذب الآمال منذ الأسابيع الأولى التي تولى فيها العرش عام ١٨٠٨ . وقد صبر على الإنكشارية وصارهم أمدأ طويلاً لعلهم يغيرون موقفهم المعارض لتطوير الفيلق الإنكشارية . وقد استطال عداؤهم لهذا التطوير زهاء ثمانية عشر عاماً منذ أن تولى العرش . وتمشياً مع خطته تجاه الإنكشارية بالذات قرر أن يمنحهم فرصة سلمية أخيرة ، فيحاول تطويعهم بالحسنى على غرار ما فعل في مستهل حكمه في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، فإذا رفضوا ، لجأ إلى مواجهة عسكرية يخوضها ضدهم بعد أن يعد عدته من النواحي العسكرية والدينية والشعبية لمثل هذه المواجهة حتى يستأصل هذه الطائفة الباغية ، ويبقى الجيش والمجتمع شروها .

طلب السلطان من محمد مظهر باشا الصدر الأعظم أن يدعو إلى اجتماع موسع يعقد في دار شيخ الإسلام في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ويحضره قادة أسلحة الجيش بما فيهم كبار ضباط الفيلق الإنكشارية ورجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وكبار الموظفين والأعيان . وتحدث في هذا الاجتماع الصدر الأعظم موضعاً ما وصل إليه الإنكشارية من تدهور وعدم انقياد للرؤساء وتعدد حوادث تمردهم وعصيانهم وتدخلهم في المسائل السياسية متجاوزين حدود اختصاصاتهم

= أنظر :

عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ ، وص ١٨٦

(م - ٣٥ الدولة العثمانية)

ونزوعهم إلى سلب ونهب المدنيين . ومضى محمد مظهر باشا يعدد في استفاضة آثامهم التي دأبوا على ارتكابها في وضح النهار وظلمة الليل حتى أصبح الإنكشارية من أكبر أسباب اضمحلال الدولة وضعف مركزها العسكري أمام تقدم الدول الأوروبية المطرد في المجالات الحربية . وخلص الصدر الأعظم من حديثه الضافي إلى ضرورة الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة في الفيالق الإنكشارية ، إذ لا يمكنها بحالتها في ذلك الوقت الوقوف أمام الجيوش الأوروبية الحديثة التنظيم والتسليح والتدريب . وقد لقيت هذه الآراء والتوجيهات التي جاءت على لسان الصدر الأعظم موافقة فورية وجماعية من الحاضرين . وعندئذ قرأ المکتوبجي - وكان يقوم بعمل كاتم السر في هذا الاجتماع - مشروعاً بإعادة تنظيم القوات الإنكشارية . وكان هذا المشروع يتكون من ست وأربعين مادة تناولت جميع التعديلات المراد إدخالها على نظام الفيالق الإنكشارية . وتحررت مضبطة لهذا الاجتماع وقع عليها جميع الحاضرين بما فيهم ضباط الإنكشارية . وكانت هذه المضبطة تشمل أيضاً التعديلات التي اقترحها الصدر الأعظم فيما يختص بالنظام المطور للفيالق الإنكشارية . ثم قرئ المشروع مرة ثانية على ضباط الإنكشارية فأقروه . وأصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب تنفيذ التعديلات الجديدة ومعاقبة كل شخص تسول له نفسه الاعتراض عليها (١) . ويلاحظ أن اختيار السلطان محمود الثاني دار شيخ الإسلام مكاناً لعقد هذا المجلس الموسع كان اختياراً هادفاً انبثق عن رغبته في إضفاء الشرعية الدينية الإسلامية على القرارات التي يتخذها المجلس في دار شيخ الإسلام وفي حضوره وبموافقته مما يجعل الجماهير تتقبل قرارات المجتمعين دون مناقشة وأن تؤيدها قلباً وقالباً .

موقف الإنكشارية من الخط الشريف كان البداية السريعة لنهايتهم :
وفي اليوم التالي لهذا الاجتماع الموسع - أي في الثامن والعشرين من

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٤٥-٢٤٦ .

شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ (١) أصدر السلطان محمود الثاني في ضوء القرارات التي صدرت عن ذلك الاجتماع الموسع - ما عرف باسم خطي شريف - ويقضى بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب . واشتمل هذا الخط الشريف على الست وأربعين مادة التي أقرها الاجتماع الموسع . ولنا عدة ملاحظات على هذا الخط الشريف فيما يتصل بالإنكشارية كمرکز قوة خطير في الدولة :

أولاً : لم يعمد السلطان محمود إلى إلغاء الفياق الإنكشارية ، بل أبى عليها وقرر أن تقدم كل كتية مرابطة في إستانبول مائة وخسين جندياً لإلحاقهم بالفرق الجديدة . ولعله استهدف من إدراج هذا النص في « الخط الشريف » استمالة الإنكشارية حين يدركون أن السلطان قد أبى على طائفهم كمسكرين . وأنهم لن يصبحوا مبدئياً بعيدين عن هذه القوات بل سيزودونها بوحداتها الأولى .

ثانياً : أنه قرر في ذات الخط الشريف أن الدولة لن تستخدم ضباطاً أو خبراء مسيحيين في تنظيم وتدريب الفرق الجديدة . وقد أراد السلطان أن يقطع الطريق عليهم فلا يعمدون إلى الإثارة الدينية سواء في محيطهم أو محيط علماء الدين أو الجماهير المسلمة .

ثالثاً : تجنب السلطان ذكر « النظام الجديد » في « الخط الشريف » ، لأن هذا النظام يقترن في الأذهان باسم السلطان سليم الثالث ، وعلى النقيض صور الفرق الجديدة على أنها بعث للنظام العسكري الصارم الذي أرسى قواعده السلطان سليمان المشرع . وهو النظام الذي نظر إليه دعاة الإصلاح في الدولة منذ أن قدم كوتشى بك (٢) Khodji—Bey رسالته الشهيرة على أنه

(١) تذكر بعض المراجع أن السلطان أصدر الخط الشريف في ذات اليوم الذي عقد فيه الاجتماع الموسع برئاسة محمد مظهر باشا الصدر الأعظم ، أي في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو آيار - عام ١٨٢٦ . وهذه نقطة شكلية لا تقدم ولا تؤخر في جوهر المسألة .

(٢) كان كوتشى بك من مواليد ألبانيا أو مقدونيا . وجاء إلى إستانبول ضمن الحصيلة الأدمية لضريبة الغلمان . وأظهر منذ حداثة سنه مواهب عقلية ، فاختارت له الدولة الدراسات العلمية ميداناً لتحصنه الدقيق بعيداً عن التعليم العسكري . ووقع عليه الاختيار ليعمل في القصر السلطاني وظفر بتقدير عميق من السلطان مراد الرابع وجمله مستشاره الخاص . وقد عهد إليه =

النظام الأمثل والدواء الشافي من جميع العلل التي تضافرت على إضعاف الدولة ،
والوسيلة العملية لاستعادة عصرها الذهبي . فلما أصدر السلطان محمود الثاني
« الخط الشريف » لقي تأييداً واسعاً على المستوى الرسمي والديني والشعبي .

آخر تمرد عسكري في تاريخ الدولة لخمسة فيالق إنكشارية في إستانبول :
وعلى الرغم من أن ضباط الإنكشارية قد أقروا المشروع الذي عرضه
عليهم الصدر الأعظم محمد مظهر باشا في اجتماع اليوم السابع والعشرين من
شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ، اتضح أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في
قلوبهم ، وأنهم قوم مردوا على العصيان والعناد والسلب . ففي اليوم الخامس
عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ - بعد مضي عشرة أيام على
الحفل الرسمي الذي أقيم بمناسبة بدء تكوين الفرق الجديدة في الجيش - تعرض

=بوضع مذكرة يستعرض فيها أسباب اضمحلال الدولة في ذلك الوقت والوسائل التي يرى أنها كفيلة
بإنقاذها . وقد أمّ كوتشي بك وضع المذكرة وقدمها للسلطان عام ١٦٣٠ ، ويطلق عليها في
تاريخ الدولة العثمانية « رسالة » . ويقصد بها رسالة كوتشي بك . والرسالة لفظة مأخوذة من اللغة
العربية بنفس المعنى . وهي عبارة عن بحث أو تقرير ضاف يتكون من سبعة عشر فصلاً . ومن
الملاحظات التي تشد انتباه الباحث أن كوتشي بك استهل كل فصل من فصول الرسالة بعبارة
موحدة واختتمها بعبارة موحدة امتدح فيها السلطان مراد الرابع وأضفى عليه الكثير من صفات
الذكاء والعظمة والمقدرة .

وكانت هذه الرسالة موضع التقدير العميق من رجال الدولة وفي الأوساط الأوروبية .
كما أصبحت مصدراً تاريخياً استقى منه مؤرخو الدولة العثمانية مادتهم العلمية في الكتابة عن أسباب
اضمحلال الدولة . كما جعلت هامر يطلق على مؤلفها العثماني اسم أحد أعلام الفكر الفرنسي قبل
الثورة الفرنسية وهو مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) صاحب كتاب
« روح القوانين L'Esprit des Lois فقال إن كوتشي بك هو « مونتسكيو العثماني »
Le Montesquieu Ottoman . وقد ذكر الأستاذ برنارد لويس هذا التشبيه
« مونتسكيو التركي » The Turkish Montesquieu وهي تسمية تنطوي على خطأ ،
لأن كلمات تركي ؛ وأتراك ؛ وتركيا ، لها مدلولات أخرى قبل القرن العشرين ، كما سبق
أن ذكرنا في الفصل الأول .

انظر كلامن :

Lavisse et Rambaud; op. cit., Tome v, p. 880—881.

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 22 N. 3 and pp. 78 — 79.

ويلاحظ أن اسم كوتشي بك يرد في المراجع الأوروبية مكتوباً في صيغ شتى مثل :

khoudj, khodjia, Koçu—Bey,

الإنكشارية للجنود وقت التدريب ، وأوسعهم ضرباً . واستقر رأيهم على القيام بحركة تمرد . وكانت لاتزال عالقة في أذهانهم حركات التمرد التي قاموا بها من قبل احتجاجاً على مشروع تطوير الجيش ونجاحهم في تحقيق مآربهم . وجرياً على عاداتهم اجتمعت خمسة فيالق إنكشارية في ميدان الخيل ووضع أفرادها القزانات أمامهم وهي مقلوبة ، وانطلقوا في شوارع إستانبول يشعلون النار في مبانيها ، ويهاجمون المنازل ، ويحطمون المحلات التجارية ، ويسلبون البضائع . وكانت حركة العصيان هذه هي آخر حركة تمرد يقوم بها الإنكشارية في تاريخ الدولة في إستانبول . وكان السلطان أكثر استعداداً لمواجهتها . وكانت الجماهير أكثر ميلاً للإسهام في مقاومة الإنكشارية بعد أن لاقوا من جبروتهم وطمعياتهم ما لم يكونوا يطيقون .

الطوبجية والغمجية في مواجهة عسكرية ضد الفيالق الإنكشارية :

كان السلطان محمود الثاني يقيم يومئذ في قصره القائم في بشيكطاش (١) ، فأسرع بالانتقال في قارب إلى القصر السلطاني في إستانبول . وأمر بادئ ذي بدء بقتل كل إنكشاري يتعرض بسوء إلى الجنود أو يعث بالنظام العام . واستدعى السلطان إليه شيخ الإسلام والمفتين ومن إليهم من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والذين كانوا وقتذاك في العاصمة . وشرح لهم موقف الإنكشارية فاستهجنوا تصرفاتهم وأشاروا عليه بمقاومتهم ، فاستصدر من

(١) بشيكطاش ضاحية بإستانبول على بعد ميلين ونصف الميل من جسر جالاطة على الساحل الأوروي للبوسفور . وكان البيزنطيون يطلقون على هذه الضاحية إسم دپلوكيونيون *Diplokionion* نسبة إلى عمودين أقامهما هناك رومانوس الأكبر . ومن هذا الموضع استطاع السلطان محمد الثاني عند شروعه في فتح القسطنطينية أن ينقل سفنه فوق تلال *Pera* إلى القرن الذهبي الذي سد مدخله من ناحية البوسفور بسلسلة حديدية . وكانت هذه الضاحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تزخر بمدد من القصور البديعة التي كان يصطاف فيها السلاطين . وفي الوقت الحالي تحيط بهسلة الضاحية مجموعة من القصور الرائعة مثل شوله ناغجة ، وقصر بلنز . ومن الأماكن السياحية ذات الأهمية التاريخية في هذه الضاحية قبر غير الدين يروسة أمير البحر العثماني المتوفى عام ١٥٤٦ . وكانت بشيكطاش عبارة عن الدائرة السادسة لبلدية إستانبول .
انظر :

شيخ الإسلام فتوى بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية والفضالة ، وأمر السلطان باستدعاء عدة فرق عسكرية كان من بينها : آلاى طوبجية وهي فرقة من سلاح المدفعية كان قد أعاد تنظيمها وتدريبها عقب اعتلائه العرش . وكوّن أفراد هذه الفرقة مع أوجاق اللغمجية - أى الذين يثبون الألغام (١) - فيلقاً ، وكون حملة البنادق ورجال البحرية فيلقاً آخر . ودعا السلطان أفراد الشعب إلى قتال الإنكشارية . وقد صحت عزيمته السلطان في هذه المرة على إبادة الإنكشارية ووضع نهاية لشرورهم واسترسالهم في حركات التمرد والطغيان .

الواقعة الخيرية :

وفي صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ أخرج السلطان البيرق النبوى - العلم النبوى الشريف - واتجه مع القوات العسكرية ومع المدنيين المسلمين إلى آت ميدانى - ميدان الخيل - وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية . وكانت قد احتشدت في هذا الميدان خمسة فيالق من الإنكشارية ، وكانت القزانات - قدور الطعام - أمامهم وهي مقلوية رمزاً لاستمرار حركة العصيان العسكرى . وكانوا في هرج ومرج شديدين وأقاموا المتاريس أمام البوابة الكبرى لثكناتهم . ولم يمض قليل من الوقت حتى أحاط رجال المدفعية بالميدان ، واحتلوا جميع المرتفعات المشرفة عليه . وسلطوا مدافعهم على الإنكشارية من جميع الجهات . وهجم الإنكشارية على مواقع المدافع يبغون الاستيلاء عليها ، فحصدتهم المدفعية ونالت منهم منالاً كبيراً . وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية . والتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة . وفشل تخطيطهم . إذ سلطت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران حتى دمرتها على رعوس البقية الباقية

(١) لعم كلمة تركية بمعنى نفق تحت الأرض . وكان شأن أوجاق اللغمجية شأن أوجاق الخمبرجية - أى قاذف القنابل - من حيث أن أفراد هذين الأوجاقين لم يكونوا يتسلمون مرتبات من خزانة الحكومة ، بل يمنحون إقطاعات عسكرية من الأراضي .
انظر :

منهم وتولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية في البحر . ويقدر عدد قتلاهم في ذلك اليوم بستة آلاف إنكشارى ، ولو أن البعض يقفز بعدد القتلى إلى أضعاف هذا العدد (١) . وعلى هذا النحو انتهت في السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ حركة العصيان والتمرد التي قام بها الإنكشارية بإبادة معظمهم . ويسمى العثمانيون قتل الإنكشارية في هذا اليوم « وقعة خيرية » أى الواقعة الخيرية لأنهم تفاءلوا بها خيراً (٢) .

إلغاء نظام الإنكشارية :

واستتبع إبادة الإنكشارية في الواقعة الخيرية اتخاذ عدة قرارات لاحقة وعاجلة لتأمين المجتمع . فأصدر السلطان في اليوم التالى - السابع عشر من شهر يونيو - حزيران - فرماناً بإلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاء كلياً بحيث يشمل الإلغاء تنظيماتهم العسكرية وأسماء الفيالق الإنكشارية وشاراتها وأعلامها ومصطلحاتها العسكرية في جميع أنحاء الدولة . ونودى بهذا القرار في شوارع إستانبول . وفي ذات الوقت صدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بتعقب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة وإعدامه أو نفيه خارج البلاد حتى لا تبقى منهم باقية في نطاق الدوامة ، ولا تقوم لهم قائمة

وفي ذات اليوم أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بإنشاء جيش جديد وفق النظم الأوروبية الحديثة ، وأطلق عليه « عساكرى منصورى محمدى » أى العساكر المنصورة المحمدية . وهو تعبير ذو طابع دينى إسلامى لا يفوتنا أن نسجله في هذه الدراسة استهداف منه السلطان قطع الطريق أمام أى هيئة أو طائفة تحاول الإثارة الدينية بين الجماهير نتيجة إبادة الفيالق الإنكشارية ، وقد أراد السلطان أيضاً من هذه التسمية تسجيل الآمال التي تعلقها الدولة

(١) دكتور جلال يحيى : المدخل إلى تاريخ العالم الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) Lewis B.; The Emergence etc.; op. cit., p. 79.

وانظر أيضاً :

سالم الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ، ويقول هذا المؤلف إن التعبير العثماني « وقعة خيرية » يدل بالحساب الأبجدى على تاريخ الواقعة بالسنة الهجرية .

والجواهر على المقدرة القتالية للجيش الجديد في تحقيق انتصارات عسكرية باهرة لا تقل في روعتها عن انتصارات الإنكشارية في عهدهم الأول .

وبإلغاء الفيالق الإنكشارية ألغى السلطان محمود الثاني منصب نبي شرية أغاسى - أى رئيس الإنكشارية - واستبدل منصباً جديداً بالمنصب القديم وأطلق على شاغله سر عسكر ، وهو مصطلح تاريخي عثمانى استخدم في العهود السابقة وكان يمنح لقادة الجيش ، ومعناه رئيس العسكر أو القائد العام (١) .

ولكن أدخل السلطان محمود تعديلات شتى على اختصاصات شاغل هذا المنصب ، فأصبح يجمع في يديه اختصاصات وزير الحربية واختصاصات القائد العام للجيش ، وأضاف إليه اختصاصاً ثالثاً هو مسئولية المحافظة على الأمن العام وواجبات الشرطة في العاصمة (٢) . وقد عين في منصب سر عسكر حسين باشا أغا وهو أحد كبار ضباط الفيالق الإنكشارية ، وكان قد انقلب عليهم من قبل احتجاجاً على تصرفاتهم وانضم إلى السلطان . وكانت له اليد الطولى في واقعة ١٦ من يونيو - حزيران - ولم يمض عام ١٨٢٦ حتى تم تدريب وتسليح عشرين ألف جندي كمرحلة أولى ، على أن تكون حصيلة المرحلة الثانية في نهاية العام التالى ١٠٠ ألف جندي نظامى (٣) .

حل الطريقة البكتاشية دعامة الإنكشارية :

لم يكد يمر شهر واحد على إلغاء الفيالق الإنكشارية حتى أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بحل الطريقة الصوفية البكتاشية وهدم تكاياها التى كانت قائمة فى إستانبول وما جاورها ، وإغلاق بقية تكاياها التى كانت منتشرة انتشاراً واسعاً فى أنحاء البلاد ، وعدم دفع أى إعانات لها (٤) . واستند السلطان

(١) يرد كثيراً ذكر هذا المصطلح فى كتاب الجبرقى إبتداء من الجزء الثالث عند كلامه عن المنشورات التى كانت تصدر عن قيادة الجيش الفرنسى إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١ .

(٢) Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit.;p. 80.

(٣) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) Lamouche (Colonel); Histoire de la Turquie. Paris, 1953, pp. 250-252.

في قراره إلى أن أتباع هذه الطريقة أخذوا يشيرون القلاقل ويحرضون الجماهير على القيام في وجه الحكومة احتجاجاً على قتل الإنكشارية في واقعة ١٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٦ . وقد سبق أن تكلمنا في الفصل السابق عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية .

ولكى يضفي السلطان محمود الثاني الشرعية الدينية على قراره بحل الطريقة البكتاشية استصدر فتوى من شيخ الإسلام بأن البكتاشية خارجون على القانون ، وأنه لا تريب على ولي الأمر إذا اتخذ لإجراءات أمن كي يمنع شروهم عن المسلمين . واستناداً إلى هذه الفتوى بشقيها أمر السلطان بأن يعدم علناً ثلاثة من كبار البكتاشية ، وأن ينفي الباقون ، وأن يشتت شمل أتباع الطريقة بترحيلهم إلى أطراف الدولة متفرقين منعاً لأى تجمعات يقومون بها في إستانبول (١) . وكان تصرف السلطان في هذا الصدد نابعاً من حرصه الشديد على تفادي أى نتائج ضارة قد تحدث بعد إلغاء الفيلق الإنكشارية .

ويبدو من ملاحظات هذه الفترة العصبية - شهرى يونيو ويوليو - حزيران وتموز - عام ١٨٢٦ أن حل الطريقة البكتاشية كان إجراءً مكملًا لإلغاء الفيلق الإنكشارية ، وأن هذا الإجراء كان أمراً لا مندوحة عنه *Stine qua non* في خلال هذه الأزمة ، لأن الطريقة البكتاشية لم تلبث أن عادت بعد ذلك إلى الازدهار رويداً رويداً ، ولو أنها لم تستعد قط ما كان لها من مركز مرموق في تاريخ المجتمع العثماني (٢) .

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٦ .

Lewis B.; The Emergence etc, op. cit., p. 79.

(٢) وجدت في شمال الأناضول تكية عثمان جيك ، فضلاً عن التكية الأصلية المقامة في هذه المنطقة . ووجدت في غرب الأناضول تكية أخرى في مدينة إسكى شهر . وهما من التكايا البكتاشية الهامة . وهناك تكية ثالثة أقيمت على سفح جبل المقطم بالقاهرة ، وتوجد أعداد كبيرة نسبياً من البكتاشية إلى الوقت الحاضر في المجتمعات الإسلامية في شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة في ألبانيا حيث توجد تكية البكتاشية الكبرى في تيرانا عاصمة الإقليم . وجاء في بعض الوثائق أنه كان لا يزال في جمهورية تركيا إلى عام ١٩٥٢ ثلاثون ألف بكتاشي .
انظر :

Tschudi; Encycl. of Islam. Art. Bektash.

ويلاحظ أن الأوضاع الدينية سواء بالنسبة للإسلام أو المسيحية قد تغيرت تغيراً جذرياً في البانيا منذ أن توطد الحكم الشيوعي فيها منذ الستينات في القرن العشرين .

ولكن يؤخذ على السلطان محمود الثاني أنه أسرف في الاقتصاص من البكتاشية . كان يدخل في زمرة كل شخص كان متصلاً بهم أو متعاطفاً معهم على أى نحو من الأنحاء . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد عطاالله محمد ويشتهر باسم سالى زاد (١٧٦٩-١٨٢٦) . كان أحد أعلام الفكر العثمانى فى القرن التاسع عشر . كان ذا عقلية موسوعية وتعلم عدة لغات أوروبية . ودرس الطب ، وعينه السلطان سنة ١٨١٩ مدوناً للتاريخ العثمانى . وعكف على ترجمة بعض المراجع الطبية إلى اللغة التركية ووضع بحثاً فى علوم وظائف الأعضاء ، والتشريح ، والتطعيم . وأدخل فى اللغة التركية لأول مرة مصطلحات لغوية فى علوم الطب . وقد أخذ عليه السلطان أنه على صلوات بأتباع الطريقة البكتاشية ، فأمر بعزله ونفيه . ولم يشفع له الإثراء العلمى الطبى الذى حفلت به حياة هذا العالم مع أنه لم يكن رجعيّاً . وقد جاز إلى ربه فى ذات السنة التى شهدت نفيه من إستانبول إلى أحد الأطراف النائية على حدود الدولة (١) .

وبعد أن نجح السلطان محمود الثاني فى استئصال شأفة الإنكشارية مضى يستكمل إصلاح الجيش وأصدر تباعاً عدة قوانين عسكرية تخرج عن نطاق هذه الدراسة . وحسبنا أن نذكر أن هذا السلطان تطلع إلى محمد على باشا وإلى مصر ليساعده فى تدريب الجيش الجديد . فطلب منه فى ذات السنة (١٨٢٦) أن يمدّه بانئى عشر خبيراً من الخبراء العسكريين لتدريب الجيش العثمانى . واعتذر محمد على عن عدم إرسال الخبراء بأعداد مخدعة (٢) . وولى السلطان وجهه شطر أوروبا كما فعل محمد على من قبل . وترددت فرنسا وبريطانيا ، بينما لقي استجابة من بروسيا والنمسا . فجاءه من بروسيا فى أواخر عام ١٨٣٥ فى زيارة خاصة الضابط الروسى ذو الشهرة العالمية فون مولتكه (٣)

Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit., pp. 85—86. (١)

Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit., p. 81. (٢)

(٣) كان مولتكه أحد أربعة عمالقة قامت على أكتافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة فى مطلع عام ١٨٧١ (غليوم الأول ، وبسمارك ، وفون رون Von Roon وزير الحرب وفون مولتكه) . وقد ولد عام ١٨٠٠ وعين ضابطاً بالجيش الروس ، ثم سافر إلى إستانبول وظفر بتقدير عميق من السلطان محمود الثاني ، وخدم فى الجيش العثمانى . وحضر موقعة نصيبين =

Helmuh von Moltke وقد عينه السلطان مستشاراً لشئون تدريب الجيش ، ثم جاء في أثره خمسة ضباط بروسين آخرين . وكان استخدام الضباط الألمان في الجيش العثماني خطوة هامة على أول الطريق الذي أدى فيما بعد إلى نمو النفوذ البروسي (الألماني) في الجيش العثماني نمواً عظيماً (١) ، وباكورة أولى لمعالم سياسة التقارب التي انتهجتها ألمانيا فيما بعد نحو الدولة العثمانية . وهي السياسة المعروفة باسم Drang Nach Osten أى الاتجاه نحو الشرق .

تقدير عام محمود الثاني لإلغاء الفياق الإنكشارية :

هناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على الإشادة بالسلطان محمود الثاني لنجاحه في إلغاء الفياق الإنكشارية وتخليص الحكومة المركزية والمجتمع العثماني من شرورهم . ويصفه البعض بالحزم والشجاعة ورجاحة الفكر والحصافة . وقالوا إنه اكتسب معظم هذه الخصال من احتكاكه بالأوروبيين (٢) . ويعلق أحدهم على نجاح السلطان في القضاء على الإنكشارية بقوله إنه لو لم

-
- = ويسمى المؤرخون الغربيون نزيب Nezib (٢٤ من يونيو - حزيران - ١٨٣٩) وقد مئى فيها الجيش العثماني هزيمة ساحقة على يد الجيش المصري . وكان مولتكه في هيئة أركان الحرب بالجيش العثماني . ويقال إنه ولي الأديار مع سائر الضباط العثمانيين دون أن يتمكن من أخذ ملبسه وأوراقه الخاصة . وعاد إلى بروسيا وتدرج في الوظائف العسكرية إلى أن عين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسي ، وحصل على رتبة مشير Field Marshal ويفضل جهوده غداً الجيش أقوى جيش في أوروبا . وكانت له اليد الطولى في انتصار بروسيا على النمسا في معركة سادوا وهي التي يسميها المؤرخون الألمان كونيغراتز Koniggratz (٣ من يوليو - تموز - ١٨٦٦) ، وعلى فرنسا في موقعة سيدان Sedan (٢ من سبتمبر - أيلول - ١٨٧٠) . وأقيم له تمثالان في حياته . واعتزل الخدمة في سنة ١٨٨٨ ٤ وتوفى عام ١٨٩١ .

(١) أرسلت الحكومة الألمانية في عام ١٨٨٣ بعثة عسكرية إلى الأستانة لتتولى تنظيم الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة . وكانت هذه البعثة برياسة الكولونيل فون درسولتس .

(٢) قيل إن والدة السلطان محمود الثاني كانت فرنسية . وهذه رواية ضعيفة ، يدحضها أنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية على الإطلاق . كما أنه لم يكن يتكلم أى لغة أوروبية . وكان تعليمه عادياً بالنسبة لأمير من أمراء الأسرة الحاكمة . وكانت دراسته مقصورة على الشريعة الإسلامية واللغة التركية وبعض اللغات الشرقية والتاريخ والشعر . ولم تكن له معرفة مباشرة بالدول الغربية على الرغم من أنه كان يقوم بجولات في الولايات العثمانية والأوروبية مستطعماً أحوالها .

يكن للسلطان « من الأيادى البيضاء على الممالك المحروسة (١) إلا إلغاء طائفة الإنكشارية لكنى ذلك لتخليد اسمه فى بطون التاريخ مشكوراً ممدوحاً إلى أبد الآبدين » (٢) . ويعلق آخر تعليقاً متزنأً فيقول إن نجاح محمود الثانى فى القضاء على الإنكشارية « كان كافياً وحده لاعتباره من أعلام الإصلاح فى الدولة العثمانية » (٣) . وذهب أحد المؤرخين فى تمجيد السلطان إلى القول بأنه يشبه بطرس الأكبر قيصر روسيا من حيث الدور الذى قام به كل منهما فى دولته ، ومن حيث الإصلاحات التى أدخلها كل منهما فى بلاده (٤) .

والحق أن الباحث المحايد لا يستطيع أن يقلل من أهمية وحجم النجاح الذى أصابه السلطان محمود الثانى فى إلغاء الفياق الإنكشارية بعد أن تفاقم طغيانها وجبروتها وغدت مركز قوة خطير فى حياة الدولة . وتتضح قيمة انتصاره على هذه الفئة الباغية إذا وضعنا فى اعتبارنا المعوقات العديدة التى فرضت نفسها فرضاً على السلطان . ونشير هنا إلى أهم هذه المعوقات حتى عام ١٨٢٦ وهو تاريخ إلغاء الفياق الإنكشارية . كان على رأسها الحركة الوهابية أو السلفية فى شبه الجزيرة العربية ، واستئناف الحرب الروسية التى انتهت بمعاهدة بخارست عام ١٨١٢ ، والثورة التى حمل لواءها على باشا والى يانينا ، والثورة اليونانية وما صحبها من تدخل دولى - حربى وسياسى - لصالح الثوار اليونانيين . وقد استغرقت هذه المعوقات ثمانية عشر عاماً من حكم السلطان . فلما فرغ منها ، أو كاد يفرغ منها ، التفت إلى مشكلة الإنكشارية وهى مشكلة حساسة سبق أن تعرض معظم السلاطين السابقين لحلها على نحو من الأنحاء . ولكن باء جميعهم بالفشل . كانت نهاية بعضهم العزل ، بينما كان مصير البعض الآخر القتل ، واعتصم البعض الثالث بالسلبية حرصاً على أرواحهم ومراكزهم . أما محمود الثانى فقد اتسمت تصرفاته بالحصافة والأناة فى المرحلة الأولى ، فلم يتجه إلى إلغاء الفياق الإنكشارية ،

(١) الممالك المحروسة يقصد بها الممتلكات العثمانية .

(٢) محمد فريد بك ، مرشح سبق ذكره ، ص ٢٦٢ .

(٣) دكتور السيد رجب حرار ، الدولة العثمانية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٤) Phillips W.A.; Modern Europe (1815—1899), p. 210. (٤)

بل عمد إلى الإبقاء عليها والعودة بها إلى وضعها الأول في عصرها الذهبي مثلاً أعلى للنظام والطاعة والاستبسال في ساحات القتال . وقد بذل السلطان محمود الثاني في هذا الصدد محاولة سلمية في خلال الشهور الأولى لتولية العرش . ولما لم يجد استجابة من الإنكشارية أعرض ونأى بجانبه عنهم ، ثم بذل محاولة سلمية أخرى بعد ثمانى عشرة عاماً لتعديل نظام الفيالق الإنكشارية مع الإبقاء عليها . ولكن أصر الإنكشارية على موقف العناد . وحينئذ عول السلطان على أن يدخل في مواجهة عسكرية استهدف منها إلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاء كلياً بدلاً من تعديل نظامها والإبقاء عليها . وكانت هذه المواجهة تمثل المرحلة الثانية . واتسمت تصرفات السلطان فيها بالتخطيط الدقيق والشجاعة والمقدرة الحربية . وسار على رأس بعض القوات العسكرية وجماهير الشعب واستخدم أسلحة أشد خطراً من تلك التى كانت في أيدي الإنكشارية ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وانهارت ثكناتهم فوق رؤوسهم مما كفل له الانتصار الساحق عليهم وألقى بجثثهم في البحر . وقرن إلغاء الفيالق الإنكشارية بحل الطريقة البكتاشية بصفتها دعامة قوية كانت تشد أزر الإنكشارية في الأوساط الجماهيرية وعمل في غير هوادة على سد الفراغ الذى تركته الفيالق الإنكشارية ، فأنشأ في ذات السنة (١٨٢٦) فرقة عسكرية جديدة وفق النظام الحديث . وأرسل بعثات عسكرية إلى الكليات الحربية في بروسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا . واستقدم الخبراء العسكريين الأوروبيين لتدريب الفرق العسكرية . وأصبحت هذه الخطة سياسة عليها التزمت بها الدولة حتى القرن العشرين .

على هذا النحو توارى إلى الأبد الوجود الإنكشارى العسكرى في الدولة منذ صيف ١٨٢٦ ، ونجح السلطان محمود الثانى فى القضاء على مركز خطير من مراكز القوى فى الدولة كان يهدد أمنها الداخلى والخارجى بأشد الأخطار . يقول أحد كبار المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا مصدر هلع وذعر لأوروبا حيناً من الدهر ، ثم غدوا مصدر رعب وإرهاب للسلطين ولرعاياهم المدنيين الخاضعين عن طيب خاطر للقانون يلتزمون به فى حياتهم سلوكاً ومنهاجاً (١) .

كانت حركات العصيان التي قام بها الإنكشارية من وقت لآخر تتم في العلن . وإمعاناً في تحدى السلطان كانوا يتخذون من القزانات وسيلة إعلامية لحركات التمرد . ولا يتورعون عن عزل وقتل السلاطين والصدور العظام والوزراء وغيرهم . واعتمدوا على القوة العسكرية في تنفيذ مخططاتهم . ومن هنا كانت تكمن خطورتهم ، على النقيض من المركزين الآخرين من مراكز القوى في الدولة ، وهما: الحريم السلطاني والحصيان وأغواتهم . فإذ مؤامرات وخطط هذين المركزين كانت تحاك في السر ، وتنفذ في السر ، ولا يعلم بها أو بنتائجها أحد سوى فئة قليلة العدد من موظفي الخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية في القصر السلطاني وعدد ضئيل من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . وهذا ما سنتناوله في الفصول الثلاثة التالية ، مع فصل رابع لتقييم مراكز القوى الرئيسية مع مراكز جانبية أخرى أطلت برأسها ، وأرادت أن يكون لها نصيب من الجاه والنفوذ والتسلط .



الفصل العشرون

مراكز القوى في الدولة (٤)

الحريم السلطاني

نظام الحريم السلطاني :

أخذ سلاطين الدولة العثمانية بنظام الحريم في قصورهم . وأطلق على هذا النظام « الحريم السلطاني » . وكانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة بالنسبة إلى جميع الهيئات والطوائف التي تعمل في منطقة الحريم . كانت تخصص عدة أجنحة في القصر لسكنى والدة السلطان الحاكم ، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، وزوجات السلطان . ونطلق عليها وعليهن في هذه الدراسة سيدات الفئة الأولى ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم فئات من الجوارى الحسنان كن يعشن في القصر ، ويشغل بعضهن شتى الوظائف الكبرى والصغرى فيه . كما كانت توجد طائفتان كثيفتا العدد من الخصيان والبيض والخصيان السود . وعليهم رؤساء على شاكلتهم يطلق عليهم رؤساء أو أغوات الخصيان يقومون بحراسة منطقة الحريم وخدمة ساكناته . وكانت أجنحة الحريم عبارة عن مبان مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة بلغت الروعة من حيث فخامة المبنى وزخرفته وأثاثه وتعدد حجراته وقاعاته . وكان يطلق على كل مبنى « دائرة » . وخصصت دائرة لكل سيدة من سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني وكذلك لأولاد السلطان وبناته .

ومما هو جدير بالذكر أن موضوع الحريم السلطاني من الموضوعات الصعبة للغاية في تاريخ الدولة العثمانية نظراً لقلّة المادة العلمية عنه . إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية بعيداً عن العالم الخارجي . ويذكر المؤرخ دوسو D'Ohsson أنه لقي مصاعب جمة في

الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع ، وأنه اتصل بمدد من زوجات السلاطين واللاتي غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللاتي سبقتهن الإقامة في القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم لهؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات . وقال إن التحقيقات التي قام بها بخصوص هذا الموضوع قد كلفته متاعب أكثر مما تطلبته الأجزاء الأخرى من كتابه الذي يقع في سبعة مجلدات (١) وقد سبق أن ذكرنا أنه أقام في إستانبول سنوات طوالا وعكف خلال ثلاثين عاماً (١٧٨٨ - ١٨١٨) على وضع كتابه فجاء أشبه بموسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية (٢) . وقد أشار مؤرخ أمريكي إلى الصعوبات التي صادفها هو الآخر في جمع المادة العلمية عن موضوع الحريم السلطاني (٣) .

أجنحة الحريم :

كانت تحاط منطقة الحريم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، وكان الطريق المؤدى إلى منطقة الحريم عبارة عن ممر طويل ، له أربعة أبواب ، بابان منها مصنوعان من الحديد ، وبابان من البرونز . وكان رئيس الخصيان السود وعدد من هؤلاء الخصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلفه سيه» (٤) وهم من الصف ضباط يتناوبون الاحتفاظ بمفاتيح هذه الأبواب ليلاً ونهاراً. وكانت أجنحة الحريم تعد منطقة مغلقة a closed zone ومنطقة محرمة out of boundr

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol. VII, p. 58.

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ١١٩ حاشية رقم ١

(٣) Lybyer A.H; op. cit., p. 126.

(٤) نوبت كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية نوبة . أما قلفة فعناها رئيس . والعبارة معناها « رئيس نوبة الحراسة» . انظر رتبة هذه الطائفة من الخصيان في ص ٦٥٨ حاشية رقم ٢ ، وانظر سائر اختصاصاتها في ص ٦٦٠ حاشية رقم ٤

لا يسمح لأحد بدخولها أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد وعدد كبير نسبياً من أشباه الرجال . أما الرجل الواحد فهو السلطان . أما أشباه الرجال فهم الخصبان - وهم عبيد بيض وسود - استوصلت من أجسامهم أعضاء التناسل . وبذلك ينتفى منهم كل خطر أو شبهة خطر أو مظنة خطر على ساكنات أجنحة الحرير ومما يدل على صرامة النظام الموضوع لأجنحة الحرير السلطاني أنه حدث على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) أن تجرأ أحد التجار من رعايا جمهورية البندقية وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحرير السلطاني واستخدم نظارة تقريب المسافات *une lunette d'approche* وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته ، فأمر السلطان بشنقه فوراً (١) . وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجماناً - مترجماً - للسفير الفرنسي في إستانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي ، مارشيل Marecheville ، التماساً للعفو عنه .

ويلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي . وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية . وكان احتجاب النساء من أبرز سمات هذه المجتمعات . فلم يأت الثمانيون بجديد في هذا الصدد ، بل إنهم احترموا تقليداً إسلامياً موروثاً وراسخاً . ولذلك لم يكن يسمح لأية سيده - ابتداء من زوجات السلطان حتى الخاديات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة ، حين كان السلطان يصحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية . وكانت القاعدة العامة هي ضرورة التواجد الدائم داخل أجنحة الحرير السلطاني . وإذا أرادت إحدى سيدات الفئة الأولى وكذلك بنات السلطان التنزه في حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل أولاً على إذن من السلطان شخصياً ، فإذا استجاب السلطان اتخذت سلطات القصر احتياطات

Lavisse et Rambaud ; op. cit., t. v, p. 853 .

(١)

شديدة لمنع أى شخص من النظر إليها . وقد أخذت كلمة حريم Harem فى ذلك الوقت مدلولين ، هما : « الممنوع forbidden والمقدس (١) sacred وتطبيقاً لهذا المعنى المزدوج ، فإن عبارة الحريم السلطاني تعنى الشئ المقدس والمحرم على الغير الاقتراب منه أو النظر إليه سوى السلطان والخصيان وروسائهم أى أخوات الخصيان .

معيشة السلطان وسط الحريم :

وكانت توجد فى منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق المنسقة أجمل تنسيق ، وإلى جانبها عدد من الساحات المكشوفة . وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم ، وتحوى غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبيرة كان يودى فيها الصلاة ، ويستقبل فيها قريباته المتزوجات . وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه الكايا ، وهى من كبرى موظفات الحريم السلطاني ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التى يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم سواء فى الليل أو فى النهار ، وعلى نزهاته مع البعض منهن فى حدائق أجنحة الحريم . وكان يطلق على هذه الزيارات « خلوت همايون » (٢) أى الخلوة السلطانية . ولكى يتم الإعلام بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يلبس صندلاً من فضة كى يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام (٣) . أما إذا فاجأهن السلطان بوجوده فى منطقة الحريم فإنه كان من قواعد البروتوكول ألا تنتظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان ، بل يغضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياءً وخفراً (٤) وكان السلطان يتمتع باحترام يفوق ما يتمتع به سائر البشر (٥) . ويرى أحد المؤرخين الإنجليز أن الحريم السلطاني بهذه القيود الثقيلة المفروضة على ساكناته

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part I, p. 72. (١)

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., Vol. VII 82. : أنظر كلامن. (٢)

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. Cit., Vol. 1 Part. p. 329 N.8.

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit. Vol. VII, p. 62. (٣)

Loc. cit. (٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol I, Part I, p. 76. (٥)

كان سجنًا للعبيد a prison of slaves ثم عمم هذا الرأي على حاشية السلطان (١). ويذهب مؤرخ أمريكي إلى القول بأن الحریم السلطاني ينتمى إلى نظام القولار أى عبید السلطان . ويستثنى من هذا التعمیم أولاد السلطان وبناته . أما سائر السيدات والفتيات اللاتي كن يقمن في منطقة الحریم فكن عبيدات السلطان (٢).

نساء السلاطين :

ليست الحياة الخاصة لرئيس الدولة أياً كان لقبه : إمبراطوراً ، أو سلطاناً ، أو ملكاً ، أو أميراً - ملكاً خالصاً له ، لأن هذه الحياة الخاصة والشخصية ، في استقامتها أو في عوجها ، ترك بصمات قوية على مصائر الدولة . وقد كان لسلاطين الدولة العثمانية مواقف معينة من تعدد الزوجات ، والإنسال من الجوارى . والزواج من الكتائب الأجنبية . ولذلك نرى لزماً علينا في هذه الدراسة أن نمر مروراً سريعاً على المبادئ العامة للشريعة الإسلامية فيما يختص بهذه الموضوعات الثلاثة التي تعد مدخلاً ضرورياً توضيح مدى استفادة السلاطين أحياناً من الرخص المقيدة التي جاء بها الإسلام ، أو مدى استغلالهم لها أحياناً أخرى . فقد كان لمسلك السلاطين تجاه هذه المسائل الثلاث آثار خطيرة ، إذ أصبح عدد كبير من نساء الحریم السلطاني مراكز قوى خطيرة سواء في السياسة الداخلية أو في السياسة الخارجية للدولة .

الإسلام وتعدد الزوجات :

أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . ولكنه وضع لهذا التعدد قيوداً وشروطاً منها : ألا يحتفظ الرجل بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد ، واشترط أن يلتزم الزوج بإقامة العدل بينهن . « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فلن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا (٣) » (٤) .

Ricault Paul (Sir) ; op. cit., p. 16.

(١)

Lybyer A.H.; op. cit., p. 56 .

(٢)

(٣) أى تجوزوا ، يقال عاك الحاكم إذا جار .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٣ .

وقصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بين زوجاته في المعاملة وفي الحقوق الظاهرة مثل توزيع مبيته عندهن والإنفاق عليهن وما إلى ذلك ، فلا يكون الأساس في معاملة الزوج لزوجاته الزوجة الحديثة والزوجة القديمة ، أو الجميلة والقيحة ، أو الزوجة التي تنتمي إلى أسرة غنية والأخرى التي تنسب إلى أسرة فقيرة . وفي الحديث الشريف « من لم يعدل بين نسائه جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . أما العدل في توزيع عواطف الرجل نحو زوجاته ، وهو ما يعبر عنه بالميل القلبي ، فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ما اتقى إظهاره في المعاملة وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات . « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء (١) ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل (٢) فتلوهوا (٣) كالمعلقة (٤) ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » (٥) .

وهذا القيد الذي وضعه الإسلام لتعدد الزوجات ، وهو أن يلتزم الزوج نحو زوجاته بالعدالة المطلقة الشاملة فيما ظهر منها وما بطن ، إنما هو شرط بعيد المنال . فإذا عرف الزوج أن في نفسه ضعفاً أو عدم مقدرة على تحقيق هذا العدل المطلق الشامل بين زوجاته ، فالحلال زوجة واحدة فقط ، وما سواها محظور . « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . والنص القرآني الشرطي يؤكد هذا المعنى هنا . ويفسره بأن التحديد بزوجة واحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور « ذلك أدنى ألا تعولوا » . والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه - أي إلى اجتناب الظلم - واجبة . والوسيلة إلى الظلم هنا هي التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هي التوحيد (٦) .

(١) في المحبة

(٢) إلى الزوجة التي تكون لها حياً يفوق حباكم للزوجات الأخريات ، فتؤثرون الزوجة المفضلة بكثرة الإنفاق عليها وقضاء الوقت عندها ، وما إلى ذلك .

(٣) تتركوا الزوجة المبال عنها . وهذا الفعل لا يستعمل إلا في المضارع والأمر .

(٤) أي تتركوا مثل هذه الزوجة كالمعلقة لا هي ذات بعل ولا هي أم ، أي لا هي متزوجة ولا هي مطلقة .

(٥) سورة النساء ، آية رقم ١٢٩ .

(٦) سيد قطب : في ظلال القرآن . الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، طبع دار إحياء الكتب

العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، د . ث ، ص ٨٤ .

ولكن تواجه الجماعات البشرية في مسيرتها عبر العصور والدهور والحقب ظروفًا سياسية ، أو أزمات سكانية ، أو حالات اجتماعية تجعل تعدد الزوجات علاجاً لهذه الحالات الطارئة . والإسلام جاء لجميع الأجناس وكل الأجيال ، ولكل زمان ومكان . فهو يتسم بالمرونة ولا يقف جامداً لزاء هذه المشكلات التي تفرض نفسها على البشرية سواء كانت شعوباً أو أفراداً .

والظروف السياسية ، وهي التي تهمننا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة ، تتمثل في أن يرى الحاكم ، أيّاً كان لقبه ، لدواعي الحكمة السياسية وإجراءات الأمن القومي ، أن يصهر إلى عدد من العائلات أو القبائل الكبرى ذات البأس والثراء والعصبية والنفوذ والكثرة العددية في أفرادها وبطونها ، فترتبط مصالح هذه العائلات أو القبائل بمصالح الحاكم ، ومن ثم تشد أزره في مواجهة خصوم نظام الحكم الجديد ، وبذلك يتوطد مركز الحاكم وتستقر دعائم الحكم . ومما هو جدير بالذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان وقتذاك في شرح الصبا وربيعان الفتوة واكتمال الرجولة . وظلت السيدة خديجة وحدها زوجه ثمانية وعشرين عاماً حتى تخطى الخمسين لم يشرك معها زوجة أخرى على امتداد هذه السنوات الطوال على الرغم من أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب في ذلك العهد ، وعلى الرغم من أنه كان لمحمد عليه الصلاة والسلام مندوحة في الزواج على خديجة لأنه لم يعيش له منها ذكر في وقت كان وأد البنات أمراً درج عليه المجتمع الحجازي بعامة والمجتمع المكي بخاصة ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفاً . وقد ظل عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة سبع عشر سنة قبل بعثته وإحدى عشرة سنة بعده ولم يفكر قط في أن يتزوج عليها ، ثم هو بعد أن يتخطى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات على القول الراجح (١) . وكان الهدف من تعدد الزوجات هو توثيق أواصر الجماعة

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،

الإسلامية الناشئة . فهو لم يتزوج بهذ العدد من النساء بدافع من شهوة او غرام . ومع ذلك فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يتهيب من عجزه عن إقامة العدل بينهن ، وتقصد بالعدل هنا توزيع ميله القلبي نحوهن توزيعاً متساوياً، ولذلك كان يقول عند قسمه (١) بين أزواجه « اللهم إن هذا قسمي فيما أملك . فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » (٢) .

وقد أخذ عدد كبير من رؤساء الدول الإسلامية في العصور الوسطى مبدأ تعدد الزوجات لهذا السبب السياسي ، كما أخذ به الملوك الأوائل لبعض الدول الإسلامية الكبرى في التاريخ المعاصر لهذا السبب أيضاً .

أما الأزمات السكانية فقد تندلع حروب أو تنشب ثورات ، وتحصد هذه وتلك من الرجال أضعاف ما تحصد من النساء ، بحيث يصبح عدد النسوة ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، فيقل عدد الرجال الصالحين للإنسال ، ويكون التعمد علاجاً لاختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث ، وصوناً للمرأة من الدنس ، وتعويضاً للأمة عما فقدت .

أما الحالات الاجتماعية فن بينها مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه . وهناك بواعث أخرى تساق في هذا الصدد مثل القول إن في بعض الرجال طاقات حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة، ومن ثم يصبح تعدد الزوجات أمراً لا غناء عنه لأمثال هؤلاء الرجال . والواقع أن هذه مبررات يلوذ بها بعض المخلوقات ممن تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم في الحياة رغبات جنسية جارفة يدعمها أنهم أوتوا نصيباً من المال الموروث . وتصبح الممارسة الجنسية هي شغلهم الشاغل ، بل هي وظيفتهم الوحيدة في الحياة لا يبغون عنها حولا . ومما لا جدال فيه أن أمثال هذه الخلائق هم ضحايا تربية فاسدة ونتاج بيئات يعيش الجهل والحماقة على عقول أصحابها . وإن الحياة المنتظمة والعلم الحديث

(١) القسم بفتح القاف وسكون السين هو توزيع الميث بين الزوجات

(٢) محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥٧ ، ١٣٧٧ م

كفيلان بالتخفيف من حدة هذه الحيوانية الشهوانية عن طريق إعلاء الغريزة والتسامى بها Sublimation أولاً ثم إبدالها Substitution ثانياً .

نخلص من هذا العرض السريع لأهم مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يختص بتعدد الزوجات إلى عدة حقائق ، نذكر منها :

أولاً : ينصح الإسلام بالاكْتفاء بالزوجة الواحدة في الحياة العادية ، ويشيد بفضل الزوجة الواحدة لمجرد الخوف من عدم إقامة العدالة في شتى صورها وأشكالها بين الزوجات مع التأكيد بأن هذا العدل غير مستطاع . ويرى أحد كبار رجال الفقه المحدثين أن الزواج الأمثل في الإسلام هو الزواج بواحدة ، لأن فيه بعداً عن نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى بهذا الزواج الأفضل والأمثل إلا أمثال الرجال ، ثم يتساءل عما إذا كان الرجال جميعاً من هذا الطراز ؟ (١) .

ثانياً : أما التعدد فهو في أصله رخصة ، وهو ضرورة تواجه ضرورة ، هو إجراء أمن قومي في الظروف السياسية غير العادية ، وهو صمام أمن في حالة كثافة عدد السكان الإناث بالنسبة لعدد الذكور ، وهو وقاية خلقية في الحالات الاجتماعية الصارخة .

ثالثاً : لم تجد البشرية حتى اليوم حلاً أفضل من نظام التعدد كعلاج لتلك الظروف الاستثنائية . فقد جربت الإنسانية حلولاً أخرى أدت إلى عواقب وخيمة خلقياً واجتماعياً . وأباح الإسلام نظام التعدد ، ووضع في تطبيقه قيوداً كانت أقصى ما يمكن من الاحتياط (٢) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن . مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٨٤-٨٥ .

وانظر له أيضاً

السلام العالمي والإسلام . الطبعة الأولى . مكتبة وهبه شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقاً) بمبدين . القاهرة . وقد عالج في إسهاب موضوع تعدد الزوجات في فصل عنوانه « سلام البيت » .

زوجات السلطان :

ارتاحت الغالبية العظمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات والذي جاء به الإسلام ، والتزموا بالشرط العددي الذي ورد في القرآن الكريم ، وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد . وليس معنى ذلك أن جميع السلاطين تزوجوا أربع زوجات ، بل لأنهم تزوجوا أكثر من زوجة واحدة ، تزوجوا مثني ، أو ثلاث ، أو رباع ، . ولكن المهم أنهم لم يتخطوا بأى حال الحد الأقصى لعدد الزوجات المقرر في الشريعة الإسلامية . وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات ، وُلدن حرائر ، وعشن حرائر ، ومتن حرائر ، بمعنى أنهم لم يقعن في حياتهن في الأسر ، ولم يخطفنهن أحد من تجار الرقيق ، ولم يحصل عابهن السلاطين عن طريق الشراء بالمال أو الهدايا . وقد تزوجهن السلاطين بعقود زواج شرعية . وقد نهج هذا النهج السلاطين السبعة الأوائل ابتداء من عثمان الأول وانتهاء بالسلطان محمد الفاتح (١) . وقد حكم هؤلاء السلاطين السبعة حقبةً بلغت زهاء مائة واثنين وثمانين عاماً (١٢٩٩ - ١٤٨١) (٢) . ولكن حدث بعد ذلك

(١) كان هؤلاء السلاطين السبعة هم :

عثمان الأول (١٢٩٩-١٣٢٦)

أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩)

مراد الأول ابن أورخان (١٣٥٩-١٣٨٩)

أبي يزيد الأول المشهور باسم يلديريم أي البرق ، (١٣٨٩-١٤٠٢) وهو ابن مراد الأول.

محمد الأول بن أبي يزيد الأول (١٤٠٣-١٤٢١)

مراد الثاني ابن محمد الأول (١٤٢١-١٤٥١)

محمد الفاتح ابن مراد الثاني (١٤٥١-١٤٨١)

(٢) يستبعد بعض الباحثين من هذه الحقبة الفترة التي أحقبت هزيمة السلطان أبي يزيد الأول على يد المغول بقيادة تيمور الأعرج في معركة أنقرة في اليوم العشرين من شهر يونيو-حزيران - عام ١٤٠٢م ووقوع السلطان في الأسر . وقد ظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية ، ثم نشوب الحرب الأهلية بين أبناء السلطان أبي يزيد الأول وهم عيسى ، ومحمد ، وسليمان ، وموسى ، بسبب تنافسهم على العرش . واستطالت هذه الحرب الأهلية زهاء إحدى عشرة سنة (١٤٠٣-١٤١٣) وانتهت باعتلاء محمد هرش الدولة ، وقد عرف باسم السلطان محمد الأول =

أن جميع السلاطين الذين حكموا الدولة بعد محمد الفاتح قد نبذوا نبذاً تاماً الزواج من الحرائر بعقود زواج شرعية وانصرفوا إلى الجوارى الحسان اللاتي كان يزوج بهن القصر السلطاني (١) . وسنعرض لموضوع الجوارى في هذا الفصل .

وإذا كان أوامك السلاطين السبعة الأوائل قد التزموا بالشرط العمدى لتعدد الزوجات ، إلا أنهم أغفلوا الشرط الآخر ، وهو إقامة العدل بين الزوجات . كان لكل سلطنة وضع محدد ومقرر في البروتوكول العثماني . وهذا المركز يختلف علواً وهبوطاً عن مركز زميلاتها . فالسلطنة التي تنجب ولداً تميز عن زميلتها التي تنجب بنتاً . ويتبع هذا التمييز تمييزاً آخر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطنة . وفي العادة تظفر السلطنة والدة الإبن برعاية وتقدير يفوقان الرعاية والتقدير اللذين تحظى بهما زميلاتها على أساس أن ابنا هو ولي العهد . ولكن فيما عدا ذلك تقريباً كانت كل سلطنة تقيم في جناح خاص بها في الحريم السلطاني . كما كانت لكل سلطنة حاشية خاصة بها تضم سيدات وفتيات تقمن على خدمتها . وكانت هذه الحاشية تضم عدداً معيناً من الخصيان ورئيساً لهم يسمى أغا الطواشية أو أغا الخصيان ، يقوم فريق منهم بخدمة الزوجة بينما يقوم فريق آخر منهم بحراسة الجناح وبواباته والمسالك المؤدية إليه . وكان يبلغ عدد هؤلاء الحراس أربعين خصياً . أما الأغا فيتلقى رغبات السلطنة أو أوامرها ، فينقلها إلى السلطان في الحالة الأولى ، وإلى الصدر الأعظم في الحالة الثانية .

==وسمى أيضاً السلطان محمد شلي . ويخلص هذا الفريق من الباحثين رأياً إلى وجوب استبعاد
قتر؟ تلك الحرب الأهلية من هذه الحقب .

أنظر : دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ،
ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢١ - ٦٢٤ .

(١) يستثنى من هذا الحكم العام سلطانان توليا الحكم في النصف الأول من القرن السابع عشر تزوجا بعقود زواج شرعية نسوة من عامة المسلمين . وكانت واحدة منهن جارية فأعتقت .

الإسلام والزواج من الكتابيات :

يجيز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، سواء كانت يهودية أو مسيحية . وقد جاء في القرآن الكريم « اليوم أحل لكم الطيبات (١) ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل (٢) لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات (٣) من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن (٤) محصنين (٥) غير مسافحين (٦) ولا متخذى أخدان (٧) ، ومن يكفر بالإيمان (٨) فقد حبط عمله (٩) ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١٠) . وهذه الآية القرآنية الكريمة تذكر العفيفات الحرائر من الكتابيات جنبا إلى جنب مع العفيفات الحرائر من المسلمات . وهي سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان (١١) . كما أن هذه الآية الكريمة تشترط لزواج المسلم من الكتابية أن يدفع لها المهر . وأن تكون النية لدى الزوج هي الإعفاف والإحصان الذي يحصن به الرجل زوجته ويقبها زلات الحياة ، فلا يكون المهر وسيلة إلى اتخاذ الزوجة صديفة سراً يمارس معها السفاح .

- (١) الطيبات جمع طيب ، وهو ضد الخبيث .
- (٢) حل لكم أى حلال لكم .
- (٣) المحصنات هن الحرائر العفيفات عن الزنا .
- (٤) أ: ورهن بمعنى يهودهن .
- (٥) محصنين أى عفيفين . مشتقة من أحصن أى عف .
- (٦) مسافحين أى زانين ومجاهرين بالزنا .
- (٧) أخدان جمع خدن (بكسر الخاء وسكون الدال) أى الصديق فى السر على وزن حمل وأحبال . وتستخدم تلك اللفظة للدلالة على الذكر أو الأنثى . والمعنى : ولا متخذى صديقات سراً .

- (٨) يقصد بالإيمان فى هذه الآية الكريمة : شرائع الإسلام .
- (٩) حبط عمله أى بطل ثواب عمله .
- (١٠) سورة المائدة : آية رقم ٥
- (١١) إن المسيحي الكاثوليكي يتحرج من الزواج بأرثوذكسية أو بروتستانتية أو بأية فئاة تعتنق مذهباً مسيحياً آخر . ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة .
انظر :

وقد وضع علماء الشريعة عدة مبادئ فيما يختص بالزواج من الكتابيات نذكر من بينها :

- ١ - أن يكون جميع الأولاد مسلمين بدون فرق بين الذكور والإناث .
- ٢ - عدم التوارث بين الزوجين إذا مات أحدهما ، لأن شرط إرث المسلم اتحاد الدين . أما الأولاد فيرثون والدهم ولا يرثون والدتهم .
- ٣ - يكون للزوجة الكتابية كل حقوق الزوجة المسلمة ، وعليها كل واجباتها نحو زوجها وأولادها فيما عدا التوارث (١) .

وإذا كان الإسلام قد حرم زواج المسلم من الوثنية وأجاز زواجه من الكتابية ، فلأن الكتابية تلتقى مع المسلم في لب الفضائل الخلقية والاجتماعية ، لأن الأديان السبوية في أصلها واحد . ومن الممكن أن تستمر العشرة الزوجية بينها معتدلة من غير استهواء . وكان الرعيل الأول من الصحابة لا يتحمس للزواج من الكتابيات ، وإن كانت قلة عددية منهم قد أقدمت على الزواج منهن . ونذكر على سبيل المثال طلحة بن عبيد الله . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن الزواج من الكتابيات إلا إذا كان الزواج يستهدف غرضاً سامياً كارتباط سياسى يجمع القلوب ويؤلف بينها أو نحو ذلك (٢) . ويرى بعض الفقهاء أن الأفضل ألا يتزوج المسلم إلا مسلمة لقيام الألفة من كل وجه (٣) .

وعلى الرغم من أن الإسلام يجعل الرجل قواماً على زوجته في كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، إلا أنه لا يجيز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغمها على ترك دينها ، كما لا يجيز له أن يمنعها من أداء عباداتها وشعائر دينها ، بل إن بعض أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية يرون أنه ينبغي عليه أن يصحبها إلى حيث تؤدي هذه العبادات في كنيسها أو بيعتها إذا رغبت في ذلك (٤) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٤) دكتور على عبد الواحد واى : الحرية في الإسلام . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨

البواعث السياسية والعسكرية وراء زواج السلاطين من الكنائيات الأجنبية :

عمد عدد كبير من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكنائيات الأجنبية. ونقصا منهن في هذه الدراسة المسيحيات اللاتي لم يكن من رعايا الدولة العثمانية. فكان الحریم السلطانی فی أعلى مراتبه يضم غالباً زوجة كتابية أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات . وقد بدأت ظاهرة الزواج من الكنائيات الأجنبية منذ نشوء الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) الذى تنسب للدولة والأمة إليه . فقد رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ومسيحية معادية تتربص بالعثمانيين الدوائر . وأراد تجنب إمارته مواجهة حربية ضد تكتلات إقليمية عسكرية . وأدرك أنه لا يستطيع - بالإمكانات المحدودة التي لديه - ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحل للدولة التي يتطلع إلى تكوينها ، فإمارته ذات تعداد سكانى قليل . فلجأ إلى وسائل متعددة سبق أن عرضنا طرفاً منها (١) . وكان من بينها مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة . فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا (٢) ، ورشح سيده يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان (٣) وكان يطلق عليها نيلوفير Nenuphar أو Nilufer ومعناها زهرة اللوتس (٤) . وقد وضع هذان العاهلان تقليداً للبنين والحفدة من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة وهو الزواج من الكنائيات الأجنبية (٥) . وقد أنجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابناً تولى العرش من

(١) انظر ص ٤٠ في هذه الدراسة .

(٢) تسمى أرمينيا الصغرى ، وهى دولة مسيحية .

(٣) يقال إن عثمان أسر هذه السيدة في إحدى حروبه ، وبقيت على المسيحية .

(٤) Lybyer A.H.; op. cit., p. 17 .

(٥) من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع في تطبيق سياسة الزواج من الكنائيات الأجنبية بين أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة أنه في معاهدة سكوتارى Scutari (١٣٥٩) التي عقدت بينه وبين حنا باليولوج إمبراطور الدولة البيزنطية تقرر أن يتزوج خليل ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور حنا باليولوج . وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات . ويبدو أن هذا الزواج قد أدرج في صلب المعاهدة ضماناً لتنفيذها ، لأنها أبرمت أصلاً على أساس اعتراف الدولة البيزنطية بفتوحات الدولة العثمانية في إقليم تراقيا في البلقان .

بعده باسم السلطان مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) . وقد حذا هذا السلطان حذو أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى سيريشمان Sisichman بعد أن طوقه العثمانيون في نيقوبوليس على نهر الدانوب . وارتضى هذا الملك أن يدفع الجزية للعثمانيين وأن يزوج ابنته للسلطان مراد الأول (١) . ولما تولى العرش السلطان أبو يزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) أراد أن يتخذ من دولة الصرب ، أو بعارة أدق ما تبقى منها ، دولة حليفة له كي يجعل منها دولة حاجزة un état tampon بينه وبين دولة المجر ، إذ كان يخشى أن تنهز هذه الدولة فرصة انشغاله في الجبهة الأناضولية فتغير دلي الأقاليم العثمانية في البلقان . فتزوج من أوليفيرا Olivéra ابنة ملك الصرب لازار Lazare الذى كان العثمانيون قد ذبحوه عقب معركة قوصوه الأولى Kossovo عام ١٣٨٩ رداً على قيام صربي يدعى كويلتتش ميلوش K. Miloch بقتل السلطان مراد الأول (٢) . وتمشياً مع السياسة الودية التي انتهجها أبو يزيد الأول ابن السلطان القليل وافق أبو يزيد على أن يحكم بلاد الصرب ابنا الملك لازار ، حسب قوانين الصرب وعاداتهم وتقاليدهم ، ويدينان له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وعادداً معيناً من الجنود يشتركون في فرق خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني . واتخذ خطوات أخرى لاسترضائهما (٣) بجانب زواجه من أختها أوليفيرا . وسار على هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الطبعة الأولى ، صص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٢) بينما كان السلطان مراد الأول يتفقد ميدان القتال بعد المعركة إذا به يجر صريماً

ويموت لساعته في الخامس عشر من شهر يونيو - حزيران عام ١٣٨٩ إذ تقدم منه هذا الصربي ، وكان قد أصيب بجراح في أثناء المعركة وأراد أن ينتقم لهزيمة بلاده . وظن السلطان مراد أن لديه شكوى فسمح له بالتقدم نحوه فطمته بخنجره . وقد بذل العثمانيون جهوداً جبارة حتى استطاعوا أسر لازار ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء . وصدرت الأوامر بذبحهم جميعاً أمام جثمان السلطان مراد الأول المسجي في ساحة القتال .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الطبعة الأولى ، صص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٠

النهج - الزواج من الكتابيات الأجنبية - السلطان مراد الثاني (١٤٢١) -
١٤٥١) فقد تزوج من مارا Mara ابنة أمير الصرب جورج
برانكوفيتش G. Brankovitch . وكانت هذه الزيجة من
الزيجات السياسية الناجحة القليلة التي أثمرت ثماراً طيبة في مجال العلاقات
الدولية . فقد كانت سبباً في توثيق عرى التحالف بين الدولة العثمانية
ودولة الصرب التي امتنعت عن تقديم أية مساعدة للقائد حنا هنيادي (١)
J. Hanyade حين زحف في أواخر سبتمبر - أيلول - عام ١٤٤٨
على رأس جيش يتكون من ٢٥,٠٠٠ رجل من الألمان وسكان والأشيا
وبوهيميا والمجر و ترانسلفانيا . وأدخل في تقديره تأييداً عسكرياً يظفر
به من الصرب . ولكن خابت تقديراته . وزحف مراد الثاني وهو يقود
جيشاً بلغ عدده خمسين ألف جندي وتقابل مع القوات المتحالفة في سهول
قوصوه في ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٤٤٨ واستمرت المعركة
ثلاثة أيام حسوما . وانتهت في ١٩ من ذات الشهر بفوز ساحق للعثمانيين
الذين اقتحموا معسكر هنيادي فهرب ، وحاول أن يشق طريقه عبر الدانوب
فوقع في أيدي أعدائه الصرب . ولما توفي السلطان مراد الثاني بالسكتة القلبية
في اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٤٥١ خلفه ابنه السلطان
محمد الثاني أو الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وكإجراء أمن داخلي أمر بترحيل

(١) حنا هنيادي ابن غير شرعي لملك المجر سيجسموند ، أنجبه من سيدة مجرية . وعين
حاكماً لإقليم ترانسلفانيا المجرية . وأظهر صفات حربية ممتازة في صد العثمانيين حين كانوا يتوغلون
في ترانسلفانيا . وأصبح حديث الأوساط الرسمية والشعبية في أوروبا ، وازداد اعتداداً بنفسه
وعتواً واستعلاءً ، وأخذ على عاتقه عبء الكفاح عن المسيحية والتصدي للعثمانيين ، وباركت البابوية
حركة الجهاد الديني التي تصدرها . وقد أوقع بالعثمانيين عدة هزائم متلاحقة ، ثم انتصر العثمانيون
عليه في معركة فارنا Varna في اليوم التاسع من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٤٤٤
وقتلوا فيها فلاديسلاف ملك المجر . وقد حكم هنيادي بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنه القاصر .
انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع أئح . مرجع سبق ذكره ج ١ ،

زوجة أبيه - مارا - إلى موطنها الأصلي في الصرب كى يأمن شر الدسائس التي قد تحيكها ضده في أوساط الحريم السلطاني وكانت والدة السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ - ١٦٠٣) قد جرى بها من البندقية . وهناك مثال آخر صارخ ، فإن سيدة يونانية تزوجت السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) وأنجبت منه ولدين تربعا على عرش الدولة الواحد بعد الآخر ، وهما مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) وإبراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) . ويطول بنا الحديث إذا مضينا في ذكر الزوجات الكتائيات الأجنبية التي تزوجن سلاطين الدولة . ونكتفي هنا بذكر الحقائق التالية وبعض النتائج التي ترتبت عليها :

أولاً : إن الغالبية العظمى من السلاطين أقدموا على مثل هذه الزيجات بحيث ندر من السلاطين من لم يدخل في حريمه زوجة كتائية أجنبية وقد أصبحت هذه الزيجات تقليداً درج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

ثانياً : إن سلاطين الفترة الأولى كان لهم من قوة الشخصية ومضاء العزيمة والانكباب على تصريف شئون الدولة ما جعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعي فقط كزوجة للسلطان ، فلا تتدخل في شئون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصدر الأعظم والوزراء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة . أما سلاطين الفترة الثانية فلإن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً كاد يكون تاماً لأولئك الزوجات . حتى أصبحن مركز قوة خطير . وكان بعض هؤلاء الزوجات يتدخلن في السياسة العليا للدولة ويوجهن الوجهة التي ترضيها . وهكذا استفحل خطر أولئك الزوجات وتركن بصمتهن بارزة قوية في تاريخ الدولة .

ثالثاً : إن زواج سلاطين الفترة الأولى بالكتائيات الأجنبية كان يتم في ظروف متباينة ولدوافع مختلفة بحيث كان لكل زواج ملبساته ودوافعه . كان بعض السلاطين يطلبون أو يسعون لمصاهرة أسرة حاكمة في دولة مجاورة توثيقاً لعلاقات حسن الجوار . وكان البعض الآخر يتزوجون الكتائية الأجنبية

تنفيذاً لبند في المعاهدة التي فرضوها على دولة أوروبية منهزمة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة . وكان البعض الثالث يتزوج الكتائية الأجنبية كظهور عملي للتحالف العسكري الذي تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمي إليها الزوجة الكتائية أو على الأقل لتلتزم حكومتها بموقف الحيدة في حرب تعزز الدولة خوضها ضد أحلاف صليبية أوروبية تكونت للقضاء على الدولة العثمانية . ولذلك كانت تغلب البواعث السياسية أو العسكرية على معظم هذه الزيجات .

رابعاً : إن عدداً من الزوجات الكتائيات الأجنبية اعتنقن الإسلام بمجرد التحاقهن بالحريم السلطاني . وظل عدد آخر منهن على المسيحية بموافقة أزواجهن السلاطين ابقاء على مشاعر الأصهار الجدد وضماناً لتحقيق الأهداف السياسية أو الحربية التي كانت وراء زواج السلاطين بهن . ومع ذلك فإن أولئك الزوجات كن يدخلن في الإسلام بعد فترة قد تطول حيناً وقد تقصر أحياناً أخرى تبعاً للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة الأجنبية التي تنتمي إليها الزوجة الكتائية الأجنبية .

خامساً : إن بعض الزوجات الكتائيات كن يتظاهرن باعتراف الإسلام ، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين ، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية . ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوعها حباً وولاء لوطنها الأول ، وتعمل على تنفيذ برنامج من وحي حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول ، حتى ولو كان هذا البرنامج ينطوي على الإضرار بمصالح الدولة العثمانية . التي جعلت منها سلطنة لأكبر دولة إسلامية ومن كبرى دول العالم .

الإسلام والجواري :

الجارية ، في الشريعة الإسلامية ، هي كل امرأة أخذت أسيرة في الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأي سبب من الأسباب ، أن تسبي المسلمة وتسرق ، أو هي التي تنجها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أو كتائية . أو هي التي تؤخذ شراء من أسواق الرقيق حيث يبيعها النخاسون .

وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتائيات اللاتي تعود أصولهن إلى ديار الإسلام . وإنما يأتون بالرقيق من البلاد غير الإسلامية ، ويتاجرون به ، لأن الإسلام حرم السبي منذ قضاائه على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو .

ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام عرفوا نظام الجوارى . وكان لأثرياء قريش وزعمائها عدد من الجوارى انصرفن إلى الغناء أو الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين . ولما جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والسيدات ما حدا رق الحرب ، فقد أبقى عليه للضرورة ، كما سنوضح ذلك في الفصل الثاني والعشرين الخاص بالعبيد الخصيان . وكانت الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام فرصة مواتية لحصول المقاتلين العرب على أعداد وفيرة جداً من الجوارى ، لأن العرب إذا دخلوا مدينة عنوة ، ولم تكن قد وضعت شروط للفتح ، كانوا يعتبرون المدينة المفتوحة عنوة ملكاً لهم بما فيها من أرض ومن عليها من محاربين وشيوخ ونساء وأطفال . وكانوا يتصرفون بهم تصرف المالك . وتصبح كل من تقع في أيديهم من نساء المحاربين وبناتهم إماء لهم ينقلونهن معهم إلى بلادهم مع الأسلاب الأخرى . ويوزعونهن بينهم بعد أن يقدموا النسبة المقررة إلى الخليفة أو بيت المال وهي الخمس ، ويحولون ما يتبقى منهن إلى منازلهم . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة وساحقة على عهد الدولة الأموية . وكان العرب قد انساحوا غرباً في شمالي إفريقيا والأندلس وجنوبي فرنسا ، وشرقاً نحو الهند وما وراءها . ويقال إن موسى ابن نصير فاتح المغرب والأندلس لما عاد إلى دمشق كانت معه جموع كثيفة العدد بلغت عدة آلاف من عذارى العائلات القوطية النبيلة (١) . ثم اشتدت ظاهرة الجوارى بروزاً على عهد الدولة العباسية . ولما هدأت حركة الفتوح الإسلامية اتجه حكام المسلمين وأثريائهم إلى الحصول على

(١) دكتور جبور عبد النور : الجوارى . الناشر دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة

الثانية ، د.ت ، ص ٢٣-٢٧ .

الجوارى عن طريق الشراء من تجار النخاسة بأثمان باهظة . وكانت قصور دمشق وبغداد والفسطاط وعواصم مصر الإسلامية الأخرى التي تعاقب إنشاؤها وكذلك قصور قرطبة وإشبيلية وغيرها مليئة بالجوارى الفاتنات . وقد حفلت حياتهن بالترف : كن يرتدين الشفيف من الملابس ، ويتفنن في الزينة ، وفي تعطير أجسامهن ، وإبراز محاسنها ، ويتناولن أشهى الأطعمة ، ويظفرون بقدر كبير من الإعزاز والإكرام . ومن أجلهن أهدرت الأموال وقيل عنهن تعبير لاذع يصور جانبا كبيرا من الحقيقة ، فأطلق عليهن « سلع الجمال والمتعة » .

وكان عددهن يفوق عدد السيدات الحرائر في هذه القصور . وهكذا تسربت الجوارى الحسان إلى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة العسكريين ومنازل الأثرياء . وكانت غالبية الجوارى يمارسن ألوانا من فنون النشاط وبث المرح في قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء (١) ، وسيطرن على عقول مواليهن حتى انقادوا لهن وأصبحوا أداة طيعة في أيديهن . وحاول بعض الخلفاء الأمويين ولا سيما معاوية إقصاء الجوارى عن النفوذ وحصرهن في الخلدور حتى لا يتناولن إلى السلطة . وذهب المتحفظ بالأشياخ المتزمتمين إلى الخط من أبناء الجوارى ونصحوا بالابتعاد عنهن لأنهن يفسدن العرق العربي . ونظر كثير من هؤلاء إلى المهجناء (٢) نظرة أمهان أول الأمر . وكان من بينهم أبناء خلفاء وأشراف . وقد خبت هذه الكراهية على تعاقب السنين . وأقبل العرب إقبالا شديدا على الزواج من الجوارى الحسان . وكانت هناك عدة عوامل وراء هذا الإقبال المتزايد ، منها : اعتقاد العرب أن زواجهم من الجوارى يؤدي إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء وإلى ظهور أجيال صاعدة تتمزج فيها الدماء العربية بالدماء الأجنبية ، إذ كانت الجوارى من بلاد شتى من أوروبا وآسيا . وفي الحديث الشريف «اغربوا لا تفضوا» (٣) .

(١) كانت تطلق لفظة قينة - بفتح القاف وسكون الياء - على الأمة البيضاء التي تجهد الغناء .

(٢) المهجناء جمع هجين ، وهو الشخص الذي أبوه عربي وأمه أمة .

(٣) ضوى الولد إذا ضم جسمه وهزل ، فهو ضاوى (مثقل) . والضاوى - بفتح الصاد =

العرب بلون الجوارى المشرق ، وسرهم أن يجيء أبناؤهم على شيء من بياض
البشرة على عكس أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . ومن هذه
العوامل أيضا انتقال المحاربين العرب من بلد إلى بلد وابتعادهم عن العريبات
الخالصات ، ثم كان فوق ذلك كله الميل الجنسي العنيف نحو جوار فانتات
حسناوات الوجوه ، زرق العيون ، ناعمات البشرة ، تمثلت فيهن روعة
الجمال الأوروبى أو التركى أو الشركسى .

أخذ نفوذ الجوارى يشتد في بلاط الخلفاء . وكن أقرب النساء إلى
قلوبهم ، وتدخنن في شئون الدولة ، وأصبحن المرجع الرئيسى في كثير من
المسائل الهامة . وكان الخلفاء يستجيبون لرغباتهن أو توجيهاتهن أو أوامرهن .
وقن بأدوار حاسمة في تاريخ العباسيين بحيث غلبن مركز قوة خطير . وكان
هارون الرشيد أول من أسرف من العباسيين في تقريب الجوارى إليه ، بل وفي
تفضيلهن على الحرائر . وكان معظم أولاده من الإماء (١) . وأسهمت الجوارى

وتشديدها وفتح الواو - هو الهزال . وكان العرب يمتقدون أن ولد الرجل من قريته يجىء
صاوباً نحيفاً .

(١) كان منهم :

أ - عبد الله المأمون ، كانت أمه جارية فارسية ، يقال لها مراحل ، وأصبحت أم ولد .
ب - القاسم المؤمن ، كانت أمه جارية ، يقال لها فصف ، وأصبحت أم ولد .
ج - محمد أبو إسحاق المعتصم ، كانت أمه جارية تركية ، يقال لها ماردة ، وأصبحت
أم ولد . وكانت أكثر الإماء خطراً . أثرت تأثيراً كبيراً على أبنائها لما تولى الخلافة وزيفت له
استدعاء الأتراك ، وشغلوا المناصب القيادية في أجهزة الدولة على حساب العرب والفرس . وانتزعوا
من الخلفاء كل نفوذ .

د - صالح ، أمه جارية ، يقال لها رثم ، وأصبحت أم ولد .

هـ - محمد أبو عيسى ، أمه جارية يقال لها عرابة ، وأصبحت أم ولد .

و - محمد أبو يعقوب ، أمه جارية ، يقال لها شذرة ، وأصبحت أم ولد .

ز - محمد أبو العباس ، أمه جارية ، يقال لها خبث ، وأصبحت أم ولد .

ح - محمد أبو سليمان ، أمه جارية ، يقال لها رداح ، وأصبحت أم ولد .

ط - محمد أبو على ، أمه جارية ، يقال لها دواج ، وأصبحت أم ولد .

ي - محمد أبو أحمد ، أمه جارية ، يقال لها كنان ، وأصبحت أم ولد .

أنظر :

الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . ج ٦ ، ص ٤٠٠

في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في بلاط الخلفاء لخلع خليفة وتعيين آخر •

وكما كانت الجوارى متعدّدات المصادر والأجناس والألوان ، متفاوتات في الجمال ، كن أيضاً مختلفات في الدين . إذ كن ينتمين عادة إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو الوثنية . أما المجوسيات والوثنيات فكن يدخلن في الإسلام . وتحولت غالبية المسيحيات واليهوديات أيضاً إلى الإسلام أو تظاهرن بالدخول في الإسلام حرصاً على مصالحهن أو تملقاً لأسيادهن اللذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شريعياً ، لأن اختلاف الزوجين في الدين كان - كما ذكرنا - يمنع أن يرث أحدهما الآخر . أما الجوارى اللاتي بقين في الرق فكن يحافظن في أغلب الأحيان على ديانتهم الأولى . وكان أسيادهن يقبلون هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق الإسلام ، وأكثر من هذا كانوا يسمحون لهن بالقيام بالطقوس الدينية في الأعياد والمناسبات الدينية . وكان المقربون إلى الخليفة المأمون يدخلون مجلسه فيجلون عدداً من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنانير (٢) وعلقن على صدورهن صلباناً من الذهب ، وأمسكن في أيديهن الخوص بمناسبة عيد

(١) من الأمثلة التي تساق في هذا الصدد ما حدث على عهد الخليفة المقتدر . فقد تول الخليفة بمساعدة الأتراك . وكان لا يزال صيباً في الثالثة عشرة من عمره . واعتقدوا أن في مقدرهم السيطرة عليه وممارسة شؤون الدولة باسمه لصغر سنه وضعف شخصيته . ولكنهم فوجئوا بوالده وكانت جارية رومية أصبحت أم ولد ، تستأثر بالنفوذ وتصرف في شؤون الدولة بحزم وكفاية مدة ربع قرن ، وهي أطول مدة تولي فيها أحد العباسيين الحكم وقتذاك . وتعرض الخليفة للعزل مرتين . ووقفت أمه إلى جانبه تبذل مساعيا وتضع الخطط لإعادته إلى كرسي الخلافة إلى أن نجح الحصوم في الفتك به .

وكانت هناك جارية أخرى من شيراز عاشت مركز قوة في الدولة أيام الخليفين المتقن والمستكن . وسمت في إقصاء الأول عن الخلافة وحرست غلامها السندي على سمل عينيه بقلمة حديد بحجة بعد أن اعتذر القواد عن عدم فقأ عينيه . وأرادت أن تسيطر على الخليفة الثاني ، ولكنه رفض أن يتيح لها أية فرصة للتدخل في شؤون الدولة ، فاصطنت له العديد من المشكلات إلى أن نجحت في القضاء عليه .

(٢) الزنانير جمع زنار وهو للنصارى . يقال تزير النصارى أي شد الزنار على وسطه . وزنارته بالشهيد ألبسته الزنار .

الشعانيين ، ومن في غاية البهجة والمرح . والخليفة المأمون ينظر إليهم دون أن يعترض عليهم (١) . فمن الخطأ القول إن المسلمين أكرهوا جواربهم على اعتناق الإسلام . وقد ذهب بعض حكام المسلمين إلى أبعد من هذا الحد في التسامح الديني . فبنى أحدهم ، وهو الأمير خالد بن عبد الله القسري عامل العراق للأمويين كنيسة خاصة لوالدته المسيحية ، إذ لم تكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص (٢) .

وكان يحدث أن بعض الحرائر كن يقدمن لأزواجهن عدداً من الجوارى الفاتنات من مالهن الخاص . فعند ما هام هارون الرشيد بحب « دنانير » جارية جعفر البرمكي . وازداد تردده عليها اشترت زوجته زبيدة عشر جوار جميلات وأهدتهن إليه لينصرف عن المضي في حب « دنانير » . وكان من بين هؤلاء الجوارى أم المعتصم وأم المأمون وأم صالح . وروى الجبرتي وهو يتحدث عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصلاحها وكاملها وبرها بزوجها تشتري له الجوارى الحسان من مالها وتعمل على تزيينهن بالذهب وارتداء الملابس الفاخرة وتقديمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب !

الدولة العثمانية لم تستحدث نظام الجوارى :

مخلص من هذا العرض إلى حقيقة تاريخية هامة هي أن سلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى في قصورهم ، بل كان هذا النظام قائماً وشائعاً في دول إسلامية كبرى سبقت قيام الدولة العثمانية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وما تفرع عن هذه الدول الثلاث الكبرى من دول ودويلات وكيانات سياسية مختلفة الأسماء والأنواع سواء في الشرق أو في الغرب .

نكاح الجوارى :

وقد أجاز الإسلام نكاح الجوارى إذا لم يكن في مقدور الرجل نكاح

(١) دكتور جورد عبد النور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٨٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠-٩١

الحرائر لضيق ذات يده وخشى المشقة في مغالبة دوافع الفطرة . والنصوص القرآنية الكريمة الواردة في سورة النساء تفضل الزواج من الحرائر أولاً ، ثم تبيح لأسباب قهرية نكاح الجارية . ولكنها تنصح بعدم الالتجاء إلى ذلك ، لأنه من الخير للرجل عند ربه إذا استطاع أن يصبر عن نكاح الجارية ، وإذا استطاع أن يغالب الشهوة البهيمية .

يقول الله سبحانه وتعالى « ومن لم يستطع منكم طولا (١) أن ينكح المحصنات (٢) المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم (٣) من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فأنكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمروف ، محصنات غير مسافحات (٤) ولا متخذات أخدان (٥) . فإذا أحصن فإن أتبن بفاحشة (٦) فعلهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت (٧) منكم ، وأن تصبروا خير لكم (٨) ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن (٩) الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (١٠) .

والمعاني المستفادة من هاتين الآيتين الكريمتين أن الزواج من الجارية أو

(١) سعة في المال . وأصله الزيادة والفضل . يقال طال على فلان يطول فهو طائل إذا أنعم عليه ورفعه مكاناً علياً .

(٢) المحصنات المراد هنا الحرائر المؤمنات .

(٣) أي ماملكت أيديكم من النساء المسييات في الحروب ولهن أزواج غير مسلمين : فهن حلال للسايين .

(٤) مسافحات أي زانيات .

(٥) سبق أن شرحنا مدلول هذه اللفظة في هذا الفصل .

(٦) معناها هنا الزنا .

(٧) العنت انكسار العظم في جسم الإنسان بعد جبره ، ثم استمرت هذه اللفظة لكل مشقة وضرر . يقال عنت يعنت عنتاً أي وقع في العنت .

(٨) أي وإن تصبروا عن الزواج بالأرقاء حتى تصيبوا ثراه فتزوجوا بالحرائر فهو خير لكم .

(٩) جمع سنة وهي الطريقة .

(١٠) سورة النساء : الآيتان رقم ٢٥ ، رقم ٢٦ .

الأمة ليس هو الزواج الأمثل . وليس ذلك كراهية لنكاح الجارية أو الأمة في ذاته ، ولكن لأن الكثيرين - كما سبق أن ذكرنا - كانوا ينظرون إلى أبناء الجوارى والإماء نظرة أدنى من نظرتهم إلى أبناء الحرائر ، وهي نظرة منبذة من نظرتهم إلى الجوارى والإماء أنفسهم . فإن آدميتهن في نظر هذا الفريق من الناس آدمية مهذرة ، أو أنهن من الناحية الإنسانية البحتة هابطات (١) . وقد ذهب بعض علماء الدين إلى القول بأن الشريعة رخصت نكاح الجوارى والإماء للضرورة (٢) .

أوضاع الجوارى في الفقه الإسلامى :

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظم أوضاع الجوارى من رق وعتق ، ووطء وزواج ، وإنجاب وطلاق ، وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية . واستهدفت هذه القواعد بوجه عام إتاحة الفرص أمام الجوارى للعتق وتضييق عدد من روافد رق الجوارى تمهيداً لنضوب معينه مع الزمن . وبهنا أن نذكر بعض القواعد العامة التى تتصل بهذه الدراسة .

أولاً : إذا وطأ السيد الجارية التى هى ملك يمينه وأنجب منها تغير وضعها القانونى إذ تصبح « أم ولد » (٢) . ولا يجوز له بعدئذ أن يبيعه أو يهبها أو يتصرف معها أى تصرف ينقل ملكيتها لآخر أو يعوق حريتها. ولا تعود « أم الولد » إلى الرق ، ويصبح أولادها - الذكور والإناث - أحراراً وينسبون لأبهم ويأخذون اسمه ويرثونه أسوة بإخوتهم وأخواتهم ممن ولدوا من أمهات حرائر . وتصبح أم الولد حرة عقب وفاة زوجها فلا يرثها الوارثون أو يستحوذ عليها الدائنون . وفى هذا الشأن قال عليه الصلاة والسلام « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » . ولما أنجب صلوات الله وسلامه عليه ابنه إبراهيم من سريته مارية قال « أعتقها ولدها » أى أن إنجابها

(١) سيد قلب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٨-١٠

(٢) دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح . ثلاثون جزءاً ، ج ٥ ، الطبعة

السادة ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م ، ص ٦

(٣) أم الولد مصطلح فقهى ، يجمع أمهات الأولاد .

منه هذا الإبن جعلها مستحقة للعتق بعد وفاته . واستنكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحاولات التي بلدتها بعض العرب لبيع أمهات أولادهم وصاح فيهم قائلاً : أفبعد أن اختلطت دماءكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن ؟ ! » .

ثانياً : إذا أعتق السيد جاريته ، وعقد عليها ، وتزوجها ، تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر .

ثالثاً : إذا كان الإسلام قد أذن للسيد في أن يتسرى بجواريه ، إلا أنه حرص في ذات الوقت على تدليل العقبات التي قد تقف في سبيل عتقهن . ومن ذلك أنه لم يقيد عدد الجوارى اللاتي يجوز للسيد امتلاكهن وتسريهن . فأجاز له أن يحصل على أى عدد يريد منهن متى كانت إمكانياته تسمح له بذلك على عكس القيد العددي الذي فرضه الإسلام على تعدد الزوجات ، لأن الكثرة العددية للجوارى كانت وسيلة عملية وسريعة وفعالة تؤدي إلى عتق الجوارى وحرية أولادهن واتصال نسب الجوارى وأولادهن بالسيد . ومن المعروف أن المتعة الجنسية كانت في مقدمة الدوافع وراء اقتناء الجوارى . ولا يجوز أن تقيد تلك الوسيلة بقيد عددي ، لأن مثل هذا التقييد يؤدي إلى تضيق منافذ الحرية أمام الجوارى كما يؤدي إلى الإبقاء على أوضاعهن كرقيق . وكذلك لم يقيد الإسلام هذا التسرى بعقد زواج ، ولم يقيد بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدي إلى حرية الجارية وحرية نسلها لا يصح أن توضع أمامها عقبات أو قيود تجعلها مشروطة بدفع صداق أو إحضار شاهدين على عقد الزواج أو على تسريتها أو أخذ رأيها وموافقتها .

وتطبيقاً لهذه القواعد العامة فإن معاشره السيد لجاريته وإنجابها منها كانا يؤديان في الإسلام إلى عتقها وحرية جميع نسلها .

رابعاً : تميز الشريعة بين ثلاثة أنواع من الفرش : فراش قوى للزوجات الحرائر ، وفراش متوسط للأمهات الأولاد . أى الجوارى اللاتي أنجبن من أسيادهن نسلا . وفراش ضعيف للجوارى اللاتي يتسراهن أسيادهن ولا ينتجن منهم .

خامساً : تشجع الشريعة على عتق الرقيق عتقاً خالصاً لوجه الله وتقرباً إلى الله ، أي دون أن يكون هذا العتق بمثابة كفارة للذنب ارتكبه المسلم كالفعل الخطأ وشبه الخطأ أو الحنث في اليمين وما إلى ذلك . ويسرى هذا العتق الخالص لوجه الله على الذكور والإناث من الرقيق . ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة العثمانية قد درجوا على عتق عدد من الجوارى كل عام بعد أن يختاروا هن أزواجاً من كبار موظفي الدولة . وكان السلاطين يحرصون على ألا تظلل الجارية في الرق بعد أن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كحد أقصى .

مصادر حصول السلاطين على الجوارى :

كان القصر السلطاني يُموج بأعداد وفيرة من الجوارى الحسان . وكان السلاطين يحصلون عليهم من ثلاثة مصادر : بشرائهم من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية قد اشتعلت ، ويشترون السيدات والفتيات اللاتي يوقعهن سوء الحظ أسيرات في أيدي المتحاربين . وكان أمين جمرك العاصمة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الفتيات اللاتي تراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة . وفي أوقات السلم كان تجار النخاسة في أوروبا وبعض أقاليم من آسيا يعمدون إلى خطف البنات لبيعهن . وكن من بلاد شتى : بلاد اليونان ، وجمهورية البندقية ، وألبانيا ، والنمسا ، وبلاد القرم ، والروسيا . وكن على حظ موفور من الجمال . وكان أهل القوقاز قد اتجهوا إلى تجارة الرقيق الأبيض نظراً إلى المكاسب الكبيرة التي كانت تدرها عليهم هذه التجارة الآدمية . وبنهاية القرن السادس عشر كانت غالبية الجوارى تأتي من القوقاز على يد أولئك التجار . وكان الإقبال على شرائهم شديداً لأنهم كن يظفرون بإعجاب شديد بسبب جمالهم المفرط (١) . أما المصدر الثالث والأخير فكان الهدايا يتلقاها السلطان . ولم تكن هذه الهدايا سوى جوار كن آية في الجمال ، يقدمهن بعض كبار موظفي الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية بعد أن يكن قد حضرن

دراسات علمية واجتماعية واكتسبن مهارات شتى بحيث لم يقل مستوى هؤلاء
الوافدات الجديديات عن مستوى الجاريات اللاتي قضين في الحريم السلطاني
سنين عدداً (١).

من هذه المصادر الثلاثة كان السلطان يأخذ حاجته من أولئك الفتيات
ليكون لديه رصيد بشري نسائي كبير في الحريم السلطاني يملأ بهن المراكز
والمناصب التي تخلو تباعاً . وكانت أولئك الفتيات في أصولهن الأولى
مسيحيات (٢) ، وفي ذات الوقت كن حراثر ، وذات جمال باهر ، ثم وقعن
في الأسر لسبب من الأسباب ، واشترهن السلطان . وبمجرد التحاقهن
بالقصر السلطاني تتغير أوضاعهن . فيصبحن مسلمات ، ويصبحن جواري
ملك يمين السلطان . ويعشن عيشة رغدا ، وينتظرن مستقبل باسم .

مستقبل الجوارى في القصر :

وبمجرد التحاق الجوارى بالقصر السلطاني ، ودخولهن في الإسلام ،
كانت تعد لهن في داخل القصر دراسات في الثقافة الدينية الإسلامية وبعض
مواد الثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية . وكانت جميع الجوارى
ينتظمن في هذه الدراسات . وإذا كان لدى الجارية استعداد عقلي للدراسات
النظرية أضيفت إلى هذه الدراسات مقررات لتعلم اللغة الفارسية أو اللغة العربية
بجانب إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ثم التاريخ الإسلامي والجغرافية .
أما إذا لم يكن لديها استعداد ذهني لهذه الدراسات النظرية فلأنها تتلقى دروساً
في النظرية والحياكة والموسيقى والغناء والرقص . وتم هذه الدراسات
بكافة نوعياتها في نطاق التبادل الإسلامية . وكانت الجوارى تنتظمن في
مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار . وتشرف رئيسة على كل مجموعة .
وتمضي الأيام وتزداد الجارية جمالا في الحلقة ، ورشاقة في الجسم ،
وعمقا في الثقافة ، وأدبا في الحديث ، ورفاهية في الحس . وكان لا بد

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., t. VII, pp 63—64.

(٢) يستثنى من هؤلاء الفتيات أولئك اللاتي يحصل عليهن السلطان بطريق الهدايا من كبار
موظفي الدولة .

أن يتحدد مستقبلها عند سن معينة أقصاها الخامسة والعشرين ، فيعتقها السلطان . ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد كبار العسكريين أو المدنيين . وكان السلطان هو الذى يختار لها الزوج وتغادر القصر كما سبق أن ذكرنا . وقد تجذب الجارية انتباه السلطان إليها ويعتقها وتنجب منه ولداً أو بنتاً أو أكثر وتصبح أماً لأولاده ويعلو مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطنة . ويطلق عليها لقب قادين (١) . وعلى ذلك فإن عبارة « الحریم السلطانى » كانت تعنى فى أحد مدلولاتها المكانيّة مدرسة لإعداد قادينات السلطان أو زوجات لكبار موظفى الدولة المدنيين أو العسكريين .

قادينات السلطان :

ذكرنا أن السلاطين السبعة الأوائل تزوجوا نساء حرائر بعقود زواج شرعية . وأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد الفاتح قد أطرحوا لإطراحاً تاماً مثل هذه الزيجات ، وانجهوا إلى جوارى القصر باعتبار الجارية ملك يمين السلطان ، له أن يطأها وتنجب منه ذكوراً وإناثاً ، فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية . أما هى فتعتم عقب وفاة السلطان . وله أيضاً أن يعتقها ويعقد عليها ، وينجب منها .

وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جوار من جوارى القصر . واحتفظ فى ذات الوقت بسائر جواريه ، لأن الشريعة الإسلامية لا تضع قيلاً على عدد الجوارى اللاتى يجوز للرجل المسلم أن يحتفظ بهن ويطأهن .

امتيازات القادينات :

حرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع « الجوارى » السابقات الأربع مكاناً علياً بعد أن أعتقهن وتغير وضع كل منهن الاجتماعى ومركزها القانونى من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها قادين (٢) Une Cadine ، وكانت القادينات الأربع تظفرن بمعاملة تقرب

(١) أنظر مايل .

(٢) قادين كلمة تركية معناها سيدة . وفى الأعم الأغلب تطلق على السيدة ذات المركز الاجتماعى المتميز . وتجمع قادينات . ويورد ذكرها فى المراجع الإنجليزية Kadin وتجمع Kadins أما فى المراجع الفرنسية فترد فى بعضها Cadine وفى صيغة الجمع Cadines . وفى بعض -

من المعاملة التي كانت تلقاها السلطانات من حيث الاحترام العميق ، وتحديد
أوضاعهن في البروتوكول العثماني ، وتخصيص جناح خاص لكل منهن في
منطقة الحرم السلطاني . فكانت كل قادين تعيش بمجزل عن زميلاتهما القادينات
الثلاث الأخريات ، ولا يرى بعضهن البعض إلا في الحفلات . فكانت كل
قادين بمثابة سلطنة . كانت لكل منهن حاشية تقوم على خدمتها ، وكانت
ترصد اعتمادات مالية لكل منهن ، وترتب قوة من الحرس لكل منهن ، وغير
ذلك من امتيازات بحيث كن يشكلن أعلى درجة في الحرم السلطاني باستثناء
والدة السلطان إذا كانت لا تزال على قيد الحياة .

تحديد أوضاع القادينات :

وكان هناك اعتباران في تحديد أوضاع القادينات في البروتوكول العثماني :
أحدهما أقدمية القادين بين أترابها القادينات . ولذلك كانت تطلق عليهن
ألقاب معينة ، هي : بيوك ، إيكنجي ، أورتنجه ، كجرك (١) . أي الكبرى ،
الثانية ، الوسطى ، الصغرى ، على التوالي . وثانيتها ، وهو الأهم ، نوعية الطفل
الذي تنجبه . فإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق على والدته لقب أكثر فخامة ،
وهو « باش قادين » أي كبيرة القادينات . ويطلق عليها أيضا . « خاصكي
سلطنة » (٢) Hasseki Sultan تقريباً لمركزها من مركز السلطنة الحقيقية .
وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان . ويكون ابنها في العادة
ولياً للعهد ويتربع على العرش بعد وفاة والده إذا سارت الأمور سيراً عادياً
ولم يتعرض لمؤامرات تحاك ضده سواء في القصر أو في الدوائر العليا في
الحكومة المركزية في إسطنبول . وكان يطلق لقب « خاصكي سلطنة » أيضا
على بنات السلطان من باب التجاوز . أما إذا أنجبت القادين بنتاً فقط أطلق
عليها « خاصكي قادين » Hasseki kadin أو « خاصكي خاتون »

=المراجع الفرنسية الأخرى ترد مكتوبة على هذا النحو : La Khatoune أي « خاتون »
أو « كاتون »

(١) ترد ألقاب هؤلاء القادينات في اللغة التركية مكتوبة بالحروف اللاتينية على هذا النحو :

Buyuk, İkinci, Ortanca, Kuçuk.

(٢) خاصكي مأخوذة من الكلمة العربية خاص ، ويقال إنها مأخوذة من اللفظة الفارسية

خاصكي بمعنى خاص أو حسن . ويجمع هذا اللقب « خاصكي سلطانات » .

ويطلق عليها أيضا « خاصكى كاتون » Khasseki-khatoun ومعناها
والدة ابنة السلطان .

مستقبل القادين إذا انصرف السلطان عنها في حياته أو توفي عنها :

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تتمتع بها القادينات ، فإن مركزهن
لم يكن مستقراً بصفة عامة . فقد يحدث أن يسأم السلطان من إحدى القادينات
لسبب من الأسباب . ولا معقب لرأيه في هذه المسائل الشخصية والحساسة ،
فينفصل عنها بسهولة وسرعة ، ويأمر بأن تغادر القادين السراى الجديد -
القصر الجديد - إلى القصر القديم (١) . وفي هذه الحال يملأ مكانها الشاغر
في الحرم السلطاني بجارية يعتقها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادين .

وإذا توفي للسلطان تنتقل قاديئاته إلى القصر القديم ما عدا الباش قادين -
كبيرة القادينات - إذا تولى ابنها العرش ، فلأنها تبقى في القصر الجديد ،
وأكثر من ذلك ، تغدو بين عشية وضحاها ، والدة السلطان الجديد والسيدة
الأولى في القصر ، وتمارس في هذا الموقع نفوذاً كبيراً على الحرم السلطاني
بكافة هيئاته النسائية والخصيان . وسنرى أمثلة لأمهات سلاطين بلخين من
علو النفوذ أنهن نجحن في إقصاء أبنائهن السلاطين عن ممارسة معظم

(١) السراى Serây كلمة تركية مأخوذة من اللغة الفارسية ومعناها قصر . وهناك
رأى آخر يقول إنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية Seraglio بنفس المعنى . وكان السراى القديم
عبارة عن مبنى أقيم على عهد النولة البيزنطية . ولما فتح السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١)
القسطنطينية أمر بترميمه واستخدامه بمد فتح هذه العاصمة فوراً (١٤٥٣) . ويقع هذا القصر
القديم في المكان الذي تشغله حالياً جامعة إستانبول .

أما السراى الجديد فقد أمر هذا السلطان بتشييده . وأتمه عام ١٤٦٨ ، وهو الآخر كان
يضم بعض مباني كانت موجودة بالفعل . ويطلق على هذه المباني الآن طوب قابى سراى Top
Kapi Serâyى وإلى عهد السلطان سليمان المشرع كان السلاطين يوزعون لإقامتهم - حين
يكونون في إستانبول - بين القصرين . ولم يصبح القصر الجديد المقر الوحيد لإقامتهم إلا منذ
حكم السلطان سليمان المشرع .
أنظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1. Part 1, p. 74,
N. (1),

اختصاصاتهم بعد أن هيأ لهم الجو للاندخاس في النسائيات . وأصبحت هؤلاء الأمهات القادينات في ظل هذه الأوضاع مراكز قوى خطيرة في تاريخ الدولة . وعلى هذا النحو أصبح القصر القديم في فترة من الفترات بمثابة مثوى للقادينات اللاتي هجرهن السلطان أو توفى عنهن هذا السلطان . ومع ذلك لم يكن الطريق أمامهن مسدوداً وبخاصة اللاتي لم ينجبن ذرية من السلطان المتوفى . فقد كن على أية حال سيدات حرائر سبق أن نلن حريتهن من السلطان . وكان كثير من رجال الدولة الطموحين يسعون إلى الزواج بهن ليتخذوا منهن وسيلة إلى الظفر ببعض المناصب ذات المستوى الرفيع . إذ كانت أولئك « القادينات السابقات » يسمح لهن بالتردد على الحرم السلطاني وزيارة قادينات السلطان الجديد ويلتمسن منهن مساعدتهن على تعيين أزواجهن في مناصب مرموقة . وكانت القادينات الجديدات يستجبن في الأعم الأغلب لرجائهن . وكان السلطان بدوره ينفذ رغبات قاديناته . وكانت نوعية سلاطين الفترة الثانية مما ساعد على نمو هذا النفوذ الجانبي ، لأن هؤلاء السلاطين اعتادوا الحياة بمعزل عن الناس مما جعلهم يتأثرون بتوجيهات أو آراء المحيطين بهم وبخاصة النساء .

لم تكن هناك أسباب جديدة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

ومن الصعب تفسير تمسك سلاطين الدولة بنظام تعدد الزوجات بأنه كان وسيلة شرعية يضمن بها كل سلطان لإنجاب ابن له يرث العرش من بعده : إن هذا القول يعتبر تبريراً ولا يعد تفسيراً علمياً ، لعدة أسباب ، منها :

أولاً : ثبت تاريخياً أن ثلاثة عشر سلطاناً تعاقبوا على عرش الدولة منذ حكم عثمان الأول حتى محمد الثالث ، وهي فترة زمنية استطالت أكثر من ثلاثة قرون (١٢٩٩-١٦٠٣) ، كان كل سلطان خلالها يورث العرش من بعده لإبنه . ولم يحدث سوى استثناء واحد بعد هذه الفترة حين جاز إلى ربه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) بدون عقب . ومع ذلك لم يتعرض العرش العثماني لأية هزة ، لأن السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان قد أبقى على إخوته ، وأصبح العرش ينتقل إلى غير الأبناء ، وأوصى إلى

أخيه بالملك وأصبح توارث العرش على قاعدة الأرشد فالأرشد . وتولى العرش أخوه باسم مصطفى الأول (١٦١٧-١٦١٨) (١) ثم تعاقب على عرش الدولة ثلاثة إخوة من أبناء السلطان أحمد الأول (٢) . وتولى العرش بعد ذلك ثلاثة إخوة وكانوا من أبناء السلطان إبراهيم (٣) .

ثانياً : إن أحد سلاطين الفترة الثانية وهو سليم الثاني قد توفي عن ستة أولاد (٤) وثلاث بنات . وتولى أكبر الأبناء العرش ، وهو مراد باسم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) . وكان أول عمل قام به أنه أمر بذيح لإخوته الخمسة كي يأمن على نفسه وعرشه من دسائسهم (٥) . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إنجاب ابن يكون وريثاً للعرش لما أنجب ذلك السلطان ستة أولاد .

ثالثاً : تكررت هذه المأساة بصورة أشد عنفاً وأكثر إيلاماً . فإن ذلك السلطان مراد الثالث توفي في مساء اليوم السادس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥٩٦ عن خمسين سنة وبعد حكم دام لإحدى وعشرين سنة :

(١) عاد إلى العرش سنة ١٦٢٢ بعد خلع ، وخلع ثانية سنة ١٦٢٣ لأسباب لا تمت بصلة إلى نظام توارث العرش ، بل لأسباب تتصل بالإنكشارية كتركز قوة خطير في الدولة يتدخلون في عزل وقتل السلاطين والصلور النظام ومن إليهم .

(٢) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- عثمان الثاني ١٦١٨-١٦٢٢ .

ب- مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠ .

ج- إبراهيم ١٦٤٠-١٦٤٨ .

(٣) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧ .

ب- سليمان الثاني ١٦٨٧-١٦٩١ .

ج- أحمد الثاني ١٦٩١-١٦٩٥ .

(٤) كان الأولاد الستة هم : مراد ، ومحمد ، وسليمان ، ومصطفى ، وجهانكير ،

وعبدالله .

أنظر :

محمد فريد بك مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥

Grant A.J., A History of Europe (1494—1610), op. cit., p. 225. (٥)

وأنجب عشرين ابناً غير عدد من البنات . وقد تولى العرش من بعده أكبر أولاده باسم للسلطان محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) . وكانت والدته من جمهورية البندقية . وكان أول عمل قام به هو ذبح إخوته التسعة عشر أفي الوقت الذي كان يوارى فيه جثمان والده . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إيجاد وريث للعرش لما أنجب ذلك السلطان هذا العدد الوفير من الأبناء .

رابعاً : إن السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) قد أنجب ما لا يقل عن واحد وثلاثين ولداً . وعلى الرغم من أنه كان يحب المال حباً جماً إلا أنه أنفق الكثير من الأموال على حفلات ختان أولاده . وكان يميل إلى حياة التهنك ، ويقضى وقته في اللهو والمتع الجنسية مع قاديناته وجواريه (١) .

إحتماساً : إن ظاهرة تعدد الزوجات والقادينات وما أحاط بها من حياة المحون كالإسفاف في النسائيات وإدمان الخمر كانت ظاهرة بارزة على عهد سلاطين الفترة الثانية ، إذ كان عدد منهم قد استغرقوا في شهواتهم .

إسادساً : لم يكن الباحث لهؤلاء السلاطين على تعدد الزوجات والقادينات هو الاستفادة من رخصة أجازها الإسلام للزوج لاستخدامها في ظروف استثنائية سبق أن شرحناها ، ولكن كان الباحث لهم هو استغلال هذه الرخصة . وفارق كبير بين الاستفادة والاستغلال .

سابعاً : لم يقنع السلاطين بتعدد الزوجات ، إذ كانت توجد في الحريم السلطاني أعداد وفيرة من الجواري الحسان يحتفظ كل سلطان بهن . وتقوم سيدة عجوز من سيدات القصر بتنظيم ليالى السلطان مع الفتيات الفاتنات . وكان الآية القرآنية الكريمة تنطبق على فريق من سلاطين الفترة الثانية ممن أطلقوا العنان لشهواتهم « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير

المقنطرة (١) من الذهب والفضة والخليل المسومة (٢) والأنعام (٣) والحراث (٤) ،
ذلك متاع (٥) الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، (٦) .

العواقب الوخيمة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

نجم عن تعدد الزوجات والقادينات مشكلات خطيرة انعكست آثارها
على الدولة . فإن تعددهن أدى إلى تعدد الأمهات . وأدى تعدد الأمهات
ب بدوره إلى إشاعة جو صائب من الغيرة والحقد والتنافس بينهن . إذ كانت
كل أم أنجبت مولوداً ذكراً تسمى سميّاً حثيثاً كي يكون ابنها ولياً للعهد ،
ولو كان ترتيبه أى وضعه فى البروتوكول لا يؤهله لشغل هذا المنصب . ومن
ثم تحاك المؤامرات ويشترك فى تنفيذها الخصيان وروثاؤهم ، فضلاً عن
الصدر الأعظم المتعاطف مع القادين أو المنصاع لها أو الضالع معها بدافع
مصلحة مشتركة بينها . وتعدو القادين مركز قوة خطير ، إذ تجد من السلطان
أذنأ صاغية . وتنتهى هذه المؤامرات عادة بقتل ولى العهد الذى كان والده
قد اختاره ليتولى العرش من بعده . كما أدى تعدد الزوجات والقادينات إلى
وجود تنافر عنيف بين السلطان وأبنائه الذين أنجبهم من سيدة أخرى والذين
حرموا من وراثة العرش . وقد وصل هذا التنافر فى عدة حالات إلى حد
الصراع الحربى السافر بين السلطان وهؤلاء الأبناء . ثم كان هناك أيضاً التنافر
بين الإخوة وخصوصاً الإخوة غير الأشقاء . وكان كل منهم يلوذ بوالدته
فتسعى عن طريق المؤامرات الملمرة للدولة لتحقيق حلم جميل يراد الإبن

(١) القتاير جمع قنطار . والمقنطرة مشتقة منها للتأكيد . ويراد بالعبارة المال الوفير .

(٢) المسومة أى المعلقة ، من السومة وهى العلامة ، وقيل المرسله وعليها ركبائها ، وقيل
التي ترمى فى المروج والمراعى .

(٣) الأنعام جمع نعام ، وهى الإبل والبقر والغنم .

(٤) الحراث إلقاء البذر فى الأرض وتهيتها للزراع . وقد يسمى المحرث سرفاً . والمراد
هنا المزرعات .

(٥) المتاع بمعنى التمتع .

(٦) المآب المرجع ، من آب يؤوب أبواً ، أى رجع .

(٧) سورة آل عمران ، آية رقم ١٤ .

ووالدته معاً . وهكذا امتلأ الحريم السلطاني بجو سخانق موبوء بالمؤامرات والدسائس والتكتلات النسائية والتيارات الخفية المتنافرة أشد التنافر .

شخصيات نسائية أخرى في الحريم السلطاني :

بجانب الزوجات الحرائر المسلمات والمسيحيات للسلطين ، وبجانب قاديئاتهم بعد ذلك ، كانت توجد في الحريم السلطاني سيدات ونبيات أخريات كان لهن وزن ونقل رهيبان إلى حد أن بعضهن كن يفقن الزوجات والقاديئات في المكانة والنفوذ بحيث أصبحن يشكلن مركز قوة خطير في تاريخ الدولة . وكان على رأس هذه الشخصيات النسائية : والدة السلطان ، ومجموعات من الجوارى القاتنات كان لهن ، بطبيعة أعمالهن واختصاصاتهن ، دلالة على السلطان .

والدة السلطان :

كان أعلى مركز في الحريم السلطاني يمكن أن تسمو إليه سيدة هو مركز والدة السلطان الحاكم ، ويطلق عليها « سلطانة والدة » La Sultane - Validé أى والدة السلطان ، إذ كان السلطين العثمانيون يكونون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبجيل ، ولا يرفضون لهن طلباً . ولا يقف نفوذ والدة السلطان عند هذا الحد ، بل كان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنها السلطان وجواريه .

وكانت لها سيدة بمثابة رئيسة أو مديرة لمكتبها أو وكالة عنها تسمى « كاخيا سلطانة والدة » . ويقع عليها الاختيار عادة من بين السيدات المتقدمات في السن ، واللاتي قضين سنين عدداً في أجنحة الحريم السلطاني حتى يمكن الاستفادة من تجاربها وخبراتها . ويعمل تحت إمرتها عدد كبير من السيدات والفتيات . وكانت تعد المتحدثة الرسمية باسم والدة السلطان . وفي ذات الوقت كانت أداة الاتصال بينها وبين السلطان وزوجاته أو قاديئاته . وفي ظل هذا المركز مارست نفوذاً واسعاً جداً سواء في القصر أو في دوائر الحكومة . ويتصاعد نفوذها ويتألق نجمها إذا كانت والدة السلطان سيدة أجنبية الأصل ذات شخصية قوية . ويلاحظ أن قسطاً من اختصاصات هذه السيدة « كاخيا

سلطانة والدة» كان يتداخل مع اختصاصات رئيس الخصيان . وكان الأخير يمثل مركز قوة خطير في الحريم السلطاني ، ويدور في الخفاء صراع بين هاتين الشخصيتين . وكانت الغلبة في معظم الحالات للسيدة « كاخيا سلطانة والدة» بصفتها أداة الإتصال بين أكبر شخصية نسائية في الدولة وبين السلطان . وكانت تستأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو بمسائل هامة ذات الطابع العاجل وتتطلب الاتصال الفوري بالمستولين والمسئولين .

أولاد السلطان وبناته :

ولدى جانب السلطانة الوالدة وزوجات السلطان كان يعيش في القصر أولاده وبناته . أما الأولاد فكانوا يتلقون دراسات مدنية وعسكرية مع اهتمام عميق بالجوانب الدينية ومواد الثقافة العامة واللغات . وكانوا يغادرون القصر السلطاني في سن مبكرة ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيين الابن حاكماً على مدينة كبيرة أو مقاطعة ومنحه رتبة صنجق بك ، ويغادر القصر والعاصمة وبصحبه حاشية كبيرة العدد للخدمة الداخلية والخدمة الخارجية وعدد من الخصيان وحرس كثيف العدد . ويعيش في موقعه الجديد وكأنه سلطان صغير . فإذا ابتسم له الحظ وتربع على عرش الدولة بعد وفاة أبيه فإن والدته لا تغادر القصر المسمى السراي الجديد إلى السراي القديم شأن الزوجات والنساء الأخريات للسلطان المتوفى ، بل تصبح سيدة القصر الأولى بصفتها والدة السلطان الحاكم ، وتعدو صاحبة النفوذ الأعلى . أما البنات فكان يحضرن دراسات خاصة تعد لهن في الدين واللغة التركية وإحدى اللغات والموسيقى ومواد ذات ثقافة نسائية وثقافة عامة . ويظللن في القصر حتى يأمر السلطان بزيوج الإبنة إلى أحد كبار رجال الدولة مثل الصدر الأعظم أو أحد الوزراء أو أحد كبار السباهية . وكن يغادرن القصر بعد إتمام الزواج ؛ وكن يتزوجن في مقتبل العمر ، ولذلك لم تكن إقامتهن في القصر السلطاني تمتد سنوات طوالاً .

عناصر نسائية أخرى في الحريم السلطاني :

كانت تلى القادينات في المركز أربع جوار يطلق عليهن « الكلدكليات (١)

(١) Gediklis أو Guédikli ومعناها الميزات أي اللاتي يعتمن ميزات مينة .

أى المميزات . وكن مرشحات للترقية إلى مرتبة قادين عنانها يخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر . وكانت الكواكليات تقمن على نخامة السلطان شخصياً . وكان السلطان يتخذهن محظيات له *des concubines* وكانت تعمل معهن في هذا المجال وعلى اتصال أوثق بالسلطان مجموعة من أترابهن يطلق عليهن « خاص أوطه لق » (١) أو فتيات الحجرات . وكان يطلق على الواحدة منهن أيضاً « إقبالة » أى سعيدة الحظ (٢).

وكانت توجد في الحرم السلطاني وظيفتان رئيسيتان تشغلها جاريستان ، يطلق على شاغلة الوظيفة الأولى « كاخيا قادين » (٣) وكان يطلق عليها أيضاً « المعلمة » . وكانت مسئولة عن النظام في أجنحة الحرم . ويطلق على شاغلة الوظيفة الرئيسية الثانية « خزينة دار أوسطى » (٤) أى الخازنة . وكانت مسئولة عن المسائل المالية الخاصة بالحريم السلطاني بجميع فئاته وطوائفه . وكان يلي هؤلاء عدد من الجوارى كن يقمن على نخامة والدة السلطان والقادينات وأولادهن وبناتهن . ثم كانت هناك طائفة أخرى تسمى « شاكر زاده » (٥) بمعنى التلميذات ، وهن الجوارى اللاتي انتحن حديثاً بالقصر ، وكن يقضين أوقانهن في دراسات نظرية وعملية وتدريبات تطبيقية . وأخيراً كانت هناك طائفة الخادومات ، وكن يشكلن أدنى الطوائف مرتبة في الحرم السلطاني . وكن لا يرتفعن عن مرتبتهن إلا نادراً (٦) ، بينما كانت سيدات وفتيات الطوائف الأخرى يشقن طريقهن متدرجات إلى المراتب العليا (٧) .

(١) *Khass-Odalik* أو *Hass-Odalik* بمعنى « تابع للفرقة » .

(٢) إقبالة *Ikbâle* كلمة تركية مقتبسة من الكلمة العربية إقبال .

(٣) كاخيا بمعنى وكيل أو وكيله .

(٤) خزينة مأخوذة من الكلمة العربية في اللغة الفصحى خزانة . وكلمة دار فارسية بمعنى صاحب أو مدير . وأوسطى لفظة فارسية أيضاً بمعنى أستاذ أو رئيس أو رئيس عمل . والمعنى العام هو الأستاذة رئيسة الخزانة .

(٥) شاكر زاده كلمة فارسية معناها تلميذ وتطلق على الجلسين .

(٦) Lybyer A.H; op. cit., p. 56 .

Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, (٧)

على هذا النحو كان الحرم السلطاني بمثابة مدينة صغيرة، ويشمل إلى جانب الحصيان عماداً كبيراً من السيدات والجوارى وغيرهن ذوات مستويات مختلفة من حيث المركز الاجتماعى والثقافى والعمل الذى تقوم به كل منهن . وقد بلغ عماد الحرم السلطانى ما يقرب من ثلاثمائة على عهد السلطان سليمان المشرع (١) . وقد قفز هذا العماد فى العهد اللاحقة قفزات سريعة وكبيرة .



الفصل الحادى والعشرون

مراكز القوى فى الدولة (٥)

الحريم السلطانى

تغلغل نفوذ الحريم السلطانى فى شئون الدولة :

قامت سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى بدور خطير فى توجيه السياسة العليا للدولة حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى فى الدولة على الإطلاق . كن يعملن على إشعال الحرب بين الدولة وأعدائها سواء فى أوروبا أو فى آسيا . وكن يتدخلن فى شئون الجيش وبخاصة قياداته العليا ، وكن يتدخلن فى تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفى ترقية بعضهم أحياناً ثانية ، وفى عزلهم أحياناً ثالثة . فإذا كان الصدر الأعظم هو الشخص المطلوب عزله ، تدخلت السلطانة الوالدة لدى ابنها ، أو الباش قادين أو القادين لدى السلطان فيصدر الأخير فرماناً بعزله . وكان هذا النزول يقترن عادة بقتله فوراً أو بعد أيام ذات عدد . أما إذا كان الشخص المراد إقالته يشغل منصباً ثقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحداهن سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى لدى الأخير فيصدع بما يؤمر به . وكان رؤساء الأغوات الخصيان السود أو البيض هم حلقة الاتصال بين هؤلاء السيدات وبين السلطان والصدر الأعظم . يقول المستشرق بوون فى تعليقه على تسلسل نفوذ الحريم فى أجهزة الحكومة إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأعاجيب فى معظم الأحوال . (١)

A word from a kadin often worked wonders. (1)

أسباب نمو مراكز القوى في الحريم السلطاني :

ومرد هذه الظاهرة التي فشت فشواً كبيراً منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن التالي له إلى سببين رئيسيين هما : ضعف شخصيات السلاطين الذين حكموا الدولة إبان هذه الفترة ، ومجموعة الباشوات الذين تعاقبوا بكثرة ملحوظة على منصب الصدارة العظمى في أثناء هذه الفترة أيضاً . ويستثنى من أولئك السلاطين والصدور عدد قليل جداً كانوا على درجة كبيرة من الخلق والكفاية . وانكشف على عهد هذه القلة نفوذ الحريم السلطاني كمرکز قوة . ولكن سرعان ما كانت تستعيد سيادات الفئة الأولى من الحريم السلطاني نفوذهم بمجرد قتل أو وفاة هذه القلة من السلاطين والصدور العظام .

أولاً : ضعف شخصية سلاطين تلك الفترة :

انصرف معظم سلاطين تلك الفترة عن شؤون الدولة . وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة ، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الثمانية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع . وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) في حملة كيريزتس (١) Keresztes ، وعثمان

(١) تعالت أصوات المسلمين في إستانبول بوجه خاص بضرورة خروج السلطان محمد الثالث إلى الحرب بعد أن توالى على العاصمة أنباء الهزائم الأليمة والمتعاقبة التي نزلت بالجيش العثماني في أوروبا . وخرج السلطان ومعه البيرق البوي لقتال الجيوش الإمبراطورية التي كانت تتكون من الألمان والإيطاليين والمجر . وكان يقود هذه الجيوش الأرشيديوق مكسيليان L'Archiduc Maximilien وسيجيسموند زابوليا Sigismond Zápolya وتقابل المتحاربون في معركة ساخنة في كيريزتس استمرت ثلاثة أيام تبادل فيها المتحاربون الهزيمة والانتصار ، وانتهت في اليوم الثالث - السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٩٦ - بانتصار ساحق للعثمانيين الذين أنزلوا خسائر فادحة بالقوات الأوروبية المتحالفة . وبلغت خسائرها خمسين ألف جندي . وكانت هذه المعركة تشبه بالنسبة للمجر معركة موهاكز في اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥٢٦ وهي المعركة التي أباد فيها الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان المشرع الجيش المجرى وقتل فيها لويس الثاني ملك المجر .

هذا وتقع كيريزتس على نهر الثايس Theiss الذي ينبع من جبال الكربات في أوروبا الوسطى . ويجرى في تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ويصب في نهر الدانوب -

الثاني (١٦١٨-١٦٢٢) في حماة كوتين (١) Khotin ، ومراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) في حماة بغداد (٢).

من شاطئه الأيسر على مقربة من بلغراد . ويطلق بعض الباحثين على هذه المعركة اسم معركة التاييس .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١) كان يعيش على حدود الدولة العثمانية وبولندا القوزاك Les Kosaks والتتار . وكان القوزاك المقيمون في كرواتيا يعتبرون من رعايا بولندا . أما التتار فكانوا يشكلون دولة تسمى خانية القرم ، وكانت شبه مستقلة ومرتبطة بالدولة العثمانية التي أبقته عليها لاحتياجها دولة حاجزة لأنها تقوم على حدود دول معادية . وكان خانات القرم يعترفون بسيادة السلطان عليهم . وكانوا يتسلمون من السلاطين الأطواخ والأعلام والتفويضات الكتابية . وكثيراً ما أدى احتكاك التتار بالقوزاك إلى اشتعال الحروب بين الدولة العثمانية وبولندا . وكانت بولندا تتطلع إلى احتلال إقليم مولدافيا وانتزاعه من العثمانيين . وفوجئت الدولة العثمانية في عام ١٦١٨ باضطرابات خطيرة تشتمل في مولدافيا بقيادة حراتياني Gratiani . وسارع البولنديون والقوزاك بالانضمام إليه مما أدى إلى اشتداد ساعد التوار . وكانت قد أبرمت معاهدة بوسا Bousa في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦١٧ بين الدولة العثمانية وبولندا تقرر فيها ألا تتدخل بولندا في شئون مولدافيا وولاشيا وترنسلفانيا ، وأن يظل نهر دانيستر Daniester الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبولندا ، وأن يتعهد السلطان بمنع التتار من مهاجمة الأراضي البولندية . وصحبت عزيمة السلطان عثمان الثاني على إخضاع هذه الاضطرابات ١ . وزحف عام ١٦٢١ على رأس الجيش على كوتين . وحققته الحملة العثمانية معظم أهدافها وعقدت معاهدة في عام ١٦٢٣ تقرر فيها أن تستمر بولندا في دفع جزية سنوية حددت بأربعين ألف فلورين Florins إلى خان القرم ، وأن يتعهد الخان بعدم الإغارة على الأراضي البولندية .

(٢) كانت الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس مصدراً لاحتكاكات عديدة بينهما . وأدت إلى نشوب حروب عديدة وطويلة وضارية . كما تعددت الثورات والاضطرابات في الأقاليم العثمانية في تلك المناطق . وأراد السلطان مراد الرابع أن يحسم حريياً المشكلات العسكرية والسياسية مع الدولة الصفوية . فقد كانت هذه المشكلات بمثابة زيف دموي حاد ، وتكبدت الدولة الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال والمتاد . وفي سنة ١٦٣٥ تولى السلطان قيادة حملة كبرى زحف بها على تلك الأقاليم الشرقية ، واستولى على بعض المدن والمواقع الهامة مثل إريفان Brivan ، ثم اتجه إلى بغداد واستطال حصاره لها أربعين يوماً ، ثم دخلها في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٣٨ وقام الجيش -

ومما هو جديده، بالذكر أن محمد فريد بك أحد رؤساء الحزب الوطني في مصر ومن أعلام الفكر والسياسة فيها (١٨٦٨ - ١٩١٩) (١) قد

العثماني بمذابح رهيبة للقوات الفارسية التي كانت تدافع عن بغداد . وقد أبادها على بكرة أبيها . ويقال إن عدد أفرادها بلغ ثلاثين ألف جندي . وشملت المذابح أيضاً عدداً كبيراً من السكان المدنيين في العاصمة ، وأضرت مصالح المدنيين الآخرين الذين نجوا من المذابح . وانتهت حملة مراد الرابع بمقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية في اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٣٩ (ويرد في بعض المراجع ذكر تاريخ المعاهدة اليوم السابع عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٦٣٩) ونص فيها على أن تحتفظ الدولة الصفوية بمدينة إريشان والمناطق المتاخمة لها . وأن تستولى الدولة العثمانية على بغداد ومناطق أخرى عديدة حددت في المعاهدة . وعاد العراق مرة أخرى إلى الحكم العثماني ، كما عادت الحدود بين الدولتين إلى وضعها السابق أيام سليم الأول وسليمان المشرع . وتسمى هذه المعاهدة صلح إستانبول الثاني تمييزاً لها عن صلح إستانبول الأول الذي أبرم بين الدولتين في اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٥٩٠ .

(١) كان محمد فريد بك من المعروفين بتعلقهم بالدولة العثمانية طبقاً للمفاهيم السياسية التي كانت سائدة في الولايات العربية .

وقد وضع فريد بك عدة كتب ، منها :

الجهة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية (١٨٩١) (محمد علي)

تاريخ الدولة العلية العثمانية ١٨٩٣ .

تاريخ الرومان . وقد نشر تبعاً حتى سقوط قرطاجنة في مجلة الموسوعات ١٩٠٠ ،

١٩٠١ .

وله عدة بحوث منشورة في مجلة الموسوعات ، منها :

إنجلترا وفرنسا بإفريقية (عدد ٢٦ أبريل - نيسان - عام ١٨٩٩) .

الإنجليز في غرب إفريقية (عدد ٨ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .

كيف ضاع استقلال جزائر هاواي (عدد ٢٣ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .

إنجلترا والفرنسا (عدد ٢١ سبتمبر - أيلول - عام ١٨٩٩) .

إنجلترا في جنوب إفريقية (عدد ١٩ نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٩) .

الروسيا في مملكة كوريا (عدد ١٣ يونيو - حزيران - عام ١٩٠٠) .

مطامع أوروبا في الصين (عدد ١١ أغسطس - آب - عام ١٩٠٠) .

رياسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية انتخاب رئيسها (عدد ٥ فبراير -

شباط - عام ١٩٠١) .

وكان آخر عدد من مجلة الموسوعات هو العدد ١٩ من السنة الثالثة وقد صدر في غرة ربيع

آخر عام ١٣١٩ - ١٧ يوليو - تموز - عام ١٩٠٩ وكانت مجلة علمية نصف شهرية أصدرها

محمد فريد بك بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حافظ عوض بك والأستاذ محمود أبو النصر بك .

تعرض للسلطان مراد الثالث - وهه أحد سلاطين الفترة الثانية - ونعى عليه عدم خروجه مع الجيوش العثمانية إلى ساحات الحرب ، وأرجع الهزائم العسكرية التي لقيتها النابوة من جيوش المجر والنمسا إلى تلك الظاهرة . وعلق عليها تعليقا يفيض بالأسى والحسرة . وكان مما قاله « يجب علينا وعلى كل عثمانى التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه (١) إلى الحرب وتحجبه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر ، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائما لهم بإذنه تعالى . فقا، عودهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم ، لأن وجود الخليفة الأعظم في رأس جيوشه يبث فيهم روحاً جديدة ، فيتحدون معه قلباً وقالباً ، ويسرون معه إلى النصر المبين . والنور العظيم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (٢) .

سلاطين لا يراهم أحد : *Des Sultans Invisibles*

لم يتخلف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايوني - الإمبراطوري - فقط ، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسماع مناقشات أعضائه من وراء ستار ، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبي .

وكان السلاطين لا يبرحون القصر ، واستطابوا الإقامة في أجنحة الحرم السلطاني يوزعون ، أو بعبارة أكثر دقة ، يبددون أوقاتهم بين القادينات حيناً ، وفتيات الغرف أحياناً كثيرة التماساً للمتعة ، ويسرفون في تنارل الخمور ، ويرتكبون سائر الميقات مستغلين العزلة التي أحاطوا أنفسهم بها أو التي أحاطتها سيدات الفئة الأولى من الحرم السلطاني بهم . وقد أطلق عليهم « السلاطين الذين لا يراهم أحد » *Les Sultans Invisibles* إذ لم يكن يراهم

= النظر :

عبد الرحمن الرافي : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية . الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ص ص ٣١ - ٣٣ .

(١) يقصد السلطان مراد الثالث .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

رعااهم ولا الجيش ولا الوزراء . وكانوا لا يعلمون شيئاً عن تصرفات
حكام الولايات .

سلاطين « تنابلة » : *Des Sultans Fainéants*

كانت أجنحة الحریم هی مأواهم ، وكان الانغماس فی الممتع الجنسية
وغير الجنسية مع القادینات وفتیات الغرف هو شغلهم الشاغل ، وقد قيل إنه
كان لأحد سلاطين الفترة الثانية فی أثناء تولیه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة
من الجوارى الفاتنات (١) ، كما قيل إن عدد الذكور والإناث اللدین
أنجمهم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) لم یقل عن مائة وثلاثین
نتیجة لإصرافه فی المسائل الجنسية (٢) ، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين
بالأحداث الجسام الی تجری فی الدولة نتیجة انصرافهم عن ممارسة
اختصاصاتهم كانت سمة بارزة فی أخلاقهم . ولذلك أطلق علیهم أحد
المؤرخین الفرنسین اسم « السلاطين التنايلة » (٣) *Les Sultans fainéants*
وقد أشاد أحد كبار المؤرخین الإنجلیز بهذه التسمية واستخدمها وهو
یتناول تاریخ تلك الحقبة ، فقال إن الدولة العثمانية ، وهی أعظم الدول
العسكرية ، قد وقعت فی أيدي سلاطين « تنابلة » (٤) .

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للعزل نتیجة تمرد عسكري
تموم به الفیالق الإنكشارية أو نتیجة فتوى تصدر عن شیخ الإسلام بعلم
صلاحیتهم للاستمرار فی الحكم . وكان عزلهم یقترن عادة بقتلهم أو خنقهم .
والحق أن مركز السلاطين فی تلك الفترة قد اهتز اهتزازاً عنيفاً فی نظر
الجيش وموظفی الدولة وسائر هياتها والجماهير بعد أن استفاضت الأنباء

-
- Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol.1, (١)
Part I, p. 73, f.n
Loc. Cit. (٢)
(٣) كلمة *fainéant* الفرنسية معناها الشخص الكسول جداً ، والخالل جداً ، والذي
ليس لديه أى استعداد للقيام بعمل جدى . وتقابل فی اللغة العربية الدارجة « تنبل » .
Grant A.J.; op. cit.,p. 225. (٤)

بتصرفات أولئك السلاطين . وانتقلت هذه الأختبار عبر الحلوود إلى العالم الخارجي . وإن السيف الذي كان يمسك به السلاطين الشروامخ في العصر الذهبي للدولة من أمثال أبي يزيد (١) الأول الذي اشتهر باسم ياديرم أي البرق لتنتقلاته الحربية السريعة بين الجبهتين الأناضولية والبلقانية ، والسلاطان محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية ، وسليم الأول وسليمان المشرع ، قاد تحول من سيف باتر إلى شمشيخة (٢) un hochet (٣) .

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم في تلك الفترة أن اتصالات السلطان بالصادر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبيد الخصبان ، وكان يطلق عليه « دار السعادت أغاسي » أي أغا دار السعادة . وكان يشار إلى الأخير عادة باعتباره القبيلر أغاسي أي أغا البنات (٤) . وطبقاً للبروتوكول العثماني كان هذا الأغا يعد أكبر موظف في القصر السلطاني كله . وكان يشغل المركز الثالث في الدولة بعد الصادر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان في درجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ . وقد أتاح الوضع المتميز جداً لهذا الخصبى فرصة ذهبية للحريم السلطاني لتصبحها ، نفوذهم كمركز قوة ، فينتقلن إليه أو امرهن أو رغباتهن سواء للسلطان أو الصادر الأعظم . وكانت مؤامراتهن تجاد طريقتها مبدأً وميسراً للتنفيذ الفوري .

أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية :

ونلحق بسلاطين الفترة الثانية ، سلطاناً آخر كان آخر سلاطين الفترة الأولى وهو سليمان المشرع . وعلى الرغم من أنه يقف في الصف الأول من بين سلاطين الدولة في جميع عصورها وبلغت الدولة على عهداه الأوج في القوة

(١) بايزيد هي النطق التركي لكلمة « أبو يزيد » .

(٢) كلمة hochet في اللغة الفرنسية تقابل في اللغة العربية الدارجة لفظة شمشيخة . يضم حرف اللين وسكون حرف الخاء . وهي لعبة خفيفة جداً في وزنها تعطى للطفل الذي لا يزال يحب في مهده . وهي عبارة عن كرة صغيرة مغلقة تماماً . ويدخلها عدد من الكرات الصغيرة - البلى - ولها مقبض فيمسك الطفل بالمقبض ، ويهز الكرة فتحدث صوتاً ينبه من هذه الكرات . وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للدلالة على الشيء قليل النفع أو ضئيل القيمة .

Lavisse et Rambaud op. cit., t. v, p. 883.

(٣)

(٤) انظر الفصل التالي .

والنفوذ في السياسة الدولية وفي الإتساع الإقليمي ، إلا أنه كان على شاكلة
سلاطين الفترة الثانية من ناحية واحدة ، هي خضوعه في سنواته الأخيرة من
عمره المديد لإحدى قاديئاته خضوعاً كاد يكون تاماً . وهي جارية روسية
الأصل تدعى روكسلانه Roxelane ركانت ذات وجه باسم ، وكانت على حظ
موفور من الجمال هام بحبا وأنجب منها ذكوراً وإناثاً . ولما بلغ من الكبر
عتيا ووهن العظام منه سيطرت على قلبه وعتله بحيث أصبحت مستشاره الأول .
وحاول السلطان استعادة أيام الشباب وميعة الصبا ، وهي أيام كانت قد ولت
بالنسبة له . وكان في حكم الاستحالة أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء .
ومن الحقائق التي يستخلصها الباحثون من دراسة سير عظماء التاريخ أن بعضاً
منهم يحاولون وهم يخطون خطواتهم الأخيرة في الحياة أن يعرضوا ما فاتهم
في حياتهم من متع رخيصة صرفتهم عنها الأجداد العسكرية أو السياسية أو
العلمية التي شاركوا في صنعها وتركوا بهائم قوية في تاريخ بلادهم بسبب
هذه الأجداد ونتيجة لها . وهكذا كان شأن سليمان المشرع مع روكسلانه
ذات الجمال والدلال والإغراء . وكان لإفراطه في الافتتان بها وخضوعه لها نتائج
أضرت بالمصالح العليا للدولة ضرراً بليغاً . وفي رأينا كان هيامه بها يشكّل
أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق . وسنعرض في موطن
قادم في هذا الفصل لروكسلانه كمرکز قوة خطير ، ليس في الحريم السلطاني
فحسب ، بل على أعلى المستويات في الدولة . فقد بلغ نفوذها الدورة من
الخطورة في توجيه القيادات العليا على النحو الذي كانت تشهيه . وكان
نفوذها الرهيب وسيطرتها - كمرکز قوة خطير في الحريم السلطاني - على
السلطان سليمان المشرع نقطة سوداء في تاريخ هذا العاهل .

أسباب ضعف أولئك السلاطين :

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذي اتبعوه
منذ أواخر القرن السادس عشر في تدشئة الأمراء العثمانيين . فقد حددوا
إقامتهم في داخل القصر ، كل منهم في مقصورة أطلق عليها التفتيس (١) وأحاطوا

(١) سبق أن شرحنا هذا النظام في الفصل الثاني عشر تحت عنوان : « أقفاص الأمراء »

كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان . وحرموا عليهم الاتصال بالعالم الخارجي ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة . فعاشوا في عزلة مدمرة ، وأصيبوا بانهيار الأعصاب ، وميل مبكر إلى النسائيات مع الجوارى . وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين اختيروا لتولى العرش . فكان الأمير ولي العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو محطم نفسياً ، مهتز الشخصية ، ضعيف في تفكيره ، عديم التجارب ، تموزه الشجاعة . يريد أن يعوض حياة الحرمان والعزلة بجو آخر فيه تحرر ، وفيه انطلاق ، وفيه تمتع بمباهج الحياة . أما اختصاصاته كسلطان فكان لا يكاد يعرف شيئاً عنها . ومن هنا كان انصرافه عن ممارسة شئون الدولة ، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلاً وسريعاً من جانب والدته أو أخته أو القادينات وجميعهن من سيدات الفئة الأولى في الحریم السلطاني . وكان مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى ، وأن تثبوا القمة بين مراكز القوى في الدولة . والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد ، هو نظام القفص ، استحدثه الآباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من دسائس الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتخذون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأنسون إليه .

ويبين فساد هذا النظام إذا قارناه بالنظام الذي كان قائماً أيام سلاطين العصر الذهبي . فقد عمل الأخيرون على الإفادة من نشاط أمراء الأسرة الحاكمة في قيادة الجيوش أو في حكم بعض الأقاليم . وقد طبقوا هذا النظام حتى على الأمراء الذين لم يكونوا مرشحين لتولى العرش . فإذا توفى السلطان الحاكم جرى بولي العهد من موقعه إلى إستانبول لتولى العرش ، وهو بعيد عن العقدة النفسية ، متفتح الذهن ، كثير التجارب ، قوى الشخصية ، على دراية واسعة بشئون الحكم والحرب ، لا يهاب أحداً (١) .

= انظر ص ٣٥٠ في هذه الدراسة .

(١) حدث استثناءان لنظام القفص على عهد سلاطين الفترة الثانية هما سليم الثاني أول سلاطين هذه الفترة . ولم يكن معقولا أن يلجأ والده سليمان المشرع إلى هذا النظام الفاسد المدمر . أما السلطان الآخر فكان محمداً الثالث .

يضاف سبب هام ساعد على ضعف شخصيات بعض سلاطين الفترة الثانية ، ومن ثم أدى هذا الضعف إلى تصاعد نفوذ الحریم السلطانی كمرکز قوة فی الدولة ، وهو أن عدداً من سلاطين الفترة الثانية تولوا العرش وهم فی سن مبكرة جداً . تراوحت أعمارهم بین سن السابعة و سن الرابعة عشرة . فقد ارتقی العرش السلطانان أحمد الأول وعثمان الثاني وكان كل منهما فی الرابعة عشرة من عمرهما ، والسلطان مراد الرابع فی سن الثانية عشرة ، والسلطان محمد الرابع وله من العمر سبع سنوات . وأقيمت على هؤلاء السلاطين وصاية باشرها عدد من الوزراء ومن إلیهم من كبار رجال الدولة ، ولكنها كانت وصاية صورية ، لأن الوصاية الفعلية كانت فی أيدي سيدات الفیة الأولى فی الحریم السلطانی .

ثانياً : ضعف الصدور العظام :

أما الصدور العظام فكانوا بدورهم - بسبب الملابس والتيارات السياسية الخفية التي أحاطت بهم من يمين ويسار - من العوامل التي ساعدت على انمو مراكز القوى فی الحریم السلطانی. فقد كثر تعاقبهم على منصب الصدارة العظمى خلال الفترة التي تبدأ من أواخر القرن السادس عشر . وتذكر على سبيل المثال أنه فی أثناء حكم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) اغتيل عام ١٥٧٩ محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . وتعاقب بعد اغتياله تسعة صدور عظام على هذا المنصب خلال المدة التي تبقت على حكم مراد الثالث وهي ستة عشر عاماً ، أي بمعدل صدر أعظم واحد لكل مدة تقل عن سنتين . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى بعد ذلك إلا بعد مضي قرن من الزمان بتعيين محمد كوبرلی باشا (١) . وهناك مثال صارخ وقع فی أثناء الحكم الثاني للسلطان مصطفى الأول المعروف باسم

(١) هو من أسرة ألبانية تنسب إلى كوبری ، وهي مدينة صغيرة فی آسيا الصغرى على أحد روافد نهر قزل إرماك على مسافة ١٢ فرسماً من مدينة آماسيا . وقد نزع إلى هذه المدينة رجل من ألبانيا مع عائلته . وعرفت هذه العائلة باسم كوبرلی نسبة إلى المدينة التي اتخذها مهجراً لها .

السلطان الأبله أو المتوه L'idiot (١٦٢٢ - ١٦٢٣) ، فقد تعاقب ستة صدور عظام على ذلك المنصب مع أن حكمه في الفترة الثانية لم يزد عن خمسة عشر شهراً ، أى بمعدل شهرين ونصف شهر لكل صدر أعظم .

وكان الصدور العظام - باستثناء محمد صوقلو باشا إلى حد ما - (١) ضعاف الشخصية ويتم تعيينهم وعزلهم وفقاً لرغبات سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني . فكن يتدخلن لدى السلطان إما تدخلا مباشراً وإما غير مباشر عن طريق أغوات الخصيان . وكان السلاطين في مجموعهم يستجيبون لرغبات الحريم .

وكان هؤلاء الصدور العظام يدركون تماماً أنهم مدينون بمناصبهم للسلطانة الوالدة ، أو الباش قادين ، أو القادين . ويدرك كل منهم أن بقاءه في منصبه مرتين برضاء الحريم السلطاني عليه . ومن ثم كان الواحد منهم أداة طيعة لينة في أيدي الحريم . وكان كل واحد منهم يدرك أيضاً أن تباطؤه في تنفيذ أمر يصدر إليه منهن كان كفيلاً بهزله من منصبه . ومع ذلك فإن سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني كن يعمدن إلى تغيير الصدور العظام متى حقق الأخبرون الأغراض التي من أجلها عينوا في مناصبهم .

وكان يراعى في اختيار الصدور العظام في تلك الفترة عدة اعتبارات تتعارض مع المصالح العليا للدولة . وكان من بين هذه الاعتبارات ما عرف عن الواحد منهم من السلبية أو ضعف الشخصية أو ضيق الأفق العقلي أو مصاهرته للسلطان الحاكم كأن يكون متزوجاً من ابنته أو أخته ، أو يكون ذا سن متقدمة جداً . وسنرى عند عرض مراكز القوى في الحريم السلطاني أن أحد الصدور العظام تولى منصبه الخطير وقد بلغ من الكبر عتياً ، إذ كان

(١) سبق أن سجلنا عليه بعض المآخذ . انظر في هذه الدراسة ص ٣٦٨ ، وهناك فريق من الباحثين يرمون صوقلو باشا مكاناً علياً في تاريخ الدولة العثمانية . والواقع أن هذه الشخصية كانت تجمع بين جوانب حسنة وأخرى سيئة .

عمره وقتذاك مائة عام . وكان هناك صدر أعظم آخر بلغ من العمر تسعين عاماً وكان ذلك على عهد السلطان أحمد الأول . وقد عهد إليه السلطان لإجراء مفاوضات مع شاه الدولة الصفوية ، عباس الأول الكبير ، لتحديد الحدود بين الدولتين . ولكنه لم يكذبداً المفاوضات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وسقط جثة هامدة أمام مائدة المفاوضات (١) . وكان الدولة قد أجذبت أو أصيبت بالعمم . فلم تكن لديها كفايات سياسية أو إدارية أو حربية يكون أصحابها في عنفوان الرجولة ومضاء العزيمة ورحابة الأفق العقلي وقوة الذاكرة . ولكنها كانت سياسة مرسومة من سيدات الحریم السلطاني ، إذ كن يرتحن لمثل هذه النوعية من الصدور العظام . وهكذا غدت الدولة تجمع بين المتناقضات : سلطان يتبوأ العرش وهو في سن السابعة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وفيها صدر أعظم يتقلد منصبه وهو في سن المائة ، وغدا رجلا طاعناً في السن وهن العظم منه . والاثنان - السلطان والصدر الأعظم - لا يصلحان لحكم دولة من كبرى دول العالم وتمتد أقاليمها في ثلاث قارات وتربص بها معظم الدول الأوروبية الدوائر .

ولما انصرف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايوني وعن مراقبة مناقشات أعضائه من وراء ستار ، كما سبق أن ذكرنا ، انتهزت سيدات الفئة الأولى من الحریم السلطاني هذه الفرصة ، فمددن نفوذهن إلى هذا الديوان الذي كان أعلى هيئة أو مجلس في الدولة . وأصبح هذا الديوان برياسة الصدر الأعظم يخضع لتوجيهاتهن . ومن أجل المحافظة على حياتهم وعلى مناصبهم ترك الصدور العظام أو أئمة السيدات يتدخلن في اختصاصاتهم .

وكان الصدور العظام ينتابهم الخوف بل الذعر إذا عمدت الفيالق الإنكشارية أو فرق عسكرية أخرى إلى التمرد كوسيلة للضغط على الحكومة لإجابة مطالبهم . وبدلاً من أن يواجه الصدر الأعظم الموقف مند بدايته بحزم ، كان يتركه يتفاهم . وتكون نتيجة هذا التمرد من ناحية ، والتراتخي

Mantran R.; Encycl. of Islam. Art. Ahmad I.

(١)

في معالجته من ناحية أخرى ، عزل الصدر الأعظم بل وعزل السلطان أيضاً وقتل الاثنين معاً .

وكان الصدور العظام - شعوراً منهم بضعف مراكزهم تجاه مراكز القوى في الحريم السلطاني - ينشدون تأييد الفيالق الإنكشارية أو فرق السباهي - الإسباهية - لهم . وكان أفراد كل من هذين السلاحين يضمرون العداوة والبغضاء لأفراد السلاح الآخر . وأسرف الصدور العظام في تقديم المنح والامتيازات وإجراء الترقيات السريعة لأفراد السلاح المؤيد لهم كضمان لاستمرار تأييدهم العسكري . ولكن كان العسكريون يطلبون المزيد . وفي إحدى المرات فتح مير حسين باشا الصدر الأعظم للإنكشارية المؤيدين له المخازن السلطانية يأخذون منها اللحوم والشموع وكل ما هو ضروري لهم . وقال لهم هذا الصدر الأعظم « الحمد لله ، إن الپادشاه - أي السلطان - رجل واسع الثراء » (١) . وثار أفراد سلاح السباهي وطالبوا بالمعاملة بالمثل من هذا الصدر الأعظم فيأذن لهم في أخذ بعض الأواني الفضية . وفي دجى الليل كانوا يسبرون في شوارع العاصمة يهبون ويقتلون ويشعلون الحرائق . وكان لإستانبول مدينة معادية فتحت عنوة . وكان مير حسين باشا لا يستطيع لهم دفعاً . وفي ذات الوقت رفضت الفيالق الإنكشارية المؤيدة أن تخوض صراعاً حريباً أو صداماً دموياً رهيباً ضد فرق السباهية من أجل صدر أعظم كان الإنكشارية يعلمون أنه عما قليل مقصى عن منصبه .

وعقب الانقلاب الذي تم في الأيام الأولى من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٨ والذي كان من بين نتائجه خلع وشنق السلطان ابراهيم المعتموه وتولية ابنه السلطان محمد الرابع البالغ من العمر وقتذاك سبع سنوات - أدلى أحد الذين شاركوا في هذا الانقلاب بتصريح جاء فيه « إنه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث ، أن يشغل منصب الصدارة العظمى رجل حصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها » . ولكن كان هذا الرأي

Lavisse et Rambaud; op. cit., t.v, p 851.

(١)

Loc. cit .

(٢)

سراباً ، ويدل على جهل صاحبه بحقيقة الأوضاع في الدولة في ذلك الوقت ، لأن تعيين الصدور العظام كان يخضع لتوجيهات أو رغبات أو أوامر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني ليستمر نفوذهن في تصاعد ويكون الصدور العظام أدوات طيعة في أيديهن .

بلطه جي باشا يتقاضى رشوة :

لم يكن بعض الصدور العظام في تلك الفترة فوق مستوى الشبهات . ونذكر على سبيل المثال بلطه جي محمد باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) فقد رددت الألسنة أنه تقاضى رشا (١) من بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ - ١٧٢٥) حين أطبقت عليه الجيوش العثمانية عام ١٧١١ وهو يسير جنوباً بمحاذاة نهر بروث . فلم يجد بداً من طلب الصلح . واستجاب بلطه جي محمد باشا لطلب القيصر وعقد اتفاق أو سلم بروث (٢) في الثالث والعشرين من شهر يوليو - تموز - ١٧١١ وتنازل بطرس عن آزوف ، ووافق على هدم القلاع الممترض على إقامتها ، وتعهد بعدم الزج بنفسه في شتون تثار القرم أو في شتون بولنده ، وبألا يعود إلى تعيين سفير له في إستانبول ، وأن يكف عن التآمر مع رعايا السلطان الأرثوذكس . واتضح أنه كان في استطاعة الصدر الأعظم أن يجبر القيصر على قبول جميع مطالب الدولة نظراً لخرج مركزه الحربي . ومن ثم قامت الشبهات قوية حول بلطه جي محمد باشا أنه أخذ رشا حتى ارتضى التوقيع على هذا الاتفاق البذي انطوى على تسامح وسخاء . ويذكر بعض

(١) رشا بضم الراء جمع رشوة بكسر الراء .

(٢) يرد اسم هذا الاتفاق في المراجع الإنجليزية على أحد هذين النحويين :

Agreement of Pruth

Peace of Pruth.

Traité du Pruth

ويرد في المراجع الفرنسية معاهدة بروث

ولهذه المعاهدة اسم آخر تعرف به ، هو : فالكسن Falksen

انظر : Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome VI, pp. 810—812

Reddaway W.F.; A History of Europe 1610—1715.

London, 1967, p. 437.

لمؤرخين أن كاترين الأولى (١) قد ضححت بجميع مجوهراتها وحليها وأمور أخرى ، إذ أوعزت إلى زوجها بطرس الأكبر بأن يقدم هذه الثروة الهائلة إلى بلطه جي محمد باشا الذي ضعف أمام هذا الإغراء المالى وغير المالى ، ووافق على إبرام معاهدة بروث (٢) .

صانع حلوى يغدو صدراً أعظم :

كانت نوجية بعض الصدور العظام مثار سنط الجماهير عليهم . كانوا من حصيلة ضريبة الغلمان وأعدوا لإعداداً طويلاً لشغل المناصب القيادية ، العسكرية أو المدنية في الدولة ، ولكن تسلل إلى صفوفهم - نتيجة حماقة أو سذاجة بعض السلاطين - رجال بدأوا حياتهم بداية متواضعة وفي مجالات لا تمت بصلة إلى اختصاصات الصدر الأعظم في دولة من كبرى دول العالم . نذكر من هذا الفريق رجلاً يسمى إبراهيم . بدأ حياته صانع حلوى في إسكى سراى - أى السراى القديم في إستانبول - وهي حرفة يطلق على شاغلها في اللغة التركية « حلوجى » ، واكتسب إعجاب السلطان أحمد الثالث ، واتخذة صديقاً له . وظل يتدرج في مناصب الخدمة الخارجية في السراى القديم وفي مناصب أخرى في إستانبول والأقاليم . ثم انتهى به الأمر إلى أن تزوجه السلطان إحدى بناته ، وهى الأميرة فاطمة ، في عام ١٧١٧ وكانت تبلغ من العمر وقتذاك ثلاث عشرة سنة . واكتسب « العريس » لقب داماد ، فأصبح اسمه إبراهيم باشا داماد (٣) أى إبراهيم باشا صهر السلطان ، وعينه

(١) تنحدر كاترين الأولى من أسرة فقيرة . تزوجت في مطلع شبابها جندياً من السويد ، ثم وقعت أسيرة في يد الروس سنة ١٧٠٢ ، وكانت على حظ موفور جداً من الجمال ، فأعجب بها الأمير منشكوف واتخذها خليلته له . وفي عام ١٧١١ وقعت أبصار بطرس الأكبر عليها فهام بجها واتخذها عشيقته له ، ورافقته في معظم حروبه . وبعد أن أنجبت منه عدداً من الأولاد تزوجها رسمياً وتوجها إمبراطورة في عام ١٧٢٤ . ولما توفى القيصر في السنة التالية . خلفته في حكم الدولة وتوفيت سنة ١٧٢٧ .

Huart Cl.; Encycl. of Islam. Art. Ahmed III .

(٢)

(٣) توجد في تاريخ الدولة شخصية أخرى تحمل ذات الاسم وذات اللقب ، وهى شخصية إبراهيم باشا داماد . وكان صديقاً للسلطان مراد الثالث ، وتولى منصب الصدارة العظمى ثلاث =

السلطان صدرأ أعظم وظل يشغل منصبه اثنتى عشرة سنة حتى قام الشعب بفتنة خطيرة فى شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٠ أسفرت عن سقوط ابراهيم باشا وخلع أحمد الثالث . وقد رفض السلطان تسليم صفيه حياً إلى الشعب الناثر فشنقه فى القصر فى ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ وفى اليوم التالى اضطر السلطان إلى التنازل عن العرش .

كان تضامول نفوذ السلاطين والصدور العظام يسير سيراً عكسياً مع زيادة نفوذ الحريم السلطانى ، بمعنى أنه كلما انكمش نفوذ السلاطين والصدور العظام ازداد نفوذ مراكز القوى فى الحريم السلطانى علواً وطغياناً . وينطبق هذا الحكم العام على محمد صوةلو باشا الصدر الأعظم أيضاً . وقد سبق أن التقينا به فى هذه الدراسة . ونضيف هنا أنه استحال عليه ممارسة اختصاصات منصبه أمام مراكز القوى فى الحريم السلطانى ، وتعذر عليه الاتصال بالسلطان مراد الثالث أو التعاون معه على الرغم من أنه كان متزوجاً من الأميرة إسماة أخت السلطان . لم تشفع له خدماته التى أسداها للدولة ولا مصاهرته للسلطان . ورؤى التخلص منه ودخل الجانى متنكراً فى زى أحد الدراويش إلى مجلسه بحجة تقديم شكوى له . وطعنه بخنجر فى قلبه فأرداه قتيلاً فى الحال . وقد وقع حادث اغتياله فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٧٩ بعد مضى أربع سنوات من تولى مراد الثالث العرش . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى إلا بعد قرن من الزمان بتعيين محمد كوبريلى باشا .

روكسلانه ذات الوجه الباسم مركز قوة خطير فى الدولة :

ومن أبرز الأمثلة على استفحال نفوذ الحريم السلطانى الدور الذى قامت

= مرات على عهد خلفه السلطان محمد الثالث . وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان مراد الرابع فى آخر شهر مايو - آيار - ١٥٨٦ .

وفى تاريخ الدولة يوجد سى آخر هو ابراهيم باشا كان صديقاً للسلطان سليمان المشرع الذى عينه صدرأ أعظم ومنحه اختصاصات واسعة فى الحكم . وحضر السلطان حفل زفافه فى ٢٢ مايو - آيار - عام ١٥٢٤ وكان يوماً مشهوداً فى التاريخ العثمانى . وكانت نهاية هذا الصدر الأعظم مروعة ، إذ أمر السلطان بإعدامه فجأة نتيجة مؤامرة دبرتها روكسلانه قادية السلطان ، وكان ذلك فى ١٥ مارس - آذار - ١٥٣٦ . وسنلتق بهذه الشخصية فى مواطن قادمة فى هذا الفصل .

به روكسلانه Roxelane ، وهى روسية الأصل اختطفها
تجار الرقيق من ذوبها فى بلاد القوقاز . وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه
دى روجالينو de Rogalino ، وباعوها للسلطان سليمان
المشرع فألحقها بالحریم السلطانى . واستهلت حياتها الجديدة فى القصر كجارية .
كانت على حظ موفور جداً من جمال الخلقة والرقه وخفة الروح
ورهافة الشعور . وكان يطلق عليها خورم ، Kourrem ، وهى لفظة تركية
معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم . كما عرفت باسم روكسلانه Roxelane
أى الروسية . هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتقها
وأُنجب منها ذكوراً وإناثاً ، وارتفعت مكانتها طبقاً لقواعد البروتوكول
من جارية إلى قادين وظل حبه لها نبتاً نضراً يتفياً ظلالة عن يمين ويسار .
وسيطرت على قلب السلطان وعقله معاً ، فأصبحت مستشاره الأول فى
شئون الدولة (١) . واحتجب فى قصره لأنه كان لا يطيق عنها بعداً . وتولى
عن قيادة الحملات الحربية . وكان وجوده فى ساحات الحرب يثير حماس
الجنود . واعتاد الإنكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة .
وكانت أوروبا تدرك جيداً مدى النفوذ العريض . والرهيب الذى كانت تتمتع
به روكسلانه . وأجمعت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيدة الأولى فى
الدولة العثمانية ، وكانت تعنو لها جباه الجميع ، ويتضاءل أى نفوذ فى الدولة
أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللامع .

أرادت روكسلانه أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلا من الأمير
مصطفى ، وهو الابن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية .
ودبرت روكسلانه مؤامرة محكمة لتحقيق أميتها . وكان أول شروط هذه
المؤامرة لإفساد الجو العائلى بين السلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة
كلاهية مع غريمتها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بين النشأة الأولى لكل
منهما . وتطورت المناقشة إلى الاشتباك بالأيدى . واصطنعت روكسلانه
الضعف وتركت غريمتها تنال عليها ضرباً ولكماً ، وشدت شعر رأسها
ونزعت بعضاً منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخلدشت وجه روكسلانه

بأظافرها بحيث أصبحت آثار الخدوش بادية على وجهها . ونالت منها مثالا كبيرا ، ولهذا ما كانت تبغيه روكسلانه . واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاعتذرت عن عدم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها إنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ، لأنها « لحم يباع ويشترى » ، وهي العبارة التي أطلقتها عليها الزوجة الشركسية . وأصر السلطان على حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت الدموع تنهمر من مقلتها ، وآثار الخدوش والكدمات بادية على خديها . وكان شعرها غير منظم . وقصت عليه ما حدث لها من زوجته الشركسية . واثارت نائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لا تستحق منه تقديراً (١) . ونجحت حيلة روكسلانه في إفساد الجو بين السلطان وزوجته الأولى .

مضت روكسلانة بعد ذلك في تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير مصطفى ولى العهد وابن غريمته حاكماً على آماسيا (٢) Amasia كى يكون بعيداً عن إستانبول مقر الحكم وعن « وماراتها » (٣) . ثم التفت إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألبانى (٤) من خيرة الصدور العظام على عهد السلطان سليمان وموضع ثقته النامة وتقديره العميق . وقد زوجه السلطان من إحدى شقيقاته . وكان يخرج مع السلطان فى الحملات العسكرية فى

(١) نشر المؤرخ الفرنسى رامبو فرقات من تقرير وضعه عام ١٥٥٣ عن هذا الحادث برناردو نايجيرو Bernardo Navgero يمثل جمهورية البندقية لدى السلطان العثمانى فى إستانبول .

انظر المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦١ حاشية رقم ١ .

(٢) مدينة فى الأناضول ، وتقع على نهر ليكى إرماك Yechil-Irmack . وتستمد شهرتها من أنها كانت مسقط رأس سترابون Strabon الجغرافى اليونانى المشهور .

ويكتب اسم هذه المدينة فى بعض المراجع الفرنسية Amasiah

(٣) كان الأمير مصطفى حاكماً على ماغنيسيا Magnesie وهى فى إقليم ليديا فى

الأناضول وقريبة نسيباً من إستانبول . وكان يستغرق السفر إليها من العاصمة بضعة أيام .

أما آماسيا فكانت تبعد عن إستانبول بمسيرة خمسة وعشرين يوماً فى ذلك الوقت .

(٤) تذكر بعض المراجع أن إبراهيم باشا كان يونانى الأصل .

أوروبا و آسيا . وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية في فارس. وأكمل فتح إقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد في آخر عام ١٥٣٤ ودخلها السلطان سليمان في يناير-كانون ثان-١٥٣٥. وكان السلطان ينيبه في إجراء المفاوضات مع الدول (١). وكان على حزم موفور من العم والثقافة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين العثمانيين . واستجاب السلطان سليمان لرغبة روكسلان ، فعزل ابراهيم باشا الصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتياله في اليوم الخامس من شهر مارس-آذار-عام ١٥٣٦ وهو يدخل القصر السلطاني ليلا ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان . وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لمحاكمة . وكان اغتيال ابراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلان لإطلاق يدها في استكمال حلقات المؤامرة . ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ، ويدعى رسم باشا ، اطانت اليه ليكون عوناً لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجته إحدى بناتها واسمها محرمه Mihrmah وطلبت من زوجها تعيينه صدرأ أعظم . حقق السلطان رغبة روكسلان . وأصبح الصدر الأعظم العوبة في يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت . وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها أغدق السلطان الكثير من الرعاية على صهره رسم باشا . وانتهز الأخير مصاهرته للسلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثراء الحرام والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافاته واستغلاله المشين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه « التيارات » وهي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعي العسكري (٢) . ولما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام ١٥٤٨ سنحت لها الفرصة التي طال انتظارها لها للتخلص من ولي العهد الأمير مصطفى .

(١) انظر عرضاً للإنجازات التي قام بها ابراهيم باشا في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. IV, p. 762.

(٢) سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا النظام .

انظر من ص ١٣١ - ١٣٣ .

ويقال إن هذه الحرب قد قامت بإيعاز منها ، ويقال في هذا الصدد أيضاً إن
روكسلانه كانت تتبادل مراسلات مع زوجه طاسب الأول Tamsap I
(١٥٢٤-١٥٧٦) شاه الدولة الصفوية . وانفقت السلطنة روكسلانه مع
رستم باشا على إيغار صدر السلطان إيغاراً عنيماً على ابنه وولى عهده الأمير
مصطفى . فأدخل رستم باشا في روع السلطان أن ولى العهد يتآمر مع الفرس
لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الإنكشارية
يقولون إن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في السن ووهن العظم منه بحيث
لا يستطيع أن يخوض المعارك ، وقد حان الآوان للمناداة بالأمير مصطفى سلطاناً
وتنحية والده رحمة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الوشاية فعلها . وأصبح
الأب يتوجس خيفة من ابنه وولى عهده . وانتهى رأياً إلى ضرورة التخلص
منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة الفعلة النكراء التي أزمع تنفيذها ،
أو لعله أراد أن يضني عليها صبغة شرعية إسلامية . فعرض على شيخ الإسلام
أبي سعود الموضوع بعد أن غير معالمه الشكلية واستطلع رأيه في هذه المسألة .
وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله إنه كان في
إستانبول تاجر ثرى ذو مركز اجتماعى مرموق . وتطلبت تجارته أن يغيب
عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبد له كثيراً ما أحسن إليه أن يشرف
على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابه . ورأى التاجر
أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم في أثناء غيابه .
ولم يكف التاجر يغادر إستانبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتدمير
تجارته وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه
القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ما هي
العقوبة العادلة التي يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الإعدام . يقول
ليبير الأمريكى - الذى نقلنا عنه هذه الرواية (١) إن هذه الفتوى التي

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 213.

(١)

وقد نقلها من كتاب وضعه باللاتينية أحد السفراء في إستانبول على عهد السلطان سليمان المشرع
تناول فيه تاريخ الدولة العثمانية، وكان سفيراً للملك شارل الخامس؛ وأقام في إستانبول من عام
١٥٥٥ إلى عام ١٥٦٢ واسمه

De Busbecq Ogier Ghiselin; Life and Letters. Translated by C.T. Forster
and F.H. B. Daniel. 2 vols. London, 1881. vol. I, pp. 116—117 .

صدرت عن شيخ الإسلام - سواء كانت تعبيراً حقيقياً عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصدر هذه الفتوى بإيعاز من رسم باشا أو من روكسلانه - فإنها - أي الفتوى - جعلت السلطان سليمان يزداد تصميماً على قتل ابنه وولي عهده الأمير مصطفي تأسيساً على أن خيانة الابن لوالده لا تقل في بشاعتها عن خيانة العبد لسيده التاجر في إستانبول (1). وبعث سليمان في استدعاء ابنه إلى آماسيا حيث كان يقيم السلطان مع جيشه . وخشى أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنه رفض ، وقال إن طاعة الوالدين أمر يفرضه الدين . وإنه لم يرتكب عملاً يخشى منه غضب والده ، وإنه إذا قتله فهو على كل حال والده ، وهو الذي أتى به إلى هذه الحياة . ولما دخل الابن على أبيه في خيمته أعطى الأخير إشارة معينة ، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٥٣ ، وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه الفعلة الشنعاء ، إذ كان من بين نتائجها :

أولاً : حرمان الدولة من سلطان مرتقب هو الأمير مصطفي أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفريات ممتازة يجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع .

ثانياً : اندلاع حرب أهلية في الدولة . فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطنة روكسلانه موضع احتقار شديد من الفياق الإنكشارية . وكانت تصرفاته المشينة موضوع حديث الجماهير . ثم وقف لجيش في وجهه بصفته ولياً للعهد . فداعبت الآمال الابن الثانى لروكسلانه ، وهو الأمير أبو يزيد ، كان حاكماً على إقليم قرمان Karamine في جنوبي آسيا الصغرى ، وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر . واستعان بقوات من الجيش . واندلعت حرب أهلية ، وحدث انقسام خطير في صفوف الجيش . وماتت السلطنة روكسلانه في مستهل هذه الحرب . وحزن زوجها عليها حزناً شديداً أصبح مضرب الأمثال في وفاء بعض الأزواج لزوجاتهم بعد رحيلهن عن

هذه الحياة الدنيا . وعلى الرغم من حزنه ومن شيخوخته سار السلطان على رأس قوات من جيشه لمحاربة ابنه الأمير أبي يزيد . واستطاع السلطان سليمان وابنه الأمير سليم إيقاع هزيمة ساحقة بالأمير أبي يزيد في قونيه عام ١٥٥٩ ، وفر الأمير المنهزم إلى فارس . وطلب والده من طرابلس الأول شاه الدولة الصفوية تسليم الأمير اللاجيء . وقبل الشاه بعد أن تقاضى أربعمائة ألف قطعة ذهبية . وكانت نهاية هذا الأمير التمس مروعة . فقد ذبح هو وأولاده الخمسة عام ١٥٦١ (١) وكان انصياع السلطان سليمان المشرع لزوجته روكسلانه وتلفهه على استرضائها على أى نحو من الأنحاء ، والمذابح التي قام بها في نطاق الأسرة الحاكمة ، نقطاً سوداء في تاريخ هذا السلطان الذي يعد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية سواء في الحرب أو السياسة أو التشريع أو التعمير الذي يتمثل في بناء مسجده الكبير الرائع في إستانبول بالإضافة إلى أكثر من ثمانين مسجداً كبيراً واثنتين وخمسين مسجداً صغيراً والكتاتيب التي أنشأها لتحفيظ القرآن الكريم والمعاهد الدراساتيه والمستشفيات والمطاعم العامة والجمامات العامة والمتاحف والقصور وغيرها من المنشآت العمرانية (٢) . وينطبق عليه المثل الفرنسي المشهور *cherchez la femme* أى ابحث عن المرأة . ولم تكن هذه السيدة سوى روكسلانه زوجته ومحبوبته اتخذها مثله الأدلي بين نساء العالمين .

ثالثاً : انتقال وراثه العرش ظلماً وغدراً إلى الأمير سليم الذي ارتقى العرش باسم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) عقب وفاة والده السلطان سليمان المشرع (٣) . وكانت حياته الخاصة تنشح بأقلدر أذوار الرذائل التي

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV pp. 763—764.

(٢) أنظر عرضاً شاملاً لمنشآت المعمارية سواء في مكة المكرمة أو بيت المقدس أو بغداد أو قونية وغيرها في :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : اوروبا في مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٨٦ - ٦٨٨ .

(٣) جاز السلطان سليمان المشرع إلى ربه ليلة ٥ - ٦ سبتمبر - أيلول - عام ١٥٦٦ ليلة =

يشعر الإنسان بالخجل عند سماعها ، إلى جانب إسرافه في تناول الخمر . وكان لا يفيق من سكره إلا لماما . وأطلقت عليه الجماهير - من باب التهكم عليه والسخرية به - سليم مست ، أى سليم السكر ، وأطلق عليه سليم نصف الروسى le demi - Russe إشارة إلى أن والدته روكسلانه كانت روسية . وكان يقضى أوقاته في داخل القصر يمارس هواياته في شرب الخمر ومطلقاً العنان لشهوته البهيمية ، ومسامراً حثالة الناس الذين كان بعضهم في حاشيته . ولم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحة قتال . ويقرر أحد كبار المؤرخين الفرنسيين أن سليماً الثاني كان أول سلطان في الدولة العثمانية لم يخرج إلى الحرب . ويوجز هذا المؤرخ بعض هذه المعالم الرئيسية في الحياة الخاصة والحياة العامة للسلطان سليم الثاني في هذه العبارات :

Sélim. II, le demi-Russe, fut sur le trône une manière de roi fainéant. Le fils de ce Soliman qui avait passé sa vie en chevauchées est le premier des sultans osmanlis qui n'ait jamais paru dans les camps. Il passait ses jours au fond du Sérail, livré à tous les vices, même les plus honteux. Il lui en est resté le surnom de Sélim Mest (Sélim l'Ivrogne). (١)

والتزاماً بالموضوعية نقول إنه تم في عهده إرسال حملة عسكرية بقيادة سنان باشا عام ١٥٦٩ إلى اليمن لإعادة السيطرة العثمانية على هذه البلاد ، وهي

١٩٤ - ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ عن ثلاث وسبعين سنة قضى منها سبعاً وأربعين سنة في الحكم . ويلاحظ أنه ولد في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٤٩٤ (غرة شعبان ٩٠٠) . وقد قضى نحبه وهو بعيد عن العاصمة ، إذ كان على رأس الجيش إلى مدينة أزلو وهي في بلاد المجر في الشمال الشرق من مدينة بود (بودابست) على مسافة مائة وثمانين كيلو متراً . وعلم وهو في الطريق إليها أن أمير سكندوار ، وهي مدينة في بلاد المجر تشتهر بصناعة النبيذ ، قد أعلن العصيان . فرأى أن يتجه إليها أولاً . واحتل معاقلاً الأمامية ، فأخذ جنودها مواقعهم خفية واحتموا بقلعتها . واشته عليه المرض في أثناء العمليات الحربية ولفظ أنفاسه الأخيرة . وأخى محمد صوقلو باشا نبأ وفاته عن الجيش . وأذاع أن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد . وأبلغ ابنه سليم الثاني ، فاسرع بالسفر إلى إستانبول حيث قضى فيها يومين ، ثم استأنف سفره إلى سكندوار لمرافقة جثمان والده إلى إستانبول . ولما بلغ صوفيا أذاع سليم في ٦ من أكتوبر - تشرين أول - ١٥٦٦ وفاة والده وتوليته العرش . ثم قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى وصل محمد صوقلو باشا ومعه جثمان سليمان وعاد الجميع إلى إستانبول .

الحملة التي يطلق عليها بعض الباحثين تجاوزاً الفتح العثماني الثاني لليمن . كما تم إبان حكم سليم الثاني فتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-١٥٧١) . ويرجع هذا النجاح العسكري إلى قوة الدفع التي كانت لا تزال كامنة في الدولة بعد حكم والده السلطان سليمان المشرع . وكانت شعلة الجهاد لا تزال مشتعلة في نفوس أفراد القوات المسلحة العثمانية ووجود شخصيات عثمانية قوية ونزيرة تركها سليمان لابنه في المراكز القيادية في الدولة . ومع ذلك فإن فتح قبرص يرتبط بواقعة نسي إلى سمعة سليم الثاني . كان في حاشيته صديق حميم من حثالة اليهود يسمى جوزيف ناسي Joseph Nassi كان يسمى أول الأمر دون ميجيه Don Miguez وهومن البرتغال . ونجح في التسلسل إلى حاشية السلطان . وفي ظل شتى أنواع الانحراف الخلقى الذي تردى فيه سليم الثاني تمتع اليهودى بنفوذ كبير لديه . وزين له غزو جزيرة ناكسوس Naxos وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ ، وبلغ من حظوة اليهودى لدى سليم أن الأخير أعطاه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات معدودة حتى تجاسر اليهودى وأعلن نفسه دوقاً عليها « بفضل الله » . ولم تقف أطماع اليهودى عند هذا الحد ، بل زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودى للسلطان أن نبينه قبرص لا يضارعه نبينه آخر في العالم . وفي نشوة الخمر والملذات قال سليم لليهودى : « ستكون ملكاً على قبرص » (١).

وعلى عهد هذا السلطان السكر والنصف روسى والمنحرف خلقياً ، تعرضت الدولة لكارثة حربية دينية قومية . إذ تكون حلف صليبي أوروبى ضدها . وكان قوام هذا الحلف : إسبانيا ، وجمهورية البندقية ، والبابويه فى روما ، وتسكانيا، وچنوا، وساقوى، وبارما Parme ، وماندو Mandoue ، وفرارا Ferrare وغيرها من الكيانات السياسية فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وكذلك فرسان القديس يوحنا فى جزيرة مالطة . وكان من بين أسباب قيام

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع الخ ، مرجع

سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٦٢ - ٧٦٣ .

هذا التحالف الصليبي ما ترمى إلى مسامح ملوك و رؤساء هذه الدول والكيانات السياسية من أبناء ضافية عن انصراف سايم الثاني عن شئون الدولة والرغبة في القضاء على وجودها في البحر المتوسط واسترجاع المكاسب الإقليمية التي حققها والده السلطان سليمان . واشتبكت القوات البحرية لدول هذا الحلف الصليبي ، وكان عدد سفنها مائتين وخمسين سفينة ، مع الأسطول العثماني وكان عدد سفنه ثلاثمائة سفينة في معركة لپانت (١) Lépante في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها أعضاء الحلف الصليبي في السفن والأرواح ، إلا أن خسائر العثمانيين كانت فادحة . فقد تحطم الأسطول العثماني . غرقت معظم سفنه ، وأسرت سفن أخرى ، ولاذت بالفرار ثلاث عشرة سفينة . وقتل في المعركة القبطان باشا وعدد من الباشوات والبعكوات وحكام بعض الأقاليم العثمانية . وبلغت خسائر الدولة في الأفراد زهاء عشرين ألفاً (٢) . وكان البابا بيوس الخامس Pius V هو المخطط والمحرك الأول لهذا الحلف (٣) ويطلق المؤرخون على هذه الحرب La Croisade Chrétienne أي الحرب الصليبية المسيحية (٤) . وكانت معركة لپانت إحدى معركتين بحريتين كبيرتين وقعتا في القرن السادس عشر (٥) .

وقابل العالم المسيحي بابتهاج شديد أنباء الهزيمة التي نزلت بالدولة العثمانية بصفتها دولة الإسلام الكبرى. وأقيمت في كنائس جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر te Deum لانتصار المسيحية على الإسلام . ونظمت الاحتفالات

(١) يطلق اسم لپانت على مضيق يصل خليج باتراس Patras بخليج كورنت Corinthe ، ولپانت حالياً ثغر بحري يوناني .

(٢) انظر وصفاً تفصيلياً لمعركة لپانت وخسائر الجانبين في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, pp. 859—862.

Loc. Cit. (٣)

Loc.Cit. (٤)

(٥) كانت المعركة الثانية هي معركة الأرمادا البحرية عام ١٥٨٨ ، وقد استطاع فيها الأسطول البريطاني تحطيم الأسطول الإسباني على الساحل الفرنسي قرب كاليه Calais

وأقيمت الزينات في روما والبندقية وغيرها. وكانت احتفالات البابوية في روما باللغة الروعة ، فقد نظمت طبقاً للتقاليد الرومانية القديمة (١) . وتعد معركة لپانت من أفدح الكوارث في تاريخ البحرية العثمانية .



ذلك هو السلطان سليم الثاني غرس يد والدته الروسية روكسلانة ، فرضته فرضاً على الدولة ، بعد مؤامرة محكمة الحلقات متعددة الخطوات . نجحت في حمل زوجها السلطان سليمان المشرع على إصدار أوامر متعاقبة بعزل ثم قتل إبراهيم باشا الصدر الأعظم ، وتزويج ابنتها من رستم باشا ثم تعيينه صدراً أعظم ، وقتل الأمير مصطفى ولي العهد ، وتعيين ابنها سليم في هذا المنصب . وكان نجاحها في تنفيذ هذه المؤامرة يعكس الأوضاع السياسية على أعلى المستويات في الدولة ، ويجسد الدور البارز للحريم السلطاني كمرکز قوة من أخطر مراكز القوى . وكان رائدها في هذه المؤامرة تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة . ويزيد في خطورة هذه السيدة - كمرکز قوة - أنها نفذت مؤامرتها على عهد زوجها السلطان سليمان المشرع الذي يقف في الصف الأول من بين سلاطين الدولة العثمانية على امتداد تاريخها . ولو كان سليم الثاني شخصية قوية وعلى خلق هان الأمر ، ولكنه كان من أسوأ السلاطين ويطلق عليه رامبو Rambaud المؤرخ الفرنسي وصفاً دقيقاً هو « التنبل » (٢) faintant . ويجمع المؤرخون على أن حكم سليم الثاني كان البداية الحقيقية والفعلية لاضمحلال الدولة العثمانية (٣) ، وأن الدور الخطير الذي قامت به روكسلانة في هذا الأمر قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية (٤) .

أربع سيدات كن دعائم الدولة :

سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين شبهوا الدولة العثمانية إبان عصرها

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٧٥ - ٧٧٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٠٣

Grant A.J; A History etc., op, eit., p. 225.

(٣)

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. IV p. 761.

(٤)

الذهبي الأول بخيمة كبيرة شددت إلى أربعة أوتاد ، وأن هذه الأوتاد الأربعة كانت بالنسبة للدولة بمثابة دعائم أربعة quatre supports ، وأن هذه التسمية مقتبسة من حياة المجتمعات في المراعى التي عاش فيها أجداد العثمانيين في سهول الإستبس في آسيا قبل نزوحهم إلى الأناضول . وكانت هذه الدعائم تتمثل في الوزراء ، ورؤساء القضاة ، والدفترداريين ، والنشائجية . ولكن تحولت هذه الدعائم الأربع على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) إلى أربع سيدات ، هن :

أولاً : والدة السلطان مراد الثالث ، ويطلق عليها المصطلح التاريخي « سلطنة والدة » ، وهى إحدى قاديئات السلطان سليم الثانى . وكانت تسمى نور بانو Nour Bano وممنها سيدة النور Dame de Lumière وكانت مركز قوة خطير في الدولة ، وهى تشبه من هذه الناحية ملكة فرنسا والوالدة كاترين دى مدتشى ، وكانت معاصرة لها .

ثانياً : الزوجة الأولى للسلطان ، وبعبارة أكثر دقة الباش قادين أى كبيرة القاديئات واسمها صفية . وهى من جمهورية البندقية ، وتنتمى إلى أسرة نبيلة مسيحية تسمى أسرة بافو Baffo ويطلق بعض المؤرخين عليها اسم أسرتها المسيحية فيقولون السلطنة بافو بدلا من صفية . وكان والدها حاكماً على جزيرة كورفو Corfu . وبينما كانت فى سفينة مع بعض السيدات النيبليات فى طريقها إلى والدها خطفها القراصنة . وكان عمرها وقتئذ أربع عشرة ربيعاً . وكانت على حظ موفور من الجمال . وقد بيعت وألحقت بالقصر السلطاني ودخلت الحريم كعجارية . وسرعان ما تألق نجمها وجذبت انتباهاً ، السلطان وهام بعشقتها ، فأعتقها وتزوجها وأنجب منها وارتفع مركزها من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين . ومما يذكر أنها - بعد أن غدت مركز قوة خطير ودعامة من الدعائم الأربع للدولة - عملت على أن توجه السياسة الخارجية للدولة العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول ، وهو جمهورية البندقية . ويلوح أنها أرادت أن تكفر عن هذا الانحراف الخلقى والسياسى ، فتبنت عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية . ولا يزال يوجد فى

القاهرة مسجد يحمل اسمها خفياً ، وأوقفت عليه أوقافاً خيرية مدرة . وأقيمت فوق الباب الأوسط لقبة الجامع لوحة تذكارية هذا نصها : « أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى » صاحبت « الخيرات الآدر الشريفة (١) والدة المرحوم مولانا للسلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص المتقربين مولانا الناظر الشرعى حلى الوقف المذكور . وكان الفراغ من هذا البناء المذكور فى السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع عشر وألف من الهجرة » (٢) . كما يوجد بدار الوثائق والكتب المصرية

(١) الآدر الشريفة يقصد بها الحرم السلطانى . والآدر أيضاً من ألقاب التشريف التى تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من عليّة النساء دون ذكر أسمائهن . وهناك أيضاً مصطلح تاريخى هو آدر الضرب أى دور سك العملة . وآدر جمع دار . انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

(٢) يوافق هذا التاريخ الهجرى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٦١٠ . ويقع هذا الجامع فى خط المدايق .

وقد تضمنت حجة الوقف أن تصرف من ريع الأوقاف المرصودة مرتبات موظفى الجامع والمقرئين وأمين حفظ المصاحف الشريفة ، ومعمارى ترميم المسجد أو إصلاحه كلما دعت حالة المسجد إلى ذلك . كما تضمنت شروط الوقفية تعيين أربعة رجال للعناية بالبستان الذى يغطى الميدان الكبير المواجه للجامع . ويقوم اثنان منهم بغرس الأشجار والرياحين ، ويشترط فىهما أن يكونا على دراية بهذه الأعمال . ويقوم الاثنان الآخران بسقى البستان ويشترط فىهما أن يكونا شديدى البنية .

وقد بنى هذا الجامع على غرار الجوامع العثمانية فى إستانبول . وهو ثالث جامع فى مصر يشيد على الطراز المعمارى العثمانى . أولها جامع سليمان باشا بالقلعة ، وثانيها جامع سنان باشا ببولاق ، وثالثها جامع صفية ، تليها أربعة جوامع هى جامع محمد بك أبى الذهب بجوار جامع الأزهر ، وجامع محمد على باشا بالقلعة ، وجامع الفتح بعابدين . انظر :

Mme Devonshire R.L.; L'Egypt Musulmane et Les Fondateurs de ses Monuments. Paris, 1925, pp. 123—124.

على مبارك باشا : المخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ح ٥ ، ص ص ٣٩ - ٤٠
حسن عبد الوهاب باشا : تاريخ المساجد الأثرية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٣٠٦ - ٣١١ ، ج ٢ ، ص ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(م ٤٠ - الدولة العثمانية)

بالقاهرة مصحف شريف مجاوم ومجلى بالذهب مكتوب عليه أنه « وقف
المرحومة صفية أم السلطان محمد خان في سنة ١٠٣٢ هـ (١) » (٢).

ثالثاً : أخت السلطان مراد الثالث والمسماة إسماة Esmat وكانت
متزوجة من محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . ولذلك لحق باسمه لقب
« داماد » ومعناه صهر . وأصبح اسمه يرد في الوثائق المذكوراً على هذا النحو :
داماد صوقلو محمد باشا .

رابعاً : سيدة عمجوز تسمى چانفيد خاتون Djonféda - Khatoun
كانت تقوم بعمل كايا Riaya وهي القيمة على الجوارى في القصور السلطانية
وكان من بين اختصاصاتها تنظيم ليالى السلطان وتوفير أسباب المتعة المشروعة
وغير المشروعة .

الصراع بين والدة السلطان مراد الثالث والقادين صفية :

دار صراع نخفي حياً وسافر أحياناً بين نور بانو والدة السلطان مراد
الثالث وبين القادين صفية . وكان هذا الصراع في لحمته وسداه يدور حول
مراكز القوى ، كل منها تريد أن تستأثر بها لنفسها . ولجأت السلطانة الوالدة
إلى سلاح خطير ثبت أنه كان مدمراً لسمعة ابنها مراد وكفايته كسلطان يحكم
دولة كبرى مترامية الأطراف . فأحاطت ابنها بعدد من الجوارى الفاتنات .
وكان معروفاً عنه شغفه العميق بالنساء . وكانت هذه الهواية أضعف نقطة في
نخقه . واستهدفت السلطانة الوالدة من هذا الإجراء أن يجبو حب السلطان
للقادين صفية أو ينصرف عنها ، وبذلك تكيد لها كيداً . واستهدفت السلطانة
الوالدة أيضاً من هذا السلاح تحقيق مصالح شخصية لها تمثلت في إخلاء الجو
لها لتستأثر في غفلة من السلطان بالنفوذ في الحرم السلطاني وتسيطر على أجهزة
الحكومة ، وأهم من هذا كله ، وأخطر من هذا كله ، لتوجه السياسة الخارجية
للسولة لخلمة مصالح وطنها الأول وهو جمهورية البندقية . (٣)

(١) يوافق هذا العام الهجرى جزءاً من سنة ١٦٢٢ وشطرًا من سنة ١٦٢٣ م .

(٢) دار الوثائق والكتب المصرية ، القاهرة . مهرس المصاحف الشريفة ، ج ١ ،

ص ٢٠٥ .

= Lavissee et Rambaud ; op. cit. t.v, p. 846.

(٣)

وقد تجاوز نفوذ الحريم السلطاني كل حد على عهد هذا السلطان - مراد الثالث - وانتقلت أنباء نفوذهن في الأجهزة الحكومية إلى الدول الأوروبية . وقد كتب دى جرمني de Germigny السفير الفرنسي في إستانبول مذكرة مؤرخة في اليوم الثامن من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٧٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسية . وكان مما جاء فيها قوله إن سيدات الحريم السلطاني يقمن بدور كبير في حكم الدولة ، وإن السلطانة الوالدة على قمة هذا الفريق من السيدات . فهي تسيطر على الباشوات ، وهي التي تشير بتعيينهم في المناصب الرئيسية في الدولة ، وهي التي تضفي عليهم الكثير من مظاهر الرعاية (١) .

ولما توفيت السلطانة الوالدة ، نور بانو ، كان من المنتظر أن تخف وطأة مراكز القوى في الحريم السلطاني . ولكن حدث أن السيدة العجوز المتخصصة في تنظيم ليالي السلطان ، وهي چانفيدا خاتون ، تطلعت إلى شغل موقع السلطانة الوالدة الراحلة فتغلدو هي الأخرى مركز قوة خطير . فسارت على نهجها ، وأكثرت من شراء عدد كبير من الجوارى الفائقات وألحقتهن بالحريم السلطاني حتى قيل إن مشتريات القصر من هؤلاء الجوارى قد زادت زيادة لم يشهد لها القصر من قبل مثيلا . وأدى الإقبال الشديد على شرائهن إلى إرتفاع جنوني في أسعار هذه السلعة الآدمية المتميزة بجمال الوجه ، ورشاقة لجسم ، وخفة الدم ، والحيوية المتدفقة . ومما ساعد على إطلاق يد هذه السيدة العجوز في شراء عدد كبير للغاية من الجوارى الحسان أنه لم يكن للدرلة في ذلك الوقت ميزانية منظمة ، إذ لم يكن هناك تمييز واضح بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان . وقد واجهت الحكومة المركزية في إستانبول أزمة مالية خانقة على عهد السلطان مراد الثالث نتيجة لإسراف الحريم السلطاني في الإنفاق . واضطرت الحكومة إلى سك عملة ناقصة المعيار ورفض الإنكشارية

Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610, . op. cit., p. 225. =

(١) نشر المؤرخ الفرنسي رامبو فرات من هذا التقرير . أنظر :

Lavisse et Rambaud ; op . cit . t . v , p . 846 .

تسلمها ، ولجأوا إلى سلاحهم التقليدي ، وهو إعلان التمرد العسكرى ، وقتلوا الدفتردار باشى ، ومحمد باشا بكلكر بك الرومىلى كما سبق أن ذكرنا .

ناقوس العثمانيين :

انعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة العثمانية فى أوروبا بوجه خاص . قامت مناوشات على حدود النمسا واشتملت الحرب بين الدولة والمجر . وثارت ولايات الأفلاق والبغدان وتراسـلمانيا ، وانضمت إلى رودلف الثانى Rodolphe II ملك النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وقد جاء الأخير بناقوس كبير وأمر بأن يدق ناقوس الخطر ثلاث مرات فى اليوم تذكيراً لرعاياه بضرورة حشد الجهود لمحاربة العثمانيين . ولذلك أطلق على هذا الناقوس « ناقوس الأتراك La Cloche des Turcs » وقد لقي العثمانيون الهزائم وانسحبوا من بعض المواقع الهامة . وفى الجهة الشرقية اشتعلت الحرب التقليدية بين الدولة العثمانية والدولة الصغوية بعد وفاة الشاه طهاسب الأول سنة ١٥٧٦ ووقوع اضطرابات داخلية . وتبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار فى حرب استمرت سنوات طويلاً أكثر خلالها تغيير القيادات العسكرية فى الجيش العثمانى نتيجة استئصال نفوذ الحريم السلطانى وتدخلهن فى تعيينات المناصب العسكرية الكبرى .

وفى تقدير أحد أعلام المؤرخين الفرنسيين ، وهو ألفريد رامبو Alfred Rambaud أن السلطان مراد الثالث يدخل فى زمرة السلاطين « التناقلة » Les Sultans Fainéants الذين حكموا الدولة ، وأن ترتيبه الثانى فى مجموعة هؤلاء السلاطين . أما السلطان الذى يحمل رقم ١ فى هذه المجموعة فهو والده السلطان سليم الثانى .

وفى رأى كوتشى بك الفيلسوف السياسى للعثمانيين أن الإنحلال الخلقى والتدهور المالى فى الحكومة العثمانية إنما يبرزان بصورة صارخة إبان حكم السلطان مراد الثالث . وهو رأى صحيح إلى حد بعيد . وقد سجل هذا الرأى

في المذكرة التي وضعها وعرفت باسم « الرسالة » وقدمها سنة ١٦٣٠ إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) كما سبق أن ذكرنا .

ولما توفي السلطان مراد الثالث ارتقى العرش أكبر أولاده باسم محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) وكانت والدته ، صفية ، لا تزال على قيد الحياة . وقد ذكرنا أن هذه السيدة كانت أصلاً من جمهورية البندقية . ولذلك لحق باسم ابنها السلطان محمد الثالث لقب السلطان نصف البندقى أو نصف الفينيسى *Le Sultan demi-Vénétien* وكان نفوذ السلطنة الوالدة عليه عظيماً . وهكذا مارست نفوذاً واسعاً إبان حكم زوجها وحكم ابنها محمد الثالث. وتذكر بعض المراجع الفرنسية أن هذه السيدة كانت حريصة كل الحرص على استمرار نفوذها في شتى أجهزة الحكومة بعد وفاة زوجها مراد الثالث . فلما تولى ابنها العرش أصدرت أوامرها لجهة الاختصاص في الحرم السلطاني بتقديم الجوارى للفاتنات واحدة بعد أخرى لابنها السلطان (١) ، لأنها كانت تعرف نقطة الضعف في ابنها ، وهي شغفه الزائد بالجسيمات الفاتنات، وأنه جاء على شاكلة أبيه مفتوناً بالنساء الحسان ، فعملت على إنماء بل وإشعال الغريزة الجنسية في ابنها. ونجحت السلطنة الوالدة في مخططها، إذ انصرف الإبن للنسائيات مطلقاً العنان لشهواته ، وترك لوالدته تصريف شئون الدولة واستمرت مركز قوة وظلت تنبؤاً مكاناً علياً وتسيطر على شئون الدولة حتى . إذا توفي ابنها عام ١٦٠٣ وخلفه على العرش ابنه باسم أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان في مقدمة تصرفاته تجريد جدته العجوز من كل نفوذ . فأمر بحبسها في السراى القديم ومنع اتصال أحد بها كما أبعد خلعاءها. ولكن شهد حكمه انتشار الفتن والإضطرابات في شتى أنحاء الدولة وبوجه خاص في أوروبا وفي آسيا .

السلطان إبراهيم الأول المعتوه :

وجدت سيدات الحرم السلطاني في ارتقاء إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) عرش الدولة فرصة ذهبية لتحقيق مزيد من النفوذ كمرکز قوة ،

فاذا لم يستطيع بلوغ هذه الغاية ، فلا أقل من الحفاظ على نفوذهم وسطوتهم
وبقائهم مركز قوة . كان هذا السلطان هو آخر أبناء السلطان أحمد الأول ،
وأخ كل من السلطان عثمان الثاني ، والسلطان مراد الرابع . واشتهر باسم
السلطان إبراهيم الخنون . كانت تصرفاته شاذة تدعو إلى السخرية ، وتجعله
أدنى إلى المصابين بأمراض عقاية منه إلى الأصحاء .

السلطان يرصع لحيته باللؤلؤ :

كان لإبراهيم غرام شديد بتزيين لحيته بطريقة غريبة وشاذة . كان يضع
في شعر لحيته ، عند جنود الشعر ، أسلاكاً رفيعة يخفيها شعر لحيته الكثيف
عن الأعين . وكان بعض هذه الأسلاك من الذهب الخالص ، والبعض الآخر
من الفضة الخالصة ، ثم يثبت تثبيتاً محكماً في هذه الأسلاك فصوصاً من اللؤلؤ .
ويفسر الباحثون هذا التصرف تفسيرات شتى . فيرى بعضهم أن السلطان كان
يعتقد أنه بهذه الأجرى يبدو جميلاً مبهجاً أمام ناظره وبخاصة النساء ، فيزددن
هياماً به وتقديراً له . وكان معروفاً عنه أنه يميل إلى السيدات ميلاً عظيماً
ويرى البعض الثاني من الباحثين أنه كان يزين باللؤلؤ في لحيته لسبب آخر
هو أنه كان يميل إلى محاكاة النساء ، إذ كان متخفياً ، ويستندون إلى أن إبراهيم
كان أكثر السلاطين تخفياً . وقد نسي هذا البعض أن النساء لا يضعن اللؤلؤ
على أذقانهن أو أصداعهن أو خلودهن ! ! . ويرى فريق ثالث أن هذا
التصرف من جانب السلطان إبراهيم إنما ينم عن خجل أو اضطراب أو ضعف
في قواه العقلية . والرأي الأخير هو الأرجح ، وبخاصة أنه اشتهر بلقب
الخنون لهذا التصرف وتصرفات شاذة أخرى ، نشير إليها تباعاً . وأنه بسبب
هذه التصرفات صدرت فتوى من شيخ الإسلام بعدم صلاحيته للحكم وتم
عزله .

صور أخرى من شذوذ السلطان إبراهيم الخنون :

كان السلطان إبراهيم يوعز لبعض المقربين إليه بكسر أبواب محلات
بيع الجواهرات لنهب ما فيها . ولم تكن عمليات النهب مقصورة على المحال التي
يملكها وعابا الدواة ، بل كانت تمتد إلى محلات الأوروبيين الذين يشتغلون

في تجارة الجواهرات، ولم يأبه باحتجاجات سفراء الدول الأجنبية على هذه العمليات الإجرامية . فالمهم لديه أن يحصل على كميات وفيرة من اللؤلؤ برصع بها لحيته ويغير أوضاعها في كل يوم . وكان يستخدم حبات الكهرمان في تزيين سمّوته . وفي إحدى المرات أراد أن يغطي جدران القصر السلطاني بالفراء السمور . وبمجة تنفيذ هذه الرغبة استحدث ضريبة تغطي حصيلها أثمان الفراء وتكاليف شحنها من روسيا ، وسميت ضريبة الفراء *taxe de fourrures* كما استحدث ضريبة الكهرمان *taxe d'ambre* .

١ / والدة السلطان تدفع ابنها في طريق الغواية :

استحوذت الجوارى الحسنات على عقله وتفكيره ووقته . وقامت والدته السلطانة كوزم (١) *Koziem* بدور كبير في دفعه في هذا الطريق . وكانت حياته الخاصة مليئة بالقاذورات . وقد فاق هذا السلطان في النسق والفجور والانحلال الخلق السلطان مراد الثالث . زين له الشيطان أن يعتدى على زوجات بعض رجال الدولة . وآثر الأخيرون ترك مناصبهم والهجرة من إستانبول إلى الحجاز ليقضوا بقية أعمارهم متنقلين بين الكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة وبين المسجد النبوي في المدينة المنورة . ووقعت سفينة كانت تقل بعضهم في أيدي فرسان القديس يوحنا - كان مقرهم وقتذاك في جزيرة مالطة - فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحولوا الأبطال إلى المسيحية . دربهم ليكونوا في زعم هؤلاء الفرسان جنوداً من جنود المسيح عليه السلام يحاربون ويقتلون ويأسرون المسلمين في أعالي البحار .

تصاعد نفوذ مراكز القوى في الحريم السلطاني :

تفرغ السلطان ابراهيم للنسائيات وترك والدته والقاديات يتصرفن في شئون الدولة . ويقول المؤرخ الفرنسي رامبولان أنه لم يحدث من قبل أن حكمت سيدات الحريم السلطاني الدولة العثمانية بمثل هذا الشمول والتغلغل في أجهزة الحكومة كما حكمتها سيدات الحريم على عهد ابراهيم المحنون . وبلغت والدته

(١) كان اسمها كوزم ماهبيكر *Koziem Mahpeiker*

الدروة في مراكز القوى في الدولة . طلبت من ابنها قتل قره مصطفى باشا الصدر الأعظم، واستجاب السلطان لطلب والدته عام ١٦٤٣ ، ولم تشفع للصدر الأعظم بسالته في محاربة الدولة الصفوية . وكان المأخذ الوحيد عليه أن والده السلطان كانت تشعر نحوه بكرهية . وامثالاً لأمرها أقدم السلطان على قتل يوسف باشا قائد الحملة على جزيرة كريت بحجة أنه لم يقدم النصيب الأوفى من غنائم الحرب للسلطان ووالدته(١) . وازداد خيل السلطان فمضى يقتل الصدور العظام الواحد بعد الآخر . فأمر بقتل صالح باشا الصدر الأعظم سنة ١٦٤٧ لأنه رأى عربة نقل بضائع تقف في أحد الشوارع التي مر منها

(١) كان الإسلام قد نزع أول الأمر ملكية غنائم الحرب التي يستولى عليها المقاتلون المسلمون في المارك ، ورد هذه الغنائم إلى الله والرسول ، ليجرد المسلمين من الأطلاع ويسلموا أمرهم كله لله ربهم وللرسول صلوات الله وسلامه عليه إمامهم . وبذلك يخوض المجاهدون المارك لله وفي سبيل الله وتحت راية الإسلام ولطاعة الله . « وقد جاء هذا الحكم الإلهي في أول سورة الأنفال » يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

حتى إذا اطمانت نفوس المسلمين واستقرت في أذهانهم أنهم لا يملكون الغنائم ابتداء ولا يملكونها بحق الغزو ، عاد الإسلام في ذات السورة ليرد عليهم أربعة أخماس الغنائم ويستبقى الخمس على الأصل لله والرسول ولمن يعولم الرسول والجماعة الإسلامية من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . قال تعالى في الآية رقم ٤٢ « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .
ويلاحظ أن :

- ١ - الأنفال جمع نفل على وزن سبب وأسباب وهي الغنيمة . ومنها : إن تقوى الله هي خير نفل ، أي خير غنيمة .
- ٢ - وأصلحوا ذات بينكم أى المشكلات التي بينكم بخصوص توزيع غنائم الحرب في معركة بدر .

٣ - يوم الفرقان يوم معركة بدر . وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، أو فرقاناً بين عهدين في تاريخ الدعوة الإسلامية : عهد الصبر والانتصار والتجمع ، وعهد القوة والاندفاع والمبادأة . ولكن السلطان إبراهيم الأول لم يقبل أن يستولى على الغنائم طبقاً للنسبة التي قررتها الشريعة الإسلامية وأراد أن يحصل على غنائم تتجاوز الخمس .
انظر بخصوص موقف هذا السلطان :

الموكب السلطاني . واعتزم مرتين قتل جميع المسيحيين في إستانبول لولا أن أوقف في وجهه أسعد زاده أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام وحذره من مغبة هذا الإجراء . وأدرك محمد زاده باشا الصدر الأعظم أنه يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات مجموعة من الجوارى الحسان الروسيات والبولنديات والمجريات والفرنسيات . وقال إنهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ، ولا يقدرن المسئولية ، وإن الدولة على وشك الانهيار . وقد أسر بهذا الحديث إلى أحد أصدقائه . وانعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة . فهاجم القوزاق سواحل البحر الأسود . وأغارت جمهورية البندقية على البوسنة ودماشيا وجزر ييلوبونيز Péloponése أما الموقف الداخلي فقد ازداد إندهوراً ، إذ استمر السلطان في مجونه وفسقه . وغدا العوبة في أيدي محظياته . وكان له من بين أصفياه أحد علماء الدين ، واسمه جنجى نخوجه حسين ، كانت بضاعته من العلم قليلة ، وكان سيم السيرة ، استغل نوبات الإغماء التي كانت تعترى السلطان وعالجه بطلسيات سحرية حتى استطاع أن يسيطر عليه سيطرة تامة . واستنفدت شهرات إبراهيم ومطالب الحريم وأهواء رجال البلاط الموارد المالية للدولة . وزيدت فئات الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات الترف أنجوني في القصر . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى قيام ثورة عاون فيها علماء الدين وعلى رأسهم شيخ الإسلام أبو سعيد . ولجأت الفياق الإنكشارية إلى حركة تمرد . وكان الصدر الأعظم ، هزار پاره أحمد ، أول ضحايا الثورة التي أدت إلى عزل هذا السلطان عام ١٦٤٨ والمناداة بابنه محمد سلطناً باسم محمد الرابع ، وكان لا يزال صبياً ، له من العمر سبع سنوات (١) . أما والده المعزول فقد تم نقله إلى « چيلي كوشك » أى القصر الصيني حيث شق في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٨ بعد أن قضى عشرة أيام في موقعه الجديد والأخير قبل أن يضم القبر هذا السلطان الذي باع نفسه للشيطان .

الصراع على مراكز القوة بين والدة السلطان وجدته لأبيه :

أجلس على عرش الدولة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) . وكان من الطبيعي أن يدور صراع سافر وعنيف في الحرم السلطاني على مركز القوة في حكم سلطان يبلغ من العمر سبع سنوات . وتنافست سيدتان تبغى كل منهما أن تستأثر بالنفوذ الأعلى . كانت إحداهما جدته لأبيه وهي سيدة يونانية الأصل عجوز اسمها كوزم ماهيبكر Koezem Mahpeiker ، وكانت الأخرى والدته ، وهي سيدة روسية الأصل ، لا تزال في ميعة الصبا ونضارة الشباب ، عرفت باسم السلطانة والدة طرخانة Trrkhane واشتدت حدة التنافس بين الاثنتين . ولم تأخذ الجلدة العجوز بنصائح وتوجيهات العقلاء من أعلام السياسة والفكر في الدولة . واتجهت إلى زعماء الحركة التي قامت عام ١٦٤٨ وأسفرت عن عزل وقتل السلطان إبراهيم المجنون . وتأمرت مع الإنكشارية على قتل منافستها السلطانة والدة طرخانة . وفي الليلة المحددة لتنفيذ المؤامرة فتحت أبواب القصر السلطاني وأبواب جناح طرخانة ليسهل على الإنكشارية التسلل إلى مخدعها . وشعر الحرس بحركات مريبة وكان الأغوات الخصيان يكونون ولاء عميقاً للسلطانة والدة . ودوت في أرجاء القصر نوبة الخطر في سكون الليل ، وفزع الحرس إلى أسلحتهم وأغلقت جميع الأبواب ، واتخذ الجميع أماكنهم على أهبة الاستعداد لقتل كل من تحدته نفسه بالاقتراب من القصر . وتوجهت فرقة من الحرس إلى جناح السيدة العجوز جددة السلطان واندفع أفرادها إلى مخدعها ، فوجدوها مخفية في دولاب الملابس بحجرة نومها ، ولم تكذب أعينهم تقع عليها حتى ذبحوها . وعلى الرغم من انفراد السلطانة والدة طرخانة بعد هذا الحادث الذي وقع في عام ١٦٥١ ، استمرت شئون الدولة في التدهور واستشرى نفوذ مراكز القوى فيها : علا نفوذ الأغوات الخصيان في دوائر الحكومة ، وتصاعد نفوذ الحرم السلطاني ، وطغى العسكريون وبخاصة الإنكشارية وملأوا البلاد فساداً ونهباً . وتعاقب على منصب الصدارة العظمى حتى عام ١٦٥٦ ثمانية صدور عظام أعدم معظمهم نتيجة دسائس الحرم السلطاني وطغيان الإنكشارية .

إحدى مراكز القوى في الحرم السلطاني: يونانية تتعطر بورد الربيع:

كان السلطان محمد الرابع قد شب عن الطوق واستعال حكمة زهاء أربعين عاماً ، وأصبح له قاديئات ، وفي مقدمتهن باش قادين أو خاصكي سلطنة ، أطلق عليها ربيعة جولمش Rabia Gulmish ومعناها السيدة التي تتعطر بخلاصة عطر ورد الربيع ، أو التي لا تروى عطشها إلا بماء ورد الربيع . وكانت جارية يونانية الأصل ، يميل لون بشرتها إلى السمرة الخفيفة ، ولكنها كانت ذات جمال ودلال وجاذبية . وسرعان ما اشتعل الصراع التقليدي على مراكز القوى في الحرم السلطاني بين السلطنة الوالدة والخاصكي سلطنة . وكان السلطان يستحيب لرغبات الأخيرة ، ويستمتع لتوجهاتها ونجا نفوذ السلطنة الوالدة طرخانة التي تفرغت إلى تنشئة ولديها سليمان وأحمد . وكانا يليان أخاهما السلطان في السن . وكانت طرخانة تعدهما لارتقاء العرش بعد أخيهما .

ولم يشترك السلطان في أي حرب خاضتها الدولة على عهده . وفي إحدى المرات التي كان الجيش يتأهب فيها للتحرك إلى ميدان القتال أعلن محمد الرابع عن عزمه على قيادة الجيش وخرج فعلا مع الجيش راكباً حصانه . ولما وصلت القوات العثمانية إلى أدرنه توقفت قليلا ، ونزل السلطان من حصانه ، وسلم البيرق النبوي إلى الصدر الأعظم وعلق على عنقه خصلة من الريش رمزاً لشجاعته ، وقال له إنه سيدعو الله كي ينصر الجيش . وقفل السلطان راجعاً إلى قصره حيث استدعى إليه كبار المنجمين ليخبروه عن نتيجة الحرب التي سيخوضها الجيش ، وهل ستكون انتصاراً أو هزيمة .

هذه الشجاعة المزعومة التي تخلت عنه أو تخلى هو عنها وهو يسير مع الجيش إلى إحدى الجبهات الحربية كانت تعاوده من وقت لآخر حين شرع أكثر من مرة في قتل أخويه سليمان وأحمد ، كي يفسح الطريق أمام ولديه ليحكم بعده مباشرة . وكان على أفندي شيخ الإسلام يحول بينه وبين ما كان يشتهي . وفي إحدى المرات لما سجا الليل تسلل إلى مخدع أخويه وفي يده سيف

مسلول يريد قتلها. وتصدت له والدته واستطاعت أن تنزع السيف من يده .
وقد وقع هذا الحادث في عام ١٦٦٩ (١) .

وقع اختيار مراكز القوى على رجل يسمى جورديج Gourdj لشغل منصب الصدر الأعظم . وكان يبلغ من العمر مائة عام وكان الدولة قد أصيبت بالعقم في الرجال ، فلم تجد مراكز القوى خيراً منه . ولكنها كانت في الحقيقة تهدف إلى اتخاذ العوبة في يدها تتخذ عن طريقه ما تشاء من قرارات . كان هذا الرجل ضعيف الذاكرة ، بطيء التفكير ، وهن العظم منه ، واشتعلت لحيته شيئاً . وكان في مناقشاته يشير إليها ويمسكها بيمينه . وكانت السلطنة والودة طرخانة تراقب من وراء ستار مناقشاته في أثناء رياسته للدبوان الهايوني . وفي إحدى المرات فقدت أعصابها وصاحت قائلة « يا أبتى إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو شعر أسود . إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . إنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السديدة » .

رئيس الخصيان السود يقدم للسلطنة والودة أحد الصدور العظام :

ولما تزايدت الأخطار وأحدقت بالدولة من يمين ويسار، رأت السلطنة والودة طرخانة أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذى بأس شديد هو محمد باشا كوبريلي وهو ينتمي إلى أسرة كوبريلي الألبانية . وقد أحضره إليها في الخفاء رئيس الخصيان السود في الحريم السلطاني . واشترط محمد كوبريلي عدة شروط لقبول هذا المنصب ، منها : إطلاق يده في اختيار العناصر الصالحة لشغل المناصب الحكومية ، ومنحه سلطات واسعة للضرب على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة ، وسمح المؤامرات التي قد يدبرها

(١) تولى كلاهما الحكم بعد أخيهما . وتراوحت مدة حكم كل منهما بين أربع وخمس سنوات . فحكم سليمان الثاني من عام ١٦٨٧ حتى توفي سنة ١٦٩١ ، وخلفه أخوه أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥) وقد أظهر الأول ضعفاً شديداً أمام التمرد العسكري الذي قام به الإنكشارية واقتحموا دار سيانوس باشا الصدر الأعظم وقتلوه واعتلوا اعتداءً منكرًا على حريمه . أما السلطان أحمد الثاني فكان غاملاً وانحصرت هوايته في الشعر والموسيقى مع ميل إلى التصوف . واحتلت جمهورية البندقية جزيرة ساقز سنة ١٦٩٤ وخسرت الدولة مصطفي كوبريلي باشا الصدر الأعظم وخلفه في منصبه مره به جي باشا وكان غاملاً ضعيفاً وعلا نفوذ الحريم السلطاني .

البعض ، وعدم الاستماع إلى الوشايات التي قد يروجها المرجفون ابتغاء النيل من تصرفاته أو سمعته ، وغير ذلك من شروط وافقت السلطنة الوالدة عليها وعلى غيرها ، وتقلد منصبه في عام ١٦٥٦ ونستخلص من هذا التعيين حقيقة هامة هي أن أحد الصدور العظام الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ الدولة قد وصل إلى منصبه عن طريق رئيس الخصييان السود والحريم السلطاني . وتدل هذه الحقيقة بدورها على عظم نفوذ هاتين القوتين : الخصييان وأغواتهم ، والحريم السلطاني ، كركزين من مراكز القوى في الدولة .

ولم يكن السلطان محمد الرابع ذا مواهب ممتازة ، وكان مستوى تفكيره عادياً للغاية وشخصيته مهتزة . اهتم بتجديد الأوامر الصادرة بحظر تناول الخمر ، أو شرب القهوة ، أو التدخين . وكان الدولة قد فرغت من مشكلاتها الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بها . وكانت هوايته الرئيسية صيد البر . وقد بدد في هذه الهواية وقته وجهده ، وشغل أجهزة الحكومة بتشديد الحراسة عليه ، إذ كان لا يخلو له الصيد إلا في الأقاليم العثمانية الأوروبية تاركاً تصريف الأمور لمركز من أقوى مراكز القوى في الدولة : الحريم السلطاني : جدته ، ثم والدته ، ثم زوجه . واستراح لحكم مجموعة من الصدور العظام كانت غالبيتهم ألعوبة في أيدي الحريم السلطاني وأغوات الخصييان . ولم يشذ عنهم سوى آل كوبريلي .

وكان السلطان أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥) ، وهو ابن السلطان إبراهيم المعتوه ، على غرار من سبقوه . كان مسرفاً في الشراب ضعيف الشخصية تسيطر عليه حاشية تحركه كيف شاءت . وكان سوداوي المزاج ، أكثر من عزل الصدور العظام . ووقعت على عهده اضطرابات في الحجاز والعراق . وفقدت الدولة بعض ممتلكاتها في أوروبا . ولقيت الجيوش العثمانية الهزائم في معظم المعارك التي خاضتها ضد النمسا والبنديقية وسيطر البنادقة على جزيرة خيوس الهامة ، وكابلا من أعمال دلماشيا . ولم تكن الجيوش العثمانية أكثر توفيقاً في بولندا منها في دلماشيا .

ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد أيضاً السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ -

(١٧٣٠) وهو ابن السلطان محمد الرابع . استطال حكمه زهاء ثمانية وعشرين عاماً . وفي الفترة الأولى من حكمه (١٧٠٣-١٧١٨) عين ما لا يقل عن ثلاثة عشر صدرأ أعظم . ولكنه لم يكن حكيماً في اختيارهم أو بارعاً في توجيههم توجيهاً سليماً ، فلم يستعن بهم في القضاء على نفوذ مراكز القيرى في الدولة مثل الحريم السلطاني والحصيان أو الإنكشارية ، إذ لم يكن هو نفسه قلوة طيبة . فقد كان يميل إلى حياة المحون والفسق مع الجوارى الحسنان في القصر الجديد ، ولأنه أحاط نفسه بمركزين من مراكز القوى وهما السلطانة الوالدة ، ورئيس الحصيان السود . واتخذ له صفياء زوجة ابنته وعينه صدرأ أعظم سنة ١٧١٣ وعرف باسم سلحدار داماد على باشا . وكان هذا السلطان يجمع بين المتناقضات . ازدهر حكمه وانتصر على بطرس الأكبر قيصر روسيا ، وهو الانتصار الذي قلل من حجه خيانة بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم كما سبق أن ذكرنا . وجدد تجديداً شاملاً السلاح البحري ، ونفذ لأول مرة مشروع بناء السفن الحربية من ذوات الطبقات الأربع . وشهد عهده أيضاً توسعاً موقوتاً للحكم العثماني في مناطق واسعة من غربي فارس . ولكن تضافرت عدة عوامل أثارت سخط الشعب على السلطان أحمد الثالث . كان من بينها حياة الترف التي عاشها البلاط بكافة هيئاته ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة في الحياة العامة وتدهور مالية الدولة ، وانتشار المحسوية . وأخيراً قام الإنكشارية بحركة تمرد عسكري احتجاجاً على محاولة السلطان إدخال الأنظمة الحديثة في الجيش . وطالبوا بقتل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقبودان باشا . وأظهر السلطان ضعفاً شديداً في مواجهة العصيان العسكري ، ووافق على قتل الأول والثالث فقتلها الإنكشارية وألقوا بجثثها في البحر على الرغم من أن الصدر الأعظم الذي وافق السلطان على أن يقتله الإنكشارية كان صفياءً له وصهرأً له بسبب زواجه من ابنة السلطان - فاطمة سلطان - التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، كما كانت من قبل زوجة سلحدار على باشا بالإسم . وكان اسم هذا الصدر الأعظم الذي ضحى به السلطان لإرضاء الإنكشارية هو : نوشهرلى داماد ابراهيم باشا . ولم تمنع استجابة السلطان لطلباتهم من التناول عليه ، وجرأهم تساهله معهم على المطالبة

بعزله من العرش . ووافق السلطان واشترط تأمين حياته وحياء أبنائه . وتم عزله في أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٧٣٠ ، وخلفه ابن أخيه محمود الأول . أما السلطان أحمد الثالث فقد بقي في العزلة التي فرضت عليه حتى وافاه أجله المحتوم في عام ١٧٣٦ . ربما يذكر أنه على الرغم من الحروب التي خاضتها الدولة على عهد أحمد الثالث في الجبهات الأوروبية والآسيوية ، لم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحات القتال ، وقنع أو لعله ارتاح لقضاء وقته مع سيدات الحريم السلطاني .

والحق أن هاتين القوتين - الحريم السلطاني ، والخصيان البيض والسود يكملان بعضهما البعض في مجالات مراكز القوى في الدولة بحيث يصعب الفصل بينهما . ولا يمكن دراسة موضوع الحريم السلطاني دون استكمالته بدراسة موجزة لموضوع الخصيان . فقد كانوا اليد اليمنى واليد الطولى لسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني ، وأسهموا إسهاماً كبيراً في تصعيد نفوذ الحريم السلطاني .



الفصل الثاني والعشرون

مراكز القوى في الدولة (٦)

الخصيان وأغواتهم

الخصاء الجزئي والخصاء الكلي :

يقصد بالخصيان في هذه الدراسة طائفة من العبيد - بيض وسود - كانت الدولة تحصل عليهم من عدة روافد، وتلحقهم بخدمة الحريم السلطاني في القصور السلطانية . وقبل أن يباشروا أعمالهم كانت الدولة تعهد إلى بعض غير المسلمين بإجراء عمليات جراحية لهم . وكانت هذه الجراحات على نوعين : النوع الأول ويطلق عليه الخساء الجزئي *La Castration Partielle* ، وفي هذه العمليات تستأصل من أجسامهم أو تستل منها الخصيتان . والنوع الثاني ويطلق عليه الخساء الكامل *La Castration Complète* ، إذ كان يستأصل إلى جانب الخصيتين عضو التناسل . وكان يلحق بالعبد اسم الخصى (١) سواء أجريت له عملية الخساء الجزئي أو الخساء الكامل . وكان الهدف من هذه العمليات هو القضاء تماماً على المقدرة الجنسية لدى أولئك العبيد ، وبذلك يكون ولي الأمر - وهو السلطان في هذه الدراسة - مطمئناً الاطمئنان الكامل إلى سلوك أولئك الخصيان عندما يختلطون في أجنحة الحريم بزوجات السلطان وجواربه وأميرات الأسرة العثمانية الحاكمة . وكان هناك تمايز بين العبد الذي تجرى له عملية الخساء الكامل والعبد الذي تجرى له عملية الخساء الجزئي . فالأول كان يؤدي شتى أعمال الخدمة الداخلية للسيدات في أدب جم وتفان بالغ ابتغاء الظفر بمرضاتهن . وكانت الخدمات الداخلية على الرغم من تنوعها وحساسيتها توزع على هذا الفريق من الخصيان . والملئك كانوا على اتصال

(١) جمعها خصيان بكسر الخاء ومكون الصاد .

دائم ووثيق بهؤلاء السيدات مما أتاح لهم عديد الفرص لمزيد من النفوذ والجاه . أما الخصى الذى تجرى له عملية الخصاء الجزئى فيكون عمله مقصوراً على الخدمة الخارجية وعلى حراسة أجنحة الحرم . وتكون مرتبته أدنى من مرتبة زميله الذى أجريت له عمية الخصاء الكامل . ولكنه لم يكن يقل عن زميله أدباً وخلقاً وإخلاصاً وتفانياً فى العمل .

وكانت تظهر تغيرات جسمية ونفسية على أفراد هاتين الطائفتين من الحصيان فتغدو قامتهم طويلة أكثر من الطول الطبيعى لأجسامهم ، وكذلك أصابع أيديهم . وتميل قامتهم إلى الإنحناء عند الكفين ، وتتدلى شفاههم السفلى ، وتتأثر قوة الإبصار لديهم .

وكان شعورهم بفقدانهم القدرة الجنسية يترك آثاراً عميقة فى نفوسهم . وينطوون على أنفسهم فى أوقات الفراغ أو الراحة ويحاولون فى ذات الوقت تعويض هذا النقص بنوع من الجبروت والتحكم والعتو يسيطر عليهم إذا تولوا منصباً ذا نفوذ . ومن هنا كان لهم ولرؤسائهم نفوذ كبير فى دوائر القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة على السواء كما سنرى بعد حين .

ألقاب الحصيان :

وكان يطلق على العبد الخصى فى تاريخ الدولة أحد لقبين : أولهما طواشى (١) وثانيها أغا (٢) . وكان يطلق على الحصيان السود فى القصور السلطانية قرة أغالر (٣) . ويطلق على زملائهم الحصيان البيض فبو أغا (٤) . ويلاحظ أن

(١) طواشى جمعها طواشية . وبجمعها الجبرى « طواشيون » . وهى غير كلمة طواش بفتح الطاء وتشديدها ، وهى شائعة الاستخدام فى دول الخليج العربية ، ومعناها تاجر اللؤلؤ وجمعها طواویش أو طواشون . أما الطواشة فمعناها بجارة اللؤلؤ . ويتردد الطواشون على البحرين والكويت وقطر والأحساء وهن لممارسة نشاطهم فى تجارة اللؤلؤ .
أنظر :

سيف مرزوق الشملان : تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى . الكويت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

(٢) أغا جمعها أغوات

(٣) قره فى اللغة التركية معناها أسود ، أى الأغوات السود .

(٤) فبو فى اللغة التركية تعنى باباً أو بوابة ، أى أغوات البوابة أو أغوات الباب .

(م ٤١ - الدولة العثمانية)

لقب أغا كان يطلق على أفراد فئات كثيرة من موظفي الدولة في شتى مراحل تاريخها. وكان هذا اللقب يباحق بوجه خاص بأسماء شاعلي المناصب العسكرية (١)

الإسلام والرق :

وقبل أن نمضي في الكلام عن العبيد الخصيان ودورهم في تاريخ الدولة كمرکز قوة ، نلم إلاماً سريعاً بموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لأن الخصيان كانوا أولاً وقبل كل شيء رقيقاً ، ثم أجريت لهم إحدى عمليتي الخصاص . فالرق بالنسبة لهم كان الأصل أو الأساس الذي وجه حياتهم وجهة معينة . أما الخصاص فقد لحق بهم بعد استرقاقهم .

لما جاء الإسلام وجد الرق نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متغلغلاً في حياة المجتمعات في معظم أنحاء العالم في ذلك الوقت . وكان موقف الإسلام من الرق واضحاً كل الوضوح . فقد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب . وعلى عادة الإسلام أخذ المجتمعات في هواده لنيل نظام الرق ، فعمل على الترخيب في تحرير الرقيق في صورة سلمية وهادئة ، وأتاح للمجتمعات فرصة اللانتهال كمي تتخلص شيئاً فشيئاً من هذا النظام . فعمد إلى طائفة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، مثل كفارة القتل الخطأ وما في حكمه . قال الله سبحانه وتعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً

(١) كان يطلق على قائد الفيالق الإنكشارية يكنى أعمسى أي أما الإنكشارية . وكانت له أسبقية على جميع ضباط الجيش العثماني وعلى وراء الدولة . وبعد أن ألقى السلطان محمود الثاني نظام الإنكشارية كانت تطلق كلمة أغا على الضباط الأميين حتى رتبة قائمقام (عقيد) . أما الضباط المتعلمون خرجوا المدارس العسكرية فكان يطلق عليهم « أفندي » تمييزاً لهم عن الضباط الأميين . وكانت كلمة أفندي تطلق على المدنيين المتعلمين من أرباب القلم . وكانت توجد حتى سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى رتبة عسكرية بين اليوزباشي (النقيب) والبيكباشي (المقدم) تسمى قول أعمسى ، أي قائد جناح أي صاغ (رائد) انظر :

Bowen Harold; Encycl. of Islam. Art. Agha. Eunuchs.

ويطلق على الخصيان في اللغة الفرنسية Eunuchs وفي اللغة الإنجليزية Eunuchs والكلمتان الأخيرتان مشتقتان من اللفظة اليونانية Eunochos بمعنى حارس غرفة نوم أو حارس في منطقة داخلية تقيم فيها سيدات .

إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . . . » (١) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق كفارة للحنث في اليمين . قال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، وإن كن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحتفظوا أيمانكم ، كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . (٢) وجعل الإسلام تحرير الرقيق أيضاً كفارة إذا أوقع الزوج على زوجته ظهاراً ثم عاد في ظهاره (٣) . قال تعالى علواً كبيراً « الذين يظاھرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والمدین یظاھرون من نسائهم ثم یعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن یتماسا ، ذانکم توعظون به ، والله بما تعملون خبیر » (٤) .

وقرر الإسلام للرقيق حتمه كاملاً في العتق والتحرر في نظير مبلغ يوثقه لسيده مؤجلاً ويتفق معه على مقداره . وهذا الاتفاق الذي يتم بينها يسمى في الشريعة « المكاتبه » (٥) ومنذ أن تم المكاتبه يملك العبد حرية العمل وحرية الكسب ويعود إليه أجر عمله . وفرض الله على السيد أن يستحط جزءاً من المبلغ مساعداً للعبد على جمع المبلغ الذي كوتب عليه . قال سبحانه وتعالى

(١) سورة النساء ، آية رقم ٩٢ . (٢) سورة المائدة ، آية رقم ٨٩ .

(٣) كان من عادة العرب أنه إذا غضب الزوج من زوجته قال لها « أنت حل كظھر أمی » فتصبح محرمة عليه . وهذا هو الظهار . وهو ممقوت شرعاً ، وقول منكر وزور بنص الآية الكريمة ، لأن الأم هي التي أنجبت الرجل ، والزوجة هي التي يتزوجها الرجل ، ولا يصح أن يجعل الرجل الزوجة محرمة عليه كماه أبداً يمثل هذا القول الباطل .

(٤) سورة المجادلة ، الآيتان رقم ٢ ورقم ٣ .

(٥) كانت تم صيغة المكاتبه على النحو التالي . يقول السيد لعبيه « كاتبك حل ألف دينار في أربعة أشهر ، تدفع في كل شهر مائتين وخمسين ديناراً . فإذا أديتها فأنت حر » فيقول العبد « قبات » .

« الذين يبتغون الكتاب (١) مما ملكت أيماكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (٢).
وآتوهم من مال الله الذي آتاكم (٣) . . . » (٤) ويلاحظ أنه إذا كان المكاتب
جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد مكاتبها . فيعتق معها بدون دفع
مبلغ آخر بمجرد قيامها بأداء المبلغ الذي كوتبت عليه .

ويحرص الإسلام أيضاً في مواطن عديدة أخرى في القرآن الكريم على
التنويه بأهمية إعتاق الرقيق وتحرير من أوقعهم سوء الطالع في الرق حتى
يستردوا آدميتهم وكرامتهم وحريةهم السامية . قال تعالى « ليس البر أن تولوا
وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى
والمساكين (٥) وابن السبيل (٦) والسائلين (٧) وفى الرقاب (٨) وأقام الصلاة
وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء (٩) والضراء (١٠)
وحين البأس (١١) ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١٢) .

وقد نزلت هذه الآية الترانة الكريمة فى أعقاب تحوّل المسلمين فى
صلاتهم عن قبلة المسجد الأقصى فى بيت المقدس إلى المسجد الحرام حيث
الكعبة الشريفة . وذكرت الآية أن البر ليس مقصوداً منه أن يولى الناس

(١) الكتاب هنا بمعنى المكاتب (٢) إن توسّم فيهم صلاحاً لذلك واستعداداً طيباً للوفاء .
(٣) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للسادة أصحاب العبيد بأن يدفعوا جزءاً من المال يستعين
به العبيد فى الوفاء بالتزاماتهم المالية نحوهم . وفى معنى الإيتاء حظ شئ من المال المتفق عليه .
وتحرص الآية الكريمة على أن الأموال التى لدى السادة الأترباء التى فرض عليهم أن يؤدوا جزءاً
منها لمساعدة الرقيق على التحرر إنما هى من نعم الله عليهم ومن أفضاله عليهم .

(٤) سورة النور ، جزء من الآية رقم ٣٢ .

(٥) هم الذين لا يبدون حاجتهم ولا يسألون الناس .

(٦) ابن السبيل هو المسافر المنتقطع عن ماله ولو كان غنياً فى بلده . ويسرى هذا الحكم فى
الوقت الحاضر على اللاجئين من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التى دنسها الاستعمار الصهيونية .

(٧) السائلون هم الذين ألبأتهم الحاجة إلى سؤال الناس .

(٨) وفى الرقاب أى للصراف فى فك رقاب الأرقاء أى تحريرهم ، إما بإعانة من يكاتب

سيده على العتق فى نظير مبلغ يؤديه إليه ، وإما بشراء رقيق وإعتاقهم من هذا المال .

(٩) البأساء شدة الفقر (١٠) الصراء المرضى

(١١) حين البأس وقت شدة القتال فى سبيل الله . (١٢) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٧ .

وجوههم في الصلاة نحو المشرق والمغرب ، وإنما البر هو أعمال وتكاليف تنشئ آثارها الطيبة في حياة المجتمع الإسلامي . والبر الذي يحقق أهداف الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد وباليوم الآخر والملائكة وبالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وإنفاق المال ، على الرغم من حب الناس له واعتزازهم به ، على فئات من المجتمع حددتها الآية الكريمة ، وكان من بينها « فك الرقاب » أي أن الإنفاق يوجهه - فيما يوجه إليه - لعنتق الرقيق بشرائه وتحريره ، أو بتقديم بعض المال الذي كوتب عليه الرقيق المكاتب مع سيده في نظير عتقه . ويلاحظ أيضاً أن هذه الآية القرآنية الكريمة ذكرت الزكاة بعد الحديث عن إنفاق المال على حبه على من جاء ذكرهم في الآية . والترتيب هنا مقصود . فالإنفاق في تلك الرجوه ليس بديلاً عن الزكاة ، وليست الزكاة بديلاً عنه . وإنما الزكاة هي ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم فيها . أما ذلك الإنفاق فهو مجاله الحر لتطهير قلبه ووصله بالمجتمع الذي يعيش فيه ووصل هذا المجتمع به . والزكاة ضريبة لا يسقطها الإنفاق . ولا تغني هي عن الإنفاق . وإذا علمنا أن الشريعة تخصص سهماً من حصيلة الزكاة لعنتق العبيد ، فإن معنى هذا الازدواج أن الشريعة قد أوجدت منفذين هامين وواسعين لتحرير الرقيق . إن هذه الآية تجمع بين أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلها وحدة لا تنقسم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر . وتصف الدين يتسمون بهذه الصفات بأنهم صادقون في إيمانهم وصادقون في ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة ذات أثر طيب في المجتمع الإسلامي ، كما تصنفهم بأنهم متقون يخشون الله ويتصلون بالله ويؤدون واجبهم لله (١) . فأي ترغيب في تحرير الرقيق أقوى أثراً في النفس من هذا السياق القرآني البليغ ؟

ولا يدع الإسلام فرصة تمر إلا ويحث المسلمين على التوسع في عنتق الرقيق . فأمر بتخصيص جزء من حصيلة أموال الصدقات لشراء العبيد

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، الطبعة الثانية ، ص

وتحريرهم أو تقديم المساعدات المالية لمن يحتاج منهم إليها في سبيل عنتهم
كالمكاتبين ومن إليهم . قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء (١) والمساكين (٢)
والعاملين عليها (٣) والمؤلفة قلوبهم (٤) وفي الرقاب (٥) والغارمين (٦) وفي
سبيل الله (٧) وابن السبيل (٨) فريضة من الله والله عليم حكيم » (٩).

ويرى بعض كبار رجال الفكر الإسلامى أن المعنى من لفظة « الصدقات »
التي وردت في هذه الآية القرآنية الكريمة إنما هو الزكاة (١٠). وكانت الزكاة
تشكل مورداً هاماً من موارد الحكومة الإسلامية تشدد في تحصيلها . وكانت
الحكومات الإسلامية على تعددها تحترم مصارف الزكاة بعامة ومصرف عتق
الرقيق بخاصة . وفي بعض الأحيان كانت تنفق فيه أكثر من المبلغ المرصود
لهذا الغرض (١١). ويلاحظ أيضاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الرقيق من بين

(١) الفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية .

(٢) المساكين سبق شرح معناها في الآية السابقة .

(٣) العاملون عليها الذين يقومون على تحصيلها ما لم تخصص لهم مرتبات من خزانة الحكومة .

(٤) المؤلفة قلوبهم هم طوائف من الناس دخلوا حديثاً في الإسلام ويراد تثبيتهم عليه ،
ومنهم الذين ترجو الدولة أن تتألف قلوبهم فيسلموا ، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا وترجو الدولة
تأليف قلوب أمثالهم في قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون .

(٥) وفي الرقاب سبق شرح معناها .

(٦) المديون في غير معصية لمساعدتهم في سداد ديونهم .

(٧) وفي سبيل الله أى إعداد العدة للجهاد وتجهيز المتطوعين وتدريبهم وبعث البعث
للدعوة إلى الإسلام وبيان أحكامه وشرائعه للناس أجمعين، وتأسيس المدارس والمعاهد والجامعات
التي تربي الناشئة تربية إسلامية سليمة ولا تتركهم يلتحقون بمدارس البعثات التنصيرية .

(٨) وابن السبيل سبق شرح معناها .

(٩) سورة التوبة ، آية رقم ٦٠

(١٠) تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أحمد ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطى . . القاهرة ، د . ت ، ص ١٦٠

سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ص ٨٠

دكتور عبد الواحلوفى : الحرية في الإسلام ، ادار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨-٤١ .

دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ح ١٠ ، ص ٦١

(١١) يذكر يحيى بن نعمان أن الخليفة الأومى عمر بن عبد العزيز قد عهد إليه بجمع الزكاة من

بعض الأقاليم الإسلامية في إفريقية فاتنضاهما . وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر =

طوائف ثمان أو يجب الإنفاق عليها من أموال الزكاة . وقد حدد الله هذه الطوائف تحديداً دقيقاً ، ولم يترك لرسوله عليه الصلاة والسلام ولا لأحد اختيار هذه الطوائف . وإنفاق هذه الأموال مقصور على أفراد هذه الطوائف ولا يتعداهم إلى غيرهم أبداً . وهي تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله وترد على الفقراء والرقيق ومن إليهم من حددت أوضاعهم الاجتماعية فريضة من الله « وهي ليست تطوعاً ، ولا تفضلاً ، أو منحة ممن فرضت عليهم ، فهي فريضة محتمة ، وهي ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ . فما قام النظام الاجتماعي في الإسلام على التسول ، ولن يقوم (١) .

وحبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أعظم قرينة يتقرب بها الإنسان إلى ربه . فتمد ذكر الله في القرآن الكريم عدة قربات يتخذها عباده الصالحون زلفى إليه سبحانه وتعالى . ولكنه جعل تحرير العبد على قمة هذه القربات . وفي هذا قال عز من قائل « فلا اقتحم العقبة (٢) . وما أدراك

عبد العزيز بعدائه وحكمته قد جعل الناس في غنى عنها . فأمر بتحويل الأموال المرصودة للفقراء والمساكين ليشتري بها كلها عبيداً وأعتقهم .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٨٠

(٢) العقبة في تفسير الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها . ولكن الله سبحانه وتعالى فسّر المراد بالعقبة هنا حيث قال « وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة » فأراد منها الطريق التي يصعب سلوكها إلى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وإنما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها . وفي هذا كتابه عن ميل الإسلام إلى الحرية وجفوته للأسر والعبودية .

ويقول الدكتور محمد محمود حجازي إن العقبة إن للإنسان عقبات من نفسه وشيطانه ودنياه . فيجب أن يكون جواداً لله فيفك الرقبة ويحتقها أو يعمل على ذلك بكل قواه .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وإن العقبة هي العقبة الكبرى التي لا بد من اقتحامها للوصول إلى الجنة . وهي تتطلب أن يقترب المؤمن في أثناء حياته إلى ربه بعمل جليل من أعمال البر لتحرير الرقيق .

أنظر كلامي :

الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم . الناشر مطابع الشعب . القاهرة ، الطبعة الرابعة . دت

ص ٦٩ .

دكتور محمد محمود حجازي ، التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣٠ ، ص ٥١

دكتور على عبد الواحد وإن : الحرية في الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١

مالعقبة . فك رقبة (١) ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة (٢) ، يتما ذاً مقربة (٣) ،
أو مسكيناً إذا متربة (٤) ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا (٥) بالصبر (٦)
وتواصوا بالرحمة . أولئك (٧) أصحاب الميمنة (٨) « (٩) .

وقد بلغ من تعظيم الإسلام لقربة تحرير الرقيق أن رسول الله صلوات
الله وسلامه عليه كان يضرب بها المثل في تقييم هذه القربة وعظم الثواب
عليها ، فيقول «من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة» أو « يكون ثوابه عند الله
ثواب من أعتق رقبة » (١٠) .

الإسلام ورق الحرب :

سبق أن ذكرنا أن الإسلام قد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب (١١)

(١) فك رقبة أى عتقها

(٢) المسغبة هى الحاجة

(٣) المقربة هى القرابة أو الصلة العائلية

(٤) المسكين ذو المتربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب . ويقال فقر مدقع
وفقر مدقع أى ملتصق بالنقاء وهى التراب .

(٥) تواصوا أى أوصى بعضهم بعضاً .

(٦) الصبر على المكروه وعن المصيبة

(٧) الموصفون بهذه الصفات .

(٨) الميمنة أى اليمين أو اليمن .

(٩) سورة البلد ، آيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٨

(١٠) أنظر ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة عن ثواب عتق الرقيق ووجوب إسهام
الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى مساعدة العبيد المكاتبين على أداء جزء من المبالغ التى يتعين
عليهم أدائها لتحريرهم من الرق ، فى :

صحيح البخارى : لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المقيرة بن بردزبه البخارى .
جزءان . د . ت ، ج ٢ فصل عنوانه « العتق وفضله ، ص ص ٦٥-٧٢

(١١) استلقت الشريعة الإسلامية من رق الحرب الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من
المسلمين . فهؤلاء لا يفرض عليهم الرق سواء كانوا من الطائفة الباغية أو من الطائفة المحيى عليها .

أما الحروب التى تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى فى رأى أصحاب المذاهب الفقهية
إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة ، من أهمها أن تكون أمثال هذه الحروب شرعية أى =

وقد أبقى عليه للضرورة ، لأن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين طبقاً للتقاليد السائدة . ولم يكن في مقدور الجماعة الإسلامية وقتذاك إجبار هذه المجتمعات على نبذ تقاليد حربية عميقة الجذور أخذت ما يعرف بالتعبير الحديث قواعد القانون الدولي العام . ولو فرض أن الإسلام قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان مثل هذا الإجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيئ في عالم الرق هناك . وفي ذلك إطماع للمعادين للإسلام في أهل الإسلام (١) .

وفي أول الأمر كان الإسلام يمنع فداء الأسرى المشركين الذين يقعون في أيدي المسلمين كي يستبقهم في حوزتهم لإضعافاً لشوكة المشركين وتقوية للمعسكر الإسلامي . ففي غزوة بدر - وهي المعركة الأولى الكبرى بين المسلمين والمشركين - كان النصر فيها حليف المسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من المشركين وأسروا منهم سبعين رجلاً ، وولى الباقون الأدبار . واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر في مصير الأسرى . فكان رأى أبي بكر أن يأخذ منهم الفدية تأسيساً على أن أولئك الأسرى هم بنو العم والعشيرة من

= يميزها الإسلام . وحسبنا أن نذكر هنا ثلاث حالات تشتمل فيها أمثال هذه الحروب :

أولاً : حالة الدفاع المشروع . وفي هذا يقول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعدوا ، إن الله لا يحب المتدينين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٠ .

ثانياً : حالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامي . وفي هذا يقول الله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا إيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . سورة التوبة ، آية رقم ١٢ .

ثالثاً : قيام أسباب تعرض أمن الدولة الداخلي أو الخارجي للخطر ، مثل إثارة الفتن . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٣ .

ولم تتجاوز حروب الرسل صلوات الله وسلامه عليه هذه الحالات سواء في ذلك حروبه ضد العرب أو ضد اليهود أو ضد الروم .

أ نظير

دكتور على عبد الواحد وافي . الحرية في الإسلام . مرجع سبق ذكره ، صص ٢٨-٢٩ .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢

ناحية ، وأن أخذ الفدية منهم يدعم مركز المسلمين تجاه الكفار من ناحية ثانية ، وقد يهدى الله أولئك الأسرى للإسلام ويصبحون عضداً للمسلمين من ناحية ثالثة . أما عمر فكان رأيه أن يمكنه رسول الله عليه الصلاة والسلام من قريب له فيضرب عنقه ، وأن يمكن علياً من عتيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وأن يمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله سبحانه وتعالى - علم ظهور - أن ليس في قلوب الصحابة هودة في جهادهم ضد أعداء الإسلام . فالصحابة يضربون أعناق أئمة الكفر وصناديدهم وقادتهم . وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأى أبي بكر . وارتضى أن يأخذ الفداء في مقابل إطلاق سراح الأسرى . فنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض (١) ، تريدون عرض الدنيا (٢) ، والله يريد الآخرة (٣) ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق (٤) لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٥) . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » (٦) .

وتشير الآية القرآنية الأولى في مطامعها إلى ضرورة الإثخان في الأرض ، أى يمضى المسلمون في نحوض معارك ضارية تالية وعديدة يتأون فيها الكثيرين من الكفار المحاربين ، ويستبقون ما يقع في أيديهم من الأسرى . والهدف من الإثخان والاستبقاء هو لإضعاف قوى المشركين . وتنطوى الآية على لوم المسلمين الذين قبلوا فداء أسرى المشركين في غزوة بدر « تريدون عرض الدنيا » حين قبوا المال وأطلقوا أسارى المشركين « والله يريد الآخرة » أى يبتغى توجيه المسلمين إليها لتكون هدفهم . ثم تقول الآية الكريمة « لولا كتاب

-
- (١) يثخن في الأرض أى يكثر فيها القتل ويبالغ فيه لئلا الكفر ويقل عدد أنصاره . مشتق من أتخنه المرض أى أنقله .
 - (٢) عرض الدنيا أى حطامها .
 - (٣) والله يريد الآخرة أى يريد لكم ثوابها ونعيمها .
 - (٤) لولا كتاب من الله سبق ، أى لولا حكم سبق من الله ، وهو أنه لا يعاقب المخطئ منكم .
 - (٥) أى لتالكم عذاب عظيم بسبب ما أخذتم من الفداء من الأسرى .
 - (٦) سورة الأنفال ، الآيات من رقم ٦٧ إلى رقم ٦٩ .

من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم». أى أنه أحنى المساجين من عذاب عظيم فى قبول الفداء من أسرى بدر تنفيذاً لوعده سابق بالعفو عن الخطئين . ثم أضحى الله الكثير من آلائه عليهم فأحل لهم الغنائم ، وكانت محرمة على المحاربين .

وإذا كان الإسلام قد منع فداء أسرى المشركين فى غزوة بدر ، فقد قرر فى ذات الوقت الإبقاء على حياتهم وهم فى الأسر ، لا ليستأنهم انتقاماً ، ولكنه لمس قلوبهم لمسة إنسانية رقيقة تحيى الرجاء فى نفوسهم وتطلق فيهم الأمل فى مستقبل مشرق خير من الماضى ، وفى مكاسب ترجح ما فقدوه من مال الفداء ومن الديار التى تركوها . قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (١) . وفى ذات الوقت الذى فتح فيه للأسارى نافذة الرجاء المشرق فى قابل الأيام ، حذرهم خيانة الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما خانوا الله من قبل ، فلاقوا هنا المصير . « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » (٢) ، خانوا الله فأشركوا به . فإذا عمدوا إلى خيانة الرسول وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة الخيانة الأولى . والله عليم بسر أروهم ، حكيم فى إيقاع العقاب عليهم . ولم يستمر قائماً هذا الحذر - عدم قبول فداء الأسرى الذين يتبعون فى أيدي المسلمين ، فلما اشتد ساعد المسلمين واستقرت أوضاعهم السياسية والعسكرية وقويت دعائم الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة أجاز لهم الإسلام حرية التصرف مع الأسرى فى نطاق المبادئ العامة للشريعة مع الاستمرار فى سياسة الإثخان فى الأرض . قال تعالى فى كتابه العزيز « نلذا للقيم الذين كفروا فضرب الرقاب (٣) ، حتى إذا أنختموهم (٤) فشدوا الوثاق (٥) ،

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧٠ . (٢) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧١ .

(٣) أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحلف الفعل وقدم المصدر .

(٤) أى أكثرتم قتلهم وأغلظتموه وجعلتموه نخيلاً أى غليظاً .

(٥) قيدوا الوثاق أى فأسروهم . والوثاق بفتح الواو أو كسرهما ما يوثق به ، أى ما

فإما من بعد (١) ، وإما فداء (٢) ، حتى تضع الحرب أوزارها (٣) . . . » (٤) ويلاحظ أن هذه الآية القرآنية الكريمة لم يرد فيها ذكر لكلمة الرق ، بل جاء فيها ذكر المن والفداء بعد وقوع الأعداء أسرى في أيدي المسلمين . ولم تعمل على الترغيب في الرق ، بل حثت على الترغيب في غيره . وفضلت المن والفداء على الرق .

نخلص من هذا العرض السريع لموضوع رق الحرب أن الإسلام لم يقر الرق في صورة مطلقة ودائمة . ولم يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، بل ترك للدولة الإسلامية أن تعامل أسراها وفقاً لما تنفق عليه مع أعدائها في ضوء قواعد الشريعة الغراء : فمن عليهم أو على فريق منهم بإطلاق سراحهم بدون مقابل ، وتفدى من تفدى من الأسارى من الجانبين ، وتبادل الأسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين ، حتى لا يصبح الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء (٥) . والإسلام لم يجعل الرق الحرب سوى مسلك من المسالك التي يجوز للدولة الإسلامية أن تتخذها حيال الأسرى . وقيده بقيود تؤدي إلى نضوب موارده وتقضي عليه بالتدرج . وأتاح الإسلام عديد الفرص أمام رقيق الحرب للعق والتحرر متى انضموا إلى الجماعة الإسلامية وقطعوا صلاتهم بالكفار المحاربين .

وقد أوجز أحد الأساتذة الباحثين الخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الرق في هذه الفقرة « لم يقر الإسلام الرق في صورة مطلقة دائمة ، وإنما أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدرج ، بدون أن يحدث ذلك أى أثر سىء في نظام المجتمع الإنساني ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة . وقد ارتضى للوصول إلى هذه الغاية أبلغ الوسائل أثراً ، وأصدقها

(١) فإذا منأ بعد أى فإما تمنون عليهم بإطلاق سراحهم منأ أى من غير شيء .

(٢) وإما فداء أى وإما تفدوهم فداء بمال أو بأسرى مسلمين أو يعمل يمهدون إليهم بأدائه .

(٣) أى حتى تضع الحرب ثقلها ، وهو كناية عن انتهاء العمليات الحربية .

(٤) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ، آية رقم ٤

(٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

نتيجة ، وأقصرها أمداً . ويتلخص ما ارتضاه للوصول إلى هذه الغاية في مسلكين : أحدهما تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغذيته وتكفل بقاءه ، بل العمل على تجفيفها تجفيفاً كاملاً ، والآخر توسيع المنافذ التي تؤدي إلى العرق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شيءً بمجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارد التي يستمد منها الماء . وخلق مجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف « (١) .

بعد هذا العرض الموجز لموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، ننتقل إلى موضوع العبيد الخصيان .

الخصاء بين التحريم والإباحة :

عرف الخضاء منذ عصور موحدة في القدم في الشرق والغرب على السواء . استخدم في الصين والهند . وأدخاه ملوك دولتي آشور وبابل في بلاطهم . وشاع الخضاء في العصر اليوناني وأخذته الرومان عن اليونانيين (٢) . وكان في مقدمة الواجبات التي عهد بها إلى الخصيان القيام على خدعة وحراسة السيدات والآنسات في التصور الحاكمة . ولما جاءت المسيحية وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية وتوطد مركز الديانة الجديدة انقسم رجال الكنيسة حيال نظام الخضاء فريقتين : فريق عارض الخضاء على أساس أنه نظام يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتعارض مع ما أراده الله من تعبير الأرض . وذهب هذا الفريق إلى القول بأنه يكفي أن طوائف كثيفة العدد من رجال الدين حرّموا من الزواج أو الاتصال الجنسي على أي نحو من الأنحاء ، وأنه لا داعي لمثل هذا التحريم إلى طائفة من الرجال مهما كان عددهم صغيراً من أجل أقلية ضئيلة العدد من السيدات ، وأن على أوليائهن أن يدبروا وسائل أخرى لخدمة هؤلاء السيدات وحمايتهن . وقد ظل هذا الفريق من رجال الكنيسة متمسكاً برأيه عبر العصور التاريخية الوسيطة والحديثة . وكان من أبرز البابوات الذين عارضوا الخضاء

(١) دكتور على عبد الواحد رافى : الحرية في الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣-٢٤

(٢) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

في العصور الحديثة البابا ليو الثالث عشر ، وهو من أصل إيطالي تولى كرسي البابوية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩٠٨ (١) . أما الفريق الآخر فقد أيد نظام الخصاء . وكان في مقدمة المؤيدين له القسس . وقد اندفعوا يشجعون خصاء الصبية لاستخدامهم في فرق الترتيل الكنسي محتفظين بسبب الخصاء بأصوات رفيعة رخيصة ، وكان يطلق عليهم السوبرانو (٢) Soprano ، كما كانوا يعرفون باسم الكاسترا (٣) Les Castrats والتعبير الأخير مقصور استخدامه على الصبية الذين أجريت لهم عملية الخصاء . وبعضى السنين نشأت طوائف دينية مسيحية شجعت عمليات الخصاء مثل طائفة « السكوبس الروسية » .

ولما جاء الإسلام كانت عادة الخصاء معروفة بل شائعة في جميع البلاد التي فتحها المسلمون . ومما هو جدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تقر مبدأ الخصاء إلا للضرورة القصوى إنقاذاً لحياة مريض أصيب ذلك الجزء من جسمه بمرض خبيث يتطلب استئصال الجزء المصاب من جسمه منعاً لانتشاره في باقى أجزاء الجسم . ولكن ظل مبدأ الخصاء محرماً محرمًا قاطعاً بحكم السنة . جاء في الصحيحين أن عثمان بن عفان سأل النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له في خصاء نفسه ، إذ أنه رجل تشق عليه الغربة في المغازى ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم « لا ، ولكن عليك بالصوم » . وجاء في الحديث الشريف « لا يُعتبر مسلماً من اختصى أو نخص آخر » (٤) . وعلى الرغم من هذا التحريم كان الرقيق من الخصيان يباعون في أسواق العواصم الإسلامية .

(١) اسم هذا البابا جواشم بيتشى Joachim Pecci وقد ولد في مدينة كارينيتو Carpinetto في إيطاليا .

(٢) Soprano كلمة فرنسية اشتقت من كلمة إيطالية بهذا المعنى . وتجمع في اللغة المرسية Soprani .

(٣) Castrat كلمة فرنسية من اصل لا تيني Castratus .

(٤) اعتبر علماء الشريعة الإسلامية أن الخصاء من العيوب التي تسوغ الطلاق باعتباره عيباً مستحكماً لا يمكن البرء منه ، ولا تستطاع معه العشرة إلا بصبر . فإذا تزوجت امرأة ووجدت زوجها خصياً ولم تكن قد علمت بحقيقة حاله عند عقد قرانها ولم ترض بالقيام معه وطلبت تطليقها ، طلقتها القاضي منه في الحال .

الدولة العثمانية تأخذ بنظام الخصاء :

وقد أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء في قصور السلاطين على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً مبدأ الخصاء . وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات القليلة بل النادرة التي خرجت فيها الدولة على الشريعة الإسلامية . وقد سبق أن ذكرنا أن من الخصائص البارزة أنها دولة ديانة تحرض حرصاً بالغاً على تعاليف مبادئ الشريعة والإلتزام التام بها في تصرفاتها وفي سياستها الخارجية والداخية . ولا يعتبر وجود عبيد خصيان في بعض مدن وعواصم العالم الإسلامي مبرراً لأن تحلوا الدولة العثمانية هذا الحلو .

أقباط الصعيد يقومون بعمليات الخصاء للعبيد الوافدين من السودان :

كانت هناك طائفتان من الخصيان : الخصيان السود ، والخصيان البيض . وكانت مصر تعد المورد الأول للعبيد السود الخصيان . وكان الولاة العثمانيون في مصر يترقبون وصول قوافل العبيد من دارفور وكردفان وسنار في السودان إلى أسبوط . وكانت قوافل دارفور وكردفان تسلك في رحلتها الشاقة طريقاً أطلق عليه ذرب الأربعين لأن الرحلة كانت تستغرق أربعين يوماً . وكانت أسبوط هي نهاية المطاف . وكانت قافلة دارفور وكردفان تحمل منبويًا عددًا من العبيد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف عدا كميات من العاج والتمر هندي وجاود الثمور والصمغ وريش النعام والكمون وتراب الذهب والتعابرون . أما قافلة سنار فكانت تحمل في رحلتها السنوية بضع مئات من العبيد . وكان الباشا العثماني في القاهرة يبعث مندوبين إلى أسبوط أو يعهد إلى حاكم الصعيد ولقبه بك جرجا أو حاكم جرجا . وكان أحد كبار الأمراء المالكيك (١) ، بشراء

(١) كانت سلطته تمتد إلى معظم أقاليم الوجه القبلي وإلى الواحات وقبيلة الحوارة وسائر القائل النازل في تلك الأقاليم .

أنظر

عدد معين من العبيد الذين جاءت بهم التنافلة . وكان الباشا العثماني يوصي بشراء العبيد صغار السن . وفي أسيوط أو أبي تيج ، وبأمر الباشا ، كانت تجرى لهؤلاء العبيد عمليات الخصاء الجزئي أو الخصاء الكلي . وكان أقباط أسيوط هم الذين يتولون إجراء عمليات الخصاء ، لأن الشريعة الإسلامية تحرم الخصاء كما ذكرنا . وبعد أن يتم شفاؤهم كانت سلطات أسيوط تقوم بترحيلهم إلى القاهرة بالطريق النهري في معظم الأحوال (١) . ويبعث الباشا العثماني في القاهرة بهذه النماذج البشرية بمثابة هدايا إلى السلطان في إسطنبول . وقد نهج حكام بعض الولايات العثمانية الأخرى نهج حكام مصر في خصاء العبيد وتقديمهم هدايا للسلطان . وكان أولئك الحكام يحصلون على العبيد بالشراء أو بآية طريقة أخرى . وهكذا كان للسلطان العثماني مورد ثان للخصيان . وكان هناك مصدر ثالث يحصل منه السلطان على الخصيان هو الشراء . ومن هذا المصدر الثالث كان السلطان يحصل على الخصيان البيض . وكان موطنهم الأصلي بلاد القوقاز . وكان أسرى الحروب من قبائل الـدلاف وأهل بوهيميا ومن الحرمان بضاعة آدمية ثمينة . كانت تجرى لهم عمليات الخصاء بمعرفة أسريهم ويباعون رقيقاً للسلطان وما يفيض عن حاجة السلطان كان يرسل إلى العواصم الإسلامية حيث يعرضون للبيع في أسواق الرقيق . وأخيراً كان هناك مصادر رابع يحصل منه السلطان على الخصيان مباشرة وذلك بإجراء عملية الخصاء لأفراد من الفئالق الإنكشارية كنوع من العقوبة توقع عليهم بعد أن تكون القيادة العسكرية قد استنفدت معهم كل الوسائل لردعهم . وكان هذا الفريق من أفراد الإنكشارية ينضمون إلى الخصيان البيض . ويقرر بعض الباحثين أنه كان قليلاً جداً عدد الإنكشارية — وهم الجنود البواسل — الذين

(١) انظر ما جاء بخصوص مدينة أسيوط وقافلة دارفور وسنار في :

Description de L'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant L'Expédition de L'Armée Française. Edition de C.L.F. Pauckoucke, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols de texte in—8 et le même nombre de Planches; vol. IV, pp.125—133, vol XVII p.p. 277—305, 278—291 et 291—299.

جولتهم الدولة إلى حصيان . بينما يرى البعض الآخر من الباحثين أن عدد الإنكشارية الذين أجريت لهم عمليات الخصاء كان على العكس كبيراً جداً (١) . ونرى أن كلا الرأيين صحيح . ففي عصر سلاطين الفترة الأولى كان الإنكشارية يستبلسون في القتال ويستترخصون الموت ومثلاً أعلى في الطاعة والإنضباط العسكري ، ولذلك ندر منهم من كانت اللواطة تحوهم إلى حصيان . ولما تدهور نظام الإنكشارية في عصر سلاطين الفترة الثانية تعددت حوادث التمرد والعصيان التي كانت تصدر منهم ، فزاد عداد الإنكشارية الذين وقعت عليهم عقوبة الخصاء . ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفتقدون لياقتهم البدنية ركفايتهم الحربية بعد إجراء عمليات الخصاء . فإذا كانت التصور السلطانية قد كسبت الإنكشارية الخصيان ليقوموا على حراسة وخدمة الحرم السلطاني ، فإن الجيش العثماني قد خسرهم كمحاربين أشداء .

إجراءات استقبال الخصيان الجدد :

وضعت الدولة أنظمة في التصور السلطانية لتطبق على الخصيان . وتتعاقب السنين رسمت هذه الأنظمة حتى غدت من التقاليد المرعية . وسنرى صوراً منها في هذا الفصل . فعند وصول الخصيان إلى إستانبول كانوا يعتنقون الإسلام وياتحقون بالسرأي الجديد . ويبدأون حياتهم الجديدة فيه بعرضهم أولاً على « التيزلر أغاسي » وهو رئيس الخصيان السود ، ثم يعرضون على ضابط كبير يطلق عليه « باش قاي غلامى » أى رئيس غلمان البوابة ، وهو في ذات الوقت كبير ضباط حرس الخصيان ، فيأرجح أسماء الخصيان الوافدين الجدد في كشوف التعيينات . ثم تجي الخطوة التالية، والأخيرة فيؤخذون إلى المشرف العسكري الذي يشرف على إعدادهم علمياً وعسكرياً . وكان يطلق عليه بهاء الصفة لقب « لا لا » (٢) Lala أى المشرف . ويكون هذا المشرف أحد

Lybyer A.H.; op. cit., p. 57 and f.n. no.5.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part 1, p. 331.(٢)

وكان يطلق على كبير المشرفين : « لا لا باتى » . ويلاحظ أن لقب « لا لا » كان يطلق أيضاً على الشخص الذى يتولى الإشراف على تربية أبناء السلاطين . وكان لهذا المصطلح مدلول آخر هو « الأب العزيز » .

الصف ضباط من رتبة « حاصلية » (١) Hasillis أو « أورتانجه » (٢) Ortaça وكان على الخصيان أن يقبلوا يد هذا المشرف في مستهل لقاءهم الأول معه .

تدريب الخصيان :

لوعقب الفراغ من إجراءات الاستقبال كانت تعد للخصيان دراسات تدريبية نظرية وعملية على المهام التي يعهد بها إليهم في قابل الأيام . فيتعلمون القراءة والكتابة باللغة التركية ، وقدراً يسيراً من الثقافة الدينية الإسلامية باللغة العربية تمكيناً لهم من أداء شعائرهم الدينية ، ثم المعلومات العامة مع دراسة في السلوك الإجتماعي الممتاز . وكان يقوم بتعليمهم المواد النظرية مجموعة من المدرسين يطلق عليهم « الخوجات » (٣) . وفي ذات الوقت يتلقون تدريباً على بعض المهارات العسكرية . ويقوم رؤسائهم بالمهمة الأخيرة . وكان الخصيان في أثناء تلتهم دراساتهم يستخدمون بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم كانوا يعينون للخدمة التي تبدأ بحراسة أبواب دوائر الحرم . ولذلك خصصت لهم عنابر يعيشون فيها على مقربة من هذه الأبواب . وكان كل خصي عندما تنتهي نوبة حراسته يتلقى في أثناء جزء من فترة راحته مزيداً من الثقافة الدينية والمعلومات العامة .

وكان لكل مبنى مستقل في منطقة الحرم السلطاني ، وهو الذي يطلق عليه دائرة ، مثل دائرة السلطنة الوالدة ، ودائرة الباش قادين ، ودوائر القادينات ، ضابط خصي مسئول يطلق عليه باش أغا . ويعمل تحت إمرته

(١) حاصلية ومفردها حاصلي ، معناها كامل التدريب . وكان يحمل هذه الرتبة صف ضابط . وكان عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة اثني عشر . وكانوا يسبقون في المركز الأورتانجات .

(٢) الأورتانجات ومفردها أورتانجه ، عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة لا يزيد عن خمس . ومعنى أورتانجه وسط أي أن صف الضباط الأورتانجه يكون في مركز وسط بين الحاصلية وبين « النوبت قلفه سيه » الذين يجيئ مركزهم بعده : انظر اختصاصات هذه الطائفة الأخيرة في ص ٦٦٠ ، حاشية رقم ٤

(٣) خوجات كلمة تركية مفردها خوجه . ومعناها المعلم أو المدرس .

عدد كبير من الحصيان من أصحاب الرتب الصغيرة ، ويسمون « حرم أغاسية » .
أبى أغوات الحریم تمييزاً لهم عن أغوات الحراسة . وكان في القصور السلطانية
الأخرى حرس من الحصيان ، برأس حرس كل قصر « باش قانی غلامی » ،
ولكن كانوا جميعاً يخضعون لرئيس الأغوات السود . وكان شأنهم في ذلك
شأن الحصيان الذين يعملون في خدمة الأمراء والأميرات المتزوجات وغير
المتزوجات . وكان لكل أميرة « باش أغا » على غرار النظام الموضوع للسلطنة
الوالدة والقادينات . وكان لها أيضاً « باش قانی غلامی » ، و « ماينجى » (١)
يأمر على عشرة أو اثني عشر خصياً من حصيان الحریم . وكان في مقدور كل
قادين ، فضلاً عن الباش قادين والسلطنة الوالدة ، أن تستخدم الحصيان في
أى مرحلة من مراحل ترقيةهم لخدمتها في الحریم . فقد كان من حق كل منهن
أن تستخدم كثيرين من الحصيان . وكان هناك أيضاً عدد من الحصيان السود ،
يطلق على كل منهم « مصاحب » . ومهمة كل منهم مصاحبة السلطان وهو
ذاهب إلى أجنحة الحریم ، وكذلك تلقى أوامر السلطان في بعض الأحيان
وحملها إلى القبزلر أغاسى . وكان عدد المصاحبين يتراوح بين ثمانية وعشرة ،
يعمل كل اثنين منهم معاً في وقت واحد ، ويرأسهم جميعاً « مصاحب باشى » .

وكان القصر يهتم اهتماماً بالغاً بنظافة الحصيان وبقيماهم بواجباتهم الدينية
وبمراعاتهم للتقاليد المعمول بها في القصور السلطانية وبتمسكهم بقواعد
الإنضباط العسكرية على أكمل وجه . وكان يقوم بمراقبتهم خصيان يطلق
عليهم « موصندرة جية » (٢) يرأسهم « موصندرة جى باشى » .

وكان جميع الحصيان حتى رتبة الحاصلى يعاقبون بالضرب . أما الحصيان
الذين فعلوا مرتبتهم عن مرتبة الحاصلى ، فكان يقتصر على نصيحهم ثم زجرهم .

(١) ماينجى مشتقة من كلمتين عربيتين هما : ما ، بين ، أى في الغرف الوسطى . وكان
هذا الخصى هو أقرانه الذين يعملون في هذه الغرف يقومون بخدمة السلطان شخصياً . وكانت
خدمتهم فيها حساسة ، وتحتاج إلى مهارات خاصة .

(٢) موصندرة كلمة تركية معناها الدولاب أو الصندوق الذى تودع فيه الأشياء الثمينة
جداً ، مثل الماس والمصوغات الذهبية والفضية وما إليها .

فلذا تكررت أخطاؤهم أو كانت أخطاؤهم جسيمة كان السلطان يصدر خطأ شريفاً بنفيهم إلى مصر .

الخصيان السود :

كان يطلق على رئيس الخصيان السود « دار السعادت أغاسى » أى أغا دار السعادة (١) . كما كان يعرف باسم « قيزلر أغاسى » أى أغا البنات . وكان هذا الرئيس - كما ذكرنا من قبل - يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . أما أصغر الخصيان السود مركزاً فكان يطلق عليه « إن آشاغى أغا (٢) En Asagi Aga وهو آخر خصى يلمق بالخدمة فى الحرم السلطانى . وكان لا يحتفظ بهذا اللقب أمدأ طويلا ، لأنه إذا جاء بعده خصى آخر والتحق بخدمة الحرم يتغير تلقائياً لقب الخصى الأول فيصبح « عجمى أغا » أى أغا ناشى* (٣) ، ويترك لقبه القديم للخصى الوافد الجديد .

وكان الخصيان السود فى أثناء الفترة التى يتلقون فيها دراساتهم النظرية وتدريباتهم العملية يستخدمون أحياناً بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم وتدريباتهم كانوا يعينون للخدمة التى تبدأ بحراسة أبواب الحرم . ولذلك كانوا ، كما سبق أن ذكرنا ، يعيشون فى عنابر على مقربة من الحرم السلطانى . وكان الطريق أمامهم ممهداً للتدرج فى قيادة حرس الحرم فى أربع مراتب . وكان قوام الترقية الأقدمية المطلقة أحياناً أو الحظوة التى يظفر بها بعضهم أحياناً أخرى من السلطان أو من إحدى سيدات الحرم (٤) . وعند ترقية الخصى كان عليه أن يذهب فى صحبة أحد

(١) دار السعادة اسم يطلق على إستانبول .

(٢) إن آشاغى أغا عبارة تركية معناها الأصغر درجة أو الأدنى مرتبة .

(٣) عجمى أغا ، وجمعها عجمى أغوات . ويجب التفرقة بين هذا المصطلح الذى يطلق على صفار الخصيان وبين عجمى أوغلان ، وجمعها عجمى أوغلات ، وهو مصطلح يطلق على ناشئة الإنكشارية .

ولعل منسأ الخلط الذى يقع فيه بعض الباحثين أن كلا من هذين المصطلحين يبدأ بكلمة « عجمى » لأن الإنكشارية والخصيان المبيد جاوا إلى الحياة غير مسلمين .

(٤) كانوا يرقون إلى رتبة (نويت قلفه سبه) ، ويعد حامل هذه الرتبة صف ضابط =

كبار ضباط الحرس إلى « القيزلر أغاسى » ويشكره ويقبل رداؤه ، ثم يذهب إلى مسجد الخصيان حيث يصلى ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى ، ثم يوزع هبة من المال على المعوزين في العاصمة .

وجدر بالذكر - وهو ما يهتما إلى أقصى حد في هذه الدراسة - أن الخصيان السود الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، أى الذين استوصلت من أجسامهم الخصيتان وعضو التناسل ، كانوا لا يمشون أمدأ طويلاً حرساً على أبواب أجنحة الحرم ، بل كانوا ينقلون سراعاً إلى الخدمة الداخلية في شتى دوائر الحرم . وكان يشار إليهم في هذه الخدمة الخصيان البيض من ذات النوعية ، أى الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، وكانوا يؤدون الخدمة الداخلية في مختلف صورها وأشكالها وأنواعها لسيدات الفئة الأولى من الحرم السلطاني مثل السلطنة الوالدة والباش قادين والقادينات وبنات السلطان بالإضافة إلى فتيات الغرف ومن إلهن من الجوارى الحسان دون أن تشعر هؤلاء السيدات بحرج ، ودون أن يشعر السلطان بقلق أو تخوف من أولئك الخصيان ، لأنه كان مطمئناً الاطمئنان كله إلى سلبتهم الجنسية . ولذلك يقرر بعض المؤرخين أن أفراد هذا النوع من الخصيان كانوا يشكلون جزءاً من الهبة النسائية في الحرم السلطاني (١) ، وهو تعبير يغنى عن كل تعليق . ومع ذلك فقد كان السلاطين يفضلون الخصيان السود على الخصيان البيض في مجالات الخدمة الداخلية الحساسة .

وكانت الدولة تخصص خصياً أسود أو أكثر من خصى لكل أمير محددة إقامته في مقصورة يطلق عليها القفص ، وعليه أمير القفص (١) . وكان هؤلاء الخصيان السود يعملون في خدمته بصفته المعلمين أو المشرفين عليه . وكان يطلق على كل منهم كلمة لا لا Lala . (٢)

== وكان لا يزيد عدد شاغل هذه الرتبة عن خمسة خصيان سود . وكان من اختصاصاتهم وقتذاك الإسهام في حراسة السلطان داخل منطقة الحرم السلطاني حين يخرج مع إحدى ساكنات هذه المنطقة للتزوء في حدائقها . وكان من اختصاصهم أيضاً تدارب المحافظة على مفاتيح الأبواب الأربعة المؤدية إلى منطقة الحرم . وقد سبق أن تعرضنا بالشرح لمعنى هذه الرتبة في هذه الدراسة .

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit; vol. 1, Part 1, p. 77.

(٢) سبق أن شرحنا مدلولات هذا التعبير .

أنظر من ٦٥٧ ، ح رقم ٢

وقد بلغ عدد الحصيان السود في الحرم السلطاني في القصر الجديد في القرن الثامن عشر مائتين. ولا يدخل ضمن هذا العدد الحصيان السود الذين كانوا يستخدمون في القصر القديم وفي غيره من القصور السلطانية .

ولكن على قدر هذا النفوذ الواسع العريض الذي تمتع به رئيس الحصيان السود، فإنه كان يتعرض للدسائس والمؤامرات تحاك له من داخل أجنحة الحرم السلطاني . ولا يلبث أن يرى نفسه قد هوى بين عشية وضحاها من قمة النفوذ إلى حضيض الضياع ، إذ يصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه ونفيه إلى مصر ، ويغادر إستانبول التي شهدت مجده . ويسبقه إلى مصر فرمان سلطاني موجه إلى الباشا العثماني بتقرير مرتب يصرف من ديوان الروزنامة لهذا الأيغا الخصى المعزول . فإذا وصل الأغا إلى مصر واطمأن إلى المورد المالي الزابت الذي يعتمد عليه في وضعه الجديد ، قام بأداء فريضة الحج في ذات السنة . وكان بعضهم ينضل الإقامة بقية حياته في مكة المكرمة أو المدينة المنورة . وكان البعض الآخر يعود إلى مصر يقضى فيها وعلى ثراها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وكان هذا الفريق من رؤساء الحصيان السود يشارك في الحياة السياسية المصرية في النطاق الذي يجيده ويرتاح إليه . فكان يسهم مع الأمراء المماليك في حجب الدسائس التي تستهدف عزل الباشا العثماني من منصبه وإزاله من قصره في قلعة الجبل ، وتحديد إقامته حتى تتم محاسبته على تصرفاته المالية . وكان رئيس الحصيان السود يستضيف الباشا العثماني ، أو يحدد له شيخ البلد - وهو كبير الأمراء المماليك - مكاناً آخر هو القصر العيني يقيم فيه حتى يتم ترحيله من مصر . ويجدير بالذكر أن الأغوات الحصيان السود كانوا يحملون معهم من إستانبول إلى القاهرة مدخراتهم المالية ، ويعملون إلى استثمارها في مصر بشراء أرض زراعية أو عقارات مبنية دارة ، على أن تحول عقب وفاتهم إلى وقف خيري ينفق لإبراده على أوجه الخير مثل المساجد والتكايا والأسبلة وما إليها. ويذكر أحد المؤرخين السويسريين وهو الأستاذ كومب أن أحد الأغوات الحصيان السود كانت له ممتلكات كثيرة في مدينة زفتي بالوجه البحري (١) .

الخصيان البيض :

كان يطلق على رئيس الخصيان البيض « باب السعادت أغاسي » أى أغا باب السعادة (١) ، كما كان يطلق عليه « قاي أغاسي » أى أغا البوابة (٢) . وكان الخصيان البيض يتقاسمون في بعض الأحيان مع زملائهم الخصيان السود العمل في حراسة وخدمة الحرم السلطاني . ونقول « في بعض الأحيان » لأنه كان هناك شد وجذب بين أفراد الطائفتين مرده إلى التنافس على الاستئثار بالنفوذ في القصور السلطانية ، وسنشير إليه في موطن قادم في هذا الفصل . وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين العمانيين ، وهو عطا طيار زاده أحمد (٣) ، كان السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) أول من استخدم الخصيان البيض في هذه الخدمة . وكان يوتى بهم من إقام القوقاز ، شأنهم في ذلك شأن الجزائرى اللاتي كان القصر يحصل عليهن بطريق الشراء من تجار الرقيق بسبب جمالهن الفاتن . وظلت حراسة الحرم السلطاني منوطة بالخصيان البيض حتى إذا ارتقى العرش السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) استبدل الخصيان السود بالخصيان البيض . ومعنى ذلك أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر كان الخصيان البيض هم الذين يستأرن بحراسة الحرم السلطاني وبالخدمة الداخلية في القصور السلطانية .

وكان يعاون رئيس الخصيان البيض خمسة مساعدون من كبار أفراد هذه الطائفة - الخصيان البيض - وكان يطلق على كل منهم لقب معين ، ولكل منهم اختصاصات محددة (٤) . وكان يلي هؤلاء المساعدين أعداد أخرى من

(١) يطلق عليه أيضاً ضابط باب السعادة .

(٢) يطلق عليه أيضاً ضابط الباب . وترد كلمة قاي مكتوبة قبو ، وكلاهما كلمة تركية

معناها باب

(٣) يسمى كتابه : «تاريخي عطاء» وهو يقع في خمسة أجزاء . وقد طبع في إستانبول عام

١٢٩٣ هـ ويقابل عام ١٨٧٦ م . وقد نقلنا رأيه الذي ذكره في ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٦ من

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 76.

(٤) كان هؤلاء المساعون :

الخصيان البيض كانوا على شاكله من سبقوهم ، مختفى الألقاب والاختصاصات (١) ،
تليهم مجموعات كثيفة العدد من زملائهم لن نتعرض المكرم اكتفاء بما
عرضناه .

وكان الخصيان البيض يشرفون على تعليم وتدريب الغلمان - وهم من
حصيلة ضريبة ديوشومه (٢) - وكان يطلق على هؤلاء الغلمان المبتدئين « الإيج
أوغلان » (٣) وكان الخصيان البيض يقومون بهذه المهمة في جالاتهم سراى ، (٤)

- أ - خاص أو طه باشى ، أى كبير المشرفين على الأروطة الخاصة ، وأوطه معناها جناح .
- ب - خزينة دار باشى ، أى رئيس خزانة القصر .
- ج - كلا رجبى وهو المشرف على الكلار ، أى مستودع المواد التموينية فى القصر .
- د - السراى أغاسى أى أغا أو ضابط القصر . وكان من اختصاصاته تأمين سلامة
مبانى القصر . ولهذا السبب كان يعمل تحت قيادته أربعمون خصياً .
- هـ - السراى كاخياسى أى مفتش القصر . واستثناء من القاعدة العامة لم تكن اختصاصاته
محددة .

(١) كان من بينهم :

أ - خمسة يطلق عليهم « كوسة باشية » أى رؤساء الركن Heads of the Corner
ومهمتهم الإشراف على سلوك مرؤسيهم والاطمئنان إلى قيامهم بواجباتهم
على الوجه الأكمل .

ب - عدد غير محدود من « الباش إسكيه » أى كبار الرؤساء . وكان يطلق على
أكبرهم رتبة « أوطه كاخياسى » أى مفتش الأروطة .

ج - إثنان من « الأوزنكى أغاسيه » أى أغوات الركاب . وكان يطلق على أحدهما
« اليمىنى » ، وعلى الآخر الشمالى أو اليسارى ، لأنها كانا يسيران على جانبي
السلطان حين يكون ممثلياً صهوة حصانه .

د - عدد من الخصيان البيض الأقل مرتبة ، ويطلق عليهم « سفرة إسكيسية » أى
رؤساء المائة Seniors of the Table وكان اختصاصهم الإشراف على
نوبات طعام « الإيج أغوات » .

(٢) ضريبة الغلمان .

(٣) كان يطلق على الغلمان الذين قضوا مدة طويلة فى الخدمة « إيج أغوات » أى أغوات
الداخل . بمعنى موظفين فى الخدمة الإمبراطورية الداخلية . وفى العصور المبكرة كان من النادر
أن يتجاوز عمر كبار الغلمان خمساً وعشرين سنة . ولكن بعد إلغاء نظام ضريبة الغلمان أصبح
كبار الغلمان رجالاً تبلغ أعمارهم فى العادة ستين عاماً أو أكثر ، ولذلك كانوا لا يظنون فى آخر
منصب يحصلون عليه أكثر من سبع سنوات .

(٤) قصر مقام فى جالاته وهى إحدى ضواحي إستانبول .

أو في القصر القديم في أدرنة ، أوفى قصر إبراهيم باشا الذي أنشئ على عهد السلطان سليمان المشرع في الموضع الذي شيد فيه بعد ذلك مسجد السلطان أحمد . وكان هؤلاء الغلمان ينظمون في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشرة ، ويرأس نخصى أبيض كل مجموعة منها .

وأضيفت إلى اختصاصات رئيس الخصيان البيض الإشراف على الأوقاف المرصودة على الأراضي المقدسة في الحجاز . وكان يعاونه في إدارة هذه الأوقاف طائفة من الموظفين من خارج القصر وبعض علماء الدين من أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، ثم استطاع رئيس الخصيان السود انتزاع إدارة الأوقاف من رئيس الخصيان البيض وتصادد نفوذه بسبب هذا العمل الجديد (١) . وكانت تصرف لرؤساء الخصيان في مقابل إشرافهم على الأوقاف مرتبات إضافية تسمى ثمن الخداء - جزمة (٢) - وقيل في تبرير صرف بدل الجزمة لرئيس الخصيان إن إشرافه على إدارة الأوقاف كان يستفد منه جهداً مضميناً ووقتاً طويلاً . وفي القرن الثامن عشر كان رئيس الخصيان السود يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يرأس اجتماعات أسبوعية يحضرها المتولون (٣) يختصون بما يسمى « الحرميين ديواني » أي ديوان الحرمين . وكان يساعد رئيس الخصيان عدد من رجال القضاء كان يطلق على أحدهم « حرمين مفتشى » أي مفتش الحرمين واثنتان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما في بروسة والآخر في أدرنة . وكان من أسباب اختيار رؤساء الخصيان مشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ،

(١) مما هو جدير بالذكر أن بعض كبار سلاطين الدولة مثل محمد الثاني وسليم الأول وسليمان المشرع قد عينوا الصدور العظام نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم ، بينما عين السلطانان أبو يزيد الثاني وأحمد الأول شيخ الإسلام ناظرًا على مثل هذه الأوقاف .

(٢) الجزمة كلمة تركية تعني الخداء ذا الرقبة الطويلة أو حذاء ركوب الخيل . ومنها اشتقت العبارة التركية جزمة جى باشى أي كبير صائمي الأهدية ، ويمتسى مو ومساعدوه لأوجاقات أرباب الحرف .

(٣) المتولون جمع متول وهو بمثابة مدير إدارة الوقف . ويطلق على منصبه في اللغة التركية « توليت » أي تولية ، و« الناظر » وهو أعلى برتبة من المتول ، إذ كان يشرف على أعماله ، و« السكرتير » ، و« المحمل »

وعلى الأوقاف السلطانية أيضاً العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين السلاطين
وبينهم .

التنافس على مراكز القوى بين الخصيان السود والخصيان البيض :

قام تنافس شديد، بين الخصيان السود والخصيان البيض كان مرده إلى
رغبة كل طائفة منها في الاستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور السلطانية
وفي شئون الدولة . وقد سبق أن ذكرنا أن رئيس الخصيان السود كان يشغل
المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان هذا العبد
الخصي في درجة وزير . ونضيف هنا أن الرسائل التي توجه إليه باللغة التركية
كانت تستهل بهذه العبارة « دولتو عنايتار أفندم حضر تلىرى » أى حضرة
صاحب الدولة والفخامة والاحترام « أما الرسائل التي توجه إليه باللغة الفرنسية
فكانت تكتب مسبوقه بهذه العبارة الفرنسية . *Votre Altesse* أى « حضرة
صاحب السمو » أسوة بأمراء الأسرة العثمانية الحاكمة . وكانت له هيئة من
السكرتيرين المخصوصين يعرضون عليه المراسلات الموجهة إليه . وكان
السلطان يطمئن إلى الخصيان السود ورئيسهم أكثر من اطمئنانه إلى الخصيان
البيض ورئيسهم عادة . ولهذا السبب كانت اتصالات الصدر الأعظم
بالسلطان تتم في معظم الأحيان عن طريق رئيس الخصيان السود .

وفي أواخر القرن السادس عشر اهتز مركز الخصيان البيض اهتزازاً
عنيفاً على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فقد أصاب هذا
السلطان فرماناً في عام ١٥٨٢ بتعيين أحد كبار العبيد الخصيان السود في منصب
دار السعادت أغاسى . وكان هذا المنصب حتى ذلك الوقت تابعاً إما للخزينة
دار باشى وإما للسراى أغاسى . وقد استرد الأخير هذا المنصب بعد قرابة
عشر سنوات ، ثم أعيد هذا المنصب نهائياً إلى الخصيان السود حين تولى
السلطان محمد الثالث العرش (١٥٩٥-١٦٠٣) . وانتقل نهائياً الإشراف على
الحريم وعلى التفتيش على بعض الأوقاف السلطانية من يد القابى أغاسى -
وهو رئيس الخصيان البيض - مما أدى إلى إضعاف نفوذ الخصيان البيض

ونضاءات اختصاصاتهم . وعلى سبيل المثال أصبحت مهام الخاص أوطه باشى - وهو أحد كبار المساعدين الخمسة لرئيس الحصيان البيض - مقصورة على لباس ملابس التشريفة لكبار الموظفين مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وبعض موظفى القصر . وبذلك غدا هذا الخصى الأبيض الكبير مجرد تشرىفانى للخدمة الداخلية . وأطلق عليه فى وضعه الوظيى الجايىد «أندرون تشرىفانجى» (١) . وانعكس هذا الوضع الوظيى المتدهور على كبار الحصيان البيض إذ سحبت منهم اختصاصاتهم الواسعة ، واقتصرت مهام الخزينة دار باشى والكلارجى باشى على التفتيش وعلى تزويد عنابر نومهم بالطعام ، ولكن ظل السراى أغاسى - أى أغا القصر - وهو من كبار الحصيان البيض يشرف على القصر فى أثناء غياب السلطان والضباط الذين كانوا يرافقونه . وكان هناك تشرىفى لإحدى ضواحي إستانبول يسمى «جالاطة سراى» تحت إشراف خصى أبيض ، ولكن ما بدأ القرن الثامن عشر حتى كان الحصيان البيض قد نقص عددهم نقصاناً كبيراً وفقدوا مركزهم المتميز السابق إلى الأبد . وقا . ذكر المؤرخ الفرنسى درسو D'Ohsson أن عدد الحصيان البيض قد هبط فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى ثمانين خصىاً ، بينما تجاوز عدد الحصيان السود مائتى خصىاً (٢) .

محاولة إلغاء نظام الحصيان :

وقد تغلغل الحصيان فى العديد من وظائف القصور السلطانية وتميزت خدمتهم فى معظم الأوقات بالأمانة والإخلاص والكفاية والطاعة العمياء ، ولكن يؤخذ عليهم أنهم أعطوا لأنفسهم ثقلاً أكثر من اللازم وسيطر عليهم الغرور . وقد أدرك بعض كبار رجال الدواة خطورة استفحال نفوذ الحصيان فى القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة . كانت القصور السلطانية مليئة بالزوجات والجوارى . وكان إشراف الحصيان على شئونهن والقيام على حراسهن والاتصال بهن اتصالاً مباشراً ودائماً قد أدى إلى نقل شطر كبير

(١) أندرون كلمة فارسية أدخلت فى اللغة التركية ، ومعناها داخل أو فى الداخل .

D'Ohsson; op. cit., Vol 7., p. 57.

(٢)

من السلطة العليا إلى الخصيان ، إذ كانوا يتقلون رغبات هؤلاء السيدات إلى المختصين في الباب العالي وغيره من الدوائر العليا في الحكومة ، فأصبح الخصيان مركز قوة رهيب في الدولة . وقد جرت محاولة في عام ١٧١٦ لإلغاء استخدام الخصيان البيض والسود على السواء في القصور السلطانية . وكانت هذه المحاولة على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) . وأرسلت إستانبول تعليمات إلى الباشا العثماني في القاهرة لوقف عمليات نخصاء العبيد والكف عن إرسالهم إلى السلطان . وكان صاحب الفكرة في إلغاء هذا النظام أحد الصنوبر العظام - وهو جور ليل داماد على باشا . ولكن ما لبثت أن عادت الأمور بعد وفاته إلى أوضاعها السابقة .

محاولة للحد من نفوذ الخصيان :

وجرت محاولة في أثناء حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) للحد من نفوذ الخصيان على الأوقاف خارج القصور السلطانية ، فألغى راغب باشا الصدر الأعظم تنظير رؤساء الخصيان على الأوقاف ، ووقف موقفاً حازماً منهم ، وجعل الإشراف على جميع إيرادات الأوقاف من اختصاص الدفتردار وهو رئيس الشؤون المالية في الدولة - وقد نجم عن حركة التطهير التي قام بها راغب باشا أن زادت حصيلة الأوقاف زيادة كبيرة . وانكمش نفوذ الخصيان ورؤسائهم . ولكن أخفقت هذه المحاولة ، لأن حركة الإصلاح لم تعم سوى سنوات قليلة العدد ، وعاد نشاط الخصيان خارج القصور إلى وضعه السابق . ونجح القيزلر أغاسي - رئيس الخصيان السود - في حمل الحكومة العثمانية على أن تعوضه هو وزملاءه الذين كانوا يعملون معه كمساعدين له في نظارة الأوقاف عن الخسائر التي لحقت بهم طوال الفترة التي حرموا فيها من دخلهم من الأوقاف . ودفعت هذه التعويضات من الزيادة التي طرأت على إيرادات الأوقاف .

وإزداد الموقف تدهوراً لأن رئيس الخصيان السود سعى جاهداً لدعم وترسيخ نظام الخصيان ، وأصبح يمارس نفوذاً كبيراً على السلاطين أنفسهم

بصورة غير مسبوقه بمثال ، وغدا من أكبر مراكز القوى في الدولة .

تصاعد نفوذ الخصيان :

التحمت مصالح الحريم السلطاني مع مصالح الخصيان ورؤسائهم التحاماً وثيقاً . كانت نساء الحريم يصدرون إلى الخصيان حيناً ، وإلى رؤسائهم أحياناً ، رغباتهن التي كانت تأخذ شكل أوامرفينقاها رئيس الخصيان إلى الصدر الأعظم أو الوزراء أو غيرهم من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . فتأخذ هذه الأوامر طريقها إلى التنفيذ الفوري . وكانت هذه الرغبات أو الأوامر ذات طابع شخصي أحياناً ، وأحياناً أخرى ذات طابع عام تتصل بالأوضاع الوظيفية لكبار رجال الحكومة أو السياسة العليا للدولة . فضلاً عن ذلك كان الخصيان يسهمون في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في داخل القصر . وكان لإسهامهم فيها يتم تحقيقاً لرغبة الحريم السلطاني . فكان الخصيان بطائفتهم - السود والبيض - هم اليد اليمنى لسيدات الفئة الأولى من الحريم السالطاني . وكانت هؤلاء السيدات يغدقن من وقت لآخر المنح والعطايا في شتى صورها وأنواعها على الخصيان ، فيزداد الواحد منهم تفانياً في خدمتهن . وكلما شعر أنه موثد منهن أدى مهمته لدى كبار رجال الدولة في حزم وقوة بل وفي صرامة ، لأنه كان يشعر أنه يتكلم من مركز قوة ، وهو نفسه مركز قوة . ومن هنا تفاقم نفوذ الحريم السلطاني والخصيان تفاقماً خطيراً في دوائر الحكومة بحيث غدت هاتان الفئتان من أخطر مراكز القوى في الدولة .

والواقع أن ولاء الخصيان للحريم السالطاني كان أعمق من ولائهم للدولة بدافع المصاحبة الذاتية المشتركة في النطاق الضيق . وكانوا يستمدون نفوذهم كمرکز قوة في الدولة من اتصالحهم الدائم والوثيق بأولئك السيدات . ولذلك كان نفوذهم يزداد زيادة طردية مع نفوذ الحريم السلطاني ، بمعنى أن نفوذ كل من الحريم والخصيان كان يتصاعد معاً بحيث أصبحت هاتان القوتان تشكلان مركزين متساندين متحالفيين من أكبر مراكز القوى في الدولة ، بل لعلها كانا يكملان بعضهما بعضاً .

وإذا كان الخصيان قد عموا لتحقيق رغبات سيدات الحرم السلطاني وتنفيذ رغباتهن ، فلأنهم لم ينسوا أنفسهم . وعملوا أيضاً من أجل تأمين مصالحهم الشخصية . وحسبهم أنه حيل بينهم وبين إنجاب ذرية تكون عوناً لهم في شيخونتهم الواهنة . ولم تكن لهم حرية رفض أو قبول لإجراء عمليات الخصاء لهم ، إذ كانوا قد فقدوا حريتهم وكرامتهم بل وأدميتهم . ووجدوا في وضعهم الجديد ، وهم في نهاية المطاف أنهم على قار من الأهمية ، وأن الطريق أمامهم متشعب ، وأن السبيل إلى المجد ذى البريق المارحج الموثقت سيسر ، فلأن عدداً من الوظائف القيادية التي كان الخصيان يتدرجوا في الترقية إليها كان يشغل بالأقدمية المطلقة ، وكان عدد آخر من هذه الوظائف يشغل نتيجة الحظرة التي يذافر بها الخصيان من لدن الحرم السلطاني ، فضلاً عن أن عدداً من الأغوات الخصيان كانوا يتعرضون للعزل إذا غضبت سيدات الحرم السلطاني عليهم . لذلك كانوا يتفانون في خدمة هؤلاء السيدات بوجه خاص ابتداء من القادين الرابعة فصاعداً حتى السلطنة الوالدة . وكانوا أداة طيعة لينة في أيديهن . وعلى الرغم من حذرهم وطاعتهم ، كانوا يتعرضون في بعض الأحيان لدسائس الحرم السلطاني ، وما كان أكثرها في السراى الجديد حيث كان الجو موبوءاً في أجنحة الحرم . ويفاجأ كبير الأغوات الخصيان وبعض مساعديه بالعزل . ولذلك كان الخصيان بعامة وكبارهم بخاصة يعملون حساباً لمواجهة مثل هذا اليوم العصيب ، وقد جردوا من المنصب والجاه والنفوذ وأغلقت في وجوههم الأبواب بعد أن كانت تعزو لهم جباه الجميع ، وأصبحوا بن عشية وضحاها نسياً منسياً .

وهدى تفكير الخصيان إلى تكوين ثروات خاصة بهم جمعوها إما عن طريق المدخرات المالية الشخصية والهدايا التي يحصلون عليها من سيدات الحرم السلطاني أو من كبار الشخصيات التي كانوا يتقربون بها إليهم ، وقد عملوا على مضاعفة هذه المدخرات إما من التنظر على الأوقاف الخيرية أو الأهلية . وإما عن طريق الكسب غير المشروع . وكانت الفرص أمامهم متاحة ومتعاقبة ، لأن شغل المناصب الكبرى في الدولة أو منح الألقاب كان يتم بطريق الوفاة

والنفوذ، وبعبارة أخرى لمن يدفع فيها أعلى ثمن . وكان الثراء يظهر عليهم بعد عزلهم من مناصبهم ونفيهم إلى مصر حيث يقتنون العقارات المبنية أو الأرض الزراعية يحصلون على دخلها طوال حياتهم ، وينصون على تحويلها إلى أوقاف خيرية بعد مماتهم .

وكانت نهاية الخصيان والحريم السلطاني متقاربة إن لم تكن متشابهة . فإذا جاز السلطان إلى ربه انتقلت سائر سيدات الفئمة الأولى من الحريم السلطاني من السراى الجديد إلى السراى القديم وعشن على ذكرى مجد ولى . وقضين بقية أيامهن مغمورات أو على هامش الحياة . وقد يسعى أحد الوصوليين من كبار رجال الدولة ليتزوج إحدى القادينات السابقات وبخاصة اللاتي لم ينجبن من السلطان المتوفى ذكوراً أو إنثاءً . ويستهدف مثل هذا الوصولي أن يصيب من مثل هذه الزيجة مغنا .

وكان يحدث نفس المصير تقريباً بالنسبة للخصيان ، لأن ارتقاء سلطان جديد العرش كان يقترن عادة بحركة تغييرات أو تنقلات بين شاغلي المناصب القيادية بين الخصيان . فقد يكون لمثل هذا السلطان الجديد نساء ، أو يسارع ليجعل له نساء ويصبحن على قمة الحريم السلطاني ، ويقع اختيارهن على خصيان آخرين يتوسمن فيهم الأمانة والإخلاص ويحبون نجم الخصيان السابقين .

والحق أن نمو نفوذ الخصيان ، وتسلسل هذا النفوذ إلى أجهزة الدولة على أعلى المستويات ، ونجاح هذه الفئة من العبيد في أن تجعل من أفرادها مركز قوة خطير ، كل أولئك يعد نقطة سوداء في تاريخ دولة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية .



الفصل الثالث والعشرون

تقييم مراكز القوى في الدولة

عهد مليء بالمتناقضات :

في تاريخ الدولة العثمانية وفي الشطر الأول من عصرها الثاني ظاهرتان تبدوان للبعض أنهما ظاهرتان غريبتان ومتناقضتان تناقضاً صارخاً مع المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة في تلك الفترة ، ويقف حيالهما بعض المؤرخين والباحثين حيارى في تفسيرهما . وتتمثل الظاهرة الأولى في أن الدولة حققت انتصارات عسكرية هامة في جهات جديدة أو في جهات قديمة على عهود مراكز القوى حين كان على رأس الدولة سلاطين ينتمون إلى العصر الثاني عرف بعضهم باسم السلاطين « التنايلة » *fainéants* وعرف البعض الآخر باسم السلاطين الذين لا يراهم أحد *Invisibles* لأنهم احتجبوا عن الشعب والجيش والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، وآثروا حياة المتع وسط نسايتهم وجواربهم . ثم كان هناك السلطان المعتوه إبراهيم الأول . وقد رزئت الدولة بهم وتعاقبوا على عرشها إما تعاقباً مباشراً ، وإما على فترات متقاربة كأن يفصل بينهم سلطان واحد قد ير قوى الشكيمة لا يلبث أن ينجو بريق حكمه بوفاته ، ثم يتعاقب على العرش سلاطين ضعاف يسرفون إسرافاً بعيداً في المملذات ويبددون أوقيتهم وجهودهم في حياة اللهو والمجون مما أتاح مناخاً صحياً لمراكز القوى فاستسرى نفوذها وطغيانها وجبروتها ، سواء الفيالق الإنكشارية أو الحرير السلطاني أو الخصيان ورؤساء الخصيان . وإذا كانت الدولة على عهد مراكز القوى قد دسبت بكوارت عسكرية حيناً وهزائم حربية. أحياناً في بعض الجهات إلا أنها أحرزت انتصارات عسكرية وسياسية هامة جداً في ذات الوقت . ونذكر على سبيل المثال ما حدث على عهد السلطان سليم الثاني الذي اشتهر

في تاريخ الدولة باسم السكير ، وبارتكابه الموبقات ، وبالتصاقه بصحبة
السوء ، فقد تم إبان حكمه إرسال الحملة العسكرية بقيادة سنان باشا عام
١٥٦٩ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-
١٥٧١) . أما حملة اليمن فكانت دعماً للإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر
وغلق هذا البحر في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي الاستعماري للبحار
الشرقية والأقاليم التي تطل عليها ، لأن اليمن بحكم موقعها في جنوب غربى
الجزيرة العربية وإشرافها على باب المندب تعد منطقة دفاع هامة عن حدود
الدولة العثمانية من ناحية الجنوب بحيث تستطيع بالسيطرة على اليمن أن تطمئن
إلى سلامة الأراضى المقدسة الإسلامية في الحجاز من الغزو البرتغالى(١). وكان
استيلاء الدولة على قبرص نجاحاً عسكرياً رائعاً إذ انتزعت من جمهورية
البندقية هذه الجزيرة التي كانت تتخذها قاعدة عسكرية صليبية تهدد
المواصلات العثمانية البحرية في الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت

(١) انظر كلامن :

دكتور السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، من مطبوعات معهد
البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، الفصل الخامس بعنوان : الفتح العثماني الثاني لليمن
١٥٦٩-١٥٧١ ، صص ٢٣٥-٢٨٦

دكتور فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ .
الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة
العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه ، مرجع سبق ذكره ويلاحظ أن العثمانيين
أخرجوا من اليمن عام ١٦٣٥ ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر ليقوموا بحكمهم
فيها قرابة نصف قرن تحولت فيها اليمن إلى « مقبرة لأبناء الأناضول » حتى تم جلاؤهم عنها عقب
الحرب العالمية الأولى . وكانت طبيعة بلاد اليمن عقبة أمام القوات العثمانية ، لأن بلاد اليمن لا تصلح
لحرب نظامية ، كما أن أهل اليمن كانوا يتمسكون بأن يكون حكامهم من ينتمون إلى مذهب
دينى معين هو الإمامية الزيدية . يضاف إلى هذين السببين بعد اليمن عن إستانبول ومشقة نقل
القوات إليها إذ لم تكن قد شقت بعد قناة السويس . وكان أهل اليمن يطلقون على الحكام العثمانيين
« ولاة العجم » ومع ذلك فقد أسدى العثمانيون خدمات جليلة لليمن .

انظر عرضاً لهذه الخدمات في :

دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٤٨)
من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، صص ٢٨-٣٠

(٤٣) - (الدولة العثمانية)

العمليات الحربية في اليمن وقبرص تأكيداً عملياً للمخصيصتين الرئيسيتين للدولة ، وهما الطابع العسكري والطابع الديني في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي والتسلط البندقي . ولم يشترك السلطان سليم الثاني في هذه العمليات الحربية ، ولكن أسهم فيها إسهاماً فعلياً رجال أفذاذ تركهم السلطان سليمان المشرع لابنه سليم الثاني (١) .

وحققت الدولة نصراً عسكرياً آخر حين انتزعت تونس في شهر أغسطس - آب - عام ١٥٧٤ من حكم إسبانيا . وكانت أوروبا ترى أن استيلاء الإسبان على تونس من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس - شارلوكان - ومن مفاخر حكمه . ولكن أطاحت الدولة العثمانية بهذه المفخرة وأعدت تونس إلى حظيرة العالم الإسلامي العثماني وحفظت لهذه النيابة (٢) إسلامها وعروبها . وقد تم هذا الانتصار بفضل سنان باشا

(١) نذكر منهم في الجهة اليمنية : سنان باشا قائد الحملة ، عثمان باشا ، ورموف باشا ، ومختار باشا ، وحسن باشا .
وفي الجهة القبرصية :

مصطفى باشا قائد القوات البرية ، وبيال Piale باشا قائد الأسطول ، ودرهيش باشا والى حلب ، وإسكندر باشا والى الأناضول ، وبهرام باشا والى قرمان .

(٢) دخلت ثلاثة أقاليم في شمال إفريقيا تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر ، وهي حسب ترتيب تأسيسها : الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس . وقد أطلق الأستاذ محمد شفيق شربال على هذه الأقاليم الثلاثة اسماً علمياً هو النيابات . فقال في فصل عنوانه « الأوضاع الراحنة في دول المغرب العربي ما نصه » وأرى أن أسميها « نيابات » نقلاً عن المصطلح المصري السورى في أيام السلطنة المملوكية ، حينما كانوا يطلقون على دمشق أو حلب أو ما مائل اسم النيابة ، وحاكمها نائب السلطنة » . كما أطلق الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى على هذه الأقاليم الثلاثة « الأوجاقات » نسبة إلى أوجاق السلطان أو أوجاق الإنكشارية .

أما حكام أوروبا ومؤرعوها فقد أطلقوا عليها **Les Régences Barbaresques** وهي تسمية تنطوي على غيب وتلاعب بالألفاظ ، لأنها تعنى أحد مدلولين ، أولهما : النيابات المتبريرة أو المحمية ، وثانيها نيابات البربر ، وهم القبائل التي تقطن شمال إفريقيا بعيداً عن الساحل . وباستقراء النصوص الفرنسية أو الإنجليزية التي يرد فيها ذكر هذه العبارة يتضح أن مدلول النيابات المتبريرة المحمية هو المقصود . وما يؤيد رأينا أن المؤرخ الفرنسي **Douin** نشر مجموعة من الوثائق الخاصة بشمال إفريقيا . وجاء في الوثيقة رقم ٣٧ هذه العبارة **Les Etats Barbaresques** أي الدول المتبريرة المحمية .

قبل أن يقضى سليم الثاني السكير نجبه في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - من ذات السنة لأثر نوبة قلبية أصابته نتيجة إسرافه في المسائل الجنسية وإفراطه في تناول الخمر (١).

ونجحت الدولة أيضاً نجاحاً عسكرياً باهراً على عهد السلطان محمد الرابع حين تم لها في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ احتلال جزيرة كريت على الرغم من المساعدات التي قدمها لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) لجمهورية البندقية . ولكن كان أحمد باشا كوربيلي الصدر الأعظم قد انتقل إلى جزيرة كريت ليكون على رأس

= وما هو جدير بالذكر أن اهتمام حكومات أوروبا في القرن التاسع عشر كان منصباً على الأجزاء الساحلية من أقاليم شمالي إفريقية حيث كان سكانها المغاربة والعرب والأتراك العثمانيون يباشرون عمليات الجهاد الديني البحري ضد السفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية في حوض البحر المتوسط ومصادرة حمولاتها وأسر ركابها . وكانت السفن الإسلامية المسلحة ويطلق عليها « مراكب الجهاد » تخرج من موافئ شمالي إفريقية للدفاع عن السفن الإسلامية ولم تكن تخرج للقرصنة . ومع الأسف الشديد حذا بعض المؤرخين والباحثين العرب حلو المؤرخين الأوروبيين وأطلقوا على مسلمي شمالي إفريقية صفة القرصنة . والحق أنهم قاموا بدور واثق في الدفاع عن الإسلام والعروبة أو السيادة العثمانية ، وفي الكفاح ضد استعمار أوروبي كانت تزايد أخطاره يوماً بعد يوم . وقد تولى تصحيح هذه القرية أو الخطأ المتعدد الشائع بمض الأتاتلة ، فذكر منهم على سبيل المثال الأستاذين الدكتورين جلال يحيى وصلاح العقاد .

انظر المراجع التالية حسب ترتيب ورودها في هذه الحاشية :

محمد شفيق غربال : منهاج مفصل الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ .

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر . ثلاثة أجزاء . مطبعة جامعة

القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٨٥٥-٨٥٦

Douin George; Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger. Le Caite, 1930, p. XLIV et P. 108

دكتور جلال يحيى ؛ المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ص ٢٦-٣٧

دكتور جلال يحيى ؛ المغرب الكبير . ، المصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق

ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٢٠-٢١

دكتور صلاح العقاد ؛ المغرب العربي ، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى . مرجع سبق

ذكره ، ص ٢٨

(١) بروكلمان كارل ؛ الأتراك العثمانيون الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٢٧

القوات العثمانية ويستكمل فتحها بعد حرب استطالت خمساً وعشرين سنة (١).

وبين هذين الانتصارين الكبيرين وهما فتح جزيرة قبرص وفتح جزيرة كريت (١٥٧١-١٦٦٩) تعرضت الدولة لهزائم عسكرية أليمة وفرضت عليها معاهدات جائرة، نذكر منها على سبيل المثال أنها فقدت أجزاءً من أملاكها مثل البغدان وشطراً من ترنسلفانيا . وواجهت الدولة قوات جرارة من الألمان والإيطاليين والمجريين . وتصاعدت الحرب بين الدولة والنمسا التي نجحت في فرض معاهدة توروك (٢) في الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٠٦ ، وبعد زهاء نصف قرن أرسلت الدولة قوات كثيفة العدد عام ١٦٦١ إلى ترنسلفانيا والمجر . ولكن استطاعت النمسا إبادتها . ولم تمر سنتان على هذه الكارثة حتى قاد أحمد باشا كوبريلى الصدر الأعظم عام ١٦٦٣ حملة قوامها ١٢٢,٠٠٠ جندي وانتصر على النمسا إنتصاراً كان له دوى فى أنحاء أوروبا ، وأعاد إلى الأذهان انتصارات السلطان سليمان المشرع فى العصر الذهبى للدولة . واحتل العثمانيون فى ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٦٣ قلعة نوهزل Neuhaeusel وتعد من أمنع القلاع فى أوروبا واستحصت على كثير من كبار العسكريين من قبل . ونجحت الدولة فى عقد معاهدة فاسفار (٣) فى العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٦٤ مع النمسا . وكانت أحكام هذه المعاهدة فى مجموعها فى صالح الدولة العثمانية أكثر منها فى صالح النمسا . وبالتالي فإن الدولة بعد معركة سان جوتار Saint Gothard (أول أغسطس

(١) دكتور زينب عصمت راشد . كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ ،

وأنظر أيضاً :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، الطبعة الأولى صص ٨٠١-٨١٠

(٢) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم سيتفاتوروك Sitvatorok وقد آثرنا أن نطلق عليها فى

هذه الدراسة الاسم المختصر ، وهو ، توروك Torok كما أطلق عليها غيرنا من قبل هذا الاسم المختصر .

(٣) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم إيزنبرج Eisenberg

آب - ١٦٦٤) لم تكن في مركز الدولة المهزومة التي تملى عليها شروط مهينة . ولا نريد أن تمضى في عرض مزيد من الأمثلة لهزائم وانتصارات الدولة العثمانية في تلك الفترة لأنها ألصق بالتاريخ الحربى للدولة . وقد سبق لنا في أحد كتبنا السابقة أن عرضنا لصور من هزائم وانتصارات الدولة (١) .

والأمر العجيب أن الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة في تلك الفترة قد كشفت عن حقيقة هامة ، هي أن الدولة كانت لاتزال تزخر بطاقات حيوية تتدفق في أوصالها . ففي أثناء حكم السلطان سليم الثانى السكير أصيبت الدولة بكارثة عسكرية ودينية حين تحطم أسطولها في معركة لپانت Lépante في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٥٧١ ، وهي المعركة البحرية التي أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم الحرب الصليبية المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وتكبدت الدولة خسائر فادحة فيها . وعلى الرغم من أن الدوج لويجي مويسنجو Luigi Mocenigo (١٥٧٠-١٥٧٧) رئيس جمهورية البندقية قد نخرج هو وحلفاؤه متصرين من هذه الصليبية الأوروبية ، فقد رأى أنه لا فائدة ترجى من استمرار حالة الحرب بين جمهورية البندقية وبين الدولة العثمانية . واستقر رأياً على أن إعادة العلاقات السياسية مع الدولة خير وأبقى (٢) . وبذلت الحكومة الفرنسية مساعيها الحميدة *ses bons offices* في هذا الصدد . وكان نائب البندقية في إستانبول ، واسمه أنطونيو باربارو Antonio Barbaro لا يزال مقيماً بالعاصمة العثمانية في أعقاب المعركة الصليبية . وطلب مقابلة محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم ليسبر غوره ويقف منه على اتجاهات السياسة العليا للدولة تجاه البندقية بعد معركة لپانت . وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة

الأولى ص ٧٥٠-٨١٠

وأنظر أيضاً :

Reddaway W.F.; A History of Europe etc.; op.cit., pp. 236-245.

(٢) كانت في جمهورية البندقية عدة هيئات تشترك في الحكم ، منها : المجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ ، والمجمع ، ومجلس العشرة وغيرها . وكانت هذه الهيئات تحد من نفوذ الدوج حتى قيل إنه كان يملك ، ولكن لم يكن يحكم .

« إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا ، وترى أين هي . ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا . إن إستيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قننا بكسره وبتره . وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا . وإن اللحية لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين نبتت بهما في الوجه لأول مرة » (١) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفورى الجاد . كان بيالى باشا القبودان من بين قتلى معركة لپانت ، فعهد محمد صوقلو باشا إلى القبطان باشا الجديد ، واسمه العليج على ، ومعناه السيف على ، ببناء أسطول جديد في الشتاء الذي أعقب هذه الهزيمة (١٥٧١-١٥٧٢) . وانصرف إلى تنفيذ هذا الأمر . ولقى العليج على كل معارضة من الصدر الأعظم في إعادة إنشاء السلاح البحرى الجديد لحوض البحر المتوسط وزودته الدولة بكافة الأسلحة والذخائر . وإنصافاً للسلطان سليم الثانى نذكر أنه على الرغم من سمعته السيئة أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثمانى . فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطانى لتبنى فيه أحواض سفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة . ويعلق كرىزى Creasy على تصرف سليم الثانى في هذا الصدد بقوله إن ذلك التصرف كان الومضة الوحيدة في حياة هذا السلطان والتي من أجلها يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان (٢) . واستطاع الأسطول الجديد منذ شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٧٢ أن يماود جولانته في البحر المتوسط وأن يتحرش بالدول الأوروبية وبالكيانات السياسية المسيحية التي وقفت موقفاً عدائياً من الدولة في صليبية لپانت . وأخذت الوحدات البحرية العثمانية الجديدة تجوب المياه الإقليمية لسواحل إيطاليا دون أن تجرؤ إحدى الدول أو رؤساء القراصنة الإبتارية على التعرض لها . واستغلت الدولة العثمانية إعادة التوازن الدولى البحرى لمصلحتها في حوض البحر المتوسط ، واستطاعت أن تملى معاهدة جائرة على جمهورية البندقية في السابع من شهر مايو - آيار -

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع ألع ، مرجع سبق ذكره ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٧٧٩

Creasy, E.S.; History of the Ottoman Turks, from the (٢)

beginning of their Empire to the present time London, 1877, p. 233.

عام ١٥٧٣ (١) . وتساءل الرأي العام الأوروبي عن الدولة التي انتصرت في صليبية لپانت ، وهل هي جمهورية البندقية والبابوية وحليفاتها ؟ أو الدولة العثمانية ؟ ويقول لافاليه ، وهو من المؤرخين الفرنسيين الذين لا يكونون متديراً للدولة العثمانية ، إن انتصار المسيحية في هذه المعركة كان انتصاراً عقيماً ، بل كان كسر اب بقية يحسبه الظلمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (٢) .

نصت هذه المعاهدة على أن تدفع البندقية على مدى ثلاثة أعوام ثلاثمائة ألف بندق كجزء من نفقات الحرب التي تكبدتها الدولة العثمانية من أجل استيلائها على جزيرة قبرص ، كما نصت على زيادة الجزية التي تؤدبها البندقية من خمسمائة بندق إلى ألف وخمسمائة بندق من أجل احتفاظها بجزيرة زانتة Zante ، وتقع على مقربة من شواطئ بلاد المورة ، وجاء في مواد المعاهدة أيضاً أن تنازل البندقية للدولة العثمانية عن جزيرة قبرص وجزيرة سوپوتو Sopoto

كانت هناك ظاهرة أخرى واكبت ظاهرة الانتصارات العسكرية لبان الفترة التي استشرى فيها نفوذ وجبروت وطغيان مراكز القوى في الدولة . ونعني بهذه الظاهرة استمرار حركة إقامة المساجد الكبرى التي ازدهرت في العصر الذهبي للدولة ، وأصبحت المساجد من أبرز عناصر الحضارة العثمانية ومن أعظم ما يميز الفن المعماري العثماني بهاء وروعة وجلالا ورفرة عديدة (٣) . فلما ولى العصر الذهبي لم يفتر أو يتوقف بناء المساجد الكبرى . ولنا عدة ملاحظات في هذا الصدد نذكر من بينها :

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : اوروبا في مطلع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ الطبعة الأولى ، ص ٧٨٠

Lavallée, op. cit., t. II, p. 161.

(٢)

(٣) نذكر على سبيل المثال أن سنان باشا المهندس المعماري قد شيد بأمر السلطان سليمان المشرع لبان حكمه الطويل واحداً وثمانين جامعاً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً . وكانت هذه المساجد من أهم الآثار العمرانية للسلطان سليمان . وكان في مقدمتها جامع الكبير في إستانبول . ومن قبل أنشأ السلطان محمد الفاتح مسجداً في إستانبول هو الجامع المحمدي ، كما أنشأ السلطان أبوزيد الثاني مسجده أيضاً في الفترة من ١٤٩٧-١٥٠٣

أنظر بروكلمان كارل ، الأتراك العثمانيون ، وحصارهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٧١-٧٢

أولاً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية الذين عرفوا بالمجون وإدمان الخمور تولوا إنشاء مساجد شامخة بلغت الروعة في الجمال والزخرفة والشموخ . نذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الثاني . فقد أقام في مدينة أدرنة مسجداً كان أعظم مبنى فيها . وقد قام ببنائه سنان باشا كبير المهندسين المعماريين في الفترة من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٤ ، وأطلق عليه مسجد السليمية نسبة إلى السلطان سليم الثاني . ويقول سنان باشا إن بناء هذا الجامع يعد من أعظم أعماله ، وهو يقوم على أعلى بقعة في أدرنة ، وله قبة ضخمة ، وأربع مآذن رفيعة كالعمد ، لكل منها ثلاث طبقات وثلاث من الدرج . وللمسجد فناء رحيب . وقد بلغ هذا المسجد من فخامة البناء والروعة والزخرفة ما جعله المسجد الرئيسي للسلاطين في أدرنة على الرغم أن في أدرنة أربعين مسجداً كبيراً وصغيراً (١) .

وأمر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ببناء المسجد الفخم الذي يحمل اسمه . واستغرق بناؤه الفترة من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٦ وهو يقع في آت ميداني - ميدان الخليل - في إستانبول .

أما السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) الذي كان عميل إلى حياة المجون والتهاك والعبث وسط الحزيم السلطاني فقد أمر ببناء مسجد لوالدته في أسكدار (٢) . وقد تم بناء هذا الجامع عام ١٧٠٨ ويسمى بكى والده جامعي .

ثانياً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية أدخلوا تحسينات على المسجد الرئيسي في العاصمة .

كان السلطان محمد الفاتح قد حول كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية إلى مسجد عقب فتح هذه المدينة . وقد أضاف السلطان سليم الثاني وخلفاؤه ثلاث مآذن بجانب المآذنة الأولى التي كان السلطان محمد الفاتح قد أقامها .

(١) Mordtmann J.H.; Encycl. of Islam. Art. Adrianople.

(٢) وترد هذه الكلمة في بعض المراجع مكتوبة على هذا النحو : أسكودار وهو أقدم وأكبر حى في إستانبول في جزئها الواقع على الجانب الآسوى من البوسفور . ويطلق عليه أيضاً اسم سكوتارى Scutari

وأقام سليم الثاني فوق القبة الرئيسية هلالاً من البرونز بلغ قطره ثلاثين متراً .
وأضاف السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) نقوشاً ضخمة كتب بعضها
بحروف بلغ طولها تسعة أمتار . وكانت تنتظم اسم الله سبحانه وتعالى ، واسم
الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأسماء الخلفاء الراشدين .

ثالثاً : مساجد أنشأتها سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني .

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني
اللائي كن يشكن. مركز قوة في الدولة قد تنافسن في إنشاء مساجد زلني إلى
الله . وقد تركزت هذه المساجد في ضاحية واحدة من ضواحي إستانبول ،
هي ضاحية « أسكودار » أو « سكوتاري » . وقد بنيت قبلها مساجد أخرى
فيها لا تدخل في نطاق هذه الدراسة . ونذكر من تلك التي شيدت في عصر
مراكز القوى .

إسكى والده جامعي . وقد سبق أن أشرنا إليه .

جامع جنيلي . وقد فرغ من إقامته عام ١٦٤٠ في نهاية حكم السلطان
مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول .

رابعاً : إعداد كسوة الكعبة الشريفة في إستانبول :

يجمع مستشرقان ، هما : إيوار ، ومانتران ، على أن السلطان أحمد الأول على
الرغم من عيوبه الكثيرة مثل القسوة والتقلب وسهولة التأثر عليه والتنكر
لمن أسدوا خدمات جليلة للدولة ، كان يخمره الورع والتقوى فكان يجمع
بين المتناقضات . أقام عدة منشآت دينية وخيرية . وكان أول من أمر بأن
تعد في إستانبول كسوة للكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة (١)
وأن ترسل سنوياً مع قافلة الحج الشامي (٢) . وكانت هذه القافلة تعد للقافلة

Huart C.I., Encycl. of Islam. Art. Ahmed I.

(١)

Mantran R., Loc.cit.

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع قافلة الحج الرومي أي التركي أو العثماني لأنها أصبحت

تبدأ رحلتها من إستانبول .

الأولى في الدولة وتضم المحمل الشريف وحجاج بلاد الشام وحجيج الأناضول والروم إلى^١ (١) . ويلاحظ أن إعداد الكسوة الشريفة في إستانبول وإرسالها لم يمنح الحكومة المصرية من الاستمرار في إعداد الكسوة أيضاً وإرسالها مع قافلة الحج المصرى إلى مكة المكرمة . وكان وصول القافلتين الشامية والمصرية بالمحمليين يعد حادثاً عظيماً عند أهل مكة . وكانوا يحتفلون بمقدمها . وتنصب القافلتان نيامهما في أماكن معينة خارج مكة المكرمة .

وتفسير هاتين الظاهرتين لا يحتاج إلى عناء فكرى كبير . ولا يمكن القول إن مراكز القوى قد أسدت إلى الدولة خدمات جليلة ، بل كان العكس هو الصحيح . ولا يمكن القول أيضاً إن مراكز القوى كانت تتميز بالحصافة السياسية أو المقدررة الإدارية أو الكفاية الحربية أو التعمق في الثقافة الدينية الإسلامية العليا . ولكن الصحيح أن الدولة العثمانية كان قد مضى على إنشائها من عهد عثمان الأول حتى عزل السلطان أحمد الثالث أكثر من أربعة قرون (١٢٩٩-١٧٣٠) فلم تكن دولة ناشئة ، وإلا كان حكم سلطان واحد من السلاطين « التنابلة » كفيلاً بالإطاحة بها . يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن الدولة كانت دولة عسكرية بكل ما يحمل هذا الوصف من معان . وكانت العسكرية الصارمة هي الخصيصة الأولى من خصائص الدولة . وكان لها قوات عسكرية مسلحة ضاربة رهية كثيفة العدد متعددة الأسلحة ، مثل سلاح البيادة - المشاه - وسلاح الخيالة - الفرسان ، وسلاح الطوبجية - المدفعية - بكافة أفرعها . وكانت لها قوات بحرية بصفتها إحدى دول البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . ويلاحظ أيضاً أن الصعوبة التي صادفها رجال الإصلاح في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التالى هي تحويلها من دولة عسكرية إلى دولة مدنية . وفي ظل الدولة العسكرية كان العسكريون -

(٣) كانت قافلة الحج الشامي أو الرومى تسلك الطريق التجارى القديم من إستانبول إلى دمشق وتخترق ما وراء الأردن ، وهى موآب القديمة مارة بعمان ، فدائن صالح ، فالمدينة المنورة ، ثم مكة المكرمة . وأقامت الحكومة العثمانية معازل في المحطات يجد فيها الحجاج طعاماً مهيباً وشراباً . وكانت الرحلة من إستانبول إلى مكة المكرمة تستغرق زهاء خمسة وأربعين يوماً .

وهم أهل الثقة بالتعبير المعاصر - يتقلدون المناصب المدنية فضلاً عن الوظائف العسكرية . ولم تجد الدولة رصيماً بشرياً من أصحاب الكفايات المدنية - وهم أهل الخبرة - لتملأ بهم المناصب المدنية فيما عدا علماء الشريعة من أعضاء الهيئة الدينية الحاكمة . وأخيراً كان هناك سببان آخران لم يجعلا لمراكز القوى الأثر السريع في انهيار الدولة . فقد كانت هذه الدولة لا تزال تسير بقوة الدفع التي أودعها فيها سلاطين عصرها الذهبي في الفترة الأولى من تاريخها . وأخيراً كانت الدولة العثمانية من كبرى دول العالم بحيث لم يكن اضمحلالها أو سقوطها أمراً ميسراً يقع بين عشية وضحاها . وقد كان اضمحلالها حصيلة عوامل داخلية وخارجية عديدة ومتباينة في أصولها ووسائلها وأهدافها ، وظلت تنخر في عظام الدولة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً . وكانت مراكز القوى من بين هذه العوامل المبكرة ، ومن بين النذر الأولى لاضمحلال الدولة . ومع ذلك فقد ظلت هذه الدولة قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، لأنها كانت دولة شامخة البنيان قوية الدعائم وطيدة الأركان . عاصرت الزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحلها من هذه القارة ومن شمالي إفريقيا وسائر القواعد العسكرية التي تحتلها في حوض البحر المتوسط كمقدمة للقضاء عليها وإزالتها من خريطة العالم السياسية . وكذلك واجهت تكتلات عسكرية صليبية نظمتها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وشدت عليها حروباً متصلة بحيث كانت الدولة تخرج من حرب لتخوض حرباً أخرى في جهة أخرى . ولاتسكاد الحرب الثانية تضع أوزارها حتى تواجه الدولة ثورة عارمة في ولاية أو أكثر من ولاية مسيحية في أوروبا تروم الاستقلال بتحريض وتشجيع ومساعدة بعض الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى .

وأخيراً فإن الدولة العثمانية كانت دولة الإسلام الكبرى . وكانت فتوحاتها الحربية وسط شعوب مسيحية تم باسم الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا كان إذا دخل مسيحي أوروبي في الدين الإسلامي قال عنه زملاؤه إنه غدا عثمانياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً . فالدولة العثمانية كانت الرمز الحي

المجسد للإسلام . وكان للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة مركزها المرموق بين الهيئات الحاكمة في الدولة ونفوذ متشعب في أجهزة الدولة بحيث لم يكن من السهل أن ينكمش نشاطها الديني .

* * *

والمعنى الذى نستخلصه مما سبق أنه من بين الخصائص العديدة التى تميزت بها الدولة ظلت الخصيصتان الأوليان الرئيسيتان ، وهما العسكرية والدينية ، بارزتين في نشاط الدولة . ولم تتأثرا من وجود مراكز قوى فيها تأثراً خطيراً أو كبيراً ، بل ظلت الدولة محتفظة بهما ، ولهما مكان الصدارة مما يعد من دلائل أصالة هذه الدولة ، وأنها كانت ذات رصيد زاهر من مجد مؤثّل عاشت عليه في أحلك الفترات التى سيطرت فيها على مصائرها مراكز قوى لم تكن تروم غير تحقيق مغام شخصيّة لها .

ولا يعد هذا التقييم دفاعاً عن مراكز القوى الثلاثة أو تقليلاً من الأضرار التى لحقت بالدولة من جرائها . فما لاجدال فيه أن الفوضى ضربت أطناها في أجهزة الحكومة وساد الاضطراب في الديلة ، كان السلاطين لا يحكمون ، وكان الصدور العظام لا يحكمون ، وانتقلت السلطة في الدولة إلى أيدي طوائف غير مسئولة : جوار حسان اشترت غالبيتهم بالمال الوفير ، وعبيد خصيان بيض وسود وأغواتهم ، فضلاً عن أخلاط شتى من العسكريين خرجوا على قواعد الإنضباط العسكرية . ولم يفكروا في المصالح العليا للدولة ، واقتصر تفكيرهم ونشاطهم على تحقيق مصالح شخصية وعاجلة لهم مثل زيادة مرتباتهم وإجراء ترقية سريعة لهم ومنحهم المزيد من البدلات والامتيازات . ولكن كان العسكريون لا يقنعون ولا يشبعون . وفكر بعضهم في الاستيلاء على النضبات الموجودة في القصر السلطاني معتمدين على كثرتهم العددية وأسلحتهم ودربتهم على اقتحام المواقع ، وكان بعض العسكريين يثرون على بعض التصرفات التى تصدر عن السلاطين ولا تروقهم . ومن الأمثلة الصارخة التى تساق في هذا الصدد أن الإنكشارية لجأوا إبان حكم السلطان مصطفى الثانى (١٦٩٥ - ١٧٠٣) إلى سلاحهم التقليدى ، وهو اعلان العصيان العسكرى ، بحجة أن السلطان أطال إقامته في مدينة أدرنة بدلا

من إستانبول . وقد أسفرت حركة التمرد عن خلع السلطان مصطفى الثاني .
ومنذ ذلك الحين تجنب السلاطين زيارة مدينة أدرنة إلا للمأمأ ثم هجروها
تدريجاً خلال القرن الثامن عشر .

* * *

وقد صحب نشوء مراكز القوى الثلاثة ونموها واستفحال خطرهما ظهور
عناصر جانبية أخرى تطلعت إلى أن تكون موتلاً للنفوذ أو بعض النفوذ ،
وأطلت برأسها على مجالات مراكز القوى ، وتراحت وتنافست على أن
تكون مقاليد الأمور في يدها على نحو من الأنحاء . وكان من بين هذه العناصر
الجانبية فرق السباهية أو السباهي ، وكبار أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية
الحاكمة بعد أن زجوا بأنفسهم في هذا المعترك ، ووقفت طوائف الحرف
Trade Guilds (١) تراقب عن كثب تصارع هذه القوى لعلها تصيب منه
مغنياً . وكان ولاء أعضاء طوائف الحرف للسلطان يغلب عليه الطابع الديني ،
بينما كان ولاؤهم لطوائفهم ذا طابع مادي واقتصادي واجتماعي .

وعلى تعدد مراكز القوى في الدولة وتباين نفوذها علواً و هبوطاً ،
كان لسيدات الفئمة الأولى من الحریم السلطاني وغيرهن من الجوارى الحسان
النفوذ الأول والأعلى بين جميع مراكز القوى في الدولة نظراً لاتصالهن
الوثيق والدائم بالسلطان من ناحية ، وتسلمتهن على الصدور العظام من ناحية
أخرى . وقد كن أساس جميع المساويء أو معظم المساويء التي تعرضت لها
الدولة في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي رأى المؤرخ
الإنجليزي الأستاذ جرانث أن سيدات الحریم السلطاني جعلن ظهور سلطان

(١) كان لأصحاب الحرف في الدولة بعامة وفي المدن الكبرى بخاصة منظمات أو هيئات
تسمى طوائف الحرف . وكان لكل طائفة رئيسها ونقيها ونظما الخاصة بها . وكانت الحكومة
تتصل بأفراد كل حرفة عن طريق رئيس الطائفة الذي يطلق عليه شيخ الطائفة . وكان يجمع
الضرائب والإتاوات المقررة عليهم ويوردها لخزانة الحكومة كما يبلثهم أوامرهم . وتمتعت
هذه الطوائف بشبه استقلال ذاتي في إدارة شئونها . وكان أعضاء كل طائفة يدينون بولاء مميقي
جدا لطوائفهم إلى حد كان يفوق ولائهم للسلطان . ولما كانت طوائف الحرف تقوم في المدن فقد
كان يقابلها في الريف مجالس القرى ، أو القبيلة في حالة البدو الرحل .

قوى الشكيمة أشبه بمعجزة (١). وهو رأى صائب يصدر عن مؤرخ عملاق .
والحق أن الأمثلة الصارخة العديدة التي سقناها في هذه الدراسة عن تساط
الحريم على السلاطين تؤيد ذلك الرأي وتصور حقيقة الأوضاع في
الدولة .

وكان التوسع في استخدام الحصيان البيض والسود في خدمة وحراسة
الحريم السلطاني دليلاً على ارتياح سلاطين الدولة لنظام الحصيان واطمئنانهم
لهؤلاء الحصيان من الناحية الخلقية على الأقل . وقد أدى هذا التوسع في
استخدامهم إلى تغلغلهم في شتى دوائر الحريم حتى أصبحوا ظاهرة اجتماعية
بارزة في حياة القصور السلطانية ، ومثالا يتداعى إلى الأذهان بكل جوانبه
وصوره ومعانيه بل ومآسيه إذا ذكر اسم دولة في الشرق أخذت بهذا النظام .
أما النفوذ الكبير الذي نجح الحصيان في استقطابه نحوهم فكان نتاج عدة
عوامل ، منها : أنهم كانوا الرجال أو أشباه الرجال الوحيدون الذين كانوا
يقيمون أو يعيشون في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية ،
ولم يجدوا منافسين لهم في هذا الصدد ، وأنهم كانوا على اتصال دائم ووثيق
بسيدات الحريم نتيجة قيامهم بحراستهن وخدمتهن ، وأنهم كانوا موضع
الثقة التامة للحريم وأداة الاتصال الوحيد بين الحريم وكبار رجال الدولة في
خارج القصور . فإذا كانت نهاية المطاف بالحصيان أنهم أصبحوا مركزاً
من مراكز القوى فإن هذه النهاية كانت أولاً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته
الدولة لهم في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية بالإقامة
الدائمة في تلك المناطق المغلقة لتجعل منهم مراكز نفوذ وقوة دون قصد منها .
وثانياً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته لهم سيدات الحريم السلطاني بجعلهم اليد
اليمنى لمن وأداة الاتصال بينهم وبين رجال الدولة على أعلى المستويات .
وكان ثالثاً نتيجة استغلال الحصيان للوضعين السابقين في أذكاء وفطنة وهدوء
وتفان في الخدمة وأدب جرم مما أضفى عليهم النفوذ والجاه . لقد كان الحريم

Grant A.J.; A History of Europe (1494—1610); op. cit., (١)

السلطاني والخصيان مركزين هامين من مراكز القوى يكمل بعضهما بعضا .
ولذلك كان يقرن ذكر الحریم السلطاني بذكر الخصيان سواء في أذهان
المؤرخين والباحثين أو في كتاباتهم .

حكومة الحریم والخصيان :

وقد وصف بعض المؤرخين والباحثين الحكومة العثمانية خلال تلك
الفترة بأنها « حكومة السيدات (الحریم) والخصيان » *Gouvernement des Femmes et des Eunuques* (١) وقد يرى البعض في هذا الوصف
نوعاً من المبالغة أو الرغبة في التشهير بالدولة العثمانية . ولكن التزامنا
بمبدأ الحيادة المطلقة في هذه الدراسة وفي غيرها من الدراسات يفرض
علينا أن نذكر أن هذا الوصف يصور جانباً كبيراً من الحقيقة .
ويفرض علينا مبدأ الحيادة أيضاً أن نشير إلى أنه - كان هناك جانبان
يتصلان بهذه الحقيقة . الجانب الأول أن ظاهرة تفاقم نفوذ الحریم
السلطاني والخصيان وروؤسائهم قد تفتت في العصر العثماني الثاني أو ما يسمى
عصر سلاطين الفترة الثانية ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت على وجه
التحديد في أواخر حكم السلطان سليمان المشرع آخر سلاطين الفترة الأولى
أو ما يسمى سلاطين العصر الذهبي . وكانت بداية هذه الظاهرة عند ما شرعت
روكسلان تضع الخيوط الأولى لمؤامرتها التي استهدفت منها قتل الأمير
مصطفى ولي العهد وتعيين ابنها الأمير سليم مكانه ، أما سلاطين الفترة الثانية
فلم تكن لدى معظمهم قوة الخلق أو الشخصية التي تجعلهم يقفون في وجه
الجميلات الفاتنات من سيدات الحریم السلطاني ويمنعون تدخلهن في شؤون
الدولة ، كما أن هؤلاء السلاطين لم يتصدوا للإطاحة بنفوذ العبيد الخصيان

Lavisse et Rambaud; op. cit., vol. v, p 882.

(١)

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، مرجع سبق ذكره ، ص ص

٦٢-٥٩

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥

وبخاصة الخصيان السود الذين أصبحوا يباشرون حتى القرن الثامن عشر نفوذاً على السلاطين لم تعرف له الدولة من قبل مثيلاً :

ويعرض المؤرخ الفرنسي رامبو في العبارات التالية الخطوط الرئيسية لنشأة مراكز القوى في الدولة وتطورها منذ الصراع الذي خاضته روكسلانه ذات الوجه الباسم من أجل ابنها وتعيينه ولياً للعهد :

«Déjà, au temps de Soliman le Grand, il y avait eu conflit entre le harem et le grand-vizirat, et Roxelane avait obtenu la mort d'Ibrahim. déjà, de son temps, le harem avait commencé à se subordonner le Divan: Roustem n'était devenu grand-vizir que parce qu'il était le gendre de Roxelane et son docile instrument. D'autres catastrophes achevèrent d'assouplir les grands-vizirs de la décadence Pour se maintenir en place, ils laissent le harem piller et ruiner l'empire. Le Sultan ne gouvernant plus, le grand-vizir étant empêché de gouverner, c'est en dernière analyse, aux mains nègres eunuques et d'esclaves achetées qu'est remis le pouvoir absolu. Le sabre de Bayézid l'Eclair et de Mohammed le Conquérant n'est plus qu'un hochet. Le gouvernement est tombé en de telles mains que l'on comprend que d'autres prétendent y avoir leur part : l'odjak des janissaires, l'odjak des spahis, le corps des oulémas, bientôt les corps de métiers. L'anarchie militaire ou clericale est-elle pire, après tout, que cette anarchie du harem ? Que de fois les soldats mutinés allèguent des griefs légitimes ! que de fois aussi les oulémas ont eu un sens juste des nécessités de l'empire ! La domination du harem est le pire mal dont souffre celui-ci : il s'attaque au nerf même de la monarchie, aux sources de sa force, en détruisant ses finances, ses armées, l'honneur de ses tribunaux et de son Eglise^(١), la patience et la fidélité de ses sujets» ^(٢).

(١) المقصود بكلمة Eglise في هذا الموطن السلطة الدينية ، أي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في الدولة العثمانية .

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. v, p. 883.

(٢)

ولم يستمر طويلاً عهد مراكز القوى في الدولة . فقد انتهى نهائياً المركز الأول من هذه المراكز وهو الفيالق الإنكشارية حين نجح السلطان محمود الثاني في إبادة هذه الفئة العسكرية الباغية في « الواقعة الخيرية » سنة ١٨٢٦ . أما الحریم السلطانی فقد توارى نفوذ سيداته رويداً رويداً . وعمل السلاطين على أن تأخذ هؤلاء السيدات حجمهن الطبيعي ، وأن يجردوهن من النفوذ ويمنعهن من التدخل في شئون الدولة . أما الأغوات الخصيان فقد قلت الدولة من أعدادهم ، وعملت في ذات الوقت على أن تستبدل بمعظمهم سيدات يشتغلن في خدمة الحریم . وحالت بين الخصيان المتبقين وبين التسلسل إلى أجهزة الدولة . أما ظاهرة خلع السلاطين فقد استمرت حتى القرن العشرين وسقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الظاهرة أشد عنفاً مما كانت عليه على عهد مراكز القوى . فن بين السلاطين الستة الأواخر الذين جلسوا على عرش الدولة تم عزل خمسة منهم (١) . ولم يكن عزلهم نتيجة تسلط مراكز القوى التي كانت قد توارت ، وإنما كان عزلهم يتم نتيجة معارضة داخلية أو ضغوط خارجية تمثلت في هيئات وجمعيات من أخلاط شتى مارست نشاطها في أقاليم بعيدة عن عاصمة الدولة أو في بعض دول أوروبية ليتسنى لأعضائها حرية التخطيط والحركة وجمع الأنصار والعملاء .

* * *

(١) كان هؤلاء السلاطين الذين عزلوا

عبدالمعز بن محمود (١٨٧٦)

مراد الخامس بن عبدالمعز (١٨٧٦)

عبدالحميد الثاني بن عبدالمعز (١٩٠٩)

محمد السادس بن عبدالمعز (١٩٢٢)

أما عبدالمعز بن عبدالمعز فقد عين سنة ١٩٢٢ بصفته خليفة ، ولم يعين بصفته سلطاناً . ومع ذلك فقد تم عزله وترحيله مع أفراد أسرته في ظروف ناسبة سنة ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة .

فهارس
الاعلام والأماكن والموضوعات
توجد في نهاية الجزء الثانى

تم بعون الله طبع الجزء الاول
في مطبعة جامعة القاهرة
المراقب العام
البرنس حموده حسين

رقم الايداع ٥١٠٨ سنة ١٩٧٨
الترقيم الدولى ٨ - ٢٧٢ - ٢٦٦

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,

Head of the Department of History,

Faculty of Humanities,

Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

1980

Publisher : Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy
Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

1980